الجزء الاول

من الكتاب الاول من الوافي

في

المسالة الشرقية

والحرب الاخيرة بين الروس والعثمانيين

سنة ١٨٧٧ ـ ١٢٩٤

لامين بن ابرهيم شميل

بسم الله الحي القيوم

نبذ تمهيدية

نبذة اولى

في بواعث الحرب

على نحو ٨٥٠ ك م من القسطنطينية عند ساحل بحر الادرياتيك توجد معاملة في الهرسك (هرزكوين) في شمالي الجبل الاسود اكثر اهليها من الروم الارثوذكسيين وقد كانت قديمًا قسمًا من الخرواط وبعد ان تداولتها ايدي الفاتحين اضيفت الى البشناق (بوسنيا) التي كانت تابعة مملكة هنكاريا . ثم استولى عليها قهرًا آل عثمان (عام ١٣٨٩) ولبثت دائمًا شاقة عصا الطاعة تدافع عن حريتها الى ان ضمت بموجب عهدة كارلوويتز (سنة ١٦٩٩) الى تركيا كما ضمت هنكاريا الى اوستريا . واذ كان ذلك على رغم منها كان يرجى والحالة هذه ممن فوّضت اليهم الحكومة المركزية ادارة امرها ان يكونوا قد اهتموا باستمالة قلوب الاهلين واصلاح ذات بينهم واقصاء اهل الشقاق على نحو ما تقتضيه السياسة الصادقة ولكنهم اهملوا ذلك . ولبثت الحال على هذا المنوال الى ان سنحت الفرصة فنبذت الطاعة ظهريًا وجاهرت بالعدوان (في اول تموز عام ١٨٧٥) وآل الامر بعد اضطراب وارتباك الى ايقاظ المسئلة الشرقية غب ان هجعت نحو عشرين سنة فحفق لها قلوب العالم خوفًا وماجت الممالك جزعًا . وبعد ان ثارت الحروب الاهلية واخذ الانتقام كل ماخذ وجرى من الامور المنكرة ما سوّد صحف التاريخ كما سنبينه منصلاً انتهى الامر الى ايقاد هذه الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية التي نحن في صددها

ولما كان غرضنا في هذا المؤلف البحث ايضًا عما يدعوه اهل السياسة المسئلة الشرقية وكانت المسئلة الشرقية عبارة عن عناصر متنازعة نشات في احضان الدين والدنيا وربيت تحت اكناف السياسة مدة اجيال كان لا بد للحصول على الفائدة المرغوبة من النظر في تواريخ الاعصار الخالية ولذلك اردنا قبل الشروع في قيد الحوادث الحربية ان نستقرئ من تاريخ الامتين وغيرها ما يفي بالمقصود

نبذة ثانية

في منشا آل عثمان

على تلك الربى الواسعة من الكرة المعروفة بنجاد التتارية الكبرى بين تخوم الصين وجبال تبت الى بحر الخزر تنبسط مروج ذات اراض جميلة رحبة ومراع خضراء نضرة لم ينشا فيها من بدء العالم المعروف غير بشر وانعام . ولا وطئت قط اجمل منها قدم انسان . فكان الطبيعة قد خصتها بالخصب والكثرة لتكون مذخرًا انسيًّا عظيمًا محفوظًا لامور مهمة . فاعدّت له في درّ انعامها الغزير شرابًا . وفي سمنها ولحمها السمين غذاء . على سراة خيلها الجياد تحمله . وفوق اقتاب ابلها النشاط ترفع مضاربه . وبصوف الضان وشعر الماعز تكسوهُ وتدفئه . في رياض اوريف نديّ ليس للاشجار فيه حظ فتقي بظلها وحشًا موذيًا . هنالك تربة عميقة لاصرّار فيها كانها اغوار بحر ذات صلصال جيد ارتفعت وانحسر عنها الماء بفعل الخوارق الطبيعية . فلا ينبت فيها غير الكلاء مرتويًا من مستحلبات تلك الجبال العليا . ومحفوظًا من زمهرير شتائها الطويل ببسط من الثلج النقي . حيث تسخنه في زمن الربيع شمس لايجللها سحاب . ويقيهِ نكاية الحر نسيم لطيف رطب . هنالك وجد الربيع له وطنًا منيعًا لا ينازعه فيهِ شجر او ثمر ولا تقلمهُ منجل حصاد او تدوسهُ وحوش كاسرة ورُزقت السائمة خير مرعى وارحب ضيافة . هناك الحيوان يكتنز ويكتسي وينمو ويدرّ حيًّا لسيدهِ فاذا ما انقضى ترك له جلدهُ لاحتياجاتهِ الاهلية هذه هي العيشة الرعيانية الطيبة حيث يكفي الانسان قوت حاصل الطبيعة فلا يهتم بزرع وحصاد يعتاض عن بيوت الحجر ببيوت الشعر وعن الاراضي المحرزة بارض الله الواسعة الفلا حرًّا يستتبع ماشيته اين شاء وشاءت . يستنجع مناطق الروض مغيرًا وجه السماء بحسب الفصول . رافعًا مضاربه علي اكتاف الظعن وشادًّا على ثيرانهِ مركبات ترفع بيوتًا متنقلة لعيالهِ تلك عيشة عبثت بالهم فلم تستدعِ من الضرورات الا يسيرها

وملاهي تلك الشعوب ليست الا التصابي والتلذذ . واتجاه القلب احيانًا الى الخشوع في تلك الليالي الزاهيات . ومسامرة الكواكب ورعايتها . ومجاذبة اطراف الاناشيد . ونظم القريض على طيب الحيوة البدوية وقصص العشيرة ومفاخرها ونوادرها وقلما ساقت الحاجة وضرورات الرزق الى تجافي السلام طلبًا لسعة العيش والسلطة الابوية هي السلطة الوحيدة الموقرة عندهم ينقادون اليها عن طيب خاطر جيلاً بعد جيل . فاذا صارت العشيرة فصيلة والفصيلة فخذًا والفخذ بطنًا والبطن عمارة والعمارة قبيلة او سبطًا انتخبوا لهم اباء سياسيين يدعون عندهم خانات وهم كالمشايخ عند العرب . فاذا نموا الى قبائل عديدة انضموا الى شعب او امةوجرت حينئذٍ السلطة الابوية المتعلقة برؤساء الاسباط بموجب

العوائد الاهلية وبرايي الخانات · ومتى غزوا او احتلوا ارضًا فتحوها اخذوا في تغيير عوائدهم فتنوس وتتشذ الممالك وتقدس الدول وتعتبر كانها الهة او ظل الله على الارض

هولاء هم التتار اهالي التتارية الكبرى التي خرج منها بالتوالي وبطرق مختلفة اربعة وعشرون شعبًا تركيًا هم في الولادة تتار · وفي العوائد عرب · وفي الديانة امم · وفي العيشة رعاة · وفي القلوب ابطال

ولنغض الان عمن حل منهم بالتركستان وحدود بحر الخزر والصين واودية الارمن ونحوها ونقتف اثر اولئك الذين بعد ان اختاروا الاسلام دينًا اجتازوا سورية واسيا الصغرى واسسوا المملكة العثمانية

نبذة ثالثة

في الاوغز او الغز الذين منهم آل عثمان واراء المورخين

ولما كان لكل امة اخبار متوارثة وتواريخ خاصة اردنا ان نذكر شيئًا من ذلك قبل الشروع في ما صار عليهِ الاعتماد

جاء في الاخبار المتواترة ان اوغزخان بن قراخان من ذرية ترك جد الاتراك كلهم كان ملكًا عظيم الشان في عهد ابرهيم الخليل وكان يتولى امر التركستان وهي ما يسميها الفرس توران · وذكرت التواريخ القديمة ان المملكة انقسمت بعد اوغزخان الى خانيات · منها ثلث وتدعى (الاسهم الثلثة) كان نصيبها الاوغز الشرقي الى حدود الصين · ثم ثلث اخر تسمى (الحاطمة) احداها خانية الجبال وهي منشا الغز المتاخرين والتركمان · والثانية خانية البحر ومنها الترك السلاجقة سلاطين خراسان وقونية · والثالثة خانية السماء او القبة الزرقاء · ولعل المراد بذلك ما بين الجبال والبحر · ومنها سبط كايي الذي نشا عنهُ آل عثمان · وقد وفى الاوغز المذكورون حقوق الحرب مع العرب والعجم وفتحوا بخارى وسمرقند · ووسع بوغراخان هرون نطاق مملكتهِ الى تخوم الصين · وفي الجيل الخامس للهجرة شبّت نيران الحروب الاهلية ففرقت لفيفهم المقرون وصيرت ذاك الشمل الجميع شتيتًا ومزق قلب المملكة كل ممزّق فانقرضت وقام على اثارها الامراء السلجوقيون

وفي التواريخ المتاخرة ان في الربع الاول من الجيل السابع للهجرة (وقيل في الربع الثاني منهُ) في الجيل الثالث عشر للنصرانية عام ٦٢١ هجرية ايام قدم جنكيزخان سلطان المغل على خراسان نهض سليمان شاه بن كاي الب من سبط كايي المقدم ذكره وكان يقيم وقتئذٍ بماهان من البلاد المذكورة وهاجر في طليعة خمسين الفًا من قومهِ الى اردنجان وخلاط من بلاد الارمن وان بعد ذلك بسبع سنين طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وفتحوهما فقفل سليمان شاه بقومهِ

الى موطنهِ . و بينما كان يجتاز الفرات عند جعبرمات غرقًا فاقام لهُ رجالهُ هناك مزارًا لا يزال الى يومنا هذا ويدعى ترك مزاري . وقد خلف اربعة بنين وهم سنقور زنكي وكونطغدي وارطغريل (ومعناهُ المستقيم) وكوندز . و بعد دفن سليمان شاه انقسم القوم فمنهم من اختاروا استقراء المسير الى بلادهم ومنهم من فضلوا البقاء بالبلاد الغربية فانضموا الى الامير ارطغريل واخيهِ الامير كوندز وكانوا نحو ٤٠٠ عشيرة فيها ٤٤٤ فارسًا شاكي السلاح . فقصدوا النواحي الغربية حتى وصلوا الى مكان فيهِ جيشان يستعدان للقتال وكان احدهما اقل من الثاني عددًا . فمال ارطغريل بك بقومهِ الى الجانب الضعيف وانخرط في سلكهم . واتفق ان هذا الجيش كان للسلطان علاء الدين السلجوقي من ذرية ملكشاه بن قلج ارسلان والثاني من المغول اعداء الاتراك الالدَّاء فانتصب ميزان الحرب و يسر الله الظفر للسلاجقة بمساعدة ارطغريل بك وقومهِ . ولما انفض القتال استدعى السلطان علاء الدين رئيس اولئك الغرباء و بعد ان استقصى عن حقيقة امرهم خلع عليهِ وعلى اخيهِ واهلها وقومها بمراعي تومانية وارمينية وقيل بجبال قراجاطاغ عند انغره . وقام ارطغريل بمساعدة السلطان علاء الدين في اكثر حروبهِ ضد المغول والروم . فاقطعهُ اخيرًا معاملة في حدود مملكتهِ ومملكة الروم تدعى سلطانية او صرايجق من اعمال فريجيه . وفي اواخر الجيل السابع للهجرة توفي ارطغريل بك ودفن في متخنى كروم عند مدينة درولية الشهيرة في حروب الصليب على قرب من قرية (اتبورنو) حيث كان يقطن الشيخ اده بالي ابو ملخاتون الجميلة التي سياتي ذكرها ودرولية هذه هي التي يذكرها ابو تمام في قصيدتهِ التي مطلعها « ما عهدنا كذا بكاء المشوق » بقولهِ

ثم القى على درولية البرك م محلاً باليمن والتوفيقِ

وقال بعضهم ولم يعين السنة ان سليمان شاه احد امراء السلاجقة ترك تركستان بخمسين الفًا من قومهِ ومن الغزسكان جهات نهر جيحون فرارًا من المغول الذين كانوا قد استولوا على الممالك العربية وبعد ان تجاوز ارض مادي ووصل الى حدود سورية توفي فذهب قسم من رجالهِ الى الجنوب وتوجه الباقي مع ولدهِ ارطغريل بك الى اسيا الصغرى ونزلوا عند سلطان قونية علاء الدين كيقباذ فرحب بارطغريل واكرمهُ رجاء ان يساعدهُ على المغول اعدائهِ . قال و بعد ان اخذ ارطغريل انقيره جزاء اتعابهِ امام علاء الدين وتملك قوطاهية من الروم (سنة ١٢٨١ – ٦٨٠) توفي (سنة ١٣٠٠ – ٦٩٩) موسسًا ملكًا جديدًا

واعتمد كاسل في تاريخهِ الحرب الاخيرة على ان سليمان شاه امير الغز نهض من خراسان بقومهِ (١٢٤٣) وقصد البلاد الغربية لمساعدة الاتراك الذين هناك على المغل فغرق بقطعهِ الفرات اما بذهابهِ او بايابهِ وان ارطغريل بك ولدهُ بقي في البلاد الغربية الى ان التقى بالعسكرين المذكورين وكان

من امرهِ ما كان

وقال ادوردس فوكوك صاحب الترجمة اللاتينية على تاريخ ابي الفرج الملطي التي قدمها لكارلوس الثاني ملك بريطانية(سنة ١٦٤٨ ـ١٠٥٨) ما معناهُ انهُ لا يوجد ما يعتمد عليهِ في امر سليمان شاه جد آل عثمان قال نقلوا انهُ نحو سنة ٦١١ هجرية ترك سليمان شاه بلاد ماهان من العجم هاربًا من جنكيزخان سلطان التتر الذي كان قد تغلب على اكثر البلاد وذهب بقومهِ قاصدًا دولة السلاجقة الشهيرة وانهُ غرق عند اجتيازهِ الفرات فاثنان من بنيهِ الاربعة وهما سنقور زنكي وكونطغدي ذهبا ببعض القوم جنوبًا والاخران وهما ارطغربل بك وكوندز توجها بالباقي الى عاصمة السلطان علاء الدين صاحب قونية ووجدا نعمة لديهِ واحلهما في قره جيطاغ . قال وبقي ارطغربل بك هناك الى ان توفي (سنة ١٢٨٨ـ ٦٨٧)

وذكر ابن خلدون في آخر كتابهِ الخامس ما ياتي « ولما ملك سليمان بن قطلومش قونية بعد ابيهِ وفتح انطاكية (سنة ٤٧٧)من يد الروم طالبهُ مسلم بن قريش بما كان لهُ على الروم فيها من الجزية فانف من ذلك وحدثت بينهما الفتنة وجمع قريش العرب والتركمان مع اميرهم (جق) وسار الى حرب سليمان بانطاكية فلما التقيا مال التركمان الى سليمان لعصبية الترك وانهزم مسلم بن قريش وقتل واقام اولئك التركمان ببلاد الروم ايام بني قطلومش موطنين بالجبال والسواحل ولما ملك التتر بلاد الروم وابقوا على بني قطلومش ملكهم وولوا ركن الدولة قلج ارسلان بعد ان غلب اخوهُ عز الدين كيكاوس وهرب الى القسطنطينية وكان امراء هولاء التركمان يومئذٍ محمد بك واخاه الياس بك وصهره علي بك وقريبه سونج والظاهر انهم من بني (جق) فانتقضوا على ركن الدولةِ وبعثوا الى هولاكو بطاعتهم ونقر بر الاثر عليهم وان يبعث اليهم باللواء على العادة وان يبعث شحنة من التتر يختص بهم فاسعفهم بذلك وقلدهم وهم من يومئذٍ ملوك بها

ثم ارسل هولاكو الى محمد بك الامير يستدعيهِ فامتنع من المسير اليهِ واعتذر فاوعز هولاكو الى الشحنة الذي ببلاد الروم والى السلطان قلج ارسلان بمحاربتهِ فساروا اليهِ وحاربوهُ ونزع عنهُ صهره علي بك ووفد على هولاكو فقدم مكان محمد صهرهِ ولقي محمد العساكر فانهزم وابعد في المفرّ ثم جاء الى قلج ارسلان مستأمنًا فامنهُ وسار معهُ الى قونية فقتلهُ واستقر صهره علي بك اميرًا على التركمان وفتحت عساكر التتر الى اسطنبول والظاهر ان بني عثمان ملوكهم لهذا العصر اعقاب علي بك او اقاربهُ يشهد بذلك اتصال هذه الامارة فيهم مدة هذه المائة سنة ولما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو (ارتنا) بسيواس واعمالها غلب هولاء التركمان على ما وراء الدروب الى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصا من تلك الناحية وكان يسمى اورخان بن عثمان جق

فاتخذها دارًا لملكهم ولم يفارق الخيام الى القصور وانما ينزل في خيامهِ في بسيطها وضواحيها وولي بعدهُ ابنهُ مراد بك وتوغل في بلاد النصرانية وراء الخليج وافتتح بلادهم الى قريب من خليج البنادقة وجبل جنوه وصار اكثرهم ذمة ورعايا في بلاد الصقالبة بما لم يعهد لمن قبلهُ واحاط بالقسطنطينية من جميع نواحيها حتى اعتقل ملكها من اعقاب لاسكري وطلب منهُ الذمة واعطاه الجزية ولم يزل على جهاد امم النصرانية وراءهُ الى ان قتلهُ الصقالبة في حروبهِ معهم (سنة ٧٩١) وولى بعدهُ ابنهُ ابو يزيد وهو ملكهم بهذا العهد انتهى »

وفي بعض التواريخ ان اصل الدولة العثمانية اشرعن ملوك الروم بالسلالة وملوك الفرس بالكلالة . وقد نقلوا ذلك عن المورخ جرجس فرانزس الرومي المولود بالقسطنطينية من عائلة كريمة بينها وبين ملوك الروم الباليولوغية نسب بالكلالة . وكان هذا المورخ مقلدًا اهم الوظائف السياسية نظرًا الى علمهِ وشهرتهِ . وقد اسرهُ الترك ايام فتحوا القسطنطينية ثم خلوا سبيلهُ . فرحل الى كورفو ودخل الرهبانية وفيها طلب اليهِ بعض خلانهِ ان يولف تاريخًا للدولة الباليولوغية المذكورة من عهد انجلوس كومينوس (عام ١١١٨) الى عهد قسطنطين الحادي عشر المعروف بدراغورس ويذكر فيهِ الحوادث الاخيرة المتعلقة بسقوط القسطنطينية . فاجابهُ الى ذلك وهذا ملخص ما قال في هذا الشان

في (سنة ١١٤٠) كان الامبراطور يوحنا كومينوس ومعهُ ابن اخيهِ اوغسطس اسمقيدس المدعو يوحنا ايضًا يقاتل ملوك ابقونية والعجم (السلاجقة) عند نيوقيسارية وكان قد تغلب على كثير من حصونهم . قال . وبعد ان طالت الاقامة بتلك الاماكن الجرداء الباردة ونفدت الذخائر الا قليلاً ومات اكثر الخيل من قلة العلف . اختار الامبراطور ملافاة تلك المصائب بتوزيع ما تبقى من الخيل على اشد رجالهِ وآلى على نفسهِ الّا يكل امرهُ الى سواهُ . فكان يفتقد الجند ويختار جياد الخيل ويسلمها لفرسان الروم والطليان لانهم كانوا فوق صهواتها امهر من سواهم في ملاعبة الاسنة والسيوف . وبينما كان يومًا يفعل هكذا وبجانبهِ ابن اخيهِ المذكور لاحت منهُ التفاتة فرأى فارسًا جديدًا من الطليان اعجبهُ منظرهُ . فامر ابن اخيهِ بالترجل عن جوادهِ وتسليمهِ للشاب المذكور . فشق الامر على يوحنا وابى . فكرّر عليهِ الامبراطور الامر فترجل وهو يشتعل غيظًا ووجه حرّ وجههِ نحو ملك العجم فتلقاهُ بوجهٍ بشوش واكرمهُ ورفع منزلتهُ . ثم دان يوحنا بدين الاسلام فازوجهُ الملك بكاميرة بنتهِ وانعم عليهِ وعليها بعدة مدن وبلدان وبمبلغ من الذهب . ولقبهُ الشعب بالشلبي حملاً على رقة شمائلهِ وكان مهذبًا بالعلوم اليونانية ومحسنًا التكلم بالعربية غاية الاحسان كريمًا بشوشًا انيسًا لطيفًا كانّ على اخلاقهِ عسلاً . فامالت صفاتهُ هذه اليهِ افئدة الجميع واعلت مكانتهُ واذاعت اسمهُ بين شعوب اسيا كلها . وقد استخرج من اليونانية الى العربية عدة تواريخ لملوك الروم

وعلم الاتراك شرائع اليونان (الاغريق) . وكان يقول دائمًا ان ما املكهُ تحت امر خلاني فكان يقسم عليهم ما عندهُ ويحسن الى من قصدهُ ويشارك اصحابهُ في افراحهم واتراحهم ويوفق بين المتخاصمين ونحو ذلك . فامتلك قلوب الجميع ونفذت كلمتهُ ووفَّرهُ الملك وبطانتهُ واشتهر في تلك الاطراف اشتهار النار على علم . ورزقهُ الله من كاميرة عرسهِ ابنًا سماهُ سليمان فهذبهُ في العلوم واللغتين العربية واليونانية . فترعرع سليمان وشب وقد احبتهُ الرعية واستولى على كل معاملة وبلدة قدم عليها . ولما راى ايقاع الطليان بالمملكة الرومية (الاغريقية) اغتنم الفرصة ايضًا واضاف الى مملكتهِ جميع البلاد المجاورة ووسع نطاقها بالتدريج . وكان يحب النصارى الذين ينقادون لكلمتهِ ويعاملهم بالرفق والاحسان ويوحنا هذا كان جد ارطغريل بك ابي الامير عثمان الاتي ذكرهُ

هذه هي جملة اراء المورخين في اصل الدولة العثمانية ولا ريب ان لكل منهم ملحوظات تاريخية يسند بها رايهُ ولذلك اخترنا ان نستتبع تاريخ تلك الايام القديمة علنا نلتقط من حوادثها ملخصًا معتمدًا لتوزيع هذه الاراء ونطلع على جراثيم المسالة الشرقية التي نحن في صددها واعلم ان تلك المدة كان فيها من الدول التي تستحق الذكر ما ياتي اولاً الدولة العباسية في بغداد وهي الدولة الاسلامية الاولى وفيها كانت الخلافة العربية . ثم الدولة الغورية التي تسلطت على الدولة الغزنية لآل سبكتكين وامتد ملكها في العجم الى السند والهند . ثم الدولة السلجوقية في الروم وهي فرع الدولة السلجوقية في ايران وكرمان والشام . ثم الدولة الخوارزمية التي قامت على اثار سلاجقة ايران . ثم الدولة الايوبية في مصر والشام . ثم دولة الاتابك زنكي اقسنقر في الموصل ونحوها . ثم الافرنج في بعض اماكن سورية وكان بين هولاء وبين غيرهم من الدول المذكورة عداوة في الدين والدنيا . ثم الدولة الفاليولوغية في القسطنطينية ومتعلقاتها . ثم بينًا هذه الدول تتنازع المشرق من الصين الى مرمره ظهر جنكيزخان سلطان التتر ومدَّ فتوحاتهِ بسرعة غريبة وتملك الفرس وبعض الهند والصين وتقدم الى اسيا الصغرى وبحر الخزر والروس وتقوت ذريتهُ وقلبت الدولة العربية وخربت بغداد (سنة ١٢٥٨–٦٥٦) واضعفت او لاشت اكثر الدول المذكورة

ولما كان لكل من هذه الدول دور عظيم في هذه الطراغذية العالمية وقد اضافت كل واحدة اوراقًا عديدة مخضبة بالدماء والدمار الى المسالة الشرقية كان لا بد من تتبع تواريخها باختصار لائق بالمقام مبتدئين من الدولة العباسية

باب وتحته فصول

فصل

في الجاهلية الى الاسلام

يجب قبل الشروع في ذكر الدولة العباسية ان نورد خلاصة اخبار الامة العربية مع المسائل المهمة في تاريخها لاجل تمهيد ما نحن في صدده اذ الدولة العباسية ليست الا حلقة في سلسلة هذه الامة الغريبة التي مع قلة عددها وعدم انتظام قوتها وتباين قبائلها لعبت دورًا اوليًا في دائرة الامم الكبرى وتملكت اكثر المسكونة دينًا ودنيا فنقول

تنقسم العرب الى بائدة . وباقية . فالبائدة كانت امما ضخمة كعاد وثمود وطسم وجديس من جرهم وعماليق وقد غربت عنا حقائق اخبارهم لوجودهم قبل العهد التاريخي وتقادم انقراضهم . قالوا ان شدادًا من قبيلة عاد هو الذي اختط مدينة عرم العظيمة التي تتغزل الشعراء العربيون بذكر محاسنها ونعيم جناتها ويقولون انها لا تزال الى الان محجوبة عن اعين الناس فيما وراء القفار المقفرة

واما العرب الباقية فيقسمها المورخون الى عرب عرباء وعرب مستعربة ـ فالعرباء من قحطان ولعله (يقطان) المذكور في التوراة وكانوا يقطنون جنوبي العربية . اما المستعربة فمن عدنان ولد اسمعيل بن ابرهيم من هاجر وهم سكان الحجاز . فقحطان ولد يعرب ويعرب يشجب ويشجب عبدشمس او عامرًا الملقب بسبا لانه كان يكثر الغزو في اقطار البلاد وهو الذي بنا السد بارض مارب وفجر اليه سبعين نهرًا وساق اليه السيول من امدٍ بعيد وعمل خليجًا تجري فيه المياه الى البحر وبنى مدينة مارب ودعيت مدينة سبا ومن ذلك السد كانت تسقى البساتين والحقول بمجارٍ واقنية مرتبة واصبحت ضواحي مارب كثيرة الخصب ولسبا ابناء كثيرون منهم حمير وكهلان ولهذين فروع عديدة . ويظهر ان بني حمير ملكوا على قوم سبا مدة (٢٠٢٠ سنة) وكانوا يقيمون باليمن وهم الملوك التبابعة . وحمير كان على قول مورخي العرب اول ملك قحطاني لبس التاج وملك خمسين سنة وهو الذي طرد ثمود من اليمن الى الحجاز وقد اختلفوا في خليفته فقال بعضهم ولدهُ وائل وقال البعض اخوه كهلان ولعل كليهما بان ملك الواحد في اليمن والاخر في حضرموت . وهذه الاختلافات بين المورخين الشرقيين كابي الفدى وابن الاثير وابي عيسى وابن سعد المغربي والنويري والطبري والمسعودي ونحوهم كثيرة في كل انساب ملوك العرب

ومن الملوك التابعين لحمير ذو رياش ثم النعمان بن يعفر الملقب بالمعفر لقوله

اذا انت عافرت الامور بقدرة بلغت معالي الاقدمين المقاول

ومنهم شداد بن عاد بن الملطاط بن سبا ولهُ اجتمع الملك وغزا البلاد وبنى المدائن والمصانع وابقى الآثار العظيمة · ومنهم حارث الرايش ويعرف باول فاتح في ملوك اليمن واول من لقب بتبع اي خليفة وصار ذلك ارثًا في بنيهِ · ثمَّ ذو القرنين وولده ذو المنار ابرهة واخوهُ ذو الاذعار · وقبل ان ذا المنار وذا الاذعار فتحا بلادًا في السودان وافريقيا · وبعد ذي الاذعار بملك واحد جاءت بلقيس ملكة سبا التي زارت سليمان بن داود كما جاء في ملوك اول وايام ثانٍ وقيل في ام ملوك الحبش من سليمان

وبعد بلقيس بعدة اجيال حدث امرٌ مهم في تاريخ العرب وهو ان اعمال السدّ المذكور كانت قد تعطلت مع الوقت حتى تلاشت وسقطت ونشا عن ذلك ما يدعوه العرب سيل العرم فغير كثيرًا في هيئة العربية · وامر هذا السيل من الحوادث النادرة المذكورة في تاريخهم ولا يمكن تحديد مدتهِ الاَّ على سبيل التخمين فزعم المعلم دساسي ان حدوث ذلك كان في مبادىء القرن الثالث للنصرانية قالوا ان عمرو بن عامر الملقب بمزيقيا احد امراء البلاد ولعلهُ رئيس بني كهلان اتاه النباء عن الخراب المزمع فباع ما لهُ وهاجر بعددٍ من احياء اليمن الى بلاد (علك) ما بين زبيد وزمع وبعد موتهِ تفرقت تلك القبائل فذهبت قبيلة جفنة بن عمرو الى بلاد الشام واستوطنت هناك الى الجنوب الشرقي ومنها الملوك الغسانية احدهم الحارث ملك دمشق المذكور في عهد بولس الرسول او هو من عرب سليح الذين كانوا قبل غسان ودان غسان بدين النصارى وصاروا تابعين لمملكة الروم الى ان صار ضمها في عهد عمر الفاروق الى ملك الاسلام واقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة وهم فيما يقال خزاعة واما بنو عوص وخزرج من ثعلبة بن عمرو فذهبوا الى يثرب المدعوة المدينة واقام بعض بني ازد في عمان والبعض في الشام – ونزل مالك بن فهم في العراق واسس مملكة الحيرة التي قام عليها بالتتابع خمسة وعشرون ملكًا في مدة خمسمائة وسبع وتسعين سنة الى ان صارت تابعة للفرس ثمَّ ضمت الى ملك الاسلام – واما قبيلة طيء التي تركت اليمن فانها اقامت بنجد ما بين جبلي اجا وسلمى المعروفين بجبلي طي ويوجد من الارتباك في سلسلة ملوك حمير الذين ملكوا بعد سيل العرم ما يوجد في من حكموا قبلهُ

وكان بئر زمزم والحجر الاسود الموجود في بيت مكة المسمى كعبة محترمين بين العرب من قديم الزمان اما بنو جرهم الحدثاء الاتون عن جرهم بن قحطان فانهم قطنوا الحجاز مدة اقامة بني يعرب باليمن وكانوا حراس وسدنة البيت مدة اجيال الى ان اغتنم عمرو بن لحي من قبيلة خزاعة فرصة

الخصام بين الجراهمة والاسماعيلية وطرد بمساعدة مهاجري اليمن من (عك) وقبيلة بكر بني جرهم من مكة واستلم سدانة البيت . وقيل ان السدانة كانت في بني اسماعيل الى ان انتهى الامر الى نابت فصارت السدانة بعدهُ لجرهم وعليهِ قول عامر بن جرهم الحارثي

وكنا ولاة البيت من بعد نابتٍ نطوف بذاك البيت والامر ظاهرُ

الى قوله

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنا اهلها فابادنا صروف الليالي والجدود العواثرُ

ولما رات قبيلة بكر انهُ قد اخرجها من حق السدانة غريب اغتاظت وتحالفت مع رجل يدعى قصيا من قريش فاحتال قصي على ابي عبشان من خزاعة واشترى منهُ المفاتيح بسكرة وزق خمر وعليهِ قوله

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت بزق خمرٍ فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالنذر وانصرفت عن المقام وظل البيتُ والنادي

ولكن قبيلة بكر لم يتم لها المراد فان قصيا سلم المفاتيح لبني قريش ولعل ذلك كان سنة ٤٦٤ ومن قصي هذا جاء هاشم الذي قيل انهُ اغاث اهل بلادهِ في القحط الشهير وقد شاع ذكر ولده عبد المطلب بانتصاره على ابرهة ملك الحبش واليمن المسيحي عند ما ركب بافياله على مكة بقصد تخريب الكعبة قيل انهُ بمعجزة خاصة تلاشت قوى ابرهة وسلمت الكعبة ويدعى تلك السنة سنة الفيل اشارة الى الفيل الذي كان ابرهة يركبهُ وقد ابى التقدم عند ما راى توجه العساكر الى جهة المدينة المقدسة وكان ذلك (سنة ٥٧١) وهي السنة التي ولد فيها محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم نبي الامة العربية

والعرب جميعًا قبل الاسلام يعرفون بعرب الجاهلية وحالتهم مشهورة عند الامم بما لهم من العز والمنعة وكانوا طبقتين اهل مدر واهل وَبر فاهل المدر هم الحواضر وسكان القرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والضرب في الارض للتجارة والماشية واما اهل الوبر فهم قطان الصحارى وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجعين منابت الكلا مرتادين مواقع القطر فيخيمون هناك ما ساعدهم الخصب وامكنهم المرعى ثم يرتحلون في طلب العشب والمياه وكان ذلك دابهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكمشوا الى ارياف العراق واطراف الشام فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بوس العيش

وما جاء في قصة عنترة ونحوها من الشعراء القدماء عن عوائدهم ومعيشتهم لم يزل ... حقيقيًا

لم في حالتهم الحاضرة كما يذكر السياح الحدثاء ولم يغير بساطة تلك العوائد مرور الزمان بل ان الحذق والنباهة والضيافة والفروسة والفصاحة التي كانت لم قديمًا ونظم الاشعار والخطابة الى غير ذلك مما يتعلق بلغتهم الواسعة لاتزال لديهم قصارى افتخارهم · واديان العرب كانت مختلفة منها عبادة الكواكب (فحمير) عبدوا الشمس (وكنانة) القمر (وطي) سهيلاً (وقيس) الشعرى العبور (وميسم) الدبران (واسد) عطارد وكان لاهل سبا عاصمة اليمن هيكل للزهرة وكان بيت مكة كما يقال لزحل وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقدان من نحرت ناقتة على قبره حشد راكبًا ومن لم تنحر حشد ماشيًا وكان لم خلا الكواكب اصنام · فاللات كان لثقيف وكان لها هيكل في نخلة هدم في وقعة تبوك في التاسعة من الهجرة · والعزّى لقريش وكنانة وصورتها صورة شجرة · واساف ونائلة بصورتي رجل وامراة وخمسة اخرى بصورة حيوانات وبشرلقريش ايضًا · ومناة لهذيل وخزاعة ما عدا الالهة الصغار المختصة با لاحيا ثم دخلت عبادة النار بين تميم في خليج العجم · و بعد خراب اورشليم قصد اليهود العربية بكثرة وتشيع لم عدة قبائل لا سيما كنانة وكندة وصار لم سلطة قوية في شبه الجزيرة وفي نحو الجيل الخامس دان ذو نواس ملك اليمن من حمير باليهودية فكان يهوديًا غيورًا يضطهد كل من لا يتهود وكانت النصرانية ايضًا قد انتشرت في العربية ودان بها قبائل حمير وغسان وربيعة وتغلب وتنوخ وطي وقضاعة والحيرة ونجران وانتصر لم ملك الحبش عند ما اضطهدهم ذونواس وركب عليه وفتح اليمن والقى ذا نواس في البحر

والعرب كلهم كانوا يعتقدون بالجن ذكورًا واناثًا وقالوا في البخت واشتغلوا بالتنجيم والسحر وتاويل الاحلام · هذه كانت حال العرب في اوائل القرن السابع

وكانت بعض الجهات الجنوبية في جوار الشام وفلسطين ومصر قد خضعت للروم · والتي في حدود الفرات للفرس وكان الحبش متولين على بعض الجنوب على ان اكثر العربية كانت حرة ومجهولة لدى الاجانب الاّ ان تلك القبائل لم تكن الى ذلك الوقت مع كل شجاعتها قد اتحدت تحت لواء واحد بل كانت اسباطها التائهة منقطعي العلاقات متفرقين في كل ناد يغزون بعضهم بعضًا ولم يهتدىء اجتماعهم كافة ولا انتظمت تلك الامة كحلقة في سلسلة الحوادث التاريخية الاّ بعد انذار ابي القاسم محمد بن عبدالله الهاشمي بالاسلام فان ما كان يتوقد في صدر النبي وخلفائه من الالهام والايمان الوطيد في حقيقة الدين الجديد والجراءة العربية وميل العرب الطبيعي الى القتال وركوب الاخطار ومبادىء القرآن المقررة وجوب نشر الاسلام والجهاد ضد غير المومنين وانحطاط الممالك المجاورة الى غير ذلك هو الذي مدّ في اقل من جيل واحد سلطة العرب وايمانهم ولغتهم من المحيط الاتلنتيكي الى السند ومن البحر الهندي وقفار افريقية الى فرنسا وبحر الروم واسيا الصغرى وبحر الخزر

ومحمد ولد في مكة لعشرٍ خلونَ من شهر تشرين الثاني (سنة ٥٧١) ولما ناهز العشرين من عمره ذهب مع رفقائهِ ضد لصوص العرب الذين كانوا يوقعون بالحجاج القادمين لزيارة البيت و بعد ذلك بخمس سنين ذهب الى دمشق في خدمة احدى الارامل الغنيات المدعوة خديجة التي تزوجها بعدهُ . وفي سنة الاربعين من عمرهِ (عام ٦١٠) في ليلة القدر وهي ليلة الدعوة الالهية كما يعتقد المسلمون راى محمد في نومهِ الملك جبريل يدعوهُ الى الرسالة فقص هذا الحلم على خديجة زوجتهِ وعلى ورقة ابن عمهِ وابي بكر حميهِ فامنوا بكلامهِ وبعد ذلك بثنتي عشرة سنة ثار المكيون ضدهُ وعادت حياتهُ في خطر فهاجرها الى يثرب وصار ١٦ تموز (سنة ٦٢٢) وهي السنة الثانية والخمسون من عمرهِ تاريخًا للهجرة. وفي السنة نفسها حدث خلاف عظيم انتهى الى قتال على الدين الجديد وانجلى بالانتصار على مكة ومعرفة بعض القبائل لهُ مومنين بان لا اله الا الله وبان محمدًا نبيهُ ورسولهُ ثم اعلن محمد لزوم نشر الاسلام في كل مكان وجمع المذاهب المتفرقة الى واحد في العالم كلهِ وتوفي في المدينة ثامن حزيران (سنة ٦٣٢) وعمرهُ ثلث وستون سنة

وكانت المملكة البظنطية قد فتحت حربًا وقتئذٍ على الفرس وكان استبداد حكامها والثورات العديدة والحروب الدائمة لردع اعداء المملكة وفروغ الخزينة من النقود وكثرة المظالم واختلاف الاراء الدينية وما شاكل ذلك قد اضعفت قوتها. وكانت المملكة الفارسية قد سقطت تحت ذلك ولم تكن تعاليم زرادشت القديمة ذات فعلٍ كالعادة فلم يكن تباعهُ يبالون بظهور دين وامةٍ جديدين فهذه الحالة الردية في المملكتين ساعدت على سرعة امتداد الفتوحات العربية وكان من اسلم يحسب من الامة وقد اذن للنصارى واليهود فقط بالبقاء على دينهم بشرط دفع الخراج واما من دان بغير اديان فلم يكن لهُ غير الاسلام او الموت وعادت الامامة الكبرى والامارة العليا متحدتين في شخص واحد يدعى خليفة

فصل
في السياسة الاسلامية الاولى

يراد بالسياسة استصلاح الخلق بارشادهم الى الطريق المنجي ويمكن قسمتها الى ثلثة اقسام . الهية وهي سياسة الخالق لمخلوقاتهِ اجمالاً . ودينية وهي ما استعملها الانبياء والشارعون في سياسة شرائعهم . ودنيوية وهي ما استخدمها الفاتحون والمتسلطون في تدبير فتوحاتهم وممالكهم . فالمسيح قبل الرسول العربي بخمسمائة وسبعين سنة جعل سياسته الرفق وسلحها بالبرهان فارسل حوارية واوصاهم بان لا يقاوموا الشر وبان يحبوا اعداءهم قائلاً « اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها من آمن واعتمد خلص ومن لم يومن يدن » الا انهُ لما كان لا بد من موازرة القوة للسياسة في كل شيء

لم تكن رسالتهُ لتنتهي بسلام وقد تنبا هو نفسهُ عنها اذ قال „ لا تظنوا اني جئت لالقي سلامًا على الارض ما جئت لالقي سلامًا بل سيفًا „

اما محمد فقدجعل سياستهُ الاولى السلام وبعد ان جمع (سنة ٦١٥) للميلاد اربعين نفرًا من اعيان بني قريش وعرض عليهم ما في نفسهِ قائلاً „ ما اعلم انسانًا في العرب جاء قومهُ بافضل مما جئتكم بهِ بخير الدنيا والاخرة وقد امرني الله تعالى ان ادعوكم اليهِ فايكم يوازرني على هذا الامر على ان يكون اخي ووصي وخليفتي „ وبعد ان وعظ وجاهد ولم يحصل على [illegible] - للتزم اخيرًا بالفرار الى يثرب من وجه اعدائهِ قال لاصحابهِ حينئذٍ „ ان كل وسائل الاقناع [illegible] استعملتها وقد فات وقت الصبر فانا مامور ان الاشي الاصنام وانشر شريعة الله ولو بالسيف „ ومن ذلك الوقت جعل سياستهُ مسلحة بالقوة فارسل عبيدة في مطاردة بني قريش وارسل حمزة ضد ابى سفيان وباشر بنفسهِ عدة غزوات كغزوة الابواء· ثم غزوة بواط· ثم العشيرة· ثم بدر الاولى· ثم غزوة بدر العظمى· وغزوة الكدر· وغزوة السويق· وغزوة بني قينقاع· وغزوة حمراء الاسد· وغزوة احد· وغزوة بئر معونة· وغزوة بني النضير· وغزوة ذات الرقاع· وغزوة بدر الموعد· وغزوة دومة الجندل· وغزوة الخندق· وغزوة بني قريظه· وغزوة بني المصطلق· وغزوة الغابة· وغزوة خيبر· وغزوة جيش الامراء· وغزوة حنين· واخيرًا غزوة تبوك في التاسعة من الهجرة وكان قد اخذ مكة وكتب الى هرقل ملك الروم وكسرى ملك العجم والنجاشي ملك الحبشة والمقوقس حاكم مصر كما ياتي

الى قيصر ملك الروم

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى قيصر ملك الروم

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسولهِ ويشهد ان لا اله الاَّ الله وحدهُ لا شريك لهُ لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا وان محمدًا عبدهُ ورسولهُ وادعوك بدعاء الله فاسلم تسلم فاني رسول الله على الناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك بهِ شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا اربابًا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهد بانا مسلمون فان ابيت فعليك اثم الكافرين

والى كسرى ملك العجم بعد البسملة

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسولهِ وشهد ان لا اله الا الله وحدهُ لا شريك لهُ وان محمدًا عبدهُ ورسولهُ ادعوك فاني رسول الله للناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين اسلم تسلم وان توليت فعليك اثم المجوس

والى النجاشي ملك الحبشة بعد البسملة

من محمد رسول الله الى النجاشي الاضخم ملك الحبشة

سلام عليك فاني أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن واشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه واني ادعوك الى الله وحدهُ لا شريك له والموالاة على طاعته وان تتبعني وتومن بي وبالذي جاءني فاني رسول الله وقد بعثت اليكم ابن عمي جعفرًا ومعهُ نفر من المسلمين فاذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر واني ادعوك وجنودك الى الله فلقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى

والى المقوقس عظيم القبط بعد البسملة

من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتبع الهدى اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يوتك الله اجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا اربابًا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون

وبعث سليط بن عمر الى هوذه بن علي صاحب اليمامة وبعث العلاء ابن الحضرمي الى المنذر بن ساوي صاحب البحرين وبعث عمرو بن العاص الى جيفر صاحب عمان وبعث الشجاع بن وهب الى الحارث بن شمرّ الغساني صاحب دمشق وكتب معهُ « السلام على من اتبع الهدى وآمن به ادعوك الى ان تومن بالله وحدهُ لا شريك له يبقى لك ملكك » . فملك العجم تعجب من هذا الخطاب وشق الكتاب وطرد الرسول قائلاً كيف يجترىء عبد ان يخاطب سيده هكذا . والملوك الاخرون منهم من اجاب بالرفق ومنهم من لم يجب . واما العرب فاكثرهم اطاع ومن لم يطع منهم ركب عليهم خالد بن الوليد وطيعهم وكان من نية الرسول ان يركب على الشام فاتته المنية قبل ذلك وكان قد كتب كتابًا يائمن به النصارى الى المسلمين جاعلاً سياسته الرفق وهو

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتابٌ كتبهُ محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين رسولهُ مبشرًا ونذيرًا وموءتمنًا على وديعة الله في خلقه لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا . كتبهُ لاهل ملة النصارى ولمن تحل دين النصرانية من مشارق الارض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها جعل لهم عهدًا فمن نكث العهد الذي فيه وخالفهُ الى غيره وتعدى ما امرهُ كان لعهد الله ناكثًا ولميثاقه ناقضًا وبدينه مستهزئًا وللعنته مستوجبًا سلطانًا كان ام غيرهُ من المسلمين

وان احتمى راهب او سائح في جبل او وادٍ او مغارة او عمران او سهل او رمل او بيعة فانا اكون من ورائهم اذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسي واعواني واهلي ومالي واتباعي لانهم رعيتي واهل ذمتي وانا اعزل عنهم الاذى في المؤن التي يحمل اهل العهد من القيام بالخراج الا ما طابت له نفوسهم وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك . ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة وانا احفظ ذمتهم اينما كانوا من برّ او بحر في المشرق او المغرب والجنوب والشمال وهم في ذمتي وميثاقي واماني من كل مكروه وكذلك من يتفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة ولا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ولا يعاونون عند ادراك الغلة ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية . ولا من اصحاب الخراج وذوي الاموال والعقارات والتجارات مما هو اكثر من اثني عشر درهما بالجملة في كل عام ولا يكلف احدٌ منهم شططاً ولا يجادلون الا بالتي هي احسن ويحفظونهم تحت جناح الرحمة يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا حيثما حلوا

وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها وتمكينها من الصلاة في بيعها ولا يحال بينها وبين هوى دينها ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقهُ ورسولهُ ويعاونوا على مرمة بيعهم ومواضعهم وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يدموا عنهم ولا يخالف هذا العهد ابدًا الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا انتهى (مراسلات افريدون بك)

وكان قد امر الصحابة والمومنين « ان انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله اذ قد زويت لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوي لي منها »

هذه كانت سياسة الرسول التي قررها اخيرًا في نشر شريعته وعليها جرى خلفاؤه من بعده فابو بكر في مبتدا خلافته عند ما اراد بعوث الشام ونحوها كان يوصي كل من عقد له راية من اولئك الامراء بالرفق والمعاملة الجيدة ومن جملة وصاياهُ قولهُ « اوصيكم بعشر فاحفظوها ولا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المراة ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوهُ ولا تقطعوا شجرًا ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا الا للاكل واذا مررتم بقوم فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا انفسهم له . واذا لقيتم اقوامًا فحصوا اواسط رؤوسهم وتركوا حولها فتل العصاب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنهُ »

وجبارة الواقدي « وستمرّون على قوم في الصوامع رهبان يزعمون انهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم وستجدون قومًا اخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا اوساط رؤوسهم حتى كانها افاحيص القطا فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا الى الاسلام او يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون »

وعمر الفاروق لما قام من المدينة الى بيت المقدس مرّ بطريقه على حي من بني مرة فاذا بقومٍ منهم يعذبون في الشمس . فقال لهم عمر ما بال هولاء يعذبون . فقيل عليهم خراج . قال فما يقولون قالوا يقولون ما نجد ما نؤدي . فقال عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فاني سمعت رسول الله (صلعم) يقول « لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة » وعند وصول عمر الى القدس جلس في خيمته وكتب شروط الصلح التي مفادها ان السكان احرار في مالهم ودينهم وان الملك للمسلمين . ثم دخل المدينة وكلم البطريرك صفرونيوس بكل بشاشة ولين جانب وزار القيامة وجلس على الارض ولم يقبل ما قربوا اليه من البسط ثم تنحى الى بعيد وصلى وبعد ان اكمل صلاته قال للبطريرك « لم ارد الصلوة داخلاً لاني لو صليت هناك لاخذ المسلمون يومًا الكنيسة وان تكن الشروط بالخلاف بحجة ان عمر صلى فيها مرة وهذا مخالف لمرادي وانتظارك »

فصل
في حوادث الربع الاول من القرن الاول

سبق ان الرسول دعا اعيان بني قريش وعرض عليهم ما في نيته وطلب الموازرة منهم على ان من يجيبه الى ذلك يكون اخاهُ ووصيه وخليفته ولما لم يلبِّ دعوته وقتئذٍ الاّ علي ابن عمه وهو الذي يقول   سبقتكم الى الاسلام طرًّا   غلامًا ما بلغت اوان حلمي

فكان من المسلَّم به طبعًا ان ينتظر عليٌّ الخلافة الا ان الاختلاف بين الصحابة والانصار والامة انجلى اخيرًا عن اقامة ابي بكر خليفة في السنة الحادية عشرة من الهجرة (سنة ٦٣٢) وبايعته مكة وكبار الامة الاّ بنو هاشم واستبد عليٌّ بالامر في بيته ستة اشهر واشهد على عدم قبوله له وقد قال عتبة بن ابي لهب

ما كنت احسب ان الامر منصرف   عن هاشمٍ ثم منهم عن ابي حسنِ
عن اول الناس ايمانًا وسابقةٍ   واعلم الناس بالقرآن والسننِ
وآخر الناس عهدًا بالنبي ومن   جبريل عونٌ له في الغسل والكفنِ
من فيه ما فيهم لا يمترون به   وليس في القوم ما فيه من الحسنِ

ثم وقع الوفاق وبايع عليٌّ ابا بكر واخذ المسلمون يمتدون في العراق والشام . وكان في اليمامة

ما بين الحجاز وخليج العجم رجل يدعى مسيلمة قد ادعى النبوة ومال اليهِ بنو حنيفة وقد كان عرض مسيلمة على الرسول قسمة الارض بينهما والرسول اجابهُ هزوءًا . فجهز ابو بكر عليهِ اربعين الفًا من العرب وولى امرهم لخالد بن الوليد فحاربهُ وقتلهُ وقتل عشرين الفًا من اتباعهِ وتفرق الباقي . ثم تقدم خالد المدعو سيف الله وهول الكفار الى سواحل الفرات وقلب تخت ملوك الحيرة الذين كانوا من ستة اجيال يحكمون بالتابعية لملوك الفرس وقتل ملكهم واسر والدهُ وارسلهُ الى المدينة والقى عليهم جزية كل سنة سبعين الف دينار ومن هنالك امر بالذهاب الى الشام . وبعد ان القى ابو بكر السلام بين العرب انتدبهم اليهِ فاجتمعوا في جوار المدينة واجمع رايهم على ارسال عسكر لفتح الشام وقلد ابو بكر امرهم الى ابي عبيدة . وكان خالد في طريقهِ قد فتح عدة اماكن وحارب الروم وتملك البصرة ونهض قاصدًا دمشق فالتقى بسبعين الفًا من عساكر الروم ولم يكن بقي معهُ الا عشرون الفًا فالتزم بالرجوع الى اجنادين ثم تقدم امام قومهِ قائلاً « ان الرسول لم يدعني سيف الله عبثًا فمن منكم يخشى ان يحارب اعداء الله والرسول » فتشجع القوم بكلامهِ وصدموا عساكر الروم وبعد قتال شديد انهزم الروم وقيل انهُ قتل منهم يومئذٍ اربعون الفًا وغنم منهم المسلمون اموالاً كثيرة واخذوا اركه وحوران وثنية العقاب ودير خالد وتدمر والسخنة . وتقدمت عساكر خالد الى دمشق والقى عليها الحصار وكانت قد وصلت عساكر الحجاز مع ابي عبيدة . ولما راى الروم عدم امكانهم عقدوا صلحًا مع ابي عبيدة على ان من يريد الاقامة بالشام يدفع الخراج ومن لا يريد يرحل بمالهِ وعيالهِ . واتفق ان في وقت دخول ابي عبيدة بالامان من الجهة الواحدة دخل خالد من جهة اخرى والسيف في يدهِ صارخًا لا مهل ولا امان لاعداء الله وامر اصحابهُ بالقتل حتى جرى الدم في اسواق المدينة واخيرًا التقى ابو عبيدة وامامهُ اعيان البلدة والقسان وهم في امانهِ بخالد وجماعتهِ يقتلون عن عرض فصرخ ابو عبيدة بخالد ان اغمد السيف لانهُ كان قد اعطى الامان . فابى خالد وانكر ذلك الامان قائلاً اني دخلتها بالسيف وبعد المجادلات مرة والتهددات والتوسلات اخرى الى غير ذلك توقف خالد عن القتل وعند دخول الاسلام الى دمشق نزح كثير من الاهالي رجالٌ ونساءٌ واولادٌ وكهنة باموالهم صحبة البطريق توما وكان ذلك ضد ارادة خالد الذي نبههم بان لا امان عليهم منهُ بعد ان يكون مضى على ذهابهم ثلثة ايام . وقد اجرى ذلك بالفعل فان شابًا شاميًا اسمهُ يونس من اعيان دمشق كان يحب بنتًا اسمها يودوصيه هرب بحبيبتهِ ليلاً لتاخير اهلها الزفاف للحوادث الكائنة وخرج بها من باب المدينة فالتقيا ببعض عساكر خالد فاخذ يونس وفرَّت يودوصيه وجيء بهِ الى خالد وهدد بالموت فاسلم وكان ذلك قبل فتح البلد . فبعد فتحها دخلت يودوصيه الدير فذهب يونس اليها فازدرت بهِ ولم تلتفت اليهِ لانهُ كان قد اسلم وذهبت مع الذين تركوا المدينة

اما يونس فاخذ يحسن لخالد و يحرضهُ على اتباع القوم رجاء ان يجد حبيبتهُ فاجابهُ خالد الى طلبهِ واخذمعهُ خيل الزحف وسار وبعد سير طويل ومشقات كثيرة لحقوا عن بعدٍ في احدى الوديان خيام الروم فقسم خالد عسكرهُ اربعة اقسام وضربهم من اربعة جوانب واعمل السيف فيهم فقتل أكثرهم وتشتت الباقي ولكن يونس لم يستفد شيئًا لان يودوصيه عند ما نظرتهُ اخذت خنجرًا وطعنت بهِ نفسها قدامهُ وماتت

وفي اليوم الذي اخذت فيهِ الشام وهو الخامس والعشرون من آب (سنة ٦٣٤ـ ١٣) توفي ابو بكر وكان عمرهُ ثلاثًا وستين سنة وكان رجلاً تقيًا · و بعد موتهِ اخذت البيعة لعمر بن الخطاب ودعي امير المومنين فرارًا من قولهم خليفة خليفة النبي وهو الذي امر فاقيمت قبة على قبر النبي ثم جدد الحرب على الفرس وكان فرخزاد خسرو قد قتل · وانتقل الملك الى يزدجرد بن شهريار بن برويز بن هرمز بن انوشروان كسرى ولهُ من العمر خمس عشرة سنة وكان يزدجرد قد خلع نفسهُ لرستم فركب سعد من طرف عمر امير المومنين وصحبتهُ ثلاثون الفًا وحل بسهول القادسية واقتتل مع العجم قتالاً شديدًا ودعي اليوم الاول يوم الاغواث · لذهاب الف من الشام لنجدتهم · واليوم الثاني يوم غماس · والثالث ليلة الهرير لوقوع الحرب ليلاً وكانت اصوات الفرسان كهرير الوحوش الضارية وفي الصباح صدم المسلمون عساكر رستم وكانت الريح شديدة فغشي الغبار على اعين الفرس وانتصر المسلمون وقبضوا على رستم وقطعوا راسهُ ودعي ذلك اليوم يوم الانقراض · ومات من العجم نحو اربعين الفًا ومن العرب ثمانية الاف وجرح مثلهم · وبعد حرب القادسية صارت العراق كلها اي ارض الاشوريين في يد العرب واقاموا هنالك مدينة البصرة عند ملتقى النهرين · وادرك بعض المسلمين بغلاً وقع في الماء وعليهِ تاج كسرى والمنطقة والدرع وغير ذلك مكللاً بالجوهر · وكان لكسرى بساط طولهُ ستون ذراعًا وكذا عرضهُ وكان على هيئة روضة رسمت عليهِ الزهور بالجوهر على قضبان من الذهب فاستوهب سعد ما يخص اصحابهُ منهُ وبعث بهِ الى عمر فقطعهُ عمر ووهبهُ للمسلمين فاصاب علي بن ابي طالب قطعة فباعها بعشرين الف درهم · ثم قطع سعد الفرات وتملك المدائن وارسل جيشًا الى جلولا وكان يزدجرد بجلولان فسار عنها واخذها المسلمون وبقي تائهًا الى ان قتلهُ بعض اصحابهِ وانتهت بهِ عائلتهُ (سنة ٦٥٢ـ ٣٢) وفتح المسلمون تكريت والموصل ثم ماسندن وقرقيسيا ثم دخلت السنة (١٧) وفيها خطت الكوفة وفتح المسلمون الاهواز ورام هرمس وتستر وحاصروا الهرمسان

وفي المدائن عاصمة الاكاسرة وجدت الخزائن والتحف وغنم العرب ما لا يحصى من الخيرات قال ابن خلدون „ وكان في بيت المال ثلاثة الاف الف الف مكررة ثلاث مرات تكون جملتها بثلاثة الاف قنطار من الدنانير„

و بعد خراب ملك العجم عاد الفاصل بين العرب والاتراك نهر جيحون. فقطع العرب النهر وفتحوا ما وراءهُ وقصد بعض قوادهم الهند واخضعوا سواحلها وكان عقبة بن غزوان يحارب تلك الاماكن الكائنة بين جيحون وخط العرب عند ملتقى الفراتين ودخلت بخارى وسمرقند ونحوهما في دين الاسلام وخضعت لامير المومنين

وكانت عساكر المسلمين تنتصر بالشام على تلك الجنود المدعوة شامية لبلادهم ويونانية لدينهم ورومية لملكهم لان ملوك القسطنطينية ابقوا هذه التسمية اشارة الى اصلهم الروماني ٠٠٠ وبعد ان اخذ المسلمون دمشق ركبوا على البوبولس عاصمة بعلبك وعلى حمص عاصمة البلاد التي بين حلب ودمشق وفتحوا حمص وشيزر واللاذقية وجبلة وانطرطوس(سنة ٦٣٦ـ١٥) واذ كانوا تحت اسوار حمص سمع ابن عم خالد ينادي قائلاً « اني ارى الحور ينظرن اليَّ ولو ظهرت منهن واحدة لاخذت بعقول العالمين ٠ هنذا ارى احداهن وفي يدها منديل من حرير اخضر وتاج من حجار كريمة تشير اليَّ وتدعوني » وبعد ان قال ذلك رمى بنفسهِ في وسط الاعداء وقاتل حتى قتل

وكان لما راى هرقل ملك الروم تقدم العرب افاق من غفلتهِ وسير ثمانين الفًا الى انطاكية وقيسارية وامدوا بار بعين الفًا من عرب غسان النصارى ونهض جم غفير من اهل الشام للمدافعة عن الدين والملك فابو عبيدة ارتاى لزوم مكانهِ والدفاع واما خالد فاقنعهُ بالتقهقر قليلاً الى جهة فلسطين قرب العربية وانتظار الاسعاف من طرف امير المومنين ٠ فقامت عساكر المسلمين الى اليرموك ونزلوا عند بحيرة طبرية وهناك اتاهم ثمانية الاف من قبل عمر وفيهِ حصل بينهم وبين عساكر الروم موقعة عظيمة وكان ابو عبيدة في موخرة العسكر وخالد في مقدمتهم وكان كثير من النساء ممن رافقن النبي في غزواتهِ حاضرات يحاربن وكن يحسن ملاعبة الاسنة ورشق السهام وكان خطاب القائدين الاسلاميين قاطعًا « الفردوس امامكم والشيطان ونار جهنم وراءكم » وحارب المسلمون في ذلك اليوم كالاسود حتى ان ابنة عتبة لما رات ابا سفيان يرتجع بنفره انتزعت عمودًا وضربت بهِ راس جواده فارتد الى الاماه. قالوا وقتل من الروم واسر في ذلك اليوم نحو مائة الف ومن المسلمين نحو ثلثين الفًا وقتل القائد عما نوئيل وانهزم جبلة امير بني غسان وذلك(سنة ٦٣٦ـ١٥) في اواخر تشرين الاول ومنهم من جعل هذ الموقعة قبل ذلك

و بعد هذه الموقعة يئس الروم من استرجاع سورية وامر عمر بان تتقدم العساكر الى بيت المقدس فذهبوا وحاصروها اربعة اشهر وبعدها طلب البطريرك صفرونيوس من جهة القائد من عن السور ولما حضر قال لهُ « الا تعلمون ان من يتقدم الى الارض المقدسة بنية الحرب يجلب عليهِ غضب الله » فاجابهُ ابو عبيدة « نحن نعلم ان القدس مدينة شريفة ولذا اتينا لاخذها لاننا احق بها

من النصارى لانها مولد الانبياء ومدفنهم ومحل هيكل الله ومنها ارتفع نبينا الى السماء ليلاً وحظي بالدنو منهُ تعالى ولذلك امرنا الخليفة بان نفتحها . فلما سمع البطريرك تسدد الجواب عقد معهُ شروط المهادنة وطلب حضور عمر نفسهِ لتوقيعها فالخليفة بعد ان اخذ راي مجلس المدينة حضر راكباً على بعير احمر بسذاجة وتواضع لم يسبق اليها وكان كلما جلس للطعام دعا الخدام لياكلوا معهُ وقال له بعض جلسائهِ ان بساطة ثوبهِ لا تناسب علو مقامهِ ومقام الامة التي هو اميرها فاجاب « ان الاسلام الذي نحن ذاهبون لنعرضهُ على الامم الغريبة هو اجمل ثوب واعظم زينة واشرف حلي واتم سعادة لمن لهم فيهِ نصيب » ولما نظر اورشليم عن بعد كبر بصوت عال وقال « الحمد لله اللهمَّ يسر لنا هذا النصر » وبعد وصولهِ جلس في خيمتهِ وكتب شروط الصلح . ومفادها ان الاهالي احرار في مالهم ودينهم وان الحكم والاراضي المتاخمة للمسلمين . ثم دخل المدينة وتكلم مع البطريرك واستخبرهُ عما عندهُ من قديم وزار القيامة ولما وصل اليها جلس على الارض ولم يرغب ان يجلس على البساط الذي وضع له قائلاً للبطريرك « ان هذا القليل من الارض الذي اعده الله للانسان ليجلس عليهِ انما هو اجمل بساط واغناه » وفي العشرة الايام التي اقامها هناك القى اساس جامع على اثار هيكل سليمان واكملهُ خلفاؤهُ ثم رتب العساكر وسافر الى المدينة لان غيابهُ كان قد ازعج افكار اهلها مخافة ان يمنعهُ عن الرجوع اليهم قداسة اورشليم او محاسن دمشق ونعيمها

ثم انقسمت عساكر العرب الى قسمين فالواحد بقي في فلسطين صحبة عمرو ويزيد . والاخر وهو الاكبر ذهب الى انطاكية وحلب صحبة ابي عبيدة وخالد . وبوصولهم الى حلب عرضوا على اميرها والاهالي الصلح بان يكونوا احرارًا في مالهم ودينهم فلم يقبلوا فالقوا عليها الحصار . وكان فيها البطريق يوحنا (او يوقنا) وهو رجل ذو باس واقدام ومقام عال في الدولة الرومية وقد قتل اخاه يوحنا الراهب لاشارتهِ بالصلح وبعد حصار نحو خمسة اشهر اخذوا المدينة دون القلعة فلم ينل العرب من ذلك خيرًا وقد تحملوا اهوالاً لا تحد ولا تقدر وفكر ابو عبيدة بتركها وكتب بذلك الى عمر . وكان قد حضر ركب من حضرموت واقاصي اليمن من همدان ومدان وسبا ومارب الى عمر يسالونهُ انفاذهم الى الشام فقال لهم عمر « كم انتم بارك الله فيكم » قالوا نحن زهاء اربعمائة فارس وثلاثمائة مطية مردفين ومعنا اناس يمشون على اقدامهم لا ركاب لهم فان كان عند امير المؤمنين ما يحملهم عليهِ حتى يصل الى عدونا . وكان الرجالة المذكورون اربعين ومائة رجل فامر عمر فاتوهم بسبعين راحلة وساروا وكتب عمر الى ابي عبيدة هكذا « اما بعد فقد ورد عليَّ كتابك مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على اعدائكم ومن قتل من الشهداء واما ما ذكرتهُ من انصرافك الى البلاد التي بين حلب وانطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا راي غير صواب . نترك رجلاً قد دنوت من

دياره وملكت مدينته ثم ترحل فيبلغ ذلك الى جميع النواحي انك لم تقدر عليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترىء عليك اجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع اليه الجواسيس وتكاتب ملوكها في امرك فاياك ان تبرح من مجاهدته حتى يقتله الله او يسلم اليك ان شاء الله تعالى او يحكم الله وهو خير الحاكمين . وبث الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة واكناف الجبال والاودية وبين المغارات الى حدود الغارات ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى المسلمين وقد انفذت كتابي اليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم واهل مشائخ اليمن ممن وهب نفسه لله تع ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموالٍ وفرسان ورجال والمدد ياتيك متواترًا انشاء الله تع والسلام »وختم الكتاب وسلمه لعبد الله بن قرط واخذوا جميعًا يجدون في السير وكان ابن قرط يحدثهم عما تحمل الاسلام في حرب يوقنا وعن بسالته وقوته الى غير ذلك . وكان ممن يسمع كلامه هذا مولى من موالي بني ظريف من ملوك كندة يقال له دامس ابو الاهوال وكان شديد السواد فارسًا شجاعًا قويًا له ذكر عظيم في بلاد كندة واودية حضرموت وجبال مهرة وارض الشخرة وقد اخاف البادية ونهب اموال الحاضرة وكان مع ذلك لا تدركه الخيل العتاة واذا امتطى الفرس العالي تخط رجلاه بالارض . فلما سمع دامس بذكر يوقنا وما فعل بالعرب كاد يتميز غيظًا وحنقًا . وقال لعبد الله ابشر يا اخا العرب فاني ساجعله عبرة لمن اعتبر ولما وصلوا الى حلب وراى دامس ما راى من الروم تحرك بالنخوة العربية واخذ يطاردهم وحده ومرفوقًا وكان دائمًا يردد

انا ابو الهول واسمي دامس　　اكر في جمعهم مداعس

ثم لما طال الامر ولم يقدر العرب على شيء وقد خاب دامس في كثير من حيله واقدامه طلب ان يعطى له ثلثون رجلاً يسمعون كلامه في كل ما يامر وهو يصدم القلعة فوافقه خالد واوصى ابو عبيدة الرجال بان لا يزدروا به وانه لو كان ممكنًا له لترك الامور العامة ورافقه بنفسه . وكان الراي ان يظهر المسلمون تخيهم ودامس مع اصحابه يختفون في جوانب القلعة الى الليل ويدبرون امرهم . فتنحى المسلمون . ولما اقبل الليل ذهب دامس واصحابه الى القلعة وهناك طلب اليهم ان يصعدوا على ظهره فوق بعضهم بعضًا ويتسلقوا السور فصعد سبعة منهم الواحد على الاخر الى ان وصل الاخير الى فوق فخرج وتبعه غيره وقتلوا الحرس . ثم رفعوا الباقين منهم بعمائمهم وذهب دامس ليحمي الجسر الممكن رفعه الذي يوتى به الى القلعة الى ان يكون وصل خالد بالعساكر . وفي الصباح حضر خالد وخلصه من ضيقه واكمل الفوز واسلم يوقنا بعد كل تلك العداوة قبل الجميع وكانوا قد فتحوا منبج ودلوك وسرمين ونتزين وعزاز ومرعش وقنسرين كرسي المملكة المنسوبة الى حلب . ثم ركبوا على انطاكية وقطعوا

الجسر الحديدي على العاصي بدون مقاومة من حامية القلعتين اللتين على جانبيهِ واقتتلوا مع عساكر انطاكية الخارجة لملاقاتهم وهزموهم (في ١٩ اب سنة ٦٣٨ - ١٨) ثم سلمت انطاكية دون قتال وعقدوا فيما بينهم وبينها شروط الصلح على نحو شروط بيت المقدس وكانت قيمة ما صالحت عليهِ انطاكية ثلثمائة الف مثقال من الذهب وكان يوقنا صاحب حلب اقوى المساعدين للمسلمين للاستيلاء عليها واضحت انطاكية احدى ولايات الاسلام من الصف الثاني بعد ان كانت تحت خلفاء الاسكندر والملك الروماني في المشرق وكانت تدعى المدينة الحرة المقدسة وسكانها داخل الاسوار سبعمائة الف

ولما راى هرقل الملك كل ذلك البطش والباس فكر ان العرب لا ينغلبون وترك سورية عن فكرهِ وكان ابنهُ قسطنطين ومعهُ اربعون الفًا في قيسارية ام ولايات فلسطين الثلاث ففر منها الى القسطنطينية واما العرب فبعد ان تملكوا لبنان تسلموا طرابلس وصور بسهولة ووجدوا في مرساها خمسين سفينة وكثيرًا من الذخائر . ثم سلمت قيسارية وحينئذٍ سلم ما بقي دون مقاومة وصارت الرملة وبطوليمة اي عكا ونابلوس اي شخيم وغزة وعسقلون وصيدا وبيروت وجبيل وفاميه وسرابولس ونحوها في يد المسلمين . وخضعت سورية كلها لامر الخليفة بعد ان كان قد اخذها بومبيوس الروماني من السلوقيين قبل ذلك بسبعة اجيال

ومن تامل فتح المسلمين بلاد الشام في ست سنوات اخذهُ العجب في ذلك غير ان المسلمين كانوا يحاربون لنوال الشهادة والذهاب الى الجنة اكثر من حطام الدنيا فلم يكونوا يخافون الموت ولا العدو . ونقلوا ان بعض الشبان قال لوالدتهِ واختهِ عند ما ودعهما ذاهبًا الى الجهاد „ اني لم اهب نفسي لله طمعًا في التمتعات الشامية ولذات الدنيا الفانية ولكن لاكتساب رضى الله ورسولهِ فاني سمعت احد اصحاب النبي يقول ان انفس الشهدا تذهب الى حوصلات الطيور الخضر التي تغتذي بثمار الجنة وتشرب من انهارها العذبة . استودعكما الله سنلتقي في الجنة عند الينابيع التي اعدها الله لمختاريهِ „ هذه كانت صفات تلك الامة في جهادها

بشبان يرون القتل مجدًا وشيب في الحروب مجربينا

ثم لاعتقاد ابي عبيدة ان ليس الا النفر والتعب يحفظان المسلمين في جرائتهم ودينهم منع عنهم الارتياح الى الحيوة الرافهة والتمتعات الانطاكية ونحاهم عنها . واما عمر فمع قساوة مباديهِ كتب الى ابي عبيدة بعد ان مدح غيرتهُ ما ياتي „ من عبدالله عمر الى عاملهِ بالشام ابي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك واني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيهِ واشكرهُ على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفًا معينًا . واما قولك لم نقم بانطاكية لطيبها فان الله

عز وجل لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال « يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » وقال « يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله » (الاية) فكان يجب عليك ان تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويرجعون ابدانهم من نصب القتال ممن كفر بالله واما قولك انك منتظر امري فالذي آمرك به ان تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فانك الشاهد وانا الغائب وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب وانت بحضرة عدوك وعيونك تاتيك بالاخبار . فان رايت ان دخولك الى الدروب بالمسلمين صواب فابعث بهم بالسرايا وادخل معهم الى بلادهم وضيق عليهم المسالك . ومن طلب منك الصلح فصالحه ووف لهم بما تقدر واما قولك ان العرب ابصرت نساء الروم فرغبت في التزوج فمن احب ذلك فدعه ان لم يكن له اهل بالحجاز ومن اراد ان يشتري الاماء فدعه فان ذلك اصون لفروجهم واغنى لنفوسهم وما يحتاج ان اوصيك في امر فلطانوس صاحب رومية اوسع عليه في النفقة وعلى من معه فانه قد فارق اهله وملكه وامره ونهيه والسلام عليك وعلى جميع المسلمين »

ثم حدث طاعون عمواس فمات من العرب خمسة وعشرون الفاً ومات ابو عبيدة (سنة ١٨ من الهجرة . وكان خالد قد ركب على منبج وبراعة وبالس واتي برجالهم واموالهم ومثله قلعة نجم وصالحهم بعد رد اموالهم على مائة الف وخمسين الف دينار وتوفي خالد بعد ابي عبيدة بثلاث سنين وكان يظن ان الموت لا يقدر عليه وان العناية كانت مهتمة به ما دام لابساً ذاك الرداء الذي كان قد باركه النبي فانه بعد ان صدم وقتل في الشام احد ابطال الروم تجرد جبار آخر منهم لمبارزته فقال له صرار ارتح قليلاً ودعني اذهب اليه عنك فاجابه اني سارتاح في الاخرة من يتعب اليوم يرتح غداً ونزل اليه وقتله فتعجب منه عساكر الاعدا

ولم يقنع الاسلام باخذ الشام فقط بل تقدموا واخذوا قيليقية وطرسوس ومدوا دينهم وفتوحهم الى البحر الاسود قرب القسطنطينية وكان جبل لبنان يمدهم بالاخشاب لبناء المراكب وفينيقية بالملاحين العظام . وطردوا بالف وسبعمائة سفينة عمارة الروم من بحر فنيقية الى بحر سفيد المتصل ببحر مرمرة وتسلطوا على بحر الروم كله وغزوا قبرص ورودس ونحوها وفي رودس وجدوا تمثال ابولص العظيم علوه سبعون ذراعاً مكعباً وكان من اجل اعمال اليونان وقد سقط على الارض بزلزلة وبقي ثمانية اجيال فجمع العرب قطعه المعدودة من عجائب الدنيا وباعوها من رجل يهودي من ادسه وفي اورفه ما بين النهرين فاخرج منها نحاساً حمل تسعمائة بعير ، ولا شك ان في ذلك مبالغة ولو انه اشتمل على المائة تمثال العظيمة والالف صنم الموجودة في مدينة الشمس في رومة وبجوارها

هذا ما كان من امر سعد في العجم وابي عبيدة وخالد في سورية. ولننظر ما كان من امر عمرو في فلسطين . . . فعمرو كان ابن امرأة يتردد عليها خمسة من بني قريش وقد نسب الى العاص لانه كان اشبه به من غيره . وكان يهزأ اولاً بمحمد ودينه ثم اسلم وحارب سورية في خلافة ابي بكر وعمر . وكان احسن اهل عصره قائدًا واشجعهم محاربًا حتى ان عمر لما كان يسمع عنه من الغرائب ارسل اليه يطلب سيفه ليراه فارسله فتاملهُ عمر واحتقرهُ وردهُ اليه قائلاً اني لم ارَ في سيفك ما يا لقول لي عنه. فاجابه عمرو اني ارسلت لك سيفي ولم ارسل لك ذراعي وانت تعلم ان السيف يقطع بضاربه وقيل ان ذلك جرى مع عمرو بن معدي كرب

وبينما كان عمرو هذا يحارب بفلسطين خطر له ان يركب على مصر. وبعد حصوله على الاذن سافر في الحال وسافر معهُ يزيد ابن ابي سفيان وعامر بن ربيعة ويوقنا صاحب حلب بأربعة الاف من رجاله وغيرهم . ولكنه ندم عندما راى ما امامه من مدمات السفر والخطر وكيف ان الروم لا يسلمون بسهولة انبار ملكهم فضلاً عن المصريين انفسهم ومقاومتهم الغريبة . وكان يردد في عقله عظمة الفراعنة ملوكهم القدماء المملو من ذكرهم القرآن الى غير ذلك غيرانه لبث سائرًا على تيسير الله . وبعدما تجاوز غزة حضرهُ رسول من عند عمر بكتاب يقول فيه „ ان كنت لم تتجاوز حدود الشام بوصول كتابي هذا اليك فارجع والاَّ اذا كنت في حدود مصر فتقدم ولا تخف موثق بالله وبمساعدة اخوتك „ اما عمرو اما لعلمه عدم ثبوت الحكام على رايٍ او لتنبيه سري فلم يفتح الكتاب وبقي سائرًا الى ان دخل حدود مصر وهنالك فض ختم الكتاب وتلاهُ على القواد والمسلمين . ثم سأل اين نحن الان فقيل له في حدود مصر . فاجاب جدول بنا الان طوعًا لامر امير المومنين . وبدا بحصار فرمه (بلاد البون) واخذها بعد ثلثين يومًا ومن هنالك تقدم الى اليوبوليس قرب القاهرة الجديدة . وبعد ان وصل الى خراب منف وتامل تلك الاعمال الفائقة تذكر وقتئذٍ فوق الفراعنة وشاهد النيل الذي يمتد عرضه هنالك نحو ميل جانبيه متحدين بجسرين من سفائن فوق الماء تسندها جزيرة تنيس (روضة) المملوة من البساتين والبيوت . وفي الجانب الشرقي من الجسر كانت بابلون او مصر القديمة وكان هنالك قلعه فيها ثمانية الروم تحافظ على النهر فصدم العرب تلك القلعة وحاصروها نحو سبعة اشهر تحت خطر غرقهم بماء النيل واخيرًا تجاوزوا ذلك الخندق المملو من السلاسل الحديدية وصعدوا بالسلالم الى القلعة صارخين الله اكبر وطردوا منها العسكر . ولما نظر عمرو ان ذلك المكان كان انسب للمواصلات بينه وبين العربية من منف نزل بجنده واقام هنالك جلمة وقدموا فيه صلواتهم بحضرة ثمانين من الصحابة . وحالاً مضارب العرب بيوتًا والقلعة مدينة واضيف بعد اليها مدينة بابلي ودعيت الفسطاط . ولما تأمل عمرو خيرات مصر واراضيها كتب لامير المومنين ما معناهُ

« تامل لك برًّا بين قفرين و بين جبلين شبيهين بسنام البعير او بطن الفرس المستسقي فان الغلال الوافرة الكثيرة الناتجة من منف واصوان انما في عن النهر العظيم الجاري في وسط الوادي الفسيح وهو يفيض ويجري بكل دقة وقياس كسير الشمس والقمر. فانهُ في فصل معلوم من السنة كل الينابيع تودي الى رئيس الانهر هذا جزيتها السنوية المفروضة عليها من العناية فيرتفع ماؤهُ ويتجاوز حديه و يغطي كل ارض مصر وتبقى المواصلات بين المدن والقرى بسفن صغار كمدد ا لخوص فاذا وبت الارض رجع ماء هذا النهر المبارك الى مكانه المعين له بالطبع . وحينئذٍ هذا الشعب المحروس من الله والشبيه بالنحل التي تتعب ولا تجني لنفسها يشقون وجه الارض و يلقون فيها الزرع منتظرين نموهُ من ذلك الذي كل ينبت ويينع به فيفرخ الزرع و يعلو الساق وينضج الحب بقوة النداء الغزير القائم مقام المطر في حفظ رطوبة الارض . ثم يعقب الحصاد قحل . وعلى هذا النحو يا امير المومنين لا تزال هذه البلاد تتقلب بالتوالي ما بين قفار مقفرة وسهول مائعة ووحول لزجة ورياض خضراء متموجة وجنان مزهرة وحقول مملوءة حبًّا يانعًا »

ولو لم يساعد العرب على اخذ مصر اهاليها كما كانوا قد فعلوا قبلاً مع الرومان لما قدروا على فتحها لان القبط اصحاب المشية الواحدة القاطنين فوق منف وتحتها نظروا اتحادهم مع العرب خيرًا لم لحفظ معتقدهم منهُ مع الروم . فالمقوقس بن داعبل رئيسهم وكبير اغنيائهم الذي كان يعرف الرسول والهُ معهُ مكاتبات سلم نفسهُ لعمرو بغضا بهرقل ملك الروم لاضطهاده اخوتهُ الاقباط . وقال لعمرو « اعلم يا امير اني انا واخوتي قد عزمنا ان نحيا ونموت علي دين عيسى بموجب شريعة الانجيل ولا نقدر ان نحتضن دين نبيك لكن نريد الامان وندفع الخراج ونطيع امر الخلفاء » فاجابهُ عمرو الى طلبهِ ورتب علي كل رجل دينار ين خلا الرهبان والمشائخ ومن لم يتجاوز السادسة عشرة من عمرهِ وهكذا سلموهُ مدينة مصر والقلعة المار ذكرها . وهذه عهدة مصر المضاة من عمر بن الخطاب

بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء من ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب . وعلى اهل مصران يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف . وعليهِ ممن جنى نصرتهم . فان ابى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم وذمتنا ممن ابى بريئة . وان نقص نهرهم من غايتهِ اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فلهُ ما لهم وعليهِ ما عليهم . ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنهُ ويخرج من سلطاننا . وعليهم ما علينا اثلاثًا وكل ثلث جبايةُ ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المومنين وذمم المومنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا راسا

وكذا وكذا فرسا على ان لا يغزوا ولا يحولوا من تجارة صادرة ولا واردة

شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر (طبري)

وكان عدد الاقباط على قول بعض المورخين ستة ملايين كلهم من اهل مصر القدماء وبامتزاج لغتهم القديمة مع لغة الاغريق نشأت اللغة القبطية وقد تغلب الدول على هذا الشعب من قديم الزمان فانتقل الى حكم الفرس والمقدونيين والرومان واليونان او الروم ثم الى الاسلام من عرب ثم اتراك

وبعد ان سالم العرب الاهالي اطمأن خاطرهم واظهر عمرو ثقته الكاملة بالقبط عند سفره الى الاسكندرية فكانوا يفتحون له الطرق والجسور ويأتونه بالاخبار الى غير ذلك . واما اخذ مدينة الاسكندرية فقد انعب العرب تعبًا لا مزيد عليه . فان هذه المدينة من جهة انها كانت يوما مركز المتجر المسكوني والعلوم كلها كانت محصنة جدًا وممتدة امتدادًا طويلاً اشبه بضلع قائم الزاوية ومحاطة من كلا جانبيها بالبحر وبحيرة مريوط . ولم يكن يرى منهامن البر اكثر من ١٢٥٠ خطوة (نحو ميل)وكان العرب على قول بوتيخوس المورخ يظهرون في حصارها جراءة الاسود ويصدمون العدو بقوة عظيمة كلما خرج اليهم وكانوا يهجمون على السور والقلاع هجوما غريبا حتى ان عمرًا عرّض بجراءته نفسهُ وعساكرهُ للخطر الكلي وذلك انهُ دخل المدينة في احدى هجماته عليها دون ان يعلم كيف يخرج وقد رجعت العساكر غير عالمة بما اصاب قائدها ولم يبق معهُ الا رجل من اصحابه وخادم . فقبض عليه وأُخذ الى الوالي ولم يكن يتنكر مع ذلك بشيء بل كان يظهر سمة السيادة والجسارة في خطابه وجوابه حتى كاد يعرف وهو محاط بالعساكر والسيوف مسلولة لكي يقتلوهُ متى صدر الامر على ان ذكاء خادمهِ خاصة من تلك الحالة فانهُ صفعهُ بشدة وانتهرهُ قائلاً „ قف باحترام امام الرؤساء „ فانخدع الحاكم الرومي من هذا العمل وظنهم جميعا عبيدًا وامر باطلاقهم غير عالم من يكونون . فرجعوا من ساعتهم الى العساكر العربية وقامت الافراح برجوع عمرو . وبعد حصار اربعة عشر شهرًا وفقدان ثلاثة وعشرين الف نفس منهم استلموا المدينة (في ٢٢ كانون الاول سنة ٦٤٠ــ ٢٠) وقيل (في ١٩ شباط سنة ٦٤١ــ٢١) والاصح الاول و(في سنة ٦٤١ ــ ٢١) كانت وقعة نهاوند مع الاعجام . فاجتمع مائة وخمسون الفا من الفرس وعليهم الفيرزان وبعد مقاتل عديدة انتصر الاسلام وفر الفيرزان فقتلهُ القعقاع راجلاً . وفيها فتحت الدينور والذميره وهمذان واصفهان وتوفي خالد ودفن في حمص وقيل في المدينة . و(في سنة ٦٤٢ــ٢٢) فتحت اذربيجان والري وجرجان وقزوين وزنجان وطبرستان

وبعد اخذ الاسكندرية حرر عمرو بن العاصي الى عمر يقول „ لقد فتحت مدينة المغرب العظيمة ولا اقدر على تعداد ما فيها من الغنى والتحف وبالاختصار فانها تحتوي على اربعة الاف

قصر واربعة الاف حمام وار بعمائة ملهى وثماني عشر الف دكان واربعين الف يهودي يؤدون الخراج والمدينة اخذت عنوة دون شروط وعهود ويرغب المؤمنون ان يجنوا ثمار نجاحهم . اما عمر فحرر اليه بمنع النهب وبان يحفظ غناها لبيت المال وينشر الاسلام وبان توخذ الجزية من السكان ومن ثم صار يدفع اليعاقبة والاذن للروم الملكية باستعمال معابدهم سرًا . وبعد هذا بقليل توفي هرقل الملك وقيل غما على اخذ الاسكندرية .

ثم هاج شعب القسطنطينية من انقطاع الغلال عنهم وحكم المجلس بتجديد الحرب على العرب لاسترجاع الاسكندرية فارسلوا عسكرًا غفيرًا وعمارة قوية ولكنهم طردوا مرتين في مدة اربع سنين . وفي المرة الاخيرة حلف عمرو لغيظه مما تحمله انه اذا جاءوا ثالثة عمد الى احراق المدينة والقاء الكثير في البحر . وهدم وقتئذٍ بعض السور والقلاع ثم هجع غضبه واقام جامع الحلم وعلامة الامان والسلام

ولنذكر هنا نبذة عن احتراق مكتبة الاسكندرية الشهيرة بعد ان فتحها عمرو . قالوا ان عمرًا كان يحب العلوم ومذاكرة العلماء وكان قد احب رجلاً عالمًا يدعى يحيي المعروف بالغراماطيقي لانه كان منكبًا على درس النحو والفلسفة حتى لقب ايضًا بفيلوبونس . فبموجب هذا سال عمرًا ان يهبه المكتبة المذكورة لعدم انتفاعهم بها فما نصاع عمرو ولكن اراد ان يستشير الخليفة عن ذلك فكتب اليه فاجابه بما معناهُ . ان وافقت كتب اليونان النصوص القرانية فلا حاجة للاسلام بها وان خالفت يجب احراقها لانها مضرة . فلما وصل الجواب امر عمرو بتوزيع جميع الكتب على الاربعة الاف حمام وقيل انها كفتها ستة اشهر . هذا ما جاء في ابي الفرج في الجيل السابع من الهجرة وابي الفدا في القرن الثامن منها على ان المورخين نظير بوتيخوس وغيرهِ من المعاصرين لم يذكروه . والظاهر لي ان في ذلك مبالغة فلو فرضنا ان كل حمام امكنهُ احراق عشرين مجلدًا كل يوم لنتج انه كان فيها نحو اربعة عشر مليون مجلد واربعمائة الف مجلد . والحال ان مكتبة اسكندرية كانت قد احترقت اولاً في عهد القيصر الروماني . وبعد جمع ما بقي واضافة مكتبة فرغامه اليها لم تسلم من النصارى الذين كانوا يجتهدون في ملاشاة المعتقدات الاخر فاحرقوا منها في زمان تيودوسيوس الملك مجلدات عديدة حتى لم يبقَ الا نحو اربعمائة الف مجلد من الخاص اللهم اذا لم يكونوا هم انفسهم زادوا عليها في المسعة الاجيال الاولى من مؤلفاتهم عند انشقاقهم الى احزاب عديدة مثل نساطرة ويعاقبة واربوسية وملكية ونحوهم وبذلك يكون المسلمون عملوا خيرًا باحراقها واراحة الناس من مؤلفات لا فائدة منها الا بلبلة الافكار الرائقة

واجرى عمرو في مصر حكمًا عادلاً ممدوحًا كما يظهر مما حررهُ الخليفة اذ عرض

عليه ثلثة امور تعود بالنفع لمصر . اولاً عدم ازدياد الضرائب . ثانيا حفظ جزء من الدخل العام لاقامة الجداول والجسور والمصانع وترميمها . ثالثا تقسيم المال على الاراضي بحسب غلالها . ومصر هي التي كفت العربية قمحا ونحوه في المجاعة التي حدثت (سنة ٦٤٢ - ٢٢) ولهذا امر عمر عمرًا بان يفتح خليجا بين النيل وبحر الحجاز لكي يتسهل نقل الغلة ودعي نهر امير المومنين . وبحر الحجاز هو بحر القلزم نسبة الى مدينة قلزم الشهيرة بين العرب يوما وقد اقيمت الان على خرابها السويس ولذلك يدعى بحر السويس ايضا وهو البحر الاحمر

وأمر عمرو اذ كان في مصر فسار الى برقة فصالحه اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة (سنة ٦٤٢-٢٢) . وفيها غزا الاحنف بن قيس خراسان وحارب يزدجرد وفتح هراة عنوة ثم سار الى مرو روز

و بعد ان شاهد عمر كل هذه الفتوحات اتاهُ موتهُ عن يد عبد يدعى ابا لولوة فيروز وهو عبد المغيرة بن شعبه وذلك ان هذا الرقيق جاء يتشكى يوما الى عمر من سيده لانهُ كان ياخذ منهُ درهمين كل يوم وهو كل مايكسبهُ . فسالهُ عمر عن حرفتهِ فاجابهُ العمارة والنحاتة والنجارة . فقال لهُ الخليفة هذا القدر ليس بفاحش على من يحسن ثلاث حرف . والحال ان سيده لو اراد لامكنهُ ان ياخذ منهُ اكثر من ذلك . ثم جبر خاطره ووعدهُ بانهُ سيشغلهُ في بناء الطواحين فغضب العبد من الجواب وصرخ قائلاً « لك ابني طاحونا تشتغل فيها الى يوم القيامة » فاغتاظ عمر من كلامهُ وطردهُ . ثم انطلق الى الجامع لصلوة الظهر فلما دخل الرواق اذا بالعبد قد هجم عليهِ وطعنهُ بخنجر ثلاثا وذلك بسرعة لم تتمكن الحاشية من منعهِ و بعد ان تحارب العبد مع الحاضرين ضرب نفسهُ بالخنجر ومات . ولما نظر عمر خطر امره وكان اصحابهُ يطلبون اليهِ ان يعهد لولده من بعده . قال حسب قومي وجود من يقوم بحمل ثقيل كهذا دون ان يخلفهم غيرهم . وعهد بالخلافة الى علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بعد ان عرضها على عبد الرحمن بن عوف فابى وتوفي سلخ ذي الحجة (سنة ٦٤٣ - ٢٣) ودفن هلال محرم (سنة ٦٤٤ - ٢٤)

والحاصل ان العرب في عهد عمر سفكوا من الدما انهرًا وعلى قول بعض المورخين فتحوا ستة وثلاثين الف مكان ما بين مدن وقلاع وقرى ونحوها وهدموا اربعة الاف هيكل واقاموا الف ومائتي جامع . وبقدر ما كان حكم عمر ملاشيا في الخارج كان مرتبا ومشيدًا في الداخل وكان بخيلاً على نفسهِ لا ياكل غير خبز الشعير ولا يشرب غير الماء ولكنهُ كريم على غيره . قيل انهُ اعطى يومًا لاحد الفقراء ستة الاف درهم فلامهُ بعض خلانهِ على تفضيلهِ الغريب على اولادهِ . فاجابهُ بما معناهُ . ان لابني ابًا يطعمهُ ويكسوهُ ويهتم بهِ بخلاف هذا الغريب فان ليس لهُ شيء ولا من ينظر اليهِ

وكان بين عمر وهرقل ملك الروم مكاتبات منها عند فتح الجزيرة سنة ١٩ فانه بلغ عمر وقتئذٍ دخول اياد الى بلاد الروم . فكتب الى هرقل « بلغني ان حيا من احياء العرب تركوا دارنا واتوا دارك فوالله لتخرجنهم او لنخرجنّ النصارى اليك » فاخرجهم هرقل وتفرق منهم اربعة الاف فيما يلي الشام (ابن خلدون)

ومنها عندما اسر عبد الله بن حذافة فانه كتب اليه كما يأتي

الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

من عمر بن الخطاب امير المومنين الى هرقل طاغية الروم

و بعدُ فاذا وصل اليك كتابي هذا تبعث لي الاسير الذي عندك وهو عبد الله ابن حذافة فأن فعلت ذلك رجوت لك الهدى وان ابيت بعثت اليك رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والسلام علي من اتبع الهدى (مراسلات افريدون بك)

وكان عمر من اهل النباهة واحكم رجال السياسة وله الفضل الاول في تقدم العرب والاسلام ومن وصاياهُ على المسلمين الجهاد لاجل الايمان وفي وقت السلام اتباع احدى الحرف الثلاث الزراعة والتجارة والصناعة

و بعد موت عمر اجتمع اهل الشورى وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وعبد الله ن عمر للتداول في خليفة جديد وبعد الاختلاف ونحوه انتهى الامر باقامة عثمان بن عفان . فانهم كانوا تركوا الحكم في الاختلاف الى عبد الرحمان وهذا بدسائس عائشة سعي عثمان لانها كانت تكره عليًا ثم مد كل واحد منهم يدهُ وبايع عثمان الأعلي . فقال له عبد الرحمن يا ابن ابي طالب من لا يقم بقوله كان اول من كابد غائلته . فمد علي يدهُ وبايع عثمان وقر السلام

وافتتح عثمان خلافته بعزل عمرو بن العاص الذي كان قد فتح اكثر سورية وكل مصر و بعض اماكن الفرس والاعتياض عنهُ بعبد الله بن سعد بن ابي سرح العامري اخي عثمان رضاعًا . وكان عبد الله هذا اولاً كاتب الرسول وفرض عليهِ حفظ القران فاراد ان يحرف المتن فعرف الرسول ذلك وطردهُ فذهب الى مكة واخذ يتكلم عليهِ . ولكنهُ حضر عند ما استولى محمد على مكة وانطرح على قدميهِ وطلب منهُ العفو فناله ولبث مسلمًا غيورًا ويعد من اعظم فرسان بني قريش

فصل

في الربع الثاني من القرن الاول

ثم جهز عثمان عبد الله بن سعد المقدم ذكرهُ باربعين الفًا وذهب الى مصر وتقدم من هناك بعسكرهِ الى جهات المغرب لفتح الاماكن التي من النيل الى البحر في افريقية فسار في قفر البلقاء

العظيم وبعد مشقات عظيمة وصل الى نواحي طرابلس (سنة ٦٤٦ـ ٢٦) وكانت قد اجتمعت الى هناك شعوب البلاد باموالهم ونازل عساكر الروم وظفر بهم على الساحل . ثم قدم البطريق غريغوربوس (جرجير) الذي كان واليًا على تلك الاقطار التي بين طرابلس وطنجه من طرف هرقل ملك الروم ومعهُ مابة الى مابة وعشرين الفا وعدد غفير من الاهالي وتجدد القتال ودام اياماً متواليا كل يوم من الصباح الى الظهر اذ ينكفئون عند اشتداد الحر . وكان لغريغوربوس المذكور بنت ذات جمال بارع وجراءة عظيمة وكانت تصحب اباها الى الحرب وقد تعلمت من صغرها رشق السهام وركوب الخيل وضرب السيف وكانت تتميز عن غيرها لباسا وسلاحا . فكان ابوها قد وعد بان من ياتيهِ براس القائد العربي يزوجهُ بها ويعطيهِ مابة الف ذهب فعادت شبان افريقية تترامى على الموت للحصول على المرغوب ولم يكن يصدهم عن ذلك الا حلول الاجل . فالتزم عبد الله بالتنحي وترك امرة الجنود لغيرهِ وذلت طلاب حور الجنان امام طلاب حور المكان

ولما طال امر الحرب امر عثمان عبدالله بن الزبير افرس اهل زمانهِ وهو الذي شاع صيتهُ في فتح مصر فذهب باثني عشر الفا وجاز ارض الاعدا ووصل اخيرًا الى العساكر الاسلامية وكانوا يحاربون دون قائدهم عبدالله فصرخ بهم قائلاً . ياقوم اين اميركم . فقالوا في الخيام . فقال ايليق بقائد المسلمين ان يكون في خيمتهِ وقت القتال . فسمع عبدالله ذلك فخرج والتقاهُ خجلاً وقص عليهِ امر مخالف العدو على قتلهِ . فاجابهُ ابن الزبير ضاحكًا الست انت بقادر على تدارك نفس الحيلة بان تعد هذا الوعد الدني منادياً على رجالك ان من ياتي براس جرجير فلهُ بنته ومائة الف ذهب . فقال ابن سعد دبر انت ما بدا لك . ففعل ابن الزبير وكان النصر عن يده . فانهُ امر في اليوم الثاني فخرج قسم من عساكر المسلمين للقتال وشغلوا العدو الى الظهر ثم صار الانفصال كالعادة ورفعت لجم الخيل ونزعت الملابس الحربية . وبينا عساكر الروم تاخذ راحتها اذا بابن الزبير امر برفع الوية القتال فخرجت الجنود المستريحة وصدمت العدو على غفلة صدمة قوية فهزمت بها عساكر غريغوربوس وأُخذت راسه واسرت بنتهُ الجميلة وهربت رجالهُ شتيتًا الى سبيطله وهي مدينة على جانب منحدر في وسطها جدول ماء وعلى جوانبها اشجار اللبان وبها من الآثار ما يدل على عظمة الرومانيين وتبعد عن قرطاجنة نحو مائة وخمسين ميلا . وحاصر ابن ابى السرح سبيطله ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة الاف دينار وسهم الرجل الفًا . وبث جيوشهُ في البلاد الى قفصة فسبوا وغنموا وبعث عسكرًا الى حصن الاجم وقد اجتمع بهِ اهل البلاد فحاصرهُ وفتحهُ بالامان

وقرطاجنه هي مدينة بناها اهل فينيقية فنجحت حتى كانت اول مدينة بحرية واغنى مدن العالم وكانت نقيضة رومه العظمى مدة مائة سنة الى ان احرقها شيبيون القائد الروماني . ولقهر الرومانيين

منها بسبب ما سفك بها من دماء رجالهم حلفوا على ابقائها خربة ولعنوا كل من اقام بها حجرًا على حجر ثم اعادوا بناءها هم انفسهم . ثم فتحها (الوندل) . ثم الروم . ثم العرب . ثم خربت اصالة الى الان ولم يبق منها الا آثار قليلة لا تذكر . والسياح مع كل بحثهم لم يجدوا اثرًا بقرب تونس لتلك الاسوار المثلثة والقلاع العالية والقشل الفسيحة والاسطبلات العظيمة التي كان ياوى اليها مائة الف فارس وثلاثمائة فيل . حتى ولا لذلك السور العجيب المحيط بالمينا الداخل حيث كانت ترسو السفن العديدة فانهُ في سفر اميلاقرس الى حرب سيراكوسه سار منها الفا سفينة حربية وثلاثة الاف للموسق وكانت كما ذكر المورخون تشتمل على ستمائة الف من السكان . و بعد فتح العرب حصن الاجم عاد الافريقيون يتواردون من كل المعاملة فبعضهم لطلب الامان ودفع الجزية و بعضهم للدخول في الاسلام

ومنع العرب من التقدم الى قرطاجنة موت كثير منهم بالحرب والتعب والمرض فقفلوا الى مصر بالغنائم والاموال والاسارى بعد ان غابوا عنها خمسة عشر شهرًا . وكانوا قد صالحوا اهل افريقية على مليونين ونصف مليون دينار وبعد ان رفعوا الخمس لبيت المال فرقوا الباقي على العسكر كل ذلك وقاتل غريغوريوس لم يحضر لياخذ جزاءهُ مائة الف ذهب فظن انهُ قتل لو لم يتبينهُ عويل البنت فاذا بهِ ابن الزبير نفسهُ فعرضوا عليهِ الجزاء وزواج البنت فابى قائلاً اني وقفت سيفي لخدمة الدين منتظرًا جزاء اعظم من المال ومن جمال امراة فارسلوهُ حينئذٍ بشيرًا الى عثمان بنصرهم وارسلوا معهُ المال خمس مئة الف دينار

ولما فتحت افريقية امر عثمان عبد الله بن نافع بن الحسين بان يسير الى جهة الاندلس فغزا تلك الجهات وعاد الى افريقية فاقام بها من طرف عثمان ورجع عبد الله بن سعد الى مصر

واستاذن معاوية (سنة ٦٤٧ - ٢٧) عثمان بن عفان ان يغزو البحر فاذن لهُ فسير معاوية جيشًا الى قبرس وسار اليها ايضًا عبد الله بن سعد من مصر واجتمعوا وقاتلوا اهلها ثم صولحوا على جزية قيمتها سبعة الاف دينار كل سنة . وفي سنة (٦٥٠ - ٣٠) امر عثمان باعتماد القران الذي كتب في عهد ابي بكر واحراق ما سواهُ من النسخ وكان مودعًا عند حفصة زوج الرسول . . . وفيها سقط خاتم النبي من يد عثمان في بئر يسمى بئراريس وكان من الفضة من ثلاثة سطور «محمد» ثم «رسول» ثم «الله» وكان يختم بهِ ويختم الكتب التي كان يرسلها الى الملوك . ثم ختم بهِ بعدهُ ابو بكر ثم عمر ثم عثمان . . . و(في سنة ٦٥٢ - ٣٢) عصت خراسان فركب عليها المسلمون وفتحوها ثانيةً

هذا وعثمان اصبح ممقوتًا من المسلمين وكثرت اضدادهُ اولاً لانهُ كان يبدد اموال بيت مالي

الامة ويصرفها لاصحابه واقربائه ولما وصل مالي افريقية وهبهُ لمروان بن الحكم كاتبه وقد انكروا ذلك عليه . قال ابن خلدون « الناس يقولون اعطاهُ اياه ولا يصح وانما اعطى ابن ابي السرح خمس الخمس من الغزوة الاولى » قلت وقد يحصل من ذلك تهمة ثانية لعثمان . ثانيا لاجل ادخاله الاسراف في خلافته نظير ملوك الفرس . وقيل لانهُ كان يتناول المسكرات . ثم لاجل عزله اهل الاستحقاق من الولاة واقامة غيرهم ممن لا استحقاق لهم من مقربيه وقد اتهموهُ بالخديعة في امر ابن ابي السرح عندما عزلهُ وولى محمد بن ابي بكر وذلك انهُ لما اضطر عثمان الى عزل المذكور عن مصر وتولية محمد عليها ذهب محمد ومعهُ عدة من المهاجرين والانصار الى مصر فالتقوا في طريقهم بعبدٍ على هجين يجدّهُ فسالوهُ الى اين فقال الى العامل بمصر فقالوا لهُ عامل مصر هنا واشاروا الى محمد فقال العبد بل العامل الاخر ففتشوهُ ووجدوا معهُ كتابا الى ابن ابي السرح مختوما بختم عثمان يقول فيه « اذا جاءك محمد بن ابي بكر ومن معهُ بانك معزول فلا تقبل واحتل بقتلهم وابطل كتابهم » فرجع محمد ومن معهُ الى المدينة واطلعوا اصحابهم على الكتاب فسالوا عثمان فاقر بان الختم ختمهُ والخط خط كاتبه مروان فطلبوا منهُ ان يسلمهم الكاتب فابى فنهضوا عليه وحاصروهُ في قصره وكان كل ذلك بعلم عائشة لانها كانت ترغب اقامة غيره من اصدقائها الاّ ان عليا والزبير وطلحة ارسلوا اولادهم للذب عنهُ وذهب علي نفسهُ الى داره ودافع عنهُ وهزم اعداءهُ ثم عاد فعادوا ودخلوا دار عثمان ونهبوها وهو في الغرفة الاخيرة ثم قبض عليه محمد اخو عائشة وتناولهُ بلحيته وطعنهُ بخنجر في صدره فركضت هند زوجتهُ لتدافع عنهُ فجاءها ضربة قطعت لها اصبعين . وتوفي عثمان (سنة ٦٥٥ ـ ٣٥) وهو يتلو المصحف صائمًا وعمرهُ من خمس وسبعين الى اثنتين وثمانين سنة وخلافتهُ ثنتا عشرة سنة

و بعد موت عثمان تجدد النزاع على الخلافة فكان عرب المغرب يريدون الزبير وعرب الشام معاوية بن ابي سفيان والمكيون محمدًا اخا عائشة و بعضهم طلحة صديقها ولكن الحزب الاقوى كانوا يريدون علي بن ابي طالب فلبس علي رداء من قطن رفيع واعتم حاملاً نعليه في اليد الواحدة وقوسهُ في الاخرى وذهب الى المسجد الجامع وبايعهُ الجميع و بايعهُ طلحة والزبير . وقد لاحظ المعرب ان الزبير لما مدَّ يدهُ لبيعة علي لم يعطها كاملة فقالوا رضاهُ كان كيده ناقصًا

ثم شرع طلحة والزبير في التحزب ضد عليّ وذهبا الى مكة ثم الى البصرة وعصيا عليه وتسلطا على العراق وكانت عائشة من حزبهما واتهمت عليًا بانهُ قتل عثمان وقد كانت هي السبب في ذلك ثم لحقت بالزبير وطلحة واخذت لها حزبًا لانها امّ المومنين قال بعض الحكماء اذا اردت ان تعلم

الى اي حد يتوصل الانتقام البشري فعليك بفحص قلب المرأة

ولما راى عليّ ذلك نهض واخذ صحبته عشرين الفًا من حزبهِ وتسعة الاف من الكوفة ومضى في طلب العصاة والتقى بهم عند البصرة واقتتلوا شديدًا فظفر عليّ عليهم مع وفرة عددهم وقتل طلحة وهذا بعث الى عليّ قبل موتهِ رسولاً يقول له « ثق فاني اموت موقنًا ببراءة شانك » ولما اخبر الرسول عليا بذلك صرخ قائلاً « ان الله لم يشا ان يدعو طلحة اليهِ الاّ بعد العفو عن ذنبهِ » اما عائشة فلم تزل تصرخ وتشدد العساكر وهي راكبة على جمل وحولها سبعون نفرًا تسوسهُ وايدٍ عديدة قطعت على خطام الجمل . ثم امرهم عليّ بعقرهِ ففعلوا وبقيت عائشة في هودجها الى الليل فادخلها اخوها محمد البصرة وطاف عليّ على القتلى من اصحاب الجمل وصلى عليهم ودفنهم ولما راى طلحة قتيلاً قال والله اني كنت أكره ان ارى قريشًا صرعى وانت والله كما قال الشاعر

فتىً كان يدنيهِ الغنى عن صديقهِ اذا ما هو استغنى ويبعدهُ الفقرُ

اما الزبير ففرَّ طالبًا المدينة فقتلهُ عمرو بن جرموز واتى براسهِ الى عليّ ثم أُرسلت عائشة الى المدينة لتصرف باقي حياتها في جوار قبر الرسول ودعي ذلك اليوم يوم الجمل

واما معاوية بن ابي سفيان فلم يقنعهُ ذلك وبقي يحزب العرب على عليّ وشيع بانهُ هو الذي قتل عثمان وامر يومًا وهو في جامع دمشق الاكبر بحضر غفير من المسلمين فجاءوا بقميص عثمان مخضبًا بدمهِ واصبعي هند زوجته واخذ يقول « انظروا يا مومنون افعال عليّ بن ابي طالب فاي مسلم لا ينهض لاخذ ثارهِ » وبمثل هذا كان يهيج عرب الشام فنهضوا لاخذ الثار والتقى العسكران في صفين (وهي بلدة ما بين دمشق والعراق على جانب الفرات الغربي) واستمر القتال مائة وعشرين يومًا وكان عمرو بن العاص من جانب معاوية املاً في ان يردهُ والبًا على مصر . واراد معاوية ان يستجلب اليهِ نفيس بن سعد العامل من قبل عليّ على مصر وقتئذٍ فابى فزوَّر عن لسانهِ كتابًا يخدع بهِ اهل الشام فيشددهم في مضادة عليّ وقيل انهُ جرى بينهم تسعون موقعة وقتل من الفريقين نحو سبعين الفًا وكان عليٌّ كما قال عنهُ ابن عباس شجاعًا لكن ليس بصاحب راي فكان يمتاز عن معاوية جراءة وانسانية واوصى عسكرهُ بان يحترموا قتلى اخوتهم ويعفوا ما امكنهم العفو وفي الموقعة الاخيرة امتطى عليّ جوادهُ ونقدم امام العسكر واستل سيفهُ ذا الفقار الشهير في تاريخ العرب وشق عساكر الشام وكان كما قيل كلما قتل رجلاً كبر وقد سمع لتكبيرهِ نحو اربعمائة مرة قلت لعل في ذلك مبالغة ولا شك انهُ يوجد من المبالغات في كل تاريخ القدماء ما يجعلنا احيانًا نشك في اصل الاخبار ذاتها . فهمَّ وقتئذٍ معاوية ان يفر ولكنهُ تبعًا لراي عمرو بن العاص فزع الى استعمال الحيل وخلص نفسهُ بنشر المصاحف في مقدمة الجيش اشارة الى طلب المهادنة . فكفَّ عليّ عن القتال وعقد الهدنة ومن هناك عاد الى

الكوفة ظافرًا بالحرب ولكنهُ صريع السياسة ولبث معاوية يحرك العجم واليمن ومصر ضد عليّ
وبينما يتحادث المسلمون يومًا في ما هو جارٍ من الشقاق والدمار في الامة حكموا ان لا راحة الاّ بقتل عليّ ومعاوية وعمرو وكان من جملة الحاضرين بعض الخارجية فتجرد منهم ثلثة وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي وعمرو بن بكر والبرك بن عبد الله التميميان من شيعة كانت قد ظهرت من ثلاث سنوات ضد الخلافة مبادئها الحرية . وذهب كل منهم لواحد من الثلثة المذكورين فالذي تجرد لقتل عمرو بن العاص قتل نائبه الجالس عنهُ يومئذٍ . وقاصد معاوية جرحهُ فقط جرحًا خفيفًا اما الثالث وهو قاصد عليّ فقتلهُ وعمرهُ اذ ذاك ثلاث وستون سنة وهي السنة الاربعون من الهجرة والستمائة والستون من الميلاد . ولما مات عليّ اخرجوا ابن ملجم من الحبس وقطعوا يديهِ ثم رجليهِ ثم كحلوا عينيهِ بمسمار محمى وقطعوا لسانهُ ثم أُحرق . وقد رثى عمران بن حطان الخارجي ابن ملجم المذكور والمسلمون يلعنون الاثنين قال

لله درّ المرادي الذي فتكت كفاهُ مهجة شر الخلق انسانا
ياضربةً من وليٍّ ما اراد بها الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
اني لاذكرهُ يومًا فاحسبهُ اوفى الخليقة عند الله ميزانا

وهذه الشيعة من الخوارج كانوا اشبه بكمون فرنسا الاخير وعليّ كان من الشعراء المفلقين والابطال الفائقين والعلماء المفلحين وهو اول من اهتم بوضع روابط للغة فامر ابا الاسود ففعل ودعي ذلك نحوًا اي قصدًا اشارة الى قصد امير المومنين عليّ

وذو الفقار هو احد السيوف الخمسة الشهيرة عند العرب المهداة على زعمهم من بلقيس الى الملك سليمان بن داود وهي ذو الفقار . وذو النون . والمخذم . والرسوب . والصمصامة . فذو الفقار كان عند الرسول اخذهُ من منبه بن حجاج في غزوة بدر . وذو النون والصمصامة انتقلا الى عمرو بن معدي كرب . والمخذم والرسوب الى الحارث بن جبلة بن الايهم الغساني . وذكر ابو عبيدة ان الصمصامة انتقل الى خالد بن سعيد بن العاص وذلك لما اغار خالد بن الوليد بني زبيد وكان ابن سعيد من جملة الامراء مع خالد وقد اسر حينئذٍ ريحانة اخت عمرو بن معدي كرب فكان فداها الصمصامة ثم ضاع في اليوم المعروف بيوم الدار وهو اليوم الذي فيهِ قتل عثمان في دارهِ ثم وجد وبقي في ايدي بني العاص الى ان جلس المهدي ابو هرون الرشيد على تخت الخلافة فكتب الى بني العاص يطلبهُ فاجابوهُ انهُ محفوظ عندهم لاجل الجهاد في سبيل الله فارسل اليهم المهدي كتابًا ثانيًا في طلبهِ وخمسين سيفًا عوضهُ قائلاً ان الجهاد بخمسين سيفًا اولى من واحد فبعثوهُ اليهِ . ولما نهض موسى الهادي اخو هارون اخرج السيف من الخزنة وامر الشعراء بوصفهِ ففعلوا ومن ذلك قول بعضهم

حاز صمصامة الزبيدي عمرو من جميع الانام موسى الامينُ
ما يبالي من انتضاهُ لضربٍ اشمالٌ سطت بهِ ام يمينُ

ولم يزل الصمصامة ينتقل من خليفة الى اخر في بني العباس الى عهد المتوكل وهذا اعطاهُ الى غلام تركي وهو الذي قتله به فيما بعد ومن ثم تداولته ايدي سبا ولا يعلم ما حل بهِ بعد ان صار تركيًا واما بقية السيوف فلا خبر عنها سوى ان ذا الفقار المار ذكرهُ كان عند علي بن ابي طالب

وعمرو بن معدي كرب بن عبد الله الزبيدي المكنى بابي ثور له غارات كثيرة ووقائع وافرة واسلم عن يد الرسول وهو راجع من غزوة تبوك وعاش الى دهر عثمان وكان علة لانتصار الاسلام في غزوات كثيرة منها وقعة القادسية ووقعة يرموك . ونقل المدايني ان عمرًا في بعض غزواتهِ مع سليمان بن ربيعة امير الجيش قال له سليمان وقد نظر فرسهُ يا عمرو ان هذا الفرس هجين فقال عمرو لا بل عتيق فأراد سليمان بن ربيعة اثبات هجنتهِ فاتى بزردية وملاها ماء وعرضها على بعض العتاق فشربت بلا توقف فعرضها على فرس عمرو فرفع يدهُ وضرب بها الارض ثم شرب فقال سليمان يا عمرو هذه علامة الفرس الهجين فانفعل عمرو وقال والله لا يعلم الهجين الا الهجين . فتكدر سليمان من جوابهِ ووصل الخبر الى عمر بن الخطاب فامر ان يكتب لعمرو على هذا المعنى « لقد بلغني تطاولك على امير جيوش الاسلام واغترارك بسيفك الصمصامة فاعلم ان سيفي مويد من لدن الله تع ان جعلتهُ على فرق راسك قطعك نصفين الى وسطك فان اردت ان تعلم حقيقة ذلك فاعد ما قد قلتهُ »(والهجين من الخيل ما كان في نسبهِ هجنة اي عيب والعتيق الخالص النسب الخالي من العيب والنقص)

وقُتل علي في جامع الكوفة ولهذا يظن انهُ دفن هنالك فاخفى قبرهُ عن بني امية وقتئذٍ ولم يظهر الاَّ فيما بعد بمدة طويلة فاقيم على خراب الكوفة حجرة وجامع وبلدة تدعى مشهد علي والبها تحج اتباعهُ من العجم قائلين بانهُ خليفة الله ويعتبرون الحج الى مشهدهِ كالحج الى الحرمين . ومن هذا جاء الاختلاف بين السنية والشيعية فان الشيعية لا يسلمون الاَّ بخلافة علي ويلعنون الخلفاء الثلثة الاولين ويقولون بكرامة قاتل عمر ويرفضون ما نقلوهُ عن الرسول وما اوصوا به المومنين وهي السنة اما السنية فيقولون بصحة خلافة الجميع دون فرق ويعتقدون بضرورة السنة وهي الحديث النبوي والمحدثون عن الرسول ستة اوائل وهم عائشة ام المومنين زوج النبي بنت ابي بكر وابو هريرة صديقهُ الخاص وابن عباس عمه وعمر امير المومنين وجعفر بن عبد الله وانس بن مالك وقد جمع ذلك كلهُ الزهري في المائة من الهجرة في كتاب يدعى المخلص وكان يقطن دمشق وجملة المنقول

عن النبي مما اجمع الجميع على صدقهِ خمسة الاف وستة وستون حديثًا

وبعد موت علي بن ابي طالب خلفهُ ابنهُ الحسن ولقب بالامين لتفضيلهِ الامان في المسلمين على خير نفسهِ . وقد كان يميل اولاً الى اخذ الثار من معاوية وعزلهِ عن دمشق لولا تذمر العساكر من طول الحرب والشقاق في الامة حتى ان احدهم جرحهُ بيدهِ اليسار لكي يعدل عن ذلك فخلع نفسهُ عن الخلافة مفضلاً السكنى بقرب قبر الرسول على الاقامة بصروح الكوفة ومن بعد ذلك دامت الخلافة لبني امية اعني لبني ابي سفيان الذي كان يحارب النبي وعادت ارثية فيهم غب ان كانت شورية

وكان الحسن تقيًا عادلاً صفوحًا حتى انهُ عفا عن الذي سقاه السم بامر معاوية ولم يجب فضيحتهُ مع الحاح حزبه عليهِ لينتقموا منهُ . فكان يقول لهم يا اخوتي الحيوة الدنيا فانية فدعوا الخائن يستريح قليلاً فاننا سوف نلتقي في حضرة الله تعالى وهناك يجازى على عملهِ . والحسن تزوج نساء كثيرة . وكان مطلاقًا وقد سقتهُ السم زوجتهُ جعدة بنت الاشعث باغراء معاوية وقيل ولده يزيد فانهُ وعدها بانهُ يتزوج بها ففعلت ولم يفعل ومات سنة ٤٩

ثم انفذ معاوية الولاة والعمال فبعث الى الكوفة المغيره بن شعبه وهذا استعمل كثير بن شهاب على الري وكان يغزو الديلم وولى على البصرة بسر بن ارطاة ثم عزلهُ وولى ابن عامر وجعل اليهِ معها خراسان وسجستان سنة ٤١

وكان قد ولى على خراسان قيس بن هيثم السلمي وكان اهل بلخ و باذغيس وهراة و بوشنج قد نهضوا فسار الى بلخ وحاصرها حتى استامنوا ثم قدم قيس على ابن عامر فضربهُ وسجنهُ وولى عوضهُ عبد الله بن حازم وولى على المدينة سنة ٤٢ مروان ابن الحكم وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام وكان زياد بن سمية بفارس فامتنع ولم يخضع لمعاوية فصالح بينهما المغيرة وعاملهُ معاوية بالرفق وحاسبهُ على مال البلاد بموجب قولهِ وقيل انهُ صالحهُ على الفي الف درهم

واستعمل ابن عامر على الثغور فجعل عبد الرحمن بن سمرة على سجستان وكانوا قد رجعوا عن الاسلام فحاربها وفتح اكثرها حتى بلغ كابل وحاصرها اشهرًا وركب عليها المنجنيقات وثلم ثغورها ودخلها عنوةً . ثم الى «نسف» فملكها عنوةً ثم الى «حسك» فصالحوهُ ثم الى «الرجج» ففتحها ثم الى «زابلستان» وهي «غزنه» واعمالها ففتحها ثم عاد الى كابل وقد نكث اهلها ففتحها واستعمل على الهند عبد الله بن سوار العبدي فغزا «القيقان» وغنم واهدى لمعاوية من خيولها ثم غزاهم ثانيةً واستنجد بالترك فقتل ثم اقام عوض بن حهيثم عبد الله بن حازم فخاف قيسًا فبعث رجلاً من «يشكر» وقيل اسلم بن زرعة الكناني ثم بعث عبد الله بن حازم

ثم وُجد ابن عامر لينًا على السنها فعزل وولى مكانه الحارث بن عبد الله الازدي . ولما استلحق معاوية زيادًا سنة ٤٤ ولاهُ على البصرة وخراسان وسجستان ونحوها وولى زياد خراسان لاربعة فاقام امين بن احمد اليشكري على مرو . وخليد بن عبد الله الحنفي على نيسابور . وقيس بن الهيثم على مروروز والفاريات والطالقات . ونافع بن خالد الطاحي على هراة وباذغيس وبوشنج

وبعد ان استوثق الملك لمعاوية هم على اكمال فتح افريقية والركوب على القسطنطينية وكان الافريقيون انفسهم قد دعوه اليهم لما كانوا يحملون من جور بطريرك قرطاجنة وكان يسوسهم في الزمنيات ايضًا واول قائد توجه من طرف معاوية الى افريقية هزم عسكرًا من ثلاثين الفًا من الروم واسر منهم ومن الاهالي ثمانين الفًا واغنى عساكر الشام ومصر من المكسب . اما لقب فاتح افريقية فقد حق لعقبة بن نافع فان هذا الامير ترك الشام بعشرة الاف وبعد ان جمع الوفًا من الافريقيين انفسهم سار نحو البحر المتوسط ولا يعلم اي طريق اتخذ وقاد بهِ عساكرهُ ولعلهُ طريق طنجه وهي التي كانت العرب تقول عنها لغناها ان اسوارها من حديد واعالي ابنيتها الشامخة من الذهب والفضة وانهُ تقدم من هنالك قاطعًا القفار حيث اقام خلفاوهُ بعدهُ مدينتي فاس ومراكش ووصل الى ساحل المحيط (سنة ٤٥ - ٦٦٥) وقابل هنالك بجوادهِ تلك الامواج المتلطمة صارخًا بصوت عال « والله العظيم لولا هذا البحر الواسع المظلم لسرت الى ممالك المغرب ونادبت بوحدة الله القدوس وقتلت بحد السيف العصاة التي تسجد لغيرهِ تع » لكنهُ مع كل هذا الادعاء لم يقدر على ضبط عساكرهِ في الاماكن التي فتحها وتركتهُ السودان والامم التي كانت قد انضمت اليهِ ووجد نفسهُ اخيرًا محاطًا بقوم خائنين وجرع كاس المنية مكرهًا واخر موقعة في حياتهِ كانت نموذجًا شريفًا لكرم طباع العرب وذلك انهُ كان قد قبض علي احد القواد الذي كان ينازع عقبة على الامارة وجيء بهِ الى عقبة فظن العصاة من الجنود ان القائد المذكور لبغضهِ عقبة يوافقهم لا ريب على قتلهِ فنحوهُ بذلك اما هو فغضب ورفض طلبهم واعلم بهِ خصمهُ فامر عقبة ان يحل من قيودهِ في الحال ويترك سبيلهُ اما ذلك الامير فابي الذهاب مفضلاً ان يموت معهُ وحينئذٍ تصافحا وتلاثما وودع احدهما الاخر وانتضيا سيفيهما واوقعا بالعصاة المخالفين وبعد ان اثخناهم وقعا مجندلين وقام بعد عقبة ابن الزبير وهو اخذ بثار سالفهِ ثم لاقى ما لاقاهُ لان السودان كانوا يتفقون مع العرب ويدينون بدينهم ما وجدوا لهم ربحًا فاذا لم يجدوا رجعوا الى عوائدهم ودينهم وغدروا بالمسلمين

وعقبة هو الذي بني القيروان (سنة ٦٧٠ - ٥٠) في اواسط افريقية نحو خمسين ميلاً عن زويله وبرقه واقام لها سورًا من الآجر دائرهُ ثلاثة الاف وستمائة خطوة ونمت في خمس سنوات نموًا عظيمًا واقيم بها جامع كبير على خمسمائة عمود من الكرانيت وصارت كرسي الملك والعلوم وهي الان

بعد انحطاطها تعتبر المدينة الثانية في امارة تونس

وولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع جيحون الى سمرقند والصغد وهزم الترك وسار الى ترمذ وفتحها بالامان ومعهُ قتل قثم بن عباس ودفن بسمرقند ومات اخوهُ عبدالله بن عباس فدفن بالطائف واخوهما الفضل بالشام ومعبد بافريقية فضرب المثل ببعد مدافن هذه الاخوة الاربعة

ودخل المسلمون (سنة ٤٣) الى بلاد الروم فهزموهم وقتلوا جماعة من البطارقة ثم دخل بسر بن ارطاة ارضهم (سنة ٤٣) وبلغ القسطنطينية ثم دخل عبدالله بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحرًا ثم دخل اليها عبد الرحمن السبيعي (سنة ٤٦) فشتي بها وشتى ابوه على انطاكية ثم دخلوا (سنة ٤٨ فشتى عبد الرحمن بانطاكية ودخل عبدالله بن قيس الفزاري في تلك السنة بالصائفة وغزاهم مالك بن هبيرة اليشكري في البحر وعقبة بن عامر الجهني في البحر ايضًا باهل مصر واهل المدينة ثم دخل مالك بن هبيرة (سنة ٤٩) فشتى بارض الروم ودخل عبدالله بن كرز الجبلي بالصائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوي في بلاد الروم باهل الشام في البحر وعقبة بن نافع باهل مصر كذلك

ولما نظر المسلمون امتداد قوتهم وان لا شي يقدر على مقاومتهم سير معاوية (سنة ٦٦٨-٤٨) وقيل (سنة ٦٧٠ـ٥٠) جيشًا كثيفًا الى القسطنطينية مع سفيان بن عوف فاوغلوا في بلاد الروم والقوا الحصار على المدينة وكان في الجيش ابن عباس وعمرو بن الزبير وابو ايوب الانصاري الذي شهد بدرًا واُحد وحروب صفين وتوفي مدة الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية وبعد ان صدموا المدينة عدة مرات لم يقدروا على شي بل هزمهم الروم بجراءة وعربست النار الاغريقية حركاتهم فكانت تحرق من فوق ومن تحت الما وكان معهم يزيد بن معاوية وقد اصابهم الجوع والمرض فانشد في ذلك وبلغ معاوية

ما ان ابالي بما لاقت جموعهم بالفدفد البيد من حمى ومن شوم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقًا بدير مرّان عندي ام كلثوم

وام كلثوم امرأته بنت عبدالله بن عامر ثم رجع يزيد والعساكر الى الشام

والنار الاغريقية التي فقدت الان قيل ان الذي اخترعها كان كالينيكوس من اليابولس الشامية لا المصرية فان هذا الرجل خدم في دار القياصرة وكان من المهندسين والكيمويين المعتبرين ودعيت الاغريقية لان الاغريق اول من استعملوها ولم يبيحوا بها لاحد بل حفظوا كل ذلك سرًّا عميقًا ولا كتبوا عنها فعادوا يخمنون عليها فيما بعد قالوا ان النفط احد اجزائها لكنهُ لا يعلم مقدار ما يوضع

منة مع الكبريت والقطران

وكان يخرج من هذا المركب دخان كثيف ولهيب محرق يستقر مدة ولم تكن ترتفع على خط مستقيم فقط بل كانت تحرق على الجوانب والاسافل وكان الماء يزيدها اشتعالاً عوض ان يطفئها وكان الروم يدعونها النار المائعة والبحرية ويستعملونها برًّا وبحرًا في الطراد وفي الحصار يرمونها من فوق السور بالخلاقين والحجار وقطع الحديد والحربات ونحوها ملفوفة بالكتان المغمس بالزيت وكانوا يضعونها احيانًا في قوارب حديد ويشعلونها ثم يطلقون تلك القوارب فتسير وتحرق اماكن عديدة وكانوا احيانًا يرشقونها بمكعبات حديدية مركزة جاعلين افواه تلك المكعبات كرؤوس تنانين ووحوش ضارية تقذف من اجوافها نارًا وكانت موادها محفوظة بكل صرامة في القسطنطينية لا غير ولما كان الروم يقدمون عساكرهم للرومان لم يكونوا يبيحون بسرها وعند ما سئل قسطنطين فورفرغنيطوس عن ذلك اجاب ان ملاكًا اعلن ذلك السر لرئيس النصارى فلا يقدرون ان يعلموا به احدًا ولبثت محفوظة هكذا اربعة اجيال الى ان ذاقها رجال معاوية وقيل تعلموها واستعملوها وبقيت هذه النار مستعملة الى الجيل الرابع عشر عند ما اكتشف على البارود المركب عن النطرون والكبريت والفحم وعلى ذلك فيكون اختراعها في الجيل الثالث للنصرانية ولكن لا برهان صريح على اكتشاف العرب لها واستعمالها في حروبهم الا ان يكون ذلك بعد ركوبهم على القسطنطينية وانهم كانوا يستعملونها قليلاً وعلى خفاء ولعل فيما قد جاء من انهم استعملوا النفط وكانوا يحرقون به البلاد اشارة الى ذلك . وهذه اول مرة صادفت عساكر المسلمين صدًّا في تقدمهم مدة الخمسين سنة الاولى من حروبهم وقد اراقوا انهرًا من الدم وخربوا مئات من العواصم والمدن والوفًا من الدساكر والقرى وهزموا ربوات من الرجال ويتموا ورملوا ما لا يعد من البشر والقول اساس ملك يتهدد العالم باسره بالدمار لاجل الدين اولاً ثم لاجل الدنيا وعند ما دانت لهم الممالك وكثرت الغنائم وجزلت لهم الثروات وجدوا في مداومة الفتح افضل خير وسعة من سكون القرار ..

فصل

في الربع الثالث من القرن الاول

ولما طرد العرب من امام القسطنطينية التزموا بعقد شروط المهادنة في مجلس دمشق في محضر الامراء الى ثلثين سنة على ان يقدم امير المومنين كل سنة خمسين نجيبًا وخمسين مملوكًا وثلاثة الاف ذهب . وبعد ذلك اراد معاوية ان يقضي بقية عمره بسلام لكنه لم يسلم من تعدي موارنة جبل لبنان مع ان العرب والعجم والهند وافريقية كانت ترتعد من ذكره فكانوا يصلون بغزواتهم الى

ابواب دمشق وصاروا سندًا قويًا لملوك الروم الى ان اساءوا معاملتهم ايامهم فاخذوا سلاحهم ونقلوهم الى مكان ثانٍ

وتوفي معاوية (سنة ٦٨٠ - ٦٠) وعمره بين السبعين والخمس والسبعين وكان عندما ثقل مرضه وعاده الناس يظهر تجلده وقد قال

وتجلدي للشامتين اريهم   اني لريب الدهر لا اتضعضع
واذا المنية انشبت اظفارها   الفيت كل تميمة لا تنفعُ

وكان معاوية ملكًا عادلاً حازمًا داهية عالما بسياسة الملك وكان اول من استعمله على الشام عمر بن الخطاب مدة اربع سنين واقره عثمان مدة خلافته اثنتي عشرة سنة ثم تغلب عليها محاربًا عليا فكان اميرًا وملكًا اربعين سنة وخلافته نحو تسع عشرة سنة وكان حلمه قاهرًا لغضبه وجوده غالبا منعه ومما نقل عنه في تاريخ القاضي جمال الدين بن واصل ان اروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن هاشم دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة فقال لها معاوية مرحبا بك ياخالة كيف انت . فقالت بخير يا ابن اختي لقد كفرت النعمة واسأت لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك واخذت غير حقك وكنا اهل البيت اعظم الناس في هذا الدين بلاء حتى قبض الله نبيه مشكورًا سعيه مرفوعًا منزلته فوثبت علينا بعدهُ تيم وعديّ وامية فابتزونا حقنا ووليتم علينا فكنا فيكم بمنزلة بني اسرائيل في آل فرعون وكان علي بن ابي طالب بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى فقال لها عمرو بن العاص فاتح مصر «كفى ايتها العجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك» فقالت «وانت يا ابن النابغة تتكلم وامك اشهر بغي بمكة وارخصهن اجرة وادعاك خمسة من قريش فسئلت امك عنهم فقالت كلهم اتاني فانظروا اشبههم به فالحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فالحقوك به» . . . فقال لها معاوية عفا الله عما سلف هاتي حاجتك . فقالت اريد الفي دينار لاشتري بها عينًا فوارة في ارض خرارة لتكون لفقراء بني الحارث بن عبد المطلب والفي دينار اخرى ازوج بها فقراء بني الحارث . والفي دينار استعين بها على شدة الزمان . فامر لها معاوية بستة الاف دينار

ومعاوية اول من بايع ولده ووضع البريد وعمل المقصورة في المسجد وخطب جالسا قالوا ولما عهد لولده يزيد بايعه اهل الشام والعراق وكان مروان بن الحكم واليًا في الحجاز فاستصعب مبايعته فامتنع الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر وعبدالله بن الزبير في المدينة وامتنع الناس لامتناعهم فحضر معاوية بالف فارس وكلم عائشة في امرهم فبايعه الناس الا الاربعة ومما آخذوا به معاوية استلحاقه زياد بن سمية جارية الحارث بن كلدة الثقفي التي كان قد زوجها

الحارث بعبد له رومي يسمى عبيدًا وولدت سمية زيادًا على فراشه فهو ولد عبيد شرعًا وقد الحقهُ معاوية بنسب بني امية (سنة ٤٤) وذلك لان ابا سفيان (ابا معاوية) كان قد سار في الجاهلية الى الطائف ونزل على خمار يدعى ابا مريم فاتى له ابو مريم بالجارية المذكورة وقيل انها علقت منهُ بزياد وولدتهُ في اول سنة من الهجرة . ونشا زياد فصيحًا خطيبًا وحضر زياد يومًا بمحضر من الصحابة في عهد عمر الفاروق فقال عمرو ابن العاص لو كان ابو هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه فقال سفيان لعلي بن ابي طالب اني اعرف من وضعهُ في رحم امهِ فاجابهُ علي فما يمنعك من استلحاقهِ قال اخاف من الاصلع اي عمر ثم وقعت الصحبة بين زياد المذكور وابي المغيرة ولما ولى علي استعمل زيادًا على فارس فقام بولايتها احسن قيام ولما سلم الحسن الامر الى معاوية امتنع زياد بفارس ولم يخضع لمعاوية واهم ذلك معاوية وخاف ان يدعو الى احد من بني هاشم ويعيد الحرب وكان معاوية قد ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة فاستمال المغيرة زيادًا واقنعهُ بالقدوم على معاوية ففعل وبايع معاوية فاستلحقهُ معاوية وخالف بذلك الشرع وقول الرسول «الولد للفراش وللعاهر الحجر»

واتى بشهود النسب من جملتهم ابو مريم الخمار ثم ولاهُ البصرة واضاف اليهِ خراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعمان وقدم زياد (سنة ٤٥) البصرة فسدد امر السلطنة واكد الملك لمعاوية وجرد السيف واخذ بالظنة وعاقب على الشبهة فخافهُ الناس خوفًا شديدًا ثم ولاهُ الكوفة عند موت المغيرة فترك البصرة وحضر اليها واستناب سمرة بن جنوب وكان سفاكًا نظيرهُ . فكان زياد يقيم نصف سنة في الواحدة ونصفًا في الاخرى وهو اول من سير بين يديهِ بالحراب والعمد واتخذ الحرس خمسماية لايفارقون مكانه . وقد ساء هذا الاستلحاق لزياد بني امية فان زياد بن عبيد الرومي صار من بني امية بن عبد شمس بن مناف بن قصي وقد قال عبد الرحمن بن الحكم في ذلك ابياتًا منها

الا ابلغ معاوية بن صخرٍ لقد ضاقت بما تاتي اليدانِ
اتغضب ان يقال ابوك عفٌ وترضى ان يقال ابوك زاني

قال القاضي جمال الدين بن واصل «اربعة خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه الاّ واحدة لكانت موبقة وهي . اخذهُ الخلافة بالسيف واستخلافهُ ابنهُ يزيد وكان سكيرًا . وادعاوهُ زيادًا وقد قال الرسول صلعم الولد للفراش وللعاهر الحجر . وقتلهُ حجر بن عدي واصحابهُ» وكان حجر من اعظم الناس تعبدًا في الاسلام

ولما نهض يزيد بن معاوية على تخت الخلافة ظهر الحسين بن علي بعد رجوعهِ من جهاد بزنطية

بريد امارة المومنين هو ايضًا مستندًا على قائمة ارسلت له من الكوفة الى المدينة فيها مائة واربعون الف اسم اصحابها متجردون للقيام معهُ حالما يصل الى الفرات. فهو دون ... يذعن لمشورة اصحابهِ ركب وتجاوز القفار ولما وصل الى العراق عرف حينئذٍ سوء رأيهِ وثقتهُ بقوم خدعة وكتابات انذال الزمان اذ وجد نفسهُ متروكًا منهم وحولهُ خمسون الف فارس من الاعداء يسدون عليهِ المنافذ وقبلهُ اربعة الاف فارس واذ راى نفسهُ في سهول كربلا مع اثنين وثلاثين فارسًا واربعين نفرًا من اصحابهِ طلب الى عمر بن سعد اما ان يمكّن من العود من حيث اتى واما ان يجهز الى يزيد بن معاوية او يترك لان يلحق بالثغور. فكتب عمر الى ابن زياد عامل يزيد يسالهُ ان يجاوب الحسين الى احد هذه الامور فاغتاظ بن زياد وارسل الى عمر بن سعد مع شمر بن ذي الجوشن يقول لهُ. اما ان تقاتل الحسين وتقتلهُ وتطا الخيل جثتهُ او تعتزل ويكون الامر لشمر. فعول عمر بن سعد على قتالهِ وارسل اليهِ قائلاً تقدم خاضعا كاسير ومذنب او تحضر لما تكون عاقبة العصاة فاجابهُ الحسين اتظن انك تخوفني بكلامك ورجع يهتم تلك الليلة بترتيب امورهِ واسلم امرهُ لله تع وكان يعزي اختهُ فاطمة التي كانت تنوح على انقراض اهلها وتشتتهم بقولهِ « يجب ان نتكل على الله تع وحده فان كل ما في السماء والارض زائل راجع اليهِ فابي واخي وامي كانوا افضل مني وموت النبي يكفي للجميع مثلاً » ثم قال لرفاقهِ قد اذنت لكم فاذهبوا في هذا الليل وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم. فقال اخوهُ العباس لن نفعل ذلك لنبقى بعدك وفي الغد ركب الحسين على فرسهِ حاملاً باليد الواحدة القرآن وبالاخرى السيف وبعد ان حصن جماعتهُ انفسهم ظهرًا وجانبًا وحفروا خندقًا عميقًا واشعلوا فيهِ النار كعادة العرب ليثبوا مكانهم فتجرد البعض من عساكر عمر بن سعد لاسرهم واقتسام ما معهم فصدمهم رجال الحسين صدمة عظيمة فتكاثروا عليهم وسقطوا كلهم قتلى اما الحسين فانهُ من التعب وقع على مدخل خيمتهِ وقيل اشتد بهِ العطش فتقدم ليشرب فرمى بسهم فوقع في فمهِ. ثم احتز راسهُ سنان بن انس النخعي وقيل شمر بن ذي الجوشن ومات بين يديهِ ابنهُ وابن ابنهِ. وقيل عندما جرح في فمهِ رفع يديهِ الى السماء وطلب من اجل الاحياء والاموات وخرجت اختهُ من الخيمة في حالة الياس وتضرعت الى رئيس الجيش بان لا يدع اخاها يموت امامها. ثم سار الحسين نحوهم مسلمًا نفسهُ وكانت تنشق من امامهِ صفوف الابطال وكان القائد المذكور يعيره لذلهِ. والحال انهُ لم يمت الاّ بعد ثلاث وثلاثين طعنة رمح وسيف وروي انهُ قتل مع الحسين من اولاد علي اربعة هم العباس وجعفر ومحمد وابو بكر ومن اولاده اربعة ومن غيرهم ايضًا. وامر يزيد بان يوتى اليهِ بكل نسل علي الى دمشق وكان في نيتهِ استئصالهم لكنهُ عفا عنهم وجهزهم الى المدينة نساءً واطفالاً. ولما وصلوا اليها لقيتهم نساء بني هاشم حاسرات وفيهنَّ ابنة عقيل بن ابي طالب وهي تبكي وتقول ..

ماذا تقولون ان قال النبي لكم ماذا فعلتم وانتم اخر الامم
بعترتي وبـ ـبي بعد مفتقدي منهم اسارى وصرعى ضرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم ان تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

ولم يزالوا يتسلسلون الى الثاني عشر منهم وهو المهدي وهم المدعوون ايمة ويوقرهم الفرس وجميع المسلمين وكانوا محسودين من الخلفاء والمهدي اخرهم كان منفردًا في مكان قريب بغداد ولم يعلم زمان موته ولا مكانه ويقول اتباعهُ انه لم يمت وانه سياتي قبل يوم الحساب

وكل من اصحاب الدعوى وحب الشرف كانوا يدعون بالقربى منه فاخر حكام اسبانيا من المسلمين كانوا يحكمون باسم مهدية وحكام مصر والشام باسم فاطمية وحكام اليمن سلطانية والعجم صوفية · اما معز الدين احد خلفاء مصر فكان يقول ان سيفه اصله وما له عساكرهُ وآله اولاده · ولم يكن يكترث بهذه القرابة و(في سنة ٦٨٣ـ٦٤) توفي يزيد وهو من الملعونين عند المسلمين لانه امر بنهب المدينة مرة وكان قليل الدين والايمان ويشرب الخمر واول من ادخل المماليك في خدمته وكان ذلك مكروهًا في اول الامر لدى المسلمين وكان يعز الكلاب

وعلى يزيد تخلف معاوية الثاني ولدهُ ولكنه خلع نفسه لعدم قدرته على تحمل مشقة الخلافة · وابى ان يسمي له عوضا حسب طلب الامة بقوله من كوني لم اتمتع بنعيم الخلافة فمن الظلم ان احمل ما هو كريه منها فاذا كان ابو بكر عمل بخلاف ذلك فانه كان له عمر بنتخبه والان لا وجود لمثل عمر بين العرب فدعوني لا اثقل ذمتي واترك لكم الاختيار والحكم على ذلك على اني اقدر ان اقفي عمر فاقيم لكم ستة اشخاص لينتخبوا لكم خليفة · وهكذا جرى واقام المختارون مروان بن طريد (سنة ٦٨٣ـ٦٤) اما في مكة فانهم بايعوا عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذٍ بالمدينة فقصد المسير الى عبدالله ومبايعته ثم توجه مع من توجه من بني امية الى الشام · · وبايع لابن الزبير اهل البصرة واجتمعت له اهل الحجاز واليمن وبعث الى مصر فبايعه اهلها وبايع له في الشام سرًّا الضحاك ابن قيس وبحمص النعمان بن بشير الانصاري وبقنسرين زفر بن الحارث · ولو صانع ابن الزبير بني امية قليلاً لاستقر له الامر ولكن ابن الزبير شجاعًا كثير العبادة · هذا من جهة الزبير · اما من جهة بني اميه فلم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم بالشام فاجتمع اليه بنو امية وافترق اهل الشام الى يمانية مع مروان والى قيسية مع الضحاك بن قيس وجرت امور يطول شرحها واقتتلوا اخيرًا بمرج راهط وانهزم الضحاك وحزبه اقبح هزيمة وقتل فرسان كثيرون من قيس ودخل مروان دمشق وذهب الى دار الخلافة واجتمع اليه الناس وتحزب له زفر بن الحارث واستوسق الشام ومصر لمروان والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير · وفي السنة نفسها هدم ابن الزبير الكعبة وحفر اساسها وادخل الحجر

فيها واعادها على ما كانت عليهِ . وامر مروان رعاياهُ بان لا يحجوا الى هنالك بل الى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب الشام مع مروان وبني فاطمة ولكن مروان لاشى الحزب الفاطمي ونهض لحرب الشيعية من العجم وبددهم في سهول عين ورد . وبعد حلول السلام بايع مروان ولدهُ عبد الملك وقد كان قبلاً حلف بانهُ يعهد لخالد بن يزيد . فتعتب عليهِ خالد فغضب وسماه ابن زانية وكان مروان مزوجا بام خالد المذكور وهي عند سماعها ذلك اغتاظت ورجحت الوالدية على الزوجية وقتلت مروان بوضعها على وجهه رداء مشربا بالسم وفوق الردا مخادًّا ثم جلست فوقها فنطس وكان عمره ثلاثا وستين سنة ومدة خلافتهِ تسعة اشهر وذلك (سنة ٦٨٤ـ٦٥)

ثم نهض عبد الملك بن مروان بن الحكم المتخلف على معاوية بن يزيد بن معاوية وهو الخامس من بني امية والحادي عشر من بعد النبي واستتبت له الامر بالشام ومصر وقيل انهُ لما اتتهُ الخلافة كان قاعدًا والمصحف في حجرهِ فاطبقهُ وقال هذا اخر العهد بك

(وفي سنة ٦٨٥ـ٦٦) خرج المختار من العلوية بالكوفة طالبًا بثار الحسين وبايعهُ الناس واجتمع اليهِ خلق كثير واستولى على الكوفة واراد الاخذ بدم اهل البيت وطلب شمر بن ذي الجوشن وظفر بهِ وقتلهُ واحاط بدار خولي الاصبحي صاحب راس الحسين وقتلهُ واحرقهُ بالنار ثم قتل عمر بن سعد بن ابي وقاص صاحب الجيش الذي قتلوا الحسين وقتل حفص بن عمر المذكور وبعث براسيهما الى محمد بن الحنيفة بالحجاز واتخذ المختار كرسيًا وادعى ان فيهِ سرًّا نظير تابوت عهد بني اسرائيل وارسل المختار عسكرًا لقتال عبد الله بن زياد بن ابي سفيان المار الذكر وكان عبد الله واليًا على البصرة فولاهُ يزيد على الكوفة فقدم اليها ليرى ما كان الناس عليهِ وهو الذي قتل مسلم بن عقيل بن ابي طالب الذي كان الحسين قد ارسلهُ الى الكوفة لياخذ له البيعة وكان المختار قد استولى على الموصل لما ارسل لقتال عبد الله وقدم على الجيش ابرهيم ابن الاشتر فاقتتلوا شديدًا وانهزم اصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له ابرهيم المذكور في الموقعة واخذ راسهُ ثم احرقوا جثتهُ ورُميت بالزاب ثم ولى ابن الزبير اخاهُ مصعبًا على البصرة فاستدعي مصعب المهلب بن ابي صفرة من خراسان فاتاهُ بمال ورجال عديدة وسارا الى قتال المختار وحصراهُ في قصر الامارة بالكوفة وقتل المختار واصحابهُ سبعة الاف نفس وذلك (سنة ٦٨٦ـ ٦٧

ثم تجهز (سنة ٦٩٠ ـ٧١) عبد الملك وسار الى العراق لقتال مصعب بن الزبير والتقى الجمعان واقتتلا وكان اهل العراق قد كاتبوا عبد الملك فتخلوا عن مصعب وقتل مصعب وابنهُ بدير الجاثليق عند نهر دجيل وعمرهُ ست وثلاثون سنة وكان مصعب صديق عبد الملك قبل خلافتهِ ودخل عبد الملك الكوفة وبايعهُ الناس واستوثق ملك العراقين

وجهز عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي (سنة ٦٩١ ـ ٧٢) في جيش الى مكة لقتال عبد الله بن الزبير فسار الحجاج وحاربهُ وفي اخر الامر حاصرهُ بمكة ورمى البيت الحرام بالمنجنيق ودام الحصار (الى سنة ٦٩٢ ـ ٧٣) وقتل ابن الزبير في جمادي الاخرى بعد قتال سبعة اشهر وكان عمرهُ زهاء ثلاث وسبعين سنة ومدة خلافتهِ تسع سنين وبعد قتلهِ بايع الناس في الحجاز واليمن لعبد الملك ثم هدم الحجاج الكعبة (سنة ٦٩٣ ـ ٧٤) واخرج الحجر عن البيت وبناهُ على ما كان عليهِ في عهد النبي وانتصب الحجاج اميرًا على الحجاز الى ان ولّاهُ عبد الملك على العراق (سنة ٦٩٤ ـ ٧٥)

وكانت الصوائف قد تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية. والصوائف هي الجيوش التي كانت تجهز زمان الصيف لسد الثغور وضرب العدو ودام ذلك من اول الاسلام الى اخر الدولة العباسية فاجتمعت الروم في زمان عبد الملك واستجاشوا على اهل الشام فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على ان يحمل اليهِ كل نهار جمعة الف دينار وذلك (سنة ٧٠) ولما قتل مصعب بن الزبير وسكنت الفتن بعث عبد الملك الجيوش (سنة ٧١) في الصائفة فدخلت الروم وفتحت قيسارية وولى على الجزيرة وارمينية اخاهُ محمد بن مروان (سنة ٧٣) فدخل في الصائفة الى بلاد الروم وهزمهم ودخل عثمان بن الوليد من ناحية ارمينية في اربعة الاف ولقية الروم فهزمهم. ثم غزا محمد بن مروان (سنة ٧٤) فبلغ انسوايه وغزا سنة ٧٥ في الصائفة عن طريق مرعش فدوخ بلادهم وغنم

فصل

في الربع الرابع من القرن الاول

وبعد ان ولى عبد الملك الحجاج على العراق حدثت حروب كثيرة بين الحجاج والازارقة وشبيب الخارجي وعبد الرحمن بن الاشعث لا محل لذكرها هنا وكان النصر فيها للحجاج واقام الحجاج مدينة واسط (سنة ٨٣ ـ ٧٠٢) وفيها او في التي قبلها توفي خالد بن يزيد بن معاوية وكان من المعدودين بالسخاء والعقل والفصاحة ومن فحول العلماء واهل الكيمياء ولهُ اشعار جميلة في الغاز الحجر الكريم وكيفية استخراجه وكان يذهب الى صدق الكيمياء الذهبية ولم تزل مولفاتهُ للان

واقام عبد الملك مستشفيات للمرضى وخانات للغرباء بدمشق واخذت بعد ذلك تمتد هذه الابنية في كل بلاد المسلمين وتوفي عبد الملك سنة ٧٠٤ ـ ٨٥) وخلفهُ الوليد ابنهُ

وفي عهد الوليد اكمل العرب فتح افريقية ولاشوا مملكة الغوط في اسبانيا وتغلغل الحجاج بن يوسف في بلاد الترك وقتيبة فيما وراء النهر ففتح الطالقان وسمرقند وغزا كش ونسف والشاش وفرغانه وفتح محمد الثقفي بلاد الهند وولى الوليد ابن عمهِ عمر بن عبد العزيز المدينة فاختار عبد العزيز

عشرة من فقهائها لا يقضي امرًا بدون اخذ رايهم اولاً وكان عبد الملك ابو الوليد قد امر حسنًا والي مصر بتجديد حرب افريقية وهذا غب ان اخذ قرطاجنة ونهبها عاد الى القيروان لما قدم يوحنا قائد جيش الروم بعسكر غفير من القسطنطينية وقدم له مراكب وعسكر من صقلية واسبانيا كانت قد ارسلت بعد تركيةِ دار القياصرة ثم رجع العرب وحاربوا الروم وظفروا بهم واحرقوا قرطاجنة تمامًا ولم تزل خربة الى اول الفاطميين فاقاموا منها قسمًا حقيرًا . واستمرت الصوائف في عهدهِ ففي (سنة ٧٦) خرج الروم الى العقيق فغزاهم محمد بن مروان من جهة مرعش ثم غزاهم من ناحية ملطية ودخل في الصائفة الوليد بن عبد الملك فاثخن في الروم ورجع وجاء الروم (سنة ٧٧) فحاصروا انطاكية وانهزموا وارسل عبد الملك ابنهُ عبد الله (سنة ٨١) بالعسكر ففتح قاليقلا وغزا محمد بن مروان (سنة ٨٣) ارمينية وهزمهم فسالوا الصلح فصالحهم وولى عليهم ابا شيخ ابن عبد الله فغدروهُ وقتلوهُ فغزاهم (سنة ٨٥) وصاف وشتى

ثم غزا مسلمة ارض الروم ودوخها ورجع وفعل ذلك (سنة ٨٧) فاثخن فيهم ناحية المصيصة وفتح حصونًا كثيرة منها حصن بولق والاخرم وبولس وقفيم . ثم غزاهم (سنة ٨٩) مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد وفتح مسلمة حصن سورية والعباس اردوليه وقيل ان مسلمة قصد عموريه وهزم جمعًا من الروم هناك وفتح هرقله وقموليه وغزا العباس الصائفة من ناحية البلديدون

وغزا مسلمة الترك من ناحية اذربيجان وفتح حصونًا ومدائن ثم غزا (سنة ٩٠) وفتح الحصون الخمسة التي بسورية وغزا العباس حتى بلغ اردن وسورية و(سنة ٩١) غزا عبد العزيز بن الوليد الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك وكان الوليد قد ولى مسلمة على الجزيرة وارمينية وعزل عمهُ محمد بن مروان فغزا الترك من ناحية اذربيجان حتى الباب وفتح مدائن وحصونًا ثم غزا (سنة ٩٢) وفتح ثلثة حصون وجلا اهل سرمنه الى بلاد الروم ثم غزا العباس (سنة ٩٣) وفتح سبيطله وغزا مروان بن الوليد فبلغ صنجرة وغزا مسلمة ففتح ماشيه وحصن الحديد وغزالة من ناحية ملطيه وفتح العباس بن الوليد (سنة ٩٤) انطاكية وفتح عبد العزيز غزالة و بلغ الوليد بن هشام مروج الحمام ويزيد بن كبشه ارض سورية (وسنة ٩٥) غزا العباس ففتح هرقله (وسنة ٩٧) غزا مسلمة ارض الرضاضية وفتح حصن الرصاع وغزا عمر بن هبيرة الروم بحرًا وشتى بها (ابن خلدون)

و بعد انهزام الروم وتولي المسلمين في افريقية نهض السودان وتجمعوا الى مليكتهم داميه واقتتلوا مع العرب قتالاً عنيدًا التزم بهِ المسلمون بالتنحي وترك ما كانوا قد ملكوهُ مدة جيل واحد وبقي قائد المسلمين في حدود مصر ينتظر النجدة من امير المومنين خمس سنوات ولقائل كيف ان المسلمين انهزموا من الافريقيين بعد ان هزموا عساكر الروم . قلت اولاً لان اهل افريقية كانوا يحاربون

لطرد العدو عن وطنهم ثانيًا لانهم كانوا يعتقدون النبوة في نسائهم ويعملون بكلما يقلنَ لهم وكان لهم من التعصب والهوس الدينيين اكثر مما كان للمسلمين ولا سيما ان عساكر العرب بعد محاربتهم الروم كانوا قد ضعفوا وقلوا . . وبعد تنحي المسلمين جمعت دامية رووس القبائل وعرضت عليهم رايًا يفيد مقدار اعتبار الحرية لدى اصحاب الجراءة وتفضيلها على كل شيء بملكونة فقالت „ ان الذي يسوق العرب الى محاربتنا انما هي مدننا وغنانا والحال ان هذه الاشياء الدنية ليست هي غايتنا اذ تكفينا غلال الارض فلنهدم اذن هذه المدن وندفن في خرابها اموالنا وسبب هلاكنا حتى اذا ما نظروا عدم وجود مرغوبهم ارتجعوا عن محاربة قوم لا يجهلون القتال „ فاجمع الجميع على راي دامية واخذوا بالهدم من طنجة الى طرابلوس وعادت تلك الديار النامية كلها خرابًا

فشق امر مثل هذا على التجار واهل الرفاهة ولا سيما النصارى وكانوا يفضلون القرآن على تلك السنن والعوائد البربرية واقتبلوا القائد العربي عند رجوعه بفرح وهو حارب البرابرة وظفر بهم وقتل داميه ولاشى ملكها ثم عصوا مرّة ثانية فاخضعهم موسى بن نصير خليفة حسن وولداه عبد العزيز وعبد الرحمن واسروا منهم ثلاثمائة الف عبد وبيع من الخمس الذي خص الخليفة ثلاثون الفًا وجعل ثمنهم في بيت المال وادخلوا ثلاثين الف شاب منهم في العسكر واجتهد موسى بتعليمهم عوائد العرب والدين الاسلامي الى ان عادوا يتكلمون العربية ودعوا عربًا من مشابهتهم عرب البادية بسكنهم القفار وقيل بل ان خمسين الفًا من العرب العرباء تجاوزوا النيل الى قفار افريقية ودعوا الافريقيين البيض

وبعد ان انهى العرب مسالة افريقية عادوا يهتمون باخذ ثارهم من الغوط سكان اسبانيا لمساعدتهم الروم عليهم وبينما كان العرب يفتحون البلاد مبتدئين من الجنوب الى الشمال كان الغوط يفتحون من الشمال الى الجنوب فتلاقوا عند حدود افريقية واوربا فصدم المسلمون قلعة كيوتة (سبته) المختصة بحكم اسبانيا وهي من عمودي هرقل في الجانب الافريقي وينفصل بينها وبين القلعة الثانية في حدود اوربا ذلك المضيق الحرج الذي يدعوهُ العرب باب الاسواق وهو الذي به تدخل مياه الاوقيانوس الى البحر المتوسط المدعو مديترانيوس

فالتقاهم الكونت جوليانوس (بليان) امير القلعة وهزمهم اولاً ثم كتب الى موسى ان يتقدم وهو يسلمهُ المكان ويحثهُ على المجيء وافتتاح اسبانيا والسبب في ذلك ان الملك رودريكوس كان قد اساء السلوك الى كفا بنت جوليانوس وقيل لغير اسباب لا محل لذكرها هنا ومن جملة ما كتب له عنهُ ان الشعب كان يكره الحكم الحالي والمملكة في ضعف قوي فان الغوط لم يكونوا كما كانوا قبلاً عندما فتحوا رومة وقهروها وتملكوا من الدانوب الى المديترانيوس بل كانوا قد الفوا الراحة مهملين نظام

العساكر وصيانة البلاد مكتفين بالافتخار بما كان قد صنع اباوهم كعادة كثير من افراده وامم

فمال موسى بن نصير عند قراءته كتاب جوليانوس الى السفر وارسل اولاً اعلم الخليفة عن ذلك واجاب جوليانوس بالوعد وارسل (سنة ٩٢-٧١٠) ماية فارس وار بعماية راجل من المسلمين ليتجسسوا له الاخبار خوفًا من الخديعة فساروا من طنجة باربع سفن الى كيوته المذكورة المدعوة منهم الجزيرة الخضراء فاقتبلهم جوليانوس واكرمهم وارسل معهم اناسًا من اتباعهِ فغزوا الاماكن ونهبوها ورجعوا الى موسى · وقيل ان قائدهم كان طريف البربري مولى موسى وفيهِ خلاف · ثم رجعوا في اول الربيع من السنة نفسها باوفر عدد مع قائدهم طارق بن زياد وكان ذلك في سفن جوليانوس ونزلوا في الجانب الثاني الاوربي المدعو جبل طارق عند المضيق المقدم ذكرهُ ودعى جبل طارق نسبة الى القائد المذكور وهو الجبل المعروف بجبل الفتح قبلي الجزيرة الخضراء فاعلم رودريكوس الملك عن مجي العرب فامر فالتقاهم الامير اريكوس وحاربهم فهُزم · فعرض الامرا اهالي الاساكل القريبة الى دار الملك فجمع رودريكوس حكام الولايات والدساكر والاساقفة والاشراف ونحوهم وقر راي الجميع على محاربة العرب بقوة وكانت عساكر رودريكوس نحو ماية الف اما اصحاب طارق الذين جاءوا معهُ وبعده فكانوا اثني عشر الفًا ومثل ذلك من نصارى جوليانوس وجرت اول موقعة في ما بينهم نواحي قادس قرب مدينة اكزرس وفي الثلاثة ايام الاولى كان القتال مطاردة دون نظام اما في اليوم الرابع فابتدا من كل ناحية وكان الملك رودريكوس راكبًا على مركبة من العاج يجرها بغلان ابيضان وعليهِ رداء من الديباج مزركش بالذهب وعلى راسهِ تاج مرصع بالجواهر وكان كما قيل حاضر الجسم غائب العقل · وتضايق عسكر طارق لقلتهِ وقتل منهُ عدد غفير وكادوا ينهزمون · ولما راى طارق ذلك تقدم الى الامام وصرخ بهم قائلاً « يا اخوتي العدو امامنا والبحر وراءنا فالى اين نهرب اتبعوني فاني قد حلفت اليوم اما ان اموت او ادوس بقدمي ملك الرومان » وهجم من ساعتهِ واقتفت العساكر اثرهُ فوقع الخوف والخيانة في جيش الملك الغوطي وولوا الادبار وقتل عدد غفير منهم وترك رودريكوس مركبتهُ وهرب ولم يعلم اين ذهب وقد وجدوا جوادهُ وتاجهُ ورداءهُ على ضفة نهر يتس ويظن انهُ غرق وان الراس الذي ارسل الى الخليفة لم يكن راسهُ

وبعد هذا النصر اشار جوليانوس على قائد العرب بان يتقدم على الفور ويكمل فتح البلاد قائلاً « ان الملك قد هلك والامراء تفرقوا والعساكر تبددت والشعب في وجل عظيم فارسل رجالك واستلم مدينة بتيك واذهب انت وادخل طليطلة (طوليد) دار الملك ولا تعطهم وقتًا فيختاروا لهم ملكًا » فسمع طارق كلامهُ وذهب رجل رومي (كان قد اسلم واطلقهُ الخليفة) بسبعماية فارس لياخذ قرطبة وقطع النهر من السيلة وضرب البلدة وحاصرها نحو ثلثة اشهر واخذها عنوة · وقسم اخر من المسلمين

فتح الجانب الجنوبي من البنيك . اما طارق فسار من نهر البنيك الى طاغوس وقطع من المكان الفاصل بين كستيلية والاندلس ووصل الى طليطله (طوليد) تخت الملك فاغلقوا في وجهه الابواب ثم عقدوا شروط الصلح على ان لمن اراد من السكان حرية الذهاب بماله وتركوا للنصارى سبع كنائس وحرية الدين والشرائع وابقوا لهم قضاتهم واكرموا اليهود على ما ابدوهُ لهم من المساعدة بغضًا بالنصارى لاضطهادهم اياهم . وبقيت الالفة بينهم الى ان تركوا جميعًا تلك الديار . وتقدم طارق من طوليد الى جهة الشمال وفتح ما مرّ بهِ من البلاد وصارت فيما بعد ولايتين ولاية كستيلية وولاية ليون وغنم اموالاً جزيلة وما بينها تلك المائدة الزمردية التي كان الرومان قد اتوا بها من المشرق واخذها منهم الغوط فارسلها مع غيرها الى الخليفة . فليتامل هنا الرجل الحكيم دوران الاشياء الدنيوية وتقلب احكام الاقدار والادهار

قال ابن حيان ما معناهُ . ان تلك المائدة المنسوبة الى سليمان بن داود لم تكن له فيما يزعم رواة العجم (اي الفرنج) وانما في ايام ملكهم كان اهل الحسبة منهم اذا مات احدهم اوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منهُ الآلات الضخمة من الموائد والكراسي واشباهها من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا ابرزت في ايام المناسك ويضعونها على المذابح في الاعياد للمباهاة بزينتها فكانت تلك المائدة بطليطلة ما صيغ في هذه السبيل وتانقت الاملاك في تفخيمها يزيد الاخر منهم على الثاني حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الاواني وطار الذكر مطارهُ عنها وكانت مصوغة من خالص الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ولم ترَ الاعين مثلها و بولغ في تفخيمها من اجل دار المملكة وانهُ لا ينبغي ان تكون بمثابة آنية جمال او متاع مباهاة وكانت توضع على مذبح طليطلة فاصابها المسلمون هنالك وطار النبأ الفخم بها قال وقد كان طارق ظن بموسى اميره مثل الذي فعلهُ من حسدهِ على ما هيأ الله ومطالبتهِ له بتسليم ما في يدهِ فاستظهر بانتزاع رجل من ارجل المائدة خبأهُ عنده فكان من ظهورهِ بهِ على موسى عدوهِ عند الخليفة اذ تنازعا عنده بعد الاثر في جهادهما ما هو مشهور (انتهى)

وقد ضربنا صفحًا عن ذكر كتب الحكمة التي وجدت في طليطله ضمن تلك الارصاد المصنوعة من الحكماء قديمًا لحفظ الاندلس من العدو فكان كلما قام ملك زاد الى الاقفال الموضوعة عليها قفلاً حتى صارت ستًا وعشرين وجاءت نوبة رودريكوس وكان غاصبًا فاراد فتح الارصاد المذكورة ليرى ما ضمنها ولم يرعوِ لكلام وزرائهِ ولما فتحها وجد مكتوبًا انهُ يوم تفتح تلك الارصاد تفتح المملكة ووجد منقوشًا صور الفاتحين . فكانت تلك الصور المنقوشة صور فرسان بعمائم وسيوف ونحوها طبق صور العرب انفسهم . ولهذه الارصاد قصة اشبه باضغاث احلام فمن اراد ان يطالعها فعليهِ بكتب

القوم مثل ابن حيان وابن خلدون والمقري ونحوهم

وبعد ان وصل طارق في مسيره الى جبال اسطوريا مسافة سبعمائة ميل من الجبل المدعو باسمه وقف عند مدينة جيجون قرب خليج بسكاليا حيث تضرب امواج الاوقيانوس ورجع من هناك الى طوليد بطلب من موسى فان موسى عند ما سمع بنجاح طارق وشهرة اسمه لم يعد قادرًا على القيام حسدًا منه وخوفا من ان لا يترك له شيئا فحضر بعشرة الاف من العرب وثمانية من العبيد ونزل اولاً في الجزيرة الخضراء ورحب به الامير جوليانوس واظهر سروره بالنصر وطلب اليه ان يحارب بعض الغوط الذين لم يكونوا قد خضعوا لطارق بعد ولاسيما قلعة سبيله ومريده وكانتا مملوتين ابطالا وسار موسى الى غوديانه وحاصر مدنها وتسلمها كلها . ولما تامل اعمال الرومانيين التي هناك كالجسر ومصانع المياه وابنية الظفر والملاعب الموجودة في لوسيتانيه العاصمة القديمة قال الى اربعة من رفقائه « كاني بالانسان قد جمع كل ما يقدر عليه من قوة وصناعة في بناء هذه المدينة فطوبى لمن امكنه التسلط عليها » واما سكان مريدة المعدودون من الرومان لتنازلهم من عسكر اوغسطوس قيصر فانهم قاوموه كالاسود وخرجوا من المدينة وضربوا عساكر العرب وقد امتدوا كثيرًا فلم يمكنهم الرجوع اليها فاحاطت بهم عساكر موسى وفتكوا بهم واُلقي الحصار على البلد وبعد زمان طويل واستيلاء الجوع على المدينة سلموا بشروط وهي ان للاهالي الخيار ما بين ان يرحلوا او يدفعوا الخراج وقسموا الكنائس مناصفة وقبض على اموال من مات بالحصار او نزح قبل الامان ثم تلاقى طارق بموسى في طليطله وكان السلام بينهما فاترًا ثم اخذه طارق فاراهُ قصر الملوك الغوطيين فقال له موسى كيف انك تجاسرت على فتح مملكة دون اذن وطلب منهُ حسابا مدققا ليرسله الى الخليفة ثم ضربهُ وحبسهُ فعظم الامر على طارق ورفعت القضية الى دار الخلافة ثم اخرج طارق من سجنه وفتح ولاية طركونه وبنى بامر الخليفة جامع سيراكوس وفتحت مينا برسلونه لسفن الشام ولم يزل العرب يطاردون الغوط الى ان اجازوهم البرنات الى ولاية سبتيمانية وهي لنكوادوكه الان وبعد ان اقام موسى جماعة من رجاله لمحافظة الحدود رجع الى سواحل جليقيه ولوسنيانيه كل ذلك وابنهُ عبد العزيز يحارب سبيليه ومالقه وبلنسيه وبقية المدن البحرية التي فتح اكثرها

وذكر في المقري انه بعد ان رضي موسى مع طارق تقدم طارق امامهُ الى الثغر وتبعهُ موسى بعسكره ففتح سرقسطه واعمالها واوغل طارق في البلاد امامهُ فكانا لايمران بموضع الا فتح لهما الابواب حتى انتهوا الى وادي ردونه منتهى موطنهم من ارض العجم (الفرنج) ودوخت بعوث طارق وسراياهُ فملكت مدينتي برسلونه واربونه وصخرة ابنيون وحصن لودون على وادي ردونه تبعد عن الساحل الذي دخلوا منهُ والمسافة بين قرطبة واربونه من بلاد افرنجة ثلاثماية وخمسة وثلاثون فرتخا الى ثلثماية وخمسين اه

وعمل عبد العزيز عهدة الصلح مع الامير تدمير (طودميرس) على السبع المدن التي كانت له وهذه صورتها

يعطي عبد العزيز الامان على الشروط الاتية بان لا يعارض تدمير في ماموريته ولا يجري عليه تعدٍ في المال ولا في الحال ولا في النساء ولا في الاطفال ولا في الدين ولا في الكنائس على ان يسلم سبع مدنه وهي اريوله ويلنتله والبكانته ومولة وبكاروزه وبيار واوره ولوركه وعلى ان لا يقبل ولا يساعد اعداء الخليفة بل يعلن بصدق وحق كل ما يحفظه من ارائهم العدوانية ويدفع كل سنة هو وكل شريف من الغوط دينارًا واحدًا واربع كيلات حنطة ومثلها شعيرًا وقدرًا من الزيت والعسل ويدفع اتباعهم نصف ذلك كتب لاربع خلت من شهر رجب من السنة الرابعة والتسعين للهجرة بحضر اربعة شهود من المسلمين

وكان موسى مع تقدمه في السن وابيضاض شعره مقدامًا يصبو الى المجد وافتتاح البلاد حازمًا عاقلاً ذا سياسة جليلة وكان في نيته من التقدم الى افتتاح باقي اوربا قاطعًا البرنات من الجانب الواحد فيحارب ويفتح بلاد الغالية حكام فرنسا وبلاد اللومبارد حكام ايطاليا ويتملك رومه العظمى عاصمة النصرانية وقاعدتها حينئذٍ ويذهب من الجانب الثاني الى جرمانية وياخذ مدنها ويتبع مجرى الدنوب ويفتح البلاد المار بها النهر المذكور كالمانية الجنوبية والمجر (هنكاريه) ونحوها الى البحر الاسود ومن هناك يتقدم الى عاصمة القياصرة الشرقية ويغزو القسطنطينية ومملكة الروم ثم يقطع من اوربا الى اسيا الصغرى ويضيف ما يكون فتحه الى انطاكية والشام

ولم يكن موسى عند بنائه هذه الصروح الهوائية يفكر بانه مامور ورقيق امير المومنين ولا سيما انه كان باساءته معاملة طارق بن زياد كما سبق قد شكي الى دار الخلافة وكان ينتظر بروز الحكم من طرف دمشق وقد كان اصحاب طارق بينوا لدى الخليفة براءة شان طارق وتعدى موسى عليه . فلم يطل الامر حتى حكم مجلس الامة في الشام على موسى ورأى في تلك الاراء التي كان عرضها من فتح العالم شبهة في صدقه وهمة كبيرة يخشى من عواقبها . فارسلوا يستدعونه الى دمشق على الفور ثم زادوه رسولاً على رسول لما وجدوا انه تاخر عن الحضور وكتبوا له كتبًا قوية والرسول الاخير بوصوله الى موسى وهو في منزله بغلانيه في لوكوس اعلن له امر الخليفة ثم اخذ هو نفسه بتحضير فرس موسى ولجمه وامره بحضر المسلمين والنصارى بالركوب دون ابطاء فالتزم بالامتثال وترك الامر في ايدي ولديه عبد الرحمن في افريقية وعبد العزيز في الاندلس وهان الامر على موسى لما راى ان طارقًا كان مطلوبًا ايضا وبمروره على الجزيرة الخضرا اخذ ما كان جمعه من الذخائر الثمينة الافريقية والاسبانية وقاد صحبته اربعمائة امير غوطي عليهم التيجان والمناطق الذهبية وثلاثين الف

اسير من رجال ونساء فخرًا له وهدية للخليفة

فلما وصل الى طبرية حضرهُ رسول من قبل سليمان بن عبد الملك يقول له ان اخاه الوليد كان مريضًا وقريب الموت وبان يتاخر في مكانهِ الى ان يكون اخذ البيعة لنفسهِ على الناس اما موسى فخشي عاقبة ذلك اذا شفى الوليد وبقي سائرًا و بوصولهِ الى دمشق وقدمات الوليد أُلقي في السجن وصودر بدفع مابقى الف دينار فوق الهدية وعومل كما عامل طارق بالضرب علانية ثم جعلوهُ يومًا كاملاً في الشمس وأُودع السجن ثم خوفًا من عاقبة هذه المعاملة لموسى امر سليمان فارسلت اوامر سرية الى افريقية وسبانيا بقتل عبد العزيز ولد موسى ففعل بموجبها. وكان قتل عبد العزيز في جامع قرطبه وقيل في قصره امام الشعب بناء على انهُ كان ساعيًا بالاستبداد وقد عقد زواجًا مع اجيلونه زوجة رودريكس الملك المار ذكرهُ واخذ راسهُ الى ابيهِ وجعل امامهُ ثم سئل اذا كان يعرف ذلك الراس فاجاب بغضب ممتزج بالياس نعم اني اعرفهُ واعرف براءتهُ واسال الله ان يحل على رؤوس قاتليهِ ميتة مثلها ثم أُذن له بالحوق بمكة فسار اليها و بعد وصولهِ بقي قليلاً ومات حزنًا وغمًا في وادي القرى لا يملك شيئًا يتسول من الناس ليعطي اولئك الذين كانوا يعذبونهُ من قبل الخليفة واما طارق فانهم جعلوهُ رفيقًا لا غير

فمن يسمع لعمري هذا ولا يتعجب من كفر الاولياء والحكام وعدم ثبات الملوك وتقلبهم وظلمهم فان هذه المعاملة الدنية الغادرة اللئيمة ستبقى ذكرًا عائبًا وعارًا لازبًا على سليمان بن عبد الملك ما تليت التواريخ وذكر اسم موسى وطارق ولكن ليس هذا اول حادثة تاريخية فان امثالها كثيرة قبل ذلك و بعده وهذا هو داب طلاب الدنيا اذ انهم مستغرون بعضهم لبعض واخرتهم جميعًا الى الندم والموت وما احسن ما قيل

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم ... غلب الرجال وما اغنتهم القللُ
واستنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم ... فاودعوا حفرًا يابئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... اين الاسرة والتيجان والحللُ
اين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الاستار والكللُ
فافصح القبر عنهم حين سائلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما اكلوا دهرًا وما شربوا ... فاصبحوا بعد طول الاكل قد اكلوا

وسمح عرب موسى وطارق لاخوتهم الذين في افريقية ومصر ان يشتركوا معهم في مشيدات موركه ولسبونه وفي اقل من قرنٍ واحد نمت وزادت مداخيل تلك البلاد بالزراعة والتجارة والصنائع ونحوها وكان الخليفة بعد سنين قليلة يستورد سنويًا نحو اثني عشر الف الف وخمسة واربعين الف دينار ما عدا الجبايات واموال الفتوحات ونحوها مما لا يحد وكان هذا المبلغ في ذلك العصر اعظم

من كل مداخيل ملوك اوربا فان في قرطبه تخت الملك كان يوجد سمائة جامع وتسعماية حمام ومايتا الف بيت وكان تحتها ثمانون مدينة من الرتبة الاولى وثلاثماية من الرتبة الثانية والثالثة واثنا عشر الف قرية وكان هذا النمو من نتائج الحرية فان العرب في طباعهم منذ الجاهلية حب الحرية فلم يكونوا يتعرضون لاحد في معتقد وكانوا بعد الاسلام يكتفون باخذ الجزية ممن لم يسلم وهو آمن في ماله ودينه وقد ايقظ اجتهاد العرب بعد فتح تلك البلاد كثيرين الى العلوم والصنائع وظهر فضل اولي النباهة والذكاء ممن كانوا غائصين في بحار الجهل . وضعفت النصرانية جدًا في زمانهم حتى انحسمت من افريقية كلها وعاد مطران قرطاجنة يطلب الاحسان من رومة ويتشكى من الفقر المدقع وكان نصارى اسبانيا يختتنون ويمتنعون من شرب الخمر واكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الاسلامية حتى دعوا (مزّارابى) اي انصاف عرب وفي الجيل الثاني عشر لم يبقَ ذكر للنصرانية والاساقفة لا في افريقية ولا في قرطبه واشبيلية وبالنسة وغراناطه ونحوها ونسي الدين الروماني بالاصالة من طرابلس الى الاوقيانوس وهكذا اللغة وامتد العرب في سواحل الهند ايضًا ومن شيراز الى سمرقند . وكان المجوس لا غير يابون عن الدخول في الاسلام الى ان احترق هيكلهم في حران وتبددوا ولم يبقَ منهم الان الا قليل في كرمان على سواحل الهند ونحوها . وكان الخلفاء الاول يشتبهون في صدق الكاثوليك واسم ملكية يذكرهم دائمًا ميلهم الى ملوك الروم بخلاف اليعقوبية والنساطرة لانهم كانوا اعداء الروم ولكن هذا الفرق انتسي مع الوقت واخذت قضاة المسلمين تحامي عن البطاركة والاساقفة واستخدموا النصارى في الكتابة والطب ودواوين الخراج وادارة المدن والمعاملات وقد قال احد العباسيين « انه لا يمكن الثقة في سياسة بلاد العجم الا بالنصارى لان الاسلام لا يعباون بالنظام لنعمتهم الحاضرة والمجوس لتلهفهم عليها وقد زالت واليهود لا نتظارهم ملكًا ونعمة مستقبلة »

وهذه الحرية استمرت في كل الاجيال الوسطى وكانت على ازدياد مدة الخلافة العربية وفي زمان الوليد امتد حكم الاسلام مسافة مايتي يوم من المشرق الى المغرب من التتارية الهندية الى الاوقيانوس لانهم تملكوا العرب والعجم والشام وافريقية وسردينية وسبانيا ونحوها وامتدوا الى نواحي الصين وكانوا يدرسون العربي في سمرقند وقرطبة ويتلون القرآن بكل قبول وورع وكان الهنود والسودان يلتقون في مكة ويتخاطبون باللسان العربي

وتوصلت المملكة الى اقصاها وظهرت على كل المالك قدرة وغنى واقام الوليد مسجد بني امية في دمشق وقيل انه انفق عليه اربعمائة صندوق كل صندوق اربعمائة عشر الف دينار وكان فيه من جملة الفعلة ثنا عشر الف مرخم ويقال انه كان فيه سمائة سلسلة من الذهب لتعليق القناديل فكانت تغشي عيون الناظرين وتفتن المسلمين فازالها عمر بن عبد العزيز وردها الى بيت المال

وفي اول الامر كان الخلفاء قانعين بالدراهم العجمية واليونانية الرائجة في زمانهم الى ان امر عبد الملك بن مروان بضرب نقود جديدة باسم دنانير ونقش الحجاج فيها « قل هو الله احد » فكره الناس ذلك لانهُ قد يمسها غير الطاهر. ثم بولغ في تخليص الذهب والفضة من الغش وزاد ابن هبيرة ايام يزيد بن عبد الملك عليهِ. ثم زاد خالد القسري عليهم في ذلك ايام هشام. ثم افرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة وامتحان العيار وضرب عليهِ فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية اجود نقود بني امية. ثم امر المنصور ان لا يقبل في الخراج غيرها وسميت النقود الاولى مكروهة اما لعدم جودتها او لما نقش عليها الحجاج. وكانت دراهم العجم مختلفة بالاصغر والاكبر فكان منها مثقال عشرين قيراطا واثني عشر وعشرة قراريط فجمعوا قراريط الثلاثة فكانت اثنين واربعين فجعلوا ثلثها وهو اربعة عشر قيراطا وزن الدرهم العربي فكانت كل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل. وقيل ان مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة ايام اخيهِ عبد الله والاصح ان عبد الملك اول من ضرب السكة في الاسلام

وامر الوليد بعده بعدم استعمال اللغة اليونانية وارقامها في الحسابات الجمهورية وامتدت لذلك الارقام الهندية التي اخذها العرب عن الهنود وتسهلت بذلك المحاسبات وفتح ابواب عظيمة واكتشافات جليلة في العلوم الرياضية

وفي عهد سليمان اخي الوليد تجددت الحرب بين العرب والروم و(في سنة ٧١٦ - ٩٨) في عهد انسطاسيوس قيصر ركب مسلمه بن عبد الملك بمائة وعشرين الفًا من العرب والعجم على القسطنطينية وحارب في طريقهِ طيان وعمورية وفرغام من اسيا الصغرى ودخل بوغاز كليبولي وتجاوز البحر من المكان المدعو ممر العرب ودخل الى اوربا وقطع ثراقيه على سواحل بحر مرمره الى ان قابل القسطنطينية من الجنوب واقام مضارب عسكرهِ واعلن الحرب على الروم والقى الحصار. وكان انسطاسيوس قيصر قد علم تجهز العرب عليهِ فاخذ الاحتياطات اللازمة وامر السكان بالاستعداد وتحضير اللوازم الكافية لحصار ثلاث سنين وان يترك الذين لا قدرة لهم العاصمة. وملا الساحات والاهراء بالذخائر واصلح الاسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهام والحجار ونحوها وكذلك اهتم الروم باحراق عمارات العرب وبعرسة العدو قبل ان يلتزموا الى المدافعة فارسلوا اناسًا لذلك الا ان اولئك المجهزين للعمل قتلوا مقدمهم وتركوا سناجقهم في رودس وتفرقوا في الاماكن المجاورة الى ان قام ملك ثان وعفا عنهم. وكان الملك الجديد احد حراس بيت المال رجلاً ساذجًا لا يصلح لشيء اسمهُ ثيودوسيوس فلم يستقر غير شهر وخلع وخلفهُ ليون اسوريكوس وكان رجلاً لائقًا للملك

ولما قدمت عساكر مسلمة ونظرها اهل القسطنطينية داخلهم الوهم وعرضوا على المسلمين الصلح بان يودوا لهم الجزية سنويًا عن كل انسان دينارًا . اما مسلمة فلم يقبل وداخلة الطمع لما راى وصول العمارة العربية التي خرجت من بحر الشام ومرت بعمارة المصريين الكائنة على ثغور فرنسا وقتئذٍ واتت بها وكانت جميعًا نحو الف وثمانمائة سفينة اعظمها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم والروم عند نظرهم قدوم تلك الاساطيل امروا فرفعت السلسلة القاطعة المينا لكي تدخل السفن وتستامن داخل البوغاز . وهكذا مسلمة من جهته عين تلك الليلة للهجوم برًا وبحرًا ولما وصلت المراكب الى حيث هي السلسلة وقفت متحيرة ما بين ان تدخل او ترسو في مكانها خوفا من حيلة ما واذا بالنار الرومية قد اشتعلت من كل جانب واحرقت تلك الاوامد كلها ولم يسلم منها واحدة وغرق من فيها من العساكر ثم جاء العلم بتوفي سليمان بن عبد الملك (سنة ٧١٧-٩٩) وفتح في خلافة سليمان اكثر اسيا الصغرى

وفتح يزيد بن المهلب بن ابي صفرة والي خراسان جرجان وطبرستان وكانت مدة خلافة سليمان سنتين وثمانية اشهر وعمرهُ خمسًا واربعين سنة ومات بدابق في ارض قنسرين وكان طويلاً جميلاً بهِ عرج مغرمًا بالنسا كثير الاكل حج مرة الى مكة وكان الحر كثيرًا فتوجه الى الطائف طلبا للبرودة فاتى برمان فاكل سبعين رمانة وجيء بجدي وست دجاجات فاكلها ثم جيء بزبيب الطائف فاكل منهُ كثيرًا ونام ثم انتبه فاتوا بالغدا فاكل على عادتهِ وقبل موتهِ كان قد اكل زنبيلين من التين والبيض (الطفهُ بهما بعض المسيحيين) فامر بان يقشر البيض وجعل ياكل بيضة وتينة حتى اتى على الزنبيلين ثم اتوهُ بمخ وسكر فاكل فاتخم ومرض ومات

وكان شديد الغيرة وفي عهده خصى ابو بكر محمد بن عمر والانصاري المخنثين بالمدينة . وقيل كان العامل على المدينة ابا بكر عمر بن حزم فكتب اليهِ سليمان يقول احصِ من عندك من المخنثون واتفق ان نقطة من السطر الاعلى وقعت فوق الحاء فصارت خاء فخصاهم

و بعد موت سليمان خلفهُ عمر بن عبد العزيز المعروف بعمر العدل وكان يكره مسلمة ولعدم اكترائهِ بالامور الدنيوية تركهُ في حصارهِ غير سائل كل الشتاء وكان ذلك الشتا قاسيا وبقي الثلج مغطيا الارض مائة يوم . ومات كثير من العسكر بالبرد ولكن لما قدم فصل الربيع تشددت الجنود الباقية ولاسيما عند وصول عمارتين جديدتين لمساعدتهم بالرجال والذخائر الواحدة اربعمائة سفينة مشحونة قمحًا من الاسكندرية والثانية ثلاثمائة وستون سفينة من افريقية غير انهما صادفتا ما صادفتهُ العمارة الاولى ولم يخلص منها الا ما قل . وارتاح الروم قليلاً وبدت الحركة والمتجر وصاروا يغتذون بالسمك ونحوهِ اما عساكر مسلمة فوقع فيهم الجوع والمرض وعادوا ياكلون ما يجدون واستاجر

ليون البلغار يين فجاءوا واقتتلوا مع المسلمين وقتلوا منهم نحو عشر بن الفا وشيعوا الاخبار بان الافرنج كانوا يجهزون برًا وبحرًا لمساعدة الروم فتشددت بذلك الاهالي وخافت العرب · وبعد ثلاثة عشر شهرًا جاء الامر لمسلمة بان يرجع وهو ماصدق ان خاص من تلك البلوى وسافرين بني معهُ من الجيش مارًا بمضيق كليبولي من حيث دخل دون معارض الا انهُ عند وصوله الى بجبنيه قاوم مسيرهُ الاهالي وقتلوا منهُ كثيرًا · ولم يصل من كل تلك المراكب الا خمسة فقط جاءت بالاخبار الى الاسكندرية ولكنهم داموا ابدًا يغزون الصوائف في كل مدة كما تقدم

فاخفاق العرب في ركبة القسطنطينية منعهم من تخطي اوربا من جهة المشرق اما من جهة المغرب فان عرب الاندلس شنوا الغارات على افرنسه وساعدهم على ذلك سقوط الدولة المروونجية وقتئذٍ اعني بني كلودويوس فان الامراء الاواخر من هذه الدولة كانوا معتقلين في قلعة بقرب قومبيان وكان الحكم لامراء القصر وهم وزراء الامة وكان على اولئك توقيع الاوامر لا غير ورؤساء القصر يتحكمون كما شاءوا حتى على الملوك وكانت ولايتهم ارثية في عيلة واحدة · وكان اصحاب الاقطاعات ايضا يستقلون بولاياتهم ويامرون بما يريدون واشهر هولاء الاقطاعيين ايود حاكم اكيتانيه الذي كان قد تغلب على كل الاماكن الجنوبية من هذه المملكة ودعا نفسهُ ملكًا

ثم توقف جريان ذلك النهر العظيم راجعًا على نفسهِ الى زمان · وكانت الحركات الداخلية قد بدات على بني امية لان كل المسلمين الا الشاميين كانوا يكرهون تلك الدولة فانها اخرمن اسلمت واول من خضبت ايديها بدم اهل الكرامات عندهم

اما نهوض عمر العدل (سنة ٧١٧ـ ٩٩) على تخت الخلافة فجعل فترة لان ذلك الامير لم يكن يهتم الا بالامور الدينية وزيارة المساجد وكان يلبس قميصًا واحدًا لا غير ويصرف على نفسهِ شيئًا لا يذكر وقيل درهمين فقط كل سنة ولعلهُ مبالغة مع ان الاسراف كان قد دخل في الدولة الاسلامية ولم يضف في عهد عمر المشار اليهِ الى فتوحات الامة الا جرجان وطبرستان

فصلٌ

في الربع الاول من القرن الثاني

وابطل عمر تلك اللعنات التي كانت تتلى على المنابر ضد الامام علي وآل بيتهِ وكان يرددها كل خليفة منهم من عهد معاوية اليه وذلك ان عمر دعا يومًا رجلاً عبرانيًا وامرهُ بان ياتي اليهِ في يوم معين وهو في مجلسهِ ويطلب منهُ بمحضر الجالسين ابنتهُ زوجة فغاب الرجل وحضر في اليوم المعلوم وطلب من عمر المصاهرة فاجابهُ الخليفة ان ذلك غير ممكن لاختلاف الدين فاجابهُ اليهودي

الم يدفع النبي ابنتهُ زوجةً لعلي بن ابي طالب فقال عمر بلى ولكن عليا كان مسلمًا وصار اميرًا للمومنين فقال اليهودي ولماذا تلعنونهُ انتم علنًا في الجوامع فالتفت عمر حينئذٍ الى جلسائهِ وقال ماذا تجيبون بهِ هذا الرجل فلم يقدر احدٌ منهم على الجواب فامر عمر وقتئذٍ بمنع ذلك. قالوا وعند ابطالهِ تلك اللعنات جعل مكانها ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون « الاية » وقد مدحهُ كثيرٌ بن عبد الرحمن الخزاعي على ذلك بقولهِ

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخف بريا ولم تتبع سجية مجرم

وقلت فصدّقت الذي قلت بالذي فعلت فاضحى راضيا كل مسلم

وكان عمل عمر هذا سببًا لتحالف بني امية عليهِ ورشوا عبدًا فسقاهُ السم وعمر بعد ان شربهُ عرفهُ فدعا بالساقي وسالهُ عن سبب غدرهِ بهِ فوقع العبد على قدمي عمر واقر بانهم رشوهُ بعشر بن الف درهم فقال لهُ عمر اذهب واترك هذه الدار وضع المال في بيت مال المسلمين فلا يتكلم احدٌ عنك ولا عن فعلك فيما بعد وتوفي عمر بخناصرة (سنة ٧١٩–١٠١) وعمرهُ اربعون سنة واشهرٌ وخلافتهُ سنتان وخمسة شهور ودفن في دير سمعان وكان من اهل القسط وتحرى سيرة الخلفاء الراشدين

ثم نهض يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاصي بن امية وهو تاسعهم . وفي ايامهِ ثار يزيد بن المهلب بن ابي صفرة واجتمع اليهِ كثيرون وارسل يزيد اخاه مسلمة فقاتلهُ وقتل ابن المهلب وجميع آلهِ وكانوا مشهورين بالكرم والبسالة وفيهم يقول الشاعر

نزلت على آل المهلب شاتيا غريبا عن الاوطان في زمن المحل

فما زال بي احسانهم وافتقادهم وبرّهم حتى حسبتهم اهلي

وفي عهد يزيد جرت حروب بين الاسلام والترك وغزا المسلمون الصغد واقتتلوا مع الخزر وهم التركمان واستعان الخزر بالقفجاق وغيرهم من انواع الترك وهزموا المسلمين في نواحي ارمينيه وكان المتولي على الجزيرة وارمينية ابن هبيرة . وكان القتال بمرج الحجارة ثم اقبل المنهزمون على يزيد فجهز يزيد الجراح بن عبدالله الحكمي بجيش كثيف وولاه على ارمينية وحارب الخزر وانتصر عليهم وسبى وفتح بلنجر وقسمت الغنائم فكان للفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين الفًا ثم ارجع الجراح حصن بلنجر الى صاحبهِ ورد عليهِ اهلهُ وما لهُ على ان يكون عينا للمسلمين ثم نزل على حصن الويد وكان فيهِ اربعون الف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال ثم مسكوا عليهِ الطرق فاقام في رستاق سبى وكاتب يزيد بالفتح وطلب المدد وكان ذلك في وقت توفي يزيد فمده بطلبهِ هشام واقره على العمل . . . وموت يزيد كان (سنة ٧٢٣–١٠٥) وعمره اربعون سنة وكان قد عهد لاخيهِ هشام ومن

بعده لابنه الوليد بن يزيد · وكان يزيد صاحب لهو وطرب · وكان عمر هشام لما ولي الخلافة اربعا وثلاثين سنة

وفي (سنة ١٠٥) غزا مسلم بن سعد الترك فعبر النهر وعاث في بلادهم وتغلب فتبعه الترك فعبر النهر ولم ينالوا منه اربا ثم غزا افشين فصالحوه على ستة الاف ثم سلموا اليه القلعة ثم غزا (سنة ١٠٦) فابطا عنه الناس وكان ممن ابطا البختري بن درهم فارسل مسلم نصر بن سيار الى بلخ وامره ان يخرج الناس اليه وكان العامل على بلخ وقتئذٍ عمر بن مسلم فذهب نصر واحرق باب البختري وزياد بن طريف الباهلي ومنعهما عمر من دخول بلخ وكانت فتنة وشقاق · ثم امنهم نصر وامرهم بان يلحقوا بمسلم بن سعيد ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحق من اصحابه سار الى بخاري فجاءه كتاب خالد بن عبد الله القسري بولايته ويامره باتمام الغزوة فسار الى فرغانه و بلغه ان خاقان كان قادمًا عليه فارتحل وتبعه خاقان بعد ثلاثة مراحل واطاف بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الدباحي والبراء من فرسان المهلب وغيرهما ورحل مسلم بالناس ثمانية ايام والترك مطيفون بهم بعد ان امر باحراق ما ثقل من الامتعة فاحرقوا ما قيمته الف الف واصبحوا في اليوم التاسع قريب النهر ودونه اهل فرغانة والشاش فامر مسلم الناس ان يخرطوا سيوفهم ويحملوا فافرج اهل فرغانة والشاش عن النهر وعبر مسلم بعسكره واتبعهم ابن خاقان · وكان حميد بن عبد الله على الساقة من وراء النهر مثخنًا بالجراح فبعث الى مسلم بالانتظار وعطف على الترك فقاتلهم واسر قائدهم وقائد الصغد ثم اصابه سهم فمات واتوا خجندة وقد اهلكهم الجوع

وفي عهد هشام (سنة ١٠٧) توفي سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج الرسول وهو احد فقهاء المدينة السبعة وهم عبد الله المسعودي · وعروة بن الزبير القرشي · وقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وسعد بن المسيب القرشي · وسليمان المذكور · وخارجة بن زيد بن ثابت الانصاري · وابو بكر بن عبد الرحمن من بني المغيرة المخزومي

ولم تزل الحرب بين الترك والمسلمين مدة طويلة منها وقعة الشعب بين جنيد وخاقان الترك (سنة ١١٢) وكانت مدمرة للطرفين · و(في سنة ١١٩) غزا اسد بن عبد الله القسري بلاد الترك فانتصر عليهم وقتل منهم كثيرًا وقتل خاقان الاتراك و(سنة ١٢١) غزا مروان بن محمد بن مروان عامل الجزيرة وارمينية بلاد صاحب السرير ورتب عليه الجزية سبعين الف راس يوديها كل سنة · وغزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم ففتح حصونًا وغنم · وغزا نصر بن سيار بلاد ما وراء النهر وقتل ملك الترك ثم مضى الى فرغانه فسبي بها · · · و(سنة ١٢١ و١٢٢) خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب بالكوفة ودعا الى نفسه وبايعه جمع كثير وكان الوالي على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عمر الثقفي فقاتل زيدًا فقتل زيد واخذ راسه وارسل الى هشام وصلبت جثته ·

وفي خلافة هشام ثارت روح العصاوة وتقوت ايدي الاحزاب المترشحين للخلافة وكان هشام بخيلاً فانه جمع مدة خلافته التي في تسع عشرة سنة وتسعة اشهر سبعماية صندوق من الجواهر والملبوسات الفاخرة وكان يحفظ مفاتيحها عنده ولما توفي لم يجدوا قميصاً خارجاً عنها يلفونه به . وفي خلافته تحمل المسلمون اول هزيمة في المغرب قرب بواطير (سنة ١١٤ـ٧٣٢) ضد كارلوس مارتللو فان العرب بعد ان حاربوا ايود حاكم اكيتسانيه بمن صحبته من القوط والكوكصون والفرنسويين تجاوزوا البرنات فاتحين جنوب فرنسا وحلوا بربون وكسكونيه وما حول بورضو . ودخل كثير من سكان تلك البلاد في الاسلام من كارونه الى رودان وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الوالي في اسبانيا وهذا الامير لما راى النصر في وجهه عزم على فتح بقية فرنسا ومن بعدها اوربا كلها فجهز عسكراً غفيراً (سنة ١١٣ـ٧٣١) وقطع البرنات ورودان كما ذكر والقى الحصار على ارلص وفتحها عنوة وقتل خلقاً كثيراً وتجاوز نهري كارونه ودردونيه من جهة المحيط وهما اللذان يصبان في خليج بورضو والتقى بعساكر ايود الثانية فانه كان قد هزمه اولاً وفتك بهم وقتل منهم ما لا يعد وامتدت من هناك عساكر المسلمين في ولايات اكيتانية مثل بريغرد وصانطنج وبواطو وضرب عبد الرحمن مضاربه اخيراً امام طورس ولنس وقطع بعض العسكر بوركونية وحلوا امام مدينتي ليون وبزنزون الشهيرتين ولما لم يجدوا ما يكفيهم من السلب فيها لتاخر الصنائع وقتئذٍ والاقتصاد في المفروشات نهبوا الاديرة والكنائس واحرقوها ونهبوا ايضاً قبر مارا يلاريوس في بواطير ومارمرتينوس في طورس لغناها وهكذا كلما وجدوا في طريقهم مسافة الف ميل من جبل طارق

ولما راى الفرنسويون ما حلَّ بهم من الخراب والدمار انتخبوا كارلوس المذكور من امراء البلاط الملوكي المستحق بنسب ببينوس وكان كارلوس مقداماً ذا دهاء وفطنة محبوباً من اصحابه مرهوباً من اعدائه وكان اهل فرنسا يتساءلون مذعورين « ما هذا الذل طالما سمعنا بقوة العرب وكنا نخشى هجومهم من جهة المشرق فما بالهم فتحوا اسبانيا واتونا من نحو المغرب اتتركهم يحتلون بلادنا وهم اقل عدداً منا وسلاحهم اقل من سلاحنا » وبكلام مثل هذا كانوا يحرضون بعضهم بعضاً اما كارلوس (قارله) فبعد ان اجاب طلب الاهالي امرهم ان لا يعارضوا العرب ولا يخاطروا بذواتهم قائلاً « هولاء القوم هم كنهر جارٍ لا يمكن توقيف مائه وحب الغنى والمجد مضاعف جزائهم والجراءة تغلب الكثرة فدعوهم يكتفون من النهب حتى اذا ما اكتفوا يعثرون بحركاتهم ويكون ذلك سبباً للاختلاف بينهم » ثم جمع عساكره وقد وصلت اهالي جرمانية وغيرهم لمساعدته وركب على الاعداء فوجدهم في وسط فرنسا ما بين مدينة طورس وبواطير وكان وصوله اليهم بغتة لمجيئه خافيا عن انظارهم بسلسلة جبال ثم انقض عليهم والتقوه بجراءة متساوية واشتبكت جيوش المشرق والمغرب

للقتال وكان ذلك القتال موقوفا عليهِ تغير هيئات الامور في اوربا وبقيت الحرب سبعة ايام وكانت في الستة الايام الاولى خفيفة والوجه فيها للعرب اما اليوم السابع فامتد فيهِ الطعان واشتعلت النيران وتصادم الفريقان واظهر الجرمن شجاعةً ومقدرةً لامزيد عليها وقد ساعدهم على ذلك عظم ابدانهم وانجلى القتال عن هزيمة العرب وقتل عبد الرحمن فانكفات جيوشهم الى الخيام بحالة كئيبة ووقع النزاع فيما بينهم وجردوا السلاح على بعضهم بعضًا واخذ كلٌّ من الامراء والقواد واتباعهم بالفرار ولم يبقَ منهم احد الى الصباح . ولما نظر النصارى انقطاع الصوت في خيام الاعداء ظنوا ذلك حيلة ولكنهم وجدوهُ بعد التحقيق صحيحًا ولم يتركوا وراءهم من السلب الاّ قليلاً فانتشر خبر هذا الانتصار في كل اوربا وعادت العساكر الجرمانية مكللة بالظفر ورجع ايود الى ماموريتهِ وكان ذلك اخر ما افتكر العرب بفتح فرنسا . ولم يزل كرلوس الملقب بالمهدة يطاردهم حتى تجاوزوا البرنات . ومن العجب المختص بذلك العصر ان كارلوس الذي خلص بلادهُ واوربا كلها من العدو لم ينل شكرًا عن ذلك من الاكليروس لانهُ استخدم اموال الاساقفة والكهنة لخير الوطن بل انهم ابغضوهُ وحكموا عليهِ بالهلاك حتى ان بعضهم كتب كتابًا بعد موت كارلوس الى كارلوس ونجبوس من ذريتهِ يقول فيهِ ان جدهُ قد قضى عليهِ بالهلاك واستشهد على ذلك بان عند فتح ضريحهِ خرجت منهُ نتانة نارية لم يشم نظيرها ونظر فيهِ ثعبان مخيف وبان احد القديسين شاهدهُ يتعذب روحًا وجسدًا في الاعماق الابدية

ومن مورخي المسلمين من يجعل ذلك في عهد موسى والاصح ما تقدم . قال الحجاري في المسهب ان موسى بن نصير نصرهُ الله نصرًا ما عليهِ مزيد واجفلت ملوك النصارى بين يديهِ حتى خرج على باب الاندلس الذي فيهِ الجبل الحاجز بينها وبين الارض الكبيرة فاجتمعت ملوك الافرنج الى ملكها الاعظم قارله وهذا اسم ملكهم فقالت لهُ ما هذا الخزي الباقي في الاعقاب كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى اتوا من مغربها واستولوا على بلاد الاندلس وعظم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم فقال لهم ما معناهُ الراي عندي ان لا تعترضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل ما يصادرهُ فهم في اقبال امرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد وقلوب تغني عن حصانة الدروع ولكن امهلوهم حتى تمتلي ايديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذٍ تتمكنون فيهم بايسر امر فكان كذلك بالفتنة التي طرات بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء — وقيل ان موسى بن نصير اخرج ابنهُ عبد الاعلى على تدمير ففتحها والى غرناطه ومالقه وكورة رية ففتح الكل

وقيل ان موسى بن نصير كان يرغب جدًا الوصول الى جليقية وبينما هو كذلك اتاه

مغيث الرومي رسول الوليد يامرهُ بالخروج عن الاندلس والاضراب عن الوغول فيها وياخذهُ بالقفول اليهِ فساء ذلك موسى ومنعهُ عن ارادتهِ اذ لم يكن في الاندلس بلد لم تدخلهُ العرب غير جليقية فكان شديد الحرص على افتتاحها فلاطف موسى مغيثًا رسول الخليفة وسالهُ انظارهُ الى ان ينفذ عزمهُ في الدخول اليها والمسير معهُ في البلاد ايامًا يكون شريكًا في الاجر والغنيمة ففعل ومشى معهُ حتى بلغ المفازة فافتتح حصن (بارو) وحصن (لك) فاقام هنالك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الاخضر فلم تبقَ كنيسة الاَّ هدمت ولا ناقوس الا كسر وطاعت الاعاجم (اي الفرنج) فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز فاتسع نطاق الاسلام . وبينما موسى كذلك اذ قدم عليهِ رسول اخر من الخليفة يكنى ابا نصر اردف بهِ الوليد مغيثًا لما استبطا قفول موسى وكتب اليهِ يوبخهُ ويامرهُ بالخروج فاقتطع من مدينة لك بجليقيه وخرج على الفج المعروف بفج موسى ودا ناهُ طارق في الطريق منصرفًا من الثغر الاعلى فاقفلهُ مع نفسهِ ومضيا الى اشبيلية فاستخلف موسى ابنهُ عبد العزيز على امارة الاندلس واقرهُ باشبيلية وركب موسى البحر الى الشام (سنة ٩٥) انتهى ملخصًا عن المقري

وتوفي هشام بن عبد الملك (سنة ١٢٥) بالرصافة بمرض الذبحه وعمرهُ خمس وخمسون سنة وكان احول وخلف عدة بنين منهم معاوية ابو عبد الرحمن الداخل الذي في الاندلس وكان هشام حازمًا سديد الراي غزير العقل عالمًا بالسياسة وهو الذي بنى الرصافة بالشام ودعيت رصافة هشام وابتنى بها قصرين وبها دير معروف وهي حسنة التربة صحيحة الهواء

اما الصوائف ففي ايام يزيد سنة ١٠٢) غزا عمر بن هبيرة الروم في ناحية ارمينية وهو على الجزيرة فهزمهم واسر منهم وقتل سبعماية اسير . وغزا العباس بن الوليد ايضًا وغنم ثم (غزا سنة ١٠٣) ففتح مدينة رسلة ثم غزا الجراح الحكمي ايام هشام (سنة ١٠٥) فبلغ وراء بلنجر وغنم . وغزا في هذه السنة سعيد بن عبد الملك ارض الروم وبعث الف مقاتل في سرية فهلكوا جميعًا . وغزا فيها مروان بن محمد بالصائفة اليمني ففتح مدينة قريبة من ارض الزوكج . ثم غزا سعيد بن عبد الملك بالصائفة ايام هشام (سنة ١٠٦) ثم غزا مسلمة بن عبد الملك الروم من الجزيرة وهو والٍ عليها ففتح قيسارية . وغزا ابرهيم ابن هشام ففتح حصنًا . وغزا معاوية بن هشام بالبحر قبرس وغزا (سنة ١٠٩) ففتح حصنا اخر يقال لهُ طبسة . وغزا (سنة ١١٠) بالصائفة عبد الله بن عقبة الفهري وكان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية . وغزا بالصائفة اليسرى (سنة ١١١) معاوية بن هشام وبالصائفة اليمنى سعيد بن هشام وفي البحر عبد الله بن ابي مريم . وفتح معاوية في صائفة (سنة ١١٢) مدينة خرشنة . وغزا (سنة ١١٣) عبد الله البطال فانهزم وقتل عبد الوهاب في اصحابهِ . ودخل معاوية بن هشام ارض الروم من ناحية مرعش . ثم غزا (سنة ١١٤) بالصائفة اليسرى اصحاب بعض الفرق والتقى

عبد الله مع قسطنطين فهزمهُ واسرهُ . وغزا سليمان بن هشام بالصائفة اليسرى فبلغ قيسارية وهزم مسلمة بن عبد الملك خاقان وباب الباب . وغزا معاوية بن هشام بالصائفة (سنة ١١٥) . وغزا سفيان بن هشام بالصائفة اليسرى (سنة ١١٧) . وسليمان بن هشام بالصائفة اليمنى من ناحية الجزيرة وفرق السرايا في ارض الروم . وغزا معاوية وسليمان ارض الروم (سنة ١١٨) وغزا فيها مروان بن محمد في ارمينية ودخل ارض وارقيس فهرب وارقيس الى الحرور فنازل مروان حصنهُ وحاصرهُ وقتل وارقيس بعض من اجتاز بهِ وبعث برسالة الى مروان . وغزا مروان بن محمد من ارمينية ومرَّ ببلاد اللان الى بلاد الخزر على بلنجر وسمندر وانتهى الى خاقان فهرب خاقان منهُ . وغزا سليمان بن هشام (سنة ١٢٠) بالصائفة فافتتح سندره . وغزا اسحق بن مسلم العقيلي قومانساه وافتتح قلاعهُ وضرب ارضهُ . وغزا مروان من ارمينية (سنة ١٢١) وافنى قلعة بيت السرير وقتل وسبي ودخل حصنًا لهُ يسمى جورج فيهِ سرير الذهب فنازلهُ مروان حتى صالحهُ على الف فارس كل سنة ومائة الف مدني ثم دخل ارض ارزف ونضران فصالحهُ ملكها ثم ارض نومان كذلك ثم ارض حمدين فاخرب بلاده وحصر حصنًا لهُ شهرًا حتى صالحهُ ثم ارض مداد فتحها على صلح ثم نزل كيلان فصالحهُ اهل طبرستان وكيلان وكل الولايات على شاطئ البحر من ارمينية الى طبرستان . وغزا مسلمة بن هشام الروم في هذه السنة فافتتح بها مطامير (وسنة ١٢٢) قتل عبد الله بن حسين الانطاكي المعروف بالبطال وكان كثير الغزو في بلاد الروم والاغارة عليهم وقدمهُ مسلمة على عشرة الاف فارس . وغزا (سنة ١٢٤) سليمان بن هشام بالصائفة على عهد ابيهِ فلقي لبون ملك الروم وهزمهُ وغنم . (وسنة ١٢٥) خرجت الروم الى حصن زبطره وكان افتتحهُ حبيب بن مسلمة الفهري وبناهُ غير محكم فاخربوهُ ثانيةً ايام مروان ثم بناهُ الرشيد وطرقهُ الروم ايام المامون فشعثوهُ فامر ببنائهِ وتحصينهِ ثم طرقوهُ ايام المعتصم وخبره معروف

وفي هذه السنة اغزا الوليد بن يزيد بالصائفة اخاهُ عمر وبعث الاسود بن بلال المحاربي بالجيش في البحر الى قبرس ليخير اهلها بين الشام والروم فافترقوا فريقين (انتهى ملخصًا عن ابن خلدون)

تتمة هذا الفصل

في دول الاسلام والخوارج

اعلم ان المسلمين انقسموا في بادي الامر على الخلافة ما بين ان تكون في اهل البيت او في قبيلة قريش . ويدعى الفريق الاول اهل الشيعة والفريق الثاني اهل السنة والجماعة . وكلاهما راجع الى تخصيص الخلافة في قريش على ان الشيعة اكثر اختصاصًا لانهم يجعلونها في بني هاشم احد فخذى

بني عبد مناف لا غير . ثم ظهرت الخوارج بعد التحكيم في صفين بين الامام علي ومعاوية بن ابي سفيان وهم قوم شعارهم النداء « بلا حكم الاّ لله » فلم يزل الاسلام دولةً واحدة ايام الخلفاء الاربعة وبني امية من بعدهم لاجتماع العصبية ثم ظهر من بعد ذلك امر الشيعة وهم الدعاة لاهل البيت الى ان علت دعاة بني العباس واستقلوا بخلافة الملك كما سياتي ولحق الفل من بني امية بالاندلس فقام بامرهم فيها وانقسمت لذلك دولة الاسلام الى دولتين وافترقت العصبية ثم ظهر دعاة اهل البيت ايضًا في المغرب والعراق من العلوية ونازعوا العباسيين واستولوا على اطراف البلاد كالادارسة بالمغرب الاقصى . والعبيديين بالقيروان ومصر . والقرامطه بالبحرين . والدواعي بطبرستان والديلم . والاطروش فيها من بعده . وتجزأت دولة الاسلام دولاً متفرقة . وقد ذكرنا الى الان دولة الاسلام الاولى وسياتي ذكر الثانية

اما الخوارج فهم حزب الحرية وهذا الحزب كان اولاً من طرف الامام علي قال ابن خلدون « وفيما نقله اهل الآثار ان عمر قال يوما لابن العباس ان قومكم يعني قريشا ما ارادوا ان يجمعوا لكم يعني بني هاشم بين النبوة والخلافة فتحموا عليهم وان ابن العباس انكر ذلك وطلب من عمر اذنهُ بالكلام فتكلم بما عصب له وظهر من محاورتهما انهم كانوا يعلمون ان في نفس اهل البيت شيئًا من امر الخلافة والعدول عنهم بها قال » وفي قصة الشورى ان جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي ويرون استحقاقهُ على غيرهِ ولما عدل بهِ الى سواهُ تافقوا واسفوا له مثل الزبير ومعهُ عمار بن ياسر والمقداد بن الاسود وغيرهم الا ان القوم لرسوخ قدمهم في الدين وحرصهم على الالفة لم يزيدوا في ذلك عن النجوى بالتافف والاسف . ثم لما فشا التكبر على عثمان والطعن في الافاق كان عبد الله بن سبا ويعرف بابن السوداء من اشد الناس خوضًا في التشنيع لعلي بما لا يرضاهُ من الطعن على عثمان وعلى الجماعة في العدول اليهِ عن عليّ وانهُ وُلي بغير حق فاخرجهُ عبد الله بن عامر من البصرة ولحق بمصر فاجتمع اليهِ جماعة من امثالهِ جنحوا الى الغلو في ذلك وانتحال المذاهب الفاسدة فيهِ مثل خالد بن ملجم وسوذان بن حمدان وكنانة بن بشر وغيرهم ثم كانت بيعة علي وفتنة الجمل وصفين وانحراف الخوارج عنهُ بما انكروا عليهِ من التحكيم في الدين وتمحضت شيعتهُ للاستماتة معهُ في حرب معاوية مع علي وبويع ابنهُ الحسن وخرج عن الامر لمعاوية فسخط ذلك شيعة علي منهُ واقاموا يتناجون في السر باستحقاق اهل البيت « انتهى »

وحينئذٍ اصرّ الخوارج على عدم قبول تحكيم في الامر وابوا الا الحرب مع كل ملاطفة علي لهم وجعلوا شعارهم ملاشاة الخلافة وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي فقاتلهم علي بالنهروان وقتلهم اجمعين . ثم خرج من فلهم طائفة بالانبار ثم طويفة اخرى مع هلال بن علية ثم اخرى ثالثة ثم اخرى على المدائن ثم اخرى بشهرزوز . وفي كل ذلك كانوا يحاربون ويستاصلون . ومن الشهرزوزية لم يبقَ الا نحو خمسين

نفرًا استامنوا وافترق شمل الخوارج ومنهم كان الثلثة الذين تقدم ذكرهم في قتل الامام علي ولما قام معاوية على تخت الخلافة ظهروا ايضًا وتقاتلوا مع عماله الى ان قوي عليهم (سنة ٤١) وقتلهم ولم يبق منهم الا نحو خمسين دخلوا الكوفة وتفرقوا فيها

ثم خرج فروة الاشجعي وقتله رسول المغيرة بن شعبه في شهر روز ثم بعث المغيرة فقتل بالشبهة ابن ابجر من اصحاب شبيب بن ملجم الذي بشر معاوية بقتل علي ثم قتل معن بن عبد الله المحاربي لانه ابى مبايعة معاوية ثم خرج ابو مريم مولى بني الحارث بن كعب وحزب معه النساء فبعث المغيرة من قتله وحزبه معه ثم ابو ليلى فارسل المغيره عليه من اهلكه في الكوفة (سنة ٤٣) ثم خرج على ابن عامر في البصرة سهم بن غانم الجهني ومعه نحو سبعين نفرا وقتلوا بعض الصحابة الحاضرين من الغزو بين الجسرين والبصرة فقدم عليهم ابن عامر وقتل منهم عدة ثم اجتمع الخوارج بالكوفة نحوار بعماية في منزل حيان بن ضبيان وتشاوروا في الخروج وتدافعوا الامارة. ثم اتفقوا على المستورد بن عقله التيمي من تيم الرباب فكبسهم المغيرة وسجن حيان وافلت المستورد فنزل الحيرة واختلف الخوارج اليه وخرجوا ولحقوا بالصراة في ثلثماية فجهزلهم معقل بن قيس في ثلاثه الاف معظمهم من شيعة علي فجاء الخوارج ليعبروا النهر الى المدائن فمنعهم عاملها سماك بن عبد العبسي ودعاهم الى الطاعة على الامان فابوا وساروا الى المذار وبلغ ابن عامر خبرهم فاجتمعت عليهم قواد ابن عامر مثل ابي الرواع الشاكري ومعقل بن قيس وشريك بن الاعور الحارثي . فتقهقر الخوارج فلحقهم ابو الرواع بجرجان فقاتلهم وانهزموا الى ساباط فتبعهم وقتل معقل قتله المستورد وهذا تقدم والرمح فيه فقسم دماغ المستورد بالسيف وماتا جميعًا ثم حمل الناس على الخوارج فقتلوهم ولم ينجُ منهم الا خمسة او ستة

وخرج (سنة ٥٢) ابن حراش العجلي في ثلثماية بالسواد فبعث اليهم سعيد بن حذيفة في خيل فقتلوهم ثم خرج اصحاب المستورد حيان بن ضبيان ومعاذ من طي فصادفهما ما صادف الاولين . ثم ظهروا بالبصرة (سنة ٥٨) وال الامر الى هزيمتهم واشتد ابن زياد على الخوارج وقتل منهم جماعة كثيرة وسرح اليهم مرةً عباد بن علقمة المازني فكبسهم «بتوج» وهم يصلون فقتلهم اجمعين ما بين راكع وساجد ورجع الى البصرة براس ابي بلال مرداس وامر عبيد بن ابي بكر بتتبع الخوارج فاخذهم وحبسهم واخذ الكفلاء على بعضهم

ثم توفي يزيد واستفحل امر ابن الزبير بمكة فاجتمعوا اليه ولكنه لم يقبل قذفهم بعثمان وانكارهم خلافة الشيخين ابي بكر وعمر فتبراوا منه وتبرا منهم وافترقوا وانقسموا فيما بعد الى اربع فرق: ازارقة وهم اصحاب نافع بن الازرق وكان راية البراءة من سائرة المسلمين وتكفيرهم والاستعراض وقتل

الاطفال واستحلال الامانة وهم اشبه بالمشيخة الحمراء او الكمون الذين ظهروا في فرنسا سنة ١٨٧٠ والفرقة الثانية . النجدية . وهم بخلاف الازارقة في ذلك كلهِ واشبه بالمشيخة الاحتفاظية . والثالثة الاباضية . وهم اصحاب عبد الله بن اباض المري ويرون ان المسلمين كلهم بحكمهم بحكم المنافقين فلا ينتهون الى الراي الاول ولا يقفون عند الثاني . فلا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم ولا المنافقين فيهم وهم عندهم كالمنافقين وقول هولاء اقرب الى السنة ومن هولاء البيهسية اصحاب ابي بيهس هيصم بن جابر الضبعي والفرقة الرابعة الصفرية . وهم موافقون للاباضية الا في العقدة فان الاباضية اشد على العقدة منهم . وكان الخوارج من قبل هذه القسمة على راي واحد لايختلفون الاَّ في الشاذ من الفروع

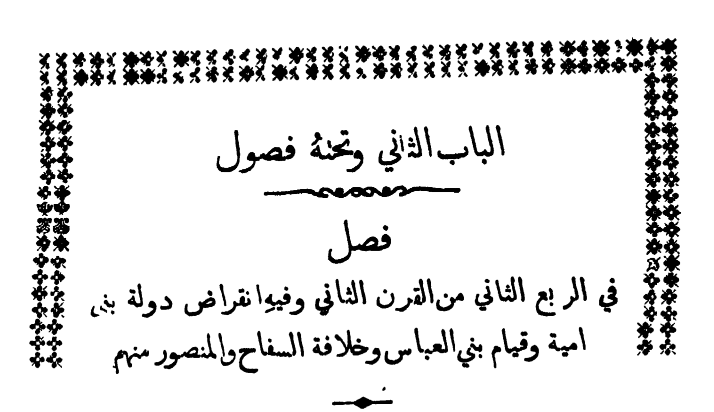
ولما جاء نافع الى نواحي بصرة (سنة٦٤) واقام بالاهواز يعترض الناس جرى بينهم وبين عمال ابن الزبير قتال فيهِ قتل ربيعة بن الاخرم واقيم عوضهُ حارثة بن بدر فرد الخوارج على الاعقاب ونزل الاهواز ثم عزل عن البصرة عبد الله ابن الحارث وبعث ابن الزبير عليها ابن ابي ربيعة فزحف الخوارج الى البصرة . واشار الاحنف بتولية المهلب حروبهم وكان المهلب واليا على خراسان من لدن ابن الزبير فاستشاروا ابن الزبير بذلك فاجاب اليهِ . فاختار المهلب من الجند اثنى عشر الفًا وسار اليهم فدفعهم عن الجسر وجاء حارثة بن بدر بمن كان معهُ في قتال الخوارج وردهم الى جماعة المهلب وتوجه حارثة بحرًا يريد البصرة فغرق في النهر . وسار المهلب وعلى مقدمتهِ ابنهُ المغيرة فقاتلهم ودفعهم عن سوق الاهواز الى مادر ونزل المهلب بسولاف وقاتلهُ الخوارج فاستظهروا على المهلب فترك قتالهم وقطع دجيل ونزل العقيل ثم قام ونزل بقربهم واذكى العيون والحرس وجاء منهم عبيدة بن هلال والزبير بن الماخور في بعض الليالي ليبغتوا عسكر المهلب فوجدوهم متيقظين فخرج اليهم المهلب في الغد في تعبيتهِ والازد وتميم في ميمنتهِ وبكر وعبد القيس في ميسرتهِ واهل العاليه في القلب وعلى ميمنة الخوارج عبيدة بن هلال اليشكري وعلى ميسرتهم الزبير بن الماخور واقتتلوا وانكسر عسكر المهلب وسبق المهلب المنهزمين الى ربوة ونادى فيهم فاجتمع لهُ ثلاثة الاف اكثرهم من الازد فرجع بهم وقصد عسكر الخوارج واشتد القتال وقتل ابن الماخور عبد الله وانكفا الخوارج راجعين الى كرمان وناحية اصبهان واستخلفوا عليهم الزبير بن الماخور . واقام المهلب بمكانهِ الى ان جاء مصعب بن الزبير اميرًا على البصرة وعزل المهلب

واشتهر من الخوارج نجدة بن عامر وعطية بن الاسود الحنفيان وهذا الاخير قتلتهُ عساكر المهلب في قندابيل من السند . واشتهر فيهما ابو فديك وتقوى حزبهم جدًّا لاسيما نجدة وكانت الحروب بينهم وبين اتباع الخلافة دائمة وبشراسة خارجة عن حقوق الانسانية فلم يكونوا يعتبرون الشيوخ ولا

الاطفال ولا النساء حتى انهم كانوا يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة في بطون امهاتهم فكان قتال الطرفين اشبه بقتال استئصال ومن كان من الخوارج ضد ابن الزبير عبد الله بن الحر الذي اشتد وتقوى واخيرًا الحق بعبد الملك بن مروان من الامويين ومات غرقًا في دجلة بعد ان اثخن بالجراح مقاتلاً في حزب الدولة الاموية وللخوارج مع عبد الملك والحجاج بن يوسف الثقفي مواقع عديدة وقد اشتهر بذلك الازارقة والصفرية وشبيب بن الاشعث ومطرف من بني المغيرة بن شعبه ونحوهم كثير في كل مدة بني امية . وكان مطرف على المدائن ومبادئه الدعاء الى الكتاب والسنة على الشورى كما تركها عمر بن الخطاب حتى يولي المسلمون من يريدونه . ولشيبان الحروري ابن عبد العزيز اليشكري مواقع شهيرة مع عساكر مروان الحمار اخر بني امية وبعدهُ مع العباسيين و(سنة ١٣٤) قتل جلندى بن مسعود شيبان في عمان . ومن اراد معرفة كل ذلك ودقائق اخبار الخوارج فليطالع المطولات ولم نذكرهم هنا الا بيانًا لظهور الحرية في الاسلام من اوله وقد سفك في تاييدها انهرٌ من الدم في عدة من قرونه الاولى ووجد في المشرق الاحزاب السياسية الموجودة الان مثل اباحية واشتراكية وارتباطية وجمهورية حمراء وبيضاء وفوضوية وشوروية ونحوها ودام الخوارج في مدة الدولة العباسية كما سياتي

اما الشيعية ودولهم فقد تقدم ان شيعة علي سخطت منهُ ومن ولده الحسن بخلعهِ نفسهُ وتسليم الامر لمعاوية الخ ثم انهم كتبوا للحسين بالدعاء لهُ فامتنع ووعدهم الى موت معاوية فساروا الى محمد بن الحنفيه وبايعوهُ في السر على طلب الخلافة متى سنحت الفرصة وولى على كل بلد رجلاً . وكان معاوية متيقظًا لعملهم بسياسة عميقة احيانًا بالتخية واحيانا بالاستعمال والتسامح الى ان مات ونهض يزيد وخرج الحسين فقتل وكان ذلك من اقبح الامور في الاسلام وهيجان الفتن وتوغل الشيعة وعظم النكير والطعن على من تولى ذلك او قعد عنهُ ثم تلاوموا على ما قصروا بهِ في امر الحسين من دعوته وعدم نصرتهِ فندموا وتابوا ولم يروا كفارة الا في الاستماتة دون ثاره وسموا انفسهم « التوابين » وخرجوا لذلك وعلى راسهم سليمان بن صرد الخزاعي ومعهُ جماعة من خيار اصحاب علي وكان ابن زياد قد انتقض عليهِ العراق فلحق بالشام . فزحف سليمان قاصدًا العراق فزحفوا اليهِ وقاتلوهُ حتى قتل سليمان وكثير من اصحابهِ ثم خرج المختار بن عبيد ودعا لمحمد بن الحنفية وفشا التعصب لاهل البيت في العامة والخاصة واختلفت مذاهب الشيعة في من هو احق بالامر من اهل البيت انفسهم وبايعت كل طائفة لصاحبها سرًا . ورسخ الملك لبني امية وطوى هولاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم مع تعدد فرقهم وكثرة اختلافهم ثم نشا زيد بن علي بن الحسين وقرا على واصل بن عطا امام المعتزلة وكان واصل المذكور مترددًا في اصابة علي في حرب صفين والجمل فتشرب زيد مبادئه وكان اخوهُ محمد الباقر

يعذله لذلك فكان زيد مع قوله بافضلية علي على اصحابه يرى في صحة بيعة الشيخين بخلاف الشيعه ثم دعته الحال الى الخروج بالكوفة (سنة ١٢١) واجتمع له عامة الشيعة ورجع عنه بعضهم لما سمعوهُ يثني على الشيخين فرفضوا دعوته وسموا «الرافضة» ثم قاتل زيد المذكور يوسف بن عمر فقتله يوسف وبعث براسه الى هشام وصلب شلوه بالكناسة ولحق ابنه يحيي بخراسان فاقام بها ثم دعته شيعة الى الخروج فخرج هنالك (سنة ١٢٥) فسرح اليه نصر بن سيار عسكرًا مع سالم بن احور المازني فقتلوهُ وبعث براسه الى الوليد وصلب شلوه بالجوزجان وانقرض الزيدية ٠ واقام الشيعة على شانهم وانتظار امرهم والدعا لهم في النواحي يدعون على الاجمال للرضا من آل محمد ولا يصرحون بمن يدعون له حذرًا عليه ٠ وكان شيعة محمد بن الحنفية اكبر شيعة وكانوا يرون ان الامر بعد محمد بن الحنفية لابنه ابي هشام عبد الله فاتفق انه مر في بعض اسفاره بمنزل محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالحميمة من اعمال البلقاء فنزل عليه وادركه المرض عندهُ فمات واوصى له بالامر وقد كان اعلم حزبه بالعراق وخراسان ان الامر صائر الى ولد محمد بن علي هذا فلما مات قصدت الشيعية محمد بن علي وبايعوهُ سرًا وبعث الدعاة منهم الى الآفاق على راس المائة من الهجرة في ايام عمر بن عبد العزيز واجابه عامة اهل خراسان وبعث عليهم النقبا وتداول امرهم هنالك وتوفي محمد سنة اربع وعشرين وعهد لابنه ابرهيم وكان يدعى الامام كما سياتي



الباب الثاني وتحتهُ فصول

فصل

في الربع الثاني من القرن الثاني وفيهِ انقراض دولة بني امية وقيام بني العباس وخلافة السفاح والمنصور منهم

وبعد موت هشام نهض الوليد بن يزيد ثم يزيد الناقص ثم اخوهُ ابرهيم وكل ذلك في مدة اقل من ثلاث سنين فان ابرهيم الاخير لم يقم اكثر من اشهر قليلة وقيل سبعين يوماً وخلافة هولاء الثلاثة لم تكن شهيرة في دولة بني امية الا في ازدياد القلاقل والاضطرابات الداخلية . ثم نزع الملك من ابراهيم مروان بن محمد وكان والياً على ديار الجزيرة بانتصاره على سليمان بن هشام امير جيوش ابرهيم وكانت جنود سليمان ماية وعشرين الفاً ومروان ثمانين الفا واختفى ابرهيم وقتئذٍ ونهب مروان بيت المال وفرقهُ في اصحابهِ وكان ذلك (سنة ٧٤٤-١٢٧) ثم بويع بدمشق ورجع منها الى متزاوه بحران وكان اخر هذه الدولة ثم امن ابرهيم المخلوع وسليمان بن هشام . وفي اول خلافتهِ عصى عليهِ اهل حمص وانتهى الامر بطاعتهم وهدم بعض سورها وصلب بعض اهلها . ولم يكمل اخضاع الحمصيين حتى اتي الخبر بعصاوة اهل الغوطة وقد ولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق فارسل عليهم مروان عشرة الاف فارس مع ابي الورد بن الكوثر وعمرا بن الصباح فحملا على الغوطه وخرج اهلها لقتالهما لكنهم انهزموا فنهبهم العسكر واحرقوا المزة وغير قرى ثم عصت فلسطين ومقدمهم ثابت بن نعيم فكتب مروان الى ابي الورد فسار اليهِ وهزمهُ على طبرية ثم اقتتلوا على فلسطين وانهزم ابن نعيم وتفرق اصحابهُ واسر ابو الورد ثلاثة من اولادهِ وبعث بهم الى مروان ثم سار مروان بن محمد الى قرقيسيا فظهر سليمان بن هشام بن عبد الملك وخلعهُ واجتمع اليهِ من الشام سبعون الفا وعسكر بقنسرين والتقاه مروان من قرقيسيا وجرى بينهما قتال شديد فيهِ انهزم سليمان بن هشام وقتل من عسكره نحو ثلثين الفا ثم قام سليمان الى حمص واجتمع اليهِ اهلها وجمع نفسهُ وعسكره الشتيت فتبعهُ مروان وهزمهُ ثانية فذهب الى تدمر وحاصر مروان اهل حمص مدة الى ان طلبوا الامان فامنهم

وفي سنة ١٢٨) ارسل مروان بن محمد يزيد بن هبيرة الى العراق لقتال من بهِ من الخوارج (وسنة ١٢٩) تجددت دعوة بني العباس بخراسان وقوي حزبهم وقد تقدم كوف انهُ من عهد يزيد

الاول (في سنة ١٠١) من الهجرة كان قد اخذ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم الرسول يدعي بحق الخلافة فارسل اثني عشر رسولاً الى العراق وخراسان وما وراء النهر ليحزبوا الناس اليهِ مظهرين ان بنى العباس هم حقًا من بني هاشم اقارب الرسول وانَّ بني امية ليسوا الا مغتصبين. وكان محمد المذكور قد جمع اليهِ حزبا قويا مدة الاربع سنوات التي ولي فيها يزيد. وبعد توفي يزيد قرب الكوفة هجم التحزب لقيام خليفة جديد وكان موت يزيد من الغم على احدى حظياتهِ التي كان يحبها قالوا انهُ بينما كان يحفظ يوما مع حظيتهِ المذكورة في بعض البساتين اتوا اليهِ بطبق من الفاكهة الفاخرة فاخذ حبة من العنب عجيبة لكبرها وناولها للجارية فاخذتها واكلتها فغصت وماتت وشق ذلك على يزيد واخذ ينوح ويبكي ويلطم نفسهُ وابقى جثتها عنده اسبوعًا كاملاً الى ان انتنت ولم يعد يقدر على الاقتراب منها فامر بدفنها ثم امر بفتح حجرتها يوما ليراها وعندما نظرها اخذتهُ رعدة انقضت بموتهِ.

ثم تجددت الدعوة بخراسان (سنة ١٢٩) في مدة ابي مسلم الخراساني. وكان ابو مسلم يختلف الى ابرهيم بن محمد ومنهُ الى خراسان وابرهيم يستعلم منهُ الاحوال. وكان ابو مسلم من مدة قبلها يساعد ابرهيم ويسند حقهُ للخلافة وقد اجاب اهل خراسان دعوة ابرهيم وقدموا لهُ هدايا اربعين الف ذهب طالبين اليهِ النهوض وقيل ان ذلك كان في عهد ابيهِ محمد. ولما دخلت السنة المذكورة اتفق على ان يذهب ابو مسلم الى خراسان ويجدد ذلك. ثمَّ حج ابرهيم ومعهُ اخواهُ ابو العباس وابو جعفر وولدهُ وعمهُ ومواليهِ على ثلاثين نجيبا بالثياب الفاخرة والرحال والاثقال فشهرهُ اهل الشام واهل البوادي والحرمين وبلغ ذلكَ مروان الاموي وكان قد وقع بين ابي مسلم ونصر بن سيار امير خراسان مكاتبات طويلة انتهت الى قتال قتل فيهِ ابو مسلم بعض عمال نصر المذكور واستولى على ما بايديهم وكتب نصر الى مروان بن محمد يعلمهُ بالحال وضمن كتابهُ ابياتًا منها

اری خلال الرمادِ وميض نارٍ ويوشك ان يكون لها ضرامُ
اذا لم يطفها عقلاء قومٍ يكون وقودها جثث وهامُ

وكان ابرهيم المعروف بالامام يسكن هو واهلهُ بالشراة من الشام في قرية الحميمة نحو يوم من الشوبك وبينهما وادي موسى فارسل مروان الى عاملهِ بالبلقاء ان يسيرّ الى ابرهيم ويقبض عليهِ ويبعث بهِ اليهِ فاخذهُ مروان وحبسهُ في حرّان واثقلوهُ بالحديد وضيقوا عليهِ حتى مات وكان مولده (سنة ٨٢) وقد اوصى الى اخيهِ ابي العباس ونعى نفسهُ اليهِ وامرهُ بالمسير الى الكوفة

ففي سنة مابة وثلاثين تسلم ابو مسلم مرو ونزل في قصر الامارة وهرب ابن سيار وكان ابرهيم الامام عقد لواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب على قحطبة خادمهِ وارسلهُ بهما الى ابي مسلم فجعل ابو مسلم قحطبة في مقدمتهِ وجعل اليهِ العزل والاستعمال وكتب الى الجنود بذلك

و(في سنة ١٣٢) سار قحطبة في جيش كثيف قاصدًا يزيد بن هبيرة امير العراق وقطع الفرات والتقى به وهزمهُ وقتل قحطبه وقام بالامر بعده ولدهُ الحسن

ثمَّ بويع ابو العباس السفاح واسمهُ عبد الله بالكوفة وكان مستخفيًا بها في دار ابي مسلمة فظهر ودخل منزلهُ ولما اصبح غدا عليهِ القواد في التعبية والهيئة وقد اعدوا لهُ السواد والمركب والسيف فخرج ابو العباس في من معهُ الى قصر الامارة ثم الى المقصورة وصعد المنبر ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس وكان ذلك في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٢

ثم استخلف عمهُ داود بن علي على الكوفة وارسل عمهُ عبد الله بن علي الى شهر روز وبعث ابن اخيهِ موسى بن محمد الى الحسن بن قحطبه وهو يومئذٍ يحاصر ابن هبيرة وبعث يحيي بن جعفر الى محمد بن قحطبة بالمدائن واقام هو نفسهُ في العسكر اشهرًا ثم ارتحل الى هاشمية الكوفة

ولما نظر مروان كل ذلك وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو بحران قام منها قاصدًا ابا عون عبد الملك ابن يزيد الازدي الذي كان ولاه السفاح على شهر روز ولما وصل الى نهر الزاب نزل بهِ وحفر خندقًا وكان في ماية وعشرين الفًا والتقاهُ ابو عون بما معهُ من الجنود واردفهُ السفاح بعساكر في دفوع وعدة قواد وكانت الرياسة لعبد الله بن علي العباسي ثم عقد مروان جسرًا على الزاب وعبر الى الجهة الثانية وكان عسكر العباسيين نحو ٢٠ الفًا والتقى الجمعان واشتد بينهما القتال وكان ذلك في المكان الذي كانت من مدة ١٠٧٩ هزمت فيهِ عساكر الاسكندر جيوش ملك الفرس . وانجلت المقتلة عن انتصار العباسيين وانهزم مروان وقتل جمع غفير وغرق مثل ذلك من رجالهِ وكان نهار سبت في ١١ جمادي الاخرى (سنة ٧٤٩ و١٣٢) فمر مروان في انهزامهِ بالموصل فراى السناجق سودًا فذهب الى حران واقام نيفًا عن عشرين يومًا حتى دنا منهُ عسكر السفاح فقام الى حمص ثم الى دمشق ثم الى فلسطين وكان السفاح كتب الى عمهِ عبد الله ان يتبعهُ فسار عبد الله في اثره الى دمشق فحاصرها ودخلها عنوةً في رمضان واقام هناك ١٥ يومًا ثم سار الى فلسطين فورد اليهِ كتاب من السفاح بان يرسل اخاهُ صالحًا في طلب مروان فتبعهُ صالح حتى وصل الى نيل مصر ومروان ينهزم قدامهُ وهو يزداد فخرًا وجراءة حتى ادركهُ اخيرًا في كنيسة في بوصير وقد تبددت اصحابهُ وطعنهُ انسان برمح فقتلهُ في ذي الحجة (سنة ٧٤٩ - ١٣٢) وكان يلقب بالحمار لقوتهِ وبالجعدي وعمرهُ ٦٢ سنة ومدة خلافتهِ خمس سنين واشهرًا وكانت امهُ كردية ثم رجع صالح الى الشام وخلف ابا عون في مصر ولما وصل راس مروان الى السفاح سجد وشكر . ذكروا انهُ بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل

عن فرسهِ لحاجة طبيعية فرجع الجواد الى الوراء فظن عسكرهُ انهُ قتل فوقع فيهم الخوف وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلاً فقيل « ملك بني امية انتهى ببولة »

ولما قتل مروان هرب ولداهُ عبد الله وعبيد الله الى ارض الحبشة فقتل عبيد الله ونجا عبد الله في عدة من اتباعهِ وبقي الى خلافة المهدي وحينئذٍ قبض عليهِ ابن الاشعث محمد عامل فلسطين وبعث بهِ الى المهدي

وكان مروان حازمًا شجاعًا ابيض اشهل ضخمًا كث اللحية ابيضها ربعة

وقد تناهى العباسيون في التنقام على الامويين فان السفاح بعد ان كان امن سليمان بن هشام عاد فقتله وقيل ان ذلك كان باغراء السديف احد مقربيهِ اذ انشدهُ

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها امويا

وكان قد اجتمع عند عبد الله بن علي نحو تسعين ذكرًا منهم فلما اجتمعوا للطعام دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم واغراهُ على قتلهم فامر عبد الله بهم فضربوا بالعمد حتى وقعوا وبسط عليهم الانطاع ومد فوقهم الطعام واكل الناس وهم يسمعون انينهم حتى ماتوا (قلت يا لها من مادبة وحشية ينفر منها سماع البشر) وكانوا قد حملوا نساء مروان الى حران . ومن الاغرب انهم هتكوا حرمة الاموات ونبشوا قبور بني امية بدمشق ولما اتوا الى هشام وجدوا جسمهُ صحيحًا فأُمر بصلبهِ ثم حرقوهُ بالنار ولم يفلت من ايديهم احد من الامويين الاَّ عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فانهُ فر الى اسبانيا فقبلوهُ واسس الخلافة الاموية في قرطبه (سنة ١٣٩ – ٧٥٦) وقتل سليمان بن عبد الله العباس جماعة من بني امية والقاهم في الطريق فاكلتهم الكلاب واخذ بثار ابرهيم بن محمد والحسين بن علي بن ابي طالب ممن قاتليهما الى اخر الدهر وكانت مدة خلافتهم تسعين سنة وثلاثة اشهر وثلاثة ايام منذ تنزل حسن عن الخلافة . وخرج منهم اربعة عشر خليفة بالتوالي وامتد ملكهم من بحر الخزر الى الاوقيانوس ومن كنج الهند الى ينابيع هبروس في اسبانيا

ثم ارسل السفاح عبد الله بن علي ضد ابي الورد بن كوثر لانهُ كان خلع الطاعة فالتقاهُ في قنسرين وقاتلهُ وانجلي الامر عن هزيمة عساكر ابي الورد وقتلهِ ثم اخضع اهل دمشق لانهم عصوا ثانيةً وصار يحيي اخو السفاح على الموصل واليا وكان اهلها قد اخرجوا الوالي الذي بها . فقتل منهم نحو احد عشر الفًا ثم امر بقتل نسائهم وصبيانهم وكان مع يحيي اربعة الاف زنجي فاستوقفتهُ امراة من اهل الموصل وقالت لهُ « تانف العربيات ان ينكحن الزنوج » فاثر كلامها فيهِ وقتلهم عن اخرهم

وانفذ السفاح اخاه المنصور واليا على الجزيرة واذربيجان وارمينية وولى عمهُ داود المدينة ومكة

واليمن واليمامة وولى ابن اخيهِ عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمهُ عبد الله . وعلى مصر ابو عون بن يزيد وعلى خراسان والجبال ابو مسلم وجعل عمهُ سليمان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان . واستعمل عمهُ اسمعيل بن علي على الاهواز . وتوفي عمهُ داود فولى مكانهُ زياد بن عبد الله الحارثي وعزل اخاهُ يحيي عن الموصل لكثرة قتله واقام عليها عمهُ اسمعيل

وكان (سنة ١٣٣ – ٧٥٣) قد استولى قسطنطين ملك الروم على ملطيه وقاليقلا . ثم تحول السفاح من الحيرة الى الانبار وتوفي اخوهُ يحيي بفارس (سنة ١٣٤ . او ١٣٥ – ٧٥١ او ٧٥٢) وكان قد ولاهُ اياها بعد عزلهِ عن الموصل

وفي ذي الحجة سنة ١٣٧ – حزيران ٧٥٤) قضى السفاح نحبهُ وعمرهُ ثلاث وستون سنة ومدة خلافته اربع سنين وثمانية اشهر وكان طويلاً اقنى الانف ابيض حسن الوجه واللحية ودفن بانبار العتيقة وكان دائمًا يردد «من اراد ان يكون حليمًا فليكن اولاً قاسيًا» وبالسفاح تاسست الدولة العباسية وهي من دول الشيعة وفرقهم منها يعرفون بالكيسانية وهم القائلون بامامة محمد بن علي بن الحنفية بعد علي بن ابي طالب ثم بعدهُ الى ابنهِ هشام عبد الله ثم بعدهُ الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بموجب وصيته كما تقدم ثم بعدهُ الى ابنهِ ابرهيم الامام ثم بعدهُ الى اخيهِ ابي العباس السفاح وهو عبد الله ابن الحارثية هذا هو مساقها عند الكيسانية ويسمون ايضًا الحرماقية نسبة الى ابي مسلم لانهُ كان يلقب بحرماق . ولبني عباس شيعة يسمون الراوندية من اهل خراسان يزعمون ان احق الناس بالامامة بعد النبي هو العباس لانهُ وارثهُ وعاصبهُ لقولهِ «واولو الارحام بعضهم اولى ببعض الاية» وان الناس منعهُ من ذلك الى ان ردها الله الى والده ويتبراون من الشيخين ويجيزون بيعة عليّ بناء على قول العباس لهُ يا ابن اخي هلمَّ ابايعك فلا يختلف عليك اثنان ولقول داود بن عليّ على منبر الكوفة يوم بويع السفاح . يا اهل الكوفة انهُ لم يقم منكم امام بعد رسول الله صلعم الاّ عليّ بن ابي طالب وهذا القائم فيكم وعني السفاح (انتهى ملخصًا عن ابن خلدون)

وكانت مدة تسلط الامويين بعمالهم على الاندلس من لدن الفتح من لذريق (رودريكوس) سلطان الاندلس الغوطي وهو نهار الاحد لخمس خلون من شوال (سنة ٩٢ – ٧١٠) نحو اربعين سنة قمرية ومنها الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري عامل السفاح وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني من بني امية على سرير مملكة قرطبة وهو يوم الاضحى (لسنة ١٣٨ – ٧٥٥) ست سنين . وهذه هي الفترة بين ان حكموها بعمالهم وبواحد منهم نعم ان الخلافة الكبرى استقرت لبني العباس في اول الامر شرقًا وغربًا ولم يكن الامراء الامويون يتخذون سمة امراء المومنين لكنهم كانوا مستقلين في ملكهم ودولتهم مدة طويلة واول من اتخذ لقب امير المومنين من امراء الاندلس كان

عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر وذلك بعد الثلاثمائة من الهجرة كما ستذكرهُ في محلهِ

اما العمال المذكورون فهم طارق بن زياد مولى الامير موسى بن نصير . ثم موسى بن نصير نفسهُ وكلاهما لم يتخذا سريرًا . ثم عبد العزيز بن موسى وسريرهُ في اشبيلية . ثم ايوب بن حبيب اللخمي وسريرهُ قرطبة . وهكذا كل من بعدهُ كانت قرطبة سريرهُ . ثم الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي . ثم السمح بن مالك الجولاني . ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . ثم عنبسة بن سحيم الكلبي . ثم عذرة بن عبد الله الفهري . ثم يحيى بن سلمة الكلبي . ثم عفان بن ابي نسعة الخثعمي . ثم حذيفة بن الاحوص القيسي . ثم الهيثم بن عبيد الكلابي . ثم محمد بن عبد الله الاشجعي . ثم عبد الملك بن قطن الفهري . ثم بلج بن بشر بن عياض القشيري . ثم ثعلبة بن سلامة العاملي . ثم ابو الخطار بن ضرار الكلبي . ثم ثوابة بن سلامة الجذامي . ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وعددهم عشرون حكموا الاندلس من غير موارثة ولم يتعدوا في السمة لفظ الامير

في خلافة ابي جعفر المنصور وهو ثانيهم (من سنة ١٣٧ - ١٥٨ - ٧٥٤ - ٧٧٤)

وكان السفاح قد عهد بالخلافة لاخيهِ جعفر ومن بعده لابن اخيهِ عيسى بن موسى وعقد العهد في ثوب وسلمهُ الى عيسى وعند موتهِ كان المنصور في الحج فاخذ لهُ البيعة على الناس عيسى المذكور واعلمهُ بذلك وكان ابو مسلم مع المنصور فبايعهُ ابو مسلم وبايعهُ الناس (سنة ١٣٧ - ٧٥٤) ثم تقدم وذهب الى الانبار وارسل ابو مسلم ضد عمهِ عبد الله بن علي لانهُ كان بايع نفسهُ بالخلافة فذهب واقتتلا في ارض نصيبين وبعد مواقع انهزم عبد الله الى العراق واستولى ابو مسلمة على العساكر

وكان قد حدث ما بين المنصور وابي مسلم ما جعل نفورًا وحقدًا في قلب المنصور فانهما لما حجا كان ابو مسلم يظهر الكبر ويكسو الاعراب ويصلح الآبار والطرق فاخذ بذلك الشهرة على المنصور . وعند رجوعهما كان ابو مسلم يتقدم المنصور فاراد المنصوران يبعد عنهُ رجلاً مخطرًا كابي مسلم فكتب اليهِ بعد هزيمة عمهِ بالولاية على مصر والشام وصرفهِ عن خراسان . فلم يجب ابو مسلم الى ذلك فارسل المنصور يطلب حسابًا عن الكسب الذي اخذه ابو مسلم في الحرب فاجاب ابو مسلم الرسول « اني قد اعطيت الى الان حسابًا عن الدم والقتلى فلا يجب ان يشك فيَّ بما يتعلق بالكسب » ثم ذهب المنصور الى المدائن وطلب ابا مسلم اليهِ فاعتذر عن الحضور وطالت بينهما المكاتبات . وآخر الامر قدم ابو مسلم الى المدائن في ثلثة الاف رجل تاركًا باقي عسكره بحلوان ودخل على المنصور وقبل يدهُ وانصرف . فلما كان الغد امر المنصور بعض حرسهِ ان يكمنوا خلف الرواق فاذا صفق بيديهِ يخرجون ويقتلون ابا مسلم فلما حضر اليهِ اخذ المنصور يعدد سقطاتهِ وابو مسلم يعتذر

ثم صفق بيديه فخرج الحرس وقتلوهُ في (شعبان سنة ١٣٧ - ٧٥٤)

وكان ابو مسلم من اهل خطرنية من سواد الكوفة وكان قهرمانا لادريس بن معقل العجلي ثم دخل في خدمة محمد بن علي كما تقدم وكان من اشد الناس باسًا وطمعًا واكثرهم طعامًا يخبز كل يوم في مطبخه ثلاثة الاف قارف (رغيف) ويطبخ مائة شاة وعشرة روس بقر ما عدا الطير وكان له مائة طباخ وقيل الف وكان يلزم لنقل الات مطبخه الف ومايتا دابة وكان غيورًا جدًّا وكان له ثلاث زوجات يقرب الواحدة منهنَّ مرة في السنة ولم يكن يدخل قصرهُ احد وفيه كوى يطرح منها لنسائه ما يحتجن اليه وقيل انه ليلة زفت اليه امرأته امر بالبرذون الذي ركبته فذُبح وأُحرق سرجه لئلا يركبه رجل بعدها وكان ذا راي وعقل وتدبير وحزم ومروة وقيل كان فاتكا قليل الرحمة قاسي القلب سوطه سيفه وقتل ستمائة الف نفس صبرًا ما عدا ما قتل في الحروب وسئل بعضهم عن اي كان احسن ألحجاج ام ابو مسلم فاجاب لا اقول ان ابا مسلم خير من احد

و (في سنة ١٣٩ - ٧٥٦) ارسل المنصور عبد الوهاب ابن اخيه ابرهيم الامام والحسن ابن قحطبة في سبعين الف مقاتل ليعمروا ملطية من تخريب الروم في السنة التي قبلها فعمروها في ستة اشهر فسار اليهم ملك الروم في مائة الف جندي ونزل على نهر جيحون فبلغه كثرة العرب فرجع ومنها توجه المنصور الى القدس والرقه وعاد الى هاشمية الكوفة وامر بعمار سور المصيصة وبنى بها جامعًا

اما عبد الرحمن الداخل فسار من الفرات هاربًا الى اودية جبل دوردان وبعد ان تغلغل زمنا في قفار افريقة من وجه طلابه ذهب الى اسبانيا وجدد الحزب الابيض فانه وقتئذٍ لم يكن غير الفرس من المسلمين مالوا الى حزب العباسيين ولم يكن البربر سكان المغرب تداخلوا مطلقا في تلك الحركات . فلما وصل عبد الرحمن تلقوه بكل اكرام ذكرًا لاحسان ابائه وخوفا لئلا يجرى عليهم من العباسيين مواخذة في عدم قيامهم معهم اولاً فاقاموا عبدَ الرحمن ملكًا عليهم ودعي اميرًا وكان النائب العباسي هنالك فوجد نفسه متروكا فخاف وهرب الى الجزيرة الخضراء وارسل يطلب المساعدة من المنصور على عبد الرحمن ولكن هذا كان محبوبا من الشعب وجامعا الجراءة الى اللطافة والكرم وانتصر على عساكر العباسيين الذين اتوا من افريقية ونحوها الحربو بعمارة غزيرة وطرد يوسف قائد جيش الاعداء بعدما كان تملك قرطبة وقتله واسترد قرطبة وطوليده (طليطلة) وانتهت الحرب وقامت السناجق البيض وعاد عبد الرحمن مستقلاً بملك قرطبة والاندلس غير معتبر العباسيين بشيء .

وبعد ان كانت اسبانيا للعرب كالباب لفتح اوربا اصبحت منفردة بنفسها ومشتغلة بمحاربة جيرانها نظير الاجيوس وذريته ولعلهم البشكنس وكارلس الكبير ملك فرنسا فان هذا «الامبرور» غضب ان فتح

غرد ينية تقدم الى بمبلونة وهدم اسوارها ولقية في رجوعهِ بعض العرب والغوصقية في روسنفال عند منفذ البيرنات وفتكوا بعساكرهِ وقتلوا منهم كثيرًا وقتل رولند نسيبهُ وكان وقتئذٍ امتد روح الشرف والاشهمية (شفالرية) في اوربا. وساعد ذلك على تهذيب العوائد الوحشية الخشنة وكان مصدر ذلك بالاجماع من العرب الذين كانوا يتميزون في كل مكان برقة طباعهم وانسانيتهم وجرأتهم وعفتهم وحسن تصرفهم وبالحب والغرام والكرم والفضل كما تشخصهُ لنا اشعارهم العديدة في تلك الازمنة

و(في سنة ١٤١ ـ ٧٥٨) خرج الراوندية على المنصور وهم قوم من خراسان من مذهب ابي مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون ان روح ادم حلت في عثمان بن نهيك وان ربهم الذي يقيتهم هو الخليفة ابو جعفر المنصور. فلما ظهروا واتوا الى قصر المنصور قالوا هذا ربنا فحبس المنصور رؤساءهم نحو مايتين فغضبوا واخذوا نعشًا وحملوهُ ومشوا بهِ كانهم ذاهبون في جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن واخرجوا اكابرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستماية رجل فتنادى الناس واغلقت الابواب وخرج المنصور ماشيًا واجتمع عليهِ الخلق وكان معن بن زائدة مستخفيًا خوفًا لانهُ حارب مع ابن هبيرة الشيباني فظهر وحارب الراوندية بين يديهِ فعفا عنهُ لذلك وكان ذلك يوم استئصال الراوندية

وبعد ثورة الراوندية كره المنصور الهاشمية وخرج يرتاد لهُ موضعا يسكنهُ وكان اهل الحذق اشاروا عليهِ بان تكون اقامتهُ على نهر الصراة لانهُ بين انهار لا يصل اليهِ عدوهُ الا على جسر فاذا قطع الجسر لا يمكنهُ الوصول ويكون هو متوسطًا بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ويكون دجلة والفرات والصراة خنادق مدينتهِ تجيئه الميرة من البحر والبر فوقع اختيارهُ على مكان اسمهُ بغداد اي بستان داد ولما اراد البنا استشار المنجمين في اختيار الوقت والزيج وجعل المنصور وكالة البنا لاربعة من القواد وامر ان يكون عرض اساس القصر من اسفلهِ خمسين ذراعًا ومن اعلاهُ عشرين ووضع بيدهِ اول لبنة قائلاً بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عبادهِ والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله وامر بنقض ايوان كسرى ونقل ذلك اليها فنقضت شرفة من القصر الابيض فوجد ان ما كان يلزم لنقض ذلك اكثر من اكلاف الجديد فعدل. وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من البعض وعمل لها سورين الداخل اعلى من الخارج وبنى قصرهُ في وسطها والمسجد الجامع بجانبهِ وكانت قبلتهُ غير مستقيمة يحتاج المصلي ان ينحرف لجهة باب البصرة. وكانت الاسواق اولاً في المدينة الى ان قدم رسول لملك الروم فامر الربيع فطاف بهِ ثم سالهُ كيف رايت فقال بناء حسن لكن رايت اعداءك معك وهم السوقة فامر

باخراجهم الى جهة الكرخ وبان يترك في كل ربع منها بقالاً يبيع البقل والخل · مكان بغداد على جانب دجلة الشرقي تبعد عن المدائن خمسة عشر ميلاً وفي لحسن موقعها وجودة هواها وخصب اراضيها نمت بسرعة حتى انه على ما قيل في جنازة بعض المشايخ المعتقد بكرامتهم وجد ثمانماية الف رجل وسبعماية الف امراة فان اليها كانت تتوارد السكان من العراقين والشام والجزيرة والعجم والعرب ومصر ونحوها ودعيت دار السلام

وفي هذه السنة ظهر محمد بن عبد الله من ولد علي بن عبد الله بن ابي طالب واستولى على المدينة وتبعه اهلها فارسل اليه المنصور ابن اخيه عيسى بن موسى فقاتله وقتله مع جماعته ثم نهض اخوه ابرهيم ولم يكن يعلم بموت اخيه محمد وتوجه الى البصرة يدعو الناس لمبايعة محمد المذكور فبايعه نحو اربعة الاف وكان امير البصرة سفيان بن معاوية فلما راى اجتماع الناس الى ابرهيم تحصن في دار الامارة فقصده ابرهيم وحصره فطلب سفيان منه الامان فامنه ودخل ابرهيم القصر ووجد في بيت المال الفي الف درهم فاستعان بها وفرض لاصحابه خمسين خمسين ومضى بنفسه الى دار زينب بنت سليمان العباسي واليها ينسب الزينبيون من العباسيين ونادى هناك بالامان لاهل البصرة ثم ارسل جماعة فاستولوا على الاهواز ثم بعث هرون بن سعيد العجلي مع سبعة عشر الفا الى واسط فملكها ولم يزل ابرهيم في البصرة يفرق العمال والجيوش حتى بلغه خبر مقتل اخيه ثم عزم على الذهاب الى الكوفة وقد احصى ديوانه ماية الف ونزل باحمز على ستة عشر فرسخا من الكوفة وكان المنصور استدعى عيسى بن موسى من الحجاز فحضر وجهزه على ابرهيم وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه اكثر عسكر عيسى ثم تراجعوا واخيرًا تقوى عيسى وانهزم اصحاب ابرهيم وبقي وحده بنفر قليل نحو ستماية نفس ثم جاءه سهم في حلقه فتنحى ثم هجموا على اصحابه فتفرقوا وقتلوه واتوا براسه الى عيسى فسجد وشكر

في الصوائف

وكان امر الصوائف قد انقطع منذ (سنة ١٣٠) لما كان من الفتن فان فيها غزا الوليد بن هشام ايام مروان ونزل العمق وبنى حصن مرعش ثم اقبل (سنة ١٣٣) قسطنطين ملك الروم الى ملطيه ونزل حصن بلخ فاستنجد اهل بلخ ملطيه فامدوهم بثمانمائة مقاتل فهزمهم الروم وحصروا ملطيه والجزيرة مفتوحة وعاملها موسى بن كعب بخراسان فسلموا البلد بالامان للروم ودخلوا الى الجزيرة وخربوا ملطيه ثم فتحوا قاليقلا

وفيها سار ابو داود خالد بن ابراهيم الى الختل فدخلها فلم تمتنع عليه وتحصن منه سبيل ملكهم فحاصره مدة ثم فرض الحصن ولحق بفرغانه ثم دخلوا بلاد الترك وانتهوا الى الصين وفيها بعث

صالح بن علي سعيد بن عبد الله لغزو الصائفة وراء الدروب و(سنة ١٣٥) غزا عبد الرحمن حبيب عامل افريقية جزيرة صقليه فغنم وسبى بما لم ينله احد من قبله ثم كانت فتن البربر في افريقية فامن اهل صقليه وعمروا الحصون والمعاقل وجعلوا الاساطيل تطوف بصقليه للحراسة وياخذون تجار المسلمين في البحر اذا صادفوهم · و(في سنة ١٣٨) خرج ملك الروم فاخذ ملطيه عنوة وهدم سورها لانها كانت عادت للمسلمين وعفا عن اهلها فغزا العباس بن محمد الصائفة وبنى ما خربه الروم من سور ملطيه ورد اليها اهلها وانزل بها الجند ودخل دار الحرب من درب الحرث وتوغل في ارضهم ودخل جعفر بن حنظلة من درب ملطيه و(سنة ١٣٩) كان الفدا بين المسلمين والروم في اسرى قاليقلا وغيرهم وغزا في الصائفة عبد الوهاب بن ابرهيم الامام (سنة ١٤٠) ومعه الحسن بن قحطبة فاتيهم قسطنطين ملك الروم في مائة الف فبلغ جيحان وسمع عن كثرة المسلمين فاحجم عنهم ورجع ولم تكن بعدها صائفه الى (سنة ١٤٦) لاشتغال المنصور بفتنة بني حسن و(سنة ١٤٦) خرج الترك من باب الابواب وانتهوا الى ارمينية وقتلوا من اهلها جماعة ورجعوا واغار (سنة ١٤٧) استرخان الخوارزمي في جمع من الترك على ارمينية فغنم وسبى ودخل تفليس فعاث فيها وكان حرب بن عبدالله مقيما في الموصل في الفين من الجند فامرهُ المنصور بالمسير لحرب الترك مع جبريل بن يحيى فسار وقتل حرب وانهزم قومهُ وفيها غزا بالصائفة مالك بن عبدالله الخثعمي من اهل فلسطين ويقال له ملك الصوائف فغنم غنائم كثيرة و(سنة ١٤٩) غزا بالصائفة العباس بن محمد ومعه الحسن بن قحطبه ومحمد بن الاشعث فدخلوا الروم وعاثوا ورجعوا ومات محمد في الطريق (سنة ١٥١) اه بتصرف ابن خلدون

فصل

في الربع الثالث من القرن الثاني

ثم تحول المنصور عن مدينة ابي هبيرة الى بغداد ونقل ابواب مدينة واسط اليها وخلع ابن اخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنهِ محمد المهدي · ثم ظهر رجل ادعى النبوة اسمهُ استادسيس في جهة خراسان فاجتمع اليهِ نحو ثلاثماية الف مقاتل من اهل هراة وباذغيس وسجستان وسار اليهِ الاخثم عامل مرو روز (او مرو الروذ) في العساكر فقاتل الاخثم وعامة اصحابهِ وتتابع القواد في لقائهِ فهزمهم فبعث المنصور وهو بالرواق حازم بن خزيمة الى المهدي في اثني عشر الفا فولاه المهدي حربهُ فزحف عليهِ في عشرين الفا وبعد قتال شديد نقوى المسلمون عليهِ وقتل من عساكرهِ نحو سبعين الفا واسر نحو اربعة عشر الفا واسر استادسيس وبنوهُ وتفرق الباقون وقيل ان استادسيس هذا هو ابو

مراجل ام المامون وابنة غاب خال المامون الذي قتل الفضل بن سهل و(في سنة ١٥١) ولى الهشام بن عمر الثعلبي على السند عوض عمر بن حفص وجعل هذا على افريقية وكان لقبهُ هزار مرد وبنى الرصافة لابنهِ المهدي وهي الى الجانب الشرقي من بغداد وقتل بعض الخوارج معن بن زائدة الشيباني بسجستان في بست وكان عامل المنصور هناك وخلفهُ ابن اخيهِ يزيد بن مزيد .

و(في سنة ١٥٢-٧٦٩) غزا حميد بن قحطبه امير خراسان مدينة كابل وجهز المنصور جيشًا الى المغرب (١٥٤-٧٧١) لقتال الخوارج . ثم غزا بالصائفة (سنة ١٥٤) زفر بن عاصم الهلالي و(في سنة ١٥٥) طلب ملك الروم الصلح على ان يودي الجزية وغزا بالصائفة يزيد بن اسد السلمي (سنة ١٥٦-١٥٥) وبنى المنصور سورًا وخندقا للكوفة والبصرة ووزع النفقة على الاهالي فلحق كل واحد منهم خمسة فجباهم اربعين اربعين وقد قال بعضهم

يا لقوم ما لقينا من امير المومنينا

قسم الخمسة فينا وجبانا اربعينا

وبعد كل ذلك قصد المنصور الحج (سنة ١٥٨-٧٧٤) وخرج ولدهُ المهدي معهُ ليودعهُ . وعند وداعهِ قال لهُ يا بني « اني احجس بالموت ولا ادري اذا كنا نجتمع بعد هذا فاني ولدت في ذي الحجة ووليت في ذي الحجة واخشى ان اموت في ذي الحجة من هذه السنة ولذلك اردت الحج والان اوصيك بخصال وما اظنك تفعل واحدة منها وكان لهُ سفط فيهِ دفاتر علمهِ وعليهِ قفل لا يفتحهُ غيره فقال للمهدي انظر الى هذا السفط فاحتفظ بهِ فان فيهِ علم ابائك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة فان احزنك امر فانظر في الدفتر الكبير فان اصبت فيهِ ما تريد والا ففي الثاني حتى تبلغ سبعة فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فانك واجد ما تريد فيها وما اظنك تفعل . وانظر هذه المدينة واياك ان تستبدل بها غيرها وقد جمعت فيها من الاموال ما اذا انكر عليك الخراج عشر سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البيوت فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزًا ما دام بيت مالك عامرًا وما اظنك تفعل . واوصيك باهل خراسان خيرًا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم ودماءهم في دولتك وان لا تخرج محبتك من قلوبهم وان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهلهِ وولده وما اظنك تفعل . وانظر هذه المدينة واياك ان تبنى المدينة الشرقية فانك لا تتم بناها واظنك ستفعل . واياك ان تستعين برجل من بني سليم واظنك ستفعل . واياك ان تدخل النسا في امرك واظنك ستفعل فاتقِ الله فيما اعهد اليك من امور المسلمين بعدي يجعل لك فيما كربك واحزنك فرجًا ومخرجًا ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب يا بني احفظ محمدًا صلعم في امتهِ يحفظك الله ويحفظ عليك

امورك واياك الدم الحرام فانهٔ حوب عند الله عظيم وعار في الدنيا لازم مقيم · والزم الحدود فان منها صلاحك في الآجل والعاجل ولا تعتدِ فيها فان الله تع لو علم ان شيئا اصلح فيها لدينهٖ وازجر عن معاصيهٖ لامر بهٖ في كتابهٖ واعلم ان من شدة غضب الله لسلطانهٖ امر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من يسعى في الارض فساداً مع ما ادخر لهٔ من العذاب الاليم فقال انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً الاية · فالسلطان حبل الله المتين وعروتهٔ الموثقى ودينهٔ المقيم فاحفظهٔ وحصنهٔ وذب عنهٔ واوقع بالملحدين واقمع المارقين منهٔ وقابل الخارجين عنهٔ بالعقاب ولا تجاوز ما امر الله بهٖ في محكم القران واحكم بالعدل ولا تشطط فان ذلك اقطع للشعث واحسم للعدو وانجع في الدواء واعف عن الفيء فليس بك اليه حاجة مع ما اخلفهٔ لك · وافتتح بصلة الرحم وبر القرابة واياك والاثرة والتبذير لاموال الرعية واشحن الثغور واضبط الاطراف وامن السبيل وسكن العامة وادخل المرافق عليهم وارفع المكاره عنهم واعدّ الاموال واخزنها فان النوائب غير مامونة وهي من شيم الزمان واعدّ الاكراع والرجال والجند ما استطعت واياك وتاخير عمل اليوم لغد فتتداول الامور وتضيع وخذ في احكام الامور والنازلات في اوقاتها اولاً فاولاً واجتهد وشمر فيها واعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون في النهار ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وباشر الامور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن واسيء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك وسهل اذنك للناس وانظر في امر النزاع اليك وكن بهم عينًا غير نائمة ونفسا غير ساهية ولا تنم لان اباك لم ينم منذ ولي الخلافة ولا دخل عينهٔ الغمض الا وقلبهٔ مستيقظ هذه وصيتي اليك والله خليفتي عليك

ثم ودعهٔ وبكيا وسار المنصور ومات ببئر ميمونه محرما بمرضهٖ وهو القيام وكان ذلك في ذي الحجة وعمره ثلاث وستون سنة قال ابو الفرج وحمل الى مكة وحفروا لهٔ مائة قبر ليعموا على الناس ودفن في غيرها مكشوف الراس لاحرامه

وقيل في صفتهٖ وسيرتهٖ انهٔ كان اسمر نحيفا خفيف العارضين وكان من احسن الناس خلقا واشدهم احتمالاً للمزاح وكان اذا لبس وخرج هابتهٔ حتى الاكابر ولم يرَ في دارهٖ لهو ولا لعب نقل حماد التركي قال كنت واقفا على راس المنصور فسمع جلبة فقال انظر ما هذا فذهبت فاذا خادم لهٔ قد جلس وحولهٔ الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فاخبرتهٔ فقال واي شي الطنبور فوصفتهٔ فقال وكيف تعرفهٔ انت قلت رايتهٔ بخراسان فقام اليهنَّ فلما راينهٔ تفرقنَ فامر بالخادم فكسروا الطنبور على راسهٖ وترك المنصور جملة بنايات وحارب الاعدا مرارًا وخلف نحو ثلاثين مليون ليرا انكليزية بعد ما انفق مبالغ في حجاتهٖ

وكان طبيبهُ بختيشوع الجنديسابوري اشهر اطباء زمانهِ واسمهُ جيورجيوس ولما اراد هذا الرجوع الى وطنهِ واذن لهُ المنصور خلف عندهُ تلميذه عيسى بن سهلاثا ثم نفى المنصور عيسى هذا لذنب

وكان المنصور يميل الى علم الافلاك ولهُ مطالعة فيهِ وكان نوبخت المنجم الفارسيّ البارع في صحبتهِ دائما وكان حاذقًا خبيرًا باقتران الكواكب وحوادثها وقد استخلف ولدهُ ابا سهل عوضهُ لما عجز واسم ابي سهل كان اولا (خرشاذماه وطيماذه ماباذار خسيرواباشاد) فاستطولهُ المنصور واراد ان يقتصرهُ على طيماذ او يختار لهُ اسما خلافهُ فاختار ابن نوبخت ابا سهل وعاد ذلك اسمهُ وخلف المنصور محمد المهدي وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الاصغر وصالحًا المسكين واما جعفر الاكبر فكان قد مات في حياة ابيهِ

خلافة محمد المهدي رابعهم (من سنة ١٥٨ـ ٧٧٤ الى سنة ١٦٩ ـ ٧٨٥

وكان ابو جعفر قد عهد بالخلافة للمهدي وبعدهُ لعيسى بن موسى فابى عيسى البيعة للمهدي وامتنع بالكوفة فبعث المهدي ابا هريرة اليهِ في الف فارس وهذا بعد المراوضة والمراودة قبلهُ بذلك وبخلع نفسهِ تحت عشرة الاف درهم . وعهد المهدي لابنهِ موسى الهادي وارسل (سنة ١٥٩) عبد الملك بن شهاب المسمعي في جمع كثير من الجند والمتطوعة الى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بارض الهند وفتحوا باربد عنوةً ولجا اهلها الى البلد فاحرقوهُ عليهم ثم اصاب المسلمين وباءٌ وبرجوعهم عصفت بهم الريح عند ساحل حران فانكسرت عامة مراكبهم ونجا منهم نزرٌ . وحج المهدي في اول خلافتهِ وفرق بالناس اموالاً عديدة وصرف ستة ملايين دينار في حجهِ فانهُ اقام في كل طريقهِ ومسافتها سبعماية ميل منازل وخانات للقوافل وكان صحبته عدد غفير من الناس ومن الجمال الحاملة الثلج . واعطى لرجل قدم لهُ وهو في مكة احدى نعلي النبي عشرة الاف درهم ثم التفت الى بعض الحاشية وقال «والله محمد صلعم لم يرَ هذا النعل ولكن لو ابيت قبولهُ لقالوا انهُ كان حقيقة للنبي واني احتقرتهُ عمدًا فان الجمهور يميل دائمًا الى الضعفاء ضد الاقوياء» وامر المهدي باتخاذ المصانع في طريق مكة وبتجديد الاميال والبرك وبحفر الركايا (سنة ١٦١ ـ ٧٧٧) وبتقصير المنابر في البلاد وجعلها بمقدار منبر الرسول وفي سنة ١٦١) اجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهري من افريقية الى الاندلس داعية لبني العباس ونزل بساحل مرسية وكاتب سليمان بن يقظن عامل سرقسطه في طاعة المهدي فلم يجبهُ فقصد بلادهُ في من معهُ من البربر فهزمهُ سليمان وعاد الى تدمير . وسار اليهِ عبد الرحمن صاحب الاندلس واحرق السفن في البحر تضييقًا على ابن حبيب في النجاة فاعتصم بجبل منيع في نواحي بلنسية فبذل عبد الرحمن اليهِ المال فاغتالهُ بعض البربر وحمل راسهُ اليهِ فاعطاهُ الف دينار (سنة ١٦٢)

وكان مراد عبد الرحمن الركوب على الشام وغزوها بثاره فعصى عليه بعض الولاة فشغله عن ذلك

ثم تجهز (سنة ١٦٣ــ٧٧٩) لحرب الروم وجمع عسكرهُ من خراسان ونحوها وقام للبدندون تاركًا ولدهُ موسى في بغداد واخذ معهُ هرون الرشيد . وفي حلب سمع ان في تلك الجهات زنادقة فجمعهم وقتلهم واحرق كتبهم ونهض الى جيحان وجهز ولدهُ هرون للغزو فتغلغل في البلاد وفتح وعاد سالمًا غانمًا وظهر وقتئذٍ رجل اسمهُ يوسف البرم وادعى الولاية واستغوى خلقًا عديدًا وظهر يوشيا وادعى النبوة فبعث اليه المهدي جيوشًا واتى به فصلبهُ ثم ظهر المقنع الخراساني واسمهُ عطا وقتل وكان رجلًا غريبًا خيل للناس صورة قمر يطلع ويراهُ الناس عن بعد شاسع قيل نحو شهرين وقد اشار ابن سناء الملك الى ذلك

اليك فما بدر المقنع طالعًا باسحر من الحاظ بدري المعمم

قالوا وادعى المقنع الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالحلول الالهي في الانبياء كلهم الى ان حل فيه وعمر قلعة تسمى سنام وقيل تكس بما وراء النهر من رستاق كبش وتحصن بها من طالبيه وكان يقول بالتناسخ فاجتمع الناس اليه وحصروهُ في قلعته ولما يئس من نفسه سقى نساءهُ سمًا فمتن ثم تناوله نفسه فمات ودخل المسلمون قلعته وقتلوا من بها من اشياعه وقيل انه بعد تناوله السم القى نفسه بالنار لئلا يلقي العدو جسدهُ فدخل العسكر ووجد القلعة خالية خاوية وكان ذلك مما زاد افتتان من بقي من اصحابه بما وراء النهر فقالوا انه صعد وكان قد وعدهم ان روحه تحوّل الى قالب رجل اشمط على برذون اشهب وانه يعود اليهم ويملكهم الارض فكانوا ينتظرونه ويعرفون بالمبيضة

وكان المقنع المذكور في بداية امرهِ قصارًا من اهل كاوه من اعمال مرو وكان مشوه الخلق قصيرًا اعور اتخذ له برقعًا من ذهب لا يسفر عن وجهه ابدًا ولذلك دعي المقنع

وفي سنة ١٦٥ــ٧٨١) في عهد ايريني زوجة الملك لاون جهز المهدي ابنهُ هرون الرشيد الى غزو الروم في جيش كثير وكان ولد ايريني نيقفور صغيرًا في حجر امه وسار هرون حتى بلغ خليج القسطنطينية فجزعت المرأة من المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد فقبل بشرط الفدية وارسال الادلة معهُ واقامة الاسواق في طريقه فاجابته الى ذلك وكانت الفدية سبعين الف دينار كل سنة وكان في ذهابه اتخذ طريقًا وعرًا ودخل مداخل ضيقة بين نهر ساغربيس وجبال خشنة فارسلوهُ في طريق جيدة (سنة ١٦٦ــ ٧٨٢) .. وكان المهدي مولعًا باللهو ويأذن بالشرب بحضرته فنهاهُ عن ذلك وزيرهُ يعقوب بن داود بن طهمان فالقاهُ في السجن وفيه يقول بشار بن برد

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

وبقي يعقوب محبوساً الى خلافة الرشيد فاخرجهُ وقد عمي الحق بمكة وقتل المهدي بشار المذكور ورتب بريدًا بين مكة والمدينة واليمن من بغال وابل

وتوفي المهدي (آخر محرم سنة ١٦٩ م ٧٨٥) بماسبذان وكانت خلافته نحو عشر سنين وعمرهُ ثلاثاً واربعين سنة ودفن تحت جوزة وكان في نيته من خلع ابنه موسى الهادي والعهد للرشيد وهو بجرجان فابى الهادي وسار المهدي بريده فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريتهُ الى كمثرى فاهدتها الى جارية اخرى كان المهدي يحبها وكانت سمّت الواحدة منهن وهي الاحسن فمر المهدي وكان يحب الكمثرى فاخذ تلك الكمثراة المسمومة واكلها وصاح من وقته جوفي جوفي . فسمعت حسنة فجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول «اردت ان انفرد بك فقتلتك» ومات من يومهِ

حكي انهُ لما هم المهدي بالخروج الى ماسبذان تقدم الى حسنة حظيته ان تخرج معهُ فارسلت الى طوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي وكان رئيس المنجمين قائلة انك اشرت على امير المومنين بهذا السفر فجشمتنا سفرًا لم يكن في الحساب فعجل الله موتك واراحنا منك فلما بلغتهُ الرسالة قال للجارية ارجعي اليها وقولي ان هذه الاشارة ليست مني واما دعاءك علي بتعجيل الموت فهذا الشيء قد قضى الله بهِ وموتي سريع فلا تتوهمي انهُ بدعوتك ولكن اعدي لنفسك ترابًا كثيرًا فاذا مت انا فاجعليهِ على راسك فما زالت متوقعة تاويل قولهِ منذ توفي الى ان مات المهدي بعد عشرين يوما قال ابو الفرج وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى ولهُ كتاب في التاريخ حسن ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قدم الدهر من اللغة اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة

واشتهر في الطب ابو قريش عيسى الصيدلاني وصار طبيبا في دار الخلافة ولكن ليس عن علمٍ بل عن رزقٍ واتفاقٍ لا محل لذكره هنا

في الصوائف

اما الصوائف فان المهدي اغزى عمهُ العباس بالصائفة وعلى مقدمتهِ حسن الوصيف فبلغوا أهرة وفتحوا مدينة اوهرة ورجعوا سالمين . وغزا بالصائفة (سنة ١٦١) ثمامة بن الوليد فنزل دابق وجاشت الروم مع ميخائيل في ثمانين الفا ونزلوا عمق مرعش فقتلوا وسبوا وغنموا وحاصروا مرعش فقتل من المسلمين عدد وانصرفوا الى جيحان وكان عيسى بن علي مريضا بحصن مرعش فعظم ذلك على المهدي وتجهز لغزو الروم وخرجت الروم (سنة ١٦٢) الى الحدث فهدموا اسوارها . وغزا بالصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين الفا من المرتزقة فبلغ جهة ادرركية واكثر الحريق والتخريب ولم يفتح حصنا ولا لقي جمعا ورجع سالمًا . وغزا يزيد بن اسيد السلمي من ناحية قاليقلا فغنم وسبي وفتح ثلاثة حصون

ثم غزا المهدي بنفسهِ (سنة ١٦٣) كما تقدم ثم غزا (سنة ١٦٤) عبد الكبير من بني الخطاب من درب الحرث فالتقاهُ ميخائيل وطارد الارمني البطريقان في تسعين الفا فخام عن لقائهم ورجع فغضب عليهِ المهدي وهمَّ بقتلهِ فشفع فيهِ فحبسهُ وبعث المهدي (سنة ١٦٥) ولدهُ الرشيد بالصائفة وبعث معهُ الربيع فتوغل في بلاد الروم ولقيهُ عسكر نقيطة من القواميس فبارزه يزيد بن مزيد فهزمهم وغلب على عسكرهم ولحقوا بالدمستق صاحب المالح فحمل له مايتى الف دينار واثنين وعشرين الف درهم وسار الرشيد بعساكرهِ وكانت نحوًا من مائة الف فبلغ خليج القسطنطينية . فجرى الصلح على الفدية كما تقدم لمدة ثلث سنين وكان ما سباهُ المسلمون قبل الصلح خمسة الاف وستمائة راس وقتل من الروم في وقائع هذه الغزوات اربعة وخمسون الفا وأُسر الفان ثم نقض الروم هذا الصلح (سنة ١٦٨) ولم يستكملوا مدتهُ فارسل علي بن سليمان عامل الجزيرة يزيد بن البدر بن البطال فغزاهم وظفر وغنم وسبي ورجع سالما برجالهِ

خلافة موسى الهادي وهو خامسهم (من سنة ١٦٩ - ٧٨٥ الى ١٧٠ - ٧٨٦)

وكان الهادي في جرجان يحارب اهل طبرستان اذ توفي ابوهُ محمد المهدي فبويع لهُ بالخلافة في العسكر يوم توفي المهدي ولما وصل الرشيد والعسكر الى بغداد من ماسبذان بايعوا الهادي في بغداد وكتب الرشيد الى الاقطار بوفاة ابيهِ واخذ البيعة لاخيهِ ثم جاء الهادي بعد عشرين يوما ودخل بغداد واستوزر الربيع

واعلم انهُ منذ ابتدا الدولة العباسية اخذت تظهر في احضان الامة امارات الانشقاق والتشعب فكان يظهر من وقت الى وقت اصحاب دعوى وينفصلون عن الدولة العباسية ويستبدون بالاحكام كما تراهُ في سياق هذا التاريخ فان في السنة الاولى من ملك الهادي ظهرت دعوة الحسين من اولاد علي ومعهُ جماعة من اهل بيتهم منهم الحسن بن محمد وعبد الله بن اسحق واشتد امر الحسين المذكور واختلف مع عامل الهادي في المدينة عمر بن عبد العزيز من نسل عمر بن الخطاب وآل الامر بينهما الى قتال فيهِ انهزم عمر وبايع الناس الحسين واقام مع اصحابهِ في المدينة يتجهزون احدَ عشر يوما ثم قاموا الى مكة ولحق بهِ جماعة من عبيد مكة واتفق انهُ كان قد حج تلك السنة جماعة من بني العباس وشيعتهم منهم سليمان بن المنصور وولدهُ محمد فانضم اليهم جماعتهم وقوادهم واقتتلوا مع الحسين يوم التروية فقتل الحسين وانهزم قومهُ واخذ راس الحسين ونحو مائة اخرى من جماعتهِ منهم سليمان بن عبد الله بن الحسن ثم اختلط المنهزمون بالحاج وكان مقتلهم بمكان يدعى (وج) وهو عن مكة الى جهة الطائف فافلت من المذكورين ادريس بن عبد الله بن الحسن

فذهبت مصر وكان على البريد واضح مولى بني العباس وكان شيعيا فحمل ادريس المذكور الى المغرب الى ارض طنجة وكان ذلك سببًا لقتل واضح وبقي ادريس هناك الى ان ارسل الرشيد الشماخ فاغتاله بالسم وكان له حظية حبلى فولدت ابنا سموهُ على اسم ابيهِ وهذا لما كبر استقل بملك تلك البلاد ومنهُ جاءت الدولة الادريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المراكشية عند بناء مراكش (سنة ٤٦٢ ـ ١٠٧٠)

وكان الحسين المذكور شجاعًا كريمًا قدم مرة على المهدي فاعطاهُ اربعين الف دينار ففرقها ببغداد والكوفة وخرج منها دون قميص لا يملك الا فروة ومِلك الهادي كان قصيرًا وعقيمًا من الحوادث وتوفي (سنة ١٧٠ ـ ٧٨٦) انصاف ربيع الاول وعمرهُ ست وعشرون سنة وخلافتهُ نحو سنتين وثلاثة اشهر قيل ان امهُ الخيزران كانت تستبد بالامر في خلافتهِ فكلمتهُ يوما في امر لم يجد لاجابتها اليهِ سبيلاً فقالت لا بد من الاجابة فغضب الهادي وقال والله لا قضيتها لكِ فقالت اذًا والله لا اسالك حاجة قال لا ابالي فقامت مغضبة فقال « مكانك والله لئن بلغني انهُ وقف في بابك احد من قوادي لاضربن عنقهُ فما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك اما لكِ مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك » فانصرفت وهي لا تعقل من شدة الغضب الى ان امرت الجواري فغممن وجههُ وهو مريض فمات ودفن بعيساباذا الكبرى في بستانهِ وكان طويلاً جسيما ابيض وبشفتهِ العليا تقلص وترك سبعة بنين وبنات

خلافة هرون الرشيد وهو سادسهم (من سنة ١٧٠ ـ ٧٨٦ الى ١٩٣ ـ ٨٠٨)

ونهض هرون الرشيد بن محمد المهدي على الخلافة وعمرهُ اثنان وعشرون سنة واستوزر يحيى بن خالد والقى اليهِ مقاليد الامور واظهر غيرة وهمة في نمو ملكهِ فاق بهما من تقدمهُ وامر بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزًا واحدًا وسماها العواصم وعمر مدينة طرسوس

وبوقته توفي عبد الرحمن الاموي (سنة ١٧١ ـ ٧٨٧) بقرطبه بعد ان اقام جامعًا على اساس احدى الكنائس وانفق عليهِ مائة الف دينار وولد عبد الرحمن في دمشق (سنة ١١٣ ـ ٧٣١) وملك في الاندلس ٣٣ سنة وخلفهُ ولده هشام وكان عبد الرحمن اصهب خفيف الشعر طويلاً نحيفًا اعور

توفيت الخيزران ام الرشيد (سنة ١٧٣ ـ ٧٨٩) وزار الرشيد مكة محرما وقسم في الحرمين مالاً كثيرًا وعزل لاول خلافتهِ عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة وولى مكانهُ اسحق بن سليمان وتوفي يزيد بن حاتم عامل افريقية فولى مكانهُ ابنهُ الفضل ثم قتل فولى هرثمة بن اعين وكان على مكة والطائف عبد الله بن قثم وعلى الكوفة عيسى بن موسى وعلى البحرين والبصرة واليمامة وعمان والاهواز

وفارس محمد بن سليمان بن علي وعلى خراسان ابو الفضل العباس بن سليمان الطوسي فعزلهُ وولى مكانهُ جعفر بن محمد بن الاشعث فسار الى خراسان و بعث ابنهُ العباس الى كابل ففتحها وفتح سابهار وغنم ما كان فيها وتوفي سنة ١٧٣ محمد بن سليمان وقتئذٍ والي البصرة وكان اخوهُ جعفر كثير



هرون الرّشيد

السعاية فيهِ عند الرشيد وان اموالهُ كلها فيءٌ من اموال المسلمين فارسل الرشيد من قبضها وكانت كثيرة جدًّا واحضروا من العين فيها ستين الف الف دينار

فصل

في الربع الرابع من القرن الثاني

وتحرك يحيي بن عبد الله بن الحسين الى الديلم وحزب اليهِ فجهز الرشيد عليهِ الفضل بن يحيي (سنة ١٧٥ ـ ٧٩١) بجيش غفير فكاتبهُ الفضل وبذل لهُ الامان فاسترضاهُ واتي بهِ الى الرشيد فاكرمهُ وانعم عليهِ ثم حبسهُ حتى مات . وفيها هاجت الفتنة في دمشق بين المصرية واليمانية في ولاية عبد الصمد بن علي فجمع الرؤساء وسعوا بالصلح فتكلموا مع بني القين فاجابوا اليهِ فكلموا اليمانية فحاولوا وساروا الى بني القين وقتلوا منهم ستماية نفر فاستنجد بنو القين قضاعة وسليحا فلم ينجدوهم فاستجاشوا قيسًا فاجابوهم وقتلوا من اليمانية نحو ثمانماية واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد وولاها ابرهيم بن صالح

وفي سنة ١٨٠ـ٧٩٦) توفي هشام صاحب الاندلس وكانت خلافتهُ سبع سنين وسبعة اشهر وعمرهُ تسعا وعشرين سنة وخلفهُ ولدهُ الحكم فخرج عليهِ عماهُ سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن الداخل وكانا في بر العدوة وتحاربوا مدة وكانت العاقبة استقرار الحكم في الملك وقتل سليمان والصلح مع عبد الله واستغنم الافرنج وقتئذٍ فرصة القتال فذهبوا الى الاندلس وفتحوا مدينة برشلونه

وهدم الرشيد سور الموصل (سنة ١٨٠) لعصاوات اهلها المتكررة وغزا ارض الروم (سنة ١٨١ـ ٧٩٧ (وفتح حصن الصفصاف وقلد (سنة ١٨٤ ـ ٨٠٠) حماد البربري اليمن ومكة وولى داود بن يزيد المهلبي السند ويحيى الحرسي الجبل وولى مهرويه الرازي طبرستان وابرهيم بن اغلب افريقية وكان على الموصل واعمالها يزيد بن مرثد الشيباني

وكانت (سنة ١٨٢ ـ٧٩٨) قد حملت بنت خاقان الخزر الى الفضل بن يحيى البرمكي فماتت ببرذعه فرجع الذين معها الى ابيها واخبروهُ انها قتلت غيلة فتجهز الى بلاد الاسلام وبوقتهِ سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن لاون واقروا امهُ ايريني وغزا المسلمون الصائفة وبلغوا افسس مدينة اصحاب الكهف . و(سنة ١٨٢ ـ ٧٩٨) خرج الخزر بسبب ابنة الخاقان من باب الابواب واوقعوا بالمسلمين واهل الذمة وسبوا اكثر من مائة الف وانتهكوا امرًا عظيمًا لم يسمع بمثلهِ

و(سنة ١٨٦) حج الرشيد ومعهُ اولادهُ الثلثة محمد الامين وعبد الله المامون والقاسم وكان قد ولى الامين العهد واعطاهُ العراق والشام الى اخر المغرب وولى المامون العهد بعدهُ وضم اليهِ من همذان الى اخر المشرق وبايع لابنهِ القاسم من بعد المامون ولقبهُ المعتصم وجعل خلعهُ واثباتهُ للمامون وجعلهُ في حجر عبد الملك صالح وضم اليهِ الجزيرة والثغور والعواصم ومر بالمدينة فاعطى فيها ثلثة

اعطية واحد منهُ واخر من الامين واخر من المامون فبلغ الف الف دينار وخمسمائة الف دينار. ثم سار الى مكة فاعطى مثلها واحضر الفقها والقضاة والقواد وكتب كتابي العهد واشهد فيهِ بالوفاء على الامين والمامون وعلقها في الكعبة ولما كان في طبرستان (سنة ١٨٩) اشهد ان ما في عسكره من الاموال والخزائن والسلاح والكراع للمامون وجدد له البيعة عليهم وارسل الى بغداد فجدد له العهد على الامين

و(في سنة ١٨٦) اوقع الرشيد بالبرامكة وقد اختلف في السبب والاكثر لاتيان جعفر عباسة اخت الرشيد فانهُ كان زوجها من جعفر ليحل له النظر اليها لان الرشيد لم يكن يصبر عن اختهِ ولا غنى له عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منهُ وجاءت بغلام وقيل انها ولدت توامين وقيل لان الرشيد كان حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن عند يحيى فاسراهُ وقيل قتلهم حسدًا لانهم كانوا عظموا واشتهروا بالكرم واحبهم الناس. وكان قتل جعفر بالانبار في صفر وبعد قتلهِ ارسل من احاط بيحيى ولده وجميع اسبابهِ واخذ ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب الى كل البلاد بقبض اموالهم ووكلائهم وارسل راس جعفر وجثتهُ الى بغداد وامر بوضع الراس على جسر وجثتهُ على جسر اخر ولم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك لبراءتهِ وكان عمر جعفر لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة وفيهم قال الرقاش

الان استرحنا واستراحت ركابنا	وامسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد امنت من السرى	وطي الفيافي فدفدًا بعد فدفدِ
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر	ولم تظفري من بعدهِ بمسودِ
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي	وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفا برمكيًا مهندًا	اصيب بسيف هاشمي مهند

وعند قتلهِ البرامكة امر الرشيد بعباسة اختهِ فجعلت في صندوق ودليت الى بئر وهي حية وامر بابنها او ابنيها فاحضرا فنظر اليهما مليا وبكى ثم امر بهما فرميا في البئر وطمرها

والبرامكة عيلة فارسية شهيرة كان لهم قبل الاسلام بمائتي سنة رتبة الامامة والكهنوت في بلخ وقال يحيى بن خالد لما نكب «الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا اسوة وفينا لمن بعدنا عبرة»

واذ تشكى احد اولاده المسجونين معهُ من معاملة الخليفة لهم بعد ان خدموا المملكة بصدق وامانة قال له «لعلنا ظلمنا احدًا فدعا علينا واستجاب الله دعاءهُ» وبعد قتلهِ شوهد في حضنهِ رقعة مكتوب فيها «المقرّف يذهب اولاً والمقرّف يتبعهُ قريبًا وسينتصب الاثنان امام قاض عدل حيث لا تغني الكتابات والاعذار شيئا» وكان يقول لاولادهِ في حياتهِ «كونوا كرماء في زمان نعمتكم فلا تنقضي عنكم وجودوا كذلك في الباساء لانكم ان تباخلتم اضعتم كل شي»

وهرون في قتله البرامكة ابقى له ذكرًا رديا في التاريخ

وكان هرون مجتهدًا في انشاء العلوم وتقدم المملكة . . وعقد التحابب مع كارلوس الكبير (شارلمان) ملك فرنسا وارسل اليه سفراء الى «بروسل وافريا» وهدايا لائقة به وما بينها ساعة على دواليب وكانت من النوادر في اعين اهل المغرب وقتئذٍ وهي كانت الة معدنية تسير على دواليب كالساعات الحاضرة وتقسم الوقت الى اثني عشر جزءًا وفيها ثنتا عشرة كرة كل كرة لجزء تسقط الى صحن من فضة وينفتح لها اثنا عشر بابا يدخل بها اثنا عشر فارسا كل فارس لساعة وكانت تدل فوق ذلك على ارباع القمر وايام الجمعة ولا عجب من هذا التوادد بين هرون وشارلمان لان كليهما كان عدوًا لايريني واميرا اسبانيا . وقيل ان هرون عرض على شارلمان القدس واهداه مقاليد القبر الا ان هذا بعيد عن التصديق لما لبيت المقدس من الاحترام عند المسلمين وهو مملو من الجوامع فلا يسمحون به للافرنج

و(في سنة ١٨٧ ـ ٨٠٢) خلع الروم ايريني وملكوا نيقوفور فكتب الى هرون الرشيد كتابا فيه يشير الى لعب الشطرنج المعقد وقتئذٍ في بلاد الروم قائلاً «من نيقوفور ملك الروم الى هرون الرشيد ملك العرب »

اما بعد فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك رخا واقامت نفسها بيدقا فجعلت اليك من اموالها ما كنت حقيقا بحمل اضعافه اليها وما ذلك الا من ضعف النساء وحمقهن فاذا قرات كتابي فاردد علينا ما سلبته من اموالنا والا فالسيف يقضي فيما بيننا » ولما وصل السفراء قدموا الكتاب فاخذه هرون الرشيد وقراه واذ وصل الى قوله «والا فالسيف يقضي» القى الرسل ضمة سيوف امامه فتبسم هرون واستل سيفه الشهير في تاريخ العرب وضرب بها تلك السيوف الرومية فبراها كما يبري الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم

«من هرون امير المومنين الى نيقوفور كلب الروم قد قرات كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراهُ لا ما تسمعهُ » ثم ركب عليه من يومه حتى نزل على هرقله ففتح وغنم وخرب وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين الفًا غازيا في ارضهم . وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودبسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف وقونية . واناخ عبد الله بن مالك على حصن ذي الكلاع . واستعمل الرشيد حميد بن معيوب على الاساطيل ممن بسواحل الشام ومصر الى قبرس فهزم وخرب وسبى من اهلها ١٧ الفا وجاءبهم الى الواقعة فبيعوا بها و بلغ فدا اسقف قبرس الفي دينار . وسار الرشيد الى طوانه فنزل بها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر فسالهُ نيقوفور الصلح على خراج يحمله كل سنة فصالحهُ ورجع الى قصره على الفرات . ولما راى الروم انه بعد عنهم خمسمائة ميل وقد

جاء زمان الشتاء جددوا العصاوة فركب عليهم ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وحاربهم وقتل منهم اربعين الفا وجرح نيقوفور في ثلاثة مواضع ثم عصى ثالثة وجيش عليه واخضعه وكان هرون يركب على مائة وخمسة وثلاثين الفا من العساكر المرتزقه سوى من لا ديوان له والمتطوعة الجميع نحو ثلاثمائة الف وبهذا الجيش تجاوز كل مدن اسيا الصغرى حتى انقيره وحاصر هرقلة في بنطوس شهرًا واخربها واخذ منها خيرات وافرة ولو كان يعلم تاريخ اليونان لكان ابقى تمثالي البطل هرقل من الذهب حيث كانت عصاه وقوسه وخوذته وجلد الاسد ولم يزل العرب يحاربون ويثخنون ويسلبون ولايات اليونان في البحر الاسود الى قبرص حتى تاب نيقوفور عن العصيان وتصالحا على ان تبقى مدينة هرقله خربة امثولة لليونان وذكرًا لظفره وعلى ان يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم اولاده الثلاثة

وسار الرشيد الى الري ثم رجع الى العراق ودخل بغداد وامر باحراق جثة جعفر ثم مضى الى الرقه وبوقته نقض اهل قبرص العهد فغزاها معتوق (او معيوب) بن يحيى وكان عاملاً على سواحل مصر والشام وسبى اهلها وتوفي يحيى بن خالد في السجن في الرقه وعمرهُ سبعون سنة (سنة ١٩٣) وتوفي الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك مسجونا في السنة الثانية وعمرهُ خمس واربعون سنة في الرقه وكان من محاسن الدنيا ولم يرَ في العالم اجمل منه

في الصوائف

نقل الطبري ان الرشيد كان يغزو عاما ويحج اخر ويصلي كل يوم مائة ركعة ويتصدق بالف درهم واذا حج حمل معهُ مئة من الفقهاء ينفق عليهم واذا لم يحج كان ينفق على ثلاثمائة حاج نفقة شائعة وكان يحتذي باثار المنصور في بذل المال فلم يرَ خليفة قبله ابذل منه وكان لما يقعد عن الغزو يغزو بالصائفة كبار اهل بيته وقواده فغزا بالصائفة (سنة ١٧٠) سليمان بن عبد الله البكائي وقيل غزا بنفسه. وغزا بالصائفة (سنة ١٧٣) اسحق بن سليمان بن علي فاثخن في بلاد الروم وغنم وسبي وغزا (سنة ١٧٤) بالصائفة عبد الملك بن صالح وقيل ابوه فبلغ في نكاية الروم ما شاء واصابهم برد شديد سقطت منه ايدي الجند وغزا (سنة ١٧٧) عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي (وسنة ١٧٨) زفر بن عاصم وغزا الرشيد (سنة ١٨١) بنفسه ففتح حصن الصفصاف واغزا عبد الملك بن صالح فبلغ انقره وفتح مطمورة فكان الفدا بين المسلمين والروم وهو الاول في دولة بني العباس وتولاهُ القاسم بن الرشيد واخرج له من طرسوس ابا سليمان فرج الخادم الوالي عليها فنزل المدامس على اثني عشر فرسخا وحضر العلماء والاعيان وخلق من اهل الثغور وثلاثون الفا من الجنود المرتزقة وجاء الروم بالاسرى وكان اسرى المسلمين ٣٧٠٠

وغزا بالصائفة (سنة ١٨٢) عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح (افسوس) مدينة اصحاب

الكهف وبلغهم ان الروم سملوا ملكهم قسطنطين بن ليون وملكوا امه ايريني وتلقب اوغسطه فاغتنموا في البلاد ويرجعوا (وسنة ١٨٣) كان ما كان من امر خاقان الخزر فولى الرشيد يزيد بن مزيد امر غزوهم فانتصر عليهم و(سنة ١٨٦) كان فدا عام بين المسلمين والروم (وسنة ١٨٧) غزا قاسم بن الرشيد وجعله قربانا لله وولاه الرشيد العواصم فاناخ على قرة وضيق عليها بن جعفر بن الاشعث فحاصر حصن سنان حتى جهد اهله وفادى الروم بثلثمائة وعشرين اسيرًا من المسلمين على ان يرحل عنهم فاجابهم وتم بينهم الصلح وكان ملك الروم وقتئذ بن ايريني فخلعه الروم وملكوا نيقوفور وكان على ديوان خراجهم وماتت ايريني بعد خمسة اشهر ولما ملك نيقوفور حصل ما حصل بينه وبين الرشيد فغزاهُ مرتين واثخن في بلاده (سنة ١٩٠) وغزا بالصائفة (سنة ١٨٨) ابرهيم بن جبريل ودخل من درب الصفصاف فخرج اليه نيقوفور ملك الروم فهزم وقتل من عسكره نحو اربعين الفا وفيها رابط القسم بن الرشيد ابق و(سنة ١٨٩) كتب الرشيد وهو بالري كتب الامان لشروين ابي قارن ونداهرمز جد مازيار مرزبان خستان صاحب الديلم وبعث بها مع حسين الخادم الى طبرستان وقدم خستان ونداهرمز فاكرمها الرشيد واحسن اليهما (وسنة ١٩٠) غزا يزيد بن مخلد الهبيري ارض الروم في عشرة الاف فاخذت الروم عليه المضائق فانهزم وقتل في خمسين من اصحابه على مرحلتين من طرسوس . واستعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن اعين قبل ان يوليه خراسان وضم اليه ثلثين الفا من خراسان وسار بالعساكر الاسلامية في اثره ورتب بدرب الحرث عبد الله بن مالك وبمرعش سعيد بن مسلم بن قتيبة واغارت الروم عليه فاصابوا من المسلمين وانصرفوا ولم يتحرك من مكانه وبعث الرشيد محمد بن زيد بن مزيد الى طرسوس واقام هو بدرب الحرث وامر قوادهُ بهدم الكنائس في جميع الثغور واخذ اهل الذمة بمخالفة زي المسلمين في ملبوسهم وامر هرثمة ببناء طرسوس وتولى ذلك فخرج الخادم بامر الرشيد وبعث اليها جندًا من خراسان ثلاثة ايام واشخص اليهم الفا من اهل المصيصة والفا من انطاكية فتم بناؤها (سنة ١٩٢) وفي هذه السنة تحركت الحرامية بناحية اذربيجان فبعث اليهم عبد الله بن مالك فقتل وسبي واسر فامره الرشيد بقتل الاسرى وبيع السبي واستعمل الرشيد على الثغور ثابت بن مالك الخزاعي ففتح مطمورة وكان الفدا على يديه بالبدندون ثم كان الفداء الثاني وكان عدد الاسرى من المسلمين فيه ٢٥٠٠

ولم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطيق القيام ببغداد وقام (سنة ١٩٢) من الرقه الى خراسان ومن بغداد طالبًا حرب رافع بن الليث بما وراء النهر لخروجه على الرشيد بسمرقند ولما كان في طوس جي بشير بن الليث اسيرًا فقال له الرشيد والله لو لم يبق من اجلي الا ان احرك شفتي بكلمة لقلت اقتلوهُ ثم امر بقصاب ففصل اعضاءه وهذا هو ليث بن الصفار ومنه الدولة الصفارية

و(في سنة ١٩٣) لثلاث خلون من جمادي الاخرة قضى الرشيد نحبهُ وكان فيهِ مرض فاشتدت علتهُ بجرجان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولدهُ المامون الى مرو وحفر الرشيد قبرهُ في وسط الدار التي كان فيها وعندما حضرهُ الموت كان خائفًا مرعوبًا وغشي عليهِ ثم افاق فراى الفضل ابن الربيع فقال يافضل!

احين دنا ما كنت اخشى دنوهُ رمتني عيون الناس من كل جانبِ
فاصبحت مرحومًا وكنت محسدًا فصبرًا على مكروه مر العواقبِ
سابكي على الوصل الذي كان بيننا واندب ايام السرور الذواهبِ

وكان عمرهُ سبعًا واربعين سنة وولايتهُ نحو ثلاث وعشرين سنة وكان جميلاً ابيض قد وخطهُ الشيب وترك اثني عشر ابنًا وخمس عشرة بنتا وعهد بالخلافة الى الامين ثم من بعده الى المامون ومن بعد المامون للمعتصم والخيار فيهِ للمامون وكتب عهدًا بذلك وجعلهُ في الكعبة

وكان هرون يطوف كل ولايات ملكه من خراسان الى مصر وحج خمس مرات ولما راى تكاثر الحديث عن النبي امر بان لا يعتمدوا الا القران وبعض الحديث المجمع على صحتهِ وجمع جميع الكتب التي كانت سببًا للجدال فكانت حمل مائتي جمل فارسل ورماها في دجلة . وركب تسع مرار على الروم وفي دهره وبامره الف الاصمعي حكايات الف ليلة وليلة التي ترجمت لفضلها الى جميع لغات الافرنج وفي عهدهِ امر بنفي جميع المطربازيه وهم بياعو العطارات والادوية بين البيوت وذلك انهُ بينما كان راكبا يوما مع احد اطبائهِ الشهيرين سمع الطبيب صوت مطربازي ينادي دواء لجميع الادواء فغضب الطبيب وقال للخليفة ما كنت اظن يا امير المومنين ان قتل النفوس مباح في ملك العرب واخبرهُ بالامر فنفاهم اجمعين وكان طبيب الرشيد بختشيوع بن جبورجيس النيسابوري وكان يلقب بيد موسى البيضا ونفس عيسى لما كان يبديهِ من البراعة في فنهِ وكان ولده جبريل طبيبًا لجعفر وكان ماهرًا حاذقا وشفى حظية للرشيد من يبس وقع في ذراعها بالحيلة قيل ان الحظية تمطت ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردها وقد كان عالجها الاطبا بالتمريخ والادهان مدة فلم تنتفع فجي بجبريل المذكور فاقبل عليها واظهر نيتهُ من تعريتها امام الجمهور فمن الخجل والانزعاج استرسلت اعضاءها وبسطت يدها

ومن اطبا الرشيد يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبيه القديمة وخدم الدولة العباسية الى ايام المتوكل وكان معظما جليل القدر ولهُ جملة مولفات وكان يعقد مجلسا للنظر ويجري فيهِ من كل نوع من العلوم القديمة وكان يدرس ويجمع اليهِ التلامذة . ومنهم ايضا صالح ن بهلة المندي وكان ماهرًا حذقا ولهُ نكت لا محل لها هنا وقالوا ان محمد المهدي كان وهب

ولدهُ الرشيد خاتما شراه بمائة الف دينار فاتاهُ رسول اخيهِ الهادي عندما تولى يطلب الخاتم فرماه في دجلة فدعا المغواصين عند خلافتهِ وغاصوا عليهِ فوجدوه وفرح بهِ وولد له المامون ليلة مات ابوه فقيل مات خليفة وولد خليفة وقام خليفة في وقت واحد

نبذة في الخوارج

كان قد ظهر في زمان السفاح (سنة ١٣٧) من العباسيين ملبد بن حرملة الشيباني بالجزيرة فسارت اليه روابط الجزيرة في الف فارس فهزمهم ثم سار اليهِ يزيد بن حاتم المهلبي ومهلهل بن صفوان مولى المنصور ثم نزار من قواد خراسان ثم زياد بن مسكان ثم صالح بن صبيح فهزمهم كلهم واحدًا بعد واحد ثم سار اليهِ عامل الجزيرة حميد بن قحطبة فهزمهُ وتحصن حميد منهُ فارسل المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن في الجيوش ومعهُ زياد بن مسكان فقاتلهم ملبد وانهزم عبد العزيز وقتل من معهُ فبعث المنصور حازم بن خزيمة في ثمانية الاف من اهل خراسان فسار الى الموصل وعبر اليهِ ملبد دجلة وقاتله فانهزم اهل الميمنة واهل الميسرة من رجال حازم ثم ترجل حازم واصحابهُ وترجل ملبد كذلك واشتد القتال وقتل ملبد ونحو الف ومائة من رجالهِ وانجلى الامر بانتصار حازم وتبع فضالة صاحب الميمنة المنهزمين وقتل منهم زها مائة وخمسين

وخرج (سنة ١٤٨) بنواحي الموصل في زمان المنصور حسان بن مخالد الهمذاني وكان على الموصل الصفر بن نجدة فسار الى حسان فهزمهُ الى دجلة وسار حسان الى عمان ثم الى البحر وركب الى السند وقاتل وكاتب الخوارج بعمان يدعوهم ويستاذنهم في اللحاق بهم فابوا وعاد الى الموصل فخرج اليهِ الصفر بن الحسن الهمذاني وهلال فقتل هلالاً واستبقى ابن الحسن فاتهمهُ بعض اصحابهِ بانهُ ابقاهُ للعصبية بينهما وتركوهُ وعزم المنصور على الفتك باهل الموصل لانهم كانوا عاهدوا على عدم الخروج ولكنهُ استفتى بذلك فلم يجوزه له العلماء لانهم كانوا مكرهين على الخروج

ثم خرج في ايام المهدي يوسف بن ابرهيم المعروف بالبرة بخراسان واجتمع بشركس فبعث اليهِ المهدي يزيد بن مزيد الشيباني فاقتتلوا قتالاً شديدًا واسر يوسف وارسل الى المهدي موثوقًا واركب بعيرًا ووجههُ الى ذنبهِ ·وتولى الخوارج على بوشنج ومرو الروذ والطالقان والجوزجان وخرج ايام المهدي حمزة بن مالك الخزاعي (سنة ١٦٩) وهزم منصور بن زياد وصاحب الخراج وقوى امره ثم اغتالهُ بعض اصحابهِ وقتل ثم خرج في اخر ايام المهدي بارض الموصل ياسين من بني تميم وضرب عسكر الموصل وهزمهُ وغلب على اكثر ديار ربيعة والجزيرة فشيع اليهِ المهدي ابا هريرة محمد بن مروخ وهزيمة بن اعين فحارباهُ حتى قتل في عدة من قومهِ ثم خرج بالجزيرة ايام الرشيد (سنة ١٧٨) الوليد بن طريف من بني مغلب وقتل ابرهيم بن خالد بن خزيمة بنصيبين ثم دخل

ارمينيه وحاصر خلاط عشرين يوما وافتدوا انفسهم بثلاثين الفا ثم سار الى اذربيجان ثم الى حلوان وارض سوار وعبر الى ارض دجلة وعاث في الجزيرة فارسل اليه هرون يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني فمكث يقاتله واخيرًا انتصر عليه يزيد وقتله وجي براسه فرثته اخته بقولها

ايا شجر الخابور مالك مورقًا فانك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد الا من التقى ولا المال الا من قنا وسيوف

ثم انقرضت كلمة الخوارج بالعراق والشام فلم يخرج بعد ذلك الا شذاذ متفرقون يستلحمهم الولاة بالنواحي واستمر خوارج البربر بافريقية فان دعوة الخروج فشت فيهم من لدن ميسرة الظفري (سنة ١٢٢) ثم انتشرت دعوة الاباضية والصفرية منهم في هوارة ولماية ونفزة ومغيلة وفي معراوة وبني يفرن من زناته وتاهرت في الغرب الاوسط وكان لابي يزيد بن مخلد المغربي منهم حروب واخبار مع دولة العبيديين في القيروان ولم يزل امرهم في تناقص الى ان اضمحلت تعاليمهم وتفرقت جماعاتهم وبقيت اثار نحلتهم في اعقاب البربر الذين دانوا لها اول الامر ففي بلاد زناتة بالصحرا وقصور ربع وواديه وفي معراوة من شعوب زناته كان الوهابية نسبة الى عبد الله بن وهب الواهبي اول من بويع منهم ايام علي بن ابي طالب ولهم علماء وعلوم شائعة في معتقدهم ما يخالف اهل السنة وكان بنواحي البحرين وعمان الى بلاد حضرموت وشرقي اليمن ونواحي الموصل اصول تظهر وعروق تفشى في كل دولة الى ان خرج علي بن مهدي من خولان باليمن ودعى الى هذه النحلة وغلب حينئذٍ من كان من الملوك باليمن واستلحم بني الصلحى القائمين بدعوة العبيديين من الشيعة وغلبوهم على ما كان بايديهم من ممالك اليمن واستولوا ايضا على زبيد ونواحيها واستمروا مدة طويلة والخلاصة ان هذا الحزب المشابه بفروعه للا نترناسيونية ونحوهم كان ولم يزل موجودًا في العالم الاسلامي الى الان

في خلافة الامين وهو سادسهم (من سنة ١٩٣ ـ ٨٠٨ الى ١٩٨ ـ ٨١٣)

وبويع للامين ابن الرشيد بالخلافة في العسكر يوم توفي ابوه وكان المامون يومئذٍ بمرو وكتب صالح بن الرشيد الى الامين يعرفه بوفاة ابيه وارسل له خاتم الخليفة والبرده والقضيب فاخذت له البيعة ببغداد وتحول الى قصر الخلافة ثم قدمت عليه زبيدة امه من الرقه ومعها خزائن الرشيد فلقيها الامين بالانبار ومعهُ جميع اكابر بغداد وبوقته قتل نيقوفور ملك الروم في حرب برجان وعصى على الامين اهل حمص (سنة ١٩٤ - ٨٠٩) وطردوا عاملهم اسحق بن سليمان فقام الى سلمية فارسل عليهم عبد الله ابن سعيد الحرسي وقاتلهم حتى استامنوا

وكان الامين فاقد حكمة السياسة فامر بابطال اسم المامون من الخطبة ووضع اسم ابنه موسى

ولقبهُ الناطق بالحق وكان طفلاً فادى ذلك الى خلاف بين الاخوين وتجهزا للقتال فارسل الامين علي بن عيسى بن ماهان بجيش لحرب المامون في خراسان وكان طاهر بن الحسين في الري من طرف المامون بعسكر قليل فخلع طاهر بيعة الامين و بايع المامون وقاتل عليا قتالاً شديدًا وقتل علي ورفع راسهُ الى طاهر وانهزم عسكرهُ فارسل الامين عسكرًا اخر صحبة احمد بن مرثد وعبد الله بن حميد بن قحطبة وكان مع كل واحد عشرون الفا وساروا الى حلوان لقتال طاهر و بوصولهم الى خانقين وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل في حلوان ولحقهُ هرثمة بجيش اخر من عند المامون وكتاب يامره بالقيام الى الاهواز . ولما بلغ المامون قتل ابن ماهان امر بان يخطب لهُ بامرة المومنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همذان الى التبت طولاً ومن بحر فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبهُ بذي الرياستين رياسة الحرب و رياسة القلم وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج ثم استولى طاهر على الاهواز وواسط والمدائن ونزل صرصر (سنة ١٩٦ — ٨١١) وفي التي بعدها القى هرثمة وطاهر الحصار على بغداد واوقعا فيها النهب والحريق ومنعا دخول الميره فغلا بها سعر كل شي ودام الحصار وشدة الحال كل السنة

وفي السنة نفسها توفي ابرهيم بن اغلب عامل افريقية وقام ولدهُ عبدالله مقامهُ

ثم هجم طاهر على بغداد و بعد قتال عنيد نادى مناديهِ من لزم بيتهُ فهو آمن وتحصن الامين في مدينة المنصور وتفرق عنهُ عامة جنده وخصيانهِ وحاصرهُ طاهر هناك وسد عليهِ المنافذ ثم طلب الامين الامان من هرثمة وان يطلع اليهِ فروجع طاهر فابى ولما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم (سنة ١٩٨—٨١٣) خرج الامين وعليهِ ثياب بيض وطيلسان اسود فارسل اليهِ هرثمة يمنعهُ من ذلك وبان يبقى الى الليلة القادمة فلم يقبل ودعا الامين بابنيهِ وضمها اليهِ وقبلهما وبكى ثم مضى راكبًا الى الشط فوجد حراقة هرثمة فصعد اليها فاحتضنهُ هرثمة وضمهُ اليهِ وقبل يديهِ ورجليهِ ثم شد اصحاب طاهر (وكان الامر لطاهر) على حراقة هرثمة حتى غرقوها فاخرج الملاح هرثمة من الماء اما الامين فلما سقط في الماء شق ثيابهُ وسبح الى الجانب الثاني فاخذوهُ وهو عريان وجعلوهُ في بيت ولما جاء الليل ارسل اليهِ طاهر بعض الاعجام فقتلوهُ واخذوا راسهُ فنصبهُ طاهر على برج من ابرجة بغداد ثم ارسل الراس الى المامون وكتب بالفتح وارسل لهُ البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة واقام خطبة المامون نهار الجمعة وكان قتل المامون لست بقين من محرم وخلافتهُ نحو اربع سنين وثمانية اشهر وعمره نحو ثماني وعشرين سنة قمرية وكان سبطا انزع جميلاً طويلاً صغير العينين اقنى وانهمك باللذات وشرب المسكرات واتي بالملهين والملهيات من اطراف البلاد وقربهم اليهِ واجرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوتهِ واهل بيتهِ وقسم الاموال والجواهر في خواصهِ وفي الخصيان والنساء وامر

تيمة جواريهِ ان تعد له ماية فتاة صانعة فيصعدن اليهِ عشر عشر بأيديهنَّ العيدان يغنينَ بصوت واحد وقيل لما اتاهُ نعي علي بن عيسى قائد جيشهِ كان يصطاد السمك فقال للناعي دعني فان كوثرًا قد اصطاد سمكتين وانا ما اصطدت شيئًا بعد

وكان له خمس حراقات في دجلة على صورة اسد وفيل وعقاب وحية وفرس وفي ذلك قول ابي نواس

سخر الله للامين مطايا | لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابهُ سرن برًّا | سار في الماء راكبًا ليث غاب
عجب الناس اذ راوك عليهِ | كيف لوا بصروك فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحين | تشق العباب بعد العباب

وبالجملة لم يكن للامين ما يستحسن في السياسة الصالحة وحياته قصيرة عريضة وبعد ذلك استوثق الامر للمامون مشرقا ومغربا

في خلافة المامون وهو سابعهم (من سنة ١٩٨ - ٨١٣ الى ٢١٨ - ٨٣٣)

هذا هو الثامن من العباسيين باعتبار بدو الخلافة من ابرهيم الامام والسابع باعتبار بدئها من السفاح وبهِ وصلت شمس الخلافة الى اقصى درجة الصعود قال ابو الفرج نقلا عن القاضي صاعد بن احمد الاندلسي « ان العرب في صدر الاسلام لم تعنَ بشيء من العلوم الاَّ بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند افرادهم غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا اليها

فهذه كانت حالة العرب في الدولة الاموية فلما ادال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها وكان اول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور وكان مع براعتهِ بالفقه كلفا في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المامون من ولد المنصور تمم ما بدا فيه جدهُ فاقبل على طلب العلم في مواضعهِ وداخل ملوك الروم وسامهم صلتهُ بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليهِ منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة المترجمين وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حرض الناس على قراتها ورغبهم في تعلمها فكان يخلو بالعلماء ويانس مناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علما منهُ بان اهل العلم هم صفوة الله من خلقهِ ونخبته من عبادهِ لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفوس الناطقة وزهدوا في ما يرغب فيهِ الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية

والتباهي باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها . اما احكام الصنعة فكالنحل المحكمة لتسديس مخازن قوتها واما في الجراءة والشجاعة فكالاسد وغيره من السباع التي لا يتعاطى الانسان اقدامها ولا يدعي بسالتها . واما في الشبق فكالخنزير وغيره مما لا حاجة الى ابانته فلهذا السبب كان اهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر وبا وحشة الدنيا لفقدهم »



المأمون

ولما نهض المامون على تخت الخلافة ولى الحسن بن سهل اخا الفضل على كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن

و(في سنة ١٩٩) ظهر بالكوفة محمد بن ابرهيم بن اسمعيل بن الحسن العلوي المعروف بابن طباطبا ودعا الناس اليه وكان القائم بامره ابو السرايا وبايعه الكوفة واستوثق له اهلها فارسل المامون اليه الحسن بن سهل الصبي في عشرة الاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ثم توفي ابن طباطبا

فجأةً وقيل سمهُ ابو السرايا ليستبد بالامر واقام غلامًا من اولاد علي يقال لهُ ابن زيد صورةً . وفتح البصرة وواسط وجرى بينهُ وبين عساكر المامون عدة وقائع الى أن انجلى الامر بفرار ابي السرايا من الكوفة بثمان مئة فارس بعد ان حصرهُ هرثمة ودخل هرثمة الكوفة وامن اهلها وسار ابو السرايا الى جلولاَ وتفرق عنهُ اصحابهُ فظفر بهِ حماد الكندغوش فقبض عليهِ وعلى من بقي معهُ واتى بهم الى الحسن بن سهل وهو في النهروان فقتلهُ وارسل براسهِ الى المامون

وبالوقت نفسهِ ظهر ابرهيم بن موسى بن عيسى بن جعفر العلوي وسار الى اليمن فهرب عامل المامون منهُ وهو اسحق بن موسى العباسي . واستولى ابرهيم على اليمن وكان يلقب بالجزار لكثرة ما قتل وسبي وفيها غضب المامون على هرثمة لانهُ لم يطع امرهُ بالذهاب الى الحجاز والشام فقبض عليهِ وسجنهُ ثم دس عليهِ من قتلهُ في السجن وكان هرثمة المذكور يظن انهُ مسموع القول عند الخليفة وبينهُ وبين ابن سهل عداوة فلم يصانعهُ فوجد ظنهُ بغير محلهِ

قال ابو الفدى وامر (سنة ٢٠٠) المامون باحصاء ولد العباس فبلغوا ثلثة وثلثين الفًا « وفيها اقيمت الافراح بين المسلمين وعملوا الاوقاف التقوية معيدين تتمة القرن الثاني من الهجرة »

فصل

في الربع الاول من القرن الثالث

وكثر الحرام والقتلى في بغداد وقطع الطرق واخذ النساء والاولاد علانية ونهب القرى حتى تجمع بعض الاحياء واقاموا عليهم خالد بن الدريوس وشدوا على اولئك الفساق وطردوهم وقام بعد الدريوس اخر يقال لهُ سهل بن سلامة (الانصاري) من خراسان واجتمع اليهِ كثير من البغداديين واكملوا ردع الحرامية

وكان المامون يميل لآل علي ويود علي الرضى بن موسى الكاظم وعهد لهُ بالخلافة من بعده وامر جنودهُ بطرح السواد ولبس الاخضر وكتب بذلك الى الافاق فشق الامر على بني العباس ووقع الخلاف وهاج الناس ونهضوا في بغداد الى بيعة ابرهيم ابن المهدي وخلع المامون وكان ذلك اولاً للسبب الذي ذكر ثم لتقديم الحسن ابن سهل وبايع اهل بغداد ابرهيم المذكور (سنة ٢٠٢) ولقب المبارك وكان القيم على امور ابرهيم المطلب بن عبد الله بن مالك واستولى ابرهيم على الكوفة وجمع عسكرهُ الى المدائن واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس بن موسى الهادي وعلى الجانب الشرقي اسحق بن الهادي وبسبب هذه الفتن سار المامون من مرو الى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عباد وعند وصولهِ الى سرخس وثب اربعة انفس بالفضل بن سهل فقتلوهُ وعمرهُ ستون سنة فغضب المامون وجعل لمن مسكهم عشرة الاف دينار فامسكهم العباس ابن الهيثم الدينوري

وأمر المامون بضرب اعناقهم وقام طالبًا العراق فبلغ ذلك ابرهيم بن المهدي والمطلب وغيرهما فترك المطلب ابرهيم وتمارض وتوجه الى بغداد واشتغل باطنًا لجانب المامون وبخلع ابرهيم فعلم ابرهيم وهو في المدائن فقصد بغداد وامر به فنهبت دور اهله ولم يظفروا بالمطلب

وفي تلك السنة (وهي سنة ٢٠٢) عقد المامون العقد على بوران بنت الحسن بن سهل وزوج ابنته من علي الرضا ولي عهده الذي توفي ثاني سنة ودفن عند قبر الرشيد ومولده كان (سنة ١٤٨) بالمدينة ولما مات علي كتب المامون الى بغداد يعلمهم بموته قائلاً ان الذي نقمتم عليّ بسببه قد توفي . وكان علي ثامن الايمة الاثنى عشر على مذهب الامامية وولده محمد الجواد كان تاسعهم ثم خلع اهل بغداد ابرهيم بن المهدي ودعوا للمامون واختفى ابرهيم لمدة و(في سنة ٢٠٣) حدث ما وراء النهر زلازل عظيمة وهلك فيها خلق كثير وكان معظمها ببلخ والجوزجان والفاريات والطالقان . ثم جُنّ الحسن بن سهل وشد في الحديد

وفي ذلك الوقت نهض الروم على ملكهم ليون وقتلوه واعادوا عليهم ميخائيل بن جرجس المخلوع وبقي عليهم تسع سنين ومات (سنة ٢١٥) وملك ابنه طوفيل مكانه

ثم قدم المامون (سنة ٢٠٤) الى بغداد وانقطعت الفتن وكان لابسًا الاخضر فدخل اليه الناس وسلموا عليه بالاخضر ثم رجعوا الى اللباس الاسود بامره . و(سنة ٢٠٦) توفي الحكم ابن هشام صاحب الاندلس وعمرهُ ثنتان وخمسون سنة وترك تسعة عشر ابنًا وخلفه عبد الرحمن ولده وسوف نذكر هذا الفرع من الدولة الاموية في فصل مخصوص . و(في سنة ٢١٠) ظفر المامون بابرهيم بن محمد من ولد ابرهيم الامام وكان يعرف بابن عائشة وبجماعة معه من الاعيان الذين كانوا قد سعوا بالبيعة لابرهيم بن المهدي فصلب ابن عائشة وحبس الباقين . ثم ظهر ابرهيم ابن المهدي فحبسه ثم اطلقه

وفي السنة المذكورة دخل المامون ببوران بنت الحسن وكان الحسن يسكن في فم الصلح فذهب اليه ونثرت على المامون ام الحسن جدة بوران الف حبة لولوء من انفس ما يكون واوقدت شمعة من العنبر وزن اربعين منًا وكتب الحسن بن سهل رقاعًا باسماء ضياعه ونثر على القواد فمن وقع له رقعة اخذ الضيعة المسماة فيها وكان قد برىء من جنونه . فلعمهذا الكرم والاسراف يحسبان في هذه الازمنة المتمدنة من الاغلاط السياسية العظمى لانه كيف يجوز للمالك ضيعة ان يهبها لمن لا يعلم اذا كان يحسن او يليق لضبط امور سكانها ولكن هذا لم يكن بشيء ويتبذر لان العبودية كانت امرًا مالوفًا والحرية خبرًا مذكورًا

و(في سنة ٢١٣) ولى المامون ابنه العباس على الجزيرة واخاهُ ابا اسحق المعتصم على الشام ومصر وولى غسان بن عباد على السند واستعمل عبد الله ابن طاهر على خراسان

و(سنة ٢١٤) توفي ادريس بن ادريس العلوي وخلفهُ ولده محمد في فاس والبربر وولى اخاهُ القاسم طنجة وما يليها واخاهُ عمر صنهاجه وغماره واخاهُ داود هواره باسليب واخاهُ يحيى مدينة دالي وما والاها واعمل بقية اخوتهِ على ملك البربر

وكان المامون يفضل عليًا على جميع الناس بعد الرسول محمد ويقول بخلق القرآن وكان يضطهد كل من قال بخلاف ذلك من العلماء وغيرهم ولهُ معهم مباحثات وامور كثيرة ولكنهُ لم يعش طويلاً بعد ذلك وتوفي لثلاث عشرة خلت من جمادي الاخرة (سنة ٢١٨-٨٣٣) ذكر ابن العلاف ما مفادهُ ان المامون دعاه وهو جالس مع اخيهِ المعتصم على شاطي نهر البدندون وقد وضعا ارجلهما في الماء وقال لهُ اي شيءٍ يوكل ليشرب عليهِ من ذلك الماء العذب فقال ابن العلاف الرطب. وبينما هم في الحديث اذ وفدت بغال البريد عليها الحقائب وفيها الالطاف فقال المامون لخادم لهُ انظر ان كان في هذه الالطاف رطب فمضى وعاد ومعهُ سلتان من احسن واطيب ما يكون واكل المامون واكل معهُ الحاضرون وشربوا من ذلك الماء فما قام احد منهم الا وهو محموم. قال ولم يزل المامون مريضًا حتى دخل العراق وكان وقتئذٍ اتيًا من الروم ولما اشتد مرضهُ اوصى الى اخيهِ المعتصم بالخلافة بحضرة ابنهِ العباس واوصاهُ باولادهِ واولاد اعمامهِ وحملهُ اخوهُ المعتصم وولده العباس الى طرسوس ودفناه بدار جلعان خادم الرشيد وصلى عليهِ المعتصم

وكانت ولادتهُ (سنة ١٧٠-٧٨٦) وكان ربعة ابيض جميلاً طويل اللحية رقيقها قد وخطهُ الشيب وقيل كان اسمر احنى اعين ضيق الجبهة بخده خال اسود

الصوائف

وفتح عبد الله بن حرداذبة والي طبرستان البلاد والسيرز من اراضي الديلم واخذ جبال طبرستان وابعد شهريار بن شروين عنها واشخص مازيار بن قارن الى المامون واسر ابا ليل ملك الديلم (سنة ٢٠١). وفيها ظهر بابك الخرمي في الجاوندانية اصحاب جاوندان سهل ومعناهُ الدائم الباقي ومعنى خرم فرح وكانوا يعتقدون مذاهب المجوس

و(سنة ٢١٤) خرج ابو بلال الصابي الشاري فارسل عليهِ المامون ابنهُ العباس في جماعة من القواد فقتلوهُ. و(سنة ٢١٥) دخل المامون بلاد الروم بالصائفة تاركًا بغداد في المحرم واستخلف عليها اسحق بن ابراهيم بن مصعب وهو ابن عم طاهر وولاهُ السواد وحلوان وكور دجلة ولما وصل الى تكريت لقيهُ محمد بن علي الرضا فاجازهُ وزف اليهِ ابنتهُ ام الفضل وسار الى المدينة فاقام بها ... وسار المامون على الموصل الى منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس ودخل من هناك ففتح حصن قرَّه عنوةً وقيل بالامان وهدمهُ وفتح قبلهُ حصن ماجد

وبعث اشناس الى حصن سدس ودخل ابنهُ العباس ملطية ووجه المامون عجيفًا وجعفر الخياط الى حصن سنان فاطاع وعاد المعتصم من مصر فلقي المامون قبل الموصل ولقيهُ العباس ابنهُ براس عين وجاء المامون من العراق الى دمشق ثم بلغهُ ان الروم عادوا الى طرسوس والمصيصة واثخنوا فيها بالقتل فرجع اليهم وفتح كثيرًا من معاقلهم واناخ على هرقله حتى استامنوا وصالحوهُ . وبعث بالمعتصم ففتح ثلاثين حصنًا منها مطمورة . وبعث يحيى بن اكثم فاثخن في البلاد وقتل واحرق وسبى ثم رجع المامون الى كيسوم ثم الى دمشق . ورجع المامون (سنة ٢١٧) الى بلاد الروم فاناخ على لؤلؤه مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عجيفًا على حصارها وجاء طوفيل ملك الروم فاحاط بهِ فبعث اليهِ المامون بالمدد فارتحل طوفيل واستامن اهل لؤلؤه وبعث طوفيل يطلب المهادنة والمامون في سلوين فلم يجبهُ ثم رجع المامون سنة ٢١٨ وبعث ابنهُ العباس الى بناء طوانة فبنى بها ميلاً في ميل ودورها اربعة فراسخ وجعل لها اربعة ابواب ونقل اليها الناس من البلدان

نبذة في دولة بني زياد

والمامون ارسل (سنة ٢٠٣) محمد بن زياد اميرًا على اليمن فسار محمد وفتح تهامة واستقرت لهُ وبنى مدينة زبيد (سنة ٢٠٤) وارسل مولاهُ جعفر بالطاف جميلة الى المامون (سنة ٢٠٥) فاكرمهُ المامون واعادهُ بعسكر (سنة ٢٠٦) نحو الفي فارس وعظم امر محمد واستولى على كل اقليم اليمن وقلد جعفر ولاية الجبال واختط جعفر بها مدينة المذيخرة ودعيت بلاد جعفر مخلاف جعفر وكان من الدهاة وبهِ تمت الدولة الزيادية ثم قتل محمد وخلفهُ ابنهُ ابرهيم . ثم زياد بن ابرهيم . ثم اخو زياد المكنى بابي الجيش وطالت مدتهُ وتوفي (سنة ٣٧١) تاركًا طفلاً قد اختلف في اسمهِ وتولت كفالة الطفل اختهُ هند وتولى معها عبد لابي الجيش اسمهُ رشد وبقي رشد واليًا حتى مات فخلفهُ عبده حسين بن سلامة (وسلامة هي ام حسين) وكان حازمًا عفيفًا وصار وزيرًا لهند ولاخيها المذكور حتى ماتا . ثم انتقل ملك اليمن الى طفل من آل زياد وقامت بامرهِ عمتهُ وعبد من عبيد حسين بن سلامة اسمهُ مرجان وكان لمرجان المذكور عبدان قد تغلبا على اموره وهما قيس ونجاح وهذا نجاح هو جد ملوك زبيد على ما سيذكر فوقع التنافس بين قيس ونجاح على الوزارة وكان قيس عسوفًا ونجاح رؤوفًا وكان مرجان يميل الى قيس اما عمة الطفل فكانت تميل الى نجاح . فشكا قيس ذلك الى مولاهُ فقبض مرجان على الملك واسمهُ عبد الله وقيل ابرهيم وعلى عمتهِ وسلمها الى قيس فبنى قيس عليهما جدارًا وكان عبد الله المذكور اخر ملوك اليمن من الزياديين وكان ذلك (سنة ٤٠٧ — ١٠١٦) وانتقل ملكهم الى عبد عبيدهم نجاح وذلك انهُ لما قتل قيس ابرهيم وعمتهُ وتملك عظم الامر على نجاح واستنصر الاسود والاحمر وقصد قيسًا وجرى بينهما قتال عنيد

انجلى عن قتل قيس على باب زبيد وفتح نجاح زبيدًا (في ذي القعدة سنة ٤١٢) وسال نجاح مرجان ماذا عمل بالصبي وعمتهِ فدلهُ على مكانهما فاخرجهما وصلى عليهما ودفنهما واقام لهما مشهدًا وجعل نجاح قيسًا وسيدهُ مرجان موضعهما وارجع الجدار كما كان وتملك نجاح وركب في المظلة وضرب السكة باسمهِ واستقل بملك اليمن وهو اصل دولة زبيد (انتهى ملخصًا ابو الفدا)

وكان المامون يحب العلماء من كل نوع ويكرمهم لا سيما علماء الافلاك ومن المنجمين في ايامهِ كان حبش الحاسب المروزي الاصل البغدادي الدار ولهُ ثلاثة ازياج اولها المولف على مذهب السند هند والثاني الممتحن وهو اشهرها الفهُ بعد ان رجع الى معاناة الرصد ووجهة الامتحان في زمانهِ والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاه ولهُ خلافها وبلغ من العمر مائة سنة ومنهم احمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل الى علم الافلاك يحتوي على جوامع كتب بطليموس باعذب لفظ وابين عبارة ومنهم عبدالله بن ابي سهل ابن نوبخت كبير القوم في فن النجوم ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي وكان الناس قبل الرصد وبعدهُ يعولون على زيجيهِ الاول والثاني ويعرف بالسندهند ومنهم ما شا الله اليهودي كان في زمان المنصور وعاش الى ايام المامون وكان فاضلا اوحد زمانهِ ولهُ حظ قوي في سهم الغيب ومنهم يحيي بن ابي منصور رجل فاضل كبير القدر مكين المكان ولما عزم المامون على رصد الكواكب تقدم اليهِ والى جماعة من العلما فاصلحوا الاتهِ بشماسية بغداد وجبل قاسيون بدمشق ... قال ابو معشر الفلكي اخبرني محمد بن موسى المنجم الجليس لا ابو الخوارزمي قال حدثني يحيي بن ابي منصور قال „ دخلت الى المامون وعندهُ جماعة من المنجمين ورجل يدعي النبوة وقد دعا لهُ المامون بالعصى ولم تحضر بعد ونحن لا نعلم فقال لي ولمن حضر من المنجمين اذهبوا وخذوا الطالع لدعوى الرجل في شي يدعيهِ وعرفوني ما يدل عليهِ الفلك من صدقهِ وكذبهِ ولم يعلمنا المامون انهُ متنبي قال فحملنا الى بعض تلك الصحون فاحكمنا امر الطالع وصورنا موضع الشمس والقمر في دقيقة واحدة وسهم العادة منها وسهم الغيب في دقيقة واحدة مع دقيقة الطالع والطالع الجدي والمشتري في السنبلة ينظر اليهِ والزهرة وعطارد في العقرب ينظران اليهِ فقال كل من حضر من القوم ما يدعيهِ صحيح وانا ساكت فقال لي المامون ما قلت انت فقلت هو في طلب تصحيحهِ ولهُ حجة زهرية عطاردية وتصحيح الذي يدعيهِ لا يتم لهُ ولا ينتظم فقال لي من اين قلت هذا قلت لان صحة الدعاوي من المشتري ومن تثليث الشمس وتسديسها اذا كانت الشمس غير منحوسة وهذا الطالع يخالفهُ لانهُ هبوط المشتري والمشتري ينظر اليهِ نظر موافقة الا انهُ كاره لهذا البرج والبرج كاره لهُ فلا يتم التصديق والتصحيح والذي قال من حجة زهرية وعطاردية انما هو ضرب من التخمين والتزويق والخداع يتعجب منهُ ويستحب فقال المامون لله درك انت ثم قال

اتدرون من الرجل قلنا له لا قال هذا يدعي النبوة فقلت يا اميرالمومنين امعهُ شي يحتج بهِ فسالهُ فقال نعم معي خاتم ذو فصين البسهُ انا فلا يتعين منهُ شي يحتج بهِ و يلبسهُ غيري فيضحك ولا يتمالك من الضحك حتى ينتزعهُ ومعي قلم شامي اخذهُ فاكتب بهِ و ياخذهُ غيري فلا ينطلق اصبعهُ فقلت ياسيدي هذه الزهرة وعطارد قد عملا عملهما فامرهُ المامون بعمل ما ادعاهُ فقلنا لهُ هذا ضرب من الطلسمات فما زال بهِ المامون اياماً كثيرة حتى اقر وتبرا من الدعوى ووصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم فوهب لهُ الف دينار فتلقيناهُ بعد ذلك فاذا هو اعلم الناس بعلم النجوم » قال ابو معشر وهذا هو الذي عمل طلسم الخنافس في دور كثيرة من دور بغداد انتهى قال ابو معشر المذكور لو كنت حاضرًا مكان القوم لقلت اشيا ذهبت عليهم . كنت اقول الدعوى باطلة لان البرج منقلب والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران في برج كذاب وهو العقرب

ومن الحكما يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المامون كان امينًا على ترجمة الكتب الحكمية حسن النادية للمعاني الكن اللسان في العربية وكانت الفلسفة اغلب عليهِ من الطب

ومن الاطباء سهل بن شابور ويعرف با لكوسج كان بالاهواز في لسانهِ خوزية وتقدم بالطب في ايام المامون وكان اذا اجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى ابن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة لا في العلاج ومنهم جبريل الكحال وكان لهُ كل شهر الف درهم وكان اول من يدخل الى المامون كل يوم ثم سقطت مرتبتهُ لانهُ كان ينقل اخبارًا فقال لهُ المامون يومًا اني جعلتك كحالا لا عاملاً للاخبار وعزلهُ براتب ماية وخمسين درهما كل شهر قلت لو كان في زمان المامون جرائد ولا سيما مثل الجوائب في القسطنطينية ومصر في الاسكندرية لكان عذر المامون جبريل

وكان المامون قد قرا ان في كتب الاوائل يجعل دور الارض اربعة وعشرين الف ميل فاراد تحقيق ذلك فامر بني موسى الثلاثة المشهورين وهم محمد واحمد والحسين اولاد موسى المذكور ابن شاكر وكانوا يعلمون جيدًا علم الهندسة والحبل والموسيقى بان يحققوا ذلك ويحرروهُ فسالوا عن الارض المتساوية فاخبروا بصحراء سنجار ووطاة الكوفة فارسل معهم المامون جماعة يثق الى اقوالهم فساروا الى صحراء سنجار وحققوا ارتفاع القطب الشمالي وضربوا هناك وتدًا وربطوا فيهِ حبلاً ومشوا الى الجهة الشمالية على الاستواء من دون انحراف حسب الامكان وبقوا كلما فرغ حبل نصبوا في الارض وتدًا اخر وربطوهُ الى حبل اخر كفعلهم الاول حتى انتهوا كذلك الى موضع قد زاد فيهِ ارتفاع القطب الشمالي المذكور درجة محققة ومسحوا ذلك القدر فكان ستة وستين ميلاً وثلثي ميل ثم وقفوا عند موقفهم الاول وربطوا الى الوتد حبلاً ومشوا الى جهة الجنوب من غير انحراف كالاول حتى وصلوا

الى موضع انحط فيهِ ارتفاع القطب الشمالي درجة ومسحوا ذلك القدر فكان كالاول ثم عادوا الى المامون واخبروهُ بذلك فاراد المامون تحققهُ في موضع اخر فسيرهم الى ارض الكوفة فساروا اليها وفعلوا كالعادة فوافق الحسابات ثم ضربوا الاميال المذكورة بعدد الدرج (٣٦٠) وهي درج الفلك فكان الحاصل موافقًا لقول الاوائل قال ابو الفدى كذا قال ابن خلكان وقال غيرهُ ان الذي وجدوه في ايام المامون كان ستة وخمسين ميلاً لا غير وان الاول هو ما كان عند القدما قلت وقالوا نحو ستين ميلاً للدرجة

وكان المامون اكرم الخلفاء ذكر ابو الفدى ان المامون كان مرة في دمشق وقد قل معهُ المال فشكى الى اخيهِ المعتصم وكان يتولى الشام ومصر فقال لهُ يا امير المومنين كانك بالمال وقد وافاك بعد جمعة وحمل اليهِ المعتصم من خراج ما يتولاهُ ثلاثين الف الف الف (ولعله درهم) فلما ورد ذلك قال ليحيي بن اكتم اخرج بنا ننظر الى هذا المال فخرجا ونظرا اليهِ وقد هيئ باحسن هيئة وحليت اباعره فاستكثر المامون ذلك واستحسنهُ واستبشر بهِ الناس والناس ينظرون ويتعجبون فقال المامون يا ابا احمد ا ننصرف بالمال ويرجع اصحابنا خائبين ان هذا للوم فدعا محمد بن رداد وقال لهُ وقع لآل فلان بكذا ولآل فلان بكذا فما زال كذلك حتى فرَّق اربعة اخماسهِ ورجلهُ في الركاب

في خلافة المعتصم بالله وهو ثامنهم (من سنة ٢١٨ - ٨٣٣ الى سنة ٢٢٧ - ٨٤١

ولما حصلت المبايعة للمعتصم حصل شغب فيما بين الجند ونادوا باسم العباس ابن المامون فارسل المعتصم الى العباس فحضر وبايع المعتصم وخرج نفسهُ الى الجند واعلمهم بانهُ بايع لعمهِ فسكتوا وقام المعتصم الى بغداد وصحبتهُ العباس ففي (سنة ٢٢٣) خرج طيوفيل قيصر الروم في جمع عظيم وبلغ زبطره وسبي وقتل واغار على ملطية وغيرها وسبى المسلمات واسر المسلمين وقطع انافًا واذانًا كثيرة وبلغ ذلك المعتصم وان امراة هاشمية سمعت تصيح وهي في ايدي الروم وامعتصماه فلعبت بهِ الحماسة العربية واستعظم الامر ونهض من وقتهِ بعساكرهِ في اخر جمادى الاولى ودخل بلاد الروم طالبًا عمورية لانهُ كان قد سمع انها عين النصرانية واشرف من بزنطية عند الروم وكان جهازهُ لم يسبق اليهِ قبلاً. ونزل على نهر قرب البحر يومًا من طرسوس وجعل عسكرهُ ثلث فرق فرقة مع الافشين خيذر بن كاوس في الميمنة وفرقة مع اشناس التركي في الميسرة وفرقة معهُ في القلب وكان بين كل واحدة والاخرى فرسخان وامرهم المعتصم بالحريق والتخريب ففعلوا ذلك حتى وصلوا الى عمورية وكان اول من قدمها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين فاقاموا عليها المنجنيقات واحدقوا بها

من كل جانب وجرى بين المسلمين والروم حرب شديدة وانجلى الامر اخيرًا عن انتصار المسلمين وخراب السور وقتل الاهلين وسبي النساء والاولاد ونهب الاموال واحراق البلد بعد حصاره خمسة وخمسين يومًا وقيل انهم قتلوا ثلثين الفًا وسبوا مثلها . ثم قام راجعًا الى الثغور فبلغهُ وهو في اثناء الطريق ان جماعة من القواد كانوا قد بايعوا العباس بن المامون فدعا المعتصم بالعباس وسلمهُ للافشين خيذر فمات عطشًا في منبج

ومن الحوادث المهمة في عهد المعتصم كان اولاً خروج محمد بن قاسم من اولاد الحسين بن علي فتقاتل مع عبد الله بن طاهر مرارًا واخيرًا خرج ناجيًا بنفسهِ ومر «بنسا» فوشي بهِ الى عاملها فقبض عليهِ و بعثهُ الى عبد الله فبعثهُ عبد الله الى المعتصم (سنة ٢١٩) فحبسهُ عند الخادم مسرور الكبير فهرب من حبسهِ ليلة الفطر ولم يوقف لهُ على خبر

ومنها حرب الزط وهم قوم من اخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا وولوا عليهم رجلاً منهم اسمهُ محمد بن عثمان وقام بامرهِ اخر منهم اسمهُ سماق فارسل الى حربهم المعتصم عجيف بن عنبسة فسار الى واسط وحاربهم سبعة اشهر الى ان استامنوا اليهِ وجاءوا باجمعهم في سبعة وعشرين الفًا المقاتلة منهم اثنا عشر الفًا فعباهم عجيف في السفن على هيئتهم الحربية ودخل بهم بغداد في عاشوراء (سنة ٢٢٠) وركب المعتصم الى الشماسية في سفينة حتى رآهم ثم غربهم الى عين زربة فاغارت عليهم الروم فلم يفلت منهم واحد

ومنها اكمال مدينة سامرا التي كان ابتداها الرشيد ولم يستتمها وخربت فجددها المعتصم وبناها (سنة ٢٢٠) وسماها سرّ من رأى فرخمها الناس سامرا وصارت دارًا للملك العباسيين من لدن المعتصم

ومنها نكبة الفضل بن مروان الكاتب وكان المعتصم قد استكتبهُ بعد موت كاتبهِ يحيى الجرمقاني واخذه معهُ الى الشام فاثرى جدًا ولما استخلف المعتصم تولى على هواه واستتبع الدواوين واحتجر الاموال ثم صار يرد اوامر المعتصم في العطايا فاختلفت فيهِ السعايات ودسوا عليهِ عند سيده فحقد عليهِ وصادرهُ (سنة ٢٢٠) وجميع اهل بيتهِ واقام عوضهُ محمد بن عبد الملك بن الزيات وغرَّب الفضل الى بعض قرى الموصل

ومنها انتقاض مازيار بن قارن بنونداهرمز صاحب طبرستان وكان منافرًا لعبد الله بن طاهر فلا يحمل اليهِ الخراج وعظمت الفتنة بينهما وكان عبد الله بن طاهر شديد السعاية على المازيار عند المعتصم حتى استوحش منهُ فعند ظفر الافشين ببابك وعظم محلهِ عند المعتصم طمع في ولاية خراسان فاستمال مازيار وحرَّبهُ على عداوة ابن طاهر طامعًا في ان يؤدي ذلك للخلاف ويرسلهُ المعتصم عليهِ فيتخذ ذلك فرصة للاستيلاء على خراسان وكان ذلك سببًا لحرب وقتل المازيار ثم

علم امر الافشين باغرائه له على العصاوة

فصل

في الربع الثاني من القرن الثالث

فغضب المعتصم على خيذر الافشين وحبسه حتى مات (سنة ٢٢٦) . ثم اخرج من السجن ميتًا وصلب واحرقت جثته والافشين المذكور هو الذي قاتل بابك المجوسي الذي كان قد استولى على جبال طبرستان مدة عشرين سنة وعظم امرهُ وهزم مرارًا عساكر المعتصم حتى ارسل عليه المعتصم الافشين خيذر بن كاوس المذكور فقاتله قتالاً عنيدًا وانتصر عليه واسرهُ واخذ مدينته «البذ» وارسله الى المعتصم فقتله وقيل انه كان من نيته نقل الملك الى الاعجام وانه كان اقلف ويعبد الوثن سرًّا وقد وجدوا في منزله اصنامًا . وقد ابقى لنا التاريخ نوع مناظرته فيما قرف به وكان ذلك عند الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات بحضر القاضي احمد بن ابي داود واسحق بن ابرهيم وجماعة القواد والاعيان وقد جيء بالمازيار من حبسه والموبد والمرزبان بن تركش احد ملوك الصغد وبرجلين من اهل الصغد يدعيان ان الافشين ضربهما احدهما امام والثاني موذن بمسجد . فكشفا عن ظهريهما وهما عاريان من اللحم فقال ابن الزيات للافشين ما بال هذين كذلك قال عهدا الى معاهدين ووثبا على بيت عبادتهم فكسرا اصنامهم واتخذا البيت مسجدًا فعاقبتهما على ذلك قال ابن الزيات ما بال عندك كتاب محلى بالذهب والجوهر وفيه الكفر قال الافشين كتاب ورثته عن ابائي واوصوني بما فيه من ادابهم فكنت اخذها منه واترك كفرهم ولم احتج الى نزع حليته وما ظننت ان مثل هذا يخرج عن الاسلام ثم قال الموبد انه باكل لحم المخنوقة ويحملني على اكلها ويقول هو ارطب من لحم المذبوحة فقال الافشين أثقة هذا عندكم في دينه وكان مجوسيًا قالوا لا قال فكيف تقبلونه علي ثم قال له المرزبان كيف يكاتبك اهل اشروسنه قال ما ادري قال اليس يكاتبونك بما تفسيره عربيًا «الى اله الالهة من عبده فلان» قال الافشين بلى قال ابن الزيات « فما ابقيت لفرعون » قال هذه عادة منهم لابي وجدي ولي قبل الاسلام ولو منعتهم لفسدت عليَّ طاعتهم ثم قال له ابن الزيات هل كاتبت هذا واشار الى المازيار فقال المازيار كتب اخوهُ الى اخي قوهيار انه لن ينصر هذا الدين غيري وغيرك وغير بابك فاما بابك فقد قتل نفسه بجمعه ولقد عهدت ان امنعه فابى الا حنفه وانت ان خالفت ارسلوني عليك ومعي اهل النجدة فان توجهت اليك لم يبقَ احد يحاربنا الا العرب والمغاربة والترك فالعربي كلب تناوله لقمة وتضرب راسه والمغاربة اكلة راس والاتراك لم صدمة ثم تجول الخيل جولة فتاتي عليهم ويعود هذا الدين الى ما كان عليه ايام العجم فقال الافشين ان

ان هذا يدعي ان اخي كتب الى اخيه فما يجب علي وعلى فرض الصحة فانا استميله مكرًا به لاحظى عند الخليفة كما حظي به ابن طاهر فزجرهُ ابن ابي داود فقال له الافشين ترفع طيلسانك فلا تضعه حتى تقتل جماعة فقال امتطهر انت قال لا قال فما يمنعك وهو شعار الاسلام قال خشيت على نفسي من القطع قال فكيف وانت تلقى الرماح والسيوف قال تلك ضرورة اصبر عليها فقال ابن ابي داود لبغا الكبير قد بان لكم امرهُ يا بغا عليك به فدفعهُ بغا بيديهِ وردهُ الى حبسهِ وضرب مازيار اربع مئة سوط فمات منها. قلت ان في هذه المحاكمة ما يشير الى ان قصاص ذلك العصر كان مغايرًا لما في زماننا لان ما حكم به على الافشين بالموت وقتئذٍ لم يكن كافيًا له في عهدنا هذا على ان اكثر الذنوب المدعى بها عليهِ ليست بذنوب قطعًا وكل ذلك اختلاف زمان ورجال

و(في سنة ٢٢٧ اسر المبرقع المعروف بابي حرب اليماني واسر معهُ ابن بيهس وكان المبرقع خرج على الخليفة واختفى في جبال الاردن لابسًا برقعًا وكان يامر بالمعروف وينهي عن المنكر وادعى انهُ اموي واجتمع اليهِ قوم واجابهُ قوم من روساء اليمانية منهم ابن بيهس وصار له مئة الف فارسل عليهِ المعتصم رجاء بن ايوب فانتظر ان تفرق اصحابهُ عنهُ زمان الزراعة وفي هذه المدة توفي المعتصم وثارت الفتنة في دمشق فامرهُ الواثق بقتل من اثار الفتنة والعود الى المبرقع ففعل وقاتلهُ احتى اسره وقتل من اصحابهِ كثيرٌ وذلك (سنة ٢٢٧)

وكان ابتداء خروج بابك (سنة ٢٠١) وهزم جيش الخليفة عدة مرار وقتل من قوادهِ جماعة ودخل الناس رعب شديد واحتوى اليهِ قطاع الطرق واهل الفتن وتكاثفت جموعهُ فكان يركب على عشرين الف فارس ما عدا الرجالة وكان اصحابهُ لا يدعون مسلمًا او ذميًا الا قطعوه واحصي عدد من قتلوهم بايديهم فكان مايتين وخمسة وخمسين الفًا وخمسمائة

و(في سنة ٢٢٧) توفي المعتصم لثماني عشرة خلت من ربيع الاول بسامرا وولادته (سنة ١٩٧ فيها وكانت خلافتهُ ثماني سنين وثمانية اشهر وهو ثامن الخلفاء والثامن من ولد العباس ومات عن ثمانية بنين وثماني بنات ولذلك دعي المثمن وكان ابيض اصهب اللحية طويلها مربوعًا مشرب اللون بحمرة وهو اول من اضاف الى لقبهِ اسم الله فقيل المعتصم بالله وكان طيب الاخلاق لكنهُ غضوب اذا غضب لا يبالي من قتل او ما فعل. وحكي عن المعتصم انهُ انفرد يومًا عن اصحابهِ وكان مطر فراى شيخًا معهُ حمار يحمل شوكًا قد توحل الحمار ووقع الحمل وهو ينتظر مارًا به ليساعده فنزل المعتصم عن طرفهِ وخلص الحمار ورفع معهُ الحمل ثم قدم اصحابهُ فامر لصاحب الحمار باربعة الاف درهم وقالوا ان المعتصم تصدق عن يد واحد فقط بمائة الف الف درهم

وكان طبيب المعتصم حنين بن سلمويه وقد حزن عليهِ المعتصم جدًا لما مات وقال اني ساَلحق به لانهُ

كان يمسك حياتي وامتنع من الاكل كل ذلك النهار وامر باحضار جنازته الى الدار وان يصلى عليها بالشمع والبخور على عادة النصارى وسلمويه المذكور كان مع الافشين في المعسكر وهو يحارب بابك وقد اخبر قال جرى وقتئذٍ ذكر الصيادلة فقلت اعز الله الامير ان الصيدلاني لا يطلب منه شيء الا قال عنده منه فدعا الامير بدفتر من دفاتر الاسر وشينه واخرج منه نحو عشرين اسمًا ووجه الى الصيادلة في طلب ذلك فبعضهم انكرها والبعض ادعى معرفتها واخذ الدراهم من الرسل ودفع اليهم شيئًا من حانوته فامر الافشين باحضارهم جميعًا فمن انكر معرفتها اذن له بالمقام ونفى الباقين

والمعتصم كان اول من استخدم الاتراك في العسكر وذلك عند ما راى قوتهم في الحروب وقد قلت حماسة العرب وقتئذٍ وارتاحوا للعيشة الزاهية ففي حرب الروم انما كان الاتراك الذين ربحوا اليوم وقد انهزمت العرب امام العدو

في خلافة الواثق بالله وهو التاسع (من سنة ٢٢٧ – ٨٤١ الى سنة ٢٣١ – ٨٤٥)

بويع هرون بن المعتصم يوم وفاة ابيه ولقب بالواثق وكانت امه رومية ام ولد اسمها قراطيس وفي الوقت المذكور توفي طيوفيل ملك الروم واوصى لولده ميخائيل وكان صغيرًا فقامت امه ثيودوره في امره

وعند موت المعتصم تجددت الفتن في الشام بين القيسية وحاصروا اميرهم في دمشق فجهز اليهم الواثق بن ايوب فلقيهم عند مرج راهط واقتتلوا فقتل من العصاة نحو الف وخمسمائة وانهزم الباقي

و(سنة ٢٢٨) اكرم الواثق على اشناس التركي بتاج ووشاحين وغزا المسلمون جزيرة صقلية وفتحوا مدينة مسيني . اما سبب حرب صقلية فهو ان شابًا اسمه ايوفاميوس احب راهبة فخطفها ثم قبض عليه وحكم بقطع لسانه ففر والتجا الى افريقيا فقبله العرب ورحبوا به وجهزوا معه عسكرًا من سبعمائة فارس وعشرة الاف راجل وارسلوهم بمائة سفينة والبسوه الولاية على الجزيرة فقصدوا اولاً مازران وظهروا على الروم قليلاً الا ان الروم تكاثروا وظفروا بهم اخيرًا ونجت منهم سيراكوسه وقتل ايوفاميوس وتضايق الاسلام جدًا من الجوع وعادوا يذبحون الخيل وياكلون لحومها ثم انهم نجدات من الاندلس وفتحوا اولاً القسم الغربي من الجزيرة وهو الاكبر واختاروا فالرمس مقر مراكبهم والجنود اما سيراكوسة فقاومتهم خمسين سنة الى ان حاصروها حصارًا شديدًا والقوا عليها المنجنيقات بكثرة وانشبوا بها الحرب من كل جانب عشرين يومًا وفتحوها عنوةً وقيل ان الذي ساعدهم على اخذها هو غياب عمارة الروم وقتئذٍ فانها كانت سارت لتاخذ لوازم كنيسة كانت تبنى باسم السيدة في القسطنطينية ولولا ذلك لما كان تسهل لهم فتحها وبعد دخولهم اسروا الاكليروس

كلهم وارسلوهم الى فالرمس والقوهم في السجن وكانوا يتهددونهم بالقتل ما لم يسلموا وهذه صورة كتاب من الراهب ثيودوسيوس (سنة ٢٦٧ ـ ٨٨٠) الحاضر في تلك الحرب الى صاحبهِ ليون رئيس الشمامسة وهي « لقد قاومنا العدو عشرة اشهر ولم نغفل عن شيء محاربين الليل والنهار فوق الارض وتحتها لكي نوقع بالمحاصرين ونخرب اعمالهم وكان قوتنا سحيق الاعشاب التي تنبت على السطوح وعظام الحيوانات ثم عدنا نبتلع الاطفال من الجوع وتبع ذلك امراض مخيفة وكنا دائمًا بانتظار المساعدة الموعود بها واثقين بمتانة اسوارنا الى ان هبطت قلعة قوية من قلاعنا كانت عمدة عظيمة لنا ومع ذلك بقينا نقاوم ثلثة اسابيع ولم تجدنا شجاعتنا نفعًا لان بينما كان عساكرنا يرتاحون قليلا من كثرة التعب والحر الشديد واذ فاجأتنا عساكر الاسلام من كل جانب وفتحوا المدينة فالتجأنا الى كنيسة المخلص فتبعنا الاعداء الى هناك وذبحوا بحد السيف القضاة والكهنة والرهبان والشيوخ والنساء والاولاد واخرجوا اعيان الاهالي الى خارج السور وقتلوا الوفًا منهم بالعصي والحجارة وسحقوا راس نقيطس والي طرسوس بعد ان سلخوهُ حيًّا واخرجوا امعاءهُ وقد احرقوا البيوت وهدموا القلاع واعدوا الرهبان والكهنة الاسرى مع رئيس الاساقفة للحريق يوم عيد الاضحى عندهم وقد خلصنا من هذه الميتة رجل شيخ له سلطان عظيم عليهم . كتبت هذا من فالرمس من سجن اربعة عشر قدمًا تحت الارض ما بين عدد وافر من المحابيس يهود وافريقية ولومباردية ونصارى وكفار انتهى »

وكانت سيراكوسه قد ضعفت وقتئذٍ وافتقرت بعد حرب قرطاجنة والروم ونحوهم الا ان العرب وجدوا فيها من الذهب ما يساوي مليون ذهب فان الفضة التي وجدت في الكنيسة الكاتدرائية كانت نحو الف واربعمائة اقة والعرب نفوا النصرانية واللغة الرومية من كل صقلية والتزم كثير بالاسلام وقد تطهر يوم طهور ابن الخليفة الفاطمي خمسة عشر الفًا

و(في سنة ٢٢٩) وجد الواثق ان الكتاب كانوا قد اختصوا لانفسهم اموال بيت المسلمين فامر بمحاسبتهم والزامهم بمبالغ وافرة

و(في سنة ٢٣٠) خرج المجوس في اقاصي الاندلس بحرًا الى بلاد الاسلام وجرى بينهم جملة مواقع وتوصلوا الى شبيليه ثم تكوثر عليهم وطردوا واخذ منهم اربعة مراكب بما فيها وهربوا في مراكبهم الى بلادهم وفيها مات اشناس و(سنة ٢٣١) توفي ابن طاهر وابن الاعرابي الكوفي وهو محمد بن زياد صاحب اللغة ومن مصنفاته العديدة كتاب النوادر وكتاب تاريخ القبائل

وفيها كان الفدا بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرشيد واجتمع المسلمون على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وامر الواثق خاقان ان يمتحن اسرى المسلمين فمن قال بخلق القران وان الله لا يرى في الاخرة بالابصار فودي به واعطى دينارًا ومن لم يقل ذلك ترك في ايدي الروم

فلما كان في يوم عاشوراآ اتت الروم ومن معهم من الاسرى وكان الامرين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون اسيرًا والروم اسيرًا فيلتقيان وسط الجسر فاذا وصل المسلم الى قومهِ كبروا واذا وصل الرومي الى الروم صاحوا كيرياليسون حتى فرغوا وكان عدة اسارى المسلمين اربعة آلاف واربعمائة وستين نفسًا والصبيان ثماني مية ومية من اهل الذمة ثم غزا المسلمون شتاء فاصابهم مطر وثلج فمات مايتان واسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير

وتوفي الواثق بالله لست بقين من ذي الحجة (سنة ٢٣١) بمرض الاستسقا وكان قد عولج بالاقعاد في تنور مسخن فوجد على ذلك راحة فعاوده وشدد سخونتهُ وقعد فيهِ اكثر من الاول فمات ودفن بالهاروني. ولما اشتد مرضهُ امر باحضار المنجمين منهم الحسن بن ابي سهل بن نوبخت فنظروا في مولدهِ وقدروا انهُ يعيش خمسين سنة مستانفة من ذلك اليوم فلم يعش بعد قولهم ذلك الا عشرة ايام وكان الواثق ابيض مشربًا بحمرة في عينيهِ اليسرى نكتة بيضاء وكانت خلافتهُ نحو خمس سنين وتسعة اشهر وعمرهُ اثنتين وثلاثين سنة وكان يحب العلويين ويبالغ في اكرامهم وفرق في الحروب اموالاً عظيمة وعند ما سمع اهل المدينة بموتهِ حزنوا جدًّا وخرجت نساوهم الى البقيع يبكين مدة طويلة و يندبن موتهُ لفرط احسانهِ وكان كابيهِ وعمهِ في خلق القران وكان يلزم الناس الى مذهبهِ

من الحوادث المهمة في عهد الواثق مصادرة الكتاب خوفًا من اثرائهم واستبدادهم عليهِ نظير البرامكة على الرشيد فاخذ من احمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار ومن سليمان بن وهب اربعمائة الف ومن الحسن بن وهب اربعة عشر الفًا ومن ابرهيم بن رباح مئة الف ومن ابي الوزر مئة واربعين الفًا

ومنها وقعة بغا في الاعراب وذلك ان بني سليم كانوا يفسدون ويتسلطون بنواحي المدينة واوقعوا بقوم من كنانة وباهلة فبعث محمد بن صالح اليهم مسلحة المدينة ومعهم متطوعة من قريش والانصار فهزمهم بنو سليم ونهبوا القرى بين مكة والمدينة وانقطع الطريق فبعث الواثق بغا الكبير عليهم فقاتلهم وغلبهم وقبض على الف رجل منهم ممن يعرف بالفساد وحبسهم في المدينة (سنة ٢٣٠) ثم خرج الى ذات عرق وعرض على بني هلال مثل بني سليم واخذ من المفسدين منهم ثلاثمئة وحبسهم في المدينة واطلق الباقين ثم خرج بغا الى بني مرة فنقب الاسرى الحبس وقتلوا الحراس فاجتمع عليهم اهل المدينة ليلاً ومنعوهم الخروج وقاتلوهم الى الصبح وقتلوهم وشق الامر على بغا وكان سبب غيبتهِ ان فزارة وبني مرة تغلبوا على فدك فخرج اليهم وارسل رجلاً من قوادهِ يعرض عليهم الامان فهربوا منهُ الى الشام واتبعهم الى تخوم الحجاز واقام اربعين ليلة ثم رجع الى المدينة بمن اخذ منهم وجاء اليهِ قوم من بطون غفار وفزارة واشجع وثعلبة فاستحلفهم على الطاعة ثم سار الى بني كلاب فاتوه في

ثلاثة الاف رجل فحبس الفًا في المدينة واطلق الباقين وسار (سنة ٢٣٢) بامر الواثق الى بني نمير باليمامة ولقي جماعة الشريف منهم وقتل منهم خمسين واسرار بعين ثم ذهب الى مرة فامرهم بالطاعة فابوا وقاموا الى جبال السند فطف اليمامة وارسل سراياهُ فاوقع بهم في كل ناحية ثم سار اليهم فلقيهم بقرب اضاخ فكشفوا مقدمتهُ وميسرته واثخنوا في عسكرهِ ثم ساروا تحت الليل فتبعهم يدعوهم الى الطاعة وبعد قتال وخداع واتفاقات حربية انجلى الامر عن ظفرهِ عليهم ولم يخلص منهم الا من بقي سالمًا على ظهور الخيل وقتل منهم نحو الف وخمسمائة واقام بمكان الوقعة الى ان استامن لهُ امراؤهم فقيدهم وحبسهم بالبصرة ثم قدم عليهِ واجن الاشروسني في ٧٠٠ مقاتل مددًا فارسلهُ الى اتباعهم الى ان بلغ تبالة من اعمال اليمن ورجع ونهض بغا الى بغداد بمن كان معهُ منهم نحو الفين ومايتي رجل وكتب الى صالح امير المدينة بان يوافيهُ بمن عندهُ منهم الى بغداد ففعل ا

ومنها مقتل احمد بن نصر احد النقباء وذلك لان احمد كان نسيبة لاهل الحديث وكانوا يكرهون الواثق لقولهِ بخلق القرآن فقام لهُ اناس مثل هرون السراج وطالب وغيرهما فدعوا الناس اليهِ وبايعهُ خلق على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفرقوا الاموال في الناس دينارًا لكل رجل ففشا امرهُ وعلم وقبض عليهِ وعلى طالب ونحوهما وارسلوا الى الواثق في سامرا وجلس لهم مجلس عام حضرهُ احمد بن ابي داود ولم يسالهُ الواثق عن خروجهِ بل سالهُ عن خلق القرآن فقال هو كلام الله ثم سالهُ عن الروية فقال جاءَت بها الاخبار الصحيحة ونصيحتي ان لا يخالف حديث رسول الله صلعم ثم سال واثق العلماء حولهُ فاجابوا باستباحة دمهِ فدعا الواثق بالصمصامة فانتضاها ومشى اليهِ فضربهُ على حبل عاتقهِ ثم على راسهِ ثم وخزهُ في بطنهِ ثم اجهز سيما الدمشقي عليهِ وحز راسهُ ونصبه ببغداد وصلب شلوهُ عند بابها . قلت ان هذا الامر يدلنا على شيئين اولاً ان المحاكمة كانت ظالمة لانها لم تثبت حجة على ابن نصر ثانيًا ان الواثق لم يكن يحسن ضرب السيف نظير سلفائهِ

وحدث احمد بن هرون الشرابي بحضرة المتوكل على الله حدثهُ انهُ في خلافة الواثق كان يوحنا بن ماسويه معهُ على دكان في دجلة وكان مع الواثق قصبة فيها شص وقد القاها في النهر ليصيد سمكًا فحرم الصيد فالتفت الى يوحنا وكان على يمينهِ وقال لهُ قم يا مشئوم عن يميني فقال يوحنا يا امير المومنين لا تتكلم بالمحال يوحنا ابوهُ ماسويه الخوزي وامهُ رسالة الصقلبية المبتاعة بثمانماية درهم واقبلت بهِ السعاده الى ان صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم وغمرتهُ الدنيا فنال منها ما لم يبلغهُ املهُ فمن اعظم المحال ان يكون هذا مشئومًا ولكن ان احب امير المومنين اخبرتهُ بالمشئوم من هو فقال من هو فقال من ولده اربعة خلفاء ثم ساق اليهِ الخلافة فترك خلافتهُ وقصورها وقعد في مكان مقدار عشرين ذراعًا في مثلها وسط دجلة لا يامن من عصف الريح عليهِ فيغرقهُ وتشبه بافقر قوم في الدنيا

واشرهم وهم صيادو السمك قال المتوكل فرايت الكلام قد نجع فيهِ

فصل في خلافة المتوكل على الله وهو العاشر (من سنة ٢٣٢-٨٤٦ الى ٢٤٦-٨٦٥)

لما توفي الواثق اتوا بولدهِ محمد وكان صغيرًا والبسوهُ قلنسوة ودراعة سوداء فلم يروا ذلك مصلحة فاحضروا اخاهُ جعفر بن المعتصم وبايعوهُ ولقب بالمتوكل وذلك في ٦ ذي الحجة (سنة ٢٣٢-٨٤٦ وبحال تولي المتوكل قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات واخذ جميع مالهِ والقاه في السجن وعذبهُ بالسهر ثم وضعهُ في تنور خشب فيهِ مسامير روؤسها الى داخلهِ الى ان مات وابن الزيات هذا هو الذي امات بن اسباط المصري بمثل ذلك واخذ امواله ثم ولى المتوكل ابنهُ المنتصر الحرمين واليمن والطائف وفي سنة ٢٣٣-٨٤٧) وثب ميخائيل بن طوفيل بامهِ ثيودورا والزمها الرهبانية وقتل حبيبها (سنة ٢٣٥-٨٤٩ (عقد المتوكل البيعة لبنيهِ الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز والموءيد واعطى لكل منهم سواءً وولى المنتصر العراق والحجاز واليمن وولى المعتز خراسان والري والموءيد الشام وفي السنة المذكورة ظهر رجل بسامرة يقال لهُ محمود بن فرج وادعى النبوة فكان يقول انهُ ذو القرنين وتبعهُ سبعة وعشرون رجلاً فاتي بهِ وباصحابهِ الى المتوكل فامر اصحابهُ فصفعهُ كل منهم عشر صفعات ثم ضرب حتى مات وحبس اصحابهُ وفي وقتهِ توفي اسحق بن ابرهيم الموصلي الموسيقي الشهير (وسنة ٢٣٦-٨٥) امر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وملاشاة ما حولهُ من المنازل ومنع الناس من زيارتهِ وكان المتوكل يكره جدًّا العلويين وفيها توفي بن رغبان الشاعر الشهير المعروف بديك الجن ومن جيد شعره ما قال

وقم انت فاحثث كاسها غير صاغرٍ ولا تسق الا خمرها وعقارها
مشعشعةً من كف ظبي كانما تناولها من خده وادارها

ومنع المتوكل الناس من القول بخلق القران (وسنة ٢٣٧-٨٥١) ولى يوسف بن محمد ارمينية واذربيجان ولما وصل الى اخلاط جاء ابقراط بن اسوط البطريق فامر باخذه وارسالهِ حقيرًا الى المتوكل فاغتاظ بقية البطارقة وتحالفوا علي قتل ابن يوسف المذكور ووافقهم على ذلك يوسف بن زرارة زوج ابنة ابقراط فوثبوا بيوسف وهو في قلعة موسى في رمضان وكان البرد شديدًا فخرج اليهم ابن يوسف وقاتل حتى قتل هو وكل من معهُ اما الذين لم يقاتلوا فانهم انزعوهم ثيابهم واطلقوهم عراة حفاة فهلك اكثرهم من البرد

ولما بلغ ذلك المتوكل سير عليهم بغا الكبير فسار واناخ طالبًا بثار يوسف وقتل منهم زهاء ثلثين

الفًا وسبى خلقًا كثيرًا ثم قام الى مدينة تفليس وحاصرها ودعا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار وهي من خشب الصنوبر فاحترقت واحترق فيها نحو خمسين الفًا و(سنة ٢٣٧) ايضًا توفي محمد بن عبد الله امير صقليه وتولى موضعهُ العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة وفتح فتوحات جليلة فاخذ العاصمة (قصريانه) وكان الملك قبلاً يسكن مرقوسه ثم انتقل الى قصريانه عندما استولى العرب على بعض الجزيرة لحصانتها

وفيها قدم ثلاث مئة مركب من الروم بثلاثة امراء واناخ احدهم بمئة مركب بدمياط وكان بينها وبين الشط شبيه البحيرة ماؤها لصدر الرجل فمن جازها الى الارض امن من مراكب البحر. وجازها قوم من المسلمين فسلموا وغرق كثيرٌ من نساء وصبيان ومن كان به قوة سار الى مصر واتفق وصول الروم ودمياط فارغة من الجند فنهبوا واحرقوا وسبوا مسلمات وذميات نحو ست مئة وساروا الى مصر ونهبوها ورجعوا ولم يتعرض لهم احد و(سنة ٢٤٢) حدثت زلازل هائلة واصوات منكرة بقومس ورساتيقها في شهر شعبان وتهدمت الدور وهلك بشر كثير قيل نحو خمسة واربعين الفًا وكان اكثر من ذلك بالدامغان وامتد ذلك الى الشام وفارس وخراسان واليمن وخسف وانقطع الجبل الاقرع وسقط في البحر فمات اهل اللاذقية من ذلك. وفيها توفي ابو العباس محمد بن ابرهيم بن اغلب امير افريقية وخلفهُ ابنهُ ابرهيم احمد وتوجه المتوكل (سنة ٢٤٤ـ ٨٥٨) الى دمشق وعزم على الاقامة هناك ونقل دواوين الملك اليها فقال يزيد بن محمد المهلبي في ذلك شعرًا

اظن الشام يشمت بالعراقِ — اذا عزم الامام على انطلاقِ
فان تدع العراق وساكنيهِ — فقد تبكي المليحة بالطلاقِ

لكنهُ كرهها حالاً ووجد ماءها قليلا واستوبأ ها فنقل الى سامرا وكان قيامهُ بدمشق شهرين وبدا بعمار الجعفري (سنة ٢٤٥) وانفق عليهِ اموالا غزيرة ونقل اليهِ (سنة ٢٤٦) وكان يقال للموضع الماصوره. ثم اتفق البعض مع بغا الصغير الشرابي والمنتصر بن المتوكل وارسلوا على المتوكل جماعة بالسيوف وهو في مجلس شرابهِ ليلا فقتلوهُ ومعهُ وزيره الفتح بن خاقان وكان ذلك ليلة الاربعاء (٤ شوال سنة ٢٤٧ ـ ٨٦١) وكانت خلافتهُ نحو الاربع عشرة سنة وعمرهُ نحو الاربعين وكان اسمر خفيف العارضين

ومما يستحق الذكر في عهد المتوكل نكبة ايتاخ وقتله وكان اولاً مولى لسلام الابرش فاشتراه المعتصم (سنة ١٩٩) وكان شجاعا فتقدم في دولته ودولة ابنه الواثق وكان له المونه بسامرا مع ...

بن ابرهيم بن مصعب وكانت نكبة العظماء في الدولة على يديه وحبسهم في داره مثل اولاد المامون وابن الزيات وصالح وعجيف وعمر بن الفرج وابن الجنيد وامثالهم وكان له البريد والحجابة والجيش والمغاربة والاتراك فاتفق انه شرب ذات ليلة مع المتوكل فعربد المتوكل عليه فهم ايتاخ بقتله ثم غدا عليه المتوكل فاعتذر له ورمى عليه من زين له الحج فاستاذن المتوكل فاذن له وخلع عليه وجعله امير كل بلد يمر به فسار (سنة ٢٣٣ او سنة ٢٣٤) والعسكر امامه وجعلت الحجابة الى وصيف الخادم وعند رجوعه من الحج بعث اليه المتوكل بالالطاف والهدايا وكتب سرًا الى اسحق بن ابرهيم المذكور بحبسه فلما قارب بغداد كتب اليه اسحق بان المتوكل امر ان يدخل بغداد وان يلاقاه بنو هاشم ووجوه الناس وان يقعد بدار خزيمة بن خازم فيامر للناس بالجوائز على قدر طبقاتهم ففعل وكان ان وقف اسحق بالباب فمنع اصحابه من الدخول اليه ثم قبض على ولديه منصور ومظفر وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد واودع ايتاخ السجن الى ان مات

ومنها اغارة البجاة وكانت بين اهل مصر والبجاة هدنة من لدن الفتح وكان في بلاد البجاة معادن الذهب يودون منها الخمس الى اهل مصر فامتنعوا ايام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين بالمعادن وكتب صاحب البريد بذلك الى المتوكل فاستشار في غزوهم فقالوا له انهم اهل ابل وشاء وان بين بلادهم و بلاد المسلمين مسيرة شهر ولا بد فيها من الزاد وان فنيت الازواد هلك العسكر فامسك عنهم وخاف اهل الصغد من شرهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القمي على اسوان وقفط والاقصر واسنا وارمنت وامره بحرب البجاة وكتب الى عبنسة بن اسحق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معه فسيره في عشرين الفًا من الجند والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقًا وتمرًا وادمًا الى سواحل بلاد البجاة وانتهي الى حصونهم وقلاعهم فزحف اليه ملكهم واسمه علي بابا في اضعاف عساكر القمي على المهارى وطاول علي بابا الاسلام علة ان تفنى ازوادهم ثم جاءت المراكب وفرقها القمي في اصحابه فناجزهم البجاة الحرب وكانت ابلهم نفورة وامر القمي عسكره باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فانهزموا واثخن فيهم قتلاً حتى استامنوا على اداء الخراج عما مضى ولما ياتي.

الصوائف

وغزا بالصائفة (سنة ٢٣٨) علي بن يحيى الارميني صاحب الصوائف وكان الفدا (سنة ٢٤١) في عهد تيودورة ملكة الروم وكانت قد حملت الاسرى على التنصر فتنصر اكثرهم ثم طلبت المفاداة في من بقي فبعث المتوكل سيفًا الخادم بالفدا ومعه قاضي بغداد جعفر بن عبد الواحد وكان الفدا على نهر اللامس (الامبس) ثم اغارت الروم بعد ذلك على روبة فاسروا من كان هناك من الزط وسبوا النساء والاولاد ولما رجع علي بن يحيى الارميني من الصائفة خرجت الروم وانتهوا الى آمد واكتسحوا

نواحي الثغور والخزر به نهبًا واسروا نحو عشرة الاف وارسل المتوكل بغا الكبير بالصائفة فدخل بلاد الروم ودوخ واكتسحها من جملة نواحٍ ورجع و(في سنة ٢٤٥) اغارت الروم على سميساط فغنموا وغزا علي بن يحيي الارميني بالصائفة كركرة فانتقض اهلها على بطريقهم وسلموه الى موالي المتوكل فاطلق ملك الروم في فدائهِ الف اسير. وغزا (سنة ٢٤٦) عمر بن عبيدالله الاقطع بالصائفه فجاؤوا باربعة الاف راس وغزا قرشاس فجاء بخمسة الاف راس وغزا الفضل بن قاران في الاسطول فافتتح حصن انطاكية وكان الفداء تلك السنة على الفين وثلاث مايه من الاسرى

وعلى ما يظهر ان الصوائف مع الوقت عادت نوع سرقة مرتبة بين الامتين وبها حفظ الضغن والعداوة بين العرب والروم مدة طويلة فان تلك الحروب لم تكن حروب افتتاح بل نهب وسلب وتخريب واذية تليق بالعيشة البربرية لا غير وقد انقضت في هذه الازمنة والحمد لله

وفي عهدهِ كان بختيشوع الطبيب الذي توفي (سنة ٢٥٦ - ٨٦٩) واشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي في علم الطب والعباديون قوم من نصارى العرب اجتمعوا من قبائل شتى وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها بظاهر الحيرة وتلقبوا بالعباد لانهُ بخلاف العبيد لا يضاف الا الى الخالق وكان اسحق والد حنين صيدلانيًا في الحيرة ولما شب حنين مال الى العلم فقصد بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه وخدمهُ وقرا عليهِ وكان حنين صاحب سوالٍ ويوحنا ضيق الخلق فسالهُ حنين يومًا مسئلة فاجابهُ يوحنا ما لاهل الحيرة والطب. عليك ببيع الفلوس في الطريق. وامر بو فاخرج من دارهِ فخرج حنين باكيًا متاثرًا وقصد بلاد الروم واقام بها سنتين حتى احكم اللغة اليونانية وتوصل الى تحصيل كتب الحكمة وعاد الى بغداد ونهض من بغداد الى فارس ولزم الخليل بن احمد في البصرة حتى برع في اللغة العربية ثم قفل الى بغداد قال يوسف الطبيب دخلت يومًا على جبريل بن بختيشوع فوجدت عندهُ حنينًا وقد ترجم لهُ بعض قضايا تشريح وجبريل يخاطبهُ بالتبجيل ويسميهُ الربان فاستعظمت ما رايت وتبين ذلك لجبريل مني فقال لا تستكثر هذا في امر هذا الفتى فوالله لئن مد الله تعالى لهُ في العمر ليفضحن سرجيس وسرجيس هذا هو الراس عيني اليعقوبي ناقل علوم اليونان الى السريانية ولم يزل امر حنين يقوى وعلمهُ يتزايد وعجائبهُ تظهر في النقل والتفاسير حتى انفرد ينبوعًا للعلوم ومعدنًا للفضائل واتصل خبرهُ بالخليفة المتوكل فامر باحضارهِ واكرمهُ واقطعهُ اقطاعًا سنيًا واقر لهُ جارجهد واحب امتحانهُ يومًا خوفًا من ان يكون محتالًا من قبل الروم فاستدعاهُ وامر ان يخلع عليهِ واخرج لهُ توقيعًا وفيهِ اقطاع يشتمل على خمسين الف درهم فشكرهُ حنين ثم قال بعد اشياء جرت اريد ان تصف لي دواء اقتل بهِ عدوًا لا يمكن اشهارهُ فاجاب حنين مولاي اني لم اتعلم غير الادوية النافعة ولا فكرت ان امير المومنين

يطلب اليّ غيرها فان احب ان امضي واتعلم ذلك فعلت فقال هذا شيء يطول ثم رغبهُ وهدده وارسله الى السجن في بعض القلاع وتركه سنة ثم احضرهُ واعاد عليهِ الطلب واحضر سيفًا ونطعًا فقال حنين قد قلت لامير المومنين ما فيهِ الكفاءة قال الخليفة نقتلك ان لم تفعل قال حنين ان لي ربًا ياخذ بحقي غدًا في الموقف الاعظم فتبسم المتوكل وقال له طب نفسًا فانا انما اردنا امتحانك والثقة اليك فقبل حنين الارض وشكر فقال الخليفة بعد ان سكن روع حنين ما الذي منعك عن الاجابة مع ما رايتهُ من صدق الامر منا في الحالين قال حنين شيئان الدين والصناعة اما الدين فانهُ يامرنا باصطناع الجميل مع اعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء وقد يكون المطلوب قتلهُ صديقًا لي واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الاطباء عهد موكد بايمان مغلظة الاّ يعطوا دواء قتالاً لاحد فقال الخليفة انهما شرعان جليلان وانعم عليهِ فحمل انعامهُ وخرج وهو ارقى الناس حالاً وجاهًا وكان الطينوري النصراني الكاتب يحسد حنينًا ويكرههُ فاجتمعا يومًا في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل قدامها فقال حنين لصاحب البيت لمَ تضيع الزيت فليس هذا بالمسيح ولا هولاء بالتلاميذ وانما هي صور فانكر ذلك الطينوري وقال ان لم تستحق الاكرام فابصق عليها فبصق حنين فاشهد عليهِ الطينوري ورفعهُ الى المتوكل وطلب اباحة الحكم عليهِ لروساء الملة فبعث الى الجاثليق والاساقفة وسالهم عن ذلك فاوجبوا حرم حنين وقطع زنارهِ فانصرف حنين الى دارهِ ومات من ليلتهِ فجأة وقيل انهُ شرب سمًا وكان لحنين ولدان داود واسحق اما اسحق فخدم على الترجمة واتقنها واحسن فيها وكانت نفسهُ اميل الى الفلسفة واما داود فكان طبيبًا للعامة وكان له ابن اخت يقال له حبيش بن الاعسم احد الناقلين من اليوناني والسرياني الى العربي وكان يقدمهُ على تلاميذهِ وكثيرًا ما يرى الجهال شيئًا من الكتب القديمة مترجمًا بنقل حبيش فيظن الغر منهم انهُ حنين وقد صحف فيكشطهُ ويجعلهُ حنينًا

في خلافة المنتصر وهو الحادي عشر (من سنة ٢٤٧ - ٨٦١ الى ٢٤٨ - ٨٦٢)

ولما كان صباح الاربعاء حضر الناس والقواد والعساكر الى الجعفري وخرج احمد بن الخصيب وتلا كتابًا من المنتصر مفادهُ ان الفتح بن خاقان قتل والدي فقتلتهُ بهِ ويطلب المبايعة لنفسهِ فصدق الناس وبايعوهُ

وفي هذه السنة توفي امير صقلية فقام عوضهُ ابنهُ عبد الله ثم حضر من افريقية خفاجة بن سفيان اميرًا فغزا وفتح في الجزيرة ثم اغتالهُ رجل من عسكرهِ وهرب فاقاموا عوضهُ محمدًا ولدهُ ثم

اقره محمد بن احمد بن اغلب صاحب القيروان فبقي الى ان قتلهُ خصيانهُ (سنة ٢٥٧ــ ٨٧٠) وهربوا فادركهم الناس وقتلوهم ٠٠ و(سنة ٢٤٨ــ ٨٦٢) جدّ وصيف وبغا وباقي الاتراك في خلع المعتز والمؤيد والحّوا على المنتصر فخلعهما وبايع ولده عبد الوهاب كرهًا منهُ ومنهما ثم دعاهما وقال « اتظنان اني خلعتكما طمعًا في ان اعيش وارى ولدي صالحًا للخلافة والله ما طمعت بذلك ساعةً ولكن هولاء » (واوما الى سائر الموالي والاتراك من هو قائم وقاعد) الحّوا عليَّ في خلعكما

وفي هذه السنة قضي المنتصر نحبهُ نهار الاحد بسامرا في (٥) ربيع الاول بالذبحة ومرض ثلثة ايام وعمرهُ نحو ٢٥ سنة وخلافتهُ ستة اشهر قيل كان كثير يقولون حين افضت الخلافة اليهِ انهُ لا يعيش اكثر من ستة اشهر نظير شيرويه بن كسرى قاتل ابيهِ وكان المنتصر اعين اقنى قصيرًا مهيبًا عظيم اللحية عاقلاً منصفًا وكان قد رجع قبر الحسين والمن العلويين بخلاف سلفائهِ

في خلافة المستعين بالله وهو الثاني عشر (من ٢٤٨ــ ٨٦٢ الى ٢٥٢ ــ ٧٦٦)

ولما توفي المنتصر اتفق عظماء الدولة من الاتراك وغيرهم على مبايعة ابي العباس المستعين فبايعوا لهُ ليلة الاثنين (في ٦ ربيع الاخر سنة ٢٤٨) فعقد لمحمد بن طاهر بن عبد الله على خراسان بسبب موت طاهر ابيهِ وجعل موسى بن بغا الكبير عوض ابيهِ لموتهِ ايضًا ٠ وفيها تحرك يعقوب بن ليث الصفار من سجستان على هراة وثارت الحرب بين المسلمين والروم (سنة ٢٤٩) وتواقعوا في مرج الاسقف وقتل فيها عمر بن الاقطع مقدم عسكر المستعين وكان من الابطال وانهزمت جنودهُ وقتل منهم خلق كثير واغار الروم على الثغور الجزرية وشغبت الجنود الشاكرية والعامة في بغداد ضد الاتراك لاستيلائهم على مصالح المسلمين يقتلون ويستخلصون من بدا لهم من دون تروٍ ولا نظر ووقعت فتنة بسامرا وفتحوا الحبوس واطلقوا من بها وركبت الاتراك واوقعوا في الشعب الى ان سكنت الثورة وفيها قامت الموالي على اتامش الترك فقتلوهُ ونهبوا دارهُ وذلك لان المستعين كان اطلق يد والدتهِ ويد اتامش ويد شاهك الخادم فكانوا يتناولون من بيوت المال على هواهم ثم احرقوا احد الجسرين وقطعوا الاخر وانتهبوا دور اهل الايسار واخرجوا اموالاً كثيرة وفرقوها فيمن نهض لحفظ الثغور ٠ وفيها توفي ابو ابرهيم بن اغلب صاحب افريقية وولي موضعهُ اخوهُ زياده ثم توفي زياده ثاني سنة وخلفهُ ابن اخيهِ ابو عبد الله

فصل

في الربع الثالث من القرن الثالث

ومن الحوادث التاريخية في عهد المستعين ظهور يحيي بن عمرو ومقتله وهو يحيي بن عمر وبن يحيي

بن زيد الشهيد وكان على الطالبيين بالكوفة ويكنى ابا الحسين وامهُ من ولد عبدالله بن جعفر ويعد من سراتهم ووجوههم وكان عمر بن فرج يتولى زمان المتوكل على الطالبيين فعرض له ابو الحسين المذكور عند قدومهِ من خراسان وطلب منهُ صلة لدين عليهِ فاغلظ له عمر الجواب وحبسهُ حتى اخذ عليهِ الكفلاء ثم انطلق الى بغداد وذهب الى سامرا وقد املق فتعرض لوصيف في رزق يجري له فاساءهُ الوصيف عليهِ فرجع الى الكوفة وعاملها وقتئذٍ ايوب بن الحسين من قبل محمد بن عبدالله بن طاهر فاعتزم على الخروج والتف عليهِ جمع من العرب واهل الكوفة ودعا للرضى من آل محمد وفتق السجون ونهبها وطرد العمال واخذ من بيت المال الفي دينار وسبعين الف درهم وكان صاحب البريد قد طير بخبرهِ الى ابن طاهر فكتب الى عاملهِ بالسواد عبدالله بن محمود السرخسي ان يبعث بالمدد الى الكوفة ففعل فلقيهم يحيي وقاتلهم وهزمهم وانتهب ما معهم وخرج الى سواد الكوفة وتبعهُ خلق من الزيدية وانتهى الى ناحية واسط وكثر جموعهُ وسرح ابن طاهر الى محاربتهِ اسمعيل بن ابرهيم في العساكر فسار اليهِ وقد كان يحيي قصد الكوفة فلقيهُ عبد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفلس فهزمهُ يحيي الى ناحية ساهي ودخل الكوفة واجتمعت عليهِ الزيدية ثم وصل ابن اسمعيل بن ابرهيم وانضم اليهِ ابن الخطاب فخرج يحيي من الكوفة ليعاجلهم الحرب فاسرى ليلتهُ وصبح العساكر فساروا اليهِ فهزموهُ بعد حرب عنيدة ووضعوا السيف في اصحابه واسروا منهم كثيرًا وانجلى الامر عن قتل يحيي واحتز راسهُ وارسل الى ابن طاهر وهو ارسلهُ الى بغداد الى المستعين وذلك (سنة ٢٥٠)

ومنها ظهور الحسن بن زيد من العلوية بطبرستان واستبدادهُ بها وذلك انهُ لما تقوى ابن طاهر على يحيي بن عمرو كما تقدم وكان يحيي غنيًا وقد عثر هو على كل ذلك واشتهر اقطعهُ المستعين قطائع من صوافي السلطان بطبرستان منها قطعة بقرب ثغر الديلم تسمى روسالوس وفيها ارض موات ذات غياض واشجار وكلها مباحة لمصالح الناس من الاحتطاب والرعى وكان عامل طبرستان وقتئذٍ من قبل ابن طاهر عمهُ سليمان بن عبدالله وهو اخو محمد صاحب القطائع المذكورة وكان سليمان مكفولاً لامهِ وقد حظي عندها ونقدم وفرق اولاده في اعمال طبرستان فاساءوا السيرة في الرعايا ثم دخل محمد بن اوس بلاد الديلم وهم مسالمون فسبى منهم وشق الامر عليهم ثم جاء نائب محمد بن عبدالله لقبض القطائع وقد ضمنها الارض المذكورة المباحة لمنافع الناس فانكر عليهِ ذلك الناظر على تلك الارض وكان من امر كل هذا ان لحق النائب بسليمان اخي سيده يستنجدهُ وكتب ابنا رستم نظار الارض الى الديلم يستغيثان ومثلهُ الى محمد بن ابرهيم من طبرستان يدعوانهِ الى القيام بامره لانهُ علوى فامتنع ودلهم على كبير العلوية بالري الحسن بن زيد المقدم ذكره فكاتبهُ ابنا رستم محمد وجعفر فشخص اليها وقد اجتمع اهل كلار وسالوس واهل الريان ومعهم الديلم باسرهم فبايعوهُ جميعًا

وطردوا عمال سليمان وابن اوس ثم انضم اليهم رجال طبرستان وزحف الحسن بن معهُ الى مدينة آمد وخرج ابن اوس من سارية لمدافعتهِ فانهزم ولحق بسليمان في سارية فخرج سليمان لحرب الحسن ولما التقى الجمعان بعث الحسن بعض قواده خالف سليمان الى سارية وسمع بذلك سليمان فانهزم وأخذ الحسن سارية وبعث باولاد سليمان وعياله الى جرجان بحرًا ثم بعث الحسن ابن عمهِ الى الري وهو القاسم بن علي وبعث المستعين جندًا الى همذان ليمنعها ولما ملك محمد بن جعفر قائد الحسن الري اساء التصرف فبعث بن طاهر عليهِ من نزعها منهُ واسره فبعث الحسن بن زيد عليهِ قائدهُ دواجن فهزم رجال ابن طاهر وقتل رئيسهم ابن ميكال واسترد الري ثم جاء موسى بن بغا بالعساكر فملك الري من يدي ابي دلف وبعث مفلحًا الى طبرستان فحارب الحسن بن زيد وهزمهُ واستولى على طبرستان ولحق الحسن بالديلم ودخل مفلح آمد وخرب منازل الحسن ورجع الى موسى بالري

والحسن بن زيد بقي مستوليًا الديلم الى ان قتل (سنة ٢٨٧ ـ ٨٠٢) وخلفهُ الحسن بن علي الملقب بالناصر

وفيها ايضًا هي و (سنة ٢٥٠) عصت حمص على العامل الفضل بن قارن اخي مازيار وقتلوهُ فجهز المستعين عليهم موسى بن بغا الاكبر فحاربهم بين حمص والرشتن وهزمهم وفتح حمص واحرقها وقتل كثيرًا من اهلها

وفيها اتفق بغا الصغير ووصيف فقتلا باغر التركي فشغبت الترك وحصروا المستعين وبغا الصغير ووصيفًا في القصر بسامرا فهرب المستعين وبغا ووصيف في حراقة وانحدروا الى بغداد فاخرجوا المعتز من الحبس وولوهُ على اموال المستعين بسامرا واموال امهِ وفرق على الجند وعقد المعتز لاخيهِ ابي احمد طلحة بن المتوكل وجهزهُ مع خمسين الفًا من الترك لحرب المستعين وتحصن المستعين ببغداد وجرى بين الفريقين قتال كثير ثم اتفق الكبرا علي خلع المستعين والزموهُ بذلك ثم دخلت سنة ٢٥٢

في خلافة المعتز وهو الثالث عشر (من سنة ٢٥٢ ـ ٨٦٦ الى سنة ٢٥٦ ـ ٨٦٩)

وبعد خلع المستعين كما تقدم بويع المعتز ابن المتوكل بن المعتصم وخطب لهُ ببغداد يوم الجمعة رابع محرم (سنة ٢٥٢) وقام المستعين من قصر الرصافة بعيالهِ الى قصر الحسن بن سهل واستلموا منهُ البردة والقضيب والخاتم ثم طلب المستعين ان يكون بمكة فمنع فاختار البصرة ووكل بهِ جماعة وانحدر الى واسط ثم امر المعتز بقتلهِ وكتب بهِ الى احمد بن طولون فامتنع احمد بل سار بهِ

الى القاطول وسلمهٔ الى الحاجب سعيد بن صالح فامانهٔ ضربًا وحمل راسهٔ الى المعتز وكانت مدة خلافتهِ ثلاث سنين وتسعة اشهر وعمرهُ نحو اربع وثلاثين سنة . وفيها عقد لابن الشيخ عيسى على الرملة فارسل عنهُ نائبًا عليها وكان عيسى شيبانيًا وهو عيسى بن الشيخ بن السليك من ولد جساس بن مره فلما كان ما كان من فتنة الاتراك في العراق تغلب عيسى المذكور علي دمشق واعمالها وقطع ما كان يحمل منها الى الخليفة واستبد بالامر و(سنة ٢٥٣) تملك يعقوب الصفار هراة وبوشنج وعظم امرهُ وهابهُ امير خراسان . و(سنة ٢٥٤) ولى احمد بن طولون على مصر واستولى الصفار على كرمان وفارس ودخل شيراز ونادى بالامان (سنة ٢٥٥) وكتب للخليفة بطاعتهِ واهداهُ هدية جميلة منها عشرة بزاة ومائة منٍّ من المسك وكان طولون مملوكًا تركيًا للمامون وولد لهُ احمد (سنة ٢٢٠) في بغداد وكان احمد عالي الهمة يستقل بعقول الاتراك ودينهم وموثوقًا بهِ في العظائم وتشاغل بالخير والصلاح فتمكنت محبتهُ في القلوب

وكان قد خرج بناحية الموصل(سنة ٢٤٨) في ايام المستعين محمد بن عمر الشاربي فسرح عليهِ المنتصر اسحق بن ثابت الفرغاني فحاربهُ واسرهُ في عدة من اصحابهِ وفيها غزا وصيف بالصائفة وامره المنتصر بالمقام بملطية اربع سنين يغزو في اوقات الغزو وكان مقيمًا في الثغر الشامي فدخل بلاد الروم وفتح حصن قدوريه وخرج الروم الى الثغور الخزرية فاستباحوها وبلغ ذلك علي بن يحيى الارميني وقد كان صرف على الثغور الشامية وعقد لهُ على ارمينية واذربيجان فلما سمع بخبرهم نفر اليهم وقاتلهم فانهزم وقتل في اربع مئة من المسلمين وغزا محمد بن معاذ (سنة ٢٥٣) في ايام المعتز من ناحية ملطيه فانهزم واسر

وفي تلك المدة خرج مساور بن عبد الله بن مساور البجلي ولهُ حروب شهيرة مع حسان بن بكير صاحب الشرطة بالحديثة من اعمال الموصل ومع محمد بن جعفر الخزاعي والي الموصل ومع بندار ومظفر بن مشبك ومع خطرمش رئيس الجند ومع حمدون بن الحرث بن لقمان جد الامراء الحمدانية ومع محمد بن عبدالله بن السيد بن انس في نواحي الموصل انتصر فيها جميعًا (سنة ٢٥٣ ٢٥٤) ثم كانت الفتنة (سنة ٢٥٥) وخلع المعتز وبويع للمهتدي وولى على الموصل عبد الله بن سليمان فزحف اليهِ مساور وحام عبد الله عن لقائهِ فملك مساور البلد وبقي فيهِ جمعة وصلى وخطب ثم خرج الى الحديثة وكانت دار هجرتهِ ثم انتقض عليهِ احد الخوارج واسمهُ عبيدة بن زهير العمري بسبب الخلاف في توبة الخاطئ وقال عبيدة لا تقبل وكان قتال شديد بينهما قتل فيهِ عبيدة وانهزم اصحابهُ واستولى مساور على اكثر الفرات ومنع الاموال وسار اليهِ بغا بالعساكر ثم بلغهم خبر الاتراك مع المهتدي فاقاموا ثم زحفوا بخلع المهتدي ولما نهض المعتمد بعث عليهِ مفلحًا في عسكر كبير فترك مساور الحديثة الى

الجبال واعتصم بها وله مواقع عديدة مع مفلح ولما كثرت الجراحة في اصحاب مساور من حين حربه مع عبيدة الى ذلك الوقت ترك الجبل فاصبح مفلح وقد فقدهم فسار مفلح الى الموصل ثم الى ديار ربيعة وسنجار ونصيبين والخابور فاصلح امورها ثم جاء مساور يحطف من اعقابهم ويقاتلهم وعاد الى الحديثة ورجع مفلح الى بغداد (سنة ٢٥٥)

وفيها خلع المعتز نهار الاربعا لثلث بقين من رجب واختلف في اسمهِ قيل محمد وقيل الزبير وكنيتهُ ابو عبد الله وتوفي في ٢ شعبان وكان السبب ان الاتراك طلبوا ارزاقهم فلم يكن عند المعتز مال فنزلوا معهُ الى خمسين الف دينار فارسل المعتز وسال امهُ واسمها قبيحة تعاكسًا لانها كانت جميلة جدًّا وغنية فاجابت «ما عندي شيء» فاتفق الاتراك والمغاربة والفراعنة على خلعهِ وساروا الى بابهِ وطلبوهُ فقال اني شربت امس دواء وقد افرط فيَّ العمل فان كان لا بد من الاجتماع فليدخل بعضكم اليَّ فدخل منهم جماعة وجروهُ برجلهِ الى باب الحجرة وضربوهُ بالدبابيس ومزقوا قميصهُ واقاموهُ بالشمس ثم ادخلوهُ الى حجرتهِ واحضروا القاضي واشهدوهُ وخلافهُ على خلعهِ نفسهُ ثم سلموهُ لمن يعذبهُ ومنعوا عنهُ الطعام والشراب ثلاثة ايام ثم ادخلوهُ سردابًا وجصصوهُ عليهِ فمات ودفنوهُ بسامرا مع المنتصر وكانت خلافتهُ اربع سنين ونصفًا وعمرهُ اربعًا وعشرين سنة وكان ابيض اسود الشعر

وفي ذلك الوقت توفي سابور بن سهل النصراني صاحب بيمارستان جندي سابور وكان فاضلاً في عصرهِ ولهُ تصانيف مشهورة منها كتب القراباذين المعول عليهِ في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة وفيهِ اثنان وعشرون بابًا

في خلافة المهتدي وهو الرابع عشر (من سنة ٢٥٥ ـ ٨٦٨ الى سنة ٢٥٦ ـ ٨٦٩)

بويع المهتدي وهو محمد بن الواثق يوم الاربعاء لثلث بقين من رجب (سنة ٢٥٥) وكنيتهُ ابو عبد الله وامهُ رومية وفي هذه السنة ظهرت قبيحة من خباها وكان لها مطمور تحت الارض فيهِ الف الف دينار ووجد لها في سفط قدر مكوك زمرد وفي اخر قدر مكوك لؤلؤ ومقدار كيلجة ياقوت احمر لامثيل لهُ فنبش ذلك كلهُ واعطى الى صالح بن وصيف فقال صالح قبح الله قبيحة فقد عرضت ابنها للقتل لاجل خمسين الف دينار وعندها هذا كلهُ والمكوك هو (نصف الويبة والويبة اثنان وعشرون او اربع وعشرون مدًّا بمد النبي او) ثلاث كيلجات والكيلجة منٌّ وسبعة اثمان المنّ والمنّ رطلان والرطل اثنتا عشرة اوقية والاوقية استار وثلثا استار والاستار اربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة اسباع الدرهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة شعيرتان

والشعيرة ست خرادل او مساحة ست شعرات من شعر بغل عرضاً

وفي هذه السنة ظهر صاحب الزنج وهو علي بن محمد من ولد عبد القيس وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ في جهة البصره وادعى انهُ علي بن احمد بن عيسى من ولد علي واستفحل امره وبث اتباعهُ للاغارة والنهب الى كل ناحية

و(في سنة ٢٥٦) خلع المهتدي انصاف رجب وتوفي لاثنتي عشرة بقين منهُ وكان السبب انهُ اراد قتل موسى بن بغا لقتلهِ صالح بن وصيف وكان موسى معسكرًا قبالة بعض الخوارج وكتب الى بايكبال من مقدمي الاتراك بان يقتلهُ ويأخذ موضعهُ وكانت النتيجة اتفاق الاثنين عليهِ فسار الى سامرا ودخل بايكبال على المهتدي فحبسهُ المهتدي وقتلهُ · وركب لقتال موسى فخان الاتراك الذين معهُ وتوجهوا مع اتراك موسى فهرب وانتهى الامر بخلعهِ وقتلهِ وكانت خلافتهُ اقل من سنة وعمرهُ ٣٨ سنة وكان اسمر عظيم البطن قصيرًا طويل اللحية ورعًا كثير العبادة

في خلافة المعتمد وهو الخامس عشر (من سنة ٢٥٦ـ٨٦٩ الى ٢٧٩ـ٨٩٢)

ولما فشا خلع المهتدي وموتهُ اتوا بابي العباس احمد بن المتوكل من سجن وبايعوا لهُ بالخلافة ولقب المعتمد على الله واتخذ لهُ وزيرًا عبد الله بن يحيى بن خاقان

وفيها ملك صاحب الزنج ابلة عنوة واحرقها وقتل فيها خلقًا كثيرًا ثم استولى على عبادان فالاهواز بالسيف وفيها عزل عيسى بن الشيخ عن الشام قهرًا وعقد لهُ علي ارمينية وولي اماجور الشام وكان بعد ان توجه مفلح الى بغداد و(سنة ٢٥٨) اشتدت شوكة مساور واستولى على البلاد فاوقع بهِ مسرور البلخي (سنة ٢٥٨) وجهز عليهِ جعلان احد قواد الاتراك و(سنة ٢٥٧) اخذ الزنج البصرة واخربوها وقتلوا من وجدوه وملك يعقوب الصفار بلخ ثم مضى الى كابل فاستولى عليها وارسل هدايا الى الخليفة وفيها اصنام من تلك البلاد

وفيها اخذ الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان جرجان وقتل خفاجة امير صقليه واستخلف ابن اغلب عوضهُ احمد بن يعقوب · وفيها وثب على ملك الروم ميخائيل احد اقربائهِ وقتلهُ بعد ملك اربع وعشرين سنة وملك مكانهُ

و(سنة ٢٥٨) جهزا لمعتمد اخاه ابا احمد الموفق على الزنج · و(سنة ٢٥٩) استولى الصفار على نيسابور وخرجت عساكر الروم فنازلوا سمياط ثم ملطيه وقاتلهم اهلها فانهزموا وقتل احد بطارقتهم

وفيها توفي محمد بن موسى بن شاكر احد الاخوة الثلثة الذين ينسب اليهم حيل بني موسى المشهورين واسم اخويهِ احمد والحسين وكان لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكان الغالب عليهم الحيل

والموسيقى وهم الذين حققوا بامر المامون قياس دور الارض ومقدار الدرجة كما سياتي

والمعتمد (سنة ٢٦١) عهد بالخلافة لابنهِ جعفر ولقبهُ المفوض الى الله وولى اخاهُ ابا احمد العهد بعد جعفر ولقبهُ الموفق بالله ثم قتل مساور يحيي بن جعفر من ولاة خراسان وسار مسرور بطلبهِ وتبعهُ الموفق فلم يدركاه

وفيها ابتدا امر الساماني وهو نصر بن احمد بن اسد بن سامان اخذه بن جثمان بن طغاث بن بهرام جوبين وهو بهرام جوبين المذكور في اخبار كسرى برويز

فاسد بن سامان كان لهُ اربعة بنين · نوح · واحمد · ويحيى · والياس · وكانوا حين تولى المامون في خراسان فقربهم واكرمهم واستعملهم ولما رجع الى العراق استخلف على خراسان غسان بن عباد فولى غسان احمد على فرغانه (سنة ٢٠٤–٨١٩) · ويحيى على الشاس واسرشنة · والياس على هراة · ونوحًا على سمرقند وعند تولي طاهر بن حسين علي خراسان اقرهم في اماكنهم ثم مات نوح ثم الياس بهراة وبقي مكانهُ ابنهُ محمد بن الياس

وكان لاحمد سبعة بنين · نصر · ويعقوب · ويحيى · واسد · واسمعيل · واسحق · وحميد ثم مات احمد المذكور فاستخلف ابنهُ نصر على اعمالهِ وكان اسمعيل في خدمة اخيهِ نصر المذكور فولاهُ نصر بخارى في السنة المذكورة (اي سنة ٢٦١) ثم سعت الوشاة بين الاخوين حتى اقتتلا (سنة ٢٧٥) وظفر اسمعيل باخيهِ ولما حمل اليهِ ترجل لهُ اسمعيل وقبل يديهِ وردهُ الى موضعهِ وبقي اسمعيل ببخارى وكان خيرًا يحب العلماء ويكرمهم فدام ملكهُ وملك اولادهِ وطالت ايامهم

وفيها توفي محمد الاغلبي بعد ولاية عشر سنين وكسر وولى اخوهُ ابرهيم ثم سار ابرهيم الى صقلية وفتح فتوحات عظيمة كما تقدم وتوفي في الذرب (سنة ٢٨٩–٩٠١) بصقلية وجعل في تابوت وحمل الى افريقية ودفن بالقيروان وكانت ولايتهُ خمسًا وعشرين سنة

و(سنة ٢٦٢) خرج صاحب الزنج الى جهة بطائح واسط وقتل وسبى واحرق و(سنة ٢٦٣) تولى الصفار علي الاهواز

لما سار احمد بن موسى بن بغا الى الجزيرة وولى موسى بن اتامش على ديار ربيعة فارق اسحق بن كنداج عسكره واوقع بالاكراد اليعقوبية وانتهب اموالهم ثم لقي ابن مساور الخارجي (سنة ٢٦٤) فقتلهُ وسار الى الموصل فقاطع اهلها على مال وكان عليهم علي بن داود قائدًا فدفعهُ وسار ابن كنداج اليهِ فخرج علي بن داود واجتمع حمدان بن حمدون التغلبي واسحق بن عمر بن ايوب التغلبي العدوي فكانوا خمسة عشر ثم جاءهم علي بن داود فلقيهم ابن كنداج في ثلثة الاف فهزمهم بدسيسة من اهل ميسرتهم وسار حمدان وعلي بن داود الى نيسابور وابن ايوب الى نصيبين وابن كنداج في

اثره فسار عنها واستغاث بعيسى ابن الشيخ الشيباني وهو بآمد وبابي العز موسى بن زرارة وهو عامل اردن فانجداهُ وبعث المعتمد الى اسحق بن كنداج بولاية الموصل فدخلها فارسل اليهِ ابن الشيخ وابن زرارة مئة الف دينار على ان يقرها على اعمالها فامتنع فاجتمعوا على حربهِ فرجع الى اجابة طلبهم ثم حاربوهُ (سنة ٢٦٧) واجتمع لحربهِ اسحق بن ايوب وعيسى بن الشيخ وابن حمدان في ربيعة وتغلب وبكر واليمن فهزمهم بن كنداج الى نصيبين ثم الى آمد

وبعد قتل بن مساور كما تقدم اراد اصحابهُ ولاية محمد بن حرداد بشهرزوز فامتنع وبايعوا ايوب بن حيان المعروف بالغلام فقتل فبايعوا هرون بن عبد الله البجلي وكثر اتباعهُ واستولى على الموصل وخرج عليهِ من اصحابهِ محمد بن حرداد وكان كثير العبادة والزهد يجلس على الارض ويلبس الصوف الخشن ويركب البقر لئلا يفرّ في الحرب فنزل واسطوقدم اليهِ وجوه اهل الموصل وهرون غائب في الاحشاد فبادر اليهِ واقتتلا فانهزم هرون وقصد بني تغلب مستنجدًا فانجدوه وسار معهُ حمدان بن حمدون ودخل معهُ الموصل ثم استمال هرون جماعة ابن حرداد ولم يبقَ معهُ الا قليل من الاكراد ثم خرج واوقع بابن حرداد فقتلهُ واوقع بالاكراد الجلالية وكثر اتباعهُ وتغلب على القرى والرساتيق وجعل على دجلة من ياخذ الزكوة من الاموال المصعدة والمنحدرة ووضع في الرساتيق من يقبض اعشار الغلات واستقام امرهُ . ثم جاء بنو ساسان لقتالهِ (سنة ٢٧٦) واستنجد بحمدان بن حمدون فجاءهُ بنفسهِ الى نهر الخازن وانهزمت طليعتهم وانهزموا لانهزامها وجاء بنو شيبان الى قسوى فهرب اهلها واقام هرون واصحابهُ بالحديثة

وخرج (سنة ٢٦٤) خارجي مجهول في الصين وعظم امرهُ فقصد مدينة خانتقو وحصرها ولها نهر عظيم وبها عالم جزيل من النصارى والمسلمين واليهود والمجوس وغيرهم وفتحها عنوةً وقتل بها خلقًا كثيرًا واستولى على بلدان واسعة من الصين ثم عدم وتفرقت اصحابهُ فلم يعلم عنهُ شيء بعد ذلك . وفيها انتهى عمار رقاده التي بناها ابرهيم بن الاغلب وانتقل اليها وسكنها

ودخل (سنة ٢٦٥) الزنج النعمانية وسبوا واحرقوا ثم توجهوا الى جرجرايا ودخل اهل السواد بغداد وفيها مات يعقوب بن ليث الصفار بجندي سابور من الاهواز وكان المعتمد ارسل اليهِ رسولاً يستميلهُ وهو مريض فاستاذن بالدخول اليهِ فقدم وكان عند يعقوب سيف ورغيف من الخشكار وبصل فقال للرسول قل للخليفة ان مت فقد استراح مني واسترحت منهُ وان عوفيت فليس بيني وبينهُ الاَّ هذا السيف فان كسرني وافقرني عدت الى اكل هذا الخبز والبصل . وكان يعقوب قد فتح الرخج وقتل ملكها واسلم اهلها عن يدهِ وكان ملك الرخج يجلس على سرير من ذهب ويدعي الربوبية ويعقوب كان عاقلاً حازمًا وكان يعمل الصفر في زمانهِ فقيل لهُ الصفار لذلك وصحب

في زمانهِ رجلاً من اهل سجستان كان مشهورًا بالتطوع في قتال الخوارج يقال لهُ صالح بن النضر الكناني ثم هلك صالح المذكور فتولى مكانهُ درهم بن الحسين فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان درهم غير ضابط لامور العسكر فلما راى اصحاب درهم ضعفهُ وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث وملكوهُ امرهم ودرهم لم ينازعهُ بذلك فاستبد يعقوب وقويت شوكتهُ ولما مات يعقوب قام بالامر بعدهُ اخوهُ عمرو بن الليث وكتب الى الخليفة بطاعتهِ فولاهُ الموفق خراسان واصفهان وسجستان والسند وكرمان وسير اليهِ الخلع مع الولاية

و(سنة ٢٦٦)صار الناس في ضنكٍ عظيم تحت حكم الخليفة بسبب تغلب الاجناد والقواد على الامر وقلة خوفهم من القصاص لاشتغال الموفق بقتال الزنج وعجز المعتمد عن ذلك واشتدت الحرب بين الموفق والزنج وانكشفوا عن الاهواز(سنة ٢٦٧) واستولى عليها الموفق وسار الى مدينة صاحب الزنج وحصرها فخرج اليهِ اكثر اهلها بالامان وضعف الباقون فسلموها وكانت محصنة جدًا واسمها المختاره و. (سنة ٢٦٨)خامر لوءلوءغلام احمد بن طولون على سيدهِ وكان في يدهِ حلب وحمص وقنسرين وديار مضر من الجزيرة وكاتب الموفق في المسير اليهِ ثم سار اليهِ و(في سنة ٢٧٠)قتل صاحب الزنج وتفرقت شيعتهُ وكان خروجهُ(٢٦ رمضان سنة ٢٥٥) وقتلهُ يوم السبت في اثنين صفر (سنة ٢٧٠)وكانت المدة اربع عشرة سنة

الصوائف

وفي (سنة ٢٦٣) استولى الروم على قلعة الصقالبة وكانت ثغرًا لطرسوس وتدعى قلعة كركرة فرد المعتمد ولاية ثغر طرسوس لابن طولون وكان احمد بن طولون قد خطب ولايتها من الموفق يريد ان يجعلها ركابًا لجهادهِ لخبرتهِ باحوالها وكان يردد الغزو من هناك الى بلاد الروم قبل ولاية مصر فلم يجبهُ الموفق الى طلبهِ وولى عليها محمد بن هرون الثعلبي واعترضهُ السراة اصحاب مساور وهو مسافر في دجلة فقتلوهُ فولي مكانهُ اماجور بن اولغ بن طرخان من الترك وكان غرًا جاهلاً فسار اليها واساء السيرة ومنع اقران اهل كركرة ميرتهم وكتبوا الى اهل طرسوس يشكون فجمعوا لهم خمسة عشر الف دينار فاخذها اماجور لنفسهِ وابطا على اهل القلعة شانها فنزلوا عنها واعطوها الروم وكثر اسف اهل طرسوس لذلك لانها كانت ثغرهم وعينًا لهم على العدو فبلغ الامر المعتمد فكتب لاحمد بن طولون بولايتها وفوض اليهِ امر الثغور فوليها وولى فيها من يحفظ الثغور ويقيم الغزو وقارن ذلك وفاة اماجور عامل دمشق وصار ابن طولون من مصر الى دمشق ثم الى حمص ثم الى حماة ثم حلب فملكها جميعًا ثم سار الى انطاكية ودعا اميرها سيما الطويل الى الطاعة

فابي محاصرهُ وفتح البلد وقتل سيما وملك قنسرين والرقه ومضى الى طرسوس بنية الاقامة بها للجهاد فارتفعت الاسعار وغلا القوت فعاد الى الشام. وامر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر فلعن ببغداد وسائر العراق ولعن ابن طولون المعتمد ايضًا على جميع منابر مصر ونحوها وكل ذلك كان ظاهرًا وضد ارادة المعتمد لان المعتمد كان يميل الى ابن طولون ويخاف الموفق حتى انهُ كان قد قصد اللحوق بابن طولون بمصر ليُنجدهُ على الموفق وسار عن بغداد في غياب اخيهِ الموفق في حرب الزنج فامسك عامل الموصل القواد الذين كانوا معهُ وارجعهُ الى بغداد. وملك ابن طولون الشام جميعها و(في سنة ٢٦٤) غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاوس في اربعة الاف فارس وقيل في اربعين الفًا من اهل الثغور الشامية فاثخن وغنم ورجع ولما رحل عن البدندون خرج عليهِ بطريق سلوقية وقره كوكب وجرسية واحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون واستلحمهم الروم بالقتل ونجا فلّهم الى الثغر واسر عبد الله بن كاوس وحمل الى القسطنطينية وخرج (سنة ٢٦٥) خمسة من بطارقة الروم الى اذنه فقتلوا واسروا والي الثغور اوخرد فعزل عنها واقام مرابطًا وبعث ملك الروم بعبد الله بن كاوس ومن معهُ من الاسرى الى احمد بن طولون واهدى اليهِ عدة مصاحف ولقي (سنة ٢٦٦) اسطول المسلمين اسطول الروم عند صقليه فظفر الروم بهم ولحق من سلم منهم بصقليه وفيها خرج الروم على ديار ربيعة واستنفر الناس وفروا ولم يطيقوا دخول الدرب لشدة البرد فيها وغزا عامل ابن طولون في ثلاثمائة من اهل طرسوس واعترضهم اربعة الاف من الروم من بلاد هرقل فنال المسلمون منهم اعظم النيل. وخرج (سنة ٢٦٨) ملك الروم وفيها غزا بالصائفة خلف الفرغاني عامل ابن طولون فاثخن ورجع وزحف الروم (سنة ٢٧٠) في مائة الف ونزلوا قلمية على ستة اميال من طرسوس فخرج اليهم بازيار فهزمهم وقتل منهم كثيرًا وجماعة من البطارقة ومقدمهم وغنم منهم سبعة صلبان من الذهب والفضة وكان اعظمها مكللاً بالجواهر وغنم خمسة عشر الف دابة ومن السروج والسيوف مثل ذلك واربع كراسي من ذهب ومائتين من فضة وعشرين علمًا من الديباج وآنية كثيرة

وفيها توفي احمد بن طولون وكانت امارتهُ نحو ستٍ وعشرين سنة وكان حازمًا عاقلاً وهو الذي اقام قلعة يافا وبنى بين مصر والقاهرة الجامع المعروف باسمهِ وترك سبعة عشر ابنًا احدهم خمارويه وسبع عشرة بنتًا وترك اموالاً كثيرة ومماليك عديدة وكان كثير الصدقات وولي عوضهُ ابنهُ خمارويه وقام بتدبير الملك احسن قيام و(سنة ٢٧١) صار قتال بين خمارويه والمعتضد بن الموفق وانهزم ابن الموفق وكان ذلك بين دمشق والرملة

فصل

في الربع الرابع من القرن الثالث

وتوفي الموفق بالله في شهر صفر (سنة ٢٧٨) من داء الفيل وعلى يديهِ جرت اكثر الحروب مع الزنج وباقي الخوارج ولما مات اجتمع القواد وبايعوا ابنهُ ابا العباس بولاية العهد بعد المفوض ولقب المعتضد بالله

وفيها تحرك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطه وكان الذي دعاهم الى مذهبهِ رجل قد مرض بقرية من سواد الكوفة فاخذهُ رجل من اهل القرية اسمهُ (كرميته) ومعناه باللغة النبطية احمر العين ولما تعافى مريضهُ دعي باسمهِ ثم اختصر الى قرمط ثم دعا قرمط قوماً من السواد والبادية ممن لا يدينون بشيء الى دينهِ فاجابوه اليهِ والمعروف من مذهبهم ومعلمهم انهُ جاء بكتاب فيهِ « باسم الله الرحمن الرحيم » يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانه انهُ داعية المسيح وهو عيسى والكلمة والمهدي واحمد بن محمد بن الحنفية وجبريل . وان المسيح تصور بجسم انسان وقال لهُ انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيى بن زكريا وانك الروح القدس وعرفهُ ان الصلوة اربع ركعات ثنتان قبل طلوع الشمس وثنتان قبل الغروب وان الاذان في كل صلاة ان يقول الموذن الله اكبر ثلاث مرار . . اشهد ان لا اله الا الله مرتين . اشهد ان ادم رسول الله اشهد ان نوحًا رسول الله واشهد ان ابرهيم رسول الله واشهد ان عيسى رسول الله واشهد ان محمدًا رسول الله واشهد ان احمد بن محمد ابن الحنفية رسول الله كل ذلك مرة وان القبلة الى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شي ويقرا في كل ركعة الاستفتاح المنزل على احمد بن محمد بن الحنفية وهو الحمد لله بكلمتهِ وتعالى باسمهِ المنجد لاوليائهِ باوليائهِ قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والايام و باطنها لاوليائي الذين عرفوا من عبادي سبيلي . واتقوني يا اولي الالباب انا الذي لا اسال عما افعل وانا العليم الحكيم انا الذي ابلو عبادي وامتحن خلقي فمن صبر على بلائي ومحبتي واختباري ادخلتهُ في جنتي واخلدتهُ في نعيمي ومن زال عن امري وكذب رسلي اخلدتهُ مهانًا في عذابي واتممت اجلي واظهرت امري على السنة رسلي انا الذي لم يعلُ جبار الا وضعتهُ ولا عزيز الا اذللتهُ وبئس الذي اصر على امرهِ ودام على جهالتهِ وقال لن نبرح عليهِ عاكفين وبهِ موقنين اولئك هم الكافرون » ثم يركع ومن شرائعهِ ان يصام يومان في السنة المهرجان والنيروز وحرم النبيذ وحلل الخمر ومنع اكل ذي ناب وذي مخلب وقال لا غسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلوة وقيل غير ذلك وسنذكره فيما بعد

و(سنة ٢٧٩) خلع المعتمد ولدهُ جعفر المفوض لامر الله من ولاية العهد وجعل المعتضد بن الموفق ولي عهده وتوفي المعتمد لاحد عشر بقي من رجب ببغداد وكان الامر في كل شيء لاخيهِ الموفق وكان الموفق يضيق عليهِ حتى في مصروفهِ فلم يكن يملك شيئًا وهو الذي قال

اليس من العجائب ان مثلي يرى ما قل ممتنعًا عليهِ
وتوخذ باسمهِ الدنيا جميعًا وما من ذاك شيءٌ في يديهِ

في خلافة ابي العباس احمد المعتضد وهو السادس عشر (من سنة ٢٧٩ ـ ٨٩٢ الى سنة ٢٨٩ ـ ٩٠١)

بويع ابو العباس احمد بن الموفق صبيحة مات المعتمد ولقب المعتضد بالله وبوقتهِ توفي نصر بن احمد الساماني وقام اخوهُ اسمعيل بما كان اليهِ ما وراء النهر . وقدم ابن الجصاص بهدايا عظيمة للمعتضد من خمارويه بسبب تزوج المعتضد ابنتهُ و(سنة ٢٨١ ـ ٨٩٤) خرج المعتضد الى الموصل قاصدًا الاعراب والاكراد واوقع بهم وغرق منهم كثير في الراب واخذ القلعة وهدمها ونقل ما فيها الى بغداد وكانت لابن حمدان ثم ظفر بابن حمدان بعد رجوعهِ الى بغداد وفيها دخل طغج بن جف عامل دمشق من طرسوس الى بلاد الروم من قبل خمارويه ونهب وسبا و(سنة ٢٨٢ ـ ٨٩٥) قتل خمارويه على فراشهِ قتلهُ جماعة من الخدم وبويع ولدهُ جيش ثم خلع طغج بن جف جيش بن خمارويه لانهُ كان صبيًا واختلف جندهُ عليهِ لذلك ولتقريبهِ الاراذل وثاروا بهِ وقتلوهُ ونهبوا دارهُ ونهبوا مصر واحرقوها واجلسوا اخاه هرون والتزم ان يحمل من مصر الى المعتضد كل سنة الف الف دينار وخمساية الف دينار وكانت ولاية جيش تسعة اشهر و(سنة ٢٨٣ ـ ٨٩٦) سارت الصقالبة الى الروم وحاصروا بزنطية وقتلوا من اهلها خلقًا كثيرًا وخربوا البلاد ولما لم يجد ملك الروم منهم خلاصًا جمع من عندهُ من اسرى المسلمين وسلحهم وسالهم معونتهُ على الصقالبة ففعلوا وهزموهم واراحوا القسطنطينية واذ راى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسهِ فاخذ سلاحهم وفرقهم في البلاد وفيها كان الفدا بين المسلمين والروم وكان جملة من فودي من المسلمين رجالاً ونساء وصبيانًا الفين وخمسمائة واربعة انفس

و(سنة ٢٨٤) قال المنجمون بغرق اكثر الاقاليم الا اقليم بابل فانهُ يسلم منهُ اليسير وان ذلك يكون عن غزارة الامطار وزيادة المياه والانهار والعيون واتفق انهُ صار العكس وغارت المياه حتى استسقى الناس ببغداد مرارًا وكان من ذلك قحط عظيم

و(سنة ٢٨٥) اختل حال هارون بن خمارويه بمصر واختلف القواد عليهِ وانحل نظام ملكهِ وكان على دمشق من جهتهِ طغج بن جف وفيها بنى المعتضد سورًا على البصرة من تعدي ابي سعيد

القرمطي وصرف عليه اربعة عشر الف دينار وقوي امر القرمطي وهو ابو سعيد الجنابي (سنة ٢٨٦) بالبحرين وعظم جمعه وقتل جماعة وسبى بالقطيف والقرى . و (سنة ٢٨٧) استولى اسمعيل بن احمد الساماني صاحب ما وراء النهر على خراسان بعد قتال واسر اميرها عمرو بن ليث الصفار وارسله الى المعتضد فحبسه ثم قتل (سنة ٢٨٩) قالوا انه عندما أُخذ عمرو وأُرسل الى الخليفة قال له اخبرني هل تزعمون ان روح الله يحل في اجسادكم فقال له الرجل يا هذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك فلا تسال عما لا يعنيك وسل عما خصك فقال ماذا تقول فيما خصني . قال ان النبي مات وابو بكر حي فهل طلب الخلافة او بايعه احد من الصحابة على ذلك ثم مات ابو بكر واستخلف عمر وكان يرى موضع العباس ولم يوصِ اليهِ ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة انفس ولم يوصِ الى العباس ولا ادخله فيهم فبماذا تستحقون الخلافة وقد اتفق الصحابة على اخراج جدك منها . فامر بهِ المعتضد فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يداهُ ثم رجلاهُ ثم قتل

وفيها او في التي قبلها سار محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان الى خراسان لما بلغه اسر الصفار ليستولي عليها فجرى بينه وبين اسمعيل الساماني قتال شديد انهزم فيهِ عسكر العلوي وجرح وأُسر ولدهُ زيد واتى بهِ الى اسمعيل فاكرمه ووسع عليهِ . وكان محمد بن زيد اديبًا فاضلاً شاعرًا حسن السيرة ثم خلفه الناصر للحق الحسن بن علي المعروف بالاطروش (وسنة ٢٨٩) كان حرب بين القرامطة وطغج بن جف امير دمشق

ومن الحوادث التاريخية في عهد المعتضد مقتل رافع بن الليث فانه كان وضع يده على قرى السلطان بالري وكتب اليهِ المعتضد برفع يدهِ فلم يفعل فكاتب الخليفة احمد بن عبد العزيز بن ابي دلف فحاربه واخرجه عن الري فسار رافع الى جرجان ودخل نيسابور (سنة ٢٨٣) فوقع بينه وبين عمرو بن الليث حرب وانهزم رافع وخلص عمرو ابني اخيهِ وهما العدل والليث ابنا علي بن الليث من يد رافع ثم سار رافع الى هراة ورصدهُ عمرو بسرخس فشعر رافع بهِ فرجع الى نيسابور في مسالك صعبة وطرق ضيقة واتبعه عمرو وحاصرهُ في نيسابور ثم تلاقيا وترك رافع بعض قوادهِ الى عمرو فانهزم رافع وارسل اخاهُ محمد بن هرثمة الى محمد بن زيد يستمده فلم يفعل وقد تركه اكثر اصحابهِ فلحق رافع بخوارزم في فل من العسكر ومعه بقية اموالهِ فغدر بهِ ابو سعيد الدرغاني وقتله وحمل راسه الى عمرو بن الليث (سنة ٢٨٣)

ومنها انه خرج (سنة ٢٨٠) محمد بن عبادة ويعرف بابي جوزة من بني زهير من البقعاء وكان فقيرًا ويظهر الزهد فجمع الجموع وحكم واستجمع اليهِ الاعراب من تلك النواحي وقبض الزكوات والاعشار وبنى عند سنجار حصنًا وانزل بهِ ابنه ابا هلال في مئة وخمسين رجلاً . فجمع هرون الشاري

الذي كان تغلب بعد مساور على خوارج الموصل من الشراة وبدا بحصار الحصن واحاط به . وكان محمد بن عبادة المذكور غائبًا وفتح الحصن وقيد ابا هلال وثترًا معه . ثم ساروا الى محمد فالتقيهم وهزمهم اولا ثم تشددوا وهجموا عليه فهزموهُ وقتلوا من اصحابه الفًا واربع مئة فلحق محمد بآمد فحاربه صاحبها احمد بن عيسى بن الشيخ فظفر به وبعثهُ الى المعتضد فسلخهُ حيًا « والشراة جمع شار اي الخوارج وسموا كذلك لانهم يقولون انهم شروا انفسهم لله بالجنة او باعوها لاجل الجنة »

ومنها ايقاع المعتضد ببني شيبان واخذه ماردين وذلك انهُ بلغ المعتضد ان احمد بن حمدون كان ممالئًا لهرون الشاري وداخلاً في دعوته . فسار المعتضد اليه (سنة ٢٨١) واجتمع الاعراب من بني ثعلب وغيرهم للقائه فقتل منهم وغرق في الزاب كثيرًا وسار الى الموصل ثم بلغهُ ان احمد هرب عن ماردين وخلف بها ابنه فسار المعتضد اليه وقاتله يومًا ثم صعد من الغد الى باب القلعة وصاح بابن حمدان واستفتح الباب ففتح له دهشًا فامر بنقل ما في القلعة وهدمها وبعث في طلب حمدان واخذ امواله

ومنها عقد المعتضد (سنة ٢٨١) لابنه علي وهو المكتفي على الري وقزوين وزنجان وابهر وقم وهمذان والدينور

ومنها هزيمة هرون الشاري ومهلكه وذلك عند ما كثر عبث الخوارج واخذوا يقاومون عمال الخليفة في كل جهة تجرد لهرون الشاري حسين بن حمدون (سنة ٢٨٣) على انهُ ان جاء به اطلق له المعتضد ابنهُ حمدان وبعد مداورات كثيرة قبض عليه واتى به الى المعتضد اخر ربيع اول فخلع على الحسين واخوته وطوقه وادخل هرون على الفيل وهو ينادي لا حكم الا لله ولو كره المشركون وكان هرون صغديًا وامر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدون والاحسان اليه واطلاقه

والمعتضد كان دائمًا في حركة وركوب على عمال النواحي ليودب ثوراتهم وعصاتهم وللمصادرة من كان منهم قد اثرى بمال المملكة . مثل عمر بن عبد العزيز بن ابي دلف وبكر اخيه واحمد بن عيسى بن الشيخ ونحوهم واخذ آمد من ابن الشيخ وسار الى الرقة وتسلم قنسرين والعواصم من يد عمال هرون بن خمارويه لانهُ كان كتب اليه ان يقاطعهُ على الشام ومصر ويسلم اليه اعمال قنسرين وانهُ يحمل اليه اربع مئة وخمسين الف دينار فتوجه واستلم البلاد وعقد لابنه علي ولقبهُ بالمكتفي واقامهُ على الجزيرة وقنسرين والعواصم (سنة ٢٨٦) واستكتب له الحسن بن عمر النصراني

واستقدم راغبًا مولى الموفق من طرسوس وحبسهُ وغلامهُ واستصفى اموالها ومات راغب لايام في حبسه وكان قد استبد بطرسوس

الصوائف

وكان (سنة ٢٨٥) قد غزا راغب المذكور بالصائفة من طرسوس بحرًا فغنم مراكب الروم وقتل نحو ثلثة الاف واحرقها · وخرج الروم (سنة ٢٨٧) ونازلوا طرسوس فقاتلهم اميرها واتبعهم الى نهر الرحال فاسروهُ · و بعث الحسن بن علي كوره صاحب الثغور بالصائفة فغزا وفتح حصونًا وعاد بالاسرى فخرج الروم في اثره برًّا و بحرًا الى كيسوم من نواحي حلب فاسروا نحو خمسة عشر الفًا

(سنة ٢٨٨)

وفيها توفي المعتضد لثماني بقين من ربيع الاخر ودفن ليلاً في دار محمد بن طاهر وكان مولده سنة ٢٤٢ وخلافتهُ تحت العشر سنين وترك بنين عليًا وجعفرًا وهرون واحدى عشرة بنتًا وكان شهمًا مهيبًا عند اصحابهِ يتقون سطوتهُ ويكفون عن المظالم خوفًا من باسهِ الا انهُ كان شحيحًا ولهُ شعرٌ منهُ ما قال عند موتهِ

ولا تامنن الدهر اني امنتهُ فلم يبقِ لي خلاً ولم يرعَ لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم ادع عدوًّا ولم امهل على طغيهِ خلقا
واخليت دار الملك من كل نازعٍ فشردتهم غربًا ومزقتهم شرقا
ولما بلغت النجم عزًّا ورفعة وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
رماني الردى سهمًا فاخمد جمرتي فها انا ذا في حفرتي عاجلاً القى

وفي ايام المعتضد علت منزلة بنو موسى بن شاكر وهم ثلثة محمد واحمد والحسن وكان موسى صاحب المامون ولم يكن من اهل العلم بل كان في حداثتهِ حراميًا يقطع الطرق ثم تاب ومات وخلف الاولاد الثلثة المذكورين صغارًا فوصى بهم المامون اسحق بن ابرهيم المصعبي واثبتهم مع يحيي بن ابي منصور في بيت الحكمة وكانت حالهم رثة على ان ارزاق اصحاب المامون كلهم كانت قليلة فخرج بنو موسى نهاية في علومهم وكان اكبرهم واجلهم ابو جعفر محمد وكان وافر الحظ من الهندسة والنجوم ثم خدم وصار من وجوه القواد الى ان غلب الاتراك على الدولة وكان احمد دونهُ في العلم الا صناعة الحيل فانهُ فتح لهُ فيها ما لم يفتح مثله لاحد وكان الحسن وهو الثالث منفردًا بالهندسة ولهُ طبع عجيب فيها لا يدانيه احد فانهُ علم كل ما علم بطبعهِ ولم يقرا من كتب الهندسة الا ست مقالات من كتاب اوقليدس في الاصول فقط وهي اقل من نصف الكتاب ولكن ذكرهُ كان عجيبًا وتخيلهُ قويًا وحكي ان المروزي قال عنهُ يومًا للمامون انهُ لم يقرا من كتاب اوقليدس الا ست مقالات مريدًا بذلك تحقيرهُ . فقال الحسن يا امير المومنين لم يكن يسالني عن شكل من اشكال المقالات التي لم اقراها الا استخرجتهُ بفكري واتيتهُ بهِ ولم يكن يضرني انني لم اقراها ولا تنفعهُ قراتهُ لها اذ كان

من الضعف فيها بحيث لم تغنو قراته في اصغر مسئلة من الهندسة فانه لا يحسن ان يستخرجها فقال له المامون ما ادفع قولك ولكن ما اعذرك ومحلك من الهندسة محل ان يبلغ بك الكسل أن لا نقرا كلمة وهو للهندسة كحرف ا ب ت ث للكلام والكتابة

وفي دار محمد بن موسي تعلم ثابت بن قره بن مروان الصابي الحراني نزيل بغداد فوجب على محمد حقه فوصله بالمعتضد وادخله في جملة المنجمين . وبلغ ثابت هذا مع المعتضد اجل المراتب واعلى المنازل حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلا ويضاحكه و يقبل عليه دون وزرائه وله مصنفات كثيرة في التعليمات الرياضية والطب والمنطق وله تصانيف بالسريانية فيما يتعلق بمذهب الصابئه في الرسوم والفروض والسنن وتكفين الموتى ودفنهم وفي الطهارة والنجاسة وما يصلح من الحيوان للضحاية وما لا يصلح وفي اوقات العبادات وترتيب القراءة في الصلوة والمترجم من مذهب الصابئة ان دعوتهم هي دعوة الكلدانيين القدماء بعينها وقبلتهم القطب الشمالي ولزموا فضائل النفس الاربع والمفترض عليهم ثلث صلوات اولها قبيل طلوع الشمس بنصف ساعة او اقل لتنقضي مع الطلوع ثماني ركعات في كل ركعة ثلث سجدات . والثانية انقضاوها مع نصف النهار والزوال خمس ركعات في كل ركعة ثلث سجدات . والثالثة كالثانية تنتقض مع الغروب . والصيام المفروض عليهم ثلثون يومًا اولها الثامن من اجتماع اذار . وتسعة ايام اولها التاسع من اجتماع كانون الاول . وسبعة ايام اولها ثامن شباط ويدعون الكواكب وقرابينهم عديدة لا ياكلون منها بل يحرقونها ولا ياكلون الباقلي والثوم وبعضهم اللوبيا والقنبيط والكرنب والعدس . واقوالهم قريبة من اقوال الحكماء ومقالاتهم في التوحيد على غاية الاتقان ويزعمون ان نفس الفاسق تعذب تسعة الاف دور ثم تصير الى رحمة الله تعالى وكان في دولة المعتضد احمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي احد فلاسفة الاسلام وله تآليف جليلة في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب وكان حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف وكان اولاً معلمًا للمعتضد ثم نادمه وخصه وكان يفضي اليه باسراره كلها ويستشيره في امور مملكته وكان الغالب على احمد هذا علمه لا عقله واتفق ان افضى اليه المعتضد بسر فاذاعه فامر بقتله

في خلافة المكتفي وهو السابع عشر (من سنة ٢٨٩ ـ ٩٠١ الى سنة ٢٩٥ ـ ٩٠٧)

وبعد المعتضد اخذت البيعة لولده محمد وكان وقتئذٍ بالرقة فسار الى بغداد ولقب المكتفي بالله وتوفي وقتئذٍ ابرهيم بن احمد الاغلبي صاحب افريقية وخلفه ولده عبد الله الذي قتل (سنة ٢٩٠) وظهر رجل في الشام من القرامطة وجمع جموعًا من الاعراب وبها طغج بن جف من طرف هرون بن

خمارويه بن احمد بن طولون وصارت بينهم معارك وقتل مقدم القرامطة المعروف بالشيخ يحيى وخلفهُ اخوهُ الحسين وسمي احمد · وكانت آيتهُ انهُ اظهر شامة في وجههِ وكثر جمعهُ وصالحهُ اهل دمشق على مال فانصرف الى حمص وملكها وخطب لهُ على منابرها باسم المهدي امير المومنين · وعهد الى ابن عمهِ عبد الله ولقبهُ بالمدثر اشارة الى المدثر المذكور في القرآن · ثم ذهب الى حماة والمعرة وغيرها فقتل اهلها حتى النساء والاطفال · ثم قام الى سلمية فاخذها بالامان ثم ذبح اهلها حتى اولاد الكتب

ولما اشتد امر صاحب الشامة المذكور نهض المكتفي من بغداد ودخل الرقة وارسل اليهِ الجيوش وتلاقت عساكرها على اثنى عشر ميلاً من حماة (سنة ٢٩١ - ٩٠٣) فهرب صاحب الشامة ومعهُ ابن عمهِ المدثر وغلام لهُ رومي فقبض عليهم في البرية واخذوهم الى الخليفة فسار بهم الى بغداد وقتلوا هناك وطوّف براس صاحب الشامة ويقال ان موضع الموقعة كان قرية (يمنع) من المعرة على طريق حماة الى حلب

وفي السنة هذه خرج الترك في عدد لا يحصى الى ما وراء النهر وكان فيهم سبعمائة خركاه أي سرادق امير فالتقى بهم عساكر المسلمين وظفروا بهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وهزموا الباقين وخرج الروم كذلك الى الثغور بعشر رايات صليب عبارة عن مئة الف فاغاروا واحرقوا وسبوا

وفي سنة ٢٩٢ - ٩٠٤) ركب المكتفي على هرون بن خمارويه برًّا وبحرًا وحاصرهُ بمصر وانتهت الحرب بقتل هرون وانقضى امر بني طولون ودولتهم واستولى محمد بن سليمان على مصر وقبض على بني طولون وكانوا بضع عشر رجلاً واستصفى مالهم وارسلوا مقيدين الى بغداد قال ابن خلدون «ولي خاقان المفلحي على الري ثم اسمعيل بن احمد بن سامان وعيسى النوشري على مصر بعد انتزاعها من بني طولون وابو العشائر احمد بن نصر على طرسوس (سنة ٢٩٠) ثم عزل ابو العشائر وولي رستم بن بردو (سنة ٢٩٢) وانتزع الليث بن علي بن الليث بلاد فارس من يد طاهر بن محمد (سنة ٢٩٣) وولي ابو الهيجاء عبد الله بن حمدان فيها على الموصل وتغلب داعية القرامطة على صنعاء وكثير من مدن اليمن »

وفي السنة التي بعدها غزا الروم قورس (او هي مورس) من اعمال حلب ودخلوها واحرقوا جامعها وساقوا من بقي من اهلها · وفيها خرج الخلنجي في مصر وقوي وسار اليهِ احمد بن كيغلغ عامل دمشق فطمعت القرامطة وقصدوا دمشق في غيابهِ فنهبوها ونهبوا طبرية وساروا الى جهة الكوفة فارسل اليهم المكتفي وصيف بن صوارتكين التركي والفضل بن موسى بن بغا و بشر الخادم الافشيني ورائق الجزري وكانت الهزيمة لعساكر الخليفة وغنم القرامطة منهم شيئًا كثيرًا ·

وفيها عقد المكتفي على الموصل واعمالها لابي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون العدوي

الثعلبي فقدمها اول المحرم وجاء الصريخ من نينوى بان الاكراد الهدبانية ومقدمهم محمد بن سلال قد اغاروا على البلاد وعاثوا فخرج ابو الهيجاء بالعساكر ولقيهم على الخارد الى شرقي الجسر فلم يقدر عليهم واستنجد بالخليفة فابطا عليهِ المدد الى ربيع (سنة ٢٩٤) ولما جاءهُ ذهب اليهم وهم مجتمعون في خمسة الاف بيت فذهبوا امامهُ واعتصموا بجبل السلق المشرف على الزاب فحاصرهم حتى عرفوهُ . وخذلهُ اميرهم محمد بن سلال بالمراسلة في الطاعة والرهن وحث اصحابه خلال ذلك في المسير الى اذربيجان فاتبعهم ابو الهيجاء ولحقهم صاعدين الى جبل القنديل فنال منهم وامتنعوا بذروته فرجع ابو الهيجاء عنهم ولحقوا باذربيجان ثم انجدهُ المكتفي ورجع بحارب الاكراد في جبل السلق ودخلهُ بفتنةٍ وقهرهم واستامنوا اليهِ واستامن كذلك احمد بن سلال واستقام امرهُ (ثم انتقض سنة ٣٠١ فبعث اليهِ المقتدر وقتئذٍ مونسًا الخادم فجاء اليهِ بنفسهِ مستامنًا ورجع بهِ الى بغداد فقبلهُ المقتدر واكرمهُ وبقي ببغداد الى ان انتقض اخوهُ الحسين بديار ربيعة (سنة ٣٠٥) فسارت العساكر بطلبهِ واتي بهِ اسيرًا وحبس المقتدر عند ذلك ابا الهيجاء واولاده وجميع اخوتهِ بداره ثم اطلقهم سنة ٣٠٥)

الصوائف

ثم غزا بالصائفة غلام زرافة من طرسوس ففتح مدينة انطاكية عنوة وقتل خمسة الاف مقاتل واسر مثلها واستنقذ من اسرى المسلمين نحو ذلك وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها وقسم الغنائم فكان سهم الواحد الف دينار واغار الروم (سنة ٢٩٣) على مرعش ونواحيها فخرج اهل المصيصة واهل طرسوس فاصيب منهم جماعة وكان سببًا لعزل ابي العشائر عن الثغور وتولية رستم بن بردو فكان على يديهِ الفدى وفودي الف من المسلمين وغزا (سنة ٢٩٤) ابن كيغلغ من طرسوس فاصاب اربعة الاف من الروم سبيًا واستامن بطريق منهم واسلم ثم عاد ابن كيغلغ الغزو وبلغ اسكند ودوخ واخذ نحو خمسين الف راس وقتل خلقًا واستامن البطريق المتولي الثغور الى المكتفي وخرج بمائتين من اسرى المسلمين وكان ملك الروم قد شعر بامره فارسل عليهِ من يقبضهُ فدافع عنهُ اسرى المسلمين واجتمع الروم على البطريق المذكور وتحاشد المسلمون لخلاصهِ فبلغوا قونية وخربوها وانصرف الروم ومر المسلمون بحصن البطريق ورحل معهم باهلهِ الى بغداد وافتتح اسمعيل الساماني (سنة ٢٩٣) مدائن كثيرة من بلاد الترك . . .

وفيها توفي ابن الراوندي المتكلم واسمهُ احمد بن يحيى بن اسحق وهو صاحب مولفات عديدة في نقض شريعة المسلمين منها قضيب الذهب واللامع والفرند والزمردة وطعن في القرآن كقولهِ في كتاب الزمردة انا نجد في كلام اكتم بن صيفي ما هو احسن من قولهِ انا اعطيناك الكوثر وقرف الانبياء

عليهم سلام الله بطلسمات جذبوا بها الخلق كما يجذب المغناطيس الحديد وله غير ذلك من الاعتراضات على الاديان كلها ما لا محل لها هنا (وفي سنة ٢٩٤) اخذت القرامطة الحجاج من طريق العراق وقتلوهم عن اخرهم نحو عشرين الفًا وغنموا منهم اموالاً جزيلة وكان كبير القرامطة ذكرويه فارسل المكتفي اليهم عسكرًا وقتلهم وهزمهم واسر ذكرويه وجرح ومات بعد ستة ايام و(سنة ٢٩٥) توفي اسمعيل بن احمد بن اسد الساماني صاحب ما وراء النهر وخراسان وولي بعدهُ ولدهُ احمد ابو نصر وارسل اليهِ المكتفي التقليد

وتوفي المكتفي في ١٢ ذي القعدة (سنة ٢٩٥-٩٠٧) وهو ابو احمد علي بن المعتضد بالله احمد بن الموفق طلحة بن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد بن هرون الرشيد وكانت خلافتهُ نحو ست سنين ونصف وعمرهُ ثلاثًا وثلاثين سنة وكان ربعة جميلاً رقيق السمرة حسن الوجه والشعر وافر اللحية امهُ ام ولد تركية تدعى جُجُك بعد مرض طال ودفن في دار محمد بن طاهر ...

في خلافة المقتدر بالله وهو الثامن عشر (من سنة ٢٩٥ - ٩٠٧ الى سنة ٣٢٠ - ٩٣٢)

ولما توفي المكتفي بويع جعفر ابن المعتضد ولقب بالمقتدر بالله وكان العباس ابن الحسن وزير المكتفي يستصغرهُ فعزم على خلعهِ فاجتمع الوزير والقواد (سنة ٢٩٦ - ٩٠٨) على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز ثم عدل الوزير لنفعهِ وبدا له خلاف ذلك فوثب بهِ الحسين ابن حمدان وقتلهُ وخلع المقتدر. وبايع الناس ابن المعتز ولقب المرتضي بالله وطلب المرتضي من المقتدر الانتقال الى دارهِ لينتقل هو الى دار الخلافة فاجابهُ طالبًا مهلة الى الليل فجاء الوقت ولم يفعل فتوجه ابن حمدان صباحًا الى دار الخلافة فقاتلهُ الغلمان والرجالة من وراء الستور طول النهار فانصرف عنهم وصار باهلهِ ليلاً عن بغداد الى الموصل ولا يعلم لماذا فعل ذلك . ولم يكن من القواد مع المقتدر غير مونس الخادم ومونس الخازن ثم ركب المرتضي وصحبته الوزير محمد بن داود وغلام له الى نحو الصحراء طمعًا في ان يتبعهم الجنود الذين بايعوا المرتضي فلم يتبعهم احد فرجعوا واختفوا ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وتقوى رعاع الشعب فخرج المقتدر بالعسكر وقبض على جماعة وقتلهم وكتب الى ابي الهيجاء ابن حمدان يامرهُ بارسال اخيهِ الحسين فانهزم الحسين وارسل ابرهيم اخوهُ يطلب الامان فقبلهُ المقتدر واجابهُ الى طلبهِ واقطعهُ قم وقاشان فسار اليهما ثم قبض على ابن المعتز واسمهُ عبد الله وقتل خنقًا واشاعوا انهُ مات حتف انفهِ وكان فاضلاً شاعرًا ولهُ اشعار مشهورة واخذ العلم عن المبرد وثعلب وتولى الخلافة يومًا ومن كلامهِ لما تولى قد آن للحق ان يتضح وللباطل ان يفتضح ولهُ حكم جميلة منها قولهُ يشفيك من الحاسد انهُ يغتم وقت سرورك

وكان منعكفًا على طلب العلم والشعر ولم يترشح للخلافة وقد حملهُ على قبولها اصحابهُ الذين خذلوهُ بعد بيعتهِ وقد رثاهُ محمدبن بسام بشعر منهُ قولهُ

ما فيهِ لولا ولا ليت فتنقصهُ   وانما ادركتهُ حرفة الادبِ

و(في سنة ٢٩٦) انتهى ملك الاغلبية في افريقية في زمان ابي نصرزيادة الله بن عبدالله بن ابرهيم بن احمد بن محمد بن اغلب . وكان اول من تولى منهم على افريقية ابرهيم بن احمد ولاه الرشيد (سنة ١٩٤) وكان المتغلب عليهم ابوعبدالله الحسين بن احمد بن محمد بن زكريا الشيعي القائم بدعوة الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب وكان زيادة المذكور رجلاً سكريًا سفاكًا للدما وقد قتل كل من قدر عليهِ من اعمامهِ واخوتهِ فأُرسل عليهِ من اجلاه عن مملكتهِ ومات غريبًا متهورًا بعد امراض متطاولة وسقط شعر لحيتهِ وكان ذلك بالرملة قرب القدس وبعد موتهِ لم يبقَ من الاغلبية احد

وفيها ابتدات دولة الخلفاء العلويين في افريقية ودامت بمصر الى (سنة ٥٦٧ - ١١٨١) كما سياتي واولهم كان ابا محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسمعيل بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب وقيل بغير ذلك ومنهم من جعل نسبهم مدخولاً بهِ ومنهم من نسبهم الى اليهود فقالوا لم يكن اسم المهدي عبدالله بل كان اسمهُ سعيد بن احمد بن عبدالله القداح بن ميمون ابن ديصان وقيل سعيد بن الحسين وان الحسين تزوج بامراة رجل يهودي ولها ابن فاحبهُ الحسين وادبهُ ومات الحسين ولم يكن لهُ ولد فعهد الى ابن اليهودي الحداد وهو المهدي عبيد الله وعرَّفهُ اسرار الدعوة واعطاه الاموال والعلامات واختلف المورخون في كل ذلك فلا حاجة لذكرهِ هنا . وكان امر اتصال الشيعي بالمهدية المذكورين هو ان الدعاة بالمغرب كانوا يدعون لمحمد والد المهدي وكان بسليمة ثم توفي فعهد الى ابنهِ المذكور وكان في عهد المكتفي بالله فهرب المهدي وولده محمد نحو المغرب وجاز مصر ووصلا الى طرابلس وكان المكتفي قد وقَّع لعيسى النوشري في مصر ولزيادة الله ابن الاغلب في افريقية وهذان كتبا الى كل العمال ضدهما ثم قبض عليهما اليسع ابن مدرار عامل سجلماسة والقاهما في السجن . وكان قبل ذلك عبدالله المهدي المقول انهُ القداح قام من نواحي كرج واصفهان الى الاهواز والبصرة . وسلمية من ارض حمص يدعو الناس اليهِ . ثم توفي وقام ابنهُ احمد او محمد مقامهُ وصحبهُ انسان يقال لهُ رستم ابن الحوشب من اهل الكوفة فارسلهُ احمد الى الشيعة باليمن ليدعو الناس الى المهدي فذهب رستم وسمع بهِ ابو عبيد الله الشيعي من صنعاء فتوجه الى رستم وصار من حزبهِ وكان رستم ارسل الدعاة الى المغرب وقد اجابهُ اهل كتامة فارسل ابن حوشب الشيعي اليهم وجهزهُ بالاموال فذهب الى مكة واجتمع بحجاج المغاربة من كتامة وتوجه معهم الى المغرب (سنة ٢٨٠) فاتاه البربر من كل جانب وعظم امره

وكانوا يدعونهُ ابا عبد الله المشرقي . وكان الاغالبيون يستصغرون امرهُ ولم ينتبهوا اليهِ فذهب الى تاهرت فاحتفلوا بهِ وقدمت اليهِ القبائل من كل جانب الى ان تولى ابو نصر زيادة الله اخر بني الاغلب فقتل عمهُ ابرهيم الاحول واخذ النزاع والقتال بينهُ وبين الشيعي المذكور . ثم تقدم امر الشيعي واستولى على افريقية وهرب زياده وركب الشيعي من رقادة (سنة ٢٩٦) الى سجلماسة مستخلفًا اخاه ابا العباس فخرج اليسع صاحبها ليقاتلهُ فلم يقدر عليهِ وهرب فدخل الشيعي المدينة واخرج المهدي وولده من السجن واركبهما ومشى هو ورؤوس القبائل بين ايديهما ثم سار المهدي الى رقادة (سنة ٢٩٧) فدون الدواوين وجبى الاموال وبعث العمال الى سائر البلاد واستعمل على الجزيرة صقلية ابن حنتزير وانتهى ملك الاغالبة وبني مدرار وبني رستم من تاهرت بعد ان حكم المدرارية مئة وثلاثين سنة والرستمية مئة وستين سنة

و(في سنة ٢٩٨) قتل المهدي ولي نعمتهِ ابا عبد الله الشيعي واخاهُ ابا العباس ليهنا لهُ العيش بعدهما كما هو داب اصحاب القوة لانهم لا يذكرون النعم الاَّ عند الحصول عليها فاذا تم مرامهم اهلكوا من سعى لهم بها خوفًا من العواقب كما انهُ بدخول (سنة ٢٩٩) قبض المقتدر على وزيرهِ ابي الحسن بن الفرات ونهب دارهُ وهتك حرمهُ وولى الوزارة ابا علي محمد بن يحيى الخاقاني وكان رجلاً هوائيًا يعزل ويولي الواحد مرارًا في اليوم فانهُ ولى ماه الكوفة في عشرين يومًا سبعة من العمال وقد قيل فيهِ

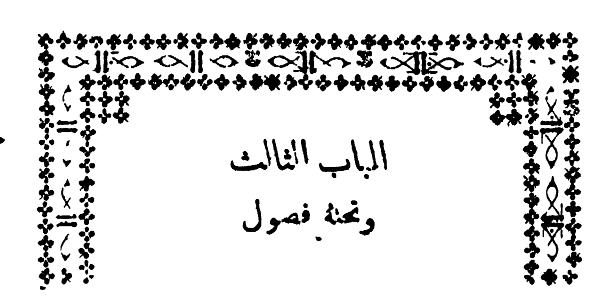
وزير قد تكامل في الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
اذا اهل الرشا اجتمعوا عليهِ فخير القوم اوفرهم بضاعة

ثم انتقضت صقلية على المهدي العلوي وارادوا قتل واليهم احمد بن موهب فدعا الى طاعة المقتدر العباسي وخطب لهُ بصقلية وقطع خطبة المهدي وبعث اسطولاً الى ساحل افريقية فلقوا اسطول المهدي وعليهِ الحسن بن ابي خنزير فاحرقوه وقتلوا الحسن ووصلت خلع السواد ورايات لابن موهب من بغداد ثم فسد امره وانتهى بانتقاض عليهِ وقتلهِ ورجوع صقلية لطاعة المهدي (سنة ٣٠٠)

وكان المقتدر يتصرف على مقتضى اشارة النساء والخدام فخرجت الممالك وطمعت العمال في الاطراف

وختم الجيل الثالث من الهجرة بعزل الخاقاني وتولية علي بن عيسى الوزارة وفيهِ عيد المسلمين حسب العادة وعملوا احتفالات نهاية القرن الا ان افراحهم كانت ممزوجة باتراح كثيرة لما حل بالمملكة من الحروب والانقسامات والفتن في تلك المدة الاخيرة اي في النصف الاخير من ذلك القرن

واذ قد بلغنا الان في سياق هذه الاخبار الى زمان مملو من الامور المهمة وقد شاهدنا سرعة نمو القوة الاسلامية وافتتاح احسن الاماكن المعمورة ثم حصول الاختلافات والانشقاقات والفتن في ما بين الخلفاء والاحزاب وقد اخذت السلطة العربية البغدادية بالانحطاط وتكاثرت المواد المهمة الواجب على المورخ ذكرها والملاحظة عليها لا سيما على من كانت غايته تاريخ المسالة التي نحن في صددها اذ المراد من ذكر كل هذه الحوادث من التواريخ القديمة ليس هو ابراز تاريخ فيها لانه وجد كثيرون تقدمونا باكثر استحقاق في ذلك بل المراد اخذ ملخص صادق يوصلنا الى المرغوب ولهذا وجدنا من الضروري ان نترك قليلاً الدولة العباسية ونذكر شيئًا عن بني امية في اسبانيا ثم نعود الى العباسيين وننهي الجزء الاول في اخذ خلاصة عامة وقد جعلنا لذلك كله بابًا خاصًا لاشتماله على مواد كثيرة والله ولي التوفيق



فصل

في امراء الاندلس الامويين
من عبد الرحمن الداخل الى عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٠

سبق كيف ان عبد الرحمن الداخل بن معاوية الاموي خلص من ايدي العباسيين و بقي متغلغلاً الى ان دخل الاندلس (سنة ١٣٨) واسس دولة منفصلة عن دولة بني العباس في المشرق ولكن ذلك كان على وجه مختصر في نبذات متقطعة وقد اردنا الان جعله خبرًا متصل الحلقات الى ان ناتي الى قيام عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٠٠) من الهجرة

قالوا ان عبد الرحمن المذكور اختفى ولحق اولاً بمغيلة وقيل بمكناسة وقيل بقوم من زناتة وكلهم من البربر ثم لحق بمليلة وارسل بدرًا مولاه الى جماعة من موالي المروانيين في الاندلس واشياعهم فبثوا دعوته ونشروا ذكره وصادف ذلك عندما كان اختلاف بين اليمنية والمصرية فاصطفت اليمنيه على امره وكان الامير يوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصميل من المصرية ثم رجع بدر بالخبر فاجتاز عبد الرحمن البحر (سنة ١٣٨ - ٧٥٥) في خلافة ابي جعفر المنصور ونزل بساحل المنكب واتاه قوم من اشبيلية فبايعوهُ ثم انتقل الى كورة رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور ثم الى (شدونة) فبايعهُ عتاب بن علقمة اللخمي ثم الى (مورور) فبايعه ابن الصباح . ونهد الى قرطبة فاجتمعت اليه اليمنية ونما خبرهُ الى والي الاندلس يوسف المذكور وكان غازيًا في جليقية فرجع الى قرطبة واراد المكر به فلم يتم له ذلك وارتحل عبد الرحمن من المنكب الى مالقه فبايعه جندها . ثم الى رنده . ثم شريش . ثم اشبيلية فتوافت اليه جنود الامصار وتسايلت المضرية اليه ايضًا حتى لم يبقَ مع الفهري غير الفهرية والقيسية . فزحف عبد الرحمن حينئذٍ وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجا الى غرناطه وتحصن بها فتبعه عبد الرحمن ثم رغب يوسف الصلح فعقد له على

ان يسكن في قرطبة واقفلهُ معهُ ثم نقض يوسف عهدهُ وخرج (سنة ١٤١ – ٧٥٨) ولحق بطليطلة واجتمع اليهِ نحو عشرين الفًا من البربر فارسل عليهِ عبد الرحمن عبد الملك بن عمر المرواني وكان قد وفد عليهِ من المشرق وكان ابوهُ عمر بن مروان بن الحكم في كفالة اخيهِ عبد العزيز بن مروان بمصر فلما دخلت المسودة ارض مصر خرج عبد الملك يطلب الاندلس ونزل على عبد الرحمن (سنة ١٤٠ – ٧٥٧) وعقد لهُ على اشبيلية ولابنهِ عمر على مورور . وسار اليهِ يوسف وتناجز الفريقان وكانت الدائرة على يوسف وابعد المفر فاغتالهُ بعض اصحابهِ بنواحي طليطلة واحتز راسهُ وقدمهُ الى عبد الرحمن وثبت قدم عبد الرحمن واستقل في احكام الاندلس واجدّ ببناء المسجد الجامع والقصر في قرطبة وانفق على الجامع ثمانين الف دينار وقيل انهُ دفع هذا المبلغ ثمن المكان والكنيسة التي كانت قبلاً هناك وانهُ انفق عليهِ ما عدا ذلك مئة الف دينار ومات قبل تمامهِ وبنى اماكن وقصورًا ومساجد اخرى واتاهُ جماعة من اهلهِ من المشرق قالوا وكان عبد الرحمن يدعو اولاً للمنصور ثم قطع دعوتهُ واستبد ومهد الدولة بالاندلس واثل بها الملك العظيم لبني مروان وجدد ما طمس لهم من معالم الخلافة وآثارها واستلحم الثوار المقاومين لسلطتهِ على كثرتهم وتوفي (سنة ١٧٢ – ٧٨٨) وكان ابو جعفر المنصور يسميهِ صقر قريش ولم يكن لهُ سوى لقب امير وعليهِ جرى بنوهُ من بعدهِ ولم يدع احد منهم بامير المومنين تادبًا مع الخلافة الكبرى في مقر الاسلام ومنتدى العرب حتى عبد الرحمن الناصر ثامنهم بالاندلس فتلقب بامير المومنين كما سياتي بمحلهِ وذلك من ضعف خلفاء بني العباس وغلبة الاعاجم عليهم وعدم تركهم لهم سوى الاسم . وتوارث اولاد الناصر لقب امير المومنين واحد بعد الاخر الى ما بعد المئة الرابعة من الهجرة

وعند ما اشتغل المسلمون بامر عبد الرحمن الداخل قوى امر الجلالقة وعمد فرويليه بن اذفونس ملكهم الى الثغور فاخرج المسلمين منها وتملك مدينة لك وبرتقال وسموره وقشتاله وشقوبيه وصارت للجلالقة حتى استردها المنصور بن ابي عامر اخر الدولة . ثم عادت للافرنج بعدهُ لما استعادوا البلاد كلها . وكاتب عبد الرحمن قارله (شارل) ملك الافرنج بعد ان تمرس بهِ مدة فوجده صلب المكسر تام الرجولية فمال معهُ الى المداراة ودعاهُ الى المصاهرة والسلم فاجابهُ قارله الثاني لا الاول . وعبد الرحمن وجد الاندلس ثغرًا قاصيًا عاطلا عن حلية الملك فارهف اهلهُ بالطاعة السلطانية واخذهم بالاداب فاكسبهم المروة واقامهم على الطريقة ودون الدواوين ورفع الاواوين وفرض الاعطية واعطى الالوية وجند الاجناد واوثق الاوتاد حتى اعترف لهُ بذلك اكابر الملوك وحذروهُ ولم يلبث ان دانت لهُ بلاد الاندلس واستقل لهُ امرها فانقاد لهُ عصيها وذل لهُ ابيها واستولى على اريكته ملكًا قاهرًا لعدوهِ حاميًا لذمارهِ وكان من رجال ابي جعفر المنصور في الصلابة والاستيلاء والصرامة

والاجتراء وكانت ام كلٍّ منهما بربرية كما قال ابن حيان وكان عبد الرحمن يقعد للناس ويسمع منهم ويقضي بينهم ويتوصل اليهِ من اراد ذكر ابن خلدون ما مفادهُ ان العلا بن مغيث اليحصبي سار من افريقية الى الاندلس ونزل بباجة البلاد داعيًا لابي جعفر المنصور واجتمع اليهِ خلق فسار اليهِ عبد الرحمن وقاتلهُ وهزمهُ ثم قتل ومعهُ سبعة الاف من اصحابهِ وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم الى القيروان ومكناسة فالقيت سرًّا في اسواقها ومعها اللواء الاسود وكتاب المنصور لابن العلا فارتاع المنصور لذلك وشكر الله الذي جعل بينهما البحر وكثرت ثورات العرب على عبد الرحمن ونافسوهُ الملك وكانت العاقبة لهُ فاستراب اخيرًا من العرب واراد اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي وغزا الفرنج والبشكنس ورجع ظافرًا وكان من نيتهِ ان يجدد دولة بني مروان الاموية في الاندلس فمات وخلافتهُ نحو ثلاث وثلاثين سنة ومن اعمالهِ الحسنة ادارة قرطبة بسور

وبعد عبد الرحمن بويع لولده هشام وهذا بعد اختلاف بينهُ وبين اخويهِ سليمان وعبد الله استقر لهُ الامر وانصرف اخواهُ الى بر العدو. قالوا ان هذا كان يعتقد بعلم الاحكام واقتضا من النجوم فاستطلع الضبي المنجم الشهير بان ينظر لهُ وكان سكنه في الجزيرة الخضراء فجاء الى قرطبة عند ما نهض هشام فنظر ولكنهُ ابى ان يخبر هشام بذلك لانهُ راى في طالعهِ من الامور التي لا تسرهُ واعتذر بانهُ نظر ولكنهُ لم يتحقق الامر لجلالتهِ في نفسهِ فقال لهُ هشام قد اجلتك لذلك فتفرغ للنظر فيما بقي عليك فيهِ ثم احضرهُ بعد ايام وقال لهُ ان الذي سالتك عنهُ جدٌّ عندي مع اني لا يجب ان اثق بحقيقتهِ اذ كان من غيب الله غير اني احب ان اسمع ما عندك فيهِ فان النفس طُلَعة والزمهُ فقال الضبي اعلم ايها الامير انهُ سوف يستقر ملكك سعيدًا ظافرًا الا ان مدتك فيهِ تكون ثمانية اعوام او نحو ذلك فاطرق هشام ساعة ثم رفع راسهُ وقال يا ضبي ما اخوفني ان يكون النذير كلمني بلسانك وخلع عليهِ وزهد في الدنيا وكان يذهب في سيرتهِ مذهب عمر بن عبد العزيز فكان يرسل اناسًا من ثقاتهِ الى الكور يستقصون عن سيرة العمال في الناس فاذا انتهى اليهِ حيف من قبلهم اوقع بهم واسقطهم وانصف منهم ولم يستعملهم بعد وفي ايامهِ فتحت اربونه الشهيرة واشترط على المعاهدين من جليقية انتقال عدد من احمال التراب من سور اربونه الى باب قصرهِ بقرطبه وبنى منهُ المسجد الذي قدام باب الجنان وفضلت منهُ فضلة بقيت مكومة. وتحارب مع المخالفين لهُ من اهل بيتهِ وانتصر على حركاتهم. وغزا وقصد البة والقلاع ولقي العدو وظفر بهِ وفتح الفتوحات (سنة ١٧٥ ـ ٧٩١) وبعث العساكر الى جليقية مع يوسف بن بخية فلقي ملكها ابن مندة وهزمهُ واثخن بالعدو. وبعث (سنة ١٧٦ ـ ٧٩٢) وزيرهُ عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزو

العدو فبلغ البة والقلاع وأثخن فيها . ثم بعثه (سنة ١٧٧ ـ ٧٩٢) الى اربونه وجريدة فأثخن فيها ووطئ ارض بريطانية وتوغل في بلاد العدو وهزمهم ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد (سنة ١٧٨ ـ ٧٩٤) الى البة والقلاع وارسل اخاهُ عبد الملك الى بلاد جليقية فانتهى الى استرقة فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع فاتبعه عبد الملك وكان هشام قد بعث جيوشًا من جهة اخرى فالتقوا بعبد الملك واثخنوا جميعًا في البلاد فاعترضتهم عساكر الفرنج ووقفوا مسيرهم ونالوا منهم فرجعوا غانمين سالمين ومن محاسن هشام تجديد القنطرة التي يضرب بها المثل في قرطبة وكان قد بناها السمح الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز واحكم هشام بناها للغاية واذ سمع ان اهل قرطبه قالوا انهُ انما بناها ليمر عليها الى الصيد والقنص حلف ووفى بعدم المرور عليها بعدهُ وتوفي (سنة ١٨٠ ـ ٧٩٦) وعمرهُ ثلث واربعون سنة وامارتهُ سبع سنين وتسعة اشهر واكمل الجامع الذي كان ابتداهُ ابوهُ

وبعد هشام نهض الحكم ولدهُ واكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفحل ملكهُ وفي خلال الفتنة التي كانت بينهُ وبين عميهِ لاجل الملك اغتنم العدو فرصة وقصد برشلونه فملكها (سنة ١٨٥) وتاخرت عساكر المسلمين فجهز الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الجلالقة فاثخنوا فيها فخالفهم العدو الى المنافذ وظفر بهم وخرج الى بلاد المسلمين ظافرًا . وكانت للحكم الوقعة الشهيرة مع اهل الربض من قرطبه لانهُ في صدر ولايتهِ كان قد انهمك في اللذات واهل الاحكام فثاروا عليهِ في قرطبه وخلعوهُ وبايعوا بعض قرابتهِ فقاتلهم الحكم وظفر بهم وخرب دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من اهل العدوة وباسكندرية مصر فنزلوا فيها ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمامون فغلبهم واجازهم الى جزيرة اقريطش وكان في ايام الحكم حروب وفتن مع المخالفين له من الثوار في طليطله وغيرها

و(في سنة ١٩٣) جمع لذريق (رودريكس) بن قارله ملك الفرنج جموعهُ وسار الى حصار طرسونه فشيع الحكم ابنهُ عبد الرحمن فهزمهم ثم اشتد عيث الفرنج مع وجود الفتن الداخلية فسار بنفسهِ اليهم (سنة ١٩٦)وفتح ثغورًا وحصونًا وخرب النواحي وعاد . وبعث (سنة ٢٠٠) العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الفرنج فخرب وهدم عدة حصون واقبل على البوط ملك الجلالقة في جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا اياماً واقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الامطار ومدّ النهر فقفل المسلمون بالغنائم

والحكم اول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان افحل بني امية بالاندلس واشدهم وكان يشبه بابي جعفر المنصور العباسي في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعدا وكان خاتمهُ منقوشًا هكذا

«با لله يثق الحاكم وبعتصم» وكان له من الذكور عشرون ومن الاناث مثله وامه جارية اسمها زخرف
اسمر طويلاً نحيفًا وملك ستًا وعشرين سنة . وقال بعضهم هو اول من جمل ابهة للملك في الاندلس
واستعد بالمماليك حتى بلغوا خمسة الاف منهم ثلاثة الاف فارس والفان رجالة وتوفي اخر (سنة ٢٠٦)
وكان له عيون يطالعونه باحوال الناس ويباشر الامور بنفسهِ ويقرّب العلماء والصالحين وكان له
الفا فرس مرتبطة على شاطي النهر قبلي قصرهِ يجمعها داران وهو القائل لما قتل اهل الربض وهدم
ديارهم وحرثها

فهذي بلادي انني قد تركتها مهادًا ولم اترك عليها منازعا

ونقل انه كان من المجاهرين بالمعاصي السافكين للدماء وكان يمسك اولاد الناس ويخصيهم ولذلك
ثارت عليه العلماء والفقهاء واهل الصلاح ومنهم من نسب اليهِ بناء قصر العميرة الموجودة فضلاته
للان في الاندلس وهي من الاثار الغريبة والحق ان العميرة مكسر عن العامرية ولا يبعد ان تكون
اثار الزاهرة وهو قصر العامرية نسبة الى المنصور بن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر او قصر الزهراء
الشهير الذي بناهُ عبد الرحمن الناصر كما سياتي خبرهُ في محلهِ وكان قد عهد لولده عبد الرحمن
ومن بعدهِ لاخيهِ المغيرة فلما توفي بويع لولدهِ عبد الرحمن المذكور المعروف بالاوسط

وغزا عبد الرحمن لاول ولايته الى بلاد الجلالقة وابعد واطال المغيب واثخن في امم المسيحيين
ورجع

وقدم عليهِ زرياب المغني من العراق وهو مولى المهدي واسمه علي بن نافع . فركب عبد الرحمن
للقائهِ وبالغ في اكرامهِ واورث زرياب صناعة الغناء بالاندلس وكان الاول بعده ولده عبد
الرحمن واغزا عبد الرحمن الاوسط (سنة ٢٠٨) حاجبه عبد الكريم الى البة والقلاع فخرب كثيرًا
من البلاد وانتسفها وفتح حصونًا كثيرة وصالح بعضها على الخراج واطلاق اسرى المسلمين ورجع غانمًا .
وارسل سنة (٢٢٤) قريبه عبد الله بن البلنسي لغزو البة

ثم خرج لذريق ملك الجلالقة واغار على مدينة سالم بالثغر فتوجه اليهِ فرتون بن موسى وقاتله
فهزمه . ثم سار الى الحصن الذي بناه اهل البة بالثغر نكاية للمسلمين فهدمه . ثم قصد بلاد جليقيه
فدوخ فيها وفتح جملة حصون ورجع غانمًا وبعث سنة (٢٢٦) عساكره الى الفرنجة فانتهوا الى ارض
برطانية وكان على العساكر موسى بن موسى عامل نطيله فاتى العدو وصبر الى ان هزم وبعث
(سنة ٢٢٩) ابنه محمدًا بالعساكر وتقدم الى بنبلونه وقتل غرسيه صاحبها وفي ايامهِ ظهر المجوس (وهم من
سكان بر النروج غير المسلمين) ودخلوا اشبيليه فارسل اليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد فنزل
المجوس من مراكبهم وقاتلوا المسلمين وكان قتال عظيم وانجلى الامر عن انكسار المسلمين اولاً . ثم

حصرتهم نجدات من قرطبة فهزموا العدو وغنموا بعض مراكبهم واحرقوها وقام المجوس الى شدونة فاقاموا عليها يومين وغنموا بعض الشيء . ثم وصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيليه فاقلع المجوس الى ابلة واغاروا وسبوا ثم الى باجة . ثم اشبونه . ثم انقطع خبرهم (سنة ٢٣٠) وتقدم عبد الرحمن باصلاح ما افسدوه من البلاد واكتنف حاميتها

وجهز سنة ٢٣١ العساكر الى جليقية فدخلوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق وهرب اهلها عنها ونهب المسلمون ما فيها واحرقوها وارادوا هدم سورها فلم يقدروا لان عرضه سبع عشرة ذراعًا فثلموا فيه ثلمة وعادوا

ثم اغزا عبد الرحمن عبد الكريم الى بلاد برشلونه فعاث في نواحيها واجاز الدروب التي تسمى البرت او البرتات الى الفرنجة وحاصر مدينتها العظمى جرندة

وبعث توفلس ملك الروم (سنة ٢٢٥) بهدية الى عبد الرحمن يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من اجل ما ضيق به المامون والمعتصم وذكرها له في كتابه تحت اسم ابنى مراحل وماردة فكافاه الامير عبد الرحمن عن الهدية وارسل اليه يحيي الغزال من اكبر اهل الدولة وكان مشهورًا في الشعر والحكمة وارتفع لعبد الرحمن ذكر في المشرق

وتوفي عبد الرحمن (سنة ٢٣٨) بعد ولاية احدى وثلاثين سنة ومولده طليطله (سنة ١٧٦) وكان عالمًا بالشرع والفلسفة وايامه هدو وسكينة وكثرت ثروته واتخذ القصور والمتنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وجعله لقصره مصنعًا اتخذه الناس شريعة . واقام الجسور وبنيت في ايامه جوامع في كور الاندلس وزاد في جامع قرطبه رواقين ومات قبل ان يستتمهما فاتم ذلك ابنه محمد واقام في الاندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة وكان له خمسة واربعون ابنًا كما ذكره ابو الفدا وابن الاثير وعمر بن الوردي وغيرهم اما المقري في كتاب نفح الطيب فيقول ان اولاده الذكور مائة وخمسون وبناته خمسون والاول اقرب للعقل على انه لا يبعد ان يكون صادقًا وانه جاء له هذا العدد وسلم منهم خمسة واربعون ذكرًا وكان نقش خاتمه « عابد الرحمن بقضاء الله راض » قال ابن سعيد وفي ايامه انتهى مال الجباية الى الف الف دينار في السنة وكان قبلاً لا يزيد عن ستمائة الف وكان كثير الميل للنساء ومولعًا بجاريته طروب وقد كلف بها كلفًا شديدًا وهي التي بنى عليها الباب ببدر المال حين تجنت عليه واعطاها حليًا قيمته مائة الف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي ان يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه انفس منه خطرًا وارفع قدرًا واكرم جوهرًا واشرف عنصرًا وامر بدر المال هوانه كان قد اغضبها فهجرته وصدت عنه ولزمت مقصورتها فارسل من خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول اليه فاغلقت الباب في وجوههم وحلفت

ان لاتخرج اليهم طائعة فامرهم بسد الباب عليها من خارج ببدر المال ففعلوا ثم حضر ووقف في الباب وكلها مسترضيًا راغبًا في المراجعة على ان يكون لها جميع ما سد بهِ الباب فاجابت وفتحت فانهالت البدر في غرفتها . وكان له اخرى يحبها اسمها مدثرة واخرى اسمها شفا . وكان له جارية اسمها قلم اديبة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للاخبار وكان مولعًا بالسماع وله اخبار كثيرة

ونهض بعدهُ ابنهُ محمد وهذا اغزى نواحي البة والقلاع وبرشلونه وما وراها ورجع عسكره غانمًا وكان لما ثارت عليهِ طليطله واستمدت لذلك ملكي جليقيه والبشكنس لقيهم محمد على وادي سليطه وقد اكمن لهم فقتل منهم نحو عشرين الفًا . واغزى (سنة ٢٤٧) الى جهة بنبلونه وصاحبها غرسيه بن ونقه وكان يظاهر اردن بن ادفنش فدوخ وفتح حصونًا واسر فورتون ابن صاحبها وبقي اسيرًا في قرطبه عشرين سنة واغزى اخاه المنذر ٢٥١ الى نواحي البة والقلاع فعاثوا فيها وجمع لذريق للقائهم وكان النصر للمسلمين وغزا محمد بنفسهِ بلاد الجلالقه فيها . و(في سنة ٢٦٣) ارسل ولده المنذر الى دار النصارى (وسنة ٢٦٤) الى بنبلونه واغزاه ايضًا (سنة ٢٦٨) الى دار الحرب وفي ايامهِ خربت ماردة ولم يبق لها اثر وذكر بعضهم انهُ راى هذه الابيات في المشرق (سنة ٢٥٤) قبل ان تخرب ماردة

ويل لماردة التي مردت ... وتكبرت عن عدوة النهر
كانت ترى لهم بها زهرٌ ... فخلت من الزهرات كالقفر
فالويل ثم الويح حين غزا ... بجميعهم من صاحب الامر

وتوفي محمد (سنة ٢٧٣) لخمسٍ وثلاثين سنة من امارتهِ وولد (سنة ٢٠٧) وخلفهُ ولده المنذر واقام نحو سنتين ومات (سنة ٢٧٥) وفيهِ قيل

بالمنذر بن محمدٍ ... صلحت بلاد الاندلس

وكانت اعمالهُ قليلة نظرًا لقصر مدة ولايتهِ وكان جيد السيرة محب الاصلاح والصلاح وقام بعده اخوهُ عبد الله وكانت مدتهُ رخاء ولم يحدث فيها ما يستحق الذكر قال „ ابن خلدون كان خراج الاندلس قبلهُ ثلاث مئة الف دينار مئة الف للجيوش ومئة الف للنفقة في النوائب وما يعرض ومئة الف ذخيرة ووفر . فانفق الوفر حين اضطربت عليهِ بلاد الاندلس بالثوار والمتغلبين في تلك السنين وقل الخراج اه „

وتوفي الامير عبد الله (سنة ٣٠٠) ومدة ملكهِ نحو خمس وعشرين سنة وكان ابيض اصهب ازرق ربعة ورزق احد عشر ولدًا ذكرًا احدهم محمد وقتلهُ ابوهُ في حد من الحدود . وولى بعده حافده عبد الرحمن الناصر واخذ الملك شابًا واعمامهُ واعمام ابيهِ حاضرون وسنذكر خبره في الجزء الثاني ان شاء الله

فصل

في الربع الاول من القرن الرابع

و(في سنة ٣٠١) قتل احمد بن اسمعيل الساماني صاحب خراسان وما وراء النهر ذبحهُ جماعة من غلمانهِ ليلاً وولي بعدهُ ابنهُ ابو الحسن نصر

وفيها قتل ابو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي كبير القرامطه قتلهُ خادم لهُ صقلبي في الحمام. ولما قتلهُ استدعى رجلاً آخر من اكابر روسائهم وقال لهُ ان الرئيس يسند عليك فلما دخل قتلهُ الى ان قتل اربعة من الكبراء فعلموا غدرهُ واجتمعوا عليهِ وقتلوهُ. وكان ابو سعيد قد عهد لولدهِ الاكبر سعيد فعجز عن القيام بالامر وتغلب عليهِ اخوهُ ابو طاهر سليمان وكان شهماً شجاعاً. وكان عند قتل ابيهِ والياً على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين

وفيها سير المهدي العلوي جيشاً مع ولدهِ محمد الى مصر فاخذ الاسكندرية والفيوم فارسل المقتدر جيشاً مع مونس الخادم واجلاهم فعادوا الى المغرب. و(في سنة ٣٠٢) قبض المقتدر على الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص الجوهري واخذ منهُ من صنوف الاموال ما قيمتهُ اربعة الاف الف دينار او اكثر

وفيها ركب المهدي العلوي ثانية على مصر وارسل اليهِ المقتدر مونساً الخادم فاقتتلوا بين مصر والاسكندرية اربع دفعات واخيراً ثبت النصر للمقتدر وقتل من الفريقين خلق وافر وهي السنة التي فيها انهى الطبري (ابو جعفر) تاريخهُ الشهير

وفيها بنيت المهدية بناها المهدي على ساحل البحر في شبه جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند وجعل لها سوراً حصيناً وابواباً عظيمة وزن كل مصراع ماية قنطار. وفيها اغارت الروم على الثغور الجزرية وسبوا وقتلوا وغنموا كثيراً. وفيها توفي الاطروش وهو الناصر العلوي صاحب طبرستان واسمهُ الحسن بن علي وهو الثامن من نسل علي بن ابي طالب. وكان قد ملك طبرستان (سنة ٣٠١) ثم قام بعدهُ الحسن بن القاسم العلوي ويلقب بالداعي وقتل (سنة ٣١٦) وانقرض بموتهِ ملكهم من طبرستان

وخرج (سنة ٣٠٣) الحسين بن حمدان عن طاعة المقتدر في الجزيرة فارسل الخليفة عليهِ الوزير رائق الكبير في جيش فاقتتلا وانهزم رائق فبلغ الخبر مونساً فذهب اليه ففر الحسين الى ارمينيه مع اولاده وثقلهُ وتشتت عسكرهُ فادركهُ عسكر مونس واسروهُ مع ابنهِ عبد الوهاب وذهب بهما الى

بغداد راكبين جملاً وعليها البرانس اللبوداء وقمصان الشعر الاحمر

و(سنة ٣٠٥-٩١٧)حضرت رسل ملك الروم يطلبون المهادنة والفدا فاكرموا اكراماً تاماً وصار قبولهم في اعظم هيئة . وسير الخليفة معهم مونساً الخادم وانفذ معهُ الفداء عن الاسرى ماية وعشرين الف دينار . وفيها أُطلق ابو الهيجا بن حمدان واخوتهُ واهل بيتهِ من السجن

و(سنة ٣٠٦ - ٩١٨) جعل على شرطة بغداد نجح الطولوني فاقام في الارباع فقهاء يعمل الشرطة بفتواهم فضعفت هيبة السلطنة بسبب ذلك وكثر الخلل وقطاعة الطرق . وفيها جهز المهدي العلوي ابنهُ القائم على مصر فاخذ الاسكندرية ووصل الى الجيزة وملك اشمونين وبعض الصعيد وحضرت لهُ ثمانون مركبًا من افريقيه وجهز المقتدر عليهم مونساً وارسل خمساً وعشرين مركبًا من طرسوس لقتال مراكب القائم فالتقت العساكر في البر والمراكب في رشيد واقتتلوا قتالاً شديداً وانجلى الامر بهزيمة المهديين وعادوا الى افريقيه

وفي هذه السنة (وهي سنة ٣٠٦-٩١٨) انقرضت دولة الادارسة العلويين قد تقدم ابتداء هذه الدولة الى محمد بن ادريس بن ادريس (سنة ٢١٤ - ٨٢٩) وكان محمد قد اعطى اخاهُ عمر صنهاجة وغمارة وابقى لنفسهِ الامامة الكبرى وبقي محمد حتى مات وتاريخ موتهِ مجهول . فملك بعدهُ ابن اخيهِ المذكور علي ولكنهُ لم يفلح فخلع وولي بعد علي ابن اخيهِ يحيى بن ادريس بن عمر وهذا يحيى هو اخرايتهم بفاس وانقرضت دولتهم (سنة ٣٠٧) وتغلب عليهم قضاله بن جبوس . ثم ظهر من الادارسة حسن بن محمد بن القاسم بن ادريس وقصد استرداد الدولة وقد اخذت بالاختلال ودولة المهدي في الاقبال فملك عامين ولم يتم لهُ ارب وانقرضت دولتهم من جميع المغرب الاقصى واخذ اكثر الادارسة الى المهدي ثم ثار بعد الاربعين وثلاثماية ادريس من ولد محمد بن القاسم فاعاد لهم الامامة . ثم تغلب على بر العدوة عبد الملك بن المنصور بن ابي عامر وخطب فيها لبني امية ثم عاد عبد الملك الى الاندلس فضعفت سلطنتهُ ببر العدوة وتغلب على فاس بنو ابي العافية الزناتيون ثم اخذ يوسف بن تاشفين اميرالمسلمين تلك البلاد

و(في سنة ٣٠٦ - ٩٢١) قتل حامد الوزير الحسين بن منصور الصوفي المعروف بالحلاج لدعواه النبوة وخداعه الناس بشعبذات كاخراجهِ فاكهة الشتا صيفاً وفاكهة الصيف شتاء وكمده يده الى الهواء واعادتها مملوءة دراهم عليها مكتوب «قل هو الله احد» وكان يسميها دراهم القدرة . وكاخباره الناس بما اكلوه وما صنعوه في بيوتهم واخراج ضمائرهم حتى افتتن الناس بهِ واعتقدوا فيهِ الحلول فانقسم عليهِ اراء الناس فمنهم من قال انهُ مظهر من مظاهر الله تع . ومنهم انهُ ولي . ومنهم قال انهُ مشعبذ وغيرهم ساحر وكذاب . وكان قد قدم الحلاج من خراسان ومضى الى مكة واقام بها سنة

بالحجر لا ياوى البيوت لا صيفًا ولا شتاء . ونظر على جبل ابي قبيس فوق صخرة حافيًا مكشوف الراس والعرق يجري منهُ الى الارض من حرارة التوسلات . وكان يصوم الدهر ويفطر على الماء ويأكل ثلاث قضمات من قرص ولا يأخذ شيئًا اخر . ثم نقل عنهُ الى الوزير حامد انهُ كان يحيي الموتى فاستدعاه وسالهُ عن ذلك فانكر وقال اعوذ بالله وما انا الا انسان اعبد الله تع . قالوا وبقي الوزير في استخلاصه واستنطاقهِ الى ان وجد معهُ كتابًا فيهِ ان الانسان اذا اراد الحج ولم يمكنهُ افرد من داره بيتًا طاهرًا فاذا حضرت ايام الحج طاف حولهُ وفعل ما يفعل الحجاج ثم يطعم ثلثين يتيمًا ويكسوهم ويعطي كلاً منهم سبعة دراهم . فاحضر الوزير القضاة ووجوه الفقهاء وامر بقراءة ذلك امامهم . فسالهُ ابو عمرو القاضي من اين لك هذا فقال من كتاب الاخلاص للحسن البصري . فقال لهُ القاضي كذبت وافتوا باباحة دمهِ . وسلم الى صاحب الشرطة فضربهُ الف سوط فما تاوه لها ثم قطعوا يده الواحدة ثم الاخرى ثم الرجل الواحدة ثم الاخرى ثم قتل واحرق والقى رماده في دجلة « قلت ان في عمل الوزير قساوة وحشية لا حاجة لها تنفر من تلاوتها اذان العصر وقد وافقهُ القضاة لغاية سياسية او لخوف دني منهم لا غير والا فان القصاء على رجل متعيش بتلبيسهِ على الناس انما يكون بتربيتهِ واطلاقهِ لا بقتلهِ وتعذيبهِ ولسنا نرى فيما قالهُ هذا الرجل من ضرر على الدين فالحمد لله اننا لسنا في عصر مثل عصر ابن حامد »

والحلاج كان من خراسان ونيسابور وقيل من مرو وقيل من الطالقان وقيل من الري . وكان على الاصح رجلاً محتالاً مشعبذًا يميل الى راي الصوفية وربما ادعى حلول الالهية فيهِ وقيل لهُ وهو مصلوب في الشمس قل لا اله الا الله . فقال ان بيتًا انت ساكنهُ غير محتاج الى السرج . وقيل كان صفرًا من العلوم حتى ان علي بن عيسى عندما امتحنهُ قال لهُ ان تعلمك فروضك اجدى بك من رسائل لا تعرف معناها وان تكتب للناس بقولك ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته فما احوجك الى الادب . وقال ابو الحسين بن الجندي انهُ راى الحلاج ونظر من شعابذه اشيا منها تصويره بين يديهِ جنينة فيها زروع وماء

و(سنة ٣١١) كبست القرامطة وكبيرهم ابو طاهر البصرة ليلاً ودخلوا من فوق السور وقتلوا وسلبوا مدة سبعة عشر يومًا . و(سنة ٣١٢) اخذوا الحجاج وربحوا منهم اموالاً عظيمة . وفيها قبض المقتدر على وزيره ابي الحسن بن الفرات وذبحهُ مع ولده المحسن . وفيها سار ابو طاهر القرمطي الى الكوفة واخذها بالسيف وقتل وسبي ستة ايام

وسنة (٣١٤) قلد المقتدر يوسف بن ابي الساج نواحي المشرق وامره بالمسير الى واسط وحرب القرامطة فالتقى سنة (٣١٥) ومعهُ نحو اربعين الفًا بابي طاهر في الف وخمسمائة منهم

سبعمائة فارس وكان ابو الساج قد احتقرهم لقلة عددهم وشيع الى بغداد يقول بالفتح وانهم في يده ثم اقتتلوا فحملت القرامطة وانهزم عسكر الخليفة واخذ يوسف اسيرًا وقتله ابو طاهر واستولى على الكوفة . فارسل له الخليفة مونسًا الخادم فصادف ما صادفهُ يوسف من الانهزام . وغزا القرامطة غالب البلاد الفراتية ورجعوا الى هجر بالغنائم قال ابو الفرج وفي سنة ٣١٥ ازال مونس الخادم شعره خوفًا من المقتدر فاجتمع اليهِ الجنود وقالوا له لا تخف نحن نحارب عنك الى ان ينبت لك لحية . ووجه لهُ المقتدر رقعة بخط يده يحلف له ان ما بلغهُ كان باطلاً فقصد مونس دار المقتدر مع عدد من القواد ودخل اليهِ وقبل يديهِ وحلف لهُ المقتدر على طيب طويته نحوهُ "قلت ربما كان ذلك عن انهزامهِ من ابي طاهر . وفيها حارب عبد الرحمن الناصر الاموي صاحب الاندلس طليطله وبعد حصار طويل فتحها وخرب كثيرًا منها . وفيها دخلت القرامطة الرحبة ونهبوا وسبوا . ثم ساروا الى الرقة فنهبوا ربضها ثم الى سنجار فطلب اهلها الامان فامنوهم . ثم نهبوا الجبال وغيرها من البلاد وعادوا الى هجر . وفيها عزل المقتدر علي بن عيسى عن الوزارة وولاها ابا علي بن مقلة

و(في سنة ٣١٦) ظهر امر مرداويج بن زيار من الديلم وكان احد قواد اسفار بن شيرويه الذي فتح جرجان (سنة ٣١٥) فنهض على سيده وكان قد استمال أكثر العساكر اليهِ وقتله واخذ يفتح البلاد فملك قزوين ثم الري وهمذان وكنكور والدينور وبروجرد وقم وقاشان واصفهان وجرباذقان وعمل له سريرًا من ذهب يجلس عليهِ ثم استولى على طبرستان

و(في سنة ٣١٧) خلع المقتدر وبويع اخوهُ محمد بن المعتضد ولقب بالقاهر وذلك لان المقتدر كان قد جعل نفسهُ مبغضًا من الجند والقواد لاستيلا النساء والخدام على الامور واخذهم الاموال والضياع وزاد ذلك وحشة مونس الخادم مع المقتدر . فاجتمع الجند الى مونس وقصدوا دار الخلافة واخرجوا المقتدر ووالدتهُ وخالتهُ وخواص جواريهِ واولاده وحملوهم الى دار مونس واحضروا محمدًا وبايعوهُ واشهدوا على المقتدر بالخلع القاضي ابا عمرو ونهبوا دار الخلافة واخرجوا من تربة قد بنتها ام المقتدر ستمائة الف دينار

وبعد خلع المقتدر بيومين في ١٧ محرم بكر الناس الى دار الخلافة حتى امتلأت الرحاب وكان يوم موكب ولم يحضر مونس وحضرت الرجال المصافية بالسلاح يطالبون بحق البيعة وعلت اصواتهم فارسل القاهر باروك يطيب خواطرهم فقتلوهُ وهجموا على القاهر فهرب وتفرق الناس وخلت دار الخلافة فذهب الرجالة الى دار مونس الخادم وطلبوا المقتدر فسلمهم مطلوبهم فحملوا المقتدر على اعناقهم واخذوهُ الى دار الخلافة ثم امر المقتدر فاتى بالقاهر فامنهُ وقبلهُ وعذره واعتقلوهُ عند والدة المقتدر فاحسنت اليهِ ووسعت عليهِ واستقر المقتدر في الخلافة

وفيها قصد ابو طاهر مكة يوم التروية وكان الحجاج قد وصلوا اليها فنهب اموالهم وقتلهم حتى في المسجد الحرام . ودخل الكعبة وقلع الحجر الاسود من الركن ونقلهُ الى هجر وقتل ابن محارب امير مكة واصحابهُ وقلع باب البيت واصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط ومات . وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا وقسم كسوة البيت على اصحابهِ

وفيها وقع خلاف بين الحنابلة وغيرهم في بغداد على معنى الاية « عسى ان يبعثك ربك مقامًا محمودًا » فقال الحنابلة معنى ذلك ان الله تع يقعد الرسول معهُ على العرش . وقال الاخرون انما هي الشفاعة فاقتتلوا ودخل في ذلك الجند والعامة وكان شر عظيم

وفيها اخرجت الرجالة المصافية من بغداد لاستطالتهم على الناس وتمردهم من حين اعادوا المقتدر وتقاتلوا مع الجند وهربوا الى واسط فاستولوا عليها فقصدهم مونس الخادم وفرقهم

الصوائف

سار مونس (سنة ٢٩٦) من بغداد الى الفرات ودخل الروم من جهة ملطيه ومعهُ السلمي فظفر وغنم واسر و بعث المقتدر ابا القاسم بن سيما لغزو الصائفة (سنة ٢٩٨) وغزا في التي بعدها رستم امير الثغور ودخل في ناحية طرسوس ومعهُ دميانه وحاصر حصن مليح الارمني ففتحهُ واحرقهُ . وتوفي (سنة ٣٠٠) اسكندروس بن لاون ملك الروم وخلفهُ ابنهُ قسطنطين ابن اثنتي عشرة سنة وسار (سنة ٣٠٢) علي بن عيسى الرزبري في الف فارس لغزو الصائفة مددًا لبسر الخادم عامل طرسوس ولم يتيسر لهم الدخول في المصيف فدخلوا شاتية في كلب البرد وشدتهِ وغنموا وسبوا . وغزا بسر الخادم (سنة ٣٠٢) بلاد الروم ففتح وغنم وسبي واسر مئة وخمسين ونحو الفي راس . وفي التي بعدها انحازت الروم على ثغور الجزيرة ونهبوا حصن منصور وسبوا اهلهُ لاشتغال عسكر الجزيرة بطلب الحسين بن حمدان مع مونس كما مر

وفيها خرج الروم الى ناحية طرسوس والفرات فقاتلوا وقتلوا نحو ست مئة فارس وقدم مليح الارمني الى مرعش فعاث في نواحيها ولم يكن للمسلمين فيها صائفة و(في سنة ٣٠٤) سار مونس بالصائفة ومرّ بالموصل فقلد سبكًا المفلحي باريدى وقردى من اعمال الفرات . وقلد عثمان العبودي مدينة سنجار ووصونًا البكتمري باقي بلاد ربيعة وسار الى ملطية فدخل منها وكتب الى ابي القاسم علي بن احمد بن بسطام ان يدخل من طرسوس في اهلها ففتح مونس حصونًا كثيرة وغنم وسبي ورجع الى بغداد فاكرمهُ المقتدر وخلع عليهِ و(سنة ٣٠٥) غزا الصائفة جنا الصفواني فغنم وغزا ثمالي الخادم في الاسطول فغنم . وغزا ثمالي في السنة التي بعدها بحرًا وجنا الصفواني ففتح وظفر وعاد . وغزا بشر الافشين بلاد الروم ففتح عدة حصون وغنم وسبي . وغزا ثمالي (سنة ٣٠٧) بحرًا فلقي مراكب المهدي صاحب

افريقية فغلبهم وقتل جماعة منهم واسر خادمًا له . وغزا محمد بن نصر الحاجب (سنة ٣١٠) قاليقلا فاصاب من الروم وسار اهل طرسوس من ملطية فظفروا واستباحوا وغزا مونس (سنة ٣١١) بلاد الروم فغنم وفتح حصونًا وغزا ثمالي بحرًا فغنم الف راس من السبي وثمانية الاف من الظهر ومئة الف من الغنم وشيئًا كثيرًا من الذهب والفضة وجاء (سنة ٣١٢) رسول ملك الروم بالهدايا ومعهُ ابو عمر بن عبد الباقي يطلبان الهدنة وتقرير الفدا فاجيبا الى ذلك ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فاثخنوا ورجعوا

وخرجت الروم (سنة ٣١٤) الى ملطية ونواحيها مع الدمستق ومليح الارمني صاحب الدروب وحاصروا ملطية فهرب اهلها الى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا . وغزا اهل طرسوس بالصائفة فغنموا ورجعوا ودخلت سرية من طرسوس الى بلاد الروم (سنة ٣١٥) فاوقع بهم الروم وقتلوا اربعمائة رجل صبرًا وجاء الدمستق الى مدينة دبيل وبها نصر السبكي فحاصرها وشدد حصارها حتى نقب سورها ودخل الروم اليها فدفعهم المسلمون وغنموا منهم اموالاً جزيلة ومن الغنم مائة الف راس فاكلوها . وخرج الدمستق (سنة ٣١٦) في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحًا وجعل الصليب في جامعها ورحل الى بدليس ففعل كذلك وهرب اهل اردن الى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا . وفيها ظاهر اهل ملطية على سبعمائة من الروم والارمن ودخلوا بلدهم خفيةً وكان قد استقدمهم مليح الارمني ليكونوا له عونًا اذا حاصروها فقتلهم اهل ملطية عن اخرهم . وبعث اهل الثغور الجزرية مثل ملطية وفارقين وآمد يستمدون المقتدر في العساكر والا يعطوا الاتاوة للروم فلم يمدهم فصالحوا الروم وملكوا البلاد . وفيها دخل مفلح الساجي بلاد الروم . وغزا ثمالي (سنة ٣٢٠) بلاد الروم من طرسوس ولقي الروم وهزمهم واسر ثلثة الاف وقتل نحو ثلاثمائة وغنم من الفضة والذهب شيئًا كثيرًا وعاد بالصائفة في سنتهِ في حشد كثير . وبلغ عمورية فهرب عنها اهلها ودخلها المسلمون وغنموا واحرقوا وتوغلوا في البلاد يقتلون ويكتسحون ويخربون وعادوا سالمين وبلغت قيمة السبي مائة وستة وثلاثين الف دينار وفيها راسل ابن الريداني وغيره من الارمن في نواحي ارمينية والحوا على الروم في قصد بلاد الاسلام فساروا وخربوا نواحي خلاط وقتلوا واسروا فسار اليهم مفلح غلام يوسف بن ابي الساج من اذربيجان في جموع من الجند والمتطوعة فاثخن في بلاد الروم حتى قيل ان عدد القتلى بلغ مائة الف وخربت بلاد ابن الريداني ومن وافقهُ ونهب وقتل . ثم جاءت الروم الى سميساط فحصروها وامدها سعيد بن حمدان وكان المقتدر ولاهُ الموصل وديار ربيعة على ان يسترد ملطية من الروم فلما جاء رسول اهل سميساط اليهم اجفل الروم عنها فسار الى ملطية وبها عساكر الروم ومليح الارمني صاحب الثغور الرومية فلما احسوا باقبال سعيد هربوا

وتركوها خشية ان يشب بهم اهلها وملكها سعيد واستخلف عليها وعاد الى الموصل (انتهى ملخصًا عن ابن خلدون)

و(في سنة ٩٣١٩) ارسل المقتدر عسكرًا لقتال مرداويج فالتقوا بنواحي همذان وانهزمت عساكر المقتدر واخذ مرداويج بلاد الجبل جميعًا ووصلت عساكره بالنهب الى نواحي حلوان ثم ارسل فاخذ اصبهان . وفيها حصلت الوحشة بين المقتدر ومونس الخادم في ذي الحجة فترك مونس بغداد (سنة ٣٢٠) مغاضبًا واستولى المقتدر على اقطاع مونس وماله واملاكه واملاك اصحابه وكتب الى ابناء حمدان امراء الموصل بصده وكان مونس ارسل خادمهُ بشرًا برسالة الى المقتدر فسالهُ الحسين وزير المقتدر عن الرسالة فقال لا ابلغها الا الى المقتدر فشتمهُ الوزير وشتم مرسلهُ وصادرهُ بثلاثمائة الف دينار . فلما بلغ مونسًا ماجرى بخادمهِ وهو بحدبي سار نحو الموصل ومعهُ جمع من القواد فاجتمع بنو حمدان لصده بثلاثين الفًا . وكان مونس في ثمانمائة فارس فاقتتلوا وانهزم بنو حمدان واستولى مونس على الموصل وعلى اموالهم وتوجه اليهِ كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لانهُ كان محبوبًا منهم واقام بالموصل تسعة اشهر ثم انحدر الى بغداد ونزل بباب الشماسية وكان في نية المقتدر عدم القتال والذهاب الى واسط فاقنعهُ اصحابهُ بالمقاومة والركوب بشخصهِ الى القتال قائلين ان القوم متى راوهُ عادوا اليهِ فخرج وهو كاره وبين يديهِ الفقهاء والقرّاء والمصاحف منشورة وعليهِ البردة والناس حولهُ ووقف على رابية عاليه ببعد عن الموقعة فارسل اليهِ قوادهُ يبغون تقدمهُ ففعل ثم انهزم اصحابهُ فاراد الرجوع فادركهُ بعض المغاربة وشهروا عليهِ السيوف فقال ويلكم انا الخليفة قالوا عرفناك يا نذل وضربهُ احدهم بالسيف فقتلهُ ورفعوا راسهُ على خشبة وهم يكبرون ويلعنونهُ واخذوا جميع ما عليهِ حتى سراويله وتركوه الى ان مر بهِ رجل من الاكرة فغطاه اولاً ثم حفر لهُ قبرًا وواراه وحمل راسهُ الى مونس فبكى ولطم وجههُ وراسهُ وانفذ من منع نهب دار الخلافة وهكذا انتهى امر المقتدر وعمرهُ ثماني وثلاثون سنة وخلافتهُ اربع وعشرون سنة وكان جميلاً ضخمًا ثقيل الجثة

في خلافة القاهر بن المعتضد (سنة ٣٢٠ــ ٩٣٢ الى سنة ٣٢٢ــ ٩٣٤) وهو التاسع عشر

وكان راى مونس الخادم عند ما قتل المقتدر ان يبايعوا ولدهُ ابا العباس لانهُ كان ذا تربية حسنة وعقل وكرم ودين ووفاء اما اسحق النوبختي فقال كفانا ما قدمضى من خليفة لهُ ام وخالة وخدم يسوسون الامور فاختاروا لكم رجلاً كاملاً يسوس امورهُ وامورنا واخيرًا اتفقوا على ابي المنصور محمد بن المعتضد وكان ذلك لتعس النوبختي كما سياتي . فاتوا بابي المنصور وبايعوهُ في شوال ولقب القاهر بالله وكان الامر ضد ارادة مونس باطنًا لانهُ كان يعرف منهُ ما لا يعرفهُ الاخرون حتى انهُ

لم يركن اليه الى ان استحلفه لنفسه ولحاجبه بليق ولعلي بن بليق واستحجب القاهر بن بليق المذكور
ثم امر القاهر باستنباش اولاد المقتدر وحرمه وامر بامه وهي مريضة بالاستسقاء فسالها عن مالها فاقرت بالمتاع والثياب وانكرت المال والجواهر فضربت اشد الضرب وعلقت برجلها فحلفت انها ما تملك شيئًا · ثم صادر جميع مقربي المقتدر وامر ببيع كل املاكه وفك وقوفها وسلك سلوك ظالم مكروه وتوفيت ام المقتدر (سنة ٣٢١) ودفنت في تربتها في الرصافة · وفيها وقعت الوحشة بين مونس الخادم والخليفة وكان بليق امير دار الخلافة فضيق على القاهر ومنع دخول اصحابه اليه حتى النساء الا من كان يعرفها واقام وكيلاً على ذلك احمد بن زيرك واخيرًا لم يعد القاهر قادرًا على الاحتمال فنزع الى التدبير والحيل وارسل الى الساجية وهم اصحاب يوسف بن ابي الساج واستمالهم للقبض على بليق ومونس والوزير ابن مقلة ولما بلغ ذلك ابن مقلة اخبر مونسًا وبليقًا وابنه واتفق رايهم جميعًا الا مونس بخلع القاهر وقد اخبر القاهر بذلك طريف السبكري اذ استقدمه اليه بزي امراة وهم في الاجتماع وكان راي مونس عدم خلعه او اقله محاسنته الى ان يتملكوه ويكون لهم الفرصة على نوال اربهم · اما علي بن بليق فاعترض وقال ولماذا هذا التطويل ونحن اصحاب الحجابة وهو في يدنا كالعصفور في القفص قال هذا ولم يكن يعلم ما اعد له القاهر من الكمين ثم توجه ابن بليق ومعه جماعة وطلب الدخول على القاهر لامر يخص القرامطة فلما دخل الدار قابضًا قبض عليه فبلغ الخبر اباهُ وكان منقطعًا عن دار الخلافة لمرض حصل له فحضر ليخلص ابنه فصادف ما صادفه ذاك وقبض على ابن زريك ايضًا · ثم ارسل القاهر يستدعي مونسًا فامتنع فامنه وقال انه يريد ان يبلغه ما حصل له ويستشيره كوالد وانه لا يحب ان يفعل شيئًا الا برايه فانخدع مونس ومضى فقبض عليه · اما ابن مقلة فاختفى وعزله القاهر واستوزر ابا جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله وجد بطلب احمد بن المكتفي الذي كان مرادهم ان يستخلفوه عليه فظفر به وبني عليه حائطًا فمات

ولما علم الجند قبض القاهر على مونس ثاروا وشغبوا وطلبوا اطلاقه فامر القاهر فذبح اولاً ابن بليق وجعل راسه في طبق واخذ الراس الى ابيه فاخذ ابوهُ يبكي ويترشف الراس ثم امر به القاهر فقتل وجعل راسه مع راس ولده في الطبق واخذا الى مونس فلما نظر ذلك مونس تشاهد ولعن قاتلها فقتله ايضًا واطلعت الرؤوس الثلاثة وطوفت بها بغداد ونودي هذا جزاء من يخون الامام ثم جعلت في خزانة الرؤوس على جاري عادتهم ثم عزل القاهر ابا جعفر وولى الوزارة الخصيبي ثم قبض على شريكه في العمل طريف السبكري وكان من اكبر القواد · وفي السنة المذكورة كانت بداية دولة بني بويه وهم ثلاثة اخوة · عماد الدولة علي · وركن الدولة الحسن · ومعزّ الدولة احمد · اولاد ابي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل الاصغر ابن شيركنده بن شيرزيل

الاكبر ابن شيران شاه بن شيرفنه بن بستان شاه بن شيرفيروز بن شير وز يك بن سبسذا بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك من ملوك الفرس . قال ابو الفرج قالوا ان ابا شجاع بويه كان متوسط الحال وراى في منامهِ كانهُ يبول فخرج منهُ نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تطول السماء ثم تشعبت الى ثلاث تولدت عنها عدة شعب صغرى فاضاءت الدنيا بتلك النيران فمضى بويه الى رجل يقول عن نفسهِ انهُ منجم ومعزم ومعبر الاحلام . فقال ذلك الرجل هذا منام عظيم لا افسره الا بخلعة وفرس فقال بويه انا لا املك الا ما عليَّ من الثياب قال المنجم فعشرة دنانير قال بويه لا املك دينارين فكيف عشرة ثم اعطاهُ شيئًا فقال المنجم اعلم انهُ يكون لك ثلاثة اولاد يملكون الارض ويعلو ذكرهم في الافاق ويولد لهم من الملوك بقدر ما رايت في تلك الشعب فقال بويه اما تخجل من ان تسخر برجل فقير نظيري ونظير اولادي فقال المنجم اذكروا لي هذا اذا قصدتكم وانتم ملوك فاغتاظ بويه وامر اولادهُ فصفعوا المنجم قال ثم خرج بنو بويه من الديلم وساروا الى مرداويج بطبرستان فقبلهم احسن قبول وخلع عليهم « قال ابو الفدى » وكان المذكورون في خدمه ماكان بن كاكي الديلمي ولما ملك من الديلم اسفار بن شيرويه ومرداويج ملك ماكان بن كاكي الديلمي طبرستان وكانوا من جملة عسكره متقدمين عندهُ . فلما استولى مرداويج على ماكان بيد ماكان بن كاكي من طبرستان صار ماكان عن طبرستان واستولى على الدامغان ثم انهزم وعاد الى نيسابور ومعهُ ابنا بويه ولما راوا ضعفهُ وعجزه عن مقاتلة مرداويج قالوا نحن معنا جماعة وانت مضيف والاصلح ان نفارقك لتخف المونة عنك فاذا صلح امرك عدنا اليك فاذن لهم ولحقوا بمرداويج وتبعهم جماعة من قواد ماكان . فاحسن اليهم مرداويج وقلد عماد الدولة الكرج فقوي وكثر جمعهُ ثم اطلق مرداويج لجماعة من قواده مالاً على كرج فلما وصلوا لقبض المال احسن اليهم عماد الدولة واستمالهم فمالوا اليهِ حتى اوجبوا طاعتهُ وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش من ابن بويه

ثم قصد عماد الدين اصفهان وبها ابن ياقوت فاقتتلوا وانهزم ابن ياقوت واستولى ابن بويه على اصفهان وكان مع عماد تسع مائة رجل ومع ابن ياقوت عشرة الاف فعظم اسم عماد الدولة بهذا الفعل وقويت هيبتهُ وراسلهُ مرداويج بلاطفة ليحضر اليهِ وذاك يعتذر واقام عماد الدولة شهرين باصفهان وجبى الاموال وقام الى ارجان وكان قد انهزم اليها ابن ياقوت واسمهُ ابو بكر ثم انهزم منها بدون قتال فاستولى ابن بويه عليها (سنه ٣٢٠) ثم سار الى النوبندجان واستولى عليها (سنة ٣٢١) ثم ارسل اخاهُ ركن الدولة الى كازرون وغيرها من اعمال فارس فاستخرج منها الاموال . و(في سنة ٣٢٢) استولى عماد الدولة على شيراز . وفيها قتل القاهر اسحق بن اسمعيل النوبختي وهو الذي اشار باستخلافهِ . وفيها خلع القاهر في جمادى الاولى لما ظهر منهُ من الغدر بطريف السبكري

وحنثه في يمين الامان للذين قتلهم وكان ابن مقلة مستترًا من القاهر يجتمع بالقواد و يغريهم به ويريهم كيف انهُ غدر بمونس وبليق وولده وعدم الاعتماد على كلامهِ وتوصل الى ان رشا منجم سيما زعيم الساجية بمائتي دينار وهكذا معبر احلامه لكي يبغضا اليهِ القاهر واخيرًا بلغ مرادهُ فاتفق مع الساجية والحجرية على خلع القاهر فبلغ الامر الوزير فارسل الحاجب سلامًا والطبيب عيسى ليخبرا القاهر بالامر فوجداهُ نائمًا من شدة السكر ولم يقدرا على الوصول اليهِ فادركتهُ الجنود وسدوا عليهِ جميع المهارب فانتبه وهو مخمور فاراد الفرار ولات حين فرار فان الابواب كانت مشحونة فهرب الى سطح حمام فاخذوهُ وسجنوهُ مكان طريف السبكي واطلقوا طريفًا وسملوا عيني القاهر وكانت خلافتهُ عامًا وستة اشهر تقريبًا ثم عاش خاملاً الى ان مات (سنة ٣٣٨)

في خلافة الراضي بالله وهو العشرون (من سنة ٣٢٢ ـ ٩٣٤ الى ٣٢٩ ـ ٩٤٠)

ولما قبضوا على القاهر علموا منهُ مكان ابي العباس احمد بن المقتدر فاخرجوهُ واجلسوهُ على سرير الخلافة وبايعوهُ ولقبوهُ الراضي بالله وبايعهُ القواد والناس واستوزر ابن مقلة اخذًا براي سيما القائد وحاولوا ان يخلع القاهر نفسهُ فامتنع وهو في الحبس اعمى

وتوفي المهدي عبيد الله العلوي الفاطمي بالمهدية واخفى ولده القائم ابو القاسم موتهُ سنة وكان عمره ثلاثًا وستين سنة وولايتهُ اربعًا وعشرين ثم اظهر ولده موتهُ فبايعهُ الناس

وفيها قتل محمد بن علي الشلمغاني نسبة الى شلمغان قرية بنواحي واسط وكان يذهب الى الحلول والتناسخ وتبعهُ في ذلك عدد من اهل العلم والشهرة مثل الحسين بن القاسم وابو جعفر وابو علي بن بسطام وابرهيم بن ابي عون واحمد العبدوسي وكان الشلمغاني مستترًا مع اصحابهِ فظهر وقبض عليهِ ابن مقله فانكر مذهبهُ اولاً وكان اصحابهُ يعتقدون بهِ الالهية وهو ينكر انهُ يدعي ذلك واخيرًا بعد استنطاقات متكررة قضى الفقهاء باباحة دمهِ فصلب وصلب معهُ ابن ابي عون واحرقا بالنار . ومن مذهبهِ ان الله تعالى يحل في كل شيء على قدر ما يحتملهُ ذلك الشي وانهُ خلق الضد ليستدل بهِ على المضدود فحل في ادم وفي ابليسهِ وفي نوح وابليسهِ وصالح وابليسهِ عاقر الناقة وابرهيم وابليسهِ نمرود وهرون وابليسهِ فرعون وسليمان وعيسى وعلي بن ابي طالب وابا لستهم وقال ان الدليل على الحق افضل من الحق وان الضد اقرب الى الشي من شبههِ ومن مذهبهِ ان من احتاج الناس اليهِ فهو اله وقد طعن هو واصحابهُ بموسى ومحمد قائلين انهما خائنان لان هرون وعليًا ارسلا موسى ومحمدًا فخاناهما وان عليًا امهل محمدًا عدة سني اصحاب الكهف وهي سنة ٣٥٠ فاذا انقضت انتقلت الشريعة وكان يقول بترك الصلوة والصوم وكل التكاليف من العبادات واباحة الفروج وان يجامع المرء من شاء من ذوي

رحمو وانهُ لا بد للفاضل منهم ان ينكح المفضول لكي يكسبهُ من فضلهِ وان من امتنع قلب في الدور الثاني امراة

وفيها غزا الدمستق بلاد الاسلام وفتح ملطية بالامان بعد حصار طويل وفعل الروم ما يكره بالمسلمين وصارت اكثر البلاد في ايديهم

و(سنة ٣٢٣) قتل مرداويج الديلمي وكان قد تجبر وعتا وعمل لاصحابهِ كراسي من فضة ولنفسهِ تاجًا مرصعًا على صفة تاج كسرى فقتلهُ الاتراك الذين في خدمتهِ لانهُ كان يحتقرهم ويهينهم حتى انهُ يومًا امر بوضع سروج خيلهم عليهم لانهُ اغتاظ من صهيلها واصواتها و بعد قتلهِ خلفهُ اخوهُ وشكمير بن زيار

وفيها عظم امر الحنابلة وتمردوا فكانوا يكبسون دور القواد والعامة وحيثما وجدوا خمرًا اراقوها او مغنية ضربوها وكسروا الة الغناء واعترضوا في البيع والشراء وفي مشي الرجال مع الصبيان فازعجوا بغداد وركب صاحب الشرطة ونادى بمنع تجمع الحنابلة وبان لايصلي منهم امام الا اذا جهر بالبسملة فلم يفد ذلك فيهم . فاخرج الراضي حينئذٍ توقيعًا ينهاهم و ينكر عليهم افعالهم واعتقادهم التشبيه ومن جملة قولهِ « انكم تارةً تزعمون ان صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم على هيئتهِ وتذكرون لهُ شعر القطط والكف والاصابع والرجلين والنعلين والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا فلعن الله شيطانًا زين لكم هذه المنكرات ما اغواه واني اقسم بالله جهدًا اليهِ يلزمني الوفاء بها لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم هذه لاوسعنكم ضربًا وتشديدًا وقتلاً وتبديدًا ولاستعملنَّ السيوف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم »

وفيها تولى الاخشيذ وهو محمد بن طغج بن جف والي مصر من طرف الراضي وكان الاخشيذ تولى الرملة (سنة ٣١٦) من قبل المقتدر فبقي نحو سنتين . ثم ولاه المقتدر دمشق فسار اليها وكانت مصر وقتئذٍ بيد احمد بن كيغلغ فالراضي عزل ابن كيغلغ وولى الاخشيذ وعاد الاخشيذ واليًا في الشام ومصر وتوجه الى مصر (سنة ٣٢٣) وتسلمها

وفيها قتل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان امير الموصل وديار ربيعة عمهُ ابا العلا بن حمدان وكان السبب ان عبد الله ابا ناصر الدولة المذكور المكنى بابي الهيجاء الذي كان يحكم الموصل كان يدافع عن القاهر لما قاموا عليهِ وقتل في تلك المدافعة وكان ابو الهيجاء المذكور قد استناب ابنهُ ناصر الدولة فاستمر بها الى هذه السنة فضمن عمه ابو العلا بن حمدان ما بيده من ديوان الخليفة بمال يحملهُ وسار ابو العلا الى الموصل فقتلهُ ناصر الدولة فارسل الراضي عليهِ عسكرًا مع الوزير بن مقلة فهرب ناصر الدولة واقام ابن مقلة مدة في الموصل ثم رجع ثم تسالم ناصر الدولة مع الخليفة وضمن الموصل

بمال يحمله كل سنة

وفيها ارسل القائم العلوي صاحب المغرب عسكرًا في البحر من افريقية وفتح جنوه واوقع باهل سردنيه ورجع العسكر سالمًا غانمًا واستولى عماد الدولة بن بويه على اصفهان وكان هو ووشمكير بن زيار يتنازعان البلاد اي اصفهان وهمدان وقم وقاشان وكرج والري وكنكور وقزوين وغيرها · وشغب الجند ببغداد ونقبوا دار الوزير فهرب هو وابنه الى الجانب الغربي ثم راضوهم فسكنوا

و(في سنة ٣٢٤) قبض الحجرية والمظفر بن ياقوت على بن مقلة براي الخليفة واستوزروا علي بن عيسى فامتنع فولوها اخاه عبد الرحمن ثم قبضوا عليه وولوها ابا جعفر محمد بن قاسم الكرخي

وفيها قطع ابن رائق حمل واسط والبصرة وقطع البريدي حمل الاهواز واعمالها فضاق الامر على الخليفة وعجز ابو جعفر الوزير فعزلوه واستوزروا سليمان بن الحسن فلم يتحسن الامر فالتزم الراضي ان يقلد امارة الجيش لابي بكر محمد بن رائق وجعله امير الامراء وولاه الخراج والمعادن والدواوين في جميع البلاد وامر ان يخطب له على جميع المنابر وبطلت الوزارة من ذلك الوقت فان الوزير لم يكن ينظر في شي بل رايق وكاتبه وهكذا كل من تولى تلك الرتبة بعده وكانت تحمل اليه الخزائن فيتصرف بها كيفما شاء ويطلق للخليفة ما يريد · وهذه هي الخطوة الاولى المهمة التي فصلت بين الولاية والامامة فكانت الولاية في يد امير الامراء والامامة في يد امير المومنين ومن حين ما دخل ابن رايق بطلت قوة الخليفة الزمنية وصار الامر له وتغلبت عمال الاطراف عليها واستوزر (سنة ٣٢٤) ابن رايق محمد الفضل بن جعفر بن الفرات وكان على خراج مصر والشام فقدم بغداد وتولى امر الوزارة لابن رايق والخليفة

واشار ابن رايق على الخليفة (سنة ٣٢٥) بان يرافقه الى قتال ابن البريدي فاجابه وسارا الى واسط وامسك ابن رايق بعض الاجناد الحجرية ثم اجاب البريدي الى ما طلب منه فرجع الراضي وابن رايق الى بغداد · ثم نكث البريدي فارسل ابن رايق مع بجكم او بجكم عسكرًا وقاتلوه فانهزم ابن البريدي الى عماد الدولة ابن بويه وطمعه بالعراق · وفيها عصت جرجنت في صقلية على سالم بن راشد عامل القائم العلوي لانه كان قد اساء التصرف فكتب الى القائم فبعث اليه عسكرًا وحاصروها فالتجا الاهلون الى ملك الروم فالجاهم (ودام الحصار الى سنة ٣٢٩) فرحل بعض اهلها واستامن الباقون فاخذوا كبارهم وجعلوهم في مركب لياخذوهم الى القائم ولما توسطوا اللجة نقبوا المركب بامر قائد جيش القائم فغرقوا جميعًا فيالها من خيانة لا تليق بالبرابرة)

والان قد بلغنا الى اخر الربع الاول من القرن الرابع فاردنا اخذ خلاصة لكل ما تقدم في فصل مخصوص يستغني بها القاري عن مراجعة كل ذلك لتمام الفائدة المقصودة

فصل

في خلاصة تاريخية لما تقدم مما ذكر او سقط ذكره

لقد وصلنا الان الى اخر الربع الاول من القرن الرابع للهجرة وقد قام على تخت الخلافة الاسلامية اربعون خليفة من عهد ابي بكر الصديق الى الراضي فاذا حسبنا محمدًا وولدهُ ابرهيم الامام من بني العباس كانوا اثنين واربعين وذلك اكثر من نصف الخلفاء العربيين لان جميعهم يبلغون سبعة وسبعين في المشرق . وقد لعبت الامة العربية دورًا مجيدًا في ملعب هذا الوجود وتغلبت على ممالك عظيمة واقامت على اثارها سلطنة لم يذكر التاريخ اقدر منها . وقد كانت هذه الامة في الاعصار القديمة خاملة الذكر منقطعة عن بقية الناس والامم في اماكن اذا استثنيت القليل منها كانت قفارًا وحزنًا محترقًا . فكانها كانت ميتة الى ان ظهر الاسلام فسمعت فيها الحيوة دفعة واحدة وخرجت من قفارها واراضي انزوائها غامرة وجه البسيطة لا يقاومها شي ناشرة الوية قوتها ودينها ثم علومها وتمدنها حتى اذا بلغت الحدود المفروضة لها من الخالق عزوجل توقفت ثم اخذت بالانحطاط درجة فدرجة تاركة اثارًا عظيمة للتاريخ وغيره الى ان رجعت الى تلك البوادي كان لم يكن شيًا مفعولاً هكذا سنة الله في خلقهِ . على ان مع ضعف العرب وانتهاء ملكهم وتداخل الاغراب من اتراك وغيرهم في امورهم فان دينهم لم يضعف وقد قدر على امم ثانية من اولئك المبعدين عنهم ان يحملوا لواء الاسلام بعد قرون عديدة

والان اذ قد اتينا الى توقف القوة المذكورة وابتدائها بالقهقرة فلنراجع باختصارٍ ملخص اعمالها وحوادثها في المدة المذكورة مما سقط ذكره لحد الان اوَكان تكراره واجبًا لحفظ اتصال السلسلة التاريخية فنقول

لما نهض بنو العباس على تخت الخلافة الاسلامية ووقع السيف في بني امية فلم ينجُ منهم الا عبد الرحمن الداخل كما سلف واستولى على الاندلس انفردت اسلام اسبانيا عمن سواهم من المسلمين وتجرَّدوا لحروب الامم المتاخمة لهم مثل شعوب بلاجيوس ونسله وشارلمان ملك الفرنج وغيرهم واخبارهم في ذلك طويلة تطلب في المطولات التاريخية

ثم من اسلام اسبانيا انتشر روح الشرف والاريحية في اوربا وما يعبرون عنهُ بين العامة بالاشبهية فان العرب كانوا يمتازون في كل مكان عمن سواهم برقتهم وانسانيتهم وجرائتهم وعفوهم عند المقدرة وعلو سياستهم وحبهم وكرمهم كما تدل عليهِ التواريخ واودعته اشعارهم الكثيرة

وكان ما وجده العرب من الثروة والغنى في الممالك المفتوحة شرقًا وغربًا وفي الجبايات والخراج المجموع من النصارى واليهود وغيرهم قد جعلهم في اوج الاستبداد والنعمة وبدأ من ثم الاسراف

والبذخ بين صغيرهم وكبيرهم وتميزت دولهم بالكرم والترف ونضارة العيش وارتاحوا للحيوة الرافهة ونعيم الدنيا وكانوا يبذلون الاموال في خواصهم وقصورهم وجوامعهم وحججهم ونحو ذلك . ومن بعد فتح سورية والعجم وموريتانيه وبعض الهند والتركستان والاندلس عادت تجارة العرب ذات اهمية فانهم سعوا في احداث محطات تجارية في ممالكهم وسهل ذلك كله كونهم من دين واحد ولغة واحدة فما كان بذخ حكومة بغداد كما تقدم الا من الاسباب المساعدة لتقدم المتجر وامتداده ومعاطاة الاسفار بينهم وبين الهند من الجيل التاسع للنصرانية وطفق العرب يقطنون في تلك النواحي ودخل كثير من الهنود في دين الاسلام وامتد العرب ايضاً في الجزائر الهندية كسيلون وسومطره وجاوه وقلباس الى الصين وتقدمت القوافل العربية براً الى التترية وشمال سيبارية وتوصلوا من جهة افريقية الى نهر نكر واخذت من الجيل العاشر تتاسس دولهم في غانه ودنكره وتكرور وكوكو وبعدهُ في سنار ودرفور وبرنو وتمبكتو ونحوها وجاءوا من باب المندب على سواحل افريقية الى زنجبار واقاموا موانىء مكدشوه وميلنده وصوفله وكيلو ومزمبيق الى مداكسكر ولا يبعد ان يكون عرب لوزيتانيه هم الذين اكتشفوا اميركا في الجيل الحادي عشر

وكان الخلفاء الاول غير قادرين على افناء تلك الثروات في اول الامر لعدم وجود اسباب يبذلون فيها غناهم ولان عوائدهم القديمة كانت بسيطة لا تقتضي ذلك لكن لما كان الكرم خلة طبيعية في العرب لم يلبثوا طويلاً حتى وجدوا طرقاً لتبديد كل ذلك فابتدا الاسراف من لدن عثمان فان ذاك الاميرلم يكن عندهُ بشيء اعطا نصف مليون دينار في مرة واحدة والوليد بن عبد الملك انفق في بناء جامع دمشق ملايين من الدنانير وعلى ما نقله ابن خلدون كان اربعمائة صندوق من المال في كل صندوق الف واربعماية الف دينار وهذا وان كان من المبالغات الظاهرة الموسسة على الاستعظام فانه لم ينفق اقل من مليون ونصف مليون دينار في عماره والمنصور بعد ان صرف مبالغ على بناء بغداد وقصورها وعلى حجتهِ الاخيرة ترك نحو ثلثين مليون ليره انكليزية . وقد تقدم كيف ان ابنهُ المهدي صرف نحو ستة ملايين جه في حجة واحدة الى مكة واقام في كل طريقهِ نحو سبعمائة ميل منازل وخانات ونحوها وكان اول من ادخل الثلج الى الحجاز . والمامون قبل ان يحول عن جواده في دمشق انفق اربعة اخماس دخل بعض الولايات نحو مليونين واربعمائة الف دينار (نحو ذلك ليره افرنسية) . وانفق في دخوله على بوران مالا جزيلا . وكان على راس الملكة مائة جوهرة ثمينة . وفيما يذكرهُ ابو الفدا عن اسراف المقتدر ودولته عند قدوم رسل ملك الروم (سنة ٣٠٤ــ٩١٤) ما يغني عن البرهان قال « قدم رسل ملك الروم الى بغداد . فلما استحضروا عبي لهم العسكر وصفت الدار بالاسلحة وانواع الزينة . وكان من جملة العسكر المصفوف حينئذٍ مائة الف وستون الفًا ما

بين فارس وراجل · ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة ووقف الخدام الخصيان كذلك وكانوا سبعة الاف اربعة الاف خادم ابيض وثلاثة الاف اسود · ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذٍ سبعمائة حاجب · والقيت المراكب والزوارق في دجلة باعظم زينة · وزينت دار الخلافة فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين الف ستر منها ديباج مذهبة اثنا عشر الفًا وخمسمائة · وكانت البسط اثنين وعشرين الفًا · وكان هناك مائة سبع ومائة سباع · وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصنًا وعلى الاغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة والاغصان تتمايل بحركات مصنوعة والطيور تصفر بحركات مرتبة وشاهد الرسول من العظمة ما يطول شرحهُ واحضر بين يدي المقتدر اه »

وكان لكل من الخلفاء اعمال وابنية عظيمة بذلوا عليها خزائن من الاموال فان المتوكل انفق في بناء القصر الجعفري في المتوكلية نحو مليون دينار ولم يكن مثلهُ في علوهِ ويعرف بقصر اللوءلوءة وقد اجرى اليهِ الماء من نهر احتفرهُ لهذه الغاية

ولم يكن بنو امية في الاندلس باحكم من العباسيين في بذلهم وعظمتهم فعبد الرحمن الداخل انفق مبالغ في اقامة جامع قرطبه وقصرها قيل مائة الف دينار وقيل مائة وثمانين الفًا وانهُ دفع قيمة الكنيسة التي اقام عليها المسجد ثمانين الفًا وكان الجامع المذكور قائمًا على ستمائة وخمسة وستين عمودًا من المرمر واليصب والرخام الاسود وقد اكملهُ ابنهُ هشام بعدهُ ونصفهُ لم يزل الى الان وقد اضيف الى الكاتدره وفيما فعلهُ عبد الرحمن الناصر وتركهُ كنزًا جميلاً من البناء وهو قصر الزهراء الفخر الابنية العربية ما يفوق كلما ذكر وكان ذلك القصر في الزهراء التي احدثها هذا الامير على بعد ثلاثة اميال من قرطبة وكان في وسط جنان نضرة جميلة وصرف على ذلك من الزمان نحو خمس وعشرين سنة ومن المال نحو ثمانية عشر مليون دينار واستخدم لبنائهِ اعظم مهندسي العصر ونحاتي الروم وبنائيهم · وكان اكثر من الف ومائتي عمود من الرخام الاسپاني والافريقي والايطالي واليوناني تزين تلك المشيدات · وكان الايوان منطقًا بالذهب والحجار الكريمة · وكنت تشاهد على البركة المائية التي في الوسط صور طيور وحيوانات محكمة الصنعة بما لا مزيد عليهِ · وكان يرى في القصر الاشرف فيما بين الجنان بركة من المرمر الثمين محكمة الصنعة مملوءة بالزيبق الصافي عوض الماء · وكان يقيم في ذلك القصر من خدم ومماليك وغيرهم ستة الاف وثلاثمائة · وكان عند ما يركب الناصر الى الغزو يركب الى جانبيه اثنا عشر الف فارس بالمناطق والسيوف الذهبية وسنذكر بعض اخباره في الجزء الثاني وقس على ذلك من البذل المفرط الذي عم الدول العربية في كل مكان من ممالكهم وكانت حواشيهم وخدامهم سائرين على اثارهم

وفيما يذكر عن البرامكة وغيرهم ما يدلنا على ذلك

فاضعف على ممر الزمان هذا البذخ والاسراف قوة الخلفاء · وسن لخدامهم ورجالهم سنن الراحة والتنعم فعادوا يوثرون الشغل والتجارة والتمتع باتعابهم والسكنى بسلام على الحروب وفتح الممالك · وفترت فيهم الحماسة الاولى ولا سيما في الاندلس فان عدالة حكم الامويين وحمايتهم العلوم والصنائع والتجارة واطلاقهم حرية الاديان اوصلت اسبانيا في تلك الاجيال الى سراة السعادة · وتضررت من ذلك النصرانية لامتزاج الاهالي بالمسلمين حتى عادوا يتزاوجون بين بعضهم وكثير من الاهلين اختاروا القران على الانجيل وصارت قرطبة مقر العلوم والآداب والبلاغة والصناعة والتجارة والزراعة واثرت خصال العرب جدًا في اطباع الاسبانيين المتنازلين عن اهل قرطاجنة والرومان والوندال والغوط وغيرهم كالجراءة والمغايرات وحب النساء الذي امتاز بهِ سكان القفار العربية · وتنازلت تلك المملكة من عبد الرحمن الداخل الى بنيهِ · وخلفهُ اولاً ولده سليمان ثم تغلب عليهِ اخوه هشام بعد حرب شهيرة في بلق من الاندلس على ان الاسراف المذكور وفتور همة العرب كما تقدم لم يتم في مدة قصيرة فانهُ لم يكن ينقصهم رجال يحبون المخاطرات والفتوحات في كل زمان فان هشام بن عبد الرحمن الداخل جهز عبد الملك احد القواد الشهيرين وبعثهُ بعسكر عديد الى محاربة جيرانه وفتح اربونه وتقدم الى نربونه وحاصرها وفتحها عنوة واسر ما بقي من الاهالي واتى بهم الى سيرقوسة ثم الى قرطبه وشغلهم في بنايات المدينة وتركت نربونه خرابًا ولما عجز العرب عن فتح اسطورية التي كانت انتقضت عليهم في عهد الفونس الملقب بالعفيف وقطعت عنهم المائة جارية التي كانت ترسلهن اليهم نظير خراج سنوي بعد ان خسروا في حروبهم معها نحو ستين الفًا في مروج بلندوليد تجرد منهم قوم غفير للاخذ بالثار فان العرب من طباعهم الانتقام فكانوا يتجاوزون تخوم ملكهم ويشنون الغارات على المدن والثغور فغزوا بروونسه وقسمًا من ايطاليا وداوموا هذه المهنة مدة قيامهم في اسبانيا وكان اكثرهم من عرب افريقية

وهشام بعد ان حكم نحو سبع سنين توفي كما تقدم وبويع لولده الحكم وهذا بعد ان طرد عميهِ اللذين كانا قد نهضا لمحاربتهِ وساعدهما عرب افريقية استبد في الامر وسار على اثار آبائه فحارب جزيرة كورسكة وفتحها ثم لزم السلام كل ايام حياتهِ

وفي عهد المامون وميخائيل بليبوس قيصر الروم فتح المسلمون جزيرتي كريت (اقريطش) وصقلية ولم يكتب مورخوهم الا قليلاً عن الاولى لجهلهم قدرها وما كانت عليهِ يومًا وعظمة ملوكها مثل جوبيتر (المشتري) ومينوص فان الاول قد رقوهُ الى درجة اله الآلهة · والثاني الى رتبة قاضي قضاة الاخرة « قال ابن خلدون ما معناهُ انهُ بعد ما فتك الحكم بن هشام الاموي باهل الربض

المجاور قصره في قرطبة لانهم ثاروا به (سنة ٢٣٢ ـ ٨٤٦) واوقع بهم الوقعة الشهيرة وهدم ديارهم ومساجدهم واجلى الفل منهم الى بر العدوى فنزلوا بفاس وغيرها وغرّبَ اخرين الى اسكندرية فنزلوا وتفرقوا في جوانبها تلاحى رجل منهم مع جزار من سوقة الاسكندرية فنادوا بالثار واستلحموا كثيرًا من اهل البلد واخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها وولوا عليهم ابا حفص عمر بن شعيب البلوطي ويعرف بابي الغيض من اهل قرية مطروح من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة فقام برياستهم وكان على مصر يومئذٍ عبد الله بن طاهر فزحف اليهم وحاصرهم بالاسكندرية فاستامنوا له فامنهم وبعثهم الى جزيرة اقريطش فعمروها واميرهم ابو حفص البلوطي وتداولها بنوهُ من بعدهِ مدة مائة واربعين سنة الى ان ملكها اربانوس بن قسطنطين ملك القسطنطينية من يد عبد العزيز بن شعيب من اعقابهِ (سنة ٣٠٥ ـ ٩١٧) اه‍. وهي جزيرة ما بين صقلية وقبرس بمقابلة الاسكندرية

اما مورخو الروم فنقلوا لنا ان جماعة من الاندلس تركوا بلادهم لعدم استحبابهم هواءها وحكمها ودوخوا يطلبون لهم محلاً اقرب لذوقهم ودعوا بقرصان (اي لصوص بحر) فانهُ لم يكن لهم اولاً غير عشرين سفينة وكانوا يستبيحون غزو املاك العباسيين لانهم كانوا من الحزب الابيض والعباسيون من السود. فقصدوا اسكندرية مصر ودخلوها غدرًا وقتلوا الصديق والعدو ونهبوا الجوامع والكنائس وباعوا ستة الاف اسير نصراني ولم يزالوا هناك الى ان بلغهم مجيء المامون بالعساكر فحملوا ما وجدوهُ من ثمين وخفيف ونزحوا قبل وصولهِ

ثم غزوا من النيل الى مضيق كاليبولي كل الاماكن المختصة بالروم والعباسيين ولما راوا حسن كريت بروم بها وكثرة خصبها رجعوا اليها باربعين سفينة ودخلوها دون خوف ونهبوها وفي رجوعهم ليعبوا سفنهم بالنهب وينطلقوا وجدوا انها كانت قد احرقت لان ابا كعب رئيسهم احرقها هو نفسهُ كما اقرلهم حتى استجنهُ بعضهم والبعض استخانوهُ ونحو ذلك. ولما كثرت المذاهب فيهِ انتهرهم قائلاً اني جئت بكم الى ارض يفيض منها اللبن والعسل فهذه هي مقركم فانسوا الان قفاركم التي ولدتم فيها واتخذوا لكم مسكنًا ووطنًا. فاجابوهُ واولادنا ونساونا. قال فالعذارى اللواتي اسرتموهنَّ يقمنَ مقام نسائكم ومنهنَّ ترزقون اولادًا فاستصوبوا رايهُ ولبثوا هناك. ومن غاب واجام جبل ادّ بنوا لهم غير مراكب وداوموا الغزو غير مبالين بعمارات الروم مدة مائة واربعين سنة واستوطنوا اولاً عند خليج سوره واحاطوا المكان بسور وخندق وبقوا هناك الى ان هداهم الى مكان احسن في الجانب الشرقي راهب كان قد اسلم ودعى ذلك المكان من ثم خندقًا ثم اطلق هذا الاسم على كل الجزيرة ومن هذا جاء لفظ كنديا عند الافرنج ومن المائة المدينة التي كانت في عهد مينوس لم يكن وقتئذٍ سوى نحو ثلثين كلها خضعت لهم الا قيدونيا فانها قاومتهم وحفظت حريتها ودينها

ثم فتح الافريقيون صقلية وكان يحكمها الامراء الاغلبيون حكام افريقية ومن مواني تونس و بيزرت وبلرم قلعت اساطيل العرب وغزت مائة وخمسين مدينة من كلابريا وقومبانيا في ملك نابلي ونهبت غيراماكن من ايطاليا حتى اطراف رومه العظمى ولوكان الاسلام وقتئذٍ في اتحاد لامكنهم فتح ايطاليا كلها ولكن قوة العباسيين كانت قد ضعفت في المغرب واستبد الاغلبيون والفاطميون في افريقية وكانت صقلية نفسها تحاول الانسلاخ والاستقلال عنهم · هذا ولم يكن عملهم ذلك بقصد الافتتاح والتملك بل على سبيل الغزو والنهب طبق عوائد اجدادهم في البادية

وكانت ايطاليا ترتعد عند استماع ذكر العرب ورومه العظمى ترتجف اذ ترى ان الد اعدائها انما اتوا اليها قبلاً من افريقية ولم يكن خوفها من اعدائها الحدثاء اقل منهُ من القدماء

ففي (سنة ٢٣٢-٨٤٦) تجاوز عدد غفيرمن مراكب المسلمين ودخلت نهر طيبار بوش و رست عند رومه ونهب المسلمون بعض الكنائس واخذوا مذبحًا من فضة من كنيسة مار بطرس الشهيرة ولم يهدموا ولا احرقوا شيئًا لعدم اتفاقهم وقد كان في امكانهم ذلك لان الرومان تركوا لهم الاماكن خالية وهربوا · ومن هناك اخذوا طريق آنيا ونهبوا فوندى وحاصروا غايتا من اعمال نابلي وداوموا على زيارة المدن المطهرة واهل رومه يرتعدون من ذكرهم واستنجدوا بالفرنسويين ولكن شرذمة صغيرة من العرب هزمت عساكر فرنسا · ولما راى الرومان ما حل بهم من الضرر وتعاسة حالهم ارادوا الرجوع الى سلطة ملوك القسطنطينية انما لعدم الاتفاق ولضعف تلك المملكة ايضًا لم يتم ذلك

وفي هذه الاثناء والمصائب محيطة بالرومان من كل جانب توفي البابا وكان متسلطًا وقتئذٍ على الزمنيات فظن في اول الامر ان بموتهِ ستزداد البلوى غيران الدواعي الحاضرة حينئذٍ جعلتهم ينتخبون من هو اهل لتخليص الملك فاقاموا ليون الرابع الروماني المولد وهو بحسن سياستهِ وجراءتهِ استخلص رومه وكل النصرانية من رق العرب وكان اول اهتمامهِ بتطهير ما تبقى من الذخائر والآثار القديمة ووضعها في مكان امين ثم باجراء الصلوات العمومية والتطوافات والاحتفالات الدينية فاحيا بذلك الدين الذي كان قد ضعف في قلوب المومنين وحرك في الاهالي روح الاشهمية والشرف واضرم في قلوبهم نيران المدافعة عن معتقد ابائهم ثم بتحصين اسوار المدينة المهملة من قديم واقام اثنتي عشرة قلعة في الاماكن التي كان تجاوزها ممكنًا وجعل قلعتين على حافتي نهر طيبار بوس بينهما سلاسل حديدية لتمنع تقدم العدو وقد تمكن من كل ذلك لمصيبة كانت حلت بالعرب فاخرت رجوعهم وهوانهم لما رفعوا الحصار عن غايتا وركبوا البحر تحركت عليهم امواجهُ وهاج العاصف بهم فابتلع اكثر تلك السفن واصحابها اما الامير الاغلبي سلطان افريقية فلم يكن قد اكتفى بما سبق فارسل

عمارة اخرى وعسكرًا غفيرًا فقاموا من افريقية الى سردينيا وبعد ما اقاموا مدة في مراسيها نهضوا منها وساروا حتى وصلوا الى مصب نهر رومه وكان على ما ظهر من كثرة عددهم وعِدَدهم ان مرادهم الافتتاح هذه المرة لا الغزو فقط وكان البابا ليون الرابع قد اتم الاتحاد بينهُ وبين نابلي وغايتا واما لغا الخاضعة وقتئذٍ بالاسم لملوك الروم فعند وصول العرب جاءت سفن المدن المذكورة وحلت بفرضة اوسطيه وهي فرضة رومه قديمًا وقد هُجرت لرداءة هوائها . وكان على امارة تلك العمائر قيساريوس ابن دوقة نابلي من الابطال المشهورين وكان قد حارب عمارة العرب قبلاً واستظهر عليها فنهض قيساريوس المذكور وذهب بصحبته بعض اعيانهِ الى رومه ودخلوا على البابا وكان وقتئذٍ في البلاط اللاتراني وبعد المداولة نهض ليون وسار على رؤوس العساكر الرومانية الى اوسطيه المذكورة وغب ان حضروا القداس وتناولوا القربان المقدس ومنحهم ليون البركة الرسولية وجه خطابهُ الى العلاء قائلاً «اللهمَّ كما انك اعنت وخلصت السليحين بطرس وبولس من امواج البحر خلاص واحفظ الان بقدرتك اذرع هولاء المجاهدين عن اسمك القدوس» وبعد ان استغاث المسلمون بالعزة الالهية وروحانية الرسول اخذوا بمصادمة سفن العدو وكانت سفن النصارى بمعزل عن الريح ومحصنة ضمن المينا فلم تكن سفن المسلمين قادرة على صدامها بدون التقدم نحوها وكان الوجه اجمالاً للطليان الا انهُ قبل تمام الظفر بيد البشر هبت ريح عاصفة فازعجت البحر وامواجهُ وضربت تلك الامواج المختلطة مراكب المسلمين من جميع الجوانب فاعدمتها الحركة الاختيارية وتكسر كثيرٌ منها كل ذلك وسفن النصارى آمنة في مراسيها . واخيرًا انجلى الامر عن ظفر النصارى وما بقي من تلك السفن الاسلامية وقعت في ايديهم فقبضوا على من فيها من الرجال واوقعوا بهم دون شفقة وابقوا منهم عددًا وافرًا ليقيموا ما كانوا هدموهُ واخربوهُ ثم انطلق البابا مصحوبًا بالعساكر المتحدة واهل رومه الى قبري السليحين بطرس وبولس وقدموا الشكر لله الذي نصرهم على اعدائهم ورفعوا من الكسب ثلاثة عشر قضيبًا من الفضة شبه القناطر وعلقوها على هيكل ماري بطرس

وكان ليون كل حياتهِ مجتهدًا في تزيين رومه واصلاحها وترميم خراباتها وكنائسها الى غير ذلك ويعد من فضلاء الباباوات نظرًا الى غيرتهِ وكرم خصالهِ . ومن جملة ما زين بهِ كنيسة ماري بطرس تلك الاوعية الذهبية نحو مائتي اوقية المحفورة عليها صورتهُ وصورة قيصر محاطة باكليل من لؤلوء . وبعد ان قبل ليون اناسًا نزحوا من كورسكة التي كانت حينئذٍ في يد العرب وغيرهم من المغرب وقدم لهم المساعدات اللازمة فانزل بعضهم بقرب نهر طيباريوس والبعض وهم الاكثر بقرب ماري بطرس اقام سورًا للكنيسة المذكورة وحصن المكان واطلق من ثم على ماري بطرس والقصر الباباوي الذي بقربهِ وهو الواتيكان اسم مدينة ليون

هذا ما كان في المغرب واما ما كان في المشرق فان طيوفيل بن ميخائيل بلبوس ملك الروم واشد امراء اليونان في عصرهِ نهض ضد العرب وركب عليهم بنفسهِ خمس مرار طورًا مدافعًا وتارة مهاجمًا وكان موقرًا من اعدائهِ حتى في وقت الهزيمة واخيرًا دخل الشام وحصر مدينة زبطره المجهولة حيث ولد المعتصم ولاشتغال الاسلام وقتئذٍ بمحاربة بعض الانبيا الكذبة من الفرس لم ينتبهوا اليهِ فامر باحراق المدينة المذكورة وبان يقطعوا بعض اعضاء سكانها ويضعوا لكل منهم علامات بقصد الانتقام · وكان المعتصم في مدة خلافة اخويهِ الامين والمامون متوليًا على الاناضول وارمينية والكرج والشركس ولما كانت هذه في اخر حدود الروم كان قد تعلم ما تحملهُ في الحروب لحفظها الجراءة وفن الحرب وكان من ابطال زمانهِ وقد لقب بالمثمن لانهُ انتصر ثمان مرار وقيل لانهُ الثامن من العباسيين ولخلافتهِ ثمان سنين وثمانية اشهر وثمانية ايام وتركهِ ثمانية بنين وثماني بنات وثمانية الاف عبد وثمانية ملايين ذهب وقد سبق ذكر بعض ذلك فعزم المعتصم اخيرًا على اخذ الثار ورفع العار ولا سيما لما اخبر انهُ عند حريق زبطرة سمع صوت امراة من قومهِ تقول آه وامعتصماه فامر بحشد العساكر العراقية والشامية والمصرية وبجمع عسكر جديد من العرب والاتراك قيل ان عدد الفرسان كان ثلثمائة وثلثين الفًا وان جهزة العساكر كلفت عشرة ملايين ذهب وبعد ما اجمع على السفر نهض بالعساكر الى طرسوس ومن هناك انقسمت ثلث قسم ذاهبة الى الروم وكان ولد اخيهِ العباس معهُ في موخرة القوم وهو في الوسط والافشين خيذر بن كاوس في الامام · وكان فكرهُ اخذ ثاره اولاً بمثل ما افتري عليهِ وهو خراب مدينة عمورية حيث ولد ابو طيوفيل وكانت المدينة المذكورة من فريجية مهد العائلة المالكة وبعد القسطنطينية في المقام فحاصرها المعتصم بعساكرهِ · وكان راي وزراء القسطنطينية في اول الامر ترك المدينة والقيام عنها اما طيوفيل فابى الا القتال وبدت الحرب · قال اهل الدقة والتمحيص من المورخين ان لا العرب ولا الروم نالوا وقتئذٍ شرف النصر وان يكن المعتصم هو الظاهر اخيرًا وذلك لان العرب ظفر عليهم ثلثون الفًا من الفرس كانوا في خدمة الروم وظفر بالروم فرسان الاتراك الذين كانوا في خدمة المعتصم ولو لم يحدث مطر تلك الليلة وترتخي الاقواس من الماء لما قدر طيوفيل على النجاة بقليل من عساكرهِ ووقف اليونان بعد انهزامهم على مدينة درولية مسافة ثلثة ايام من عمورية · وكاتب طيوفيل المعتصم يطلب اليهِ ان يترك عمورية ويدفع لهُ ما يريد فلم يقبل وابقى الرسل عنده ليكونوا شهودًا على نصرهِ · وبدا الحصار وبقوا خمسة وخمسين يومًا لا يقدرون على شيء الى ان دل الاسلام رجل يوناني خائن على مكان يمكن الدخول منهُ بسهولة واعطاهم علامة وجود صورة اسد وثور فيهِ فدخلوها اخيرًا واخربوها ونهبوها ومن هناك رجع المعتصم بعساكرهِ الى بغداد · وكان

طيوفيل ينتظر النجدة من الافرنج وفي تلك الحرب قتل من الاسلام ستون الفًا ومن النصارى اربعون الفًا فقتل الاسلام عشرين الف اسير ليفدوا رجلا برجل فانهُ كانت تدعوهم الضرورة احيانًا الى المساواة اما بالاعدام واما بالخلاص

وفي تلك الحروب الامية والملية لم يكن يوثق بالصلح ولا بالحرب فان العفو كان نادرًا في القتال وكانت الاسرى تحمل اشد الاهانات والضرر والعبودية والعذاب فان بعض الملوك الكاثوليكيين يذكر مينة عرب اكريد عندما اخذها النصارى بان منهم من سلخوا احياء ومنهم من وضعوا في الزيت المغلي والمعتصم لاجل كيده وهواهُ لاشى المدينة المقدم ذكرها الحاوية مائتي الف نفس وخسر لاجل ذلك رجالاً كثيرة وانفق اموالاً غزيرة وامثال ذلك كثيرة في تواريخهم

وبعد موت المعتصم توقفت حقيقةً قوة الخلفاء العباسيين فان هذا الامير بعد رجوعهِ من حرب طيوفيل ملك الروم وقد شاهد فتور جراءة المسلمين من العرب باختلاطهم مع الفرس واهل الشام ومصر وفقدانهم بسالتهم بانصبابهم على اللذات والعيشة الارتياحية التزم باستخدام الاتراك سكان الشمال فان قوتهم وشجاعتهم طبيعيتان لا كالعرب الذين باسهم صوري يتحرك بالمعاني ولهذا كانت المذاهب الدينية ونحوها من الامور المعنوية تؤثر في طباعهم فاذا ضعف الفكر بطلت الجراءة وقلت الهمة منهم

فالعرب تقلدوا سيف الاسلام عن اقتناع باطني عقلي بصحة تعاليمهِ وكانوا ينصبون على الموت لا طمعًا بالارباح والمجد العالميين بل بنوال الجزاء الاخير الموعود بهِ لكن بعد ان ذاقوا نعيم الدنيا وارتاحوا للذاتها هيج ذلك العطش للتنعمات الاتية وانقسمت اميالهم ما بينهما فلم تعد جراءتهم كافية لمقتضيات الازمنة اما الاتراك وغيرهم من سكان الشمال فان الجراءة فيهم بالطبع لقوة ابدانهم ولان القوى الحيوانية فيهم اشد من سكان الجنوب ففي حروبهم تكون غايتهم الاولى الظفر للاطماع الحالية اذ هي غاية لديهم ومن كانت هذه صفاتهُ يبقى ابدًا شجاعًا بالطبع فاذا امكنك ان تضرم عقلهُ بآمال صورية دينية ايضًا جعلتهُ مضاعف البسالة وهذا ما جعل المعتصم يفضل الاغراب على قومهِ فاستخدم منهم نحو خمسين الفًا وفوض اليهم امر الحراسة بعد تهذيبهم في دين الاسلام وعوائدهم فكانوا قوة جديدة في اول الامر اشربت للملكة الى ان عادت مع الوقت ضعفًا وسببًا لانحطاط العرب باختلاسهم القوة منهم متصرفين بامور الخلفاء كيفما شاءوا ومستبدين بالولايات فاصبحوا ممقوتين من الجميع. وقامت الاختلافات بينهم وبين الرعايا والعساكر الاهلية والتزم من اجل ذلك المعتصم نفسهُ ان ينقل محل سكناه الى سامره على جانب دجلة نحو اثني عشر فرسخًا من بغداد مصحبًا جامعة الاتراك وبموت المعتصم ماتت شوكة الخلفاء - والواثق بالله والمتوكل كانا مبغضين لاضطهادهما من لم توافقهما في خلق القرآن

وقد كان المعتصم اعطاها مثلاً بسلخه حيًا رجلاً اسمهُ احمد لقوله بعدم خلق القران · والمتوكل امر ان لا يخرج احد من المسيحيين واليهود بدون وضع الغيار تمييزًا لهم عن المسلمين والغيار زنار من جلد اسود · وكان اذا اذنب احد اهل الذمة يومر بجلده اولاً على كتفيهِ بالغيار المذكور · وهذا الخليفة لما راى نفسهُ مكروهًا من عموم الشعب القى كل اتكالهِ على الاتراك · وهولاء لما كانوا نظير سيدهم ممقوتين وجدوا ان الافضل لهم كان القاء الفتن والحركات بين القوم وتحالفوا مع المستنصر بن المتوكل على قتل الاخير وقطعوهُ بالسيف سبعة اقسام وهو على الطعام في قصره قيل ان المتوكل كان يتظارف بعض الاوقات مع جلسائهِ باراتهم الموت وتخويفهم فكان يامر بافلات بعض السباع وهم على الطعام او بوضع الحيات تحت السفر او بكسر اوعية مملوءة من العقارب قدامهم وكان يامرهم بعدم الهرب ولزوم مكانهم وكان اذا لسع احدهم يعطيهِ نوعًا من الترياق محفوظًا عندهُ لهذه الغاية ولما نظر احد حاشيته الاتراك داخلين لقتلهِ · قال اليوم يوم السيوف لا يوم السباع والعقارب · والمنتصر بعد جلوسهِ على تخت الخلافة (سنة ٨٦١) اراد ان يبرىء نفسهُ من قتل ابيهِ امام الجمهور بالسيف والخطابة وامر الوزيران يقنعهم بذلك فاجابهُ وزيرهُ على الفور غير خائف من الموت « ارتكاب الذنب اسهل من التبرئة منهُ » قالوا وهذا الامير راى اباهُ في الحلم يوبخهُ على اغتيالهِ اياه ويبشرهُ بالموت وبقي هادسًا زمانًا من هذا الحلم المرهب واعتراه نوع من المالنخوليا ومات بعد ستة اشهر · وقيل ان سبب موتهِ كان رويتهُ بساطًا مرسومًا عليهِ صورة ذنب ابن كسرى الشبيه بذنبهِ وكيف انهُ قوص عليهِ فلم تكن تتركهُ تلك الروءيا

والخلاصة ان الاتراك كانوا يلعبون بالخلفاء لعب الاعصار بالغبار فكانوا ينزعون الملك ويولونهُ عمن ولمن ارادوا فولوا وخلعوا وقتلوا ثلاثة خلفاء في اربع سنين . واضطر المستعين بالله ان يسلم اليهم انتخاب امير الحرس وامارة الامراء وهي الرتبة الاولى الاجرائية في الخلافة واخيرًا خلع نفسهُ وتنحى الى مسكن حسن بن علي في بغداد · والمعتز بعدهُ حبسوه ومات عطشًا لانهم لحظوا منهُ الغدر بهم قال ابو الفدى انهم جروهُ من رجليهِ الى خارج القصر ووضعوهُ في الشمس مدة وبعد ان ضربوهُ ضربًا مؤلمًا منعوهُ عن الاكل يومًا كاملاً وجعلوهُ في سرداب عميق · واقبح من ذلك ما جرى للمهتدي فانهُ بعد حرب دموية بينهُ وبينهم وقتله بليكيال رئيسهم دخلوا عليهِ وتفلوا في وجههِ ومسكوه ولطموهُ بارجلهم وبالدبابيس وعذبوهُ ليخلع نفسهُ وهو كان يجيبهم نفيًا قائلاً الموت الحرة كل مولود اما الحكام فيقتضي ان يذهبوا الى القبر تاركين الملك بحالهِ واخيرًا طرحوه على الارض وداسوهُ بارجلهم ولم يزالوا يعذبونهُ حتى مات

اما في عهد المعتمد فمات موسى رئيس الاتراك وهو مع اخيهِ الموفق بالله اضعفاهم بتفريقهم في

الاماكن المختلفة من المملكة ولكن ذلك لم يجدهما سوى راحة وقتية لانهم فيها بعد استبدوا بالولايات والاماكن التي ارسلوا اليها كما سياتي

وبينما الامور كذلك واذا بنبي جديد ظهر الى ساحة الوجود وهو قرمط وادعى انه روحانية الانبياء السابقين وقد نقدم خبره والبعض يقصون خبره هكذا انه (سنة ٢٧٨ـ٨٩١) كان في نواحي الكوفة رجل شيخ يواظب على الصوم والصلوة والعيشة الفقرية وكان يعتبر كولي ثم اختار من اتباعهِ اثني عشر رجلاً وارسلهم لينذروا بشريعتهِ ولما شاع امره امر حاكم الكوفة بسجنهِ فشفقت عليهِ جارية الحارس وفكرت بنجاتهِ فتركت الى ان نام سيدها وسرقت المفاتيح وحلت الشيخ من اغلالهِ ورجعت المفاتيح الى مكانها دون ان يعلم احد ففي اليوم الثاني دخل السجان السجن فلم يجد الشيخ والحال ان الابواب كانت مغلقة كما تركها فتعجب من امره ومن الخوف اعلن في البلد ان بعض الملائكة اتوا وحلوه واخرجوهُ من السجن وكان الشيخ لما سمع يوكد ذلك وجذب اليهِ حزبًا وبقي زمانًا ينذر بمذهبهِ في جبال الشام لانهُ كان هرب اليها ثم اختفى ولم يعلم مكانهُ فقال تلاميذه انه عرج الى السماء وصحبتهُ ثلاثة ملائكة

وتفرقوا بين عرب البادية يعظون بدين امامهم ويحزبون العامة على العباسيين وعلى اسرافهم وكان رئيسهم ابو سعيد فرض عليهم عوض المفروض من الشرع ان يودوهُ خمس ما ملكوهُ وخمس الغنائم وكان يطلب ممن يدخلون في مذهبهِ يمينًا بالطاعة العمياء لاوامرهِ ويحفظ السر القائم باتحادهم حفظًا لهم من الاضطهاد . ولما تكاثروا نهضوا لحرب الخلفاء وحارب ابو سعيد المذكور عباس قائد جيش الخليفة وانتصر عليهِ واسرهُ واسر الفًا وثمانمائة من عسكرهِ وامر فربط عباس الى شجرة وبينما هو مقيد آيس من الحيوة جاءهُ ابو سعيد وقال له ان وعدتني انك نقول للخليفة ما اقولهُ لك تخلص حياتك وبعد ان حلفهُ اليمين على ذلك قال له قل للمعتمد « انا من سكان البادية اقنع بالقليل وهكذا اتباعي ولم اتعدَّ له الى الان على قرية ولا على مدينة بل انما حاربت من تعدى عليَّ فقط لاختلافي عنهُ مذهبًا وكمت الظافر فان رجالي معودون على التعب والنكد وليس كعساكرهِ يحبون الراحة فاذا قدموا الى هذه القفار امكن هزمهم والتغلب عليهم حالاً فليعتبر اذًا المعتمد قلة المنفعة له من حربنا ويقدمَ على تركنا فنعيش بسلام » فبلغ عباس كل ذلك للخليفة فتركوا مدة فزاد عددهم ونقووا جدًّا وعادوا يغزون في التسعمائة من المسيح المملكة العباسية من الجانب الواحد الى الشام ومن الجانب الثاني الى البصرة وتملكوا ولاية البحرين في خليج العجم وخضع لهم جملة قبائل من العرب واشتهر ابو سعيد وابنهُ ابو طاهر وكانا يركبان على اكثر من مائة الف محارب كلهم ممارون بنار التعصب لدين امامهم ويغلبان عساكر الخلفاء حيثما التقيا بهم واخذا اخيرًا مدينة الكوفة والبصرة ورقه وبعلبك

جدول خطا وملاحظات الجزء الاول

اذا اشكل عليك لفظة او معنى فانظر الى هذا الجدول فان لم تتم الفائدة فلا ذنب علينا

وجه	سطر	خطا	صواب
٠٠٤	١٨	بخارى	بخارا
٠١٨	٠٩	البصرة	البصرى
٠١٨	١٥	بالشام	بدمشق
٠١٩	٠٦	بالشام	بدمشق
٠٢٢	٢٧	وعزار	واعزاز
٠٣٥	١٧	(بات البون)	٠٠
٠٣٨	١٠	جامع الحلم	جامع الرحمة
٠٣٩	٠٩	مروزور	(مروالروذ)
٠٤٣	٠٧	وابي المغيرة	والمغيرة
٠٤٤	٢٤	قبصية	قبيصة
٠٤٥	١٥	الحنيفة	الحنفية
٠٤٧	٢٤	دامية	(دهيا)
٠٤٨	١١	حسن	حسان
٠٥٤	٢٥	اربعمائة عشر	الاصح اربعة عشر
٠٦٢	٠٣	وباب الباب	وباب الابواب
٠٧٢	٣	عبدالله وعبيدالله	القاضي وعبد المومن
٠٧٤	٠٥	الجولاني	الخولاني
٠٧٨	٠٦	الحرث	الحدث
٠٨٠	٠٣	فيها	منها
٠٨١	٠٩	رابعهم	ثالثهم
٠٨١	٢٥	تدبير	تدمير
٠٨٢	٠١	بشار	بشارا
٠٨٣	٢٤	الحرث	الحدث
٠٨٤	٠٣	الحرث	الحدث
٠٨٤	١١	خامسهم	رابعهم

وجه	سطر	خطا	صواب
٠٨٥	١٦	سادسهم	خامسهم
٠٩١	١٥	الحرث	الحدث
٠٩١	١٧	الحرث	الحدث
٠٩٤	١٦	الصلحي	الصليحي
١٠٠	٠٧	البدندون	لعلة البردان
١١٤	٢٣	(١٢٤)	(٢٤١)
١١٨	١١	ونبعة	وتبعة
١١٨	٢٤	نظار	ناظرا
١١٩	٠٦	بن	ابن
١٢٢	٢٥	سمياط	سميساط
١٢٤	١٧	خانتقو	خانقو
١٢٥	٣٠	السراة	الشراة
١٣١	١٦	بنو	بني
١٣٦	١٨	بسليمة	بسلمية
١٣٦	١٩	وجاز	وجازا
١٣٧	٠٨	خنزير	(حنازير)
١٣٧	٢٤	المسلمين	المسلمون
١٥٤	١٥	مضيف	مضيق
١٥٥	٣٦	سنة ٣٥٠	٣٥٠ سنة
١٥٩	٠٠	الاربعة	الثلاثة
١٦٣	٠٣	الفل	الفل
١٦٧	١٦	عوص	قوص
١٧٠	١٧	الفسطاس	الفسطاط
١٧١	١٦	ولاراق	والعراق

الحرب



فهرست

الجزء الاول من تاريخ الوافي

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

كتاب

الوافي

في المسئلة الشرقية ومتعلقاتها

وتاريخ الحرب الاخيرة بين الروس والعثمانيين

سنة ١٨٧٧ ـ ١٢٩٤

ويشتمل

على كتابين في ستة اجزاء

لامين بن ابرهيم شميل

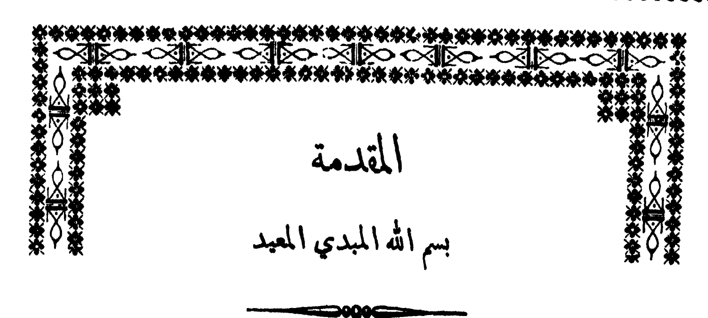
اعتنى

بمراجعته وطبعهِ سليم بن خليل نقلا

صاحب جريدة الاهرام

طبع بمطبعة الاهرام باسكندرية مصر

سنة ١٨٧٩ ـ ١٢٩٦



المقدمة

بسم الله المبدي المعيد

الحمد لله المبدع بكلمة قدرتهِ كل شيء من مشهودٍ وغير مشهود · والمؤيد بروحهِ الرسل والانبياء شهودًا بالحق على المعدوم والموجود · والمطلق والمحدود · حمدًا يزلفنا اليهِ ويعصمنا بهِ فانهُ مصدر الرحمة والجود · والصلوة والسلام على رجالهِ العظام · واصفيائهِ الكرام · منارة الهدى · وملاذ الغنى · وملجإ الصواب · ومحجة الكمال والثواب

وبعد فلما كان التاريخ من الذ ما تالفهُ النفوس الطُلَعة وتانسهُ الخواطر · وتلهى بهِ الحيرة وترسم بهِ صور الماضي والحاضر · فهو خزانة آثار الادهار · ومرآة الاعصار والآثار · وموعظة العاقل المفكر · وعبرة الباحث الناظر · وقدوة الحكيم الفاضل · ومدرسة الغافل الجاهل · انصرفت لذلك الى اتقانهِ في كل عصر همم الرجال · وتسابقت الى قيود اوابدهِ واوانسهِ اولو الفضل والكمال · فحق لهُ الانضمام في سلسلة العلوم الادبية والاندراج ما بين فنون التهذيب الاكمالية · فلم تخلُ مدرسة موسسة على الاصول المرغوبة من انوار ضيائهِ · ولا كمل انسان في محاسن الاخلاق والاعمال بدون ورود مناهلهِ واجتراع مائهِ · وقد ظهر في كل امة ودهر اناس صرفوا جل عنايتهم لجمع ماجرياتهِ من غث وسمين · حتى عادت خزائنهُ بما بذلوهُ من الجهد تزهو بكل جليل وثمين · فلم تكن العرب ومن حذا حذوهم وراء غيرهم فقد امتاز منهم نحو الف وخمسمائة موءرخ في كل معنى · وساروا على قدم التعقيب والتدقيق في جمع متفرقاتهِ بكل مبنى ومغنى · لا سيما خلال الاجيال الوسطى عندما كانت اوربا وجوارها غافلة عن كل فائدة علمية · نائمة عن كل منفعة امية

ثم لما كانت الحرب الاخيرة بين دولتي آل عثمان والروس من اهم ما جرى في هذا القرن لما فيها من المعاقل السياسية والمادية · وجمعت من المنافع والاضرار الدينية والدنيوية · وانطوت عليهِ من العلل الاصلية والفرعية · وامتازت بهِ من العناصر الداخلية والاجنبية · استحقت ان يرقم حوادثها وماجرياتها كل موءرخ متحرٍّ مدقق · وان تكون غاية مهمة لكل كاتب متامل محقق · فيبقى ذلك اثرًا بعد عين ودليلاً لما سيكون مما كان · وعبرة لما رقمهُ قلم الحاضر على صحائف الزمان والمكان ·

ولولا ان النفس مطماع وثوق خواضة الاخطار . لكان ذلك حجة علينا ان لا نتعرض لمثلهِ فنعرضها للتنديد والانكار . فانى لنا فرص اللياقة التي كانت لسلفائنا في اعصار اشرقت شموس فضلها في الآفاق العميمة . وحظيت مساعي اهتمامهم فيها بجماية الملوك والامراء العظيمة . اوكيف لنا وسائل اهل العصر من الافرنج في نوالهم خزائن من الكتب النفيسة هي تحت امرهم كيفما توجهوا ومتى ارادوا . وتسابق اهل وطنهم الى الحصول على مولفاتهم فيجازوا اعمالهم بالشكر والمال عما اجادوا بهِ وافادوا . ان نحن الا متطفلون على صناعة الاداب . ومجازفون في توهم سرابنا ماء ولاماء في السراب . فرحم الله من تامل وعذر . وعرف ما في ذلك من الصعوبات واعتبر . هذا ولما كانت طوارئ الحرب المذكورة من النوادر الغنية . نظرًا الى ما تنطوي عليهِ من الصوالح والعناصر المتنوعة الكلية . لم يكن رقم حوادثها كافيًا لمن اراد الاطلاع على الاسباب المختلفة . اذ ليست هي كبقية الحروب والمبارزات الجارية الموتلفة . بل هي حلقة من سلسلة ما يدعوه اهل السياسة في عهدنا هذا بالمسالة الشرقية . المندرجة في سلاسل الطوارئ العالمية . وهي المسالة التي عاشت القرون الطويلة فلم يكن ما يفنيها . لها السلم كالسيف وما يميتها يحييها فلو تتبعنا التاريخ من اول ما اشتغل بهِ الناس لما وجدنا مدة تميزت بكثرة الدول والحروب نظير المدة الاخيرة من لدن ما ولد نبي الامة العربية . وافرغت دولتا الروم والفرس الى الدولة الاسلامية

قالوا انهُ منذ البدء انقسم ملك العالم الى دولة دينية ودنيوية فكانت الاولى قبل الطوفان في شيث وبنيهِ الى نوح . ثم قامت بعد الطوفان دولة الاولياء من نوح الى موسى وكانت الدول الدنيوية في المشرق دولة الفراعنة والاشوريين واهل بابل ومادي . ثم افرغت دولة الاولياء الى دولة قضاة اليهود . وهذه الى دولة ملوكهم . وافرغت هذه الى الكلدانيين . وامتزج الملك الديني حينئذٍ بالدنيوي الا ما كان في ايدي الاحبار وافرغ الكلدانيون الى الفرس . والفرس الى المجوس . والمجوس الى الاسكندر ملك الاغريق . والاسكندر الى قوادهِ البطالسة والاناطخة والاذارنة . وهولاء الى الرومان . وانقسم الرومان الى شرقي وغربي فالشرقي مملكة الروم وهذه افرغت الى العرب . والعرب افرغوا الى المغول . والمغول الى الاتراك فعليهِ تكون الدولة العثمانية المالكة الان الدولة الثانية عشرة المفرغ اليها الملك في المشرق من لدن الطوفان وقد ظهر واختفى منذ افراغ الروم الى العرب نحو ستون دولة اسلامية ما بين صغيرة وكبيرة كلها انقرضت وانتهت اليها . فهي من الدول العظام القديمة التي ملكت المشرق من القرن السابع للهجرة

والمسالة الشرقية لم تظهر الا بعد ان ظهر المشرق شارعًا دينيًا ودان المغرب بدين النصرانية وامتدت التعاليم المسيحية في كل نادٍ من العالم لما في مبادئها من الحرية والاخوّة والاسوة ومحبة

القريب ما يوافق العابد في صومعتهِ والمالك في مملكتهِ والرعية في رعايتهم ونحو ذلك · ومن ذاك الوقت يورخ الحبل بالمسالة المذكورة

ولما تمكنت النصرانية من العقول ظهر وسط الخطة العربية نبي جديد ينتمي الى نسل الاولياء اتى بشريعة صدّق بها شريعتي سالفيهِ موسى وعيسى الا انها في ظاهرها وسياستها مخالفة لهما ولشريعة المجوس فهبت ريح الاختلافات الهاجعة على اوقيانوس المطامع البشرية فصدمت امواج الامة الجديدة وطلائعها حدود مملكتي الروم والعجم فانهالت امامها ضعفًا وثبت قدم الاسلام بسرعة غريبة في بسيطها حتى امتطى سراة اعظم دائرتها في مدة قصيرة · فانتفضت اعصاب المغرب من هذه الصدمة العنيفة وافاق من غفلتهِ ووقف ثابتًا امام قوة عدوهِ فاوقفها بعد ان تمكنت في بسيط الممالك الرومانية وعاد القتال بين الفريقين سجالاً الى يومنا هذا فالمسالة المذكورة ولدت في ولادة رسول العرب وترعرعت وشبت وتكهلت في عهد خلفائهِ للان · وهي على ما يرى نظير فصول السنة اذا بلغت نهايتها القصوى تجددت فلا يكاد يرى لها اخر فانها بنت الدين والدنيا والسياسة وتدوم بدوامها

ولاجل هذه الاسباب كان تاريخ هذه الحرب مما يقتضي النظر في تواريخ كثيرة لاسيما تاريخ الاسلام في العرب اولاً ثم في الاتراك كما بيناهُ في النبذ التاريخية الاتية · وقسمنا مولفنا هذا الى كتابين (الاول) يختص بالمسالة الشرقية من لدن الاسلام ويشتمل على ثلثة اجزاء احدها من اول الاسلام الى اخر الربع الاول من القرن الرابع عند نهاية خلافة الراضي وهو العشرون من العباسيين وفيهِ اخبار الفتوحات والامتداد الاسلامي شرقًا وغربًا ووصول القوة العربية الى معظمها ثم ظهور الضعف والانقسام وتقوي العنصر الاجنبي في احكامها · فانهينا كل ذلك بخلاصة جامعة ابنا فيها خطا الاراء السياسية والخروج عن محجة الصواب حتى نشا ما نشا عن ذلك من البلابل والشرور

والجزء الثاني ياخذ من اول الربع الثاني من القرن الرابع الى خراب بغداد وانتهاء الدولة العباسية (سنة ٦٥٦ــ١٢٥٨) وفيهِ نذكر الفرعين الاسلاميين الاسيوي والافريقي وجميع الدول الظاهرة في المملكة الاسلامية وتواريخها من الدولة المروانية (سنة ١٣٩) في الاندلس الى الدولة العثمانية (سنة ٦٣٠) في اسيا الصغرى وتاريخ حروب التتار والافرنج المعروفة بحروب الصليب في الجيل الحادي عشر للنصرانية ونتبع التاريخ العباسي الى اخرهِ · وهي مدة مهمة في امر هذه المسالة

والجزء الثالث يبتدىء من الدولة العثمانية وتغلبها على تلك الدول الاسلامية الباقية والتتار الى بداية الحرب المذكورة (سنة ١٨٧٧) وفيهِ ذكر تاريخ العثمانيين والروس وشرح بعض الامم البائدة وما كان من الحروب بين آل عثمان وروسيا الى ابتداء الخلاف الاخير في الهرسك والبوسنه ثم حرب الجبل الاسود والسرب وموتمر القسطنطينية والمداولات الدولية وتوضيح البغض والحقد الموسسين بين

الروس والترك بنوع لا يمكن زوالها وعنها يتجمع من وقت الى اخر مواد كافية لاحداث حرب وسفك دما كما جرى قبلاً . فان هذا القرن وحدهُ قد شاهد ثلاث حروب غيرها ولم يكمل بعد وهذه مدة طويلة نحو ستمائة وعشرين سنة اي من خراب بغداد (سنة ١٢٥٨ الى ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧) وهو يوم شهرت روسيا الحرب على الدولة العثمانية . وقد سلكنا في ذلك على ارباع قرون اي ذكر ما حدث في كل ربع منها ضمن الاجزاء الثلثة المذكورة

(والكتاب الثاني) من التاريخ المذكور يختص بالحرب المرقومة وقد جعلناه ثلثة اجزاء ايضاً الاول من اول الحرب الى اخذ بلونة والثاني من اخذها الى التئام برلين والثالث من الالتئام الى ختام (سنة ١٨٧٨) مع خلاصة تاريخية عامة

وقد اضفنا الى كل من هذه الاجزاء الستة الصور اللازمة من مشاهير ملوك وقواد ومدن ومواقع حربية ونحوها نحو مائة رسم من الرسوم المختارة في غاية ما يكون من الاتقان ما يشخص للقاري حقائق الامور واوضاع رجالها

وقد اعتمدنا من التآليف ما تيسر لنا من التواريخ الشهيرة العربية والتركية والافرنجية مثل ابي الفدا وابي الفرج الملطي وابن العميد وابن الاثير وابن الوردي وابن خلدون وابن سعيد والمقري وابن عرب شاه وراغب باشا والادريسي وافريدون بك وفون هامر ورصل و بزنكور ولمرتين وكراندي وانسكلو بذيات مختلفة وكرافرين وكوكص وكاسل وماصو ومراسلات الديلي نيوز والهرالد والتمس والديباه والنورد وعدة مذكرات تلغرافية وجرنالية وغيرها

فلم نترك جهداً الا بذلناهُ في تحري المواد ورقم ما ثبت منها . ولم ندع للميل سلطاناً علينا وقد سلكنا الطريق العادل في اختيار اللغة فلم نهبط الى حضيض المعاني بغية الارتقاء الى اوج الالفاظ الخالصة السبب الرنانة ولا سقطنا الى حضيض اللهجة المنكرة طلباً للحصول على معانٍ سامية فعالة بل اجتهدنا بان يكون مولفنا هذا مع سهولة فهمهِ صحيح الوضع جلي العبارة حسن الاعراب . خالياً من التعقيد والاغراب . فالتزمنا في بعض الاماكن الى استخدام الفاظ اثبتها الاستعمال رغماً بالتفضيل على ما يرادفها من الالفاظ القديمة المجهولة الان للعامة اولانهُ لا يوجد لها مثل في اللغة فاقتضى تعريبها ضرورةً

ولقد ساء عملنا هذا البعض ممن الفوا التنديد فرجموا واخترعوا لنا ما لا اصل لهُ من العيوب . وبذلك وبما افسدوه من صريح العبارة اقاموا علينا الحجة الساقطة فكانوا بعملهم هذا بانين ما ارادوا هدمهُ . وناشرين فضل ما قصدوا ذمهُ .

واذا اراد الله نشر فضيلةٍ طويت اتاح لها لسان حسودِ

وقد اخترنا كذلك اسقاط الجمل الانشائية التي استعملها اكثر الكتاب لا سيما من المسلمة الافاضل عندا يراد ذكر الانبياء وغيرهم من اهل الفضل والشان مثل صلى الله عليه وسلم . وعليه السلام . وقدس الله روحه . ورضي عنه . وعفي عنه . ورحمه الله . واشباهها لا لاننا ننكر استحقاق من انشئت لاجلهم بل لاختلافنا رايًا عنهم نظرًا الى لياقة الجمل المستعملة فيه فانها في راينا حرية بان تدرج في الكتب الدينية والمعابد الخاصة لا في الكتب العلمية والتواريخ المولفة لعموم الناس . وذلك اولاً من كون البشر متفرقين في مذاهبهم ما بين مومن وملحد ومصلّ على هذا النبي ومترضٍ على ذاك الولي على خلاف بينهم فيخشى من ايراد هذه العبارات تعريض الانبياء والصلحاء للاحتقار لدى اناس تباينت اراؤهم الدينية ولا سيما في هذا العصر الذي قد اخذ الكبر فيه كل ماخذ وسطت جيوش الكفر على جنود الايمان والحال ان الانبياء واهل الفضل في غني عن كله بل ان في تركها احترامًا اعظم . فاسقطنا ذلك انشائيًا لا غير تاركين للقرّاء من كل مذهب ان ينشئوها بحسب اعتقادهم عند مرورها عليهم بالاصالة عن انفسهم والنيابة عنا ان ارادوا . ولا يحق لاحد ان ينكر علينا ذلك فقد جاء هذا الاسقاط في كلام الاولين مثل قول ابي بكر الصديق للانصار في اجتماع السقيفة على امر الخلافة بعد الرسول « نحن اولياء النبي وعشيرته واحق الناس بامره وانتم لكم حق السابقة فنحن الامراء وانتم الوزراء » وقول بشير بن سعد الخزرجي الانصاري وقتئذٍ « الا ان محمدًا من قريش وقومه احق واولى ونحن وان كنا اولى فضل في الجهاد وسابقة في الدين فما اردنا بذلك الارضى الله وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضًا ولا نستطيل به على الناس » فانهما لم يستعملا شيئًا بعد ذكر الله تع والرسول وهما شاهدان عادلان على جوازه

ثانيًا فرارًا من التكرار والاسهاب فان هذه الجمل وما يتبعها تاخذ محلاً عظيمًا وتذهب احيانًا من طولها بالمعنى مع عدم افادتها الموضوع الصحيح شيئًا . ولهذا السبب ايضًا رقمنا التواريخ بالارقام لا بالالفاظ وجعلناها هجرية ومسيحية مستقلة ضمن هلالين بحيث ان قراءتها وعدمها لا تخل بالمعنى . وقد استخدمنا الهلالين المذكورين ايضًا مرة للاستفهام ومرة للتفسير واخرى للاشارة الى ما ذكر قبلاً تحت اسم مختلف ونحو ذلك وكله يفهم من قرائن الاحوال . وقد ضمنا كل عبارة منقولة ما بين هاتين الاشارتين « - » وسلكنا مسلك المولفين الحدثاء في التنقيط والتبويب والتفصيل ونحو ذلك . وبالاجمال فاننا جعلنا كل اهتمامنا في تحرّي المواد قبل اثباتها فاذا جئنا بامر مشبوه او حادثة اختلافية كان ذلك بقصد ترك الحكم للقارئ وحفظًا للسياق التاريخي غير منقطعٍ فان عدم اتفاق الفريق الواحد على صحة امر ما لا يكون دائمًا حجة على عدم صدقه . وكل غايتنا هي جعل هذا المولف جامعًا مفيدًا غير ممل منه يستغنى به عن المطولات والتواريخ القديمة والحديثة في هذا الشان

ويتضح منهُ الماضي والحاضر وتظهر المسالة الشرقية بمنافعها واضرارها . فاذا ذكرت لا يعجب السامع من انكماش اعصاب السياسة منها لانها بالحقيقة اعظم معقل للناس وبها تمام الاية « ما جئت لالقي سلامًا بل سيفًا »

فجاء بحولهِ تعالى جامعًا سير الاوائل والاواخر على نمط غريب . شافيًا وافيًا بكل
امر ومعنى عجيب . فدعوناهُ الوافي طالبين اليهِ تعالى ان يثيب بغناهُ
اتعابنا . ويعفو بفضلهِ عن زلاتنا . ويفي بكرمهِ انتظارنا . فنقدمهُ
لكم ايها الاخوة الكرام ابناء الوطن الاعزاء . فتلقوهُ وقفًا منا
عليكم بحسن القبول وصدق المودة والاخاء . واسبلوا
بدون اختلاف جنس ومذهب ذيل المساهلة والكرم
على ما طغى بهِ القلم . وزلت بهِ القدم . لا زلتم
مقصد الفضل والفضائل ومجا
الجلل والجلائل . ما اشرق
القمران . واستقر
الدوران
م

كتاب

الوافي

في المسألة الشرقية ومتعلقاتها

وتاريخ الحرب الاخيرة بين الروس والعثمانيين

سنة ١٨٧٧ - ١٢٩٤

ويشتمل

على كتابين في ستة اجزاء

لامين بن ابرهيم شميل

الجزء الثاني

طبع بمطبعة الاهرام باسكندرية مصر

سنة ١٨٧٩ - ١٢٩٦

باب اول

صحيفة

صحيفة

باب ثانٍ

في الفرع الاسيوي

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الجزء الثاني

من الكتاب الاول من الوافي

في

تاريخ المساله الشرقية

وحرب الروس والعثمانيين
سنة ١٨٧٧



الباب الاول
وتحته فصول

فصل

في امتداد قوة الاسلام وتشعبها

اتخذ السيل الاسلامي اول فيضانهِ مجريين عظيمين احدها وهو الاكبر اندفق الى جهة اسيا فعم العرب والعجم والشام وتكسرت امواجهُ فتجاوزت حدود تركستان والى الهند ودخل اراضي الروم الاسيوية متهددًا اوربا · والثاني وهو الاصغر انصب الى فلسطين ثم الى مصر ثم الى افريقية ثم اجتاز البحر الى الاندلس وصدم تيارهُ ممالك المغرب الاوربية فكان اشبه بنصف قمر ارتسم في بسيط الممالك الرومانية وصار بحر الروم المتوسط مقسمًا ما بين بني اسمعيل والروم وغيرهم

فلا ريب ان الذاهبين الى صدق التوراة وانها ملهمة يجدون انهُ بعد تخصيصهِ تعالى العهد باسحق ونسلهِ قد اتم في محمد وامتهِ ما وعد بهِ ابرهيم اولاً بقولهِ « اما اسمعيل فقد سمعت لك فيهِ ها انا اباركهُ واثمرهُ واكثرهُ تكثيرًا اثني عشر رئيسًا يلد واجعلهُ امة كبيرة » ثم بقولهِ لهاجر وهي طريدة تبكي من غيرة ساره « لا تخافي قومي احملي الغلام وشدي يدكِ بهِ لاني ساجعلهُ امة عظيمة » قال الكتاب ففتح الله عينيها فابصرت بئر ماء فذهبت واستقت وسقت الغلام · نعم ان كثيرين من ابناء هذا العصر سيواخذوننا على ايراد ايات موسى في هذا المقام لكنهُ غير منكر على المورخين استشهادهم على نوع ما بجملة تاريخي اقوالاً قد قيلت منذ نحو ثلثين قرنًا قبلاً لا سيما وقد تمت بحروفها الان

ثم حدث في كلا هذين الشعبين تشعبات منها جزئية ومنها مهمة ما ادى الى قيام دول مختلفة وقد كان اجتهادنا في الجزء السابق بيان ذلك الفيضان اجمالاً تحت قاعدة مركزية كانت اولاً في يثرب ثم انتقلت الى دمشق الشام ثم الى الانبار حتى استقرت اخيرًا في بغداد كل ذلك في اسيا فاهملنا على نوع ما الفرع الافريقي الا في نبذات متفرقة وقد اردنا ان نتبع في هذا الجزء اولاً المجريين المذكورين على نسق متصل مظهرين الانشعابات الحادثة في كليهما والدول التي

نجمت حاكمة اما باتفاق او اختلاف ثم نرجع الى سياق التاريخ حيث وصلنا اي الربع الثاني من القرن الرابع للهجرة فنقول

قضت الارادة الالهية ان تكون الاشياء كلها في هذه الحيوة خاضعة لامرين . احدهما ان تحمل في عنصر وجودها النامي جراثيم دثارها من لدن نشئها ونموها فثبت بذلك زوالية الاشياء الدنيوية كلها . والامر الثاني ان يكون لها بذاتها قوى طبيعية بها تحفظ وجودها بتوفير تلك القوى بقدر الامكان الى الحد الاقصى الذي ليس بعدهُ شيء المفروض من الله تعالى عزّ وجل فيتم التلاشي او يبتدي دور جديد في وجودها فتستمر حية كما نرى في اختلاف الازمنة وتجديد الفصول كل سنة ما يشهد على امكان الخلود وكلا الامرين ثابتان عقلاً وبنص الاديان

ومن هذين المبدئين اي مبدا التلاشي ومبدا الدوام بموجب حكمة استعمالهما وما يوافق ذلك من الاسباب والظروف يكون قصر مدة الوجود وطولها في حيوة الافراد والامم والكل خاضع لامرهِ تعالى الذي اظهر بجعل هذين الامرين في طبيعة المخلوقات حبهُ دوام الاشياء ما امكنها الدوام بقوة المواهب التي وهبها لها سبحانهُ وتعالى فانهُ اتقن خلق كل شيء بحكمة لا تدركها العقول

فالمملكة الاسلامية العربية اخذت تظهر فيها من لدن تاسسها وامتدادها بقوة عظيمة اصول الضعف وحملت في عنصر وجودها الاسباب الممزقة لها الظاهرة فيها وقتًا بعد وقت بحسب الاستعداد والزمان والظروف المتجمعة بسابق علمهِ تعالى وقد تقدم كيف ان المسلمين انقسموا بادى بدء على الخلافة ما بين دعاة لاهل البيت ودعاة لقريش وسمي الفريق الاول اهل الشيعة والفريق الثاني اهل السنة والجماعة وكلاهما من الحزب الخلافي الشرعي وما بين الخوارج وهم المنكرون حقوق الخلافة وشعارهم « لاملك الا لله » على ان حزب الخلافة كان الاقوى في كل عصر وكان بين الطائفتين حروب عديدة ومواقع عنيدة ثبت النصر في اعظمها للسلطة الشرعية الخلافية . ولم يكن رجال السياسة غافلين عن استعمال الوسائل اللازمة لحفظ السلطة واطالة وجودها بتوفير القوى المغروسة فيها لكن لا الى الدرجة القصوى فكان عن ذلك بقاؤها ما بقيت من الزمان على مقدار العناية المنصرفة لحفظها من اولئك الرجال القائمين بامورها ولا ريب ان في السياسة الصالحة وعكسها ما يقدم كل مملكة ويطيل مدة دوامها وبالعكس لا من قبيل ان الاشياء يمكن دوامها من نفسها بل لان الله بمنحهِ لها قوة الوجود اظهر ارادتهُ ببقائها ما امكن استبقاء تلك القوة فيها موفرة على حسب الاقتضاء . فالسياسة للدول هي نظير الدواء للمريض فاذا كان المرض من القدر فالدواء من القدر ايضًا

ومن الدول الظاهرة في مدة العباسيين اولاً الدولة المروانية فبعد ان انقضت خلافة بني امية وادال الله لبني العباس سارت الخلافة على قدم النجاح والقوة كما كانت في بني امية قبلاً وكان لها

التقدم والايالة على ممالك الاسلام كلها الى ان لحق بالاندلس من فلّ بني امية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ونجا من تلك الهلكة كما تقدم فاخذها من يوسف الفهري واسس الدولة المروانية وقطع الدعوة عن العباسيين فعادت الاندلس منقطعة من الدولة الاسلامية وحكمت الدولة المروانية الاندلس الى (سنة ٤٣٠ـ١٠٣٨) ثم تقسمت الى امارات او ملوك طوائف اخرها مملكة غرناطه التي استمرت الى (سنة ٨٩٨ـ ١٤٩٢)

ثانيًا : الدولة الادريسية واعقابها فلما كانت وقعة (وج) في الطائف ايام الهادي ضد ابن الحسن بن علي (سنه ١٦٩ـ ٧٨٥) وقتل داعيتهم حينئذٍ حسين بن علي بن حسن المثنى وجماعة من اهل بيته نجا اناس منهم ادريس بن عبد الله بن حسن الى المغرب الاقصى وقام بدعوته البرابرة فانقطع المغرب ايضًا عن بني العباس وجدد هناك دولة لنفسه دعيت الادريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم الاموية ثم الزناتية ثم المراكشية عند بناء مراكش (سنة ٤٦٢ـ١٠٧٠) ودعيت مرابطية نسبة الى عبدالله المرابطي ايضًا ودولة الملثمين منذ (سنة ٤٤٨ـ١٠٥٦) وامتدت الى مضيق جبل طارق وكانت سببًا لسقوط الدولة المروانية في الاندلس

ثالثًا . الدولة الاغلبية واعقابها وهي دولة آتية عن ابرهيم بن اغلب الذي ولى القيروان في عهد هرون الرشيد (سنة ١٩٠ـ٨٠٥) واستبدت في قرطاجنة ونحوها من لدن الفتنة (سنة ٢٥٠ـ ٨٦٤) الى اخر المائة الثالثة من الهجرة نحو (سنة ٩١٢) للميلاد . ثم اعقبتها دولة اخرى لمواليهم بني طغج في مصر والشام استمرت الى (سنة ٣٦٠ـ٩٧٠) وهي الاخشيدية المذكورة بعدهُ

رابعًا ثم دخل الضعف في الدولة العباسية بعد الاستفحال وتغلب على الخليفة فيها الاولياء والقرابة والمصطفون وعاد تحت حجرهم من حين قتل المتوكل وكانت الفتن ببغداد وملاءت نواحي المملكة من اطرافها واوساطها فكان بنو سامان ما وراء النهر والصفار في سجستان وعمان وفارس وخراسان مع اقامتهم دعوة الخلفاء العباسيين يحاربون الطاهرية وغيرهم من عمال الخليفة ورجاله . وكان الحسن بن زيد في طبرستان وجرجان ينازع الدعوة العباسية ويحارب ابن سامان والصفار وعساكر العباسيين باصفهان . وكان صاحب الزنج في البصرة والابلة وواسط وكور دجلة يقاوم الدعوة ويلقي الشقاق والفتنة في النواحي . وكان قد اضطرمت بلاد الموصل والجزيرة وجوار بني شيبان وتغلب الاكراد بفتنة الشراة واستولى ابن طولون على مصر والشام في طاعة بني العباس وعادت حالة الخلافة العربية العباسية في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة اشبه ببركان عظيم يتوقد ويتهددها بالتمزيق فيظهر عنهُ من وقت الى اخر تفزرات خفيفة وقوية يشتغل بها الناس مدة تختفي ويظهر غيرها اعظم او اصغر مدة نحو ثلاثمائة وتسعين سنة وفي هذه المدة نجمت الدول الاتية

خامسًا · الدولة الطاهرية وكان طاهر في خراسان استبد في عهد المامون (سنة ٢٠٤-٨١٩) قيما للدعوة العباسية وبقيت دولته الى (سنة ٢٦٠-٨٧٤) عند ما ظهر يعقوب بن ليث الصفار وهو من الدعاة ايضًا فاسس على اثارها الدولة الصفارية

سادسًا · الدولة السامانية فان بني سامان استبدوا بما وراء النهر (سنة ٢٦١-٨٧٥) اقاموا على الدعوة الا انهم لم يكونوا ينفذون اوامر الخليفة وكانوا يدعون بالتنازل عن ملوك الفرس واسسوا لهم دولة قوية في خراسان وقاطع نهر جيحون واستمرت الى اخر المائة الرابعة من الهجرة (سنة ٩٩٩) عند ما تغلبت عليهم الدولة الغزنويه

سابعًا الدولة الزيدية العلوية فان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط المعروف بالداعي ظهر في طبرستان سنة (٢٥٠-٨٦٤) ايام المستعين ولحق بالديلم فاسلموا على يديه وملك طبرستان ونواحيها وصار هنالك دولة اخذها من يد الحسن الاطروش من بني الحسين (سنة ٣٠١-٩١٢)

ثامنًا عمر داعي الطالقان ايام المعتصم واسم هذا الاطروش الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وكانت لهم دولة العمرية من العلويين وانقرضت ايام الحسين المقدم ذكره في القرن الثالث واستولى عليها الديلم في اول الجيل العاشر للميلاد

تاسعًا وكان للعلوية دولة اخرى باليمن وظهر الرئيس ابرهيم بن اسمعيل بن الحسن العلوي المعروف بابن طباطبا فاظهر هنالك دعوة الزيدية وملك صعدة وصنعاء وبلاد اليمن · وظهر محمد بن ابرهيم في عهد المامون (سنة ١٩٩-٨١٤) واستولى على الكوفة ولم تطل مدته حتى مات واخذ ابو السرايا قيم اموره اسيرًا وقتله الحسن بن سهل عامل الخليفة · وكان لهم دولة هناك بعده ظهر بها يحيى بن الحسين بن القاسم (سنة ٢٩٠ - ٩٠٣)

عاشرًا وظهر ايام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج ادعى انه احمد او علي بن احمد بن عيسى بن زيد الشهيد الذي قتل في الجوزجان وذلك (سنة ٢٥٥ - ٨٦٨) وقيل انه انتسب الى طاهر بن الحسين بن علي · والذي ثبت انه علي بن عبد الرحيم بن عبد القيس فكانت له ولبنيه دولة بنواحي البصرة قام بها الزنج الى ان انقرضت في مدة المعتمد (سنة ٢٧٠ - ٨٨٣)

حادي عشر دولة القرامطة بنواحي البحرين وعمان (سنة ٢٧٩-٨٩٢) ايام المعتضد وانتسب رئيسهم الى بني اسمعيل الامام بن جعفر الصادق ولم تصدق دعواه وكان من اصحابه الحسن الجنابي والقاشاني فقاما من بعده بالدعوة ودعوا لعبد الله المهدي وتغلبوا على البصرة والكوفة · ثم اقتطعوا عنها الى البحرين وعمان وكانت لهم هناك دولة انقرضت اخر المائة الرابعة وتغلب عليهم

العرب من بني سليم وبني عقيل

ثاني عشر وصار العلوية الى النواحي مظهرين دعوتهم فدعا ابو عبد الله الشيعي (سنة ٢٨٦-٨٩٨) لعبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق وبايع له وانتزع افريقية من يد بني اغلب واستولى عليها وعلى المغرب الاقصى ومصر والشام واقتطعوا سائر هذه الاعمال عن بني العباس واستحدثوا دولة اقامت نحو مايتين وسبعين سنة وتعرف بالعبيدية والمهدية والفاطمية والمعزّية

ثالث عشر الدولة الزيرية . نسبة الى يوسف بلكين بن زيري بن مناذ الصنهاجي الذي كان يملك على الاندلس فانه كان اصل الدولة الزيرية المستبدة من (سنة ٣٦٢ - ٩٧٢) الى نصف الجيل الثاني عشر للميلاد اي نحو مايتين وثمانين سنة

رابع عشر الدولة الطولونية . وذلك ان احمد بن طولون اقام في مصر دولة مستقلة من (سنة ٢٥٥-٨٦٨) ودامت في ولده الى (سنة ٢٩٢-٩٦٩) ثم رجعت مصر الى طاعة الخليفة

خامس عشر الدولة الاخشيدية فان ابا بكر محمد الاخشيدي من ملوك فرغانه القديمة تملك مصر (سنة ٣٢٤ - ٩٣٥) الى ان تملكها المعزية (سنة ٣٥٩-٩٦٩)

سادس عشر الدولة الغزنوية . فان نصر الدين محمود بن سبكتكين اسس دولة في شرقي العجم (سنة ٣٦٦-٩٧٦) واتخذ غزنة له عاصمة وكان له ولبنيه دولة هناك دامت الى (سنة ٥٧٨ - ١١٨٢) عندما تملكتها الدولة الغورية

سابع عشر الدولة الغورية وتبتدي من محمد بن الحسين صهر بهرام شاه السبكتكيني صاحب غزنة من (سنة ٥٤٧-١١٥٢) وهذه نقوت على الدولة الغزنونية في زمان شهاب الدين وفتحت كرمان وشندران وماه السند ولهاوور (سنة ٥٧٩ - ١١٨٣) وامتد ملكهم الى الهند الى ان نزعة منهم سلاطين خوارزم (سنة ٦٠٥- ١٢٠٨)

ثامن عشر الدولة الديلمية وكان للديلم دولة اخرى استولوا بها على النواحي وملكوا الاعمال وكان ابتدا ملكهم في الجيل التاسع للميلاد وكانوا من المهاجرين النازلين عن الامام علي نزحوا الى جبال كيلان ومازندران ثم ساروا الى بغداد وملكوها وصيروا الخليفة في سلطتهم من لدن المستكفي (سنة ٣٣٠-٩٤١) وكانت من اعظم الدول الى ان تغلب عليهم ملوك غزنه وبدايتها من (سنة ٣١٥-٩٢٧) ونهايتها (سنة ٤٢٠-١٠٢٩)

تاسع عشر الدولة البويهية . نسبة الى ابي شجاع بويه المنتسب الى سلالة ملوك الفرس القديمة وبدايتها من اولاده الثلثة علي وحسن واحمد (سنة ٣٢١ - ٩٣٣) وتسلطت على العجم وحضرها

شيراز وعرفهم الخلفاء وكان لهم رتبة امير الامراء الى ان تغلب عليهم السلاجقة من شعوب الغز التركية (سنة ٤٤٨ ـ ١٠٥٦)

عشرون الدولة الحمدانية المبتدئة من (سنة ٣١٧-٩٢٩)في الموصل وسورية الى (سنة٣٦٨ ـ ٩٧٨)وعلى اعقابهم قامت الدولة المرداسية في حلب واستمرت الى (سنة٤٧٩ـ١٠٨٦)وهولاء وان وصفهم الشعراء بكون اوجههم سمة الجمال والسنتهم الفصاحة وايديهم الكرم والقوة وقلوبهم الجراءة ونحو ذلك فانهم من لدن ولايتهم لم يعملوا من الخير الا الغدر وقتل بعضهم بعضاً

الحادي والعشرون الدولة السلجوقية. وبداية ملكهم (سنة ٤٤٠ ـ١٠٤٨) من لدن القائم وتبوأوا بغداد وكانوا من اعظم دول العالم ولهم وقعت رتبة امير الامراء بعد الديالمة ومقرهم كان ايران وتشعبت منهم دول منها بحلب ودامت الى (سنة ٥٤٩ـ١١٥٤) ومنها بكرمان وبقيت الى (سنة ٥٨٣ـ١١٨٧)والايرانية استقرت الى (سنة ٥٩٢ـ١١٩٥) ومنها في قونية الى (سنة ٧٠٨ـ ١٣٠٨)

الثانية والعشرون الدولة الاسماعيلية وظهرت في نصيبين منذ (سنة ٤٨٣ـ١٠٩٠)ودامت الى غزوة التتار (سنة ٦٥٤ـ ١٣٥٦)وهم شعبة من الشيعة الدينية الاسماعيلية المدعوة احيانًا باطنية واحيانًا قرمطية طورًا فاطمية وتارة نصيرية ودروزًا وقد لعبت هذه الدولة دورًا مهما في تاريخ الاسلام وكان في جبل لبنان شيعة متعصبة تدعى اساسية وهي باطنية ايضًا ومن هذه الطائفة

الثالثة والعشرون . الدولة الخوارزمية وبدايتها من عهد محمد خوارزم شاه بن انوش تكين (سنة٤٩١ـ١٠٩٧)ودامت الى غزوة التتر وكانت من الدول العظيمة واستولت على ممالك سلاجقة ايران وكانت ذات قوة وسطوة عظيمتين

الرابعة والعشرون دولة الاتابك وظهرت على شرق البلاد من بحر الخزر والموصل وكانت الموصل قبلاً للارتقية من الدول الثواني التي قامت في ظل الدولة السلجوقية فاخذها قسيم الدولة اقسنقر البرسقي وكان مملوكًا تركيًا شجاعًا حسن السيرة فقتلهُ الباطنية وكان ابنهُ عز الدين مسعود في حلب فلما بلغهُ قتل ابيهِ (سنة ٥٢٠ ـ ١١٢٦) سار الى الموصل واستقر في ملكها و(في سنة ٥٢١ ـ ١١٢٧) توفي محمود فولى السلطان محمود السلجوقي عماد الدين زنكي بن اقسنقر وهذا رتب امر الموصل واستولى على نصيبين وسنجار وحران وجزيرة ابن عمر ودعيت دولة الاتابك اي اتابك الدولة السلجوقية ولفظة اتابك بمعني اب كلمة احترام كانت تعطى لوزراء السلطان لتقدمهم بالسن عادة ثم عادت رتبة ودرجة ثم دولة مساعدة مصطنعة

الخامسة والعشرون الدولة الايوبية وابتداوها (سنة ٥١١ ـ ١١١٧) في مصر والشام وكانت

من الدول العظام ولها ذكر شائع في حروب الصليب مع الافرنج وانتهت سنة ١٢٥٠ وقام عليها دولة المماليك البحرية وما عدا هذه الدول قامت دول صغار وفروع كثيرة في المشرق والمغرب لو اردنا ذكرها لطال بنا الامر جدًّا بدون طائل

فهذه التجزءات والدول حدثت كلها في مدة خلافة العباسيين من (سنة ١٣٢ الى ٦٥٦ هجرية

واخيرًا استبد العباسيون في نطاق ضيق ما بين دجلة والفرات واعمال السواد وبعض اعمال فارس. ثم خرجت التتار من مغازة الصين وزحفوا الى الدولة الخوارزمية والسلجوقية وبغداد وما كان من الدول غير هذه وقتئذٍ وقتلوا الخليفة المستعصم وانقرضت الخلافة العباسية ثم اسلم التتار وكان دينهم مزيجًا من مجوسية وعبادة وثن وبعد خراب بغداد استقر العباسيون في مصر في ضيافة المماليك مدة نحو ٢٥٠ سنة وكان لهم الامامة وما يتعلق بالامور الدينية

السادسة والعشرون. الدولة العثمانية وظهورها كان في احضان الدولة السلجوقية واول سلطان منهم كان عثمان بن ارطغريل بن سليمان شاه وذلك في مدة الدولة العباسية ما بين (سنة ٦١١ـ٦٣٠) (سنة ١٢١٤ ـ ١٢٣٢) وهي من الدول العظمى ولعبت دورًا مهمًّا في تاريخ المشرق والاسلام ولم تزل الى الان (سنة ١٢٩٦ ـ ١٨٧٩) مالكة الرئاسة الاسلامية العظمى ولها الاحترام الاول في العالم المحمدي كما سياتي مفصلاً

فصل

في الفرع الافريقي وامتداده من لدن الفتح الى الاغالبة

بعد ان فتحت افريقية في خلافة عثمان بن عفان على يد عبدالله بن ابي السرح كما تقدم فهدم سبيطلة قاعدة البلاد وقبل منهم الفدا بالمال فاخذهُ وقام الى مصر (سنة ٢٧ـ٦٤٧) عادت فترة بين المسلمين وتلك البلاد الى ان اغزى معاوية بن ابي سفيان الاموي معاوية بن خديج السكوني وكان عاملاً على مصر فغزا افريقية ونازل جلولا وقاتل مدد الروم الذي جاء من القسطنطينية بقصر الاحمر وظفر بهم وفتح جلولا وغنم وقفل (سنة ٣٤) ثم كانت فترة ثانية الى ان ولى معوية (سنة ٤٥) عقبة بن نافع بن عبد الله بن قيس الفهري عليها واقتطعها عن معاوية بن خديج فقاتل البربر وتوغل في ارضها وبنى القيروان (سنة ٥٠)

ثم استعمل معاوية على مصر وافريقية مسلمة بن مخلد وهذا عزل عقبة المذكور عن افريقية وولى ابا المهاجر دينارًا مولاهُ (سنة ٥٥) فغزا دينار المغرب وبلغ الى تلمسان وخرب قيروان عقبة واساء عزلهُ ودخل كثير من البربر في دين الاسلام

ثم لما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة ارجع عقبة على افريقية فدخلها (سنة ٦٢) وكانت الردة قد نشأت في البرابرة فزحف اليهم وجعل مقدمتهُ زهير بن قيس البلوي وفر من امامهِ الروم والفرنجة فقاتلهم وفتح حصونهم مثل لميس وباغاية وفتح اذنة قاعدة الزاب بعد ان هزم ملوك البربر وغنم منهم واعتقل ابا المهاجر ثم رحل الى طنجة فاطاعهُ يليان ملك غمارة وصاحب طنجة وهاداه ودلهُ على بلاد البربر بالمغرب وراءه مثل وليلى عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس · وكانوا على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية · فسار اليهم عقبة وفتح وغنم وسبي واثخن وانتهى الى السوس وقاتل مسوفة من اهل اللثام وراء السوس ووقف على البحر المحيط وقفل راجعًا واذن لجيوشهِ في اللحاق بالقيروان وكان كسيلة ملك اروبة والبرانس من البربر الذي كان اسلم قد اضطغن عليهِ لمعاملتهِ لهُ باحتقار فكان على ما قيل يامرهُ بسلخ الغنم اذا ذبحت لمطبخهِ فانتهز فيهِ الفرصة وارسل برابرتهُ فاعترضوا لهُ في تهودا وقتلوه في ثلثماية من كبار الصحابة والتابعين واسر في تلك الوقعة محمد بن اوس الانصاري في نفر فخلصهم صاحب قفصه وبعث بهم الى القيروان

اما زهير بن قيس فرجع الى القيروان واعتزم علي القتال فخالفهُ حنش بن عبد الله الصنعاني وارتحل الى مصر واتبعهُ الناس فاضطر زهير الى الرجوع معهم وانتهى الى برقه فاقام بها مرابطًا واستامن من كان بالقيروان الى كسيله فامنهم وامتلك القيروان

فلما ولى عبد الملك بن مروان بعث بالمدد الى زهير بن قيس وولاه حرب البرابرة فزحف (سنة ٦٧) ودخل افريقية ولقيهُ كسيله على ميس من اطراف القيروان فهزمهُ زهير بعد قتال عنيد وقتلهُ وكثيرًا من اشراف البربر ورجالهم ثم قفل زهير الى المشرق زاهدًا في الملك وفي رجوعه الى مصر اعترضهُ صاحب اسطول الروم بسواحل برقه فقاتلهُ وقتل الى رحمة الله

وكانت وقتئذٍ المنازعة على الخلافة بين الامويين وعبد الله بن الزبير فلما قتل عبد الله وصفا الوقت لعبد الملك امر حسان بن نعمان الغساني بغزو افريقية وامده بالعساكر فدخل القيروان وفتح قرطاجنة عنوة وخربها وفر من كان بها من الروم والفرنجة الى صقلية والاندلس ثم اجتمعوا في صطفوره وبنزرت فلقيهم حسان وهزمهم ثانية وذهب فلهم الى باجة · وبونه · وتحصنوا بها ثم سار حسان الى (دامية) الكاهنة ملكة جرارة بجبل اوراس وهي وقتئذٍ اعظم ملوك البربر فحاربها وانهزم المسلمون واُسر منهم جماعة فاطلقتهم الكاهنة المذكورة الا خالد بن يزيد القيسي فانها ابقتهُ وارضعتهُ مع ولديها وصيرتهُ اخًا لهما واخرجت العرب من افريقية وانتهى حسان الى برقه وبقي هناك بامر عبد الملك الى ان اتاه المدد (سنة ٧٤–٦٩٣) فزحف ودس الى خالد المذكور فاطلعهُ على خبرهم وانتهى الامر بتغلب حسان على الكاهنة وقتلها واخذ جبل اوراس وما يليهِ ودوخ نواحيهُ وانصرف الى القيروان وامن البربر وكتب

الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والافرنج على ان يكون معهُ اثنا عشر الفًا من البربر لا يفارقونهُ في جهادهِ ثم رجع الى عبد الملك. واستخلف على افريقية رجلاً اسمهُ صالح من جندهِ

ولما نهض الوليد بن عبد الملك كتب الى عمهِ عبد الله وهو على مصر (وقيل عبد العزيز) فارسل بموسى بن نصير الى افريقية وكان نصير ابو موسى من حرس معاوية وقدم موسى القيروان وبها صالح فعقد لهُ ثم راى ان البربر كانوا قد طمعوا في البلاد فوجه البعوث في النواحي وارسل ابنهُ عبد الله بحرًا الى جزيرة ميورقه فغنم منها وسبي وقفل ثم بعثهُ الى ناحية اخرى وبعث ابنهُ مروان كذلك وذهب هو الى ناحية اخرى فغنم وسبي وقفل وبلغ خمس المغنم سبعين الف راس من السبي ثم غزا طنجة وفتح درعه وصحراء تافيلالت وبعث بابنهِ الى السوس وخشي البربر سطوتهُ وخضعوا لسلطانه واخذ رهائن المصادقة (سنة ٨٨ ـ ٧٠٧) وانزلهم بطنجة وولى عليها طارق بن زياد الليثي

ثم اجاز موسى مولاهُ طارق الى الاندلس بطلب يليان ملك غمارة فكان فتح الاندلس عن يدهِ (سنة ٩٠ ـ ٩٢ الى ٧٠٨ ـ ٧١٠) ثم جاز موسى على اثره فكمل الفتح كما تقدم ثم قفل موسى الى الشرق بطلب من دولة دمشق فاستخلف على افريقية ابنهُ عبد الله وعلى الاندلس ابنهُ عبد العزيز ثم مات الوليد وولى سليمان اخوهُ فسخط على موسي وحبسهُ ومات منفيًا كما مر ثم عزل عبد الله من افريقيه واقام محمد بن يزيد مولى قريش ولما مات سليمان وقام عمر بن عبد العزيز استعمل على افريقية اسمعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر وكان كسيده حسن السيرة واسلم جميع البربر في ايامهِ

ولما دال الامر ليزيد بن عبد الملك ولى على افريقية يزيد بن ابي مسلم مولى الحجاج وكاتبهُ فقدم اليها (سنة ١٠١ ـ ٧١٩) واساء السيرة وجعل الجزية على من اسلم من البربر فقتلوهُ لشهر من ولايتهِ ورجعوا الى محمد بن يزيد وكتبوا الى يزيد بالطاعة والعذر عن قتل ابن ابي مسلم فاجابهم بالرضا واقر لهم محمدًا

ثم عزل يزيد محمدًا المذكور وولى بشر بن صفوان الكلبي (سنة ١٠٣) فمهدها وسكن ارجاءها وغزا بنفسهِ صقلية (سنة ١٠٩) وهلك في مرجعه عنها وكان وقتئذٍ هشام بن عبد الملك فاقام عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (سنة ١١٠) ثم عزلهُ واقام عبيد الله بن الحجاب مولى بني سلول وكان اولاً على مصر فاستخلف عليها ابنهُ القاسم وسار الى افريقية فبلغها (سنة ١١٤ ـ ٧٣٢) وبنى جامع تونس واتخذ لها دار صناعة لانشاء المراكب البحرية وبعث الى طنجة ابنهُ اسمعيل وجعل معهُ عمر بن عبيد الله المرادي وبعث على الاندلس عقبة بن حجاج القيسي وارسل حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع غازيًا فبلغ السوس الاقصى وارض السودان واصاب من مغانم الذهب والفضة والسبي كثيرًا ودوخ بلاد المغرب

وقبائل البربر ورجع · ثم اغزاه ثانية في البحر الى صقلية(سنة ١٢٢ - ٧٤٠)ومعهُ عبد الرحمن بن حبيب فنازل سرقوسه اعظم مدائن صقلية واستولى على بعض اماكن في الجزيرة وضرب عليهم الخراج

وكان محمد بن عبيد الله قد اساء السيرة بطنجة واراد ان يخمس من اسلم منهم فانتقضوا عليهِ وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن عبيدة الى صقلية فنهض ميسرة المظفري بدعوة الصفرية من الخوارج وذهب الى طنجة وقتل محمدًا المذكور واستولى عليها وتبعهُ البربر وبايعوهُ الخلافة وخاطبوهُ بامير المومنين وفشت مقالتهُ في النواحي وبعث بن الحجاب عليهِ خالد بن حبيب الفهري فيمن بقي من العساكر واستقدم حبيبًا من صقلية وبعثهُ في اثر خالد والتقى الفريقان بناحية طنجة واقتتلا شديدًا ثم تحاجزوا ورجع ميسرة الى طنجة فكرههُ البربر وقتلوهُ وولوا عليهم حبيب بن خالد الزناتي واجتمع عليهِ البربر واقتتل خالد بن حبيب مع حبيب بن خالد فقتل خالد بن حبيب وجماعة من العرب وسميت تلك غزوة الاشراف وانهزمت عساكر هشام وانتقضت افريقية على ابن الحجاب وبلغ الخبر الى الاندلس فعزلوا عامله عقبه وولوا عبد المومن بن قطن

واذ بلغ هذا الخبر هشامًا استقدم ابن الحجاب وولى على افريقية سنة(١٢٣)كلثوم بن عياض وجعل مقدمتهُ بلج بن بشر القشيري فاساء الى اهل القيروان فشكوهُ الى حبيب بن عبيدة بتلمسان من الموافقين للبربر فكتب حبيب الى بن عياض ينهاه ويتهدده فاعتذر وانصرف الامر · ثم سار وفي قلبهِ من حبيب واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبه ومر على طريق سبيبة ووصل الى تلمسان ولقيهُ حبيب واقتتلا ثم اتفقا ورجعا جميعًا فزحف البرابرة اليهما على وادي طنجة فهزموا بلجًا على الطلائع وانتهوا الى كلثوم فانكشف واشتد القتال وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الجند وتميز اهل الشام الى سبتة مع بلج بن بشر فحاصرهم البرابرة وارسلوا الى عبد الملك بن قطن امير الاندلس في ان يجتازوا اليهِ فاجابهم بشرط ان يقيموا سنة واحدة واخذ رهنهم على ذلك فلما انقضت السنة طالبهم بالشرط فقتلوه وملك بلج الاندلس

ثم ان عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع لما قتل ابوهُ حبيب مع كلثوم بن عياض وجاز بلج الى الاندلس فملكها جاز هو ايضًا اليها يحاول اخذ الملك فلم يتيسر لهُ ورجع الى تونس (سنة ١٢٦-٧٤٣)

وكان قد توفي هشام وقام الوليد بن يزيد فدعا عبد الرحمن لنفسهِ وسار الى القيروان وتغلب على حنظلة بالحيل ورحل حنظلة الى الشام واستقل عبد الرحمن بملك افريقية ثم سارت الخوارج في كل جهة مثل عمر بن عطاب الازدي بطبنياش · وعروة بن الوليد الصفري بتونس · وثابت الصنهاجي بباجة وعبد الجبار بن الحرث بطرابلس على راي الاباضية فارسل عبد الرحمن اخاه الياس لابن عطاب

فهزمهٔ وقتلهٔ ثم زحف الى عروة بتونس فقتلهٔ ايضًا وزحف عبد الرحمن نفسهٔ على الاثنين الاخيرين كل ذلك (سنة ١٣١) فظفر بهما وقتلهما وانقطع امر الخوارج

ثم زحف (سنة ١٣٥) الى جموع من البربر في نواحي تلمسان فظفر بهم وقفل ثم بعث جيشًا في البحر الى صقلية واخر الى سردانيه فاثخنا في امم الفرنج حتى استقروا بالخراج

ولما انقضت مدة الاموية ودالت دولة بني العباس ارسل عبد الرحمن بطاعتهِ الى السفاح ثم الى ابي جعفر المنصور من بعده ولحق كثير من بني امية بافريقية · وكان ممن قدم عليهِ (عبد الله وعبيد الله) القاضي وعبد المومن ابنا الوليد بن يزيد ومعهما ابنة عم لهما فزوجها عبد الرحمن من اخيهِ الياس ثم قتلهما فامتعضت اختهما لذلك واغرت زوجها الياس باخيهِ عبد الرحمن واستفسدتهُ وكان عبد الرحمن قد ارسل الى ابي جعفر المنصور بهدية قليلة واعتذر عنها فلم يحسن العذر وافحش في الخطاب فكتب اليهِ المنصور يتهدده وبعث اليهِ بالخلعة فانتقض عبد الرحمن ومزّق الخلعة على المنبر فوجد الياس حينئذٍ السبيل الى ما كان يحاول فعلهُ واتفق مع وجوه الجند وما لاه في ذلك اخوه عبد الوارث فعلم عبد الرحمن فتنتهما فامر الياس بالمسير الى تونس ولما جاء ليودعه ومعهُ اخوهُ عبد الوارث اتفقا عليهِ وقتلاهُ في اخر (سنة ١٣٧) لعشر سنين من امارتهِ

ولما قتل عبد الرحمن نجا ولده حبيب الى تونس الى عمران بن حبيب فتبعهُ الياس واقتتلا ثم اصطلحا على ان يكون لحبيب قفصة وقصطيله ونفزاوة · ولعمران تونس وصطفورة (تبرزه) والجزيرة · ولالياس سائر افريقية وتم هذا الصلح (سنة ١٣٨) وسار حبيب الى عملهِ ببلاد الجريد وسار الياس مع اخيهِ عمران الى تونس فغدر الياس بعمران وقتلهُ وجماعة من الاشراف معهُ وعاد الى القيروان وبعث بطاعتهِ الى ابي جعفر المنصور مع عبد الرحمن بن زياد بن انعم قاضي افريقية (وهي السنة التي دخل عبد الرحمن الداخل بلاد الاندلس واسس الدولة المروانية بالاستقلال عن بني العباس) ثم سار حبيب الى تونس فملكها وجاءهُ عمهُ الياس فقاتلهُ وخالفهُ حبيب الى القيروان فدخلها وفتق السجون ثم رجع الياس وقد فارقهُ اكثر اصحابهِ الى حبيب ولما تواقفا دعاه حبيب الى البراز فتبارزا وقتل حبيب الياس ودخل القيروان وملكها (سنة ١٣٨) ونجا عمهُ الاخر عبد الوارث الى وربجومة من قبائل البربر وكبيرهم يومئذٍ عاصم بن جميل وكان كاهنًا يدعي النبوة فاجار عبد الوارث فقاتلهم حبيب فهزموهُ الى قابس واستفحل امرهم وكاتب عرب القيروان عاصم بن جميل يدعونهُ للولاية واستخلفوه على الحماية والدعاء للمنصور فلم يجب الى ذلك بل قاتلهم فهزمهم واستباح القيروان وخرب المساجد ثم سار الى حبيب بقابس فقاتلهُ وهزمهُ ولحق حبيب بجبل اوراس فاجاره اهلهُ وجاءهُ عاصم فقاتلهم فهزموهُ وقتل جماعة من اصحابهِ · وقام بامر وربجومة والقيروان من بعده عبد الملك بن ابي

الجعد وهذا قتل حبيب بن عبد الرحمن ورجع في قبائل وربجومة الى القيروان واستولت وربجومة على افريقية وساروا بالعسف والظلم كما كان عاصم واكثر وافترق اهل القيروان بالنواحي من جوره وشاع خبرهم في كل ناد . فخرج بنواحي طرابلس عبد الاعلى بن السمح المغافري الاباضي منكرًا لذلك وقصد طرابلس وملكها . فبلغ ذلك عبد الملك فارسل العسكر لقتاله (سنة ١٤١) فلقيهم عبد الاعلى وهزمهم واثخن فيهم واتبعهم الى القيروان فملكها واخرج وربجومة منها واستخلف عليها عبد الرحمن بن رستم وسار الى طرابلس للقاء العساكر القادمة من ناحية الخليفة

وكان المنصور لما سمع بالفتن في افريقية وتغلب قبائل وربجومة على القيروان ووفد عليه اناس من افريقية يشكون اليه امرهم ويستصرخونه ضد وربجومة ارسل واليًا على مصر محمد بن الاشعث الخزاعي وهذا ارسل على افريقية ابا الاحوص عمرو بن الاحوص العجلي والتقى مع ابي الخطاب عبد الاعلى بسرت اولاً وثانيًا وانهزم ابو الخطاب في الثانية وقتل عامة اصحابه (سنة ١٤٤) وبلغ الخبر الى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان ففر عنها الى تاهرت وبني هنالك مدينة ونزلها . وفتح ابن الاشعث طرابلس واستعمل عليها المخارق غفار الطائي وقام بامر افريقية وضبطها وولى على طبنه والزاب الاغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سوارة التميمي ثم سارت اليه المضربة واخرجوه (سنة ١٤٨) فقفل الاغلب الى المشرق ثم قفل بن الاشعث الى المشرق ايضًا وولى على المضربة عيسى بن موسى الخراساني فبعث ابو جعفر المنصور الاغلب بن سالم بعده الى افريقية وكان من اصحاب ابي مسلم بخراسان فقدم على القيروان وسكن الناس ثم خرج عليه ابو قرة اليفرني في جموع البربر فهرب فنهض عليه الجند وخلعوه وكان الحسن بن حرب الكندي بقابس فكاتب الجند واستمالهم فلحقوا به واقبل بهم الى القيروان فملكها ولحق الاغلب بقابس ثم رجع الى اقبال الحسن بن حرب (سنة ١٥٠) فهزمه وسار الى القيروان فكر عليه الحسن دونها واقتتلوا وقتل الاغلب بسهم . فقدم اصحابه عليهم المغافر بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس وحملوا على الحسن فانهزم امامهم الى تونس ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في اثره ثم رجع الى تونس بعد شهرين فقتله الجند وقام بامر افريقية بن غفار

فلما بلغ ذلك المنصور بعث عمر بن حفص هزارمرد من ولد قبيصه بن ابي صفرة اخي المهلب فقدمها (سنة ١٥١) فاستقامت اموره ثلاث سنين ثم سار لبناء السور على مدينة طبنة واستخلف على القيروان ابا حازم حبيب بن حبيب المهلبي فثار البربر بافريقية وغلبوا على من كان بها وزحفوا على القيروان وقاتلوا ابا حازم فقتلوه واجتمع اباضية البربر في طرابلس وولوا عليهم ابا حاتم يعقوب بن حبيب الاباضي مولى كنده وكان على طرابلس الجنيد بن بشار الاسدي من قبل عمر بن حفص فامده بالعساكر وقاتلوا ابا حاتم فهزمهم وحصرهم بقابس وانتقضت افريقية من كل ناحية ثم ساروا في

عسكر الى طبنة وحاصروا بها عمر بن حفص وكان فيهم ابو قرة اليعقوبي في اربعين الفًا من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر الفًا من الاباضية جاءوا معهُ . والمسور الزناتي في عشرة الاف منهم وامم من الخوارج من صنهاجة وزناتة وهوارة عدد غفير فدافعهم عمر بن حفص بالاموال وفرق كلمتهم و بذل لاصحاب ابي قرة مالاً فانصرفوا واضطر ابو قرة لا تباعهم فبعث عمر جيشًا الى ابن رستم وهو بتهودا فانهزم الى تاهرت وضعف الاباضية عن حصار طبنه فارتجعوا عنها وسار ابو حاتم الى القيروان وحاصرها ثمانية اشهر . وسار عمر بن حفص وجهز العساكر الى طبنه فخالفة ابو قرة اليها فهزمهُ وبلغ ابا حاتم واصحابهُ وهو على القيروان مسير عمر بن حفص اليهم فقدموا للقائهِ فمال هو من الاريس الى تونس ثم جاء الى القيروان فدخلها واستعد للحصار واتبعهُ ابو حاتم والبربر فحاصروهُ الى ان جهده الحصار وخرج مستقتلاً فقتل اخر (سنة ١٥٤) وولي مكانهُ اخوهُ لامهِ حميد بن صخر واحرق ابو حاتم ابواب القيروان وثلم سورها

وكان لما بلغ المنصور تلك الفتن ارسل يزيد بن ابي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة في ستين الفًا و بلغ خبرهُ عمر بن حفص وكان ذلك ما حملهُ على المجاسرة والخروج مستميتًا فسار ابن حاتم وقدم على القيروان وابو حاتم يعقوب مستولٍ عليها فسار الى طرابلس للقائهِ واستخلف على القيروان عمر بن عثمان الفهري فانتقض وقتل اصحاب ابي حاتم وخرج المخارق بن غفار عليهِ كذلك فرجع اليهما ابو حاتم ففرا من القيروان ولحقا بجيجل من سواحل كتامة فتركهما واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السبع المغافري وعاد للقاء يزيد وكان بينهما قتال عنيد قتل فيهِ ابو حاتم يعقوب ونحو ثلثين الفًا من البربر وانهزموا و يزيد في اثرهم فدخل القيروان (سنة ١٥٥) وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهري مع ابي حاتم فهرب ولحق بكتامه فارسل اليهم يزيد بن حاتم عسكرًا فقاتلوهم وحاصروهم وهرب عبد الرحمن وقتل كل اصحابهِ وارسل ابن حاتم المخارق بن غفار على الزاب ونزل طبنة واثخن في البربر من وربجومة وغيرهم وبقي الامر كذلك الى ان مات يزيد في خلافة هرون الرشيد وقام بامر ابن حاتم ولدهُ داود فخرج عليهِ البربر واوقع بهم (وهذه هي المدة التي رحل فيها ادريس العلوي الى افريقية واقام بها ومنهُ جاءت الدولة الادريسية)

وكان لما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم وكان اخوهُ روح على فلسطين استقدمهُ وعزاهُ باخيهِ وولاه على افريقية فقدمها (سنة ١٧١) ورجع داود الى بغداد وكانت الخوارج في ذلة من ايام يزيد فكانت البلاد ساكنة ايام روح ورغب روح في موادعة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبية ثم مات روح (سنة ١٧٤) وكان الرشيد قد بعث سرًّا الى نصر بن حبيب من قرابتهم فقام بالامر بعده الى ان تولى الفضل بن روح

وكان لما توفي روح سار ابنهُ الفضل الى بغداد فاخذ الولاية من الرشيد على افريقية فعاد الى القيروان (سنة ١٧٧) واستعمل على تونس المغيرة ابن اخيهِ بشر وكان غلامًا جاهلاً فاستخف بالجند واستوحشوا من الفضل لما اساء فيهم السيرة واخذهم بموالاة حبيب بن نصر فاستعفى اهل تونس من المغيرة فلم يعفهم فانتقضوا وقدموا عليهم عبد الله بن الجارود ويعرف بعبد ربهِ من الانبار وبايعوهُ على الطاعة واخرجوا المغيرة فارسل عليهم عوضهُ ابن عمهِ عبد الله بن يزيد فذهب الى تونس فبعث بن الجارود يسالهُ عن سبب قدومهِ فقبض على الرسل وقتلهم وكان عن ذلك فتنة. وتولى محمد بن الفارسي من قواد الخراسانية استفساد القواد والعمال على الفضل وكثرت جموع ابن الجارود وخرج الفضل فانهزم واتبعهُ ابن الجارود واقتحم عليه القيروان ووكل بهِ وباهلهِ من يوصلهم الى قابس. ثم ردهُ من طريقهِ وقتلهُ (سنة ١٧٨) ورجع ابن الجارود الى تونس ثم امتعض لقتل الفضل جماعة من الجند مقدمهم مالك بن المنذر ووثبوا بالقيروان فملكوها وسار ابن الجارود اليهم فقتلهم وقتل مالكًا وجماعة من اعيانهم ولحق فلهم بالاندلس ثم قدموا عليهم الصلت بن سعيد وعادوا الى القيروان واضطربت افريقية فبعث هرون الرشيد هرثمة بن اعين عوض الفضل وارسل الى ابن الجارود يحيي بن موسى يرغبهُ في الطاعة فاجابهُ الجارود بشرط الفراغ من العلاء بن سعيد. فداخل يحيي صاحب الجارود محمد بن الفارسي واستمالهُ فنزع عن ابن الجارود. ثم خرج ابن الجارود من القيروان فرارًا من العلاء (سنة ١٧٩) وذهب للقاء ابن الفارسي فاخذهُ بدسيسةٍ في خلوة وامر رجلاً فقتلهُ وانهزم اصحابهُ. ثم سابق الجارود العلا بن سعيد ورسول الخليفة فسبق اليها العلاء وملكها وفتك باصحاب ابن الجارود. فلحق ابن الجارود بهرثمة فارسلهُ الى الخليفة وعرفهُ ان الذي اخرجهُ من القيروان كان العلاء بن سعيد فامرهُ بارسالهِ اليهِ فارسل فاكرمهُ الخليفة الى ان توفي بمصر واعتقل ابن الجارود. وقام هرثمة الى القيروان (سنة ١٧٩) فامن الناس وبنى القصر الكبير بالمنستير لسنة قدومهِ واقام سور طرابلس مما يلي البحر. وكان ابرهيم بن الاغلب عاملاً على الزاب وطبنة فهاداه ابرهيم ولاطفهُ فعقد لهُ على عملهِ فقام بامرهِ وحسن اثره. ثم خرج عليهِ عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي وجمعا الجموع فقاتلهما هرثمة وفرق جموعهما. ولما راى هرثمة كثرة الثوار والخلاف في افريقية استعفى فعفي ورجع الى العراق لسنتين ونصف من ولايته

ثم ارسل الرشيد محمد بن مقاتل الكعبي فقدم القيروان (سنة ١٨١) فاساء السيرة فاختلف عليهِ الجند وقدموا عليهم مخلد بن مرة الازدي فارسل عليهِ عساكر فقتلوهُ. ثم خرج عليهِ بتونس تمام بن تميم (سنة ١٨٣) واجتمع اليهِ الشعوب وزحف الى القيروان فخرج اليهِ محمد فانهزم امامهُ فتبعهُ الى القيروان ثم امنهُ على ان يترك افريقية فذهب محمد الى طرابلس وبلغ الخبر ابن الاغلب

فسار بجموعهِ الى القيروان وهرب تمام بين يديهِ الى تونس وملك القيروان واستقدم محمد بن مقاتل وارجعهُ الى امارته . ثم زحف تمام لقتالهِ فهزمهُ ابرهيم ثانية ثم استامن لهُ تمام فامنهُ وارسلهُ الى الخليفة فاعتقل هناك

ولما ثبتت اقدام محمد بن مقاتل في الولاية وهو مكروه داخل الناس ابرهيم بن الاغلب بان يطلب الولاية لنفسهِ من الرشيد فكتب ابرهيم وعرض على الرشيد بان يترك المائة الف دينار التي كانت افريقية تاخذ من مصر اعانة لها وبان يحمل اليهِ علاوة اربعين الف دينار من افريقية فاستشار الرشيد اصحابهُ فاشار هرثمة بولايتهِ فكتب لهُ بالعهد الى افريقية (سنة ١٨٤) وقام ابرهيم بالولاية وضبط الامور وقفل ابن مقاتل الى المشرق وسكنت البلاد بولاية ابن اغلب وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل اليها بجملتهِ . ومنهُ ابتدات الدولة الاغلبية

فصل

في الاغالبة من الموافقين للدعوة العباسية

وخرج علي ابرهيم بتونس حمديس من رجالات العرب فسرح اليهِ عمر بن مجالد فقاتلهُ وقتل من رجالهِ نحو عشرة الاف وانهزم

ثم صرف ابرهيم عنايتهُ الى تمهيد المغرب الاقصى وقد كان ظهر فيهِ دعوة العلوية بادريس بن عبد الله ثم توفي ادريس فاقام البرابرة ابنهُ الاصغر بكفالة مولاه راشد وكبر ادريس واستفحل امره ولم يزل ابرهيم يدس الى البربر حتى قتلوا راشدًا المذكور واخذوا راسهُ اليهِ . ثم قام بامر ادريس بهلول بن عبد الرحمن المظفر من رؤوس البربر واستفحل فلم يزل ابرهيم يتلطفهُ ويستميلهُ بالكتب والهدايا الى ان انحرف عن دعوة الادارسة الى العباسيين . اما ادريس فكتب اليهِ يستعطفهُ ويذكرهُ قرابتهُ من رسول الله فكف عنهُ

ثم خالف اهل اطرابلس علي ابرهيم الاغلبي (سنة ١٨٩) وثاروا بعاملهم سفيان بن المهاجر وقتلوا عامة اصحابهِ وطردوا سفيان واستعملوا عليهم ابرهيم بن سفيان التميمي فبعث اليهم ابرهيم بن الاغلب بالعسكر فهزمهم ودخل طرابلس ثم انتقض عمران بن مجالد الربعي (سنة ١٩٥) وكان بتونس وشاركهُ بذلك قريش ابن التونسي وكثرت جموعهما وتقدم عمران الى القيروان فملكها وجاءهُ قريش من تونس وخندق ابرهيم على نفسهِ بالعباسية فحاصراه سنة كاملة . وبعد حروب انجلى الامر بالنصر لابن الاغلب . وكان عمران قد حث ابن الفرات القاضي في الخروج اليهم فامتنع ثم بعث الرشيد بالمال الى ابرهيم فنادى في الناس بالعطاء ولحق بهِ اصحاب عدوهِ . ثم بعث ابن الاغلب على طرابلس ابنهُ

عبد الله (سنة١٩٦)فثار عليه الجند وحاصروهُ بداره وامنوهُ على ان ينصرف عنهم فخرج واجتمع اليهِ الناس واتاه البربر من كل جهة وزحف الى طرابلس فظفر على جندها ودخل المدينة ثم عزلهُ ابوهُ وولى سفيان بن المضاء فثارت هوارة بطرابلس وهجموا جندها ففروا الى ابن الاغلب فاعادهم ومعهم ابنهُ عبد الله في ثلاثة عشر الفًا فنتكوا بهوارة واثخنوا فيهم · وجدد ابرهيم سور طرابلس فبلغ الخبر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البربر وحضر طرابلس فحاصرها وهد باب زناتة وكان يقاتل من باب هوارة ثم جاء الخبر بوفاة ابن الاغلب فصالح ولده على ان يكون البلد والبحر لعبد الله واعمالها لعبد الوهاب وسار الى القيروان وكانت وفاة ابرهيم (سنة١٩٦)

ثم نهض ولدهُ عبد الله عوضهُ وكان قد عهد لهُ واوصى ولدهُ الاخر زيادة الله ان يبايع لاخيهِ بالامارة ففعل واخذ لهُ البيعة على الناس بالقيروان وكتب اليهِ بذلك فقدم اليها (سنة١٩٧) ولم يكن جيدًا في حق اخيهِ · ولم يكن في ايامهِ فتنة لان اباهُ كان قدمهد البلاد وكان عبد الله من الظالمين ومات من قرحة في اذنهِ (سنة ٢٠١) لخمس سنين من ولايتهِ

وبعد هلاك عبد الله نهض اخوهُ زيادة الله. وجاءهُ التقليد من قبل المامون وامره بان يدعو لعبد الله بن طاهر على المنابر فغضب زيادة وارسل مع الرسول بدنانير من سكة الادارسة يعرض لهُ بتحويل الدعوة ثم انتقض عليهِ العمال وهاجت الفتن وكان فاتحة الخلاف سهل بن الصقلية (سنة ٢٠٧) وحاصر مدينة باجة وهزم عساكر زيادة ثم انتقض منصور الترمذي بطبنة وسار الى تونس فملكها وكان العامل عليها اسمعيل بن سفيان وهو اخو الاغلب فقتلهُ وارسل زيادة العساكر مع غلبون ابن عمهِ ووزيره ففارق الجند غلبون خوفًا من منصور وافترقوا على افريقية واستولوا على باجة والجزيرة وصطفورة والاربس وغيرها وهاجت البلاد ثم اجتمعوا الى المنصور فسار بهم الى القيروان فملكها وحاصر زيادة في العباسية اربعين يومًا وعمر سور القيروان الذي خربهُ ابن الاغلب · ثم خرج اليهِ زيادة الله وقاتلهُ وهزمهُ ولحق بتونس وخرب زيادة الله سور القيروان · ولحق قواد الجند بالبلاد التي تغلبوا عليها منهم عامر بن نافع الازرق فانهُ لحق بسبيبة ثم سرح زيادة الله (سنة ٢٠٩) عسكرًا مع محمد بن عبد الله بن الاغلب فهزمهم عامر المذكور ورجعوا · ورجع المنصور الى تونس ولم يبقَ على طاعة زيادة من افريقية الا تونس والساحل وطرابلس ونفزاوة

ثم بعث الجند الى زيادة الله بالامان وان يرحل عن افريقية وكان قد بلغهُ ان عامر بن نافع يريد نفزاوة وان بربرها دعوه فارسل من منع ابن نافع عن ذلك وهزمهُ الى قسطيله ثم فر من قسطيله واستولى عليها سفيان (سنة٢٠٩) واسترد زيادة الله قسطيله والزاب وطرابلس واستقام امره

ثم قامت الفتنة بين منصور الطبندي وبين ابن نافع واستمال ابن نافع الجند وحاصر منصورًا

بطبندة في قصره حتى استامن اليه على ان يركب الى الشرق فاجابه ابن نافع اليه وانهزم منصور ثم رجع لمحاصرة عامر حتى استامن ثانية عن يد عبد السلام بن مفرج من قواد الجند فامنه عامر على ان يركب البحر الى المشرق وبعث معه ثقاة الى تونس . ثم اغرى من قتله وولده معه . واقام عامر بن نافع بمدينة تونس وتوفي (سنة ٢١٤) ورجع عبد السلام بن مفرج الى باجة الى ان انتقض فضل بن ابي العين بجزيرة شريك (سنة ٢١٨) فسار اليه ابن المفرج وجاءت عساكر زيادة الله فقاتلوها وقتل عبد السلام وانهزم فضل الى تونس وامتنع بها وحاصره العسكر . ثم اقتحموها عليه وقتلوا كثيرًا من اهلها وهرب اخرون حتى امنهم زيادة الله وعادوا وفي سنة (٢١٩) فتح اسد بن الفرات صقلية من عمالات الروم وكان قد تولى عليها بطريق من قبلهم (سنة ٢١١) وكان على الاسطول قائد حازم شجاع فغزا سواحل افريقية وانتهبها . ثم تغلظ خاطر ملك الروم على ذلك القائد فامر البطريق المذكور وكان اسمه قسطنطيل بان يقبض على القائد المرقوم ويقتله فبلغ الخبر اليه فانتقض وتعصب له اصحابه فسار الى سرقوسة من بلاد صقلية وملكها وتقاتل مع قسطنطيل فهزمه فدخل مدينة قطانية فاتبعه بجيش اخذوه وقتلوه . واستولى القائد على الجزيرة وخوطب بالملك وولى على الجزيرة رجلاً اسمه بلاطه . وكان ابن عم بلاطه ميخائيل على بليرم فانتقض هو وابن عمه على القائد . واستولى بلاطه على سرقوسة فركب القائد في اساطيله الى افريقية مستنجدًا بزيادة الله فبعث معهم العساكر واستعمل عليهم اسد بن الفرات قاضي القيروان فخرجوا في ربيع (سنة ٢١٢) فنزلوا بمدينة مازر وساروا الى بلاطه ولقيهم القائد وجميع الروم الذين بها فهزموا بلاطه والروم الذين معه وغنموا منهم اموالاً كثيرة وهرب بلاطه الى قلوريه . واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا الى قلعة الكرات وقد اجتمع بها خلق كثير فخادعوا القاضي اسد بن الفرات في المراودة على الصلح واداء الجزية وهم يستعدون للحصار . ثم امتنعوا عليهم فحاصرهم وبعث سراياه في كل ناحية وكثرت الغنائم وحاصروا سرقوسة برًا وبحرًا وجاءه المدد من افريقية وحاصروا بليرم وزحف الروم الى المسلمين من كل جهة وضربوا بالمسلمين حتى كشفوهم عن الحصار وحل الفناء بعسكرهم ومات اسد بن الفرات اميرهم ودفن بمدينة قصريانه . وخادع اهل قصريانه القائد الذي كان قد استنجد المسلمين فقتلوه ووصل المدد للروم ايضًا من القسطنطينية وتقاتلوا مع المسلمين وهزموهم ودخل فلهم الى قصريانه

ومما زاد كرب المسلمين كذلك موت اميرهم محمد بن الحواري فقام عوضه زهير بن عوف وظهر الروم على المسلمين في وقعات عديدة وحصروهم في معسكرهم حتى اجهدوهم وخرج من كان في جرجنت من المسلمين بعد ان هدموها وساروا الى مازر بقصد الوصول الى اخوانهم والكشف عنهم فلم يتم لهم

ذلك وبقوا الى (سنة ٢١٤) حتى اشرفوا على الهلاك. ثم وصلت مراكب افريقية مددًا واسطول من الاندلس كان قد خرج للجهاد واجتمع من ذلك نحو ثلاثماية مركب فنزلوا الجزيرة وكشفوا عن المسلمين وفتحوا بليرم بالامان (سنة ٢١٧) ثم توجهوا الى قصريانه (سنة ٢١٩) وهزموا الروم سنة ٢٢٠ ثم بعثوا الى طرميس

ثم ارسل زيادة الله الفضل بن يعقوب في سرية الى سرقوسة فغنموا ثم سارت سرية ثانية فاعترضها بطريق الجزيرة فامتنعوا منه في وعر حتى يئس وانصرف فحملوا عليه وهزموا قومه وسقط البطريق عن فرسه وجرح وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ومتاع

ثم جهز زيادة الله الى صقلية ابرهيم بن عبدالله بن الاغلب في العساكر وارسل اسطولاً فلقى اسطول الروم وظهر عليه وقتل من كان فيه وغنم ما معهم. وارسل اخر الى قصوره فلقى اسطولاً فغنمه وسارت سرية الى جبل النار والحصون التي في نواحيهم. وارسل الاغلب (سنة ٢٢١) اسطولاً نحو الجزائر فغنموا وعادوا. وبعث كذلك سرية الى قطليانة واخرى الى قصريانة وكانت الدائرة على المسلمين فيها. ثم جرت وقعة اخرى انتصر فيها المسلمون وغنموا تسع مراكب. ثم عثر البعض على عورة في قصريانة فدل المسلمين عليها ودخلوا البلد وتحصن النصارى في القلعة ثم استامنوا وغنم المسلمون كثيرًا وعادوا الى بليرم. ثم حضرتهم وفاة زيادة الله (سنة ٢٢٣) فوهنوا اولاً ثم تنشطوا وعادوا الى الصبر والجهاد

وتخلف على زيادة الله اخوه الاغلب ويكنى بابي عقال وكان محسانًا عادلاً فزاد العمال في ارزاقهم وكفهم عن الرعية وخرج عليه بقسطيلة خوارج زواغة ولواتة وبسكاسة وقتلوا عاملها بها فبعث عليهم العساكر واستاصلهم. وارسل سرية الى صقليه (سنة ٢٢٤) فغنموا ورجعوا. واستامن (سنة ٢٢٥) عدة حصون منها فامنوها ودخلوها صلحًا. وسار اسطول المسلمين الى قلورية ففتحوها ولقوا اسطول الروم فهزموه. وسارت سرايا المسلمين (سنة ٢٢٦) الى قصريانة ثم حصن الغيران واثخنوا هنالك وفيها توفي الاغلب بن ابرهيم في ربيع لستين وسبعة اشهر من امارته

وتولى بعد الاغلب ولده ابو العباس محمد ودانت له البلاد وبنى مدينة بقرب تاهرت باسم العباسية (سنة ٢٢٧) فاحرقها افلح بن عبد الوهاب بن رستم. وكاتب افلح صاحب الاندلس يتقرب اليه فبعث اليه بمائة الف درهم

وثار على محمد اخوه ابو جعفر ثم اتفقا على ان يستوزره محمد. فاستبد عليه وقتل وزراءه وانتهى الامر الى اقتتالهما وظفر محمد على اخيه فاخرجه من افريقية الى مصر (سنة ٢٤٢). وفيها توفي وقام عوضه ابنه ابو ابرهيم احمد فاحسن السيرة واكثر البذل في الجند وكان مولعًا بالعمار

فاقام نحو عشرة الاف حصن بالحجارة والكلس وابواب الحديد واتخذ جندًا من العبيد

ثم خرج عليهِ خوارج من البربر بناحية طرابلس فغلبهم عاملها وهو اخوهُ عبد الله بن محمد ٠ وفي عهده فتحت قصريانة من صقليه (سنة ٢٤٤) وبعث بفتحها للمتوكل العباسي وبهدايا من سبيها ٠ وتوفي ابو ابراهيم المذكور (سنة ٢٤٩) لثمان سنين من امارتهِ

وعليهِ تخلف ولدهُ زيادة الله الاصغر وجرى على سنن سلفهِ ولم تطل ايامهُ وتوفي (سنة ٢٥٠) لحول من ولايتهِ

و بعدهُ قام اخوهُ محمد ويعرف بابي الغرانيق وكان صاحب لهو وطرب ملازمًا مجالس الشراب وكانت في ايامهِ حروب وفتن وفتح جزيرة مالطة(سنة ٢٥٥)

وكان في ايام ابي العباس محمد قد سار الفضل بن جعفر الهمذاني بحرًا ونزل (سنة ٢٢٧) في مرسى مسينة من جزيرة صقليه وحاصرها فامتنعت عليهِ فارسل سراياه في النواحي ورجعوا غانمين وبعث بطائفة من عساكرهِ فجاؤوا البلد من وراء جبل مطل عليهِ وكان هو يحاربهُ من جهة اخرى فوقع الخوف في الاهلين وهربوا ففتح مسينة ٠ ثم التقى الحصار (سنة ٢٣٢) على مدينة لسي فاستمد اهلها بطريق الجزيرة فاجابهم واعطاهم العلامة بايقاد النار على الجبل فبلغ ذلك الفضل فاكمن لهم واوقد نارًا على جبلٍ حتى اذا خرجوا وتجاوزوا الكمين بغتهم فلم ينجُ منهم الا القليل وسلموه البلد بالامان

وفي سنة ٢٣٣) اجاز المسلمون الى ارض انكبردة (لومباردية) من البر الكبير وملكوا منها مدينة واحتلوها ٠ وفي التي بعدها اخذوا رغوس بالصلح من اهلها فهدموها بعد ان اخلوها من كل منقولٍ وكان قد توفي امير صقلية محمد بن عبدالله بن الاغلب واجتمع المسلمون على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب وكتب لهُ محمد بن الاغلب بعهده عليها ٠ وكان العباس قبل ذلك يغزو ويبعث السرايا فتاتيهِ بالغنائم فلما تولى خرج غازيًا بنفسهِ وردد البعوث والسرايا الى قطانية وسرقوسه و بوطيف ورغوس وافتتح حصونًا شهيرة وهزم اهل قصريانه وهي القاعدة ومسكن الملوك بعد سيرقوسه ٠ وامر فتحها ــ ذكروا ان العباس كان يكرر الغزو الى نواحي سيرقوسه وقصريانه شاتية وصائفة فيصيب منهم ويعود بالغنائم والاسرى ٠ فلما كان في شاتية منها اصاب منهم اسارى فقدمهم للقتال فقال لهُ بعضهم استبقني وانا افتح لك قصريانة فدلهم على عورة البلد فجاؤوها ليلاً ودخلوا البلد واعملوا السيف وفتحوا الابواب ودخل العباس بعسكره فقتل المقاتلة وسبى بنات البطارقة واصاب غنائم كثيرة وذل الروم كثيرًا بعد ذلك

ثم ارسل ملك الروم عسكرًا عظيمًا بحرًا فقدموا الى مرسى سرقوسة فاتاهم العباس من بلرم

وكان النصر للمسلمين وانطلق فل الروم الى بلادهم وذلك (سنة ٢٣٧) واخذ المسلمون ثلاثة مراكبها او اكثر

ثم فتح العباس غير قلاع وتجددت حروب الروم فجاء مدد من القسطنطينية فنزلوا سيرقوسه وزحف اليهم العباس ونال منهم ورجع الى قصريانه فحصنها واقرّبها الحامية ثم سار (سنة ٢٤٧) الى سيرقوسه واصاب بعض الشيء وقفل ومات في طريقهِ ودفن في نواحي سيرقوسه واحرق النصارى شلوهُ لاحدى عشرة سنة من امارتهِ وكان ذلك في عهد ابي ابرهيم احمد

ودام الغزو في صقلية واجاز المسلمون الى عدوة الروم في الشمال وغزوا فلوريه وانكبردة وفتحوا حصونًا وسكنوا بها

وقام بعد العباس ابنهُ عبد الله براي المسلمين وكوتب احمد بن الاغلب صاحب افريقية بذلك فارسل خمسة اشهر بعد ولاية عبد الله خفاجة بن سفيان (سنة ٢٤٨) وهذا بعث ابنهُ محمودًا في سرية الى سيرقوسه وخرج اليهِ الروم فتقاتلوا ورجع . ثم فتح مدينة نوطوس (سنة ٢٥٢) لجهة سرقوسه وجبل النار (جبل اتنا) واستامن اليهِ اهل طرميس ثم غدروا فسرّح خفاجة ابنهُ محمدًا بالعساكر فسبي وغنم ثم سار خفاجة الى رغوس وافتتحها ومرض هناك فعاد الى بليرم . ثم سار (سنة ٢٥٢) الى سرقوسه وقطانيه فخرب وافسد الزروع وبث سراياه في الجزيرة فامتلأت ايديهم من الغنائم

و(في سنة ٢٥٤) وصل بطريق من الروم وتقاتل مع المسلمين وانهزم . وعاث خفاجة في نواحي سرقوسه وعاد الى بليرم وبعث (سنة ٢٥٥) ولدهُ محمدًا الى طرميس ودخلها ونهبها ثم سار خفاجة الى سرقوسه فحاصرها ورجع على غير فائدة فاغتالهُ بعض عسكره في طريقهِ وقتلهُ . فاقام الناس (سنة ٢٥٥) ابنهُ محمدًا وكتبوا الى محمد بن احمد صاحب افريقية فاقره على الولاية وبعث اليهِ بالعهد وتغلب الروم على بعض اماكن بصقلية وبني محمد الاغلبي صاحب افريقية حصونًا ومحارس على ساحل البحر على مسيرة خمسة عشر يومًا من برقة الى جهة المغرب وتوفي (سنة ٢٦١) لاحدى عشرة سنة من ولايتهِ

وكان محمد المذكور عند موتهِ قد عهد بالامارة لولده ابي عقال وجعل اخاهُ ابرهيم وكيلاً لهُ الى ان يكبر واستحلفهُ على ذلك الا انهُ بعد موت محمد حمل اهل القيروان ابرهيم المذكور على الولاية بنفسهِ لانهُ كان حسن السيرة عادلاً فامتنع ثم اجاب تاركًا وصية اخيهِ في ولده ابي عقال وانتقل الى قصر الامارة وقام بالامر احسن قيام فقطع البغي والفساد وانصف وجلس لسماع شكوى المتظلمين واقام الحصون والمحارس بسواحل البحر فامنت البلاد . وكان اذا ظهر عدو توقد النار في ساحل سبتة نذيرًا فيصل ايقادها من حصن الى اخر في ليلة واحدة الى الاسكندرية وهذا من الاختراعات العقلية الجليلة

التي كانت لهم عوض التلغراف وفتنذٍ · وبني سور سوسة

وفي ايام ابرهيم المذكوركان مسيرالعباس بن احمد بن طولون مخالفًا على ابيهِ صاحب مصر (سنة ٢٦٥) فملك برقة من يد محمدبن موهب قائد ابن الاغلب ثم ملك لبدة ثم حاصر طرابلس· واستمدا بن موهب بقوسة فامدوه فلقي العباس بقصر حاتم(سنة ٢٦٧)فهزمهُ وعاد الى مصر

ثم خالفت وزداجة ومنعوا الرهن وفعلت كذالك هوارة ثم لواتة وقتل بن موهب في خروجهم فسرح ابرهيم ابنهُ عبدالله اليهم با لعساكر(سنة ٢٦٩)فاثخن فيهم· ثم كثرالخوارج(سنة ٢٨٠)ففرق عليهم العساكر واستركب العبيد السودان واكثر منهم فبلغوا ثلاثة الاف

ونقل ابرهيم سكناه(سنة ٢٨١) الى تونس واتخذ بها القصور ثم ركب لمحاربة ابن طولون بمصر (سنة ٢٨٣)فاعترضتهُ نفوسة فهزمهم ثم انتهى الى سرت فانصرفت عنهُ الحشود فرجع · وبعث ابنهُ عبدالله الى صقلية(سنة ٢٨٧) في مايةوستين مركبًا فحاصر طربنة· ثم انتقض عليهِ اهل بليرم وجرجنت وكانت بينهم فتنة فاغرى كل واحد منهم با لاخر ثم اجتمعوا لحربه وزحف اليهِ اهل بليرم بحرًا فظفر عليهم واستباحهم وارسل بعض وجوههم الى ابيهِ وفرا اخرون الى القسطنطينية والبعض الى طرميس فاتبعهم ثم حاصر اهل قطانية فامتنعوا عليهِ فتركهم

ثم غزا سنة ٢٨٨ دمقش ثم مسينة ثم فتح ربو عنوةً وشحن مراكبهُ بغنائمها ورجع الى مسينة فهدم سورها ثم جاء المدد من القسطنطينية فهزمهم واخذ منهم ثلاثين مركبًا ثم اجاز الى عدوة الروم واوقع بهم وعاد الى صقلية

ثم قدم تلك السنة رسول المعتضد يعزل الامير ابرهيم لشكوى اهل تونس بهِ فاستقدم ابنهُ عبد الله من صقلية وارتحل هو اليها · قال ابن الرقيق انهُ كان جائرًا ظلومًا سفاكًا للدماء فاصيب اخرعمره بالما ليخوليا واسرف في القتل فقتل من خدمهِ ونسائهِ وبناتهِ عددًا غفيرًا وقتل ابنهُ ابا الاغلب لظن ظنهُ بهِ حتى انهُ افتقد يومًا منديلاً لشرابهِ فقتل بسببهِ ثلثماية خادم ·اما ابن الاثير فيثني عليهِ با لعقل والعدل وحسن السيرة · وقال ان فتح سرقوسة كان في ايامهِ على يد جعفر بن محمد امير صقلية بعد حصار تسعة اشهر وهزم مدد القسطنطينية بحرًا

والكل على انهُ قدم الى صقلية ونزل طربنة ثم تحول عنها الى بليرم ونزل على دمقش وحاصرها سبعة عشر يومًا ثم فتح مسينة وهدم سورها ثم فتح طرميس (سنة ٢٨٩) وبعث حافده زيادة الله ابن ابنه ابي العباس عبد الله الى قلعة بمقش ففتحها وبعث ابنه ابا محرز الى رمطه فاعطوه الجزية · ثم عبر الى عدوة البحر وسار في برالفرنج ودخل فلوريه عنوةً فقتل وسبى ثم رجع الى صقلية · ثم سار الى كنسة فحاصرها واستامنوا اليهِ فلم يقبل ·ثم هلك محاصرًا لها(سنة ٢٨٩) لثمان وعشرين سنة من

امارته فولى العسكر عليهم حافده ابا مضر ليحفظ الامور الى ان ياتي ابو العباس عبد الله ابنه من افريقية فامن ابو مضر اهل كنسة فبل علمهم بموته وقبل منهم الجزية واقام قليلاً حتى تلاحقت به السرايا ثم ارتحل وحمل جده ابرهيم فدفنه قيل في بليرم وقيل في القيروان

وفي زمانه ظهر ابو عبد الله الشيعي بكتامة يدعو للرضا من آل محمد ظاهرًا ويبطن الدعوى لعبيد الله المهدي من ابنا اسمعيل الامام وتبعته كتامة وكان ذلك من الاسباب التي جعلته يترك افريقية الى صقلية عندما جاء كتاب المعتضد بعزله مظهرًا التوبة وكانت بعده حروب ابي عبد الله الشيعي ٠ وكان ابرهيم قد اسر لابنه ابي العباس في شان الشيعي ونهاه عن محاربته وان يلحق به الى صقلية ان ظهر عليه

نبذة

في الخلافة الاسلامية واقسامها وما ظهر منها في الفرع الافريقي

قد اسلفنا في الجزء الاول نبذة في دول الاسلام والخوارج و بينا الاختلاف الكائن بين الفريقين بالنظر الى المبادي وشعار كل منها ولم نستوف الشرح في الاختلاف الواقع في مبادي الخلافة نفسها اما الان فاذ قد اتينا الى شجرة الدول الاسلامية وفروعها فلا بد من استيفاء الشرح عن ذلك بالتفصيل طلبًا لتعيين ما تنتمي اليه من الاصل الخاص القائم في السدرة الامية كل من الدول الاسلامية العديدة الظاهرة في ملعب هذا الكون فنوزعها على الفرعين العظيمين الخارجين من الصفاة الاسلامية كما سبق الشرح

اعلم انه بعد موت الرسول ظهر في الامة ثلاثة احزاب كلية على الخلافة منها الحزب الانصاري وهو ان تكون الخلافة في الانصار شورى بة يتخبون الافضل فيهم ٠ واليها مال الانصار والمهاجرون فارادوا مبايعة سعد بن عبادة الانصاري وبرهانهم كان سيف نصرتهم ٠ فقال الحباب بن المنذر بن الجموح في اجتماع السقيفه للقرشيين « منا امير ومنكم امير فان ابوا فاجلوهم يا معشر الانصار من البلاد فباسيافكم دان الناس لهذا الدين وان شئتم اعدناها جذعة انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب »

والحزب الثاني قرشي وهو ان تكون الخلافة في بني قريش للافضل بينهم شورويه مقيدة وبرهانهم كان كما قال ابو بكر الصديق « نحن اولياء النبي وعشيرته واحق الناس بامره وانتم لكم حق السابقة والنصرة فنحن الامراء وانتم الوزراء » ووافقه على ذلك عمر بن الخطاب بقوله « ان الرسول صلعم اوصانا بكم كما تعلمون ولو كنتم الامراء لاوصاكم بنا »

والحزب الثالث هاشمي وهو ان تكون الخلافة في بني هاشم من قريش للاقرب بينهم الى الرسول وقد طلبها علي بن ابي طالب بناء على حق القربى وعلى عهد الرسول اليه وبرهانه ما ورد في خبر جمع النبي اعيان بني قريش ووعده بالخلافة لمن وازره في دعوته فلبى علي دعوته من بينهم وحده

هذا والامة صامتة ترى الحق لها في ذلك فوضى حسب عوائدهم القديمة . واخيرًا غلب الحزب الاوسط وفصل الامر بشير بن سعد الخزرجي فقال « الا ان محمدًا من قريش وقومه احق واولى ونحن وان كنا اولى فضل في الجهاد وسابقة في الدين فما اردنا بذلك الا رضى الله وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضًا ولا نستطيل به على الناس » فاجمع رايهم على خلافة قرشية واقاموا ابا بكر الصديق خليفة وعرفت بالخلافة الجماعية والسنية وهي الدولة الاسلامية الاولى وعلى اعقابها الدولة الاموية بالشام والمروانية في الاندلس لانهما من قريش

ثم دالت الخلافة للهاشميين فانقسمت الى فرعين عظيمين عباسية وعلوية وكلاهما من الحزب الثالث وهو التشيع لاهل البيت فالاولى منسوبة الى العباس عم الرسول . والثانية لعلي بن عمه الا ان في الثانية ادعا عهد الرسول ما خلا القربى فكانت اطهر واشرف في اعتقاد اهلها . وقد نقسمت العلوية الى فروع كثيرة في اسيا وافريقية وانتسب اليها كثير منهم صادق ومنهم دعي في النسب وهي الدولة المزاحمة لدولة بني العباس

ثم خرجت دول مصطنعة ومساعدة لكل من الدولتين المذكورتين منها ما نبذت الدعوة ومنها ما لبثت موافقة لها الى انقراضها وكذلك خرجت دول اسلامية جديدة بقوة الافتتاح والجهاد والنصرة لدين الاسلام فهذه الدول كلها تسند حقها لا للخلافة القرشية بل للانصارية على مذهب الحباب بن المنذر ومن ثم فكل الدول الاسلامية منحصرة في ثلاثة انواع . جماعية او سنية كالاموية . وشيعية كالعباسية والعلوية . وانصارية وهي ما عدا ذلك وكلها مضادة لمبدا الخوارج

وقد ذكرنا امتداد الدولة الاموية والعباسية بعمالها والاغالبة القائمين بدعوة العباسيين في افريقية ولنذكر الان غيرهم من الفرع الافريقي

فصل

في الادارسة

سبق خروج حسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن حسن السبط بمكة (سنة ١٦٩) في زمان الهادي من العباسيين فنجا من تلك الوقعة ادريس وسليمان عما الحسين ويحيى بن ادريس فيحيى هذا ظهر بعده في الديلم واستنزله الرشيد وسجنه اما ادريس وسليمان ففرا الى المغرب

فادريس لحق بالمغرب الاقصى هو ومولاهُ راشد ووصل الى وليه (سنة ١٧٢) فاجارهُ اميرها محمد بن عبد الحميد اميراوربة وانتدب البرابرة لدعوته فلبي ذلك . زواغة . ولواتة . وسدراته . وغياثة . ونفرة . ومكناسة . وغمارة . وغيرهم وبايعوه وخطب في الناس وقال بعد الحمدلة والصلعمة لاتمدنّ الاعناق لغيرنا فان الذي تجدونهُ عندنا من الحق لاتجدونهُ عند سوانا

ولما استوسق امره زحف الى البرابرة الذين كانوا يدينون بدين المجوس والنصارى واليهود مثل قندلاوه . وبهلوانه . ومديونة مازار وفتح تامسنا . وشالة . وتادلة واسلموا على يديهِ طوعًا وكرهًا وكان اكثرهم يهودًا ونصارى ثم زحف الى تلمسان وبها من قبائل بني يعرب ومغراوة (سنة ١٧٣) فاستامن لهُ اميرها محمد بن حرز بن حزلان فامنهُ ادريس وسائر زناتة ودخل البلد وبني مسجدها وامر بوضع اسمهِ على المنبر كما هو مخطوط في صحفهِ ثم عاد الى مدينة وليلي ثم دس الرشيد اليهِ مولى من موالي المهدي اسمهُ سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ ارسلهُ بكتاب الى روح بن حاتم عامل افريقية فاجازه ولحق بادريس مظهرًا التبرؤ من الدعوة العباسية فقبلهُ ادريس واكرمهُ وكان قد استحضر سمًا فجعلهُ في سنون واعطاه لادريس عند شكايتهِ يومًا وجع اسنانهِ فكان سبب حتفهِ كما قيل ودفن بوليلى (سنة ١٧٥) وفر الشماخ فتبعهُ راشد فيما زعموا بوادي ملوية واختلفا ضربتين فقطعت يد الشماخ واجاز الوادي ثم اخذ راشد بالدعوة لابنهِ ادريس الاصغر من جارية كنزه فبايعوهُ حملاً ثم رضيعًا ثم فصيلاً الى ان شب فبايعوهُ بجامع وليلى (سنة ١٨٨) ابن ثنتي عشرة سنة وكان ابن الاغلب عامل افريقية وقتئذٍ دس اليهم الاموال حتى قتلوا راشدًا مولاهُ (سنة ١٨٦) فقام بكفالة ادريس بعده ابن العبديّ الى ان بايعوا لهُ وقاموا بامره وجددوا طاعتهم فافتتح بلاد المغرب كلها واستوسق لهُ الملك بها واستوزر مصعب بن عيسى الازدي المعروف بالمجوم ونزع اليهِ كثير من قبائل العرب والاندلس زهاء خمس مئة فاختصهم ببطانتهِ وحاشيتهِ واستفحل سلطانهُ بالبربر وقتل كبيراوربة لما علم منهُ الموالاة مع ابرهيم بن الاغلب وعظمت دولتهُ وانصاره وضاقت وليلى بهم فاغتنام موضعًا لبناء مدينة وكانت فاس لبني بوغش وبني الخير من زواغة وكان بينهم مجوس (وشيبوبة موضع بيت نارهم) وكذلك يهود ونصارى فاسلموا عن يد ادريس فحدث فيهم فتن فبعث للاصلاح بينهم كاتبهُ عبد الملك بن مالك الخزرجي ثم جاء ادريس الى فاس وضرب ابنيتهُ بكزواوة وشرع ببنائها فاختط عدوة الاندلس (سنة ١٩٢-٨٠٧) وفي التي بعدها اختط عدوة القرويين وبنى مساكنهُ وانتقل اليها واسس جامع الشرفاء وكانت عدوة القرويين من لدن باب السلسلة الى غدير الجوزاء والجرف . واستقام لادريس الملك والدعاة بدعوتهِ والعز وشاع ذكره . وغزا المصامدة (سنة ١٩٧) وفتح بلادهم ودانوا بدعوتهِ ثم غزا تلمسان وجدد بناء مسجدها واصلح منبرها واقام بها ثلاث

سنين وانتظم امر البربر وانحسمت الخوارج منهم وانقطع المغرب عن دعوة العباسيين من لدن السوس الاقصى الى شلف وكان ابن الاغلب يدافع عن حماه لما ضايقه بالمكاد فاستقدم الاولياء واستمال اليه بهلول بن عبد الواحد المظفري بقومه عن طاعة ادريس الى هرون وقدم عليه بالقيروان واستراب ادريس بالبرابرة فصالح ابرهيم الاغلبي واطمأن

وعجز الاغالبة عن مدافعة الادارسة فكانوا يدفعون خلفاء بني العباس بالاعذار ونحوها ويقدحون بنسب ادريس بغير برهان غيرة وحسدًا وتوفي ادريس (سنة ٢١٣-٨٢٨) وخلفه ابنه محمد بعهده اليه

ومحمد اقتسم المملكة الادريسية المغربية بعد موت جدته كنزة بينه وبين اخوته الراشدين فكان لقاسم طنجة وما يليها كالبصرة وسبتة وتيطاوين وقلعة حجر النسر وما بينها من البلاد والقبائل. وكان لعمر تبكيسان وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة. ولداود هواره باسليب وتازى وما بينهما من قبائل مكناسة وغياثة. ولعبدالله اغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطه والسوس الاقصى. واخذ يحيي مدينة دائي واصيلا والعرايش وبلاد دوغة وما الى ذلك. وكان لعيسى شالة وسلا وازمور وتامسنا ونحوها. ولحمزة وليلى واعمالها وابقى الباقين في كفالتهم الى ان بلغوا اشدهم وبقيت تلمسان لولد سليمان بن عبد الله. وهذا التقسيم كان سبب ضعف المملكة وسقوطها فان شريعة الارث القرآنية لا يجوز اطلاقها على الممالك كما هو على المتاع ولا ريب ان المسلمين الاول كانوا يفهمون الفرق بين ما يملكه الانسان من متاع الدنيا وبين البلدان والممالك الخاضعة لامره فاجازوا التقسيم على الاول واختلفوا على الثاني وهذه مسئلة دقيقة وقد كانت ولم تزل ولن تزال مسئلة اختلافية بين الناس قاطبة وكل طائفة تسند مذهبها بشهادات دينية وعقلية ومادية وقد اراقوا انهرًا من الدماء في ذلك. والاختلاف المذكور هو ما بين ان يكون الامير مالكًا للبلاد والعباد ملك المتاع يتصرف بهم كيف شاء او ان امارته في الاول قائمة في النظر الى امور بلاده ورعيته والعدل بينهم وسياستهم بحسب المبادي الصالحة الآيلة لخيرهم والانتفاع بمنافعهم فقط فهي اشبه بالخدمة والاجارة لا بالسيادة لا كالثاني الكائنة في التصرف المطلق من بيع وشراء وتوريث وايصاء ونحوها فالذين فرقوا بين الواحد والثاني قالوا ان الامير خلق لخير الامة المتسلط عليها لا ان الامة خلقت له. فمنعوا تقسيم المملكة بين الورثة ولم يجيزوا التصرف بها تصرف المتاع ومن هذا الراي كان عمر الفاروق كما يظهر واكثر الجماعة وبعض الشيعة والخوارج لكن على تفاوت في رايهم فقد تقدم كيف ان عمر لما دنا موته وكان اصحابه يطلبون اليه ان يعهد لابنه من بعده قال ما معناه. حسب قومي وجود من يقوم بحمل ثقيل نظير الخلافة دون ان تخرج عنهم فعهد بها الى ستة اشخاص من قريش وجعلها بينهم شورى. ولا ريب ان

في عمل هذا الانسان العظيم من السياسة الجليلة الفائقة في تلك الاعصار ما يُخجل اعظم سياسيي العالم من ماضٍ وحاضر اذ في ما قاله وعمله من الحكمة السامية ما يوقفنا بكن دوام الممالك ونمو الامم · والشاهد على ذلك ان كل مملكة اجازت التجزؤ بين الورثة خربت في سنين قليلة و يوجد امثال كثيرة تاريخية اكثر من ان تحصى منها مملكة الادارسة هذه فانهُ لم يتم هذا التقسيم كما ذكرنا حتى دخل شيطان الطمع والحرب بين الاخوة اولاً ثم استولى اخر على ممالكهم · نعم ان الخلفاء الشرعيين ومن قام مقامهم في السلطنة الاسلامية اقتفى اكثرهم توريث المملكة غير مقسومة للارشد من ذويهم الا انهُ في اتباع هذا المبدا كثير منهم اقترفوا ما ثم اشد فظاعة بقتلهم الاقرب اليهم لكي لا يبقى لهم منازع في الملك فكانهم استباحوا موتهم على حرمانهم من الميراث · فان قيل وما الذي يمكن عملهُ لتحاشي هذه الامور ومنع هذه الشرور قلت لا شيء افضل مما فعلهُ عمر واتباع هذا الحكيم الفاضل في سيرته وسياسته اجل شيء لصيانة حقوق الامة وافرادها كما تشهد بذلك التجربة فان لا انجاح موكد الا في المبادي العمرية

ومحمد ابقى لنفسهِ الامارة فخرج عليهِ اخوهُ عيسى طالبًا الامر لنفسهِ فبعث محمد لحربهِ اخاهُ عمر بعد ان استدعى القاسم وامتنع فحاربه عمر وظفر عليهِ واستنابه على اعمالهِ باذن اخيهِ محمد ثم نهض بامر محمد ايضًا على القاسم لقعوده عن اجابة طلبهِ بحرب عيسى وحاربهُ واخذ ما معهُ وصار الريف البحري كلهُ من عمل عمر من تبكيسان وبلاد غماره الى سبته ثم الى طنجة على ساحل البحر الرومي ثم ينعطف الى اصيلا ثم سلا ثم ازمور وبلاد تامسنا على ساحل البحر الكبير ثم تزهد القاسم وبنى رباطًا بساحل اصيلا للعبادة ومات · واتسع نطاق امارة عمر وخلصت طويتهُ لاخيهِ محمد ومات في امارة اخيهِ بصنهاجة (سنة ٢٢٠) بموضع يقال لهُ فج الفرس ودفن بفاس · وعمر هذا هو جد الحمودبين الداخلين بالاندلس من بني امية

وعقد الامير محمد لعلي بن عمر على عملهِ ثم توفي (سنة ٢٢١) لسبعة اشهر من موت عمر بعد ان استخلف ابنهُ عليًا في مرضهِ وهو ابن تسع سنين فقام بامرهِ الاولياء والحاشية من العرب واوربة والبربر وصنائع الدولة وبايعوهُ غلامًا مترعرعًا واحسنوا القيام بامره فكانت ايامهُ ايام خير وتوفي (سنة ٢٣٤) لثلاث عشرة سنة من ولايتهِ وعهد لاخيهِ يحيى بن محمد فقام بالامر وعظمت شوكتهُ وحسنت اثار ايامهِ واستجدت فاس بالعمران وبنيت فيها الفنادق والحمامات والارباض ورحل اليها الناس من الثغور

واتفق ان نزلتها امراة قيروانية تعرف بام البنين بنت محمد الفهري او كما قال بن ابي الذرع اسمها فاطمة من هوارة وكانت مثرية فاعتزمت على صرف ثروتها في وجوه الخير فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين (سنة ٢٤٥) في ارض بيضاء كان قد اقطعها الامير ادريس وانبطت بصحنها بئرًا لشرب الناس فكانت مثلاً صالحًا فانتبهت عزائم الملوك من بعدها ونقلوا اليهِ الخطبة من جامع

ادريس لضيق محلتهِ ثم اوسع في خطتهِ المنصور بن ابي عامر وجلب اليهِ الماء واعد لهُ السقاية والسلسلة بباب الحفاة منهُ ثم اوسع في خطتهِ اخر ملوك لمتونة من الموحدين وبني مرين وانصرفت هممهم الى تشييدهِ والمنافسات في الاحتفال بهِ

ومات يحيي المذكور ولا نعلم تاريخ موتهِ بالدقة ويقرب ان يكون (سنة ٢٥٠) وقام بعدهُ ولدهُ يحيي بن يحيي فاساء السيرة وكثر عبثهُ في الحرم وثاروا بهِ وعلى راس الثورة عبد الرحمن بن ابي سهل الحزامي واخرجوهُ من عدوة القرويين الى عدوة الاندلسيين وتوارى ومات اسفًا وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس . وكان ذلك في ايام ابن عمهِ علي بن عمر صاحب الريف فاستدعاه اهل الدولة من عرب وبربر وموالٍ فقدم على فاس وبايعوهُ واستولى على اعمال المغرب الى أن ثار عليهِ عبد الرزاق الخارجي من الصفرية بجبال مديونه فزحف الى فاس وغلب عليها ففر الى اوربة وملك عبد الرزاق المذكور عدوة الاندلس وامتنعت منهُ عدوة القرويين . فولوا عليهم يحيي بن القاسم المقدم خبرهُ من ابناء ادريس المعروف بالصرام وكان بينهُ وبين الخارجي حروب . وتقلوا انهُ اخرجهُ عن عدوة الاندلس وولاها ثعلبة بن محارب من اهل الربض بقرطبه من ولد المهلب بن ابي صفرة . ثم استعمل ابنهُ من بعده المعروف بعبود ثم محارب بن عبود الى ان اغتالهُ الربيع بن سليمان (سنة ٢٩٢)

ثم قام بالامر بعد يحيي بن القاسم يحيي بن ادريس بن عمر صاحب الريف وهو ابن اخي علي بن عمر المقدم خبره . فملك جميع اعمال الادارسة وخطب لهُ في سائر عمالاتهم بالمغرب وكان اعلى بني ادريس ملكًا واجلهم سلطانًا فقيهًا عارفًا بالحديث وفاق من تقدم ومن تاخر دولة وهيبةً

قال ابن خلدون « وفي اثنا ذلك كله خلط الملك للشيعة بافريقية وتغلبوا على الاسكندرية واختطوا المهدية ثم طمحوا الى المغرب وعقدوا لفضالة بن جبوس كبير مكناسة وصاحب تاهرت على محاربة ملوكهِ (سنة ٣٠٥) فزحف اليهِ في عساكر مكناسة وكتامة وبرز لمدافعة يحيي بن ادريس بجموعهِ من المغرب واولياء الدولة من اوربة وسائر البرابرة والموالي والتقوا على مكناسة وكانت الدبرة على يحيي وقومهِ ورجع الى فاس مغلولاً . واجاز لهُ فضالة بها معاملة الى ان صالحهُ على مالٍ يؤديهِ اليهِ وطاعة معروفة لعبيد الله الشيعي سلطانهِ يؤديها فقبل الشرط وخرج عن الامر وخلع نفسهُ وانفذ بيعتهُ الى عبد الله المهدي وابقى عليهِ مصالحهُ في سكنى فاس وعقد لهُ على عملها خاصة وعقد لابن عمهِ موسى بن ابي العافية امير مكناسة يومئذٍ وصاحب سنور وتازير على سائر اعمال البربر » قال ابو الفدا « وانقرضت دولتهم في هذه السنة اي (سنة ٣٠٧) » فانها لم تعد بعد ذلك دولة الادارسة المغربية

وكان بين موسى بن ابي العافية ويحيي بن ادريس بغضة يضطغنها كلٌ لصاحبهِ ولما عاد فضالة الى

المغرب (سنة ٣٠٩) اغزاه موسى بطلحة بن يحيى صاحب فاس فقبض عليه فضالة واستصفى امواله وذخائره وغربه الى اصيلا وولى على فاس ريحان الكتامي . ثم سجن يحيي سنتين واطلقه ولحق بالمهدية (سنة ٣١١) وتوفي في حصار ابي يزيد الخارجي

واستبد موسى بملك المغرب . ثم ثار على ريحان الكتامي (سنة ٣١٣) الحسن بن محمد بن القاسم الادريسي الملقب بالحجام ونفى ريحان عن فاس وملكها سنتين . وكان بينه وبين ابن ابي العافية حروب شديدة هلك بها منهال بن موسى وانجلى الامر عن انهزام الحسن الى فاس فغدر به حامد بن حمدان الاوربي واعتقله واستدعى موسى فقدم على فاس وملكها واستحضره الحسن فدافعه عن ذلك واطلق الحسن متنكرًا فتدلى من السور فسقط ومات وفر حامد الى المهدية . وقتل موسى عبد الله بن ثعلبة بن محارب وولديه محمدًا ويوسف . واستولى ابن ابي العافية على جميع المغرب واجلى بني محمد بن القاسم الادريسي فنزلوا البصرة واجتمعوا الى كبيرهم ابرهيم بن محمد وولوه عليهم واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك وهو حجر النسر (سنة ٣٢٧) ونزلوه وبنو عمر بن ادريس حينئذٍ بغمارة من تبكيسان الى سبتة وطنجة

ثم طاب عبد الرحمن الناصر فتح المغرب فاخذ سبته من علي بن ادريس وانزل بها حاميته ومات ابرهيم بن محمد المذكور وتولى بعده اخوه القاسم الملقب بكانون وهو اخو الحسن الحجام وقام بدعوة الشيعة انحرافًا عن ابن ابي العافية ومذاهبه وانصل الامر بولده وكان اهل غمارة اولياءهم القائمين بامرهم

ودخلت دعوة المروانيين خلفاء قرطبة الى المغرب وتغلبت زناتة على الصواحي ثم ملك بنو يعرب فاس وبعدهم مغراوة . واقام الادارسة بالريف من غمارة وتجدد لهم به ملك في بني محمد وبني عمر بمدينة البصرة وقلعة حجر النسر ومدينة سبتة واصيلا

ثم تغلب عليهم المروانيون واخنوهم الى الاندلس ثم اجازوهم الى الاسكندرية . ثم بعثوا ابن كانون لطلب ملكهم بالمغرب فغلبه عليه المنصور بن ابي عامر وقتله فكان انقراض امرهم وانقراض سلطان اوربه من المغرب . وكان من اعقاب الادارسة اولئك الذين نزلوا غمارة فكانوا الدائلين من ملوك الاموية بالاندلس عندما جازوا مع البربر في مظاهرة المستعين ثم غلبوه بعد ذلك على الامر وصار لهم ملك الاندلس

اما سليمان اخو ادريس الاكبر فانه فر الى المغرب ايام العباسيين فلحق بجهات تاهرت بعد موت اخيه ادريس وطلب الولاية هناك فاستنكره البرابرة . ثم طلبه ولاتهم فكان في ذلك تحقيق نسبه وملك تلمسان وعرفته زناته وسائر القبائل هنالك ونزل الملك منه لولده محمد . ثم افترق

بنوه على ثغور المغرب الاوسط واقتسموا النواحي فوقعت تلمسان لمحمد المذكور ابن سليمان وارشكول لولده عيسى بن محمد وكان منقطعًا الى الشيعة وصارت جراوة لادريس بن محمد ثم لابنه عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان وكنيته ابو العيش ووليها بعدهُ ابنه ابرهيم ثم يحيى بن ابرهيم ثم اخوه ادريس بن ابرهيم . وكان ادريس المذكور منقطعًا الى عبد الرحمن الناصر وكذلك اخوه يحيي ولذلك ارتاب من ميلو ميسور صاحب الشيعة فقبض عليهِ (سنة ٣٢٣) ثم انحرف عنهم

فلما دعا ابن ابي العافية بدعوة العلوية المهدية نابذ اولياء الشيعة وحاصر صاحب جراوة الحسن بن ابي العيش وغلبهُ فلحق بابن عمهِ ادريس بن ابرهيم صاحب ارشكول . ثم حاصرهما البوري بن موسى وغلب عليها و بعث بهما الى الناصر فاحلهما قرطبة وكانت تنس لابراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنهِ محمد ثم لابنهِ يحيى بن محمد ثم لابنهِ علي بن يحيي الى ان تغلب عليهِ زيرى بن مناذ الصنهاجي (سنة ٣٤٢) وسنذكر عما صارت اليهِ هذه الدولة في فصل اخر

فصل

في انقراض الدولة الاغلبية واستيلاء العبيديين على افريقية مع بقية اخبار صقلية ودولة بني ابي الحسن الكلبيين من دعاتهم بها

وفي عهد ابرهيم بن احمد المقدم ذكرهُ من الاغالبة في افريقية وصقلية ظهر ابو عبد الله الشيعي بكتامة يدعو للرضا من آل محمد ويبطن الدعوة لعبيد الله المهدي من ابناء اسمعيل الامام وتبعهُ على ذلك كتامة وكان هذا من الاسباب التي حملت ابرهيم على الاقلاع من القيروان والذهاب الى صقلية بعد ان نهى عبد الله الشيعي عن ذلك وهدده ولم يقبل وكانت بعده حروب عبد الله المذكور مع كتامة حتى اتبعوه

ثم نهض ابو العباس عبد الله بن ابرهيم الاغلبي على سرير ابيهِ وقام بامر افريقية وكتب الى العمال (سنة ٢٨٩) كتابًا يقرأ على الناس بالوعد الجميل والعدل والرفق والجهاد واعتقل ابنهُ زيادة الله لما بلغهُ عنهُ من اعتكافه على اللهو والطرب واللذات واضمار الغدر لابيهِ وولى على صقلية مكانهُ محمد بن السرقوسي

وكان ابو العباس حسن السيرة عادلاً بصيرًا بالحروب وكانت مدتهُ صالحة حتى صانع ابنهُ زيادة الله المذكور بعض الخدم على قتل ابيهِ فقتلهُ نائمًا (سنة ٢٩٠) فاطلق زيادة الله من اعتقالهِ وبويع بالملك بعد ابيهِ

واول ما فعل زيادة الله كان قتل الخصيان الذين قتلوا اباهُ واقبل على اللذت واللهو

واهمل امور المملكة واستقل وكتب لاخيهِ ابي خول عن لسان ابيهِ يستقدمهُ فقدم وقتلهُ وقتل عمومتهُ واخوته

ثم قوي امر الشيعي ابو عبد الله وانتقل زيادة الله الى رقادة لئلا يخالفهُ الشيعي اليها ففتح الشيعي سطيف فسرح زيادة الله لحربهِ ابرهيم بن حبيش من صنائعه فخرج اليهِ في اربعين الفًا ونزل بقسطيله ستة اشهر الى ان بلغت عساكرهُ مئة الف فزحف الى كتامة فتلقوهُ باجانة وانهزمت عساكرهُ وانهزمت فتقهقر الى باغاية ثم الى القيروان . وفتح ابو عبد الله طبنة وقتل فتح بن يحيى المسالتي ثم فتح بلزمة وهدم سورها وتوجه عروبة بن يوسف من امراء كتامة واوقع بباغاية والعساكر التي كانت بها مجمرة لحربهم تحت هرون بن الطبني

وارسل عبد الله فحاصر تيجس وفتحها صلحًا وكثر الارجاف بالقيروان وفتح زيادة الله ديوان العطا واستلحق واستركب واجمع وخرج الى الاريس (سنة ٢٩٥) فلما وصل اليها رجف قلبهُ ورجع الى رقادة وقدم على العساكر ابرهيم بن ابي الاغلب من وجوه اهل بيتهِ . ثم فتح ابو عبد الله باغاية صلحًا وسرب الجيوش فبلغت مجانة واوقعوا بقبائل نفزة واخذوا تبغاش ثم زحف ابن ابي الاغلب الى تبغاش فمنعهُ اهلها وهزموا طلائعهُ ففتحها وقتل من كان بها . ثم خرج ابو عبدالله الى باغاية وسكاية وسبيبة وحمودة ففتح جميعها . ورحل ابن ابي الاغلب الى اريس . وقام ابو عبدالله الى قسطيلة وقفصة فدخلوا في رعونة ثم الى باغاية ثم الى انكجان . وزحف ابن ابي الاغلب الى باغاية وقاتلها فلم يقدر عليها ورجع الى اريس . ثم زحف ابو عبدالله الى اريس (سنة ٢٩٦) ومربشق بنارية الى قمورة . فبلغ الخبر زيادة الله فحمل امواله واثقاله ولحق بطرابلس معتزمًا على الشرق وحضر الشيعي وفي مقدمتهِ عروبة بن يوسف وحسن بن ابي حنتزير الى رقادة (سنة ٢٩٦) فتلقاه اهل القيروان وبايعوا لعبيدالله المهدي واقام زيادة الله بطرابلس ايامًا وانصرف ومعهُ ابراهيم ابن ابي الاغلب ثم نمي اليهِ عنهُ انهُ اراد الاستبداد لنفسهِ بالقيروان بعد خروج زيادة الله منها فنبذه . ولما بلغ مصر منعهُ عاملها عن الدخول الا باذن الخليفة وانزلهُ بظاهر البلد ثمانية ايام وكتب الى ابن الفرات وزير المقتدر يستاذن لهُ في الدخول فاتاه كتابهُ بالقيام في الرقة حتى ياتي امر الخليفة فاقام سنةً هناك ثم حضر الامر بالرجوع الى افريقية وامر النوشزي بان يمدهُ بالمال والعساكر لاسترداد الدعوة بافريقية فقام وبوصولهِ الى مصر اصابتهُ بها علة مزمنة وسقط شعره وقيل سمَّ فخرج الى بيت المقدس ومات في طريقهِ وتفرق الاغالبة وانقطعت دولتهم

ولما استولى عبيد الله المهدي على افريقية وفرق العمال في النواحي بعث الحسن بن محمد بن ابي حنتزير من رجالات كتامة على جزيرة صقلية فبلغ مازر (سنة ٢٩٧) وولى اخاه على جرجنت واسحق

بن المنهال على القضاء بصقلية وسار بالعساكر (سنة ٢٩٨) الى ومس فعاث في البلاد ورجع واساء السيرة فثاروا به وحبسوه وكاتبوا المهدي معتذرين فقبل عذرهم وارسل عليهم احمد بن موهب . فارسل سرية الى قلورية ورجعوا بالغنائم . وبعث (سنة ٣٠٠) ابنه عليًا الى قلعة طرمين المحدثة ليتخذها حصنًا له ولامواله حذرًا من ثورة ضده فحاصرها ستة اشهر ثم اختلف عليه العسكر فاحرقوا خيامه وارادوا قتله فمنعه العرب فدعا الناس الى دعوة العباسيين فاجابوه وقطع خطبة المهدي وبعث عمارته الى افريقية فحاربت اسطول المهدي وعليه الحسن بن ابي خنزير فقتل واحرقت عمارة المهدي ونهض اسطول ابن موهب الى صفاقس فخربها وانتهى الى طرابلس فبلغ الخبر القائم بن المهدي ثم وصلت الخلع والالوية من المقتدر العباسي الى ابن موهب

ثم بعث الاسطول والجيش الى قلوريه فعاثوا ورجعوا ثم ارسل الاسطول ثانيةً الى افريقية فغلبه اسطول المهدي . وانتقض الناس عليه وثاروا به اخر الثلثمائة وحبسوه وارسلوه الى المهديه فامر بقتله على قبر ابن خنزير في جماعة من خواصه وولى على صقلية ابا سعيد بن احمد وشيع معه العساكر من كتامة فركب البحر ونزل في طرابنة فعصي عليه اهلها واهل صقلية وتنازل مع اهل طرابنة وجرجنت وهزمهم ثم استامن اليه اهل طرابنة فامنهم وهدم ابوابها وعفاعن الاهلين بامر المهدي ثم ارسل المهدي واليًا على صقلية سالم بن راشد وامده (سنة ٣١٣) بالعساكر فعبر البحر الى ارض انكبرده فدوخها وفتح حصونًا وعاد . ثم عاد اليها ثانية وحاصر مدينة ادرنت ايامًا ورحل عنها . ولم يزل مسلمو صقلية يغيرون على ما بايدي الروم من صقلية وقلورية ويعيثون في نواحيها مدة قيامهم هناك

وبعث المهدي مع يعقوب بن اسحق (سنة ٣٢٢) جيشًا في البحر فعاث في نواحي جنوة ورجعوا ثم ارسل كذلك ففتح مدينة جنوة ومرت مراكبه بسردنيه فاحرقوا بها مراكب وانصرفوا

وانتقض (سنة ٣٢٥) اهل جرجنت على اميرهم سالم بن راشد وحاربهم سالم بنفسه فهزمهم وحاصرهم في البلد واستمد القائم فامده بالعساكر مع خليل بن اسحق فلما وصل الى صقلية شكا اليه اهلها ظلم سالم واسترحمته النساء والصبيان من اهل جرجنت وغيرهم فرق لشكواهم اما سالم فدس اليهم بان خليلاً انما جاء للانتقام منهم بمن قتلوا من العسكر فرجعوا للخلاف واختط خليل بلدة على مرسى المدينة وسماها الخالصة فمال اهل جرجنت لتصديق سالم بما قال لهم واستعدوا للحرب فزحف اليهم خليل منتصف (سنة ٣٢٦) وحصرهم ثمانية اشهر يغاديهم ويراوحهم القتال حتى اذا جاء الشتاء رجع الى الخالصة فاستمد اهل صقلية ملك القسطنطينية فامدهم بالمقاتلة والطعام واستمد ابن اسحق القائم فامده بالجيش ففتح قلعة ابي ثور وقلعة البلوط وحاصر قلعة بلاطنو حتى انهت

(سنة ٣٣٧) فارتحل عنها وحاصر جرجنت ثم ابقى عليها عسكرًا للحصار ورحل عنها وطال حصارها الى (سنة ٣٣٩) وهرب كثير من البلد الى بلاد الروم واستامن الباقون فامنهم ثم غدر بهم فارتاع لذلك سائر القلاع واطاعوا ورجع خليل الى افريقية (اخر سنة ٣٣٩) وحمل معهُ وجوه جرجنت في سفينة وامر باحراقها في لجة البحر

ثم ولى على صقلية عطافًا الازدي ثم كانت فتنة ابي يزيد واشتغل القائم والمنصور بامرهِ حتى اذا انتهت عقد المنصور على صقلية للحسن بن ابي الحسن الكلبي من صنائعهم ووجوه قواده وكنيته ابو الغنائم وكان ذا محل عظيم في دولة العبيديين واشتهر في حرب ابي يزيد وحصل غناه وافرًا وسبب توليتهِ كان لان اهل بليرم استضعفوا واليهم عطافًا واستضعفهم العدو لذلك فثاروا بهِ (سنة ٣٣٥) فنجا عطاف الى الحصن واستمد المنصور عليهم فارسل المنصور حسن المذكور

وركب الحسن بن علي المار ذكره الى مازر وارسى بها فلم يلقهُ احد منهم ثم اتاهُ جماعة ليلاً واعتذروا عن عدم مجيئهم خوفًا من بني الطبر الذين كانوا ثائرين ضد عطاف . وجعل بنو الطبر عيونهم عليهِ واستحقروه . وواعده الذين زاروهُ ليلاً بالرجوع فسبق ميعادهم ودخل المدينة فلقيهُ حاكمها واهل الدواوين واضطر بنو الطبر الى لقائهِ فخالفهم اسمعيل رئيسهم ومال اليهِ قوم من بني الطبر وكثار جمعهُ . ثم دس اسمعيل الى بعض غلمانهِ ان يستغيث بالحسن ضد بعض عبيده انهُ اكره زوجتهُ على الفاحشة باعتقاده ان الحسن لا يعاقب مملوكهُ فتخشن قلوب اهل البلد عليهِ ففطن الحسن لذلك ودعا بالرجل واستحلفهُ على دعواه وقتل مملوكهُ وسر الناس بذلك ومالوا عن اسمعيل اليهِ واستقام امرهُ وخشي الروم باسهُ ودفعوا اليهِ الجزية عن ثلث سنين

ثم بعث ملك الروم بطريقًا في عسكر كبير برًا فحضر الى صقلية واجتمع بالسردغوس واستمد الحسن من المنصور فامده بسبعة الاف فارس وثلثة الاف وخمساية راجل . وجمع الحسن من كان عنده وسار برًا وبحرًا وارسل سرايا الى ارض قلوريه فحاصر ابراجها وزحف اليهِ الروم ثم صالحوه على مال اخذه وزحف على غيرهم فانهزموا امامهُ من غير قتال . ونزل الحسن على قلعة فيشانه فحاصرها شهرًا وصالحهم على مال ورجع بالاسطول الى مسينه فشتى بها . ثم حضره امر المنصور بالرجوع الى قلوريه فعبر البحر ولقي السردغوس والروم وهزمهم واخذ منهم الغنائم الوافرة يوم عرفة (سنة ٣٤٠) ثم سار الى خراجة فحاصرها حتى هادنهُ قسطنطين ملك الروم فعاد الى ربو واقام بها مسجدًا وسط المدينة وشرط على الروم ان لا يتعرضوا لهُ وان من لجا اليهِ من الاسرى ودخلهُ امن

ثم توفي المنصور العبيدي وخلفهُ ابنهُ المعز فسار اليهِ الحسن واستخلف على صقلية ابنهُ احمد وامر المعز احمد بفتح القلاع الباقية للروم فغزاها وفتح طرمين وعجز عن رمطه فحاصرها فجاء اربعون الفًا

من القسطنطينية مددًا وارسل المعز لاحمد العساكر والاموال مع ابيه الحسن ووصل مدد الروم فحلوا في مرسى مسينة وزحفوا الى رومطه ومقدم الجيوش على حصارها الحسن بن عمار وابو الحسن بن علي فاحاط الروم بهم وصدمهم اهل البلد من داخل وعظم الامر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وقتلوا فرس قائدهم منوبل فسقط عن فرسه وقتل جماعة من البطارقة وانهزم الروم وتبعهم المسلمون وغنموا كثيرًا وفتحوا رومطه عنوةً وغنموا ما فيها . وركب فل الروم من صقلية وجزيرة رفق مراكبهم ونجوا بانفسهم فاتبعهم الامير احمد بالاسطول واحرق سفنهم ومات كثير منهم . وتعرف هذه الوقعة بوقعة المجاز وكانت (سنة ٣٥٤) واسر فيها مائة بطريق والف من عظمائهم . وقدمت الاسرى والغنائم الى مدينة بليرم حضرة صقلية وخرج الحسن للقائهم فحمّ من السرور ومات وحزنوا عليه

وقام احمد عوض ابيه باتفاق الاراء بعد ان كان قد ولى المعز على صقلية يعيش مولى الحسن فلم ينهض احمد بالامر ووقعت الفتنة بين كتامة والقبائل وعجز عن تمهيدها وبلغ الخبر معزًا فارسل عليها ابا القاسم علي بن الحسن نيابة عن اخيه احمد ثم توفي احمد بطرابلس (سنة ٣٥٩) واستبد علي بالامر

ثم سار ملك الفرنج (سنة ٣٧١) في جموع عظيمة وحصر قلعة رومطه وملكها واصاب سرايا المسلمين وزحف اليه ابو القاسم في الجيوش من بليرم ولكنه خام عن لقائه ورجع وكان الفرنج بالاسطول يراقبونه فبعثوا بذلك للملك بردويل (بالدوين) فتبعه وادركه واقتتلوا وقتل ابو القاسم وعظم الامر على المسلمين فاستماتوا وقاتلوا الفرنج وهزموهم ونجا بالدوين الى خيامه بنفسه وركب البحر الى رومة

واستولى على صقلية بعد ابي القاسم ابنه جابر فرحل بالمسلمين راجعًا ولم يلتفت الى الغنائم . وكانت ولاية ابيه اثنتي عشرة سنة ونصفًا . ثم ولى جعفر بن محمد بن علي بن ابي الحسن على صقلية وكان من وزراء العزيز وندمائه واستقامت اموره وكان عادلاً ويحب اهل العلم ويجزل لهم العطايا وموته كان (سنة ٣٧٥) ثم ولي اخوه عبد الله فسار سيرة اخيه وتوفي (سنة ٣٧٩) ثم ولى ابنه ثقة الدولة ابو الفتوح يوسف بن عبد الله المذكور فانسى بجلائله وفضائله من كان قبله ثم فلج وعطل نصفه الايسر (سنة ٣٨٨) وولى ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف فقام بالامور احسن قيام وزحف على اخيه علي (سنة ٤٠٥ــ ١٠١٣) لما تحالف عليه مع العبيد والبربر وظفر به وقتله ونفي اصحابه واستقام امرهُ . ثم اختلت احواله بيد كاتبه ووزيره حسن الباغاني فثار عليه الناس واحاطوا بقصره . ثم خرج اليهم ابو الفتوح في محفة وتلطف بهم وسلمهم الباغاني فقتلوهُ ومعه حافده ابو رافع ثم خلع لهم ابنه جعفر وولى عليهم ابنه احمد (سنة ٤١٠ ــ ١٠١٩) وارسل بجعفر المذكور الى مصر وتبعه هو ومعهما اموال جليلة فانه كان ليوسف من الدواب فقط اربعة عشر الف حجرة سوى البغال وغيرها

واخذ احمد لقب اسد الدولة ابن تاج الدولة ويعرف بالاكحل وسكن الاضطراب . ثم اساء التصرف ومال الى اهل افريقية واهمل الصقليين فضج الناس وتشاكوا الى المعز بن باديس بافريقية واظهروا دعوته فارسل اسطولاً من ثلاثماية مركب مع ابنيه عبد الله وايوب واجتمع اهل صقلية وحصروا اميرهم فقتل وحمل راسه الى المعز (سنة ٤٢٧ ـ ١٠٣٥) وقيل (سنة ٤١٧ـ١٠٢٩) ثم ندموا وكرهوا الافريقيين ووثبوا بهم وذبحوا منهم نحو ثلاثماية واخرجوهم وولوا عليهم الصمصام اخا الاكحل فاضطربت الامور وذل اهل الشرف وعلا السفلة . ثم ثار عليه اهل بليرم وطردوه وقدموا عليهم ابن الثمنة من روساء الجند ولقبوه القادر بالله فانفرد بمدينة سرقوسة وقطانية . وانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازر وطرانبش وغيرها واستقل القائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواش بقصريانه وجرجنت . ثم تزوج ابن الثمنة بميمونة بنت الحواش ثم وقعت بينهما فتنة لان ابن الثمنة اراد ان يقتل زوجته بالسم فسارت الى اخيها فقبلها وحلف ان لا يردها عليه وتحاربا فانهزم ابن الثمنة فارسل الى الفرنج يستنصرهم وكانوا من حكام مالطه ووعدهم بملك صقلية وهون عليهم امر المسلمين فامدوه وقرت اقدامهم في البلاد وتملكوها كلها الا جرجنت وقصريانه فحاصروهما وطال الحصار حتى اكل اهلها الميتة . ثم سلمت جرجنت وبقيت قصريانه بعدها ثلاث سنوات وخرج ابن الحواش بماله واهله صلحًا (سنة ٤٦٤) وتملكها رجار امير مالطه كلها وانقطعت كلمة الاسلام منها (سنة ٤٨٤) وانقرضت دولة الكلبيين وهم عشرة ومدتهم ٩٤ سنة . ثم توفي رجار في قلعة مليطو من ارض فلوريه (سنة ٤٩٤ ـ ١١٠٠) وخلفه ابنه رجار الثاني وصار طريقة ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والجاندارية وغير ذلك واسكن المسلمين مع الفرنج في الجزيرة واكرمهم ومنع عنهم التعدي وطالت ايامه . وله الف الشريف الادريسي ابو عبد الله كتاب نزهة المشارق في اخبار الآفاق وسماه قصار رجار وهو من التآليف الجليلة . وكذلك صنع بامره كرة اطلسية على صفيحة من فضة وزن ستماية قية والحال ان في ذلك الوقت لم يكن يوجد لا في اليونان ولا في الطليان من يحسن عمل ذلك على الورق والقماش فصلاً عن المطرقات وقد افتخر المعلم فومص بحصوله على كتاب واوراق جغرافية من عمل الادريسي المذكور

فصل

في دولة العبيديين من العلوية

قد سبق تأصيل هذه الدولة الى عبيد الله المهدي وذكرنا بعض الاختلافات في نسبه وابن خلدون يذهب الى الصحة قال « اولهم عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد

المكتوم بن جعفر الصادق ولا عبرة بمن انكر هذا النسب من القيروان وغيرهم وبالمحضر الذي ثبت ببغداد ايام القادر بالطعن في نسبهم وشهد فيهِ اعلام الائمة»

وكانت شيعة العبيديين بالمشرق واليمن وافريقية ٠ وكان اصل ظهورهم بافريقية دخول الحلواني وابي سفيان من شيعتهم اليها بامر جعفر الصادق قائلاً لهما « اذهبا واحرثاها فان ارض المغرب بور حتى يجي صاحب البذر » فذهبا ونزل احدهما في مرغة والاخر في سوق جمار وهما من ارض كتامة ففشت تلك الدعوة في تلك الاطراف ٠ وقد سبق كيفية اتصال ابي عبد الله الشيعي بهم بواسطة ابن حوشب باليمن وكان يعرف بالمعلم لانهُ كان يعلم مذهب الامامية ٠ ثم قصد الحج وتعرف بالمغاربة وسار في رحالهم لبث الدعوة وكان منهم موسى بن حريث كبير بني سكتان من شعوبهم وابو القاسم الورنجومي من احلاف بني سكتان ومسعود بن ملال المساكني وموسى بن بكار فجلسوا اليهِ وسمعوا منهُ واحبوهُ لكثرة عبادته وزهده وكان طاويًا وجه مذهبهِ عنهم وتعرف منهم امور قومهم وعصابتهم وبلادهم ومملكة السلطان منهم فايقن ببلوغ اربه ٠ وساروا طريق الصحراء عادلين عن القيروان الى ان بلغوا بلد سوماية وبها محمد بن حمدون بن سماك الاندلسي من بجاية الاندلس نزيلاً عندهم فنزل عليهِ ابو عبد الله ونال منهُ الاكرام وفاوضهُ وظهر لابن حمدون من تفرسهِ فيهِ انهُ صاحب طالع عالٍ ٠ ثم ارتحلوا جميعًا ومعهم ابن حمدون ودخلوا كتامة (سنة ٢٨٨) فنزل على موسى بن حريث في انكجان في بلد بني سكتان من جبيلة وعين لهُ فج الاخيار منزلاً واجتمع اليهِ كثير من علمائهم واخيرًا اعلن بامامة اهل البيت ودعا للرضا من آل محمد ٠ وبلغ خبره ابن الاغلب فارسل يتوعده وينهاه عن ذلك فاساء الرد عليهِ وخاف روساء كتامة العاقبة واغراهم العمال بابي عبد الله مثل عياش صاحب مسيلة وعلي بن حفص صاحب سريف ٠ وحضر بن تميم صاحب بلزمة ويحيى المساكني الامير ومهدي بن ابي كمارة رئيس لهيعة وفرج بن حيران رئيس اجانة وغيرهم وراسلوا ابن صقلان رئيس بني سكتان في ان يسلمهُ اليهم او يخرجه من انكجان بلدهم وحذروه عائدة امره فاستشاروا اهل العلم وهموا باغتيالهِ فلم يتم لهم ذلك وقامت جميلة على مظاهرتهِ فهزموا اعداءه ثم لاطفوا صقلان ثانية فصفا اليهم وعلم ابو عبد الله واصحابهُ فاستقدموا الحسن بن هرون الغساني فاجابهم ولحق ببلدة نازروت ومعهُ بنو غسان مع بطون كتامة الذين بايعوهُ قبلاً لنصرته فامتنع وعزَّ امره ٠ ثم انتقض على الحسن بن هرون اخوهُ محمد منافسةً على الرياسة وكان يميل الى مهدي بن ابي كمارة المذكور فداخلهُ في التحزيب ضد ابي عبد الله وكانت فتنة عظيمة بين لهيعة وغسان ٠ وقام الحسن بن هرون على حروب الشيعي وقتل مهدي بن ابي كمارة اخوهُ ابو مديني لانهُ كان من اصحاب عبد الله الشيعي وقام شيخًا على لهيعة عوض اخيهِ

ثم تجمعت كتامة لحرب الشيعي ونازلوه بنازروت . وقدم على الشيعي فحل بن نوح رئيس لطانة ضهره وانتصر ابو عبد الله على كتامة واجتمعت الى الشيعي كل غسان وبلزمة ولهيعة وعامة الجابة ورئيسهم يومئذٍ ماكنون بن ضبارة وابو زاكي تمام بن معارك . ولحق بجميلة من الجابة فرج بن خيران ويوسف بن محمد من لطانة واستقام امر الشيعي

ثم جمع فتح بن يحيى من قدر من قومه مسالة لحرب ابي عبد الله فذهب اليهم الشيعي واوقع بهم ولحق فلهم بسطيف ثم استامنوا ودخلوا في امره وقلد هرون بن يوسف منهم على حرب فتح فلحق فتح بعجيسة وجمع لحربه ثانية وكان النصر للشيعي . واجتمعت اليه عجيسة وزواوة وجميع كتامة وعاد الى نازروت وارسل دعاته في كل ناحية ودخل الناس في طاعته ثم لحق فتح بن يحيى بالامير محمد بن احمد بتونس واستنجده لحربه

ثم فتح الشيعي مساكنة وقتل حاجبها موسى بن عباس وولى ماكنون بن ضبارة عليها ولحق ابرهيم بن موسى بن عياش بابرهيم بن الاغلب بتونس بعد خروج ابيه الى صقلية . فعقد ابرهيم لابنه ابي خول وارسله مظاهرًا للشيعي فدوخ كتامة ثم صعد الى نازروت ولقيه ابو عبد الله ببلد ملوسة فهزمه ابو خول وفر الشيعي الى انكجان فهدم ابو خول قصر نازروت واتبعه وتوغل في بلاد كتامة واخيرًا ظهر الشيعي عليه واضطرب ابو خول وترك كتامة . واستوطن الشيعي انكجان وبني هناك بلدًا دعاه دار الهجرة ثم تقاتل مع عساكر ابرهيم ثانية وهزمهم ثم هلك ابرهيم بن الاغلب وقام بالامر ابنه زيادة الله فاستدعا اخاه ابا خول وقتله ونقل الى رقادة وانتشرت جيوش الشيعي في البلاد وعلا امره وبشرهم بظهور المهدي قريبًا وكان كما قال

قال ابن خلدون « ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر عهد الى ابنه عبيد الله وقال له انت المهدي وبهاجر بعدي هجرة بعيدة وتلقى محنًا شديدة . واتصل خبره بسائر دعاته بافريقية واليمن وبعث اليه ابو عبد الله رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم وانهم في انتظاره وشاع خبره واتصل بالعباسيين فطلبه المكتفي ففر من ارض الشام الى العراق ثم لحق بمصر ومعه ابنه ابو القاسم غلامًا حدثًا وخاصته ومواليه »

ثم ترك الى الاسكندرية وتزيا بزي التجار وخفي عن ترصد عيسى النوشري عامل مصر ومضى الى طرابلس ومنها الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار فاكرمه اولاً ثم حبسه بكتاب من زيادة الله او المكتفي العباسي . ثم ان الشيعي بعد مقتل ابي خول اجتمعت اليه سائر كتامة واخذ سطيفًا وهدمها . ولقي عساكر زيادة الله ببلزمة وهزمهم الى باغاية وكتب بالفتح الى المهدي سرًّا . ثم زحف واخذ طبنة وقتل فتح بن يحيي المساكني ثم اخذ بلزمة . وقد تقدم كيفية حروبه مع زيادة الله فلا حاجة لذكرها ايضًا

و بعد ان قام زيادة الله الى المشرق جمع الشيعي امواله وسلاحه فامر بحفظها وحفظ جواريه . فسالة الخطباء لمن يخطبون فلم يعين احدًا . وضرب النقود فكتب على الوجه الواحد « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الاخر « تفرق اعداء الله » وعلى السلاح « عدة في سبيل الله » وفي وسم الخيل « الملك لله » وقام الى سجلماسة في طلب سيده عبيد الله وحارب اليسع بن مدرار وهزمه وخرج اهل البلد من الغد وجاءوا به الى حبس المهدي وابنه . ثم ادرك اليسع فقتله واقام في سجلماسة اربعين يومًا . وقاموا الى افريقية ومروا بانكجان وسلم ابو عبدالله ما كان بها للمهدي واخضع له ما كان تبقى مثل القيروان ونحوها وبويع للمهدي (سنة ٢٩٧) واستقام امرهُ وبث دعاته في الناس فاجابوهُ وقسم الاموال واقطع الاعمال ودون الدواوين وجبى وبعث العمال على البلاد واستقرت دولته

وبعد ان قر قدم المهدي عبيد الله في الملك كفَّ ابا عبدالله الشيعي واخاه العباسي عن الاستبداد عليه . فاستعظما ذلك منه وادى الامر اخيرًا الى التباغض والتنافر وفسدت النية بينهما واخذ ابو ابو عبد الله واخوهُ باستفساد كتامة عليه والقيا اليهم ان هذا ليس هو الامام المعصوم الذي دعوناكم اليه . وارسل الى المهدي رجل يدعى شيخ المشايخ من كتامة يقول له جئنا بآية على امرك فانا شككنا فيك فقتله المهدي وعظمت الاسترابة فيه واتفقوا على قتله . فاحتال على تشتيت كلمتهم وقسمهم على بعضهم وقتل مصاديه واستدعى عروبة بن يوسف واخاه حباسة . وامرهما بقتل الشيعي واخيه ابي العباس فوقفا لهما عند القصر وحمل عروبة على ابي عبدالله فقال له لا تفعل فقال عروبة ان الذي امرتنا بطاعته امرنا بقتالك . وثارت فتنة بسبب قتلهما اولاً وثانيًا فركب المهدي بنفسه مرتين وسكنها وقتل جماعة من بني الاغلب برقادة لما رجعوا اليها بعد موت زيادة الله

وجعل المهدي ولاية عهده لابنه ابي القاسم محمد وولى حباسة بن يوسف على برقة وما اليها وعروبة على المغرب وانزله باغاية فسار الى تاهرت وافتتحها وولى عليها دواس بن صولات اللهيص ثم انتقض على المهدي كتامة ونصبوا عليهم طفلاً لقبوه بالمهدي وقالوا بنبوته و بعدم موت الشيعي حقيقةً فقاتلهم ابو القاسم وقتل الطفل وهزمهم . ثم انتقض اهل طرابلس (سنة ٣٠٠) واخرجوا عاملهم ما كنون فحاربهم ابو القاسم وحاصرهم مدة ثم فتح المدينة واغرمهم ثلاث مئة الف دينار ثم اغزا ابنه ابا القاسم مصرًا وبعث اسطولاً من مائتي مركب الى الاسكندرية وعقد لحباسة بن يوسف عليه فملكوا برقة ثم الاسكندرية والفيوم الى ان بعث المقتدر العباسي سبكتكين ومونسًا الخادم على العساكر فاجلوهم عن مصر . ثم رجع حباسة (سنة ٣٠٢) واخذ الاسكندرية وسار طالبًا مصر فجاءه مونس من بغداد وتواقعا فكان الظهور للعباسيين . ايضًا ورجع حباسة الى المغرب فقتله المهدي فشق الامر على اخيه عروبة وانتقض وتبعه جموع كثيرة من كتامة والبربر فارسل عليهم المهدي مولاهُ غالبًا فهزمهم

وقتل عروبة وبني عمه وكثيرًا من اشياعهم

ثم انتقضت عليه صقلية وقبضوا على عاملهم علي بن عمرو وولوا عليهم احمد بن قهرب (او موهب) فدعا ابن موهب للعباسيين (سنة ٣٠٤) كما تقدم وكان له ما كان مع اسطول المهدي وقتل ابن خنزير (او ابن خنزبر) ثم رجع اهل صقلية الى طاعة المهدي فقبضوا على ابن موهب فقتله المهدي على قبر المذكور

وقد تقدم بناءه المهدية وجعلها دار ملكه (سنة ٣٠٣) قالوا ولما ارتفع السور رمى من فوقه بسهم الى ناحية المغرب ونظر الى منتهاه وقال الى هذا الموضع يصل صاحب الحمار يعني يزيد الخارجي ثم امر ان ينحت في الجبل دار لانشاء السفن تسع مائة سفين ونحت اهراء ومصانع وبنى القصور والدور فكملت (سنة ٣٠٦) ولما اكمل قال اليوم امنت على الفواطم

وجهز المهدي ابنه ابا القاسم (سنة ٣٠٧) على مصر ثالثة فملك الاسكندرية ثم الجيزة والاشمونين وكاتب اهل مكة بالطاعة فابوا فارسل المقتدر كالسابق موسى و بعد مواقع عديدة وقد اجهد ابا قاسم الغلا والوبا فرجع الى افريقية وانتصرت مراكب الخليفة العباسي الاتية من طرسوس مع قلتها لانها كانت خمسًا وعشرين على الثمانين اسطولاً التي وردت من المدينة مددًا لابي القاسم واسر رئيساها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ومات سليمان في حبس مصر وهرب يعقوب من حبس بغداد الى افريقية

واغزا المهدي فضالة بن جبوس في جموع مكناسة الى بلاد المغرب فاوقع بملك فاس يحيى بن ادريس بن ادريس بن عمر واستنزله عن سلطانه كما تقدم . وعقد فضالة لموسى بن ابي العافية المكناسي من رجالات قومه على اعمال المغرب (سنة ٣٠٧) ورجع . ثم عاد وغزا المغرب (سنة ٣٠٩) ومهد اطرافها وقبض على يحيي بن ادريس باغراء قريبه عامل المغرب موسى وضم فاس الى اعمال موسى ومحا دعوة الادارسة واجهضهم الى بلاد الريف وغماره فاستجدوا بها ولاية ومنهم بنو حمود العلويون المستولون على قرطبة عند ذهاب ملك الامويين (سنة ٤٠٣) ثم صمد فضالة الى سجلماسة وقتل بن مدرار المكناسي وعقد لابن عمه وقام بينه وبين زناتة حروب هلك فضالة فيها على يد محمد بن خزر وهاج المغرب

ثم بعث المهدي ابنه ابا القاسم في عساكر كتامة (سنة ٣١٥) ففر من وجهه ابن خزر واصحابه الى الرمال وفتح ابو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة وسائر الاباضية والصفرية ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الاوسط ونازل صاحب جراوة من آل ادريس وهو الحسن بن ابي العيش وضايقه ودوخ اقطار المغرب ورجع ظافرًا ومر ببلد المسيلة ونقل اهلها بني كملان من هوارة الى فج القيروان لشبهة في فتنتهم فكانوا فتنة واولياء لصاحب الحمار الخارجي . وامر ببناء المسيلة بلدهم ودعاها المحمدية

وعقد لعلي بن هرون الاندلسي من صنائع دولتهم عليها وعلى الزاب لتكون كما اراد الله مددًا للمنصور في حصار صاحب الحمار المذكور فيما ياتي

ثم انتقض ابن ابي العافية على المهدي ومال للامويين في الاندلس وبث دعوتهم في اقطار المغرب فقاومهُ بن بصلين المكناسي قائد المهدي فلقي ابن بصلين ميسور فهزمهُ واوقع بهِ و بقومهِ بمكناسة واخرجهُ عن المغرب الى الصحراء واطراف البلاد ودوخ المغرب ورجع ظافرًا

ومات عبد الله المهدي (سنة ٣٢٢) وكان المهدي كما نقلوا منسلخًا عن العرب انسلاخًا كاملاً حتى في المذهب فكان يقول ان العالم موجودٌ من الازل وقد تقلب في صور مختلفة عديدة وان لا شيئًا ثابت فيهِ بل ان الكائنات تتغير دائمًا من حال الى حال ومن صورة الى اخرى وكان يقول خير الحيوة ما صرفت بالتمتعات والنعيم وان لا شيئًا يجب ان يوقف الانسان عن اللذات الا عدم القدرة عليها والى هذا المذهب قد مال كثير من شيع المسلمين قبلهُ وبعدهُ وكانت خلافتهُ ٢٤ سنة

وبعد موت المهدي قام ولدهُ ابو القاسم محمد ويقال نزار تحت لقب القائم بامر الله وكثرت عليهم الثوار فخرج ابن طالوت القرشي في طرابلس وزعم انهُ ابن المهدي وحاصر طرابلس ثم قتلهُ البربر لعدم ثبوت دعواهُ

واغزا القاسم المغرب وملكهُ واقام على فاس احمد بن بكر بن ابي سهل الجذابي وحاصر الادارسة ملوك الريف وغمارة فانتصر لهم ميسور الخصي من القيروان ودخل المغرب واخذ فاس واستنزل احمد بن بكر. ثم سار في طلب موسى وكانت بينهما مواقع اخذ في احداها الثوري بن موسى اسيرًا فاجلاهُ ميسور عن المغرب وساعدهُ عليهِ ادارسة الريف وعقد للقاسم بن محمد من كبرائهم على اعمال ابن ابي العافية وما يفتح من البلاد فملك المغرب كلهُ ما عدا فاس واقام دعوة الشيعة بسائر اعمالهِ

ثم جهز القاسم اسطولاً ضخمًا لغزو ساحل الافرنجة وعقد عليهِ ليعقوب بن اسحق فافتتح جنوة كما سبق واثخن بسردنية ثم مروا بقرقسيا من سواحل الشام فاحرقوا مراكبها واركب خادمهُ زيدان على مصر فملك الاسكندرية حتى اخرجهم منها عسكر الاخشيد

وفي عهد القائم بامر الله ظهر خارجي شهير الى ساحة الوجود اشبه بالمفرطين من الكمونية في هذا العصر وهو ابو زيد مخلد بن كيراد وابوهُ كيراد كان من قسطيلة من مدائن توزر وكان يختلف الى السودان بالتجارة حيث ولد ابو يزيد فنشأ بتوزر وتعلم القرآن وتبع النكارية من الخوارج وهم الصفرية. ثم سكن تاهرت يعلم الصبيان وعند ما صار الشيعي الى سجلماسة في طلب عبيد الله

المهدي قام الى نقيوس وكان يذهب الى استباحة الاموال والنساء والخروج على السلطان ثم اخذ (سنة ٣١٦) نفسهُ بالحسبة على الناس وتغيير المنكر وتبعهُ كثيرون فلما مات المهدي خرج نواحي جبل اوراس وركب حمارًا وتلقب بشيخ المومنين ودعا للناصر صاحب الاندلس من بني امية فزحف اليهِ عامل باغاية فلقيهُ بمن معه من جموع البربر وهزمهُ وزحف الى باغاية فحاصرها ثم ترك عجزًا وكتب الى بني واسى من زناتة بضواحي قسنطينة يامرهم بحصارها فحاصروها (سنة ٣٣٢) وفتح تبسة وماجنة صلحًا واهدى لهُ رجل من ماجنة حمارًا اشهب فكان يركبهُ ودعي صاحب الحمار قالوا وكان يلبس جبة صوف ضيقة الكمين قصيرة . وملك ابو يزيد الاربس واحرقها ونهبها وقتل في الجامع من لجا اليهِ وبعث ففتح سبيبة وقتل عاملها وبلغ الخبر القائم فقال لا بد ان يبلغ المصلى من المهدية ثم جهز وارسل العساكر الى رقادة والقيروان وارسل ميسورًا الخصي خادمهُ لحربهِ وبعث عسكرًا مع خادمهِ بشرى الى باجة فلقيهُ ابو يزيد وطردهُ الى تونس ودخل باجة ونهبها واحرقها وقتل الاطفال وسبي واجتمع اليهِ قبائل البربر واتخذ الابنية والبيوت والات الحرب ثم تنازلت عساكره مع عساكر بشرى المرسلة من تونس فانهزم اصحاب ابي يزيد ثم ثار اهل تونس ببشرى ففر واستدعوا ابا يزيد فاجابهم وولى عليهم وسار الى القيروان فارسل القائم بشرى للقائهِ والتقت جواسيسها ثم اقتتلوا وانهزم اصحاب ابي يزيد وقتل منهم نحو اربعة الاف وجيء باسراهم الى المهدية وامر بقتلهم . وسار ابو يزيد الى قتال الكتاميين فهزم طلائعهم الى القيروان ونزل على رقادة في مائتي الف مقاتل وعاملها وقتئذٍ خليل بن اسحق وكان خليل بانتظار وصول ميسور بالعسكر فضايقهُ ابو يزيد الى ان خرج ولقيهُ فانهزم الى القيروان ودخل صاحب الحمار رقادة فافسد فيها . وارسل ايوب الزويلي الى القيروان فاخذها في صفر (سنة ٣٣٣) ونهبها وقتل خليلاً بعد ان امنهُ . ثم زحف اليهِ ميسور ومعهُ بنو كملان فكاتبوا ابا يزيد يعدونهُ الغدر بميسور فعلم ميسور ذلك فطردهم فلحقوا بابي يزيد وساروا معهُ على ميسور وقتلوهُ واتوا براسهِ الى ابي يزيد فاطافهُ بالقيروان وبلغت هزيمة ميسور الى القائم بالمهدية فاستعد للحصار وامر بحفر الخنادق

واقام ابو يزيد سبعين يومًا في مضارب ميسور وبث السرايا في النواحي ففتحت احداها سوسة عنوة واستباحوها وكان يخرب العمران كيفما ذهب ويلحق الفل بالقيروان فيموتون جوعًا وعطشًا

ثم ارسل القائم الى روساء كتامة والقبائل والي زيري بن مناد ملك صنهاجة فتاهبوا للمسير الى المهدية وبلغ ذلك ابا يزيد فنزل على خمسة فراسخ من المهدية وفرت السرايا من جهاتها . ولما سمع الكتاميون بافتراق عساكره خرجوا لبياتهِ وكان ابنهُ الفضل قد جاء بالمدد من القيروان فارسلهُ اليهِ فلقي اصحابهُ منهزمين ولما رآه الكتاميون رجعوا دون حرب وتبعهم ابو يزيد الى باب المهدية ورجع

ثم رجع للقتال فوقف على الخندق المحدث وعليهِ جماعة من العبيد فقاتلهم وهزمهم واجتاز السور الى البحر وبلغ المصلى على رمية سهم من البلد وكان البربر يقاتلون من الجانب الاخر ثم حمل اهل كتامة عليهم فهزموهم وبلغ ذلك ابا يزيد مع وصول زيري فاعتزم ان يمر بباب المهدية ويجيئهم من وراء فقاتلهُ اهل الارباض وكادوا يقتلونهُ فتخلص بالجهد ورجع الى منزلهِ فوجد اصحابهُ في قتال العبيد ولما رآهُ العبيد انهزموا ثم تاخر قليلاً وحفر لمعسكره خندقًا وجاءهُ قوم كثيرون من البربر ونفوسة والزاب واقاصي المغرب وضيق على اهل المرية ثم ذهب اليها وقاتلها طول اليوم فلم يقدر عليها فكتب الى عاملهِ بالقيروان بان يرسل اليهِ المقاتلة هناك فحضروا وزحف بهم فانهزم وقتل كثير ثم زحف رابعةً وتنهقر واشتد الحصار على اهل المهدية حتى اكلوا الميتة والدواب وتفرق اهلها الا الجند وفتح القائم اهراء الزرع التي كان المهدي قد اعدها وفرقها فيهم

ثم اجتمعت كتامة وعسكروا بقسنطينة فبعث اليهم ابو يزيد قومًا من ورجومة وغيرهم فهزموا كتامة ثم احتشد الى ابي يزيد البربر من كل ناد واحاط بسوسة ثم انتقض البربر عليهِ لما كان يجاهر بالمحرمات ومنافسةً بينهم فانفضوا عنهُ فرجع الى القيروان (سنة ٣٣٤) وغنم اهل المهدية عسكرهُ

وكثر فساد البربر في افريقية وثار اهل القيروان بهم ورجعوا الى طاعة القائم . وقدم علي بن حمدون من المسيلة بالعساكر فهزمهُ ايوب بن ابي يزيد الى تونس ثم جاءت عساكر القائم وواقعوهُ مرات فانهزم الى القيروان (سنة ٣٣٤)

ثم ارسل ايوب ايضًا لقتال ابن حمدون ببلطة وكانت حروبهما سجالاً الى ان اقتحم ايوب البلد بمداخلة بعض اهلها فلحق ابن حمدون بكتامة واجتمعت قبائل كتامة ونفزة ومزاتة وعسكروا بقسنطينة . وبعث ابن حمدون فاوقع بهوارة ولم يغنِ عنهم مدد ابي يزيد وملك ابن حمدون تيجست وباغاية

ثم زحف ابو يزيد الى سوسة وبها معسكر القائم فمات القائم وابو يزيد بمكانهِ من حصارها وكان قد عهد الى ولدهِ اسمعيل ولقب بالمنصور فقام اسمعيل بعهدهِ ولكنهُ كتم موت ابيهِ نحو سنة حذرًا من ان يطلع عليهِ ابو يزيد فيطمع وتجفل العساكر فلم يسمَّ بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود الى ان فرغ من امر خصمهِ

وكان قد اجهد الحصار الاهلين فجهز المنصور الاساطيل مشحونة بالمدد من المقاتلة والامتعة والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق الى سوسة وبوصولها تشجعت اهل سوسة وخرجوا لقتال صاحب الحمار فانهزم واستبيح معسكره نهبًا واحراقًا وفر الى القيروان (سنة ٣٣٤) فمنعهُ اهلها من

الدخول وثاروا بعاملهم فخرج اليهِ ورحل الى سبيبة فقدم منصور القيروان وامن اهلها وابقى على حرم ابي يزيد واولاده وخرجت سرية من عسكر المنصور لاستكشاف خبر ابي يزيد فالتقت مع مثلها من طرف ابي يزيد فانهزمت المنصورية فتشدد ابو يزيد بذلك وتزايد جمعهُ فعاد وقاتل القيروان وخندق المنصور على عسكرهِ وبارزهم ابو يزيد فكان الظهور اول يوم للمنصور ثم ناوشهم ثانيًا فثبت المنصور . ثم رحل ابو يزيد عنهم ورجع للقتال وكانت الحرب سجالاً بينهما . ثم ارسل الى المنصور في طلب حرمهِ واولادهِ على ان يرحل فارسلهم لهُ بعد الصلات فنكث عهدهُ ولم يرحل وحاربهم (سنة ٣٣٥) فهزمهم . ثم عبى المنصور عساكرهُ والبرابرة على الميمنة والكتاميون على الميسرة وهو في القلب فحمل ابو يزيد على اليمين فهزمها ثم على القلب فصدمهُ المنصور واشتد القتال ثم حمل عليهِ العسكر حملة واحدة فهزموهُ واسلم عسكرهُ وقتل خلق كثير قالوا بلغت روس القتلى في ايدي صبيان القيروان عشرة الاف اما ابو يزيد فذهب ناجيًا بباغاية فلم يتركوهُ يدخل فحاصرها . ثم نهض المنصور في اثرهِ وادركهُ على باغاية فانهزم فاجفل المنصور في اتباعهِ كلما قصد حصنًا سبقهُ الى ان نزل اخيرًا في طبنة فاتتهُ سفرا محمد بن خزر امير مغراوة من مواطئي ابي يزيد بالمغرب الاوسط مستامنين فامنهم المنصور وامرهم بادراك ابي يزيد . ثم جاء ابو يزيد الى بني برزال من النكارية فعلم ان المنصور في طلبهِ فسار قاطعًا الرملة وعاد الى نواحي غمرة فالتقى بالمنصور وتقاتلا وانهزم ابو يزيد الى جبل سالات فتبعهُ المنصور في الاوعار والجبال والمضايق ولما اجهد عسكره وقد راى ان ليس بعد ذلك الا المفازة الى بلاد السودان رجع الى غمرة من بلاد صنهاجة وجاء اليهِ زيري بن مناذ اميرها فاكرمهُ ووصلهُ . وجاء العلم من محمد بن خزر عن مكان ابي يزيد من المفازة ثم مرض المنصور فرجع ابو يزيد وحاصر مسيلة فعوفي المنصور وذهب اليهِ فافرج عنها واراد قطع المفازة الى السودان فابى عليهِ بنو كملان اصحابه فرجع الى جبال كتامة وعجيسة وقدم المنصور فنزل قبالتهم وخرجوا اليهِ وقاتلوهُ وكان يومًا عظيمًا فيهِ قتل خلق كثير واسلم عسكر ابى يزيد واولادهُ وخلص ابو يزيد في اشر حال وقتل في الحومة نحو عشرة الاف ثم تبعهُ المنصور وكان ضيق المجال يمنع كلا الفريقين من الهزيمة . واخيرًا ترك ابو يزيد اثقالهُ وقصد الجبال وكان المنصور في اثرهِ فاخذ رجال ابى يزيد يرشقونهم ويرمونهم بالصخور وتزاحفوا حتى تماسكوا بالايدي . ثم تحاجزوا وتحصن ابو يزيد بقلعة كتامة واستامن الهواريون الذين معهُ الى المنصور فامنهم وحوصر ابو يزيد في القلعة . ثم اقتحمها المنصور عنوةً وامر باحراقها فجمع ابو يزيد اهلهُ واولادهُ الى القصر واظلم الليل فامر المنصور باشعال النار في الشعراء المحيطة بالقصر حتى تكون احوالهُ بمرأى منهم حذرًا من فرارهِ فلما كان النهار حمل ابو يزيد على

رجال المنصور حملة مستميت فشق لفيفهم فامر المنصور بطلبهِ فاخذوهُ وقد حملهُ ثلثة من اصحابهِ جريحًا وذهبوا بهِ الى المنصور فسجد وشكر وتوفي ابو يزيد من جراحهِ (سنة ٣٣٦) سلخ المحرم فامر بسلخ جلده وحشوهُ تبنًا وجعلوهُ في قفص وادخلوا فيهِ قردين يلاعبانهِ

ثم قام المنصور الى القيروان والمهدية ولحق ابن ابي يزيد فضل بمعبد بن خزر وزحف بهِ الى طبنة وبسكرة وقصدا المنصور فهزمها المنصور فصعد معبد الى كتامة فارسل المنصور العسكر مع موليهِ شفيع وقيصر ومعهما زيري بن مناذ فانهزم فضل ومعبد وافترق جمعهم ورجع المنصور الى القيروان وانتهى امر صاحب الحمار

تتمة هذا الفصل

ثم انتقض حميد عامل المغرب ودعا للاموية وراء البحر ونهض على تاهرت وحصرها فزحف اليهِ المنصور وجاء الى سوق حمزة وحشد زيري بن مناد جموع صنهاجة وذهب مع المنصور وافرج عن تاهرت فتركها حميد وعقد المنصور عليها ليعلى بن محمد اليفرني . وعقد لزيري على كل قومهِ وقام لقتال لواتة فهربوا الى الرمال ونزل المنصور على وادي ميناس وكان هناك ثلثة جبال على كل منها قصر مبني بالحجر المنحوت وكان على واجهة الواحد كتابة على حجر فسيح فامر المنصور التراجمة بقراءتهِ واذا فيهِ « انا سليمان السردغوس . خالف اهل هذا البلد على الملك فبعثني اليهم ففتح الله عليهم وبنيت هذا البنا لاذكر بهِ » ذكر هذه الغريبة ابن الرقيق في تاريخهِ

وبعد ان خلع المنصور على زيري نهض ودخل المنصورية المقدم ذكرها في جمادي (سنة ٣٣٦) وسمع هناك ان الفضل بن ابي يزيد حضر الى جبل اوراس وداخل البربر في الثورة فزحف اليهِ المنصور فدخل الرمال وقصد المنصور القيروان والمهدية . فرجع الفضل وحاصر باغاية فغدر بهِ احد اصحابهِ واسمهُ باطيط وارسل راسهُ الى المنصور

ثم عقد المنصور للحسين بن علي بن ابي الحسين الكلبي على صقليه واعمالها نازعًا لها من يد خليل بن اسحق فكان لهُ ولبنيهِ فيها ملك كما تقدم . وكان المنصور قد سمع بان ملك الفرنجة مراده غزو المسلمين فاخرج اسطولاً مشحونًا بالعساكر وسلم امرهُ لمولاه فرج الصقلي فاجازوا البحر الى عدوة الافرنج ونزلوا فلوريه والتقوا برجار ملكهم وانتصروا عليهِ (سنة ٣٤٠) ورجع فرج بالغنائم الى المهدية (سنة ٣٤٢) وفي الني قبلها قبض على معبد بن خزر مظاهر ابي يزيد وعلى ابنهِ وسيقا الى المنصور فقتلهما

و (في سنة ٣٤١) توفي اسمعيل القائم لسبع سنين من خلافتهِ اثر برد اخذه فدخل الحمام ومات فيهِ وكان طبيبه اسحق بن سليمان الاسرائيلي قد نهاه عن الحمام فلم يقبل

وولي الامر ابنهٔ معد ولقب المعز لدين الله فاستقام امره · وخرج الى جبل اوراس (سنة ٣٤٢) وجال فيهِ واستامن اليهِ بنو كملان ومليلة من هوارة فامنهم واحسن اليهم واستامن اليهِ محمد بن خزر بعد قتل اخيهِ معبد فامنهُ ورجع الى القيروان

وكان المعز كريم الطباع يحب العفو والامان في البلاد فعقد لمولاه قيصر على باغاية وتركهُ يسوس العساكر فدوخ البلاد والف بين الناس وسكن البربر ورجع بروسائهم الى القيروان فاكرمهم المعز ووصلهم وكذلك اكرم محمد بن خزر امير مغراوة عند ما جاء اليهِ وابقاهُ عنده الى ان مات (سنة ٣٤٨) ودعا المعز بالامير زيرى بن مناذ (سنة ٣٤٣) فاجزل صلتهُ واعادهُ الى عملهِ

ثم بامرهِ ارسل الحسين بن علي امير صقلية (سنة ٣٤٤) اسطولاً الى بلاد الاندلس فعثا وغنم حتي اخرج الناصر امير الاندلس اسطولهُ الى افريقية مع مولاه غالب فمنعتهم اول مرة العساكر فقفلوا وعادوا ثاني سنة (سنة ٣٤٥) في سبعين مركبًا فاحرقوا مرسي الخزر وعاثوا في جهات سوسة ثم نواحي طبرنة

واستقام امر المعز وعلت شوكتهُ في ملك افريقية فكان يملك من ايفكان وراء تاهرت بثلاثة مراحل الى زناتة دون مصر فكان يعلى بن محمد اليفرني عاملاً على تاهرت وايفكان · وزيرى بن مناذ على اشير واعمالها · وجعفر بن علي الاندلسي على المسيلة واعمالها · وقيصر الصقلي على باغاية واعمالها واحمد بن بكر بن ابي سهل الجذامي على فاس ومحمد بن واسول المكناسي على سجلماسة

واركب جوهر الصقلي وزيره ومعهُ جعفر بن علي وزيرى صاحب اشير على يعلى بن محمد اليفرني لما بلغهُ انهُ داخل الاموية وراء البحر وان المغرب الاقصى نقضوا طاعة الشيعة فخرب ايفيكان وقتل يعلي وقبض على ولده ثم تمادى الى فاس وتجاوزها الى سجلماسة فقبض على الشاكر لله محمد بن الفتح الذي تلقب بامير المومنين من بني واسول وضرب السكة باسمهِ «تقدست عزة الله» واقام ابن المعتز من بني عمهِ مكانهُ وبعد ان دوخ المغرب الى البحر رجع الى فاس وحاصرها فامتنعت عليهِ وهادنهُ امراء السوس ثم قام الى سجلماسة ثم رجع الى فاس واقام عليها حتى فتحها عن يد زيرى بتسنم اسوارها ليلاً وقبض على احمد بن بكر (سنة ٣٤٨) وطرد عمال بني امية من كل المغرب وانقلب الى القيروان سالما عزيزًا وضم الى زيرى تاهرت وقدم بالفاطميين وباحمد بن بكر ومحمد بن واسول اسيرين في قفصين ودخل بهما الى المنصورية في يوم مشهود

وقبض (سنة ٣٤٩) على موليه قيصر ومظفر وكان في ايديهما ولاية المغرب والمشرق منقسمة وقتلهما

وفي عهد المعز وبمدده كان فتح رمطه في صقلية ووقعة المجازين الروم والمسلمين (سنة ٣٥٤)

قال ابن خلدون« واشتد الحصار على اهل رمطه وعدموا الاقوات فافتحها المسلمون عنوة وركب فلّ الروم البحر يطلبون النجاة فاتبعهم الامير احمد بن الحسن في اسطوله فادركهم وسبح بعض المسلمين في الماء فاحرقوا مراكبهم وانهزموا وبث احمد سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها وعاثوا فيها حتى صالحوهم على الجزية »

فصل

في انتقال دولة العبيديين الى مصر والشام وتعرف بدولة الاعزاء او المعزية

ولما مات كافور الاخشيدي واضطربت احوال مصر وعظم شر الغلا والفتن · وكان الشاغل عن اصلاح ذلك وقتئذٍ الفتن بين بني الاعمام معز الدولة وعضد الدولة من بني بويه اتخذ المعز ذلك فرصة لاقتحام مصر والاستيلاء عليها · فارسل المعز جوهر الكاتب الى المغرب فحشد الجنود من كتامة ونحوهم · واوغر الى عمال برقه لحفر الآبار في طريقها (سنة ٣٥٥) · ثم نهض جوهر بمهماته قاصدًا مصرًا وخرج معهُ المعز يودعهُ واقام اياماً في معسكره حتى اذا بلغ الخبر العساكر الاخشيدية تفرقوا وقدم جوهر منتصف شعبان (سنة ٣٥٨) فدخلها وخطب في الجامع العتيق باسم المعز واقيمت الدعوة العلوية · ودخل جوهر جامع ابن طولون في جمادي (سنة ٣٥٩) فصلى فيهِ وزاد على الاذان عبارة « حي على خير العمل » فكان اول اذان اذن بهِ في مصر · ثم ارسل بالهدايا الى سيده المعز وباعيان الاخشيدية واحسن الى القضاة والعلماء · وشرع جوهر ببناء القاهرة واستحث المعز بالقدوم

فهرب من بني طغج الاخشيدية وقتيئذٍ الحسن بن عبد الله بن طغج فذهب الى مكة ومعهُ جماعة من القواد فاركب عليهِ جوهر جعفر بن فلاح الكتّامي بالعساكر فقاتلهُ مرارًا ثم اسرهُ ومن معهُ وبعث بهم الى جوهر وجوهر الى المعز

ودخل جعفر الرملة عنوة وجبى الخراج وسار الى طبرية وبها ابن ملهم قد اقام دعوة المعز فتنحى عنهُ وسار الى دمشق وفتحها عنوة وخطب بها للمعز (سنة ٣٥٩) في المحرم · وكان بدمشق وقتئذٍ الشريف ابو القاسم بن يعلى الهاشمي من المطاعين بينهم فلبس السواد ودعا الناس للثورة واعادة الخطبة للمطيع العباسي فاجتمع اليهِ كثير من طغام الشعب وقاتلوا جعفر بن فلاح اياماً · ثم قوى عليهم جعفر وهرب يعلى وعاثت المغاربة في المدينة · فثار الناس بهم وحملوا عليهم وقتلوا منهم وحفروا الخنادق وحصنوا البلد وسعى ابو القاسم في الصلح · فتم ذلك في ذي الحجة ودخل صاحب شرطة جعفر البلد وقبضوا على بعض الشبان واخذوا ابا القاسم فارسل الى مصر واستقام امر دمشق لجعفر

وكان قد خرج (سنة ٣٥٨) ابو جعفر الزناتي وتحاشدت الى بنودهِ البرابرة والنكارية

فركب عليهِ المعز بنفسهِ وانتهى الى باغاية وافترقت جموع ابي جعفر وقصد الاوعار فارسل عليهِ بلكين بن زيري فتبعهُ حتى انقطع عنهُ خبرهُ الى ان جاء مستامنًا (سنة ٣٥٩) فقبلهُ المعز واجرى عليهِ الرزق وعلى اثر ذلك وصلت كتب جوهر باقامة دعوة المعز في مصر والشام طالبًا اياهُ اليها ففرح المعز بذلك وبادرت اليهِ الشعراء بالمدح والتهاني

ثم زحفت القرامطة الى دمشق وعليهم اميرهم الاعصم فظفر بهم جعفر الكتامي وهزمهم ثم رجعوا (سنة ٣٦١) وحاربوهُ وقتلوهُ وملك الاعصم دمشق وسار الى مصر وكاتب جوهر المعز بذلك فعزم على الرحلة اليها

فاخذ اولاً في تمهيد امور المغرب وقطع شواغله فكان محمد بن الحسن بن خزر المغراوي مخالفًا على المعز بالمغرب الاوسط وتحزب اليهِ البربر وزناتة وكان جبارًا طاغيًا فاراد المعز ان يخلص افريقية من شرهِ فامر بلكين بن زيري بن مناذ بغزوه وكانت بينهما حروب في بلاد محمد المذكور فدارت الحرب اخيرًا على محمد وانهزم ثم تحامل على سيفهِ وقتل نفسهُ وقتل من امراء زناتة سبعة عشر واسر منهم كثير (سنة ٣٦٠) وسر المعز بذلك وقعد لقبول التهاني ثم استقدم بلكين واستخلفهُ على افريقية والمغرب وانزلهُ القيروان وسماهُ يوسف وكناهُ ابا الفتوح

وولى على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي مستقلاً عن بلكين وابقى صقلية في يد ابن الكلبي ابي القاسم علي بن الحسن بن علي بن ابي الحسين حرًّا كذلك . واقام على جباية الاموال زيادة الله بن القديم . وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف المرصدي بالخضوع لبلكين ثم عسكر قريبًا من القيروان حتى فرغ من اعمالهِ ولحقتهُ عساكرهُ واهل بيتهِ وعمالهُ وحمل لهُ ما كان في قصرهِ من الاموال والامتعة وارتحل بعد اربعة اشهر من ذلك وسار معهُ بلكين قليلاً ثم ودعهُ وردهُ على عملهِ وسار الى طرابلس في عساكره فهرب بعضهم الى جبل نفوسة فامتنعوا بها وسار الى برقة فقتل بها شاعره محمد بن هاني الاندلسي وجد قتيلاً جانب البحر اخر رجب (سنة ٣٦٢) وكان شاعرًا مجيدًا وقد غالى في مدح المعز ومن شعرهِ لهُ

ما شئت لا ما شاءت الاقدارُ فاحكم فانت الواحد القهارُ

ثم سار المعز حتى وصل الى الاسكندرية اخر شعبان (سنة ٣٦٢) واتاهُ اهل مصر واعيانها فلقيهم واكرمهم ودخل القاهرة خامس رمضان من السنة المذكورة وعادت منزلهُ ومنزل الخلفاء بعده الى اخر دولتهم وخرجت من ذلك الوقت من كونها افريقية . فسياتي من اخبارها في غير اماكن

وبعد ان وضع العرب ما على كاهلهم من امر المغرب ولم يبق لهم فيهِ دولة ورجعوا الى مركز ملكهم وقد كانت رسخت الملة في تلك البلاد فلم تنسلخ بانسلاخ الدولة ولا تقوضت مباني الدين بتقوض

معالم الملك تناغى حينئذٍ البربر في طلب السلطة والقيام بدعوة الاعياص من بني عبد مناف فظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بافريقية ومكناسة بالمغرب ونافسهم في ذلك زناتة وكانوا من اكثرهم جمعًا واشدهم قوة فكان لبني يفرن بالمغرب وافريقية على يد صاحب الحمار ثم على يد يعلى بن محمد وبنيهِ ملك عظيم ثم كان لمغراوة على يد بني خزر دولة اخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة ثم انقرضت تلك الاجيال وتجدد الملك بالمغرب بعدهم في جيل اخر فكان لبني مرين بالمغرب الاقصى ملك ولبني عبد الواد بالمغرب الاوسط ملك اخر وقاسمهم فيهِ بنو توجين والفل من مغراوة كل ذلك مما لامدخل لهُ بتاريخنا هذا فلم نذكره بالتفصيل وقد خصصنا لهُ الفصل الاتي لذكر ملخص يستغنى بهِ

فصل

في دول المغرب من بعد العرب اجمالاً

شعوب المغرب منهم زناتة واشهر بطونهم بنو يفرن · و زناتة شعوب كثيرة اشهرهم بنو واركوه ومرنجيصه وكان بنو يفرن لعهد الفتح اكبر قبائل زناتة واشدها شوكة وكان منهم بافريقية وجبل اوراس والمغرب الاوسط بطون وشعوب فلما كان الفتح دخل هولاء الامم في الاسلام ثم فشا دين الخارجية في العرب وغلبهم الخلفاء فاستلحموهم فنزعوا الى القاصية من البربر و بنوا هناك مذاهبهم فتلقفها ر وساوهم على اختلاف مذهبهِ من اباضية وصفرية ونحوها وانتحلها بنو يفرن وقاتلوا عليها وكان اول من جمع لذلك منهم ابو قرة من اهل المغرب الاوسط ثم من بعده ابو يزيد صاحب الحمار وقومه بنو واركوه ومرنجيصة ثم كان لهم بالمغرب الاقصى من بعد الانسلاخ من الخارجية دولتان على يد يعلى بن محمد وصالح و بنيهِ

فابو قرة كان لعهد انتقال الخلافة من بني امية لبني العباس · ولما انتقض البرابرة في المغرب الاقصى وقام ميسرة وقومهُ بدعوة الخارجية وقتالهِ البربر قدموا على انفسهم خالد بن حميد من زناتة وكان من حربهِ مع كلثوم بن عياض ما كان ·ثم رأَس من بعدهِ على زناتة ابو قرة المذكور.

ولما استاثلت دولة بني امية كثرت الخارجية في البربر فملك ورنجومة القيروان وهوارة وزناتة طرابلس ومكناسة سجلماسة وملك ابن رستم تاهرت· ثم قدم ابن الاشعث من قبل ابي جعفر المنصور وخافهُ البربر فحسم العلل وسكن الحروب

ثم انتقض بنو يفرن بنواحي تلمسان ودعوا الى الخارجية وبايعوا ابا قرة كبيرهم بالخلافة (سنة ١٤٨) ولهُ مع عمال الخلفاء حروب ومواقع عديدة لامحل لذكرها هنا اخرها ما كان عن يد يزيد بن

حاتم في المغرب ونواحيهِ ولم يكن من بعد ذلك لبني يفرن انتقاض الى ان ظهر ابو يزيد الخارجي من بني واركوه ومرنجيصة . ومنهم من قال ان ابا قرة كان من مغيلة والله اعلم فان تلمسان كان يقطنها بنو يفرن ومغيلة

اما ابو يزيد الخارجي فقد تقدم خبرهُ وهو على ما ذكر ابن حزم مخلد بن كيراد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن ورنمت بن حويفز بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زناتة . وكان رئيس بني يفرن لعهد ابي يزيد محمد بن صالح ثم هلك محمد في عهد المنصور بيد عبد الله بن بكار اليفرني فنهض من بعده ولده يعلى وعظم شانهُ واختط مدينة ايفكان . ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الاموية من زناتة اهل العدوة واستالف ملوكهم كان يعلى ممن اجابهُ الى ذلك ومعهُ الخير بن محمد بن خزر وقومهُ مغراوة وزحف على وهران فملكها (سنة ٣٤٣) من يد محمد بن عون وكان قد ولاه عليها صولات اللهيطي من كتامة (سنة ٢٩٨) فدخلها يعلى عنوةً وكان يعلى قد زحف على تاهرت مع الخير بن محمد وبارزهُ ميسور الخصي في شيعتهِ من لماية فهزماه وملكا تاهرت وقبض على ميسور فبعث بهِ الخير الى يعلى بن محمد ليثار بهِ فلم يرضهُ كفوًا لدمهِ ودفعهُ الى من ثار بهِ من بني يفرن

واستفحل يعلى في ناحية المغرب وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت الى طنجه واستدعى من الناصر تولية رجال يبتهِ على امصار المغرب فعقد الناصر لمحمد بن الخير بن محمد بن عشيرة ثم نسك محمد لسنة من ولايتهِ واستخلف على عملهِ ابن عمهِ احمد بن ابي بكر من ولد عثمان بن سعيد وهو الذي اختط ماذنة القرويين (سنة ٣٤٤) . ولم يزل سلطان يعلى بن محمد عظيمًا الى ان اغزى المعز لدين الله كاتبه جوهر الصقلي (سنة ٣٤٧) وغدر بيعلى وقتلهُ وذهب دمهُ هدرًا وخرب جوهر مدينة ايفكان وفرت زناتة امامهُ وتفرقت بعد ذلك جماعة بني يفرن وذهب ملكهم حتى اجتمعوا بعد حين على يد ولده بدوي ولحق كثير منهم بالاندلس كما ياتي وانقرضت دولة بني يفرن هولاء الى ان تجددت بعد مدة على يد يعلى بفاس ثم استقرت اخرى بسلا

وذلك ان بدوى بن يعلي بعد قتل ابيهِ لحق بالمغرب الاقصى واصحر الى ان رجع جوهر فرجع واجتمع عليهِ قومهُ وكان جوهر عند منصرفهِ من المغرب ولى على الادارسة اهل الريف الحسن بن كنون شيخ بني محمد منهم ثم اجاز الحكم الاموي لاول ولايتهِ (٣٥٠) وزيره محمد بن قاسم بن طلمس في العساكر لتدويخ المغرب وقطع جرثومة الادارسة فغلبهم على بلادهم وازعجهم جميعًا عن المغرب الى الاندلس ومهد دعوة الاموية وعقد على المغرب ليحيى بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الاعلى وجعل لهُ مددًا في رجال العرب وجند الثغور لكن لما اعترت الحكم علة الفالج وركدت هيبة

الدولة المروانية احتاجت المملكة الى رجالها لسد الثغور ودفاع العدو فاستدعى الحكم يحيي المذكور وادالهُ بجعفر بن علي بن حمدون امير الزاب ومسيلة النازع للمروانيين من دعوة الشيعة وعقدوا لهُ ولاخيهِ يحيي على المغرب وخلعوا عليهما وزودوهما بالمال الكثير والخلع الفاخرة الى ملوك العدوة فسار جعفر الى المغرب (سنة ٣٦٥) وضبطهُ وانتت اليهِ ملوك زناتة مثل بدوى بن يعلى امير بني يفرن وابن عمهِ ابو بخت بن عبد الله بن بكار ومحمد بن الخير بن خزر وابن عمهِ بكساس بن سيد الناس وزيرى بن خزر وزيرى ومقاتل ابنا عطية وخزرون بن فلفول وابن سعيد امير مغراوة وابن البورى امير مكناسة وغيرهم . وكان بدوى بن يعلى من اشدهم . ثم توفي الحكم وخلفهُ هشام المويد وانفرد محمد بن ابي عامر بحجابتهِ فاقتصر جعفر من العدوة لاول ولايتهِ على مدينة سبتة فحكمها برجال الدولة وعول على ضبط الباقي ماوراء ذلك على ملوك زناتة وتعهدهم بالجوائز والخلع والاكرام واثبات من رغب في ديوان السلطان منهم . ثم كانت على جعفر نكبة بغزوة برغواطه واستدعاهُ محمد بن ابي عامر لاول امره لما راهُ من استقامتهِ اليهِ فتخلى لاخيهِ عن عمل المغرب واجاز البحر الى ابن ابي عامر وحل عنده بالمكان الاثير

ثم تنافست زناتة في التزلف الى الدولة . فزحف خزرون بن فلفول (سنة ٣٦٦) الى مدينة سجلماسة فافتتحها ومحا دولة آل مدرار منها وعقد لهُ المنصور ابن ابي عامر عليها . وزحف ابو الفتح بلكين بن زيري قائد افريقية للشيعة الى المغرب (سنة ٣٦٩) زحفهُ المشهور فلقيهُ المنصور الى الجزيرة بدافعهِ محتملاً من بيت المال مائة حمل ومن العساكر عددًا غيرًا واجاز جعفر بن علي بن حمدون الى سبتة وانضمت اليهِ ملوك زناتة . فرجع بلكين عنهم الى غزو برغواطه الى ان هلك (سنه ٣٧٣) ورجع جعفر الى مكانهِ الى ابن ابي عامر

وكان قد وصل حسن بن كنون خلال ذلك من القاهرة بكتاب من عبد العزيز بن نزار بن معد الى بلكين صاحب افريقية في اعانتهِ الى ملك المغرب وامدادهِ بالمال والعساكر فامدهُ بلكين بالمال والرجال ووعدهُ باضعاف ذلك فنهض ابن كنون الى المغرب فوجد استحكام طاعة المروانية فيهِ وهلك بلكين اثر ذلك وشغل ابنهُ المنصور بن بلكين عن شانهِ فدعا الحسن بن كنون لنفسهِ فانفذ محمد بن ابي عامر المنصور ابن عمهِ محمد بن عبد الله الملقب بعسكلاجة لحربهِ (سنة ٣٧٥) فجاء اثره الى الجزيرة فطلب الحسن بن كنون الامان فامنهُ واشخصهُ الى الحضرة فلم يرد ابن ابي عامر ان يراهُ وارسل اليهِ من قتلهُ وانقرض امر الادارسة وامحى اثرهم . فغضب عسكلاجة لذلك واسترسل الجيد بكلام نقل عنهُ الى المنصور فاستدعاهُ والحقهُ بابن كنون وعقد على العدوة للوزير حسن بن احمد بن عبد الودود السلمي وقواهُ بالمال والرجال وذهب الى عملهِ (سنة ٣٧٦) وضبط البلاد

وهابتهُ القبائل ونزل بفاس وعز سلطانهُ وكثر حشده وانضم اليهِ ملوك النواحي حتى هاب ابن ابي عامر مغبة استقلالهِ فاستدعاه ليبلوطاعتهُ فاسرع لاجابتهِ فاجزل اكرامهُ ورده الى عمله . وكان ابن ابي عامر يضرب بين بدوى بن يعلي من ملوك زناتة وبين قرينه زيرى بن عطية ويقرن كلاًّ منهما بمباغاة صاحبهِ في الاستقامة وكان اميل الى زيري واوثق بطاعتهِ وبعكس ذلك الى بدوى فانهُ كان كثير المراوغة للمروانيين بالطاعة فكان يرجوان يتمكن من طاعة بدوي بمباغاتهِ . فاستدعى بزيرى بن عطية الى الحضرة (سنة ٣٧٧) فبادر زيري لاجابة الطلب ولقى اكرامًا واحسانًا عظيمين فسام بدوي مثلها فامتنع وقال الرسول قل لابن ابي عامر متى عهد حمر الوحش تنقاد للبيطرة وكان بين بدوي وحسن بن عبد الودود منافسة فاجتمع عليهِ مع ملوك العدوة مظاهرًا عليهِ لعدوهِ زيري المذكور وتواقعوا (سنة ٣٨١) وكان الظهور لبدوي وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة وجرح الوزير حسن بن عبد الودود وهلك بجراحهِ . فغضب ابن ابي عامر من ذلك وكتب لزيري بضبط فاس ومكافئة اصحاب حسن وعقد لهُ على المغرب وغالبهُ بدوي عليها مرة بعد اخرى

ثم نزع ابو البهار بن زيري بن مناذ الصنهاجي عن قومهِ ولحق بسواحل تلمسان ناقضًا لطاعة الشيعة ومخالفًا لاخيهِ المنصور بن بلكين صاحب القيروان وخاطب ابن ابي عامر من وراء البحر وارسل اليهِ ابن اخيهِ ووجوه قومهِ فحاز عندهُ بالاموال والصلات بفاس مع زيري بن عطية وجمعهما على محاربة بدوي بن يعلى . ثم راجع ابو البهار بن زيري ولاية اخيهِ المنصور وتحارب مع زيري بن عطية فغلب ولحق بسبتة ثم عاد الى قومهِ . واستفحل زيري بن عطية بعد ذلك وكانت بينهُ وبين بدوي بن يعلي وقعة غنم بها زيري ما لا يحصى من الاموال وسبى حرم بدوي واستلحم من رجالهِ زهاء ثلاثة الاف فارس . وخرج بدوي الى الصحراء شريدًا (سنة ٣٨٣) وهلك هناك فخلفهُ في قومهِ حبوس بن اخيهِ زيري بن يعلي ثم قتلهُ ابن عمهِ ابو يداس طمعًا بالرئاسة فاختلف عليهِ قومه فاجاز البحر الى الاندلس في جمع عظيم من قومهِ

وولي امر بني يفرن بعدهُ حمامة بن زيري اخو حبوس المذكور واستقام امره وكانت الحرب بينهُ وبين زيري بن عطية سجالاً فكانا يتعاقبان ملك فاس بتناوب الغلب

ولما اجتمع بنو يفرن على حمامة بن زيري تحيز بهم الى ناحية شالة من المغرب فملكها وما اليها من [illegible] واقتطعها من [illegible] بن عطية وكان بينهُ وبين المنصور صاحب القيروان [illegible] (سنة ٤٠٦) ثم [illegible] وقام بالامر بعده اخوه ابو الكمال تميم بن زيري بن يعلى [illegible] وكان يميل للجهاد [illegible] (سنة ٤٢٤) [illegible] الحرب بين بني يفرن ومغراوة وثارت الاحن القديمة فكان بين ابي الكمال تميم المذكور وبين حمامة بن المعز

المغراوي حروب شديدة انكشفت فيها مغراوة وفر حمامة الى وجدة واستولى ابو الكمال على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب · واكتسح تميم اليهود فيها واصطلم نعمهم واستباح حرمهم ثم احتشد حمامة سائر قبائل مغراوة وزناتة وبعث الحاشدين الى جميع بلاد المغرب الاوسط حتى تنس وكاتب من بعد عنهُ وزحف الى فاس (سنة ٤٢٩) فافرج عنها ابو الكمال ولحق بقر ملكهِ من شالة وبقي هناك الى ان هلك (سنة ٤٤٦) · ثم خلفهُ ولده حماد ومات (سنة ٤٤٩) · ثم ابنهُ يوسف ومات (سنة ٤٥٨) · ثم عمهُ محمد بن ابي تميم الى ان هلك في حروب لمتونه حين غلبوهم على المغرب اجمع

اما ابو يداس بن دوناس فرفعهُ اخوانهُ ابو قرة وابو زيد وعطاف وحل كلهم من المنصور محلاً مكرمًا ونظم ابو يداس في جملة الامراء واسنى لهُ ابن ابي عامر الجراية والاقطاع واثبت رجالهُ في الديوان فعلا اسمهُ ولما افترقت الجماعة وانتثر سلك الخلافة كان لهُ في حروب البربر مع جند الاندلس آثار غريبة واخبار عجيبة · ولما ملك المستعين قرطبة واجتمع اليهِ من كان بالاندلس من البربر ولحق المهدي بالثغور واستجاش ملك الجلالقة وتواقعوا في وادي ابرة فكانت بين الفريقين جولة مهولة عظم بها بلاء البربر اشتهر حينئذٍ ابو يداس وانهزم المهدي وانصارهُ الجلالقة وجرح بها ابو يداس وهلك ودفن هناك وكان لابنهِ خلوف وحافده تميم بن خلوف بالاندلس شجاعة ورياسة وكان يحيى بن عبد الرحمن ابن اخيهِ عطاف من رجالاتهم وكان لهُ اختصاص ببني حمود ثم بالقاسم منهم وولاه على قرطبة ايام خلافتهِ

ومن زناتة مغراوة ونسبهم من مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا فهم اخوة بني يفرن وكانوا اوسع بطون زناتة واهل الباس والغلب منهم · ومن شعوبهم و بطونهم بنو يلنث · وبنو يزداك · وبنو رواو ورتزمير · وبنو ابي سعيد · وبنو ورسيعان · والاغواط · وبنو ريغة وغيرهم وكانت مساكنهم بارض المغرب الاوسط من شلف الى تلمسان الى جبل مديونة وما اليها

وكان لمغراوة في بدوهم ملك عظيم ادركهم عليهِ الاسلام فاقرهُ لهم وحسن اسلامهم وهاجر اميرهم صولات بن وزمار الى المدينة وزار عثمان بن عفان وقبلهُ فرحًا وعقد لهُ على قومهِ ورجع محبورًا وقيل انهُ اخذ اسيرًا في اول فتح فاشخص الى عثمان واسلم وعقد لهُ على عملهِ · فاختص صولات هذا وسائر الاحياء من مغراوة بولاء عثمان واهل بيتهِ من بني امية وكان خاصة لهم دون قريش وظاهروا دعوة المروانية بالاندلس · وبعد ان مات صولات خلفهُ ولده حفص وكان عظيمًا ثم هلك وخلفهُ ابنهُ خزر · وعند ما تقلص قليلاً ظل الخلافة من المغرب الاقصى اعتز خزر وقومه على امر المضرية بالقيروان وعظم شان سلطانهم على البدو من زناتة بالمغرب الاوسط · ولما انتقض امر بني امية

بالمشرق وكانت الفتنة بالمغرب ازدادوا عزّا وهلك خلال ذلك خزر وقام بامره ولده محمد فتلقى ادريس الاكبر (سنة ١٧٤) لما نهض الى المغرب والقى اليهِ المقادة وبايع لهُ من قومهِ ومكنهُ من تلمسان بعد ان غلب عليها بنو يفرن وقام بنو خزر بدعوتهِ لهُ ولاولادهِ من بعده فكانت تلمسان لسليمان بن عبد الله بن حسن واقتسمت ولاية امصارها وثغورها الساحلية في عقبهِ فكانت تلمسان لولد ادريس بن محمد بن سليمان · وارشكول لولد عيسى بن محمد · وتنس لولد ابرهيم بن محمد · وسائر الضواحي من اعمال تلمسان لبني يفرن ومغراوة

ولم يزل الملك بضواحي المغرب الاوسط لمحمد بن خزر الى ان كانت دولة الشيعة وسرح عبد الله المهدي الى المغرب عروبة بن يوسف الكتامي (سنة ٢٩٨) فدوخ المغرب الادني ورجع ثم ارسل فضالة بن جبوس فاستولى على اعمال الادارسة واقتضي طاعتهُ وعقد ليحيى بن ادريس بن عمر اخر ملوكهم على فاس وعقد لموسى بن ابي العافية على مكناسة ونحوها واستولى على ضواحي المغرب وقفل

ثم انتقض عمر من اعقاب محمد بن خزر وحمل زناتة واهل المغرب الاوسط على البرابرة من الشيعة فارسل عبيد الله المهدي فضالة في عساكر كتامة (سنة ٣٠٩) ولقيهُ محمد في جموع مغراوة وزناتة وقتل فضالة · فارسل عبيد الله ابنهُ ابا القاسم (سنة ٣١٠) فحارب محمدًا وقومهُ فاجفلوا الى الصحراء واتبع اثارهم الى ملوية فلحقوا بسجلماسة

ثم ان محمد بن خزر كان اول من اجاب عبد الرحمن الناصر (سنة ٣١٦) عند ما سما لهُ شوق بامتلاك المغرب وارسل اليهِ محمد بن عبيد الله بن ابي عيسى خالصتهُ وطرد اولياء الشيعة من الزاب وملك شلفًا وتنسًا ووهران وولي عليها ابنهُ المنير وبث الدعوة المروانية في المغرب الاوسط ما عدا تاهرت · ثم فتح الناصر سبتة (سنة ٣١٧) من يد الادارسة واطاعهُ موسى بن ابي العافية واتفق مع محمد بن خزر المذكور وتظاهرا على الشيعة وكان فلفول بن خزر اخو محمد مخالفًا لاخيهِ الى طاعة الشيعة فعقد لهُ عبد الله على مغراوة · وزحف الى المغرب حميد بن يصل (سنة ٣٢١) في عساكر كتامة الى عبد الله بن بكار على تاهرت فانتهى الى فاس واجفلت امامهُ ظواعن زناتة ومكناسة ودوخ المغرب وزحف من بعده ميسور الخصي (سنة ٣٢٣) فحاصر فاسًا وامتنعت عليهِ ورجع ثم انتقض حميد بن يصل (سنة ٣٢٨) وتحيز الى محمد بن خزر · ثم ذهب الى الناصر فولاه على المغرب الاوسط الى ان شغل الشيعة بفتنة ابي يزيد · وعظمت اثار محمد بن خزر وقومهِ وزحفوا الى تاهرت مع حميد بن يصل قائد الاموية (سنة ٣٣٣) وزحف معهُ الخير بن محمد واخوه حمزة وعمه عبد الله بن خزر ومعهم يعلي بن محمد في قومهِ بني يفرن فاخذوا تاهرت عنوة وقتلوا عبد الله بن بكار واسروا قائدها

ميسورًا الخصي وقتل فيها حمزة بن محمد بن خزر

ولم تزل هذه الحروب والفتن ما بين هولاء الامراء واحشادهم بالاتصال والانفصال عن الامويين الى ان تغلب عليهم بلكين بن زيري الذي عقد له الحكم الاموي على حرب زناتة وامدهُ بالاموال والعساكر وسوغهُ ما تغلب عليهِ من اعمالهم فنهض الى المغرب (سنة ٣٦١) واوقع بالبرابر منهم وتعرى اعمالهم واخذ باغاية ومسيلة وبسكرة واجفلت زناتة امامهُ وتقدم الى تاهرت ومحامن المغرب الاوسط اثار زناتة ولحق بالمغرب الاقصى ٠ واتبع بلكين اثار الخير بن محمد بن خزر وقومهِ الى سجلماسة واوقع بهم وتقبض عليهم فقتل الخير صبرًا وقوض جموعهم ودوخ المغرب وانكف راجعًا فاقفر المغرب الاوسط من زناتة وصار الى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الاقصى الى ان كان من رجوع بني يعلى بن محمد الى تلمسان وملكهم اياها ٠ ثم هلك بنو خزر بسجلماسة وطرابلس وملك بني زيري بن عطية بفاس كما تقدم وهو زيري بن عطية بن عبد الرحمن بن خزر وجدهُ عبد الله اخو محمد داعية الناصر ٠ وهو الذي مهد الدولة بفاس والمغرب الاقصى واورثها بنيهِ الى عهد لمتونة وكان معاصرًا لابن ابي عامر المنصور وكان لهُ مع ابي البهار بن زيري بن مناذ عم المنصور بن بلكين صاحب القيروان (لما خلع طاعة الاموية غب ان نزع اليها ضد ابن اخيهِ) حروب عظيمة انهزم بها ابو البهار ولحق بالقيروان واستولى زيري على تلمسان وسائر اعمال ابي البهار وملك ما بين السوس الاقصى والزاب واتسع ملكهُ واشتدت شوكتهُ وكتب بالفتح الى المنصور واهداهُ بمائتين من الخيل وخمسين جملاً من المهاري السبق والف درقة من جلود اللمط واحمالاً من قسي الزاب وقطوط الغالية والزرافة واصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره والف حمل من التمر واحمالاً من ثياب الصوف الرفيعة فجدد لهُ عهدهُ على المغرب (سنة ٣٨٦) وانزل احياءهُ بانحاء فاس في قياطينهم واستفحل امرهُ بالمغرب ودفع بني يفرن عن فاس الى نواحي سلا واختط مدينة وجدة (سنة ٣٨٤) ونقل اليها ذخيرته وجعلها معتصمًا لهُ وكانت ثغرًا للعمالتين المغرب الاقصى والاوسط ٠ ثم حصلت حروب بينهُ وبين المنصور ومواقع عظيمة وتجرد عبد الملك بن المنصور لحربهِ وحزب اليهِ امراء كثيرين من مناظري زيري بن عطية واوقع بهِ اخيرًا وانتصر عليهِ وعقد لهُ ابوهُ المنصور على ملك المغرب فاصلح نواحيه وسد ثغورهُ وفر زيري الى الصحراء واستعمل عبد الملك الحسن بن عبد الودود على تاذلا وحميد بن يصل المكناسي على سجلماسة

ثم اقفل المنصور ابنهُ عبد الملك (سنة ٣٨٩) وعقد على المغرب لواضح ثم عزلهُ وولى عليهِ عبيد الله ابن اخيهِ يحيي ثم اسمعيل بن البوري ثم الاخوص معن بن عبد العزيز النجيبي الى ان هلك المنصور فاعاد الحاجب المظفر سيف الدولة المعز بن زيري من منتبذهِ بالمغرب لولاية ابيهِ

فنزل فاس

وذلك ان زيري بن عطية بعد انهزامهِ الى الصحراء اجتمع اليهِ فل مغراوة وبلغهُ اضطراب احوال باديس بن المنصور الصنهاجي صرف وجههُ الى اعمال صنهاجة واقتحم المغرب الاوسط ونازل تاهرت وحاصرها بطوفة بن بلكين · وخرج باديس من القيروان لنجدتهِ ومر بطبنة فامتنع عليهِ فلفول بن خزرون وخالفهُ الى افريقية فشغل بحربهِ · وارسل حماد بن بلكين بعساكر صنهاجة لمحاربة زيري بن عطية فالتقيا بوادي ميناس قرب تاهرت وخسرت صنهاجة الموقعة · وفتح زيري مدينة تاهرت وشلف وتنس واقام الدعوة فيها للمويد هشام ولحاجبهِ المنصور من بعدهِ · ثم اتبع آثار صنهاجة الى اشير قاعدة ملكهم فاناخ عليها واستامن اليهِ زاوي بن زيري ومن معهُ من اكابر اهل بيتهِ المنازعين لباديس فامنهم · ثم اعتل زيري بن عطية وهو بمكانهِ من حصار اشير فافرج عنها ومات في رجوعهِ (سنة ٣٩١) واجتمع آل خزر ومغراوة على ابنهِ المعز فبايعوهُ وضبط امرهم وترك محاربة صنهاجة ثم اعتناق الدعوة العامرية وصلحت حالة عندهم ومات المنصور بن ابي عامر فرغب المعز بن زيري من ابنهِ عبد الملك ان يعيده الى عمله على مال يحمله اليهِ وعلى ان يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فاجابهُ الى طلبهِ وكتب لهُ العهد وارسلهُ مع وزيره علي بن خديم وهو

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآلهِ — من الحاجب المظفر سيف الدولة دولة هشام المويد بالله امير المومنين اطال الله بقاه · عبد الملك بن المنصور بن ابي عامر الى كافة مدني فاس وكافة اهل المغرب سلمهم الله

اما بعد — اصلح الله شانكم وسلم انفسكم واديانكم — فالحمد لله علام الغيوب وغفار الذنوب ومقلب القلوب ذي البطش الشديد المبدي المعيد الفعال لما يريد لا رادّ لامره ولا معقب لحكمهِ بل لهُ الملك والامر وبيده الخير والشر واياه نعبد واياه نستعين واذا قضى امرًا فانما يقول لهُ كن فيكون وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آلهِ الطيبين وجميع الانبيا والمرسلين والسلام عليكم اجمعين وان المعز بن زيري بن عطية اكرمهُ الله تابع رسلهِ لدنيا وكتبهِ متنصلاً من هنات دفعتهُ اليها ضرورات ومستغفرًا من سيآت حطتها من توبتهِ حسنات · والتوبة محاة الذنوب · والاستغفار منقذ من العيوب · واذا اذن الله بشيء يسرهُ وعسى ان تكرهوا شيئًا ولكم فيهِ خير وقد وعد من نفسهِ استشعار الطاعة ولزوم الجادة واعتقاد الاستقامة وحسن المعونة وخفة المونة فوليناه ما قبلكم وعهدنا اليهِ ان يعمل بالعدل فيكم وان يرفع اعمال الجور عنكم وان يعمر سبلكم وان يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم الا في حدود الله تبارك وتعالى · واشهدنا الله عليهِ بذلك ؛ وكفى بالله شهيدًا وقد وجهنا الوزير ابا علي بن خديم اكرمهُ الله وهو من ثقاتنا ووجوه

رجالنا لياخذ بشانو ويوكد العهد فيهِ عليهِ بذلك وامرناه باشراكم فيهِ ونحن بامركم معتنون واحوالكم مطالعون . وان يقضي على الاعلى للادنى . ولا يرتضي فيكم بشي من الادنى . فثقوا بذلك واسكنوا اليهِ وليمض القاضي ابو عبد الله احكامه مشدوداً ظهرهُ بنا معقوداً سلطانه بسلطاننا ولا تاخذه في الله لومة لائم فذلك ظننا بهِ اذ وليناه . واملنا فيهِ اذ قلدناه والله المستعان وعليهِ التكلان لا اله الا هو ولتبلغوا منا سلاماً جزيلاً ورحمة الله وبركاته

ولما وصل اليهِ العهد ثاب اليهِ نشاطهُ وبث عمالهُ في جميع كور المغرب الى سجلماسة فانها بقيت في يد واندين بن خزرون بن فلفول واطاعتهُ البلاد واستقام امرهُ . ولما افترق امر الجماعة بالاندلس واختل امر الخلافة وعادت طوائف نهض المعز لاخذ سجلماسة من بني واندين (سنة ٤٠٧) فهزم ورجع الى فاس وبقي مضطرب الامر الى ان مات (سنة ٤١٧) وخلفهُ ابن عمهِ حمامة بن المعز بن عطية وعظم شانهُ وقصدهُ العلماء والامراء ومدحهُ الشعراء واتتهُ الوفود حتى نازعهُ الامر ابو الكمال تميم بن زيرى بن يعلى اليفرني (سنة ٤٢٤) من بني بدوي بن يعلى المتغلبين على نواحي سلا وانتهت الحروب بهزيمة حمامة ومات من مغراوة امم واستولى تميم على فاس واعمال المغرب واستباح اليهود كما تقدم

اما حمامة فلحق بوجدة وجمع نفسهُ وزحف على خصمهِ فدخل فاس (سنة ٤٢٩) وتحيز تميم الى موضع امارتهِ من سلا وهلك (سنة ٤٣١) وخلفهُ ولده دوناس واستولى على فاس وسائر اعمال ابيهِ وتحارب مع ابن عمهِ حماد بن معنصر بن المعز فخسر الصواحي واقتصر ملكهُ على فاس وخندق دوناس على نفسهِ الخندق المعروف بسياج حماد وقطع حماد جرية الوادي عن عدوة القرويين الى ان مات (سنة ٤٣٥) فثبت الامر لدوناس وطالت ايامهُ وكثر العمران واقام المصانع وادار السور على الارباض وبني الحمامات والفنادق وقصدتها التجار من كل جانب ومات دوناس (سنة ٤٥١) وقام بعده ابنهُ فتوح ونزل بعدوة الاندلس ونازعهُ الامر اخوه الاصغر عجيسة وامتنع بعدوة القرويين وافترق امرها بافتراقهما وكانت الحرب بينهما سجالاً ثم غدر فتوح بعجيسة اخيهِ (سنة ٤٥٢) . ثم دهم المغرب ما دهمهُ من امر المرابطين من لمتونة وخشى فتوح امرهم فافرج عن فاس وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الى المغرب (سنة ٤٥٤) ودخل فاس واحتمل من الاشراف والاكابر رهنًا على الطاعة وقفل الى قلعتهِ

وولي على المغرب بعد فتوح معنصر بن حماد بن معنصر وشغل بحروب لمتونه وكانت لهُ عليهم الوقعة المشهورة (سنة ٤٥٥) وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون فاس وخلف عليها عامله وارتحل الى غمارة فخالفهُ معنصر الى فاس وقتل العامل وملكها . ثم رحل الى مهدي بن يوسف صاحب مكناسة

وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وقتله وبعث براسه الى صاحب سبته فلما بلغ الخبر يوسف بن تاشفين سرح المرابطين لحصار فاس وانجلى الامر عن قتل معنصر (سنة ٤٦٠) ومبايعة ابنه تميم وكانت ايامه حصارًا وفتنة وجهدًا وغلاء. وشغل يوسف عنه فتح غماره حتى اذا اخذها (سنة ٤٦٢) صمد الى فاس ففتحها عنوة وقتل تميمًا وهدم ابن تاشفين الاسوار الفاصلة بين العدوتين وصيرها مصرًا وادار عليها سورًا وانقرض امر مغراوة من فاس

ومن مغراوة بنو خزرون بن فلفول ملوك سجلماسة من الطبقة الاولى من اعيان بني خزرز فانه بعد ان غلبهم بلكين بن زيرى على المغرب الاوسط تحولوا الى المغرب الاقصى وراء ملوية وكانوا قائمين بدعوة المروانيين في عهد المنصور بن ابي عامر. واخذ خزرون بن فلفول سجلماسة من المعتز المدراري (سنة ٣٦٧) الى ان ظهر المرابطون من لمتونة ومسوفة وافتتحوا امرهم بغزو درعة (سنة ٤٥٤) ثم غزوا سجلماسة واخذوها (سنة ٤٥٥) وقتلوا من كان بها ثم تتبعوا من بعد ذلك اعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة واخيرًا اقتحموا حصون ملوية (سنة ٤٦٣) وانقرض امر بني وانودين بن خزرون

ومن بني خزرون بن فلفول كانت ملوك طرابلس من بعد عبد الله بن حسن عامل المعز بن باديس من الدولة الزيرية فان عبد الله المذكور قتله خليفة بن ورو من بني خزرون واستولى على طرابلس وخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحكم (سنة ٤١٧) بالطاعة وضمان السابلة ونحو ذلك فاجابه الظاهر الى طلبه وانتظم في عمله وارسل اخاهُ حمادًا بهدايا الى عزيز مصر فقبلها وكافاهُ عليها هذا ما جاء في ابن الرقيق ونقل ابن حماد وغيره غير ذلك وجعلوا بدولاية خليفة (سنة ٤٢٩-٤٣٠) ولم تزل طرابلس بايدي بني خزرون الى ان قدم العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على اعمال افريقية واقتسموها فكانت فاس وطرابلس في قسمة الامير زغبة الهلالي والبلد لبني خزرون ثم استولى بنو سليم على الضاحية وغلبوا عليها زغبة ورحلوهم منها وبقيت البلد لبني خزرون وزحف المنتصر بن خزرون مع بني عدي من قبائل هلال مجلبًا على بني حماد حتى نزل المسيلة وحل في اشير فخرج عليه الناصر الاموي ففر المنتصر بن خزرون امامه فرجع فعاد الى الاخلاف ثم راسل الناصر المنتصر بالصلح واقطعه ضواحي الزاب وريغة واوعز الى عروس بن سندى رئيس سكبرة فمكر به وقتله (سنة ٤٦٠) فقام غيره من بني خزرون على طرابلس ثم اختل ملك صنهاجة واتصل بهم ملك تلك الاعمال الى (سنة ٥٤٠) ثم تولى عليها رجار ملك صقلية واخرج بني خزرون وولى عليها شيخهم ابا يحيى بن مطروح التميمي فانقرض آل خزرون منها الا في الضاحية الى ان افتتح الموحدون افريقية آخر الدولة الصنهاجية انصاف الجيل السابع للهجرة

ومن آل خزركان بنو يعلى ملوك تلمسان من اهل الطبقة الاولى وهم من يعلى بن الخير بن محمد الذي قتل نفسهُ في معركة بلكين بن زيرى قبل ولاية بلكين على افريقية وانتقال المعز العلوي الى مصر فانهُ بعد مهلك زيرى بن عطية واستقلال المعز وابنهِ بملك المغرب (سنة ٣٩٢) وغلبت صنهاجة على تلمسان وما اليها واختطت مدينة وجدة كما تقدم نزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان فكانت خاصة لهُ وبني ملكها وسائر ضواحيها في عقبهِ واختلفت ايامهم مع بني حماد بن بلكين سلمًا وحربًا . ولما دخل الهلاليون افريقية وغلبوا المعز وقومهُ عليها واقتسموا سائر اعمالها كان بينهم وبين بني يعلى حروب في عهد يحيى من ولد يعلى وكان كثيرًا ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال الهلاليين ويحتشد اليومن زناتة من اهل المغرب الاوسط مثل مغراوة وبني يفرن وبني يلومى وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين. ثم ملك المرابطون اعمال المغرب الاقصى وركبوا بعد موت يحيى وولاية ابنهِ العباس على تلمسان في عساكر لمتونة فلم يقدروا على شيء الى ان نهض يوسف بن تاشفين بنفسهِ في جموع المرابطين (سنة ٤٧٣) وفتح تلمسان وقتل العباس بن بختى اميرها من بني يعلى الخزري وفتح وهران وتنس ونحوها الى الجزائر وانكف راجعًا ومحا اثر مغراوة من المغرب الاوسط واختطت مدينة تاكرارت وصارت مع تلمسان بلدًا واحدًا

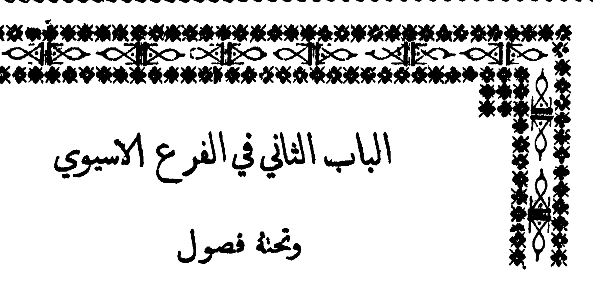
هذا ولكل من الآتين خبر وايام ودول في تلك الاماكن تناوبوها حتى الان مثل امراء اغمات من مغراوة وبني سنجاس وريغه والاغواط وبني وراء كلهم من بني مغراوة من الطبقة الاولى وبني يرينان اخوة مغراوة ووجديجن واوغمرث من قبائل زناتة وبني واركلا من بطون زناتة ودمر من بطونهم وبني برزال من بطون دمر وبني ومانو وبني يلومى من الطبقة الاولى ثم كان لزناتة من الطبقة الثانية وبني منديل من مغراوة من الطبقة الثانية ولبني عبد الواد منهم وليغمراسن بن زيان والامير ابي زكريا وبني مرين والدعوة الحفصية ودولة ابي حمو ونحو ذلك ملكٌ فمن اراد الاطلاع على امرهم فليقرا المطولات من التاريخ

اما الملثمون فانهم من عدة قبائل ينتمون الى حميرا تنقلوا في عهد ابي بكر الى جهة الشام ثم الى مصر ثم الى المغرب مع موسى بن نصير ثم الى طنجة مع طارق بن زياد ثم احبوا الانفراد فاصحروا واستوطنوا البادية فلما كانت (سنة ٤٤٨) توجه رجل منهم الى الحج اسمهُ جوهر من قبيلة جدالة فلما عاد استصحب معهُ فقيهًا من القيروان يقال لهُ عبد الله بن ياسين الكزولي ليعلم تلك القبائل الدين فانهُ لم يكن باقيًا فيهم غير الشهادتين فتوجه عبد الله بن ياسين مع جوهر حتى اتيا لمتونه وهي قبيلة يوسف بن تاشفين اميرا المسلمين ودعوها الى العمل بشرائع الاسلام فاجابتهم , اما الصلاة والصوم والزكاة فقريب ولكن قولكما القاتل يقتل والسارق يقطع والزاني يرجم فهذا لا نقدر عليهِ , وابعدوهما

فمضى جوهر وعبد الله بن ياسين الى جدالة قبيلة جوهر فدعاهم عبد الله والقبائل التي حولهم فاجاب اكثرهم فقال ابن ياسين لمن اجابوا يجب عليكم قتال من ابى فاقيموا لكم اميرًا فاستامروا ابن ياسين فابى فطلبوا الى جوهر ان يكون اميرهم فامتنع فسموا اميرهم ابا بكر بن عمر راس قبيلة لمتونة فقبل فعقد له ابن ياسين البيعة وسماه امير المسلمين ثم دعا اليومن آمن وترابطوا على الجهاد ودعوا المرابطين فاوقعوا في من لم يسلم وقتلوا نحو الفين فدانت لهم القبائل وقويت شوكتهم . ولما استبد ابو بكر بن عمر وياسين بالامر داخل جوهرًا حسد واخذ بالافساد فعقدوا له مجلسًا وحكم عليهِ بالقتل لشقهِ العصا

ثم جرى بين المرابطين واهل السوس قتال فقتل عبد الله ثم صار المرابطون الى سجلماسة واستولوا عليها وقتلوا صاحبها واقام ابو بكر عليها يوسف بن تاشفين من اولاد عمهِ عاملاً (سنة ٤٥٣) ثم استخلف ابو بكر عليها ابن اخيهِ وارسل يوسف ومعهُ جيش من المرابطين الى السوس ففتحها وكان يوسف دينًا مجربًا داهية ثم توفي ابو بكر (سنة ٤٦٣) واجتمع المرابطون على يوسف وملكوه عليهم ودعوه امير المسلمين ثم سار يوسف الى المغرب وفتحها حصنًا حصنًا من ايدي الزناتية واقام في قاع صفصف مراكش واتخذها مقر المملكة وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة وطنجة وسلا وغيرها وقيل للمرابطين الملثمون ايضًا قيل لانهم كانوا يتلثمون على عادة العرب وقيل لانهم لما غارت لمتونة عدوًّا لهم البسوا نساءهم لبس الرجال ولثموهن فقصد بعض الاعدا بيوتهم فوجدوا النساء ملثمات فظنوهن رجالاً فلم يقدموا عليهن ثم اتفق رجوع الرجال فاوقعوا بالعدو فتبركوا باللثام وجعلوا ذلك سنة من بعده

والان اذ قد تعرَّفنا بالفرع الافريقيّ من العرب وكيفية امتدادهم من لدن الفتح وتملكهم تلك البلاد مدة الى ان رجع الملك الى اهلها المسلمين منهم فلنرجع الى الفرع الاسيوي



الباب الثاني في الفرع الاسيوي

وتحته فصول

فصل
في العربية

قد اسلفنا الشرح بما يفي بالمقصود عن الفرع الافريقي والآن اردنا ان نستتبع الفرع الاسيوي مبتدئين من العربية . ولما كانت هذه مهد الاسلامية لاق بنا اولاً ان نعرّف القارئ بها قليلاً فنقول

العربية بحسب موقعها وطبيعتها اجدر بان تعد من افريقية ولولا البحر الاحمر لكانت بقعة رمال مقفرة من الاتلانتيك الى خليج العجم . فهي قسم من اسيا الكبرى سطحها يعادل سطح فرنسا اربع مرار تقريبًا وتتصل باطراف قارة اسيا الى الجنوب الغربي بسلٍ او برزخ من رمل مقفر ومكانها ما بين درجة ٣٥ – ½ ١٢ عرضًا شماليًا ودرجة ٥٩ – ½ ٣٢ طولاً شرقيًا وعرضها من طرف خليج العقبة شمالاً الى فم شط العرب نحو ثمان مئة ميل واعظم عرضها نحو الف ومئة ميل ومعظم طولها نحو الف واربع مئة او عبارة عن مليون ميل مربع وعدد سكانها نحو عشرة ملايين .

وبعض العربية في الناحية القطبية والبعض في شماليها وتقسمها منطقة السرطان الى قسمين متساويين تقريبًا تحدها سوريا والفرات الى الشمال وخليج العجم الى الشرق . وبحر الهند المدعو بحر العرب وبحر عمان يحف بجميع سواحلها الى الجنوب الشرقي ومضيق باب المندب والبحر الاحمر على ثغورها الغربية وراس الحد اقصى امتدادها شرقًا وراس مصندم (مكيته) يمتد في جهة الشمال الشرقي الى مضيق كرموز وراس عدن قرب الجنوب الغربي يرى عن بعد خمسة عشر الى عشرين فرسخًا من البحر كصخر مستعرض اشم وباب المندب هو الممر المخطر من بحر الهند الى البحر الاحمر والنقطة الكائنة الى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة وراس محمد هو مطل جبل سينا ما بين السويس وعقبة فرعي البحر الاحمر الشماليين .

وقد اختلف في اشتقاق اسمها والارجح انها من اصل سرياني وتعنى غربية فكان الكلدان يدعونها غربية لكونها على غربهم واهل الشام شرقية لكونها على شرقهم حتى ان الاغريق حكام سوريا كانوا يعرفون العرب بشرقيين واستعمل عنهم ذلك الافرنج ايضًا

والعربية تطلق بالحصر على ما امتد من البرزخ المذكور الى شط العرب وبالتوسيع على ذلك وعلى بقعة واسعة الى شمال البرزخ تنتهي الى الفرات شرقًا والى طرف الجنوب الشرقي من البحر

المتوسط غرباً . وقد مد بعض القدماء هذه الحدود حتى ان بليناس يضم اليها بعض ما بين النهرين الى حدود ارمينية وزينفون في خبر تقدم . الملك قورش الاصغر يعتبر البقعة الرملية على يسار الفرات وجنوب نهر خابور المنصب اليه من جملة العربية ولعل في صفات البلاد المادية التي يذكرها ما جعله يدعوها كذلك قال « بعد ان قطع قورش نهر خابور تقدم نحو العربية والفرات عن يمينه مسافة خمسة ايام في قفر مساحته خمسة وثلاثون بريدًا (مئة واربعون الى مئة وخمسين ميلاً) قال « وكلها سهول كسطح البحر يكثر فيها الافسنتين وكلما ينبت فيها عطري وهي عارية عن الشجر وفيها من الحيوان انواع عديدة لاسيما من حمر الوحش والنعام والغزلان ودجاج الارض »

وكل الجزيرة مولفة من نجد ينخفض نحو الجنوب الى جهة قفر سورية يحيط بها نطاق رملي مسطح ويبتدي التسطح من السويس ممتدًا على مدارها الى شط العرب ويسمى الغور او تهامة ويظهر ان اراضي تهامة كانت مرة تحت الماء لما يرى من انخفاضها وافتراشات الملح والاصداف البحرية المنبثة فيها والبحر على الساحل الغربي دائمًا في ارتجاع فان جزائر الصدف والمرجان الكثيرة في الخليج العربي ترتفع في بعض الاماكن نحو عشر قامات على الماء وهي ابدًا في ازدياد فتهامة كل يوم في اتساع قال اريانوس (موق) كانت مينا العربية السعيدة اما الان فهي اميال عديدة عن البحر وقال لورد والنشه ان مرسى جدة كائن من اكوام عديدة مرجانية يمتد نحو اربعة اميال من الساحل تتخلله عدة جداول من عمق ست الى اثنتي عشرة قامة والبحر دائمًا في سكون » وهذه الاكوام المرجانية هي اقل في الجهة الجنوبية من الخليج

والعربية تقسمت على انواع في جملة ازمنة فاسترابوس يقسمها الى عربية سعيدة وعربية مقفرة فالسعيدة هي القسم الجنوبي والمقفرة الشمالي منها وقسمها بطليموس الى سعيدة وحجرية وقفرية فالاولى ما كان منها الجهة البرزخ المذكور . والحجرية (وربما اخذت اسمها من مدينة نابات المدعوة الحجر) يراد بها ما بين البحر الاحمر والميت محاذة فلسطين ومصر . والقفرية تشتمل على كل قفر سورية الى الفرات حيث تدمر الان

وبعض مورخي حروب الصليب من الفرنج يسمون ما حول البصرة العربية الاولى وما كان على شرقي الاردن الثانية والبلاد التي حول الشوبك العربية الثالثة

والكتاب الشرقيون يقسمونها الى خمس عمالات غالبًا . اليمن . والحجاز . وتهامة . ونجد . ويمامة . وبعضهم يجعل البحرين قسمًا مستقلاً ومنهم من يحسبه من العراق العربي وان تهامة ونجدًا واليمامة من الحجاز ومنهم من جعل العربية الصخرية الشاملة طورسينا قسمين الواحد تابع مصر والاخر سورية الى غير ذلك

والعربية قائمة في الاقليم الاول والثاني قال ابن خلدون في مقدمتهِ « وفي الجزء السادس من هذا الاقليم (الاقليم الاول) فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر . وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما نذكرهُ في الاقليم الثاني وما بعده . فاما الذي على ساحل هذا البحر من غربيهِ فبلد زالع (زيلع) من اطراف بلاد الحبشة ومجالات البجه (البجاة) شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقى في اعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي ممتدًّا مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلاً فيضيق البحر بسبب ذلك الى ان يصير في عرض ثلاثة اميال اونحوها ويسمى باب المندب وعليهِ تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبًا من مصر . وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبالتهُ من غربيهِ مجالات البجه من امم السودان قال ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن على ساحلهِ بلد علي بن يعقوب . وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيهِ قرى بربر يتلو بعضها بعضًا وينعطف مع جنوبيهِ الى اخر الجزء السادس ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحلهِ الجنوبي في اخر الجزء السابع من هذا الاقليم وفي شرقي بلاد سفالة من ساحلهِ الجنوبي بلاد الواق واق متصلة الى اخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط قال وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليها صنعاء وبعدها الى المشرق ارض الاحقاف وظفار . وبعدها ارض حضرموت . ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من اجزاء هذا الاقليم الوسطى » . وقال في شرح الاقليم الثاني ان في عدوة بحر السويس من الجزء الخامس من هذا الاقليم « ارض الحجاز من جبل يلملم الى بلاد يثرب وفي وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة وتقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر . وفي الجزء السادس من غربيهِ بلاد نجد اعلاها في الجنوب وتبالة وجوش الى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية ارض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها ارض اليمامة . وعلى سمت نجران في الشرق ارض سبا ومارب ثم ارض الشحر وينتهي الى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال قال ويذهب بانحراف الى الغرب

فيهر ما بين شرقيهِ وجوفيهِ قطعة مثلثة عليها من اعلاه مدينة قلهات وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحلهِ بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في اخر الجزء »

ومنهم من جعل العربية تسعة اقسام اولاً اليمن وهي العربية السعيدة قال ابن سعيد وغيرهُ ان اليمن كانت قديمًا للتبابعة وهي اخصب من الحجاز واكثر اهلها من بني قحطان وفيها من عرب وائل واشهر بها سبعة كراسي ملك وتنقسم الى تهامة والجبال ويراد بتهامة ما انخفض من البلاد مع ساحل البحر من البرّين من جهة الحجاز الى اخر اعمال عدن دورة البحر الهندي و بالجبال ما سوى ذلك وفي اليمن ولاية اليمن ومنها الجبال حيث يقيم امام اليمن وتقع على البحر الاحمر وهي اول مرسى الان في العربية وزبيد و بيت الفقيه وحديدة ولاحيه في السهل على ساحل الخليج العربي · ثم (ولاية) عدن وهي عدن ومرساها الكائنة في لحف جبال عالية تحيط بها من كل جانب تاركة ممرًّا واحدًا يدخل بهِ الى المدينة برًّا · وعدن كانت في الجيل الثاني عشر الى الرابع عشر محطة مهمة للتجارة بين اوربا والهند · واما الان فقد انتقل ذلك الى مخط ثم (امارة الكوكبين) ثم (بلاد القبائل) في الجبال الى شمال اليمن وهي متسعة ثم (ابو عريش) الى البحر الاحمر ثم (خولان) الى جنوب شرقي صنعاء وفي طريق صنعاء الى مكة · ثم (صاحان) ولاية كبيرة في الجبال ما بين بلاد القبائل والحجاز واكثر سكانها اعراب مستبدة · ثم (نجران) وهي بلاد مخصبة لطيفة كثيرة المياه جميلة المراعي شهيرة الجمال جيدة الخيل العتاق · ثم (الجوف) وتمتد الى مسافة بعيدة على نجد العربية الى شرقي بلاد القبائل وفيها مارب القديمة عاصمة الصابئين · ثم (يافه) ما بين جوف وحضرموت واليمن

ومن اليمن عنر · وحلي · والسرجة · وهي من اعمال زبيد وتعرف قديمًا باعمال ابن طرف ومنها الزرياب · من اعمال زبيد الشمالية وكانت لابن طرف ايضًا · ومنها السرير · اخر اعمال تهامة على البحر · ومنها عدن ابين · الى جهة الشحر · والزعزاع بأودية ابن ايوب · والجوة من بناء ملوك الزريع · وحصن ذي جبلة · والتعكر · وخدد · ومصدود كلها من حصون مخلاف جعفر · وقلعة كحلان من اعمال صنعا · وحصن الصمدان · وقلعة منهاب · وجبل الدبجرة · وعدن لاعة بجانبها · وبيحان في المخاليف الجبلية · وتعمر · من اعظم معاقل الجبال المطلة على تهامة · ومعقل اشيح · من اعظم حصون الجبال وفيهِ كانت خزائن ملوك الصليحيين · ومنها مخلاف بني اصبح بوادي سحول واصبح من حمير · ومخلاف يحصب بجوارهِ · ومخلاف بني وائل ومدينة شاحط · وبلاد بني هند في اجواف السروات بين تهامة والجبال

والثاني · حضرموت وهي بلاد اشتهرت يومًا بتجارتها ولاسيما باللبان يحدها من الجنوب الشرقي البحر المحيط الهندي ومن الشمال الشرقي عمان ومن الشمال بلاد نجد ومن الغرب اليمن وتجارتها بينها

وبين عمان واليمن بحرًا ودفر وكشين من اعظم مراسيها ومنها جزيرة سقوطره المشهورة بالصبر السقوطري ويقطن بعض اماكن حضرموت اعراب مستقلون منهم بنو شيبان وهم اعظمهم

الثالث عمان وتمتد على ساحل بحر فارس والبحر الهندي حدودها من الغرب والجنوب القفر العالي العظيم القاطع جزيرة العرب كلها وفي في بعض اماكنها مخصبة وميناها مسقاط ومركز امامها رسطاق

الرابع . الامارات المستقلة في جزر بحر فارس وحدوده فان اغلب الثغور البحرية في بحر فارس وبعض الساحل في يد قبائل عربية يعيشون من الملاحة والصيد والغوص على اللؤلؤ وعندهم التمر والذره كل قرية لها شيخها وهم دائمًا في خلاف بينهم ويستخدمون زوارقهم للحرب الاهلية اذ لا تصلح لغيرها فاذا دهمتهم قوة غريبة رحلوا بقواربهم الى الجزر القريبة الى ان يترك العدو اماكنهم الاولى واشهر هذه الاماكن هي كونبرون او (بندر عباس) وابو شهر او (يشير) في الساحل العجمي . وجزيرة (خارج) في الجانب الشمالي من البحر مقابلة ابو شهر من المواضع المهمة التجارية في الشرق وقد اشتهرت جزيرة هرمس الصغيرة في مضيق مدخل البحر الهندي الى الخليج في عهد البورتكيز . وفي مسافة ليست ببعيدة عن هرمس جزيرة قشم التي يدعوها الفرنج نومط والعرب والفرس طويلاً ودراز . ومايدعونه البحرين من الجزيرة او الجزر بقرب ساحل غربي بحر فارس شهيرة بغوص اللؤلؤ ويقال انها كانت عامرة جدًا وفيها ما ينوف عن ثلاثماية وخمسين قرية واكبر جزيرة فيها تدعى (اوّل) ومرساها القديم يسمى غرة ويقال انها كانت قديمًا على الجانب الثاني المقابل للعربية

الخامس . بلاد هجر على ساحل الخليج العجمي الى الغرب ومنهم من يدعو الساحل الممتد منها في اوله البحرين وحدها من الجنوب عمان ومن الغرب الاراضي العلياء ومن الشمال بلاد عرب كعب قرب شط العرب واكثر اراضي داخليتها مساكن الاعراب اما سكان السواحل فيعيشون على غوص اللؤلؤ وتربية النخل . فهجر عاصمة البلاد ومقام الشيخ ومرساها قطيف مقابلة البحرين بقرب غرة المذكورة

السادس . بلاد نجد وهي اكثر البلاد الجبلية من اليمن الى حضرموت جنوبًا والى قفر سوريا شمالاً ومن الحجاز غربًا الى هجر والعراق العربي شرقًا ويسكنها قبائل البدو التائهة المتنقلة وفيها بعض قرى صغيرة على سفوح جبالها وفي الاودية واكثر هذه البلاد قفار يابسة شديدة الحر طاهرة الهواء لا انهر فيها ولا اودية الا ما ندر ويكثر النخل في اراضيها العالية والان يقيم بها الوهابية وهم شيعة دينية ظهرت اخيرًا اتباع عبد الوهاب من نجد قطن البصرة اولاً ثم افتقد بغداد والعجم وعاد الى وطنه وبث مباديه وتبعه خلق عديد فقوى وامتد حتى كاد يزعزع الملة الاسلامية واكثر روساء العرب المستقلين من مذهبه وملخص تعليمه الاخلاص لله وحده ونفي حقوق الانبياء بقوله ان محمدًا وسائر

موسى وعيسى وغيرهم لم يكونوا انبياء ملهمين بل رجالاً منورين اتقياء فهم اشبه ببروتستان النصارى وعاصمة نجد تسمى (داريه) وفيها نحو الفين وخمسمائة بيت قائمة في مكان حسن المنظر في حدود وادي حنيفة وهو وادٍ يمتد من الغرب الى الشرق على طول مئات اميال عرضة نحو ميل ونصف ياتيها زمان الشتاء المياه من الجبال فتحفظ في الآبار الى زمان الصيف. وفي دارية نحو ثلاثين جامعاً لا مواذن لها ونحو ثلاثين مكتباً ولها بساتين يكثر فيها النخل والرمان والمشمش والعنب والبطيخ ونحوها

السابع . الحجاز على شرقي نجد وحدودها من الشمال قفر سورية وخليج عقبة. ومن الغرب البحر الاحمر. ومن الجنوب اليمن وهي البلاد المطهرة عند المسلمين وفيها مكة والمدينة الاولى مكان ولادة النبي . والثانية مكان هجرته ودفنه واليها يحج المسلمون من كل العالم. واشهر مدن الحجاز بعد مكة والمدينة جدة وهي ميناها والطائف وهي بلدة على مرتفع جميل ذات فاكهة شهية

الثامن . قفر جبل سينا ويشتمل على العربية الصخرية حسب القدماء وهي ما كانت مرة مكان المملكة النباتية والان اكثرها خراب وبها بلدان قليلة اكثرها في ايدي قبائل العرب التائهة وطورسينا هو اخر ارتفاع مهم فكانه بعض جزيرة خارجة في البحر الاحمر الى شرقه خليج عقبة والسويس المسمى خليج القلزم. فعند نهاية الخليج الشرقي على غرب طورسينا مدينة آيله القديمة المدعوة الان عقبة. وعند نهاية الخليج الغربي شمالاً السويس احد موانئ البحر الاحمر. وفي جانب الخليج الشرقي من السويس فرضة ثانية تسمى طورا اليها تاتي المراكب للاستسقاء وفي وسط الجبل على قمة جبل موسى دير القديسة كاترين تحيط به قمم جبال شامخة اعلاها يسمى جبل الظهور. والدير المذكور بنته حسب التقليد الملكة هيلانة في الجيل الرابع وتكثر في جبل موسى الينابيع الحلوة وتمتاز الاودية المجاورة بالعنب والكمثرى والنخيل ونحوها وكثيرٌ من تلك الفاكهة ما يوتي به الى القاهرة وعلى شمال جبل موسى وادي فيران المتصل بوادي الشيخ ووادي جرندل وكلاهما ينعطفان الى خليج السويس ويطوف بهما الماء زمن الشتاء فترحل عنهما السكان الى الجبال

والى شمالي جبل سينا ارض قفراء يسميها العرب التيه او تيه بني اسرائيل مسافة نحو اربعين فرسخاً طولاً عن عرض يقرب من ذلك . وهي ارض معظمها صخرية صلبة او رملية ذات آبار ماءها لا يصلح لشي

وعلى شمال خليج العقبة نواحي جبل شيرا نحو سبع ساعات من الشوبك يبتدئ وادي موسى وفيه عين موسى الشهيرة . وفي هذا الوادي تحت قرية الحجر اكتشف بورخارد خرابات مدينة جليلة يزعم انها الحجر حاضرة نابات القديمة . قال اسطرابون المورخ « ان عاصمة نابات بلدة

تدعى الحجر قائمة في مكان مسطح لين التربة محاطة بنطاق صخري وحواليها مهاويٍ صخور مخطرة ومن داخلها ينابيع غزيرة تسقي منها الحقول والجنائن » وقال بلمناس « الحجر قائمة في وادٍ اقل من الفي خطوة عرضاً مقفول بجبال لا ممر بها وفيها جدول ماء جارٍ

التاسع · بلاد القبائل التائهة من العرب سكان القفار وهم العرب الحقيقيون الذين يفضلون حريتهم على الغنى ونعيم العيشة الحضرية يقطنون في الخيام عشائر عشائر يتحاكمون فيما بينهم على ما كانوا عليه قديماً · يدعون اشرافهم مشائخ فالشيخ يتولى على قبيلة وتوابعها فاذا كانت قبيلة لا تحسن حماية ذاتها اتحدت بغيرها · وقد تتحد عدة قبائل بمشائخها ويقيمون لهم شيخاً عاماً يدعى شيخ الشيوخ او الشيخ الاكبر وكل منهم حربي وراعٍ · ولهولاء المشائخ عددٌ وافر من الجمال ونحوها للخدمة في الغارات والتجارات ونقل الاموال وافقر هولاء العرب يرعون الغنم · اما الزراعة واعمال اليد فيتعاطاها صعاليكهم لا غير ولعرب البادية حاسة غريبة في الشم وصبر عجيب على العطش · والرئاسة عند العرب تتوارث بحسب الارشد عقلاً لا عمراً فهي على نوع ما ارثية انتخابية. وللمشائخ رواتب قليلة وهم الحكام والقواد فاذا اختلف شيخ قبيلة مع الشيخ الاكبر ولم يتفقوا على عزل احدهما اعتزل الشيخ الاصغر بقبيلته وانحاز الى غير قبيلة فيقبلونه بفرح

وكثير من القبائل التي اشتهرت قديماً بالقوة قد انقرضت وانتست وقام غيرها الان ممن لم يكن لهم ذكر قبلاً · وهولاء العرب لم يخضعوا لفاتح غريب الا ما قل منهم ممن يسكنون اطراف البلاد الكبيرة كبغداد والموصل وادرنه وحلب والشام فقد يغصبون علي دفع راتب لتلك الحكومات

وكل قبائل العرب دابها الايقاع في بعضها بعض لكن مواقعهم لا تطول ولا يهراق فيها دم غزير فاذا غزا عدو احدى هذه القبائل تجمعت القبائل القريبة على الغريب · وكل شيخ سلطان في ارضه ياخذ الخفر من المسافرين فيها حتى ان السلاطين العثمانيين طالما تعهدوا بدفع خفارة معلومة وخلع معدودة الى الاسباط التي في طريق مكة حفظاً للآبار الموجودة لشرب الحاج ولوازمه وكثيراً ما قام خلاف بين هولاء المشائخ وروساء القوافل والركب تصلفاً وكانت العاقبة وخيمة على الحاج · ويصرف هولاء المشائخ اغلب اوقاتهم في ظهور الخيل والهجن لتنفذ ماموريهم واصحابهم للصيد · واكثرهم لصوص كرام فانهم ينهبون المسافرين ونحوهم فلا يفتكون بهم بل يكرمونهم ويحسنون ماواهم وضيافتهم ثم يخفرونهم في طريقهم الى حدودهم · وخيام البداوي من شعر تحيكه نساوهم تقوم على سبعة او تسعة اوتار منتصبة عمودياً على الارض اعظمها في الوسط وتختلف بحسب مقدرة اصحابها فمن لا يقدر منهم على ذلك جعل له قطعة من شعر على شجرة او صخر او مغر لتقيه من الحر والمطر · واثاث العرب حصير لاكلهم ونومهم وجلوسهم · ولباسهم عباة وعطة من كتان او نحاس مظلية

بالتصدير لطبخهم وقصاع من الخشب لطعامهم . هذا كلما تجده في اماكنهم فالملاعق والسكاكين والشوك والموائد لا تدخل مضاربهم. سفرهم جلود الغنم واوعية سمنهم ظروف من الجلد وماؤهم في قرب من جلد الماعز وكووسهم خزف او نحاس مبيض بالقصدير . يحضرون دقيقهم على طواحين صغيرة فطواحين الماء والهواء مجهولة لديهم . خبزهم ملة تشوى على الرماد او على صاجات الحديد فلا وجود هنالك للافران ونحوها من مستجدات المعيشة الحضرية

اما شيوخ العرب فيكثرون استعمال الارز في اطعمتهم الخاصة وولائمهم يجعلونه في قصاع كبيرة من الخشب توضع في الوسط الى ان تفرغ و يشبع الاكلون فوجًا بعد فوج

والخلاصة تصور لك بلادًا اكثرها قفار يقطنها قوم اغلبهم فقرا قد انتظمت قبائل متفرقة متنقلة علائقها البداوة والعيشة الرعيانية وخصائصها الاستبداد والفراسة والرصانة يسوسها رجال شعارهم الحرية وفخرهم ولذتهم الضرب في الارض غزوًا وفسادًا فترتسم امامك حقيقة هذه العربية التي اخرجت من حواضرها و بواديها امة غريبة قد غمرت ماضيها وحاضرها ومستقبلها بفخر الفتوحات المجيدة في اعظم المعمورة . ولما انكمشت راجعة الى قفارها تركت دينها واثارها العجيبة شهودًا قوية على ما تمنة في طراغذية هذا الوجود . فسبحان من يستخدم اضعف خلقه لاظهار اكمل رسائله ومعجزاته

فصل

في نسب الطالبيين وتشعبهم في المشرق

اعلم ان نسب الطالبيين الراجع اليه اهل الدعوات قائم في الحسن والحسين ابني علي بن ابي طالب من فاطمة وهما سبطا الرسول والى اخيهما محمد بن الحنفية نعم انه كان لعلي غيرهم من الولد الا ان الذين طلبوا الحق في الخلافة وتعصبت لهم الشيعة ودعوا لهم في الجهات انما هم الثلاثة المذكورون لا غير . فاما الحسن بن ولده الحسن المثنى وزيد ومنهما العقب المشهود له في الدعوة والامامة . فمنهم الملوك الادارسة بالمغرب الاقصى ومن عقبهم بنو حمود ملوك الاندلس الدائلون بها من ملوك بني امية اخر دولتهم . ومنهم بنو حمود بن احمد بن علي بن عبيد الله بن ادريس . ومنهم بنو سليمان . ومن عقبهم ملوك اليمامة بنو محمد الاخيضر . ومنهم بنو صالح بن موسى ملوك غانة من بلاد السودان ومنهم الهواشم امراء مكة . ومن اعقابهم بنو قتادة امراء مكة بعد الهواشم . ومنهم بنو نمي امراء مكة بعدهم . ومنهم السليمانيون امراء مكة قبل الهواشم ثم امراء اليمن فقامت الزيدية بدعوتهم . ومنهم حسين بن علي الخارج على الهادي . ومنهم ابن طباطبا ابو الائمة بصعدة . ومنهم بنو سليمان بن داود القائم بالمدينة ايام المامون . ومنهم الحسن بن زيد قائم طبرستان . ومنهم الداعي الصغير بالري

وطبرستان وهو الحسن بن القاسم وقتل (سنة ٣١٩) . ومنهم القاسم بن علي احد قواد الحسن بن زيد

اما الحسن القتيل بالطعن ايام يزيد بن معاوية فمن ولده علي بن زين العابدين بن زيد الشهيد ومحمد الباقر وعبد الله الارقط وعمر والحسن الاعرج . ومن هذا السبط جاء حسين الكوكبي بن احمد من قواد الحسن الاطروش ايام المعتصم . ومنهم الاطروش الحسن بن علي الذي اسلم الديلم عن يده وقتل (سنة ٣٠٤) ومنه جاءت دولة الديلم وظهرت دولة بني بويه من قوادها . ومنهم جعفر بن عبيد الله الاعرج الذي من عقبه الملقب بمسلم ايام كافور . ومنه امراء المدينة من بني مهنى بن مهنى بن داود . وصاحب الزنج كان ينتمي الى هذا الفرع . ومنهم عمر بن يحيى القائم بالكوفة ايام المستعين واليه ينسب العمريون الذين استولوا على الكوفة ايام الديلم . ومنهم جعفر الصادق واسمعيل الامام وموسى الكاظم وعلى الاخيرين مدار اختلاف الشيعة

وكان الكاظم على زي الاعراب مائلاً الى السواد وكان الرشيد يوثره ويرد السعاية فيه ثم حبسه . ومن عقبه بقية الايمة الاثني عشر عند الامامية من لدن علي بن ابي طالب الوصي وتوفي (سنة ٣٥) ثم ابنه الحسن وتوفي (سنة ٤٥) ثم الحسين وقتل (سنة ٦١) ثم ابنه زين العابدين وتوفي (سنة ٩٤) ثم ابنه محمد الباقر ومات (سنة ١١٨) ثم ابنه جعفر الصادق توفي (سنة ١٤٨) ثم ابنه موسى الكاظم ومات (سنة ١٨٣) وهو سابع الايمة عندهم . ثم ابنه علي الرضا ومات (سنة ٢٠٣) ثم ابنه محمد المتقي ومات (سنة ٢٢٠) ثم ابنه علي الهادي ومات (سنة ٢٥٤) ثم ابنه حسن العسكري ومات (سنة ٢٦٠) ثم ابنه محمد المهدي وهو الثاني عشر وعندهم انه حي منتظر

ومن عقب موسى الكاظم ابرهيم المرتضى المعروف بالجزار . ومنهم زيد النار . ومن عقب اسمعيل الامام العبيديون خلائف القيروان ومصر على خلاف وغير ذلك

اما محمد بن الحنفية فكان من ولده عبد الله بن عباس واخوه علي بن محمد وابنه الحسن بن علي بن محمد وكل ادعت الشيعة امامته

وخرج من ولد علي من غير هولاء في اليمن زمان المامون عبد الرحمن بن احمد من ولد محمد بن علي وظهر عبد الله بن معاوية من ولد جعفر بن علي وبويع بالكوفة واراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة اليه فمنع ذلك ابو مسلم وكان له شيعة وساقوا الخلافة اليه من ابي هاشم بن محمد بن الحنفية

ولما تقاعدت شيعة علي عن نصيرة ابنه الحسين فكان ما كان من قتله ندموا ودعوا انفسهم التوابين وولوا عليهم وقتئذ سليمان بن صرد فادركتهم عساكر الشام مع ابن زياد فاستلحموهم ثم خرج المختار بن ابي عبيد بالكوفة طالباً بدم الحسين وداعياً لمحمد بن الحنفية وشيعة جماعات من

الشيعة فدعاهم شرطة الله وزحف اليه عبد الله بن زياد فقتله المختار ثم بلغ محمد بن الحنفية من اخبار المختار ما نقمه عليه وكتب اليه بالبراءة منه فترك المختار الدعوة لمحمد ودعا لعبد الله بن الزبير

ثم استدعى الشيعة زيد بن علي بن الحسين الى الكوفة ايام هشام بن عبد الملك فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر وصلبه وخرج اليه ابنه يحيى بالجوزجان من خراسان فجرى له نفس الامر

ثم اختلفت الشيعة وافترقوا في الامامة . فمنهم الامامية ويقولون بان النبي اوصى الى علي بالامامة ويدعونه الوصي ويتبراون من الشيخين لما منعا حقه وهولاء خاصموا زيدًا بالكوفة على اختلافه عنهم في ذلك ومن لم يتبرا من الشيخين رفضوه فدعوا رافضة

ومنهم الزيدية ويقولون بامامة بني فاطمة لفضل علي وبنيه على سائر الصحابة . وعندهم امامة الشيخين مقبولة وان كان علي افضل وهذا مذهب زيد واتباعه وهم جمهور الشيعة واوسطهم واعدلهم .

ومنهم الكيسانية نسبة الى كيسان ويقولون بامامة محمد بن الحنفية وبنيه من بعد الحسن والحسين . ومن هولاء شيعة العباس ويقولون بوصية ابي هاشم بن محمد بن الحنفية الى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بالامامة . وهذه المذاهب فيهم تفرقت الى طوائف شتى بحسب اختلافهم وكان الكيسانية اكثرهم بالعراق وخراسان

فلما اختل امر بني امية اجمع اهل البيت بالمدينة وبايعوا بالخلافة سرًا لمحمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن حسن بن علي وحضر هذا العقد ابو جعفر المنصور بن محمد من بني العباس وكان من جملة المبايعين

ولما انقرضت دولة بني امية وصار الامر لابي جعفر المنصور من بني العباس سعي عنده ببني الحسن فحبسهم المنصور وحبس اخوة الحسن ابرهيم وجعفرًا وعليًا القائم وابنه موسى بن عبد الله وسليمان وعبدالله ابن اخيه داود ومحمدًا واسمعيل واسحق بني عمه ابرهيم بن الحسن في خمسة واربعين من اكابرهم بقصر ابن ابي هبيرة بالكوفة الى ان هلكوا. فخرج محمد بن عبد الله المذكور بالمدينة (سنة ١٤٥) وبعث اخاه ابرهيم الى البصرة فغلب عليها وعلى الاهواز وفارس وبعث الحسن بن معاوية الى مكة فملكها وبعث عاملاً الى اليمن ودعا لنفسه وخطب على منبر النبي ولقب بالمهدي والنفس الزكية وحبس رباح بن عثمان المري عامل المدينة وبلغ الخبر المنصور فاشفق من امره وكتب له كتابه المشهور وهو بعد البسملة

من عبد الله امير المومنين الى محمد بن عبد الله

اما بعد فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادًا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرة

عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم وان لك ذمة الله وعهده وميثاقه ان تبت قبل ان نقدر عليك ان نومنك على نفسك وولدك واخوتك ومن تابعك وجميع شيعتك وان اعطيك الف الف درهم وانزلك من البلاد حيث شئت واقضي لك ما شئت من الحاجات وان اطلق من سجن من اهل بيتك وشيعتك وانصارك ثم لا اتبع احدًا منكم بمكروه وان شئت ان تتوثق لنفسك فوجه الى من ياخذ لك من الميثاق والعهد والامان ما احببت والسلام » فاجابه محمد بعد البسملة

من عبد الله محمد المهدي اميرالمومنين الى ابن عبد الله محمد

اما بعد طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يومنون ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم ويذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وانا اعرض عليك من الامان مثل الذي اعطيتني فقد تعلم ان الحق حقنا وانكم انما اعطيتموهُ بنا ونهضتم به بسيفنا وحزتموهُ بفضلنا وان ابانا عليًا عليه السلام كان الوصي والامام فكيف ورثتموهُ دوننا ونحن احياء وقد علمتم انه ليس احد من بني هاشم يشد بمثل فضلنا ولا يفتخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ونسيبنا وانا بنو بنته فاطمة في الاسلام من بينكم فانا اوسط بني هاشم نسبًا وخيرهم امًا وابًا لم تلدني العجم ولم تعرف فيَّ امهات الاولاد وان الله عزَّ وجل لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين افضلهم محمد صلعم ومن اصحابه اقدمهم اسلامًا واوسعهم علمًا واكثرهم جهادًا علي بن ابي طالب ومن نسائه افضلهنَّ خديجة بنت خويلد اول من امن بالله وصلى الى القبلة ومن بناته افضلهنَّ وسيدة نساء اهل الجنة ومن المتولدين في الاسلام سيدا شباب اهل الجنة ثم قد علمت ان هاشمًا ولد عليًا مرتين من قبل جدي الحسن والحسين فما زال الله يختار لي في معنى النار فولدني ارفع الناس درجة في الجنة واهون اهل النار عذابًا يوم القيامة فانا ابن خير الاخيار وابن خير الاشرار وابن خير اهل الجنة وابن خير اهل النار ولك عهد الله ان دخلت في بيعتي ان اومنك على نفسك وولدك وكل ما احببته الا حدًا من حدود الله او حقًا لمسلم او معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك فانا اوفى بالعهد منك واحرى بقبول الامان منك فاما امانك الذي عرضت علي فاي الامانات هو أأمان ابي هبيرة ام امان عمك عبد الله بن علي ام امان ابي مسلم والسلام

فاجابه المنصور بعد البسملة

من عبدالله اميرالمومنين الى محمد بن عبدالله — فقد اتاني كتابك وبلغني كلامك . فاذا

جل فخرك بالنساء لتضل به الحفاة والغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الاباء كالعصبة والاوليا وقد جعل الله العم ابًا وبدأ به على الولد فقال جل ثناؤهُ عن نبيه عليه السلام واتبعت ملة ابائي ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب . ولقد علمت ان الله تبارك وتعالى بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم عمومته اربعة فاجابة اثنان احدهما ابي وكفر به اثنان احدهما ابوك . واما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو اعطى على قرب الانساب وحق الاحساب لكان الخير كلهُ لآمنة بنت وهب ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . واما ما ذكرت من فاطمة ام ابي طالب فان الله لم يهدِ احدًا من ولدها الى الاسلام ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب اولاهم بكل خير في الاخرة والاولى واسعدهم بدخول الجنة غدًا . ولكن الله ابى ذلك فقال انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء . واما ما ذكرت من فاطمة بنت اسد ام علي بن ابي طالب وفاطمة ام الحسين وان هاشمًا ولد عليًا مرتين وان عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الاولين رسول الله صلعم ولم يلدهُ هاشم الا مرة واحدة ولم يلدهُ عبد المطلب الا مرة واحدة . واما ما ذكرت من انك ابن رسول الله صلعم فان الله عز وجل قد ابى ذلك فقال ما كان محمد ابا احدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ولكن قرابة ابنته وانها لقرابة قريبة غير انها امراة لا تحوز الميراث ولا يجوز ان تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها — ولقد طلب بها ابوك من كل وجه واخرجها تخاصم ومرضها سرًا ودفنها ليلاً وابى الناس الا الشيخين ولقد حضر ابوك وفاة رسول الله صلعم فامر بالصلوة غيرهُ . ثم اخذ الناس رجلاً رجلاً فلم ياخذوا اباك فيهم . ثم كان في اصحاب الشوري فكل دفعهُ عنها وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب اباك طلحة والزبير . ودعا سعدًا الى بيعته فاغلق بابه دونهُ . ثم بايع معاوية بعده وافضى امر جدك الى ابيك الحسن فسلمهُ الى معاوية بخزف ودراهم واسلم في يديه شيعتهُ وخرج الى المدينة فدفع الامر الى غير اهله واخذ مالاً غير حله فان كان لكم فيها شي فقد بعتموهُ . فاما قولك ان الله اختار لك في الكفر فجعل اباك اهون اهل النار عذابًا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغي لمسلم يومن بالله واليوم الاخر ان يفتخر بالنار — سترد فتعلم — وسيعلم الظالمون اي منقلب ينقلبون . واما قولك لم تلدك العجم ولم تعرف فيك امهات الاولاد وانك اوسط بني هشام نسبًا وخيرهم امًا وابًا فقد رايتك فخرت على بني هشام طرًا وقدمت نفسك على من هو خير منك اولاً واخرًا واصلاً وفصلاً — فخرت على ابراهيم بن رسول الله صلعم وعلى والد والده فانظر ويحك اين تكون من الله غدًا وما ولد قبلكم مولود بعد وفاة رسول الله صلعم افضل من علي بن الحسين وهو لام ولد ولقد كان خيرًا من جدك حسن بن حسن . ثم ابنهُ محمد خير من ابيك وجدتهُ ام ولد . ثم ابنهُ جعفر وهو خير . ولقد علمت ان جدك عليًا حكم الحكمين واعطاهما عهده وميثاقهُ على الرضا

بما حكما به فاجمعا على خلعه . ثم خرج عمك الحسين بن علي بن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه . ثم اتوا بكم على الاقتاب كالسبي المجلوب الى الشام . ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو امية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فادركنا بثاركم اذ لم تدركوه ورفعنا اقداركم واورثناكم ارضهم وديارهم بعد ان كانوا يلعنون اباك في ادبار كل صلاة كما يلعن الكفرة فسفهناهم وكفرناهم وبينا فضله واشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت انا بما ذكرنا من فضل علي قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل اولئك مضوا سالمين مسلمًا منهم وابتلى ابوك بالدماء. ولقد علمت ان مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الاعظم وولاية زمزم وكانت للعباس من دون اخوته فنازعنا فيها ابوك الى عمر فقضى لنا عمر بها وتوفي رسول الله صلعم وليس من عمومته احد حيًا الا العباس وكان وارثه دون عبد المطلب وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها الا ولده فاجتمع للعباس انه ابو رسول الله صلعم خاتم الانبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث . ولولا ان العباس اخرج الى بدر كرهًا لمات عماك طالب وعقيل جوعًا او يلحسان جفان عتبة وشيبة فاذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون ابا طالب للازمة التي اصابتهم ثم فدى عقيلاً يوم بدر فعذرناكم في الكفر وفديناكم من الاسر وورثناه دونكم خاتم الانبياء وادركنا بثاركم اذ عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا انفسكم والسلام »

ففي هذه الكتب ما يظهر احتجاج كل من الفريقين المرشحين للخلافة على الآخر ثم عقد المنصور لعيسى ابن عمه موسى بن علي فقاتله بالمدينة وقتله (سنة ١٤٥) ولحق ابنه علي بالسند واختفى ابنه عبد الله الاشتر وماتا غريبين. ثم جهز عيسى بعد رجوعه وارسل لحرب ابرهيم اخي محمد بالبصرة فقاتله وقتله

ثم خرج بالمدينة ايام الهادي (سنة ١٦٩) الحسين بن علي بن حسن المثلث وهو اخو عبد الله بن حسن المثنى وعم المهدي فكان ما كان من امره كما تقدم وافلت عمه ادريس بن عبد الله ولحق بمصر ثم بوليلي من المغرب كما ذكر

ثم خرج يحيي اخو محمد بن عبد الله بن حسن وادريس في الديلم (سنة ١٧٦) ايام الرشيد فبعث لحربه الفضل بن يحيي فبلغ الطالقان وتلطف في استنزاله واحضره الى الرشيد فوفى له بكل عهوده واجرى له ارزاقًا ثم حبسه بعد ذلك لسعاية فيه من اهل الزبير فقالوا اطلقه بعدها وقالوا سمه لشهر من اعتقاله وقيل اطلقه جعفر بن يحيي فكان بسببه نكبة البرامكة وهكذا انقرضت دعوة الزيدية حينًا من الدهر

فلما مات الرشيد وولي المامون اخذت الفتن بالظهور وولي على العراق حسن بن سهل فانسع

الحريق واشيع ان المامون محجورٌ في يده فطمع العلوية في التوثب فخرج من اعقاب ابرهيم بن محمد حافدهُ محمد بن اسمعيل بن ابرهيم المعروف بطباطبا الكنة كانت بلسانهِ ايام مرباه . وكان خروجهُ (سنة ١٩٩) وقد تقدم خبرهُ . وكان ابو السرايا قيم اموره قبل مهزمه قد ارسل الى مكة الحسين الابطس بن الحسن بن علي زين العابدين . والى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن . والى البصرة زيد بن موسى بن جعفر الصادق المعروف بزيد النار لكثرة ما احرق من الناس بالبصرة فملكوها . وكان بمكة مسرور الخادم الاكبر وسليمان بن داود بن عيسى ففرا عنها وبقي الناس في الموقف فوضى فدخلها الحسين من الغد وعاث في اهل الموسم واستخرج الكنز الذي كان في الكعبة من عهد الجاهلية وقدره فيما قيل مئتا قنطار ثلثان من الذهب فانفقهُ وفرقهُ في اصحابهِ

ولما هلك ابو السرايا (سنة ٢٠٠) بالنهروان اجتمع الطالبيون بمكة وبايعوا محمد بن جعفر الصادق ولقبوهُ باميرالمومنين فغلب عليهِ ابناه علي وحسن فلم يكن لهُ معهما امر — ثم لحق ابرهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق باليمن في اهل بيتهِ فدعا لنفسه هنالك وتغلب على كثيرٍ من بلاد اليمن ودعي الجزار لكثرة ما قتل من الناس فجهز المامون اسحق بن موسى بن عيسى عاملها لحرب الطالبيين فغلبهم عليها . وخرج محمد بن جعفر الصادق الى الاعراب بالساحل فاتبعهُ اسحق الى ان استامن فامنهُ ودخل مكة و بايع للمامون وخطب على المنبر بدعوتهِ

ثم خرج الحسين الابطس ودعا لنفسهِ بمكة وقتلهُ المامون مع ولديهِ علي ومحمد . ثم ان المامون لروِيتهِ كثرة الشيعة وكان يرى مثل رايهم في شان علي والسبطين عهد بالخلافة من بعدهِ لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ونزع السواد ولبس الخضرة (سنة ٢٠١) فكان ما كان من الفتنة ومبايعة ابرهيم بن المهدي عم المامون وخطاب لهُ ببغداد الى ان مات علي المذكور وتلافى المامون الامر فاعاد العهد لقومهِ وقبض على ابرهيم وسكنت الفتنة

ثم خرج باليمن عبد الرحمن بن احمد من ولد علي يدعو للرضا من آل محمد وبايعهُ اليمن فسرح المامون مولاه دينارًا عليهِ فاستامن وراجع الطاعة

ثم خرج عدة من الزيدية بالحجاز والعراق والجبال والديلم وتتابع دعاتهم منهم محمد بن القاسم وكان على جانب من العبادة والزهد هرب خوفًا من المامون ولحق بخراسان (سنة ٢١٩) ثم الى الطالقان فتبعتهُ الزيدية كلهم وحاربهُ عبدالله بن طاهر صاحب خراسان فغلبهُ وانتهت حياتهُ بالسجن

ثم خرج الحسين بن محمد منهم بالكوفة واجتمع لديهِ الناس من بني اسد وغيرهم (سنة ٢٥١) وزحف اليهِ ابن شيكال من امراء الدولة فهزمهُ ولحق بصاحب الزنج فكان معهُ وكاتبهُ اهل الكوفة في العود اليهم فقتلهُ صاحب الزنج . وكان خروج صاحب الزنج قبلهُ بقليل بالبصرة وكان يدعي انهُ علي بن

محمد بن زيد بن عيسى ثم انتسب الى يحيي بن زيد الشهيد وزحف اليه الموفق اخو المعتمد وكانت بينهما حروب مسعرة الى ان محا الموفق اثر تلك الدعوة

ثم خرج في الديلم الحسن بن زيد بن الحسن السبط (سنة ٢٥٥) فملك طبرستان وجرجان وسائر اعمالها وكانت له ولشيعة الزيدية دولة هنالك ثم انقضت اخر المائة الثالثة فورثها من يدهم ومن يد ولد عمر بن علي الناصر الاطروش وهو الحسن بن علي من ولد عمر وهو ابن عم صاحب الطالقان وكانت له ولبنيه دولة وكانوا سبباً لملك الديلم البلاد فتغلبوا على الخلفاء العباسيين كما ياتي

وخرج بالمدينة الاخوان محمد وعلي ابنا الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم وعاثا في المدينة وتعطلت الصلاة بمسجد النبي نحو شهر وذلك (سنة ٢٧١)

ثم خرج باليمن من الزيدية من ولد ابرهيم بن طباطبا اخي محمد صاحب ابي السرايا (سنة ٢٨٨) يحيي بن الحسين بن القاسم الرسي فاستولى على صعدة واورث عقبه فيها ملكاً طويلاً وهي مركز الزيدية

ثم ظهرت دعوة المهدي في المغرب (سنة ٢٨٨) بابي عبد الله الشيعي كما مر وهذه هي الدولة العبيدية الممتدة بعده الى مصر والشام ودامت الى (سنة ٥٦٥) ثم ظهر بسواد الكوفة (سنة ٢٥٨) من دعاة الرافضة رجل اسمه الفرج بن يحيي المعروف بقرمط بكتاب زعم انه من احمد بن محمد بن الحنفية وادعى ان احمد المذكور هو المهدي المنتظر وعاث في بلاد السواد ثم في بلاد الشام وتلقب بذكرويه بن مهرويه واستبد طائفة منهم بالبحرين ونواحيها ورئيسهم ابو سعيد الجنابي وكان له هناك ملك ودولة اورثها بنيه

وكان اهل البحرين هولاء يرجعون الى دعوة العبيديين

ثم كان بالعراق من دعاة الاسماعيلية ومن هولاء الرافضة طوائف اخر استبدوا بنواحٍ كثيرة منهم اهل قلعة الموت من رجالاتهم الحسن بن الصباح الى ان انقرض امرهم اخر الدولة السلجوقية

وكان بمكة دولة لبني سليمان بن داود بن حسن المثنى الذي خرج في عهد المامون ويسمى بالناهض ملك مكة واستقرت امارتها في بنيه الى ان غلبهم عليها الهواشم (سنة ٤٥٤) وداولوا الخطبة بمكة بين العباسيين والعبيديين الى ان ملكها منهم وغلبهم على مكة بنو ابي نمي اخر المئة السادسة اولهم ابو عزيز قتادة بن ادريس من اقاربهم لانهم كلهم ينتهون الى موسى الجون وكلهم زيدية

ودولة ولد الهنا من الرافضة بالمدينة قيل اسم موسسها الحسن بن طاهر بن مسلم وقيل محمد بن طاهر كما ذكرهُ العتبي مورخ دولة بني سبكتكين وكان صديقاً لكافور ويدبر امرهُ وهو من ولد الحسن بن علي زين العابدين وتولى على المدينة من نحو (سنة ٣٦٠) واورثها لبنيه مدة طويلة

هذه في جملة فرق العلوية وظهورهم في اوقات واماكن متعددة مزاحمين الدولة العباسية من مشاهيرهم دولتان كانتا في المغرب وقد تقدم خبرهما

فصل

في ولاية الاسلام ودولهم في جزيرة العرب من لدن الهجرة

هذا — ولما احتضن باذان عامل كسرى الاسلام واسلم معهُ اهل اليمن وكان منزلهُ صنعاء كرسي التبابعة امرهُ النبي عليها · ثم توفي باذان فارسل النبي عمالاً من قبلهِ وابقى صنعاء لابن باذان وهو شهربان · ثم زحف الاسود العنسي واخرج عمال النبي وملك صنعاء وقتل شهربان وتزوج امرأتهُ واستولى على اكثر اليمن وارتد اكثر اهلهِ · فكتب الرسول الى اصحابهِ وعمالهِ ومن بقي مسلمًا فداخلوا زوجة شهربان بن باذان وانتهى الامر بقتل الاسود ورجوع عمال الرسول · ثم استبد قيس بن مكشوح بصنعاء وجمع اليهِ الفل من جند الاسود

ثم توفي الرسول وقام ابو بكر فولى على اليمن فيروزًا ابن عم زوجة شهربان وامر الناس بطاعتهِ فقاتل قيس بن مكشوح وهزمهُ · ثم ولى ابو بكر مهاجر بن ابي امية فقاتل اهل الردة باليمن · ثم ولى عكرمة بن ابي جهل · ثم عبيدالله بن عباس · ثم اخاهُ عبدالله

ثم ولى معاوية على صنعاء فيروز الديلمي ومات (سنة ٥٣) ثم ولاها عبد الملك الحجاج لما بعثهُ لحرب ابن الزبير (سنة ٧٣)

ولما جاء العباسيون ولى السفاح عمهُ داود بن علي على اليمن الى ان مات (سنة ١٣٣) فولى مكانهُ محمد بن يزيد ثم تعاقب الولاة عليها الى عهد المامون وظهرت دعاة الطالبيين بالنواحي وبايع ابو السرايا الشيباني لمحمد بن ابرهيم طباطبا بالعراق وكثر الهرج ثم قتل وبويع محمد بن جعفر الصادق بالحجاز · ثم ظهر باليمن ابرهيم بن موسى الكاظم (سنة ٢٠٠) ولم يتم امرهُ وكان يعرف بالجزار وبعث المامون عساكره الى اليمن فدوخوا نواحيهُ وحملوا كثيرًا من اعيانهِ واستقام امره

فكانت اولاً دولة بني زياد المقدم ذكرها في اخبار المامون من محمد بن زياد المرسل منهُ اميرًا على اليمن الى ان استبد بامرهم مرجان من موالي الحسن بن سلامة وقتل نجاح قيسًا وهما موليان لمرجان المذكور وتملك نجاح زبيدًا (سنة ٤١٢) وضرب السكة باسمهِ وكاتب ديوان الخلافة ببغداد فعقد لهُ على اليمن ولم يزل مالكًا تهامة قاهرًا لاهل الجبال مستوليًا على احكام الحسن وانقسمت صولة الملوك الى ان قتلهُ علي الصليحي القائم بدعوة العبيديين على يد جارية بعثها اليهِ (سنة ٤٥٢) فقام بالامر بعدهُ يزيد مولاهُ كهلان ثم استولى الصليحي عليها وملكها

وهو علي بن القاضي محمد بن علي الهمذاني ثم الصليحي رئيس حرانز من بلاد همذان . اخذ عليٌّ الدعوة عن عامر بن عبد الله الزوائي نسبة الى زواية من قرى حران بالايصاء ونشأ فقيهًا صالحًا وحج بالناس على طريق الطائف والسروات ١٥ سنة فطار ذكره وعظمت شهرته والقى على السنة الناس انه سلطان اليمن

فحج على عادته (سنة ٤٢٨) واجتمع بجماعة من قومه همذان ودعاهم الى النصرة فاجابوه وبايعوه وكانوا ستين رجلاً من رجالات قومهم . ولما عادوا بقي في مسار وهو حصن بذروة جبل حمام وحصَّن ذلك . ثم كتب الى المستنصر صاحب مصر واستاذنه الدعوة له فاذنه وملك اليمن كله خاطبًا للعبيديين ونزل صنعاء واختط بها القصور واقتبل ملوك اليمن عنده بعد ما غلب عليهم وهزم بني طرف ملوك عترة وتهامة واحتال على نجاح مولى بني زياد فاهداه جارية (سنة ٤٥٢) فقتلته واخذ ملكه

ثم سار الى مكة ليمحو منها الدعوة العباسية والامارة الحسنية واستخلف على صنعاء ابنه المكرم احمد وحمل معه زوجته اسماء بنت شهاب فقصده جياش وسعيد ابنا نجاح وقتلاه واخاه معه وسبيا اسماء بنت شهاب زوجته كما سيذكر فكتبت اسماء الى ابنها المكرم اني حبلى من العبد الاحول فادركني قبل ان اضع والا فهو عار لا يمحوه الدهر . فسار المكرم من صنعاء (سنة ٤٧٥) في ثلاثة الاف ولقي الحبشة في عشرين الفًا فهزمهم ولحق سعيد بن نجاح بجزيرة دهلك ودخل المكرم على امه وطمنها وولى خاله اسعد بن شهاب على اعمال تهامة كما كان وانزله بزبيد منها وارتحل بامه الى صنعاء وكانت من النساء الداهيات وفي يدها امور الملك الى ان هلكت (سنة ٤٧٧) ثم استرد ابن نجاح زبيدًا من يد المكرم (سنة ٤٧٩) وانتقل المكرم الى ذي جبلة (سنة ٤٨٠) وولى على صنعاء ابن مفضل الهمذاني فاستبد بها وتوارثها عقبه واخذ ابنه احمد اسم سلطان ثم حاتم بن احمد وهكذا الى ان ملكها بنو سليمان لما غلبهم الهواشم على مكة

وجبلة بلد اختطه عبد الله بن محمد الصليحي (سنة ٤٥٨) فانتقل اليه باشارة زوجه سيدة بنت احمد التي صار اليها تدبير ملكه بعد امه فنزلها وبنى بها دار العز وتحيل على قتل سعيد بن نجاح فتم له ذلك ثم توفي (سنة ٤٨٤) وعهد الى ابن عمه المنصور سبا بن احمد المظفر بن علي الصليحي صاحب معقل اشيح

فاقام المنصور بمعقله وسيدة بنت احمد بذي جبلة فخطبها المنصور سبا فامتنعت منه فحاصرها وجاءها اخوها لامها سليمان بن عامر واخبرها ان المستنصر العبيدي زوجها منه وابلغها امره وتلا عليها « وما كان لمومن ولا مومنة اذا قضى الله ورسوله امرًا ان تكون لهم الخيرة من امرهم » واعلمها ان المهر المعين لذلك من امير المومنين هو مائة الف دينار وخمسون الفًا من التحف واللطائف

فسار نسبا اليها من معقل اشيح ودخل اليها بدار العز ورجع صباحًا الى معقله ويقال انها شبهت بجارية من جواريها فقامت على راسو ليلها كله وهو لا ينظر اليها

وكان المتولي عليها المفضل بن ابي البركات من بني تام رهط الصليحي فاستدعى عشيرته وانزلهم بذي جبلة وكانت سيدة تاتي حصن التعكر صيفًا وبهِ ذخائرها واموالها وترجع شتاء الى ذي جبلة

ثم انفرد المفضل لقتال نجاح فاقام في حصن التعكر فقيهًا يلقب بالجمل مع جماعة من الفقهاء فبايعوا الجمل على ان يحوا الدعوة الامامية فرجع المفضل لحصارهم وجاءت خولان لنصرتهم وهلك المفضل في حصارهم (سنة ٥٠٤) ثم جاءت سيدة ولاطفتهم وعهدت لهم ما وفت بهِ وكفلت عقب المفضل وولده وصار معقل التعكر في يد عمران بن الذر الخولاني واخيهِ سليمان واستولى عمران على الحرة سيدة مكان المفضل ولما ماتت استبد واخاهُ بحصن التعكر واستولى منصور بن المفضل على حصن ذي جبلة حتى باعهُ من الداعي الذريعي صاحب عدن واعتصم بمعقل اشيح الذي كان للمنصور سبا بن احمد وقد كان اخذه من علي ابنهِ بعد موت ابيهِ سبا (سنة ٤٨٦) لمنازعتهِ له ولسيدة المذكورة فانهُ ارسل له سفرجلة مسمومة فاكلها ومات ولم يزل يبيع معاقلهُ حتى لم يبق لهُ غير معقل واحد اخذه منهُ علي بن مهدي بعد ان ملك ثمانين وعاش مئة سنة

في دولة بني نجاح موالي بني زياد

بزبيد

بعد ان استولى الصليحي على زبيد من يد كهلان (سنة ٤٥٢) وكان لهُ من الولد معارك وجياش وسعيد فالاول قتل نفسهُ والاخران لحقا بجزيرة دهلك . ثم قدم سعيد الى زبيد واختفى في نفق احتفره واقام فيهِ ثم استدعى اخاه جياشًا فاتى وبقيا هناك بالاختفا

وكان ان محمد بن جعفر قد قطع خطبة العلويين من مكة فكتب المستنصر العبيدي الى الصليحي يامرهُ بقتال ابن جعفر المذكور وقام على الصليحي من صنعاء لذلك فظهر حينئذٍ سعيد وجياش من خبائها وبلغ خبرها الصليحي فارسل عليهما نحو خمسة الاف فارس اما سعيد وجياش فكانا قد خالفا العسكر وسارا في اتباع الصليحي وهو في عساكره فبيتاهُ وهو متوجه الى مكة وقتلاهُ (سنة ٤٧٣) ثم قتلا اخاه عبد الله الصليحي في مائة وسبعين من ذويه واسرا اسماء بنت عمو شهاب في مائة وخمسة وثلاثين من امراء قحطان ثم امنا العسكر الذي ارسل لقتالها ورحلا الى زبيد وعليها اسعد بن شهاب اخو زوجة الصليحي ففر اسعد الى صنعاء ودخل سعيد الى زبيد واسماء زوجة الصليحي امامه في هودج وراس الصليحي واخيهِ عند هودجها فانزلها بدارها ونصب الراسين قبالة طاقها في الدار فخافهُ الناس

وتلقب نصير الدولة ، وتغلب ولاة الحصون على ما بايديهم فدس المكرم بن الصليحي على لسان بعض اهل الثغور الى سعيد بن نجاح بصنعاء ضامنًا له الظفر فجاء سعيد في عشرين الثامن الحبشة فلقيه المكرم وهزمه وحال بينه وبين زبيد فهرب الى جزيرة دهلك ودخل المكرم زبيدًا وقدم على امه اسماء وهي جالسة بالطاق فانزل راسي ابيه وعمه ودفنهما وولى على زبيد خاله اسعد (سنة ٤٧٧)

ثم كتب المكرم الى عبد الله بن يعفر صاحب حصن الشعر بان يغري سعيدًا بالمكرم فيأخذ حصن ذي جبلة منه لاشتغاله بلذاته واستيلاء زوجته سيدة بنت احمد عليه فتمت الحيلة وسار سعيد في ثلاثين الفًا من الحبشة لقتال المكرم . وكان المكرم قد اكمن له تحت حصن الشعر فطلع عليه وانهزمت عساكر سعيد وقتل ونصب راسه عند الطاق الذي كان فيها راس الصليحي واستولى المكرم على زبيد وانقطع منها ملك الحبشة وهرب جياش ومعه وزير اخيه خلف بن ابي الظاهر المرواني ودخلا عدن متنكرين ثم لحقا بالهند فاقاما ستة اشهر ثم رجعا الى اليمن فان كاهنًا من سمرقند بشرهما بالانتصار على عدوهما فتشجعا من هذا الخبر

ثم مضى خلف الى زبيد واشاع موت جياش واستامن لنفسه ثم لحق جياشًا واقاما مختفيين وعلى زبيد يومئذٍ اسعد بن شهاب ومعه علي بن القم وزير المكرم وكان يكره المكرم ودولته فداخله خلف ولاعب ابنه بالشطرنج ثم لاعب الاب فانشرح منه واطلعه على رايه في الدولة فظهر له منه التشيع للنجاحيين فكاشفه بسره واستحلفه على حفظه وكان جياش يجمع اشياعه من الحبشة وينفق فيهم الاموال حتى اجتمع له خمسة الاف فثار بهم في زبيد (سنة ٤٨٢) ونزل دار الامارة فاطلق اسعد بن شهاب ولم يقتله لزمانة فيه وتملك زبيدًا وخطب للعباسيين والصليحيون يخطبون للعبيديين . وكان المكرم يبعث العرب للغارة على زبيد كل حين الى ان مات جياش في اول القرن الخامس للهجرة وكان عادلاً

ثم تولى بعده ولده منصور صبيًا فجاء عمه ابرهيم لقتاله فارسلوا الى الفضل بن ابي البركات صاحب التعكر فجاء لنصره مضمرًا له الغدر . ثم بلغه ان اهل التعكر انتقضوا عليه فرجع وبقي منصور في ملكه بزبيد الى ان استوزر ابا منصور عبيد الله فقتله مسمومًا (سنة ٥١٧) ونصب فاتكًا بن منصور طفلاً صغيرًا واستبد عليه وقام بضبط الملك وهان عليه التعرض لآل نجاح فهربت ام فاتك منه . وكان شجاعًا وله وقائع مع الاعداء وحارب ابن نجيب داعي العلوية وكان له كفوءًا وشيد المدارس للفقهاء بزبيد واعتنى بالحاج . ثم راود مفارك بنت جياش فلم تجد مهربًا الا اليها فمكنت من اهلاكه سمًا (سنة ٥٢٤) وقام بامر فاتك بعده زريق من موالي نجاح وكان شجاعًا فاتكًا . ثم توفي فاتك المذكور (سنة ٥٤١) وولي بعده ابن عمه وسميه فاتك بن محمد بن فاتك وعلم بوزارة سرور ثم دس على سرور

علي بن مهدي الخارجي وكان ما كان من قتلهِ في المسجد نهار الجمعة ثاني صفر (سنة ٥٥١) فاضطرب موالي نجاح بالامر وثار عليهم ابن مهدي وحاربهم وحاصرهم فاستعانوا باحمد بن حمزة بن سليمان امير صعدة فاغاثهم على ان يقتلوا فاتكًا فقتلوهُ (سنة ٥٥٣) وملكوهُ عليهم لكنهُ عجز عن مقاومة ابن مهدي وفر تحت الليل وملك البلاد علي بن مهدي (سنة ٥٥٤) وانقرض امر النجاحيين

دولة بني الذريع في دعاة العبيديين بعدن

عدن من امنع مدائن اليمن على ضفة البحر الهندي ما انفكت بلدًا تجاريًا من عهد ملوك حمير وكانت في صدر الاسلام دارًا للملوك معن المنتسبين الى معن بن زائدة من ايام المامون فامتنعوا على بني زياد فقنعوا منهم بالخطبة والسكة. وراعى لهم الداعي علي بن محمد الصليحي زمام العروبية وقرر عليهم ضريبةً الى ان اخرجهم منها ابنهُ احمد المكرم وولى عليها بني المكرم من عشيرة جشم بن يام الهمذاني اقرب عشائره اليهِ فكانوا ولاتها زمنًا. ثم حدثت بينهم الفتنة فانقسموا الى بني مسعود وبني الذريع وغلب بنو الذريع بعد حروب عظيمة

قال ابن سعيد اولهم الداعي بن ابي السعود بن الذريع وورثهُ عنهُ بنوهُ وحاربهُ ابن عمهِ علي بن ابي الغارات بن مسعود صاحب الزعازع وكان الظفر لابن ابي السعود بعد مقاساة ونفقات في الاعراب ومات بعد اخذ عدن بسبعة اشهر (سنة ٥٣٣) وولي بعده ابنهُ الاعز وكان مقيمًا بمعقل الدملوة. ثم امتنع عليهِ بعده ابن بلال بن الذريع من مواليهِ وخشي محمد بن سبا منهم على نفسهِ ففر الى منصور بن المفصل من ملوك الجبال الصليحيين بذي جبلة. ثم مات الاعز فبعث بلال عن محمد بن سبا فوصل الى عدن وكان التقليد قد جاء من مصر باسم الاعز فكتب مكانهُ محمد بن سبا وكان في القابه الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف اميرالمومنين. وزوجه بلال بنتهُ ومكنه من الاموال التي في خزائنهِ. ثم مات ابن بلال وورثهُ محمد واشترى حصن ذي جبلة من منصور بن المفصل وهو دار ملوك الصليحيين وتزوج سيدة بنت عبد الله الصليحي وتوفي (سنة ٥٤٨) وخلفهُ ابنهُ عمران بن محمد بن سبا بن احمد المظفر بن علي الصليحي وكان ياسر بن بلال يدبر دولته وتوفي (سنة ٥٦٠) تاركًا ولدين صغيرين محمدًا وابا السعود فاعتقلهما ياسر واستبد بالامر وهو اخر ملوك الذريعيين

ولما دخل سيف الدولة اخو صلاح الدين الى اليمن (سنة ٥٦٦) قبض على ياسر بن بلال وصارت للمعز وانقطعت دولة بني ذريع وتركوا جدة المختطة منهم الى تعز من الجبال

دولة ابن مهدي الخارجي

باليمن

هذا هو علي بن مهدي الحميري من سواحل زبيد كان ابوهُ معروفًا بالصلاح. ونشا ابنهُ على طريقتهِ . ثم حج ونسك ولزم علماء العراق واخذ الوعظ عنهم وعاد الى اليمن. وكان حافظًا فصيحًا فاحبهُ الناس ومالوا اليهِ وكان يتردد للحج ويعظ الناس في البوادي فاذا حضر الموسم ركب على نجيب لهُ ووعظ في القوم

ولما استولت ام فاتك على بني جياش احسنت فيهِ المعتقد وصرفت لهُ ولقرابتهِ واصهاره خرجًا فحسنت احوالهم وركبوا الخيول . فلما ماتت ام فاتك (سنة ٥٤٥) حضر اليهِ اهل الجبال وحالفوه على النصرة وكان قد خرج من تهامة (سنة ٥٣٨) وقصد الكور فانهزم وعاد الى الجبال . ثم اعادتهُ الحرة ام فاتك الى وطنهِ (سنة ٥٤١) فخرج بعد موتها الى هوازن ونزل ببطن منهم يقال لهُ صبوان في حصن يسمى الشرف عسر المرتقى على مسيرة يوم من سفح الجبل في طريقهِ اوعار وسمى اصحابهُ الانصار وكل من صعد معهُ عن تهامة سماهم المهاجرين وامر على الانصار رجلاً اسمهُ سبا وعلى المهاجرين اخر سماه شيخ الاسلام واحتجب عمن سواهما واخذ يشن الغارات على تهامة واعانهُ خراب نواحي زبيد وانتهى اخيرًا الى حصن الداثر نصف مرحلة عن زبيد واعمل الحيل في قتل مسرور مولى فاتك بن نجاح كما تقدم وزاحف زبيدًا سبعين مرة كما قال عمارة فاستمدوا احمد بن حمزة السليماني صاحب صعدة فامدهم وقتل فاتكًا ملكهم بطلب احمد . ثم هرب احمد واستولى ابن مهدي عليها في رجب (سنة ٥٥٤) وكان يخطب لهُ بالامام المهدي امير المومنين ومات لثلاثة اشهر من ولايتهِ . وكان من الخوارج يتبرأ من علي وعثمان ويكفر بالذنوب ولهُ قواعد وقواميس في مذهبهِ يطول ذكرها

ثم خلفهُ ابنهُ عبد النبي فخرج من زبيد وملك اليمن اجمع وبهِ يومئذٍ خمس وعشرون دولة فاستولى على جميعها الا عدن فابقاها خراجية

فلما دخل شمس الدولة تورشاه بن ايوب اخو صلاح الدين الكردي (سنة ٥٦٦) واستولى على دولة اليمن قبض على عبد النبي واخذ منهُ اموالاً جزيلة وحملهُ الى عدن فاستولى عليها ثم نزل زبيدًا واتخذها كرسيًا ثم استوخمها وسار الى الجبال ومعهُ الاطباء يتخيرلهُ مكانًا صحيح الهواء فاختاروا مكان تعز فاختط بهِ مدينة تعز وصارت كرسيًا لهُ ولبنيهِ ومواليهم بني رسول وبانقراض دولة بني المهدي انقرضت سلطة العرب من اليمن وصارت للاكراد ومواليهم ثم للاكراد من الغز كما ياتي

دولة بني الاخيضر باليمامة من العلوية

هذه دولة اسسها محمد الاخيضر بن يوسف بن ابرهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن

المثنى بن الحسن السبط. وكان له اخ اسمهُ اسمعيل خرج في عرب الحجاز ودعي السفاك (سنة ٢٥١) ثم قصد مكة وانتهب منزل عاملها فهرب فاوقع بجماعة السلطان وقتل بعض الجند واهل مكة واخذ ما كان من المال وما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة واخذ كسوة الكعبة ونحو مائتي الف دينار من الاهالي ونهب المكان واحرق بعضهُ مدة خمسين يومًا ثم قام الى المدينة فهرب عاملها وحاصرها حتى هلك الناس جوعًا الى ان وصلت عساكر المعتز فافرج عنها ورجع الى مكة فامتنعت عليهِ فحاصرها ورحل عنها بعد شهرين الى جدة فاخذ اموال التجار ونهب المراكب وقفل الى مكة وقد وفد اليها محمد بن عيسى بن المنصور وعيسى بن محمد المخزومي من طرف المعتز العباسي فتواقعوا بعرفة وقتل من الحاج نحو الف وبطل الموقف وخطب اسمعيل لنفسهِ ثم رجع الى جدة واستباحها ثانيةً ثم هلك لسنة من خروجهِ بالجدري ايام حرب المستعين والمعتز ولم يترك عقبًا فولي بعده اخوهُ محمد الاخيضر وكان اكبر منهُ بعشرين سنة فملك اليمامة واتخذ قلعة الحضرمية وكان اولادهُ محمد وابرهيم وعبد الله ويوسف ثم مات فقام عوضهُ ابنهُ يوسف واشرك معهُ بالامر ابنهُ اسمعيل بن يوسف ثم مات وانفرد اسمعيل بملك اليمامة وكان لهُ من الاخوة محمد وصالح والحسن . ثم هلك فولي بعدهُ اخوهُ الحسن ثم ابن الحسن يوسف وبقي الملك في يدهم الى ان غلبهم عليهِ القرامطة فانقرض امرهم

ذكر صاحب كتاب رجار في جغرافيتهِ عن بني صالح بمدينة غانة من بلاد السودان بالمغرب مما يلي البحر المحيط ولعلهُ هو كما قال بعضهم صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله المعروف بابي الكرام ابن موسى الجون خرج ايام المامون بخراسان وحمل اليهِ وحبسهُ وابنهُ محمدًا من بعده ولحق بنوهُ بالمغرب فكان لهم ملك ببلد غانة والله اعلم

دولة السليمانيين من بني الحسن العلويين بمكة ثم باليمن

لما انقرضت سكان مكة القرشيون بعد المائة الثانية من الهجرة بفتن العلوية مرة بعد اخرى ولم يبقَ بها الا اخلاط من الناس من اتباع بني حسن غالبهم موالٍ سود من الحبشة والديلم ثم اشتغل العباسيون بالفتن ايام المستعين والمعتز وما بعدهما بقيت الرئاسة لبني سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن السبط واولهم محمد بن سليمان فانهُ خلع طاعة العباسيين ايام المقتدر (سنة ٣٠١) وخطب لنفسهِ فقال الحمد لله الذي اعاد الحق الى نظامهِ. وابرز زهر الايمان من اكمامهِ. وكمل دعوة خير الرسول باسباطهِ لا بني اعمامهِ. صلى الله عليهِ وعلى آلهِ الطاهرين . وكف عنا ببركتهِ اسباب المعتدين . وجعلها كلمة باقية في عقبهِ الى يوم الدين ثم انشد

لا تفلتن بسيفي ما كان لحق دينا ... واصطلون قوم يعزوا وجاروا علينا

يهدون كل بلاد من العراق الينا

وكان يلقب بالزيدي نسبة الى نحلته من مذاهب الامامية

وبقي ركب العراق يمارس الزيارة لمكة الى ان اعترضه ابو طاهر القرمطي (سنة ٣١٢) واسر ابا الهيجاء ابن حمدان والد سيف الدولة وجماعة معه وقتل الحجاج وترك النساء والصبيان بالقفر فهلكوا وانقطع ركب العراق .

ثم انفذ المقتدر (سنة ٣١٧) مولاه منصورًا الديلمي فوافاه ابو طاهر يوم التروية بمكة ونهب الحاج وقتلهم حتى في الكعبة والحرم وامتلأ زمزم بالقتلى والحجاج يصيحون كيف يقتل جيران الله فيجيبهم ليس بجار من خالف اوامر الله ونواهيه وكان ابو طاهر يخطب لعبيد الله المهدي صاحب افريقية ثم قلع الحجر الاسود كما تقدم ونقله الى الاحساء وقلع باب البيت وطلع رجل يقلع الميزاب فسقط ومات فقال ابو طاهر اتركوه فانه محروس حتى ياتي صاحبه اي المهدي ولما بلغ المهدي وهو عبيد الله امره كتب اليه ينكر عمله واجترامه باسمه اراقة الدماء واهانة البيت الذي يكرمه حتى الجاهلية وقلعه الحجر الذي هو يمين الله في الارض يصافح به عباده قال « وحملته الى ارضك ورجوت ان نشكرك فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده »

فانحرفت القرامطة عن طاعة العبيديين لذلك ثم قتل المقتدر وولي القاهر وحج بالناس اميره تلك السنة وانقطع الحج العراقي بعدها الى ان كاتب ابو يحيى الفاطمي (سنة ٣٢٧) من العراق ابا طاهر ان يطلق سبيل الحج على مال يأخذه منهم فاجابه اليه . وخطب تلك السنة للراضي بمكة ثم لاخيه المتقي (سنة ٣٢٩) ولم يصل ركب العراق وتشذ من القرامطة ثم كانت مهادنة القرامطة بعد ابي طاهر ونهض المستكفي (سنة ٣٣٣) فخرج الحاج تلك السنة

ثم خطب للمطيع بن المقتدر بمكة (سنة ٣٣٤) عند ما استولى معز الدولة بن بويه امرة الامراء ببغداد ثم تعطل الحاج بسبب القرامطة وردوا الحجر الاسود (سنة ٣٣٩) بامر المنصور العلوي صاحب افريقية فانه خاطب بذلك اميرهم احمد بن ابي سعيد

ثم جاء الحاج الى مكة (سنة ٣٤٣) مع امير من العراق وامير من مصر ووقعت الحرب بينهما على الخطبة ما بين ان تكون لابن بويه صاحب العراق او لابن الاخشيد صاحب مصر فغلب الحزب العراقي واتصل ورود الحاج من بعده والخطبة لبني بويه الى (سنة ٣٥٢) فكان فيها خطب للقرمطي بمكة ثم خلع القرمطي طاعة العبيديين وخطب للمطيع وبعث المطيع اليه بالرايات السود

ثم حصلت فتنة بين ابي الحسن القرمطي وجعفر بن محمد بن سليمان ولي مكة واريقت بينهما دماء وارسل المعز العلوي من اصلح بينهما وحمل دية من تبقى من القتلى في ماله ثم هلك بمصر جعفر فولى اخوه عيسى بعده ثم ابو الفتوح الحسن بن جعفر (سنة ٣٩٠)

ولما جاءت عساكر عضد الدولة ابن بويه فرّ الحسن بن جعفر الى المدينة ولم تزل الخطبة تقطع لدولة وتعمل لاخرى من دولتي العباسيين والفاطميين مدة. وعظم شان ابي الفتوح واتصلت امارته بمكة وكتب اليه القادر (سنة ٣٩٦) في الاذن لحاج العراق فاجابه على ان الخطبة للحاكم صاحب مصر وبعث الحاكم الى ابن جراح امير طي باعتراضهم فلاطفهم ابن جراح وخلى سبيلهم على ان لا يعودوا. واعترض حاج العراق (سنة ٣٩٤) الاصيفر الثعلبي عند ملكه الجزيرة. واعترضهم عرب خفاجة بعده ونهبوهم وسار في طلبهم علي بن يزيد امير بني اسد فاوقع بهم (سنة ٤٠٢) ثم عادوا الى ذلك ثاني سنة فعاد علي اليهم وسما له ذكر وكان سببًا للملك وملك قومه بعده

ولما كتب الحاكم الى عماله (سنة ٤٠٣) بالبراءة من ابي بكر وعمر انكر ذلك ابو الفتوح امير مكة وانتقض له وحمل الوزير ابا القاسم المغربي على طلب الامر لنفسه ثم خطب ابو الفتوح لنفسه وتلقب الراشد بالله وسار الى مدينة الرملة لاستدعاء ابن الجراح امير طي لمغاضبة بينه وبين الحاكم ففرق الحاكم الاموال في بني الجراح فانتقضوا على ابي الفتوح وفرّ الوزير المغربي الى ديار بكر من ارض الموصل وقطع الحاكم الميرة عن الحرمين ثم راجع ابو الفتوح الطاعة فعفا عنه واعاده الى امارته بمكة ولم يحج من العراق في هذه السنين احد

ثم حج باهل العراق ابو الحسن محمد بن الحسن الاقساسي فقيه الطالبيين (سنة ٤١٢) وهزموا الامير حسان بن عدي النبهاني من طي لاعتراضه لهم وقتلوه وخطب تلك السنة للظاهر بن الحاكم بمكة و(في سنة ٤١٣) ضرب رجل من مصر الحجر الاسود بدبوس فصدعه وثلمه فتبادر اليه الناس وقتلوه وثار اهل العراق باهل مصر وفتكوا بهم وبقي الحاج مدة عرضة لاعتراضات العرب ونحوهم

ثم توفي الامير ابو الفتوح الحسن (سنة ٤٣٠) لاربعين سنة من امارته وولي بعده ابنه شكر وهذا هو الذي يزعم بنو هلال بن عامر انه تزوج بنت سرحان من امرائهم ويسمونه الشريف ابن هاشم وشكر هذا لم يخلف نسلاً وسار الامر بعده لاحد عبيدهم

في دولة الهواشم بمكة

... بنو ... ولد ابي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله ابي الكرام بن موسى الجون

وكان بينهم وبين بني سليمان فتن متصلة فلما مات شكر ذهبت الرئاسة من بني سليمان لعدم العقب فاخذ الولاية فيهم طراد بن احمد ولم يكن من بيت الامارة وانما تقدم باقدامهِ وشجاعتهِ

وكان رئيس الهواشم وقتئذٍ محمد بن جعفر بن محمد وهو ابو هاشم المذكور وكان حلمًا مقدامًا فاقتتل الفريقان بعد موت شكر (سنة ٤٥٤) وانتصر الهواشم وطردوا السليمانيين عن الحجاز فذهبوا الى اليمن واستقل محمد المذكور بامارة مكة وخطب للمستنصر العبيدي الى ان استولى على بغداد والخلافة السلطان الب ارسلان من السلجوقية فاعاد بطلب القائم العباسي حج العراق (سنة ٤٥٦) فبذل المال واخذ رهائن العرب وحج بالناس ابو الغنائم نور الدين المهدي الزيني نقيب الطالبيين ثم جاور في السنة بعدها واستمال الامير محمد فخطب لبني العباس (سنة ٤٥٨) وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعزلهُ اهلها لفعلهِ ذلك فرد الخطبة للعبيديين . ثم عاتبهُ القائم وبذل لهُ الاموال فخطب لهُ (سنة ٤٦٢) بالموسم فقط واعتذر للمستنصر بمصر ثم بعث القائم ابا الغنائم المذكور (سنة ٤٦٣) اميرًا على الركب العراقي ومعهُ عسكر غفير ولامير مكة من عند الب ارسلان ثلاثين الف دينار وتوقيعًا بعشرة الاف دينار واجتمعوا بالموسم وخطب الامير محمد للعباسيين فانحرف المستنصر العلوي الى السليمانيين وكتب الى علي بن محمد الصليحي صاحب دعوتهم باليمن ان يمدهم على استرجاع ولايتهم بمكة فنهض معهم اليها وانتهى الى المهجم وكان سعيد بن نجاح الاحول منثور بني الصليحي قد حصر من الهند ودخل صنعاء فثار بها واتبع الصليحي في ٧٠ رجلاً والصليحي في خمسة الاف فبيتهُ بالمهجم وقتلهُ ثم جمع محمد بن جعفر اجنادًا من الترك وزحف الى المدينة فاخرج منها بني الحسن وجمع بين الحرمين

ثم مات القائم العباسي وانقطع ما كان يصل الى مكة منهُ فقطع محمد الخطبة للعباسيين ثم جاء الزيني بالاموال فاعادها ثم اهدى المقتدي (سنة ٤٧٠) منبرًا الى مكة جميل الصنعة قد نقش اسمهُ عليهِ بالذهب وارسل علي الحاج ختلغ التركي والى الكوفة فوقعت الفتنة بين الشيعة واهل السنة وكسر المنبر واحرق ثم عادت الفتنة (سنة ٤٧٣) ثم عادت الخطبة للمستنصر واتصلت امارة ختلغ على الحاج وبعدهُ خمارتكين الى ان مات ملكشاه السلجوقي ووزيرهُ نظام الملك فانقطعت الخطبة لبني العباس وبطل الحاج من العراق باختلاف السلجوقية وتغلب العرب ومات المقتدي خليفة بغداد وقام المستظهر ومات المستنصر خليفة مصر وبويع لابنهِ المستعلي ومات محمد بن جعفر وقام عوضهُ ابنهُ القاسم بن محمد فكثر اضطرابهُ ومهد بنو مزيد اصحاب الحلة طريق الحاج من العراق فاتصل حجهم

وحج (سنة ٥١٢) نظر الخادم من طرف المسترشد بركب العراق واوصل الخلع والاموال الى مكة ثم توفي القاسم (سنة ٥١٨) لثلاثين سنة من امارتهِ وولي بعدهُ ابنهُ ابو فليتة بمكة فافتتح الخطبة

العباسية ومات ابو فليتة (سنة ٥٢٧) لعشر سنين من ولايته والخطبة للعباسيين وامارة الحاج لنظر الخادم

ثم كانت واقعة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله فتعطل ركب الحاج ثم حج نظر الخادم في السنة بعدها ثم ارسلت اسماء الصليحية صاحبة اليمن لامير مكة قاسم بن ابي فليتة فتوعدته على قطع خطبة الحافظ وماتت فلم يكن من توعدها شيء. وانقطع الركب العراقي في هذه السنين للفتن والغلاء

ثم حج نظر الخادم (سنة ٥٤٤) فولى مولاهُ قيماز واعترضته العرب فنهبوا الركب واتصل حج قيماز والخطبة لبني العباس الى (سنة ٥٥٥) ونهض المستنجد بن المقتفي فخطب له كابيه ثم قتل قاسم امير مكة (سنة ٥٦٦) وقام عوضة حافده ابن عيسى وبعث المستضيء بالركب لماتكين التركي. وانقضت دولة العبيديين بمصر ووليها صلاح الدين الايوبي واستولى على مكة واليمن وخطب له فيهما ثم مات المستضيء (سنة ٥٧٥) وبويع ابنهُ الناصر وخطب له بالحرمين وحجت امهُ بنفسها (سنة ٥٨٥) وبرجوعها عزل الناصر عيسى بن القاسم وولى اخاهُ مكثر بن عيسى بن قاسم وكان جليل القدر ومات (سنة ٥٨٩) سنة مات فيها صلاح الدين الايوبي وضعف امر الهواشم وكان ابو عزيز ابن قتادة يناسبهم من جهة النساء فورث امرهم وانقضت دولتهم

دولة بني قتادة بعد الهواشم
وبني ابي نمي منهم المالكين بعدهم

وهو قتادة النابغة بن ادريس بن مطاعن بن سليمان بن ابي الكرام عبد الله بن موسى الجون وكان لقتادة اخ يسمى صرخة تعرف اولادهُ بالشكرة وكان له من البنين علي وحسن ولحسن ادريس واحمد ومحمد وجماز وامارة ينبع في اعقابهم. وكان بنو الحسن بن الحسن كلهم موطنين بنهر العلقمية من وادي ينبع لعهد امارة الهواشم بمكة وكانوا ظواعن بادية فلما نشا فيهم قتادة هذا جمع قومه ذوي مطاعن واركبهم واستبد بامارتهم وحارب بني خراب من ولد عبد الله بن حسن بن الحسن وبني عيسى بن سليمان بن موسى الجون واخرجهم وملك ينبع والصفراء واستكثر من الجند والمماليك وكان في عهد المستنصر العباسي في انصاف المائة السادسة من الهجرة والامراء وقتئذٍ بمكة الهواشم اخرهم مكثر بن عيسى الذي بنى قلعة جبل ابي قبيس ومات (سنة ٥٨٩) فسار قتادة الى مكة واستولى عليها وخطب للناصر العباسي واقام اميرًا لها نحو اربعين سنة واستفحل ملكهُ واتسع الى نواحي اليمن ثم خطب بمكة بعد الناصر للعادل بن ايوب (سنة ٦١٥) وللكامل بن العادل بعده

ثم كان خروج التتر (سنة ٦١٦)

وكان قتادة عادلاً وامن الناس في ايامهِ وكان يقول انا احق بالخلافة فلم يعدّ قط على احد وكانت الاموال والخلع تحمل اليهِ واستدعاهُ الناصر في بعض السنين فكتب اليهِ

ولي كفّ ضرغام اذل ببسطها واشري بها عز الورى وابيعُ
تظل ملوك الارض تلثم ظهرها وفي بطنها للمجدبين ربيعُ
اأجعلها تحت الرجا ثم ابتغي خلاصًا لها اني اذًا لوضيعُ
وما انا الاَّ المسك في كل بقعةٍ يضوعُ واما عندكم فيضيعُ

وكان لهُ مكة والينبع واطراف اليمن وبلاد نجد وتوفي (سنة ٦١٧) ويقال سمهُ ابنهُ حسن وقيل انهُ داخل جارية ابيهِ فادخلتهُ ليلاً فخنق اباهُ ثم قتلها وملك مكة

فامتعض لذلك اخوهُ راجح وشكاهُ الى امير الحاج اقباش التركي فوعدهُ بالانصاف فاغلق حسن المذكور ابواب مكة وبعث بعض اصحابهِ الى الامير اقباش فقتلوهُ وعلق بالمسعى . ثم جاء مسعود بن الكامل (سنة ٦٢٠) من اليمن الى مكة فقاتلهُ حسن ببطن المسعى فغلبهُ مسعود وملك مكة . ومضى حسن بن قتادة الى بغداد صريخًا فهم الترك بقتلهِ باقباش امير الركب فمنعوا . ثم مات ببغداد (سنة ٦٢٣) فدفن بمشهد الكاظم ومات مسعود بن كامل بمكة (سنة ٦٢٦) وبقي على مكة قائدهُ فخر الدين بن الشيخ وعلى اليمن امير الجيوش عمر بن علي بن رسول

ثم قصد راجح بن قتادة مكة (سنة ٦٢٩) مع عساكر عمر بن رسول فملكها من يد فخر الدين (سنة ٦٣٠) ولحق فخر الدين بمصر . ثم جاءت عساكر مصر (سنة ٦٣٣) مع الامير جبريل وملكوا مكة وهرب راجح الى اليمن فعاد معهُ عمر بن رسول وهزما عساكر مصر وملك راجح مكة وخطب بها لابن رسول بعد المستنصر

ولما ملك التتار العراق (سنة ٦٢٤) وعظم امرهم ووصلوا الى اربل ابطل المستنصر الحاج موقتًا وافتاه العلماء بذلك

ثم جهز المعتصم الحاج مع امهِ (سنة ٦٤٢) ولما حجت ضرب تركي شريفًا فكتب راجح فيهِ الى الخليفة فقطعت يدهُ وبطل الحاج بعد ذلك

ثم قوى امر امام الزيدية باليمن واعتزم على قطع الخطبة لبني العباس فسار ابو سعد بن علي بن قتادة (سنة ٦٥١) الى الناصر بن العزيز بن الظاهر بن ايوب بدمشق واستمدهُ على ان يمنعهُ على ان يقطع ذكر صاحب اليمن المظفر بن عمر بن رسول من مكة فجهز لهُ عسكرًا وسار الى مكة وقتل ابا سعيد لكنهُ نقض عهد الناصر وخطب لصاحب اليمن

ثم حضر راجح بن قتادة الى مكة (سنة ٦٥٢) واخرج حجاز بن حسن بن قتادة فلحق بالينبع و(في سنة ٦٦٦) عاد امر مكة بين ابي نمي بن ابي سعيد الذي قتله حجاز وبين غالب بن راجح الذي اخرج ابوه راجح حجازًا الى الينبع. ثم استبد ابو نمي على امر مكة ونفى قتلة ابيه الى الينبع وهم ادريس وحجاز ومحمد فانطلقوا الى الينبع وملكوه. واقام ابو نمي اميرًا بمكة نحو خمسين سنة وهلك اخر المائة السابعة او اول الثامنة من الهجرة

وبعد ابى نمي ولي على مكة ولداه رميثه وحميضه واعتقلا عطيفة وابا الغيث الى ان قدم على مكة بيبرس الجاشنكير كافل الملك الناصر بمصر فاطلقها وارسل رميثه وحميضه الى مصر ثم اعادوهما واخذوا الاخرين وطال تنازعهم وتعاقبهم في امارة مكة مرة بعد اخرى الى ان هلكوا الا رميثه فاستقل بالامارة ومات هرمًا واقتسم ابناه ثقبة وعجلان الامارة في حياة والدهما وبرضاه اولاً ثم اراد الرجوع فلم يلتفتا اليه ثم تنازعا الامارة واخيرًا قر عجلان في الامارة وسلك سبيل العدل والانصاف في الرعية وحرر التجارة والتجار من الموانع وقطع ما كان لعبيده من الجعل على الحاج وثبت لهم في ديوان السلطان عطاء ايام الموسم وكان ذلك من حسنات سلطان مصر . ثم توفي عجلان (سنة ٦٧٧) وخلفه ولده احمد وكان قد اشركه في حياته بالامر وسلك احمد على سنن ابيه وطار صيته وفصله في الآفاق وولاه صاحب مصر الملك الظاهر برقوق على ما كان ابوه وارسل اليه الخلع. ثم توفي احمد وبقي النزاع في قومه الى ان ولى الامارة سلطان مصر علي بن عجلان (سنة ٦٩٤) وافاض عليه العطاء واكثر له الجند والمستخدمين وقبض عليّ على الاشراف الذين كانوا يتشيعون ضده ثم اطلقهم فعادت الفتنة مدة طويلة

في بني مهنا امراء المدينة من بني الحسين

قال ابن خلدون « كانت المدينة بلد الانصار من الاوس والخزرج كما هو معروف ثم افترقوا على اقطار الارض في الفتوحات وانقرضوا ولم يبق بها احد الا بقايا من الطالبيين -قال- قال ابن الحصين في ذيله على الطبري دخلت المائة الرابعة والخطبة بالمدينة للمقتدر وترددت ولاية بني العباس عليها والرياسة فيها بين بني حسين وبني جعفر الى ان اخرجهم بنو حسين فسكنوا بين مكة والمدينة ثم اجلاهم بنو حرب من زبيد الى القرى والحصون واجازوهم الى الصعيد فهم هنالك الى اليوم وبقي بنو الحسين بالمدينة الى ان جاءهم ظاهر بن مسلم من مصر فملكوه عليهم قال وفي الخبر عن وصول ظاهر ان مسلمًا اباه ابنه محمد بن عبد الله بن ظاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر ويسمى عبد

الشيعة حجة الله بن عبد الله بن الحسين الاصغر بن زين العابدين وكان مسلم هذا صديقًا لكافور المتغلب على الاخشيدية بمصر وكان يدبر امرهُ ولم يكن بمصر لعصره اوجه منهُ ولما ملك العبيديون مصر وجاء المعز لدين الله ونزل بالقاهرة خطب وتشذ من مسلم هذا كريمة لبعض بنيه فرده مسلم فسخط المعز ونكبهُ واستصفى امواله واقام في اعتقاله الى ان هلك قال ولحق ابنهُ طاهر بعد ذلك بالمدينة فقدمهُ بنو الحسين على انفسهم واستقل بامارتها ستين

وتوفي ظاهر بن محمد (سنة ٣٨١) وولي بعدهُ ولدهُ الحسن . وقال العتبي مورخ دولة سبكتكين ان الذي خلفهُ صهره وابن عمهِ داود بن القاسم ومن بعده ابنهُ هاني ثم ابنهُ مهنى . والمسبحي مورخ العبيديين يقول بالاول وابن خلدون يرجح قول المسبحي غير ان امراء المدينة ينتسبون الى داود ويقولون جاء من العراق . ومتى مورخ حماة ينسبهم الى ابي داود

قال ابو سعيد و(في سنة ٣٩٠) ملكها ابو الفتوح حسن بن جعفر امير مكة من بني سليمان بامر الحاكم العبيدي وازال عنها امارة بني مهنى من بني الحسن وحاول نقل الجسد النبوي الى مصر ليلاً فاصابتهم ريح عاصفة اظلم لها الجو وكادت تقتلع البنا من اصلهِ فردهم ابو الفتوح عن ذلك ورجع الى مكة وعاد بنو مهنى الى المدينة هذا ما ذكرهُ ابو سعيد

وذكر مورخ حماة ان منصور بن عمارة كان من امرائهم ومات (سنة ٤٩٧) وولي بعدهُ ابنهُ وذكر ايضًا القاسم بن مهني بن حسين بن مهني بن داود وقال الزنجاري مورخ الحجاز كما نقل ابن سعيد واحقهم بالذكر لجلالة قدره قاسم بن جماز بن قاسم بن مهني ولاه المستضيء فاقام خمسًا وعشرين سنة ومات (سنة ٥٨٣) وولي ابنه سالم بن قاسم وكان شاعرًا وهو الذي كانت بينهُ وبين ابي عزيز قتادة صاحب مكة وقعة المصارع ببدر (سنة ٦٠١)

ومات سالم هذا في تلك السنة وولي بعده ابنهُ شيحة وكان سالم قد استخدم عسكرًا من التركمان فمضى بهم جماز بن شيحة الى قتادة وغلبهُ وفر الى الينبع

وقتل شيحة (سنة ٦٧٤) وخلفهُ ابنهُ عيسى ثم قبض عليهِ اخوه جماز وملك مكانهُ (سنة ٦٤٩) وطال عمره ومات (سنة ٧٠٤) وخلفهُ ابنهُ المنصور وكان بين المنصور واخيهِ مقبل اختلاف ولحق مقبل بالشام ووفد على بيبرس بمصر فاقطعهُ نصف اقطاع اخيهِ فقدم الى المدينة بغتة وبها ابن اخيهِ كبش واخرجهُ منها ولحق كبش بالعرب واستجاشهم ورجع الى المدينة (سنة ٧٠٩) وقتل عمهُ مقبلاً ورجع منصور لامارتهِ وبقي الخصام بينهُ وبين ماجد ابن اخيهِ مقبل وفر اخيرًا الامير منصور وتوفي (سنة ٧٢٥) وخلفهُ ابنهُ كبش وطالت ايامهُ ونازعهُ ورش بن جماز وبقيت تلك الامارة يتداولها الامراء من هذا البيت وملوك الترك بمصر يختارون لولايتها من الفريقين وهم جميعًا على مذهب الامامية

من الرافضة ويقولون بالائمة الاثني عشر

في دولة بني الرسي ائمة الزيدية بصعدة

هولاء عقب الحسن بن القاسم الرسي بن ابرهيم اخي محمد بن ابرهيم الملقب ابوه طباطبا ابن اسمعيل بن ابرهيم بن الحسن. وصعدة جبل شرق صنعاء وفيهِ حصون كثيرة اشهرها صعدة وحصن تلا وجبل مطابة وتعرف كلها ببني الرسي . واولهم يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي دعا لنفسهِ ودعي بالهادي وبويع بها (سنة ٣٨٨) في حياة ابيهِ الحسين وحارب ابرهيم بن يعفر من اعقاب التبابعة فغلبهُ على صنعاء ونجران وضرب السكة . ثم اخذها بنو يعفر منهُ ورجع الى صعدة وتوفي (سنة ٢٩٨) وخلفهُ ابنهُ محمد المرتضي ومات (سنة ٣٢٠) وبعده اخوهُ محمد احمد الناصر واستقام ملكهُ واطرد في بنيهِ بعد ذلك فولى بعده ابنهُ حسين المنتخب ومات (سنة ٣٢٤) وبعده اخوهُ القاسم المختار فقتلهُ ابو القاسم المهذاني (سنة ٣٤٤) قال ابن الجاب ولم تزل امامتهم بصعدة مطردة الى ان وقع الخلاف بينهم وجاء السليمانيون من مكة عندما اخرجهم الهواشم فغلبوا عليهم بصعدة وانقرضت دولتهم بها في المائة السادسة

قال ابن سعيد ما مفادهُ انهُ كان من بني سليمان الذين خرجوا من مكة الى اليمن احمد بن حمزة فاستدعاه اهل زبيد لينصرهم على علي بن مهدي الخارجي حين حاصرهم وبها فاتك بن محمد من بني نجاح فاجابهم على ان يقتلوا فاتكًا فقتلوهُ (سنة ٥٥٣) وملكوا عليهم احمد بن حمزة المذكور فلم يطق مقاومة علي بن مهدي ففرعن زبيد وملكها ابن مهدي (سنة ٥٥٤) ثم غلب بنو مهدي على كل ملك بني سليمان من التهايم والجبال واليمن الى ان قهر بنو ايوب بني مهدي واستقر الامر اخيرًا للمنصور عبد الله بن احمد بن حمزة

واشتدت يد المنصور هذا مع الناصر العباسي فكان يناظرهُ ويبعث دعاتهُ الى الديلم وجيلان حتى خطب لهُ هناك وصار لهُ فيها ولاة وانفق الناصر عليهِ اموالاً في العرب باليمن ولم يظفر بهِ (ابن العديم)

وجمع المنصور عبد الله ايام الزيدية بصعدة (سنة ٦٠٢) وزحف الى اليمن فخاف منهُ المعز ابن سيف الاسلام طفتكين بن ايوب . ثم زحف ابو المعز فهزمهُ . ثم جمع ثانية (سنة ٦١٢) جموعًا من همذان وخولان وارتجت لهُ اليمن وخاف مسعود بن الكامل وهو يومئذٍ صاحب اليمن ومعهُ الكرد والترك واشار امير الجيوش عمر بن رسول بمعاجلتهِ قبل ان يملك الحصون ثم اختلف اصحاب المنصور فهزمهُ وتوفي المنصور (سنة ٦٣٠) عن عمر طويل وترك ابنًا اسمهُ احمد ولاه الزيدية ولم يخطبوا لهُ

بالامامة ينتظرون علو سنه واستكمال شروطه (ابن الاثير)

ثم رجع الامر (سنة ٦٤٥) الى بقايا الرسي فبايع الزيدية لاحمد الموطي منهم وهو احمد بن الحسين من بني الهادي وكان فقيهًا اديبًا عالمًا بمذهبهم فقام امره عمر بن رسول وحاصره بحصن ثلا سنة · ثم افرج عنه ثم جمع عليه ثانية ثم قتل عمر وشغل ابنه المظفر عنه فزحف وملك عشرين حصنًا واستقر الامر له في صعدة وفي عقبه الى اخر المائة الثامنة

دولة الديلم

نقل ابن سعيد ان الديلم من ولد سام بن باسل بن اشور بن سام وان الموصل من نسل جرموق بن اشور وان الفرس والكرد والخزر من ايران بن اشور والنبط والسريان من نبيط بن اشور

والجيل وهم اهل جيلان من اخوان الديلم عصبية واحدة ومواطن الديلم والجيل بجبال طبرستان وجرجان الى جبال الري وكيلان وحدود البحيرة المعروفة ببحيرة طبرستان

ولم يكن للديلم ملك قبل الاسلام بل كانوا خاضعين للاكاسرة · فلما استفحل العرب وفتحوا البلاد بالمشرق والمغرب والجنوب والشمال زاروا بلادهم فلم يفتحوها زمان الفتوحات بل توصلوا الى اخذ الجزية منهم فان سعيد بن العاص صالحهم على ماية الف دينار في السنة ولم يات بعد سعيد احد وكانوا يمنعون الطريق من العراق الى خراسان على قومس — فلما اولى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب خراسان (سنة ٩٩) اجمع على غزوها ولم تكن جرجان يومئذٍ مدينة انما جبال ومحاصر يقوم الرجل على باب منها فيمنعه وكانت طبرستان مدينة وصاحبها يسمى اصبهبذًا · فالهادي من العباسيين حاصرها حتى استقاموا على الطاعة · ثم المهدي (سنة ١٩٨) ارسل يحيي الحرسي في اربعين الفًا فنزل طبرستان واذعن له الديلم

ففي ايام الرشيد لحق بهم يحيي بن عبد الله بن حسن المثني فاجاروه فسرح الرشيد يحيي بن الفضل البرمكي لحربهم (سنة ١٩٥) فسلموا له على شروط فذهب به وحبسه عند اخيه جعفر وبقيت الديلم خاضعة للعباسيين يحكمها امراء منها الى ان تقلصت الدعوة العباسية بعد المتوكل واستبد اهل الاطراف بالاعمال فظهرت دعاة العلوية في النواحي فقام بطبرستان ايام المستعين الحسن بن زيد الداعي العلوي من الزيدية كما تقدم · وكان وقتئذٍ على خراسان محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر وقد ولى على طبرستان عمه سليمان فكان ينوب عن سليمان فيها محمد بن اوس وكان محمد المذكور يسيء التدبير في الاهالي والعمال فتجمعوا عليه ودعوا الديلم لنصرتهم وكان الديلم يكرهون محمدًا لاساءة سابقة اليهم فنزعوا لاجابتهم وبايعوا الحسن المذكور وزحفوا به الى آمد ثم الى سارية فملكوها وهزموا

سليمان بن طاهر وكان لحسن ولاخيهِ من بعدهِ الدولة المعروفة مدة اربعين سنة وانقرضت بقتل محمد بن زيد . ودخل الديلم الحسن الاطروش من ولد عمر بن زيد العابدين كذا قال ابن خلدون وقال المسعودي ابن علي بن محمد بن علي بن علي بن ابي طالب وكان زيدي المذهب واقام فيهم نحو ١٣ سنة واميرهم يومئذٍ حسان بن وهشوذان فدعاهم الى الاسلام فاجابهُ خلق كثير وبنى لهم المساجد وكان يدافع عنهم وياخذ منهم العشر وزحف بهم الى قزوين فملكها وسالوس من ثغور المسلمين فاطاعوهُ واخذ آمد ودعاهم الى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان فاجابوهُ وحاربوا عاملها ابن صعلوك (سنة ٣٠١) فهزموهُ واستلحموا سائر اصحابهِ ولحق ابن صعلوك بالري ثم ببغداد فاستولى الاطروش على طبرستان واعمالها الى ان قتلهُ جيوش السعيد بن سامان (سنة ٣٠٤) ودال الامر بين عقبهِ قواد الديلم . ومن هولاء سرخاب بن وهشوذان اخو حسان المذكور وهو معدود في ملوكهم وكان صاحب جيش ابي الحسين بن الاطروش . ثم اخوهُ علي — ولاَّهُ المقتدر على اصفهان . ثم ليلى بن النعمان من ملوكهم ايضًا وكان قائدًا للاطروش وولاهُ صهرهُ الحسن المعروف بالداعي الصغير على جرجان ثم (ماكان) بن كالى وهو ابن عم سرخاب وولاهُ ابو الحسين بن الاطروش مدينة استراباذ واعمالها

ثم كان غير هولاء جماعة اخرى من القواد منهم من اصحاب ماكان بن كالى مثل اسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار بن يادر واخوهُ وشمكير ولشكرى ومن اصحاب مرداويج بنو بويه الملوك الاعاظم ببغداد والعراقين وفارس

ولما انقرضت الدولة العلوية واستبد هولاء القواد على اعقابهم في طبرستان وجرجان وكان الصفار بن الليث قد تغلب على خراسان لما تقلص ظل الخلافة العباسية على الاطراف نازعهُ فيها ابن سامان والداعي العلوي فاصبحت مشاعًا بينهم ثم انفرد بها ابن سامان وكل منهم يعطي طاعة معروفة للخلفاء وكان مركز السامانية وراء النهر وخراسان في اطراف مملكتهم ثم زاد تقلص الخلافة فتطاول هولاء القواد العلوية المدعوون ملوكًا الى ممالك البلاد خلا مملكة بني سامان لرهبهم منهم واستفحال ملكهم وساروا في الارض يطلبون فتوحًا وانتشروا في النواحي فتغلب كل منهم على ما قدر عليهِ فكان لهم دون طبرستان وجرجان بلاد الري وظفر بنو بويه منهم بملك فارس والعراقين واستولوا على الخلفاء وكانت لهم الدولة العظمى التي يتباهى بها الاسلام

الاسماعيلية اهل الحصون بالعراق
وفارس والشام ونحوها

٢٠ . هذه الدولة من غلاة الرافضة وكانوا يدعون مرة قرامطة ثم دعوا باطنية بالعراق ثم اسماعيلية

ثم نزارية نسبة الى نزار بن المستضي العلوي الخليفة الفاطمي بمصر

والاسماعيلية من اهل الشيعة هم المتعصبون لعلي بن ابي طالب فان جعفر الصادق وهو السادس من الائمة على خط مستقيم لما فقد ابنهُ اسمعيل عهد لولده موسى فكان عن ذلك انقسام بين الشيعة في الجيل الثاني من الهجرة فالذين قالوا ان الامامة وجبت لاولاد اسمعيل وليس لاخيه موسى دعوا اسماعيلية وقرامطة و باطنية وكانوا يعرفون بالتعليمية في العجم لانهم كانوا يذهبون بان الانسان يتصل الى معرفة الدين الصحيح بالتعليم خلافاً لاهل السنة وهولاء اقاموا دولتين الدولة العبيدية في افريقية ومصر وتعرف بالفاطمية والمعزية واخرى في العراق العجمي وعاصمتهم قصبين

وكان لاسماعيلية العجم والشام والعربية حروب مع العباسيين وخلافهم من اهل السنة الى ان تلاشت دولتهم من التتر (سنة ١٢٥٦) وتبددوا في اسيا باثين مذهبهم وحافظين تعاليهم سرًّا ومباديهم كانت واسعة فانهم من المسلمين بمقام اصحاب الفكر الحر في هذا العصر وفي اخر الجيل الماضي كانوا لم يزالوا في العجم ولهم امام في صاخ قرية في بلاد خوم تحت سلطة شاه العجم واهل الشيعة من الاعجام يحسبونهم خارجين ولهم تباع في الهند

وكان هذا المذهب بعد موت ذكرويه وانحلال عقدتهم به قد لبث منبثًا في الاقطار يتناوله اهله ويدعون اليهِ ويكتمون امرهُ فسموا الباطنية وفشت اذيتهم بالامصار بما كانوا يعتقدونهُ من استباحة الدماء والغدر بمن خالفهم ثم عظمت امورهم ايام السلطان ملك شاه السلجوقي عند ما استدام الملك للعجم من الديلم والسلجوقية وعجز الخلفاء عن اقامة اوامرهم وتحصين امامتهم فانتشروا وقتئذٍ واستولوا على الحصون والقلاع واخذوا اولاً قلعة عند فارس كان صاحبها على مذهبهم فاجتمعوا عنده وصاروا يخطفون الناس من السابلة وعظم ضررهم . ثم استولوا على قلعة شاهدر في اصفهان من بناء السلطان ملك شاه وكان ان احمد بن غطاش اتصل بعاملها وكان ابو احمد من مقدمي هذه الشيعة وعنهُ اخذ ابن الصباح وغيره فكان لاحمد ولدهُ اعتبار لمكانة ابيه ورسوخه في العلم بينهم فجمعوا له مالاً وقدموهُ عليهم وتوجوهُ فآثر مكانهُ صاحب القلعة وقلدهُ الامور فاستولى احمد عليها واطلق ايدي اصحابه في نواحيها يخيفون السابلة من كل جهة . ثم اخذوا قلعة ألموت من نواحي قزوين من بنيان الديلم ويقال لتلك الناحية طالقان وكانت في ضمان الجعفري فاستناب بها علويًا ثم اتصل الحسن بن صباح احد تلامذة ابن غطاش بابي مسلم صهر نظام الملك وزير ملك شاه وكان ابن صباح عالمًا بالتعاليم والنجوم والسحر فاتهمهُ ابو مسلم بجماعة من دعاة المصريين عنده وهم الفاطميون من الاسماعيلية وقد تقدم ذكرهم باسم الدولة العبيدية في افريقية فانكر وهرب منهُ وجال في البلاد وانتهى الى مصر فاكرمهُ المستضي وامرهُ بدعاء الناس الى امامته فسالهُ الحسن عن الامام بعده فاشار الى

ابنوا نزار ثم رجع حسان من مصر الى الشام والجزيرة وديار بكر و بلاد الروم ثم الى خراسان ونزل بقلعة الموت على العلوي فاكرمه واعتقد البركة فيه واقام يحاول احكام امره في تملكها الى ان تيسر له ذلك واخرج العلوي منها فبلغ الخبر نظام الملك فارسل عسكرًا لاخذها فحاصروها ولما اجهده الحصار ارسل من اغتال نظام الملك ورجعت عنه العساكر ثم استولوا على قلعة طبس وما جاورها من قلاع قوهستان مثل زرون وقائد وكان رئيس قوهستان المنور من اعقاب بني سيجور امراء خراسان لبني سامان فطلبه عاملها واراد اغتصاب اخته فاستدعى الاسماعيلية وملكهم هذه القلاع

واستولوا على قلعة خالنجان نحو خمسة فراسخ من اصفهان كانت لمويد الملك بن نظام الملك وانتقلت الى جاولي سقاور من امراء الغز فولى عليها بعض الترك فاتصل به بعض الباطنية وحاسنه واهداه حتى امتلك مفاتيحها فدس لابن غطاش فجاء في جمع ليلاً وهرب التركي فملكها وقتل من كان بها وقوي بذلك على اصفهان وجعل عليهم القطائع ولهم قلعة بين الرملة وآمد تسمى اسوياوند ولهم قلعة ازدهر ملكها ابو الفتوح ابن اخت الحسن بن صباح ولهم كردكوه وقلعة الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور قرب ارجان التي ملكها ابو حمزة الاسكاف من اهل ارجان وقد كان سافر الى مصر فاخذ بمذهبهم ورجع داعية لهم وكذلك قلعة ملاوخان بين فارس وخوزستان وقد كانت ملقى منيعًا لاهل الفساد مدة مائتي سنة الى ان اخذها عضد الدولة بن بويه وقتل من بها. فلما دال الملك للسلاجقة وقام ملكشاه اقطعها للاميرانز فداخله الباطنية في بيعها منهم فابى فارسلوا عليه رجالاً منهم اعتقلوا مملوكه حتى سلم لهم المفاتيح فقبضوا على صاحبها وملكوها . وتمكنت هيبتهم من الناس وخافوا شرهم فامتدت الايدي الى اهلاكهم وثاروا بهم في كل ناحية وقتلوهم وثارت بهم عامة اصفهان وكانوا قد ظهروا بها عند محاصرة برقيارق لها وبها اخوه محمد وامه خاتون الجلالية وفشت بها وزاد الاغتيال من شيعتهم فنادوا بهم وقتلوهم وحفروا الاخاديد واوقدوها بالنيران وكانوا ياتون بالباطنية فيطرحونهم بها

وتجرد جاولي سقاور والي فارس للجهاد فيهم وتحيل عليهم بجماعة من اصحابه تظاهروا بالالتجاء اليهم فاعتقدوا صدقهم ثم سار هو الى همذان فاغزاهم . ثم ذهب الباطنية بعد ذلك اليها لغدر الامراء السلجوقية فكان يقصد الواحد منهم اميرًا وقد اخفى خنجرًا واستمات لايخشى عاقبة فيقتله حملهم على ذلك السلطان برقيارق لما استعان بهم في امر اخيه ولما انتصر برقيارق انتشروا في عسكره وارتاب امراء العسكر وخافوا عاديتهم ولازموا سلاحهم وشكوا الامر لبرقيارق بما يلقونه منهم ومن عسكر اخيه يتهمونهم بالانحياز اليهم فطاع طرق فاذن في قتلهم وركب وركب العسكر واخذوا يقتلونهم حتى ان الامير محمد من اعقاب علاء الدولة بن كاكويه صاحب مدينة يزد اتهم برايهم وقتل . وكتب الى

بغداد في ابي ابرهيم الاسترابادي وكان بركيارق قد ارسله فاخذ وقتل واستفحل في كل جهة حتى اخذ كثير من الناس بالتهمة وذلك (سنة ٤٨٦)

ولما ثبت النصر لمحمد بعد اخيه بركيارق زحف الى قلعة شاهدر التي بها ابن غطاش لقربها من اصفهان تخت الملك واحاط بجبل القلعة في اول المائة السادسة ودورته اربعة فراسخ ورتب القواد لقتالها نوبًا الى ان استامنوا على ان يعوضوا عن قلعتهم بقلعة خالنجان على سبعة فراسخ من اصفهان وان يؤجلوا شهرًا في الرحيل فاجابهم اما م فاستخدموا تلك المدة لجمع الازواد والاطعمة ووثبوا ببعض الامراء فجدد السلطان حصارهم فطلبوا ان ينتقلوا الى قلعة الناظر وطبس فيبعث معهم من يوصل فريقًا منهم الى هناك ويقيم الباقون في ضرس من القلعة حتى يصل الاولون فيرسل معهم من يوصلهم الى ابن الصباح بقلعة ألموت فاجابهم الى طلبهم . فخرج الاولون الى الناظر وطبس وخرب السلطان القلعة اما ابن غطاش فتمسك بالضرس الذي هو فيه وعزم على الاعتصام وزحف اليه الناس عامة . ثم هرب بعض اصحابه الى السلطان فدله على عورة المكان فصعدوا اليه وقتلوا من كان فيه نحو ثمانين . واسر ابن غطاش ثم سلخ وحشي جلدهُ تبنًا وقتل ابنه وارسل براسهما الى بغداد ورمت زوج غطاش نفسها من الشاهق وماتت

ولما قتل ابو ابرهيم الاسترابادي ببغداد هرب بهرام ابن اخيه الى الشام واقام هناك داعية وتبعهُ خلق كثير لما كانوا يخافون منهم القتل غدرًا . وكان ابو الغازي بن ارتق بحلب يستخدمهم لغاياته في اعدائه واشار ابو الغازي على ابن تنتكين بدمشق بمثل ذلك فاستحسن رايهُ وبلغ ذلك بهرام فاظهر نفسهُ واعلن بدعوته واعانهُ الوزير ابو علي ظاهر بن سعد المزدغاني لغرضهِ فيهِ فاستفحل امرهُ وكثر حزبهُ . ثم طلب حصنًا من تنتكين صاحب دمشق ووزيرهِ ابي علي للاعتصام به من عامة دمشق فاعطاه قلعة بانياس (سنة ٥٢٠) وترك بدمشق نائبًا عنهُ يدعو الناس الى مذهبه فكثروا وانتشروا وملك بهرام عدة قلاع من جملتها القدموس في الجبال قال ابن خلدون « وكان بوادي التيم من اعمال بعلبك طوائف من المجوس والنصرانية والدرزية واميرهم يسمى الضحاك فسار بهرام لقتالهم (سنة ٥٢٢) واستخلف على بانياس اسمعيل من اصحابه ولقيهم الضحاك في الف رجل وكبس عسكر بهرام فهزمهم وقتلهُ وعاد فلهم الى بانياس فقام بامرهم اسمعيل وجمع شملهم وبث دعاتهُ في البلاد وعاضدهُ المزدغاني وزير دمشق وانتصر لهذه الطائفة واقام بدمشق خليفة لبهرام اسمهُ ابو الوفاء فقوي امرهُ وكثر اتباعهُ واستبد على صاحبها تاج الملوك بن طغتكين

ولم تزل قلاع هذه الشيعة بالعراق عشًا لهذه الغواية منذ تملكها احمد بن عطاش والحسن بن الصباح وكان لهذا الحسن مقالات في مذاهب الرافضة غريبة في الملوك حتى جعلهم بالمقالات الجديدة

ولا يدينون بقولها الا الغلاة منهم · وظهورهم كان في العجم في الجيل الحادي عشر للمسيح ومباديهم انه لا يوجد عمل جيد او ردي في ذاته · وان كل الاديان اختراع الانسان ومعلمهم كان عجمي الجنس متفقهًا في دين المجوس ويكره العرب ودينهم وكانت مصر ملاذًا لهم في عهد الدولة الفاطمية الموسسة من عبيد الله المهدي المدعى بالتنازل من اسمعيل الامام السابع من ذرية علي وكان لهم مسجد لبث تعاليمهم السرية بالقاهرة وامتد اصحاب هذه الشيعة في اكثر اسيا وكانت غايتهم حفظ الدولة الفاطمية المذكورة وهدم خلافة العباسيين فلما ظهر حسن بن صباح اراد ان يجني لنفسهِ نفعًا من غرس شيعتهِ وكان يخدم السلاجقة وله مقام عندهم الى ان اتهموهُ فهرب الى مصر وتداخل مع خليفتها فاكرمهُ كل اكرام وقفل من مصر يبث بكل غيرة اراء الشيعة واقام جمعية مستقلة تحت رتب سبع وهو على راسهم باسم شيخ الجبل وكان تحتهُ ثلاثة يدعون دايان اي اسس منهم الداي الكبير وهو الرئيس · ثم العلماء · ثم الرفقاء · وبعدهم الفداوية اي الذين ياخذون فدية انفسهم على الامانة في مقاصد من يستخدمهم وهم التباع المخلصون كل طاعة · ثم اللدقاء وهم الطلاب الداخلون · ثم العامة وجعل على الدايان شريعة من سبعة رووس · طاعة مطلقة لروسائهم · وحفظ السر · والتمسك بمعنى الكتاب · والتاويل لا بحسب الظاهر · والاقتصاد والتعاون · ونحوها وضرب في اصول الايمان والاداب والتكاليف الا ان هذه الاسرار كانت محصورة في قليل منهم وكان الباقون ملزومين بحفظ مبادى القرآن حرفيًا · واهم طبقة من هذه الشيعة الفداوية وهم عسكرية هذه الشيعة فانهم كانوا يسرقون او يشترون الفتيان والاطفال ويهذبونهم بنظام خصوصي ويطبعون على اذهانهم قوة الامام المطلقة وعظمة ذنب من خالف اوامرهُ التي كانت كاوامر الله تعالى فكان لباسهم الابيض بقلانيس ونطق حمر وخناجر وكانوا يتزيون بكل زي عندما يرسلون في امر والسائح مركو بول ينقل امورًا غريبة عند ذكرهِ بستان قلعة الموت وما كان لاحد الفداوية الذي أُخذ الى هناك بقصد ارسالهِ في قضية مهمة قال ما معناهُ انه اخذ الى هناك في حالة نوم حاصل عن تخدير عقاقير خاصة لذلك ثم نبهوهُ فوجد نفسهُ كانهُ في فردوس جميل لا ينقصهُ شيء من تمتعات الحواس وقيل له بان ذلك مقدمة جنة الرسول المحفوظة لاتباعهِ وخدامهِ الصادقين حتى تمنى ذلك المغرور الموت باي وجه كان للمجي اليهِ · وهذا يوافق ما قاله بعض مورخي المسلمين والمورخ فون همر يميل لتصديق ذلك ملخصًا وقال البعض ان مناظر ذلك البستان كانت عن مخدرات تعطى للفداوية مصطنعة لمثل ذلك حتى ذهب البعض انه هو الحشيش ولذلك دعوا حشاشين فغير الافرنج معنى الكلمة الى اساسين على انه قد يمكن ان يكون اسم اساسين عند الافرنج اتيًا من حسانية نسبة الى حسن المذكور او من اساسيون نسبة الى الاساس من لم يكن جميعهم

وهذه الكلمة تعلمها اهل اوربا في حروب الصليب وحملوها معهم ويفهمون منها القاتل المستاجر على القتل وشقوا منها فعلاً بمعنى الاغتيال والطليان يفهمون بها اللص القاطع الطريق وهولاء الفداوية كانوا رسل الموت يحملون الغدر والاغتيال الى مخادع الملوك. فنظام الملك خجروهُ وملكشاه اغتالوهُ بالسم كما قيل

وحسان هذا بعد ان مد شيعتهُ الى اماكن عديدة من مملكة الاسلام مات (سنة ١١٢٤) في قلعة الموت ٣٥ سنة لولايتهِ وخلفهُ بعهدهِ كياه ابوزورق عميد احد الاسس . فجدد القتال مع السلاجقة . ورئيسهم في سورية صنع عهدًا مع بالدوين الثاني ملك القدس عن يد رئيس الهيكلية كوري بانيس على عدو الفريقين السلطان السلجوقي ولكن لم يكن ميثاقهم اكيدًا لا مع الافرنج ولا المسلمين فانهم اغتالوا سلطان الموصل قتلاً وهو يدخل الجامع (سنة ١١٢٦) وكان القاتل بزي درويش وبعده بقليل قتلوا احد خلفاء بغداد وهكذا احد خلفاء مصر مع كونهِ فاطميًا

وقتلوا ريموند كونت طرابلس (سنة ١١٥١) غيلة وكان وقتئذٍ الفرع الشامي قد تحرر من رئاسة شيخ العجم قال ابن خلدون « ثم ان المزدغاني راسل الفرنج ان يملكهم دمشق على ان يعطوهُ صور وتواعدوا ليوم عينوهُ ودس للاسماعيلية ان يكونوا ذلك اليوم على اهبة وفي الخبر الى اسمعيل فخاف ان يثور بهِ الناس فاعطى بانياس الفرنج وانتقل اليهم ومات (سنة ٥٢٤) وكان للاسماعيلية قلاع في تلك الجهات تتصل بعضها ببعض اعظمها قلعة مصيات . وبعد ابي زورق قام جملة شيوخ بولايتهم في قلعة ألموت منهم حسان وهذا قتل لانهُ افشى بعض اسرارهم قتلهُ ولده محمد وهذا قتلهُ ولدهُ جلال الدين وخلفهُ (سنة ١١٧٧) وكان جلال الدين احكم من غيرهِ فانهُ صالح خليفة بغداد وارسل حرمهُ الى الحج بمكة ودعي مومنًا . وعلى جلال الدين تخلف ابنهُ علاء الدين وفي عهده زحف اليهم جلال الدين منكبرني ابن علا الدين خوارزم شاه عند ما رجع من الهند وملك بلاد اذربيجان وارمينية لانهم قتلوا بعض امرائهِ فسار الى بلادهم ودوخ نواحي ألموت وخرب قلاعهم التي بخراسان واستباحها قتلاً ونهبًا (سنة ١٢٢٦—٦٤٤) لانهم كانوا منذ ظهور التتر شرهوا على الجهات فاراد كفهم عن ذلك . وعلا الدين هذا قتلهُ ابنهُ ركن الدين وخلفهُ . وفي عهد ركن الدين هذا اخذ التتار ألموت واسروهُ الى ان اخذت كل مراكزهم وانتهت دولتهم (سنة ١٢٥٦)

اما الفرع الشامي فدام تحت الاساس الكبير وتاريخهم معلوم جيدًا عند الفرنج الصليبيين واوربا بالاجمال لاختلاطهم في تلك الحروب وعندما اخذ صلاح الدين الايوبي الشام (سنة ١١٧٦—٥٧٢) حاصر مصيات وضيق عليها فارسل سنان مقدمهم الى خال صلاح الدين بحماه وهو شهاب الدين ان يسال صلاح الدين في الصلح معهم وتهدده سرًّا فسار الى صلاح الدين واصلح امرهم عندهُ فرحل

عنهم وكثيرًا ما وقع صلاح الدين المذكور في اخطار الهلاك منهم

ونقل ان الداي الكبير سنانًا المشهور عندهم بالكرامة ارسل (سنة ١١٧٣) الى أملريك ملك اورشليم عارضًا باسمو واسم شيعتو الانتقال الى دين النصارى بشرط ان يترك لهم الهيكليون الالفي بوكات من الذهب المرتبة عليهم سنويًا فاجابهم الملريك فرحًا ورد الرسول بالاكرام والعطايا فصادفه في رجوعه طائفة من الهيكليين ومنهم غالطير ومنسل رئيسهم فاوقعوا به والتزم الاساسيون بالعدول الى الخناجر بعد تركها مدة سنوات فكان بين ضحاياهم كونارد مركيز صور ومونفرات قتله اثنان من الفداوية في سوق صور (سنة ١١٩٢) واسباب قتلهِ قد تنسب الى رجار ملك الانكليز

وكان الاساسيون حافظين اهل طرابلس في رهب دائم و ياخذون الخفر من امراء الفرنج لوقاية حياتهم حتى انهم طالبوه من ماري لويس ريد فرنس بمروره بعكا عند رجوعه من ركبة دمياط ولكنه رفض بغضب . وهكذا الى ان ظفر بهم الملك الظاهر بيبرس سلطان مماليك مصر واخذ حصونهم وذلك بعد ملاشاة الفرع العجمي باربع عشرة سنة . وكثيرٌ منهم فروا الى جبال سوريا واختلطوا مع الكرد اليزيدية وتغلغلوا هناك الى يومنا هذا وكانوا يقيمون في جبال سماك المجاورة لبنان ومحلهم الاول المسجد قرب حماه على العاصي وقد اخذ النصيرية وهم شيعة اخرى في جبال الشام (سنة ١٢٢٤-١٨٠٩) مسجدًا وقتلوا رئيسهم وكثيرًا منهم ونهبوا المكان . ومن ذلك الوقت ضعفوا جدًا وقد اضافوا الى مباديهم بعض اعتقادات من الامم المجاورة فهم لا يشاركون المسلمين الا بالختان وليس لهم جوامع ويحجون لمشهد علي وغالبهم سذج اهل ضيافة ويقال انهم احسن من جيرانهم النصيرية وهم غير الدروز لا كما زعم بعضهم . والان فلنرجع الى سياق التاريخ القرني

فصل

في الربع الثاني من القرن الرابع من الهجرة

و(في سنة ٩٣٧-٣٢٦) استولى ابو الحسين احمد بن بويه الملقب بمعز الدولة على الاهواز بامر عماد الدولة . واشار ابو علي بن مقلة على الراضي بالقبض على ابن رائق واصحابهِ ضامنًا انه يقدر ان يستخرج منهم ثلاثة ملايين دينار وحرضهُ على استقدام بجكم عوضهُ وطلب ابن مقلة من الراضي ايضًا الاذن بالانتقال اليهِ الى دار الخلافة فاذن له ثم اعتقلهُ هناك واطلع ابن رائق على كتاب ابن مقلة فشكرا ابن رائق الراضي وبالحاحهِ قطعت يد ابن مقلة وعولج الى ان شفي من قطعهِ . وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم على يد ابن ورقاء الشيباني البريدي في ستة الاف وثلثمائة اسير

وعاد ابن مقلة الى مكاتبة الراضي خاطبًا الوزارة وذاكرًا ان قطع يده لم يمنعهُ من العمل فكان

يشد القلم الى اليد المقطوعة ويكتب ويهدد ابن رائق فامر الراضي بقطع لسانهِ ثم نقل الى حبس ضيق فلم يكن لهُ من يخدمهُ وكان يستسقي الماء بيده اليسرى ماسكًا الحبل بفمه. وكابد شديدًا ولحقهُ الذرب الي ان مات في شوال (سنة ٩٣٩–٣٢٨) وهذا هو ابن مقلة الشهير بخطهِ ودفن بدار الخليفة. ثم طلبهُ اهلهُ فنبش وسلم اليهم فدفنوهُ في داره. ثم نبش ايضًا ونقل الى دار اخرى. قال ابو الفداء «ومن العجب انهُ ولي الوزارة ثلاث مرار ووزر لثلاثة خلفاء المقتدر والقاهر والراضي وسافر ثلاث سفرات ثنتين الى شيراز واخرى الى الموصل ودفن بعد موتهِ ثلاث مرات»

وفي هذه السنة دخل بجكم بغداد ولقي الراضي وقلدهُ امارة الامراء عوض ابن رائق بعد ان حاربهُ وهزمهُ وفر ابن رائق الى عكبره وكانت امارتهُ نحو سنة وعشرة اشهر

وكان بجكم المذكور مملوكًا لوزير (ماكان) بن كاكي الديلمي ثم اخذه (ماكان) منهُ ثم لحق بمرداويج وكان من جملة من قتلوهُ. ثم اتصل بخدمة ابن رائق وانتسب اليهِ وكتب على رايتهِ الرائقي. ثم سيره ابن رائق الى الاهواز فاستولى عليها واخرج ابن البريدي. فلما اخذ ابن بويه الاهواز كما تقدم صار بجكم الى واسط ثم الى بغداد واخذ مكانهُ. وفيها وقعت الفتن بين القرامطة وفسد امرهم

وسار الراضي وبجكم (سنة ٩٣٨–٣٢٧) الى الموصل ففر ناصر الدولة ابن حمدان ثم حمل مالاً وكان الصلح. وظهر ابن رائق في غياب الراضي وبجكم وخاف الخليفة باسهُ وانتهى الامر بان عقد لهُ على حران والرها وقنسرين والعواصم فسار ابن رائق واستولى عليها

وفيها عصي امية بن اسحق على عبد الرحمن الناصر الاموي واستنجد بالجلالقة فانجدوهُ وغلب ثم غلب واستامن فامن

وفيها استولى ابن رائق على دمشق وحمص وقوي على بدر نائب الاخشيذ وطارده حتى بلغ العريش فخرج اليهِ الاخشيذ واقتتلوا وانجلى الامر عن هزيمة ابن رائق ثم جهز الاخشيذ عليهِ جيشًا مع اخيهِ فلقيهُ ابن رائق وظفر بهِ وقتل اخا الاخشيذ وكان من سياسة ابن رائق هنا انهُ ارسل الى الاخشيذ يعزيه باخيهِ ويتاسف على قتلهِ ويعتذر بكونهِ بدون علمهِ حتى انهُ ارسل اليهِ مزاحمًا ابنهُ يقول لهُ ان احببت فاقتل ولدي بهِ. فخلع حينئذ الاخشيذ على مزاحم وارجعهُ الى ابيهِ واستقرت مصر للاخشيذ والشام لمحمد بن رائق

وفيها قتل طريف السبكري المار ذكره. وتوفي الراضي بالله (سنة ٩٤٠–٣٢٩) بمرض الاستسقاء في انصاف ربيع الاول لست سنين واشهر من خلافتهِ وهو ابو العباس احمد بن المقتدر بالله ابي الفضل جعفر بن المعتضد بالله ابي العباس احمد بن الموفق بالله طلحة. وكان اديبًا شاعرًا سخيًا يميل الى الادباء واهل الفضل. وسنان بن ثابت الصابي من جملة ندمائهِ وهو اخر خليفة لهُ شعر

يستحق التدوين ومنهُ

يصفر وجهي اذا تاملهُ طرفي فيحمر وجههُ خجلا
حتى كان الذي بوجنتهِ من دم وجهي اليهِ قد نقلا

قال ابو الفداء وهو اخر خليفة خطب كثيرًا على منبر واخر خليفة جالس الجلساء واخر خليفة كانت نفقتهُ وجراياتهُ وخزائنهُ ومطابخهُ واموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين وعاش ثنتين وثلاثين سنة

في خلافة المتقي لله بن المقتدر (سنة ٩٤٠– ٣٢٩) – (سنة ٩٤٣ – ٣٣٢)

كان لما توفي الراضي بجكم امير الجيش بالكوفة وقيل بواسط فارسل كاتبهُ عبد الله الكوفي بكتاب يامر فيهِ ان يجتمع ابو القاسم سليمان بن الحسن الوزير وكل من تقلد الوزارة واصحاب الدواوين والعباسيون والقضاة والعلويون ووجوه بغداد ويتشاورا مع الكاتب المذكور في من يريدون نصبهُ للخلافة ففعلوا وسموا ابرهيم بن المقتدر وبايعوه ولقبوه المتقي لله فارسل الخلع واللواء الى بجكم. وكان بجكم قبل ذلك قد ارسل واخذ من دار الخلافة فرشًا والات استحسنها. ثم جعل بجكم سلامة الطولوني حاجبًا للمتقي واقر سليمان بن الحسن في وزارتهِ الاسمية لان كل شي كان في يد الكوفي كاتبهِ. وفيها قتل بجكم – قتلهُ الاكراد قالوا انهُ كان قد ارسل الى قتال ابي عبد الله البريدي ثم سافر من واسط في اثره فحضره الخبر بانتصار عسكره على البريدي وفرار البريدي فاحب الرجوع الى واسط متصيدًا في طريقهِ. فلما بلغ نهر جور سمع هناك بوجود بعض الاكراد من اهل الثروة فقصدهم في جماعة قليلة واوقع بهم فهربوا وجاء ولد كردي من ورائهِ وطعنهُ برمح في خاصرتهِ ولم يعلم انهُ بجكم ومات. فلما بلغ ذلك المتقي قفل على داره واخذ منها اموالاً عظيمة. وفرح البريدي بقتلهِ وسار الى بغداد واستولى عليها ايامًا. ثم ارسل الى المتقي وطلب منهُ ستمائة الف دينار ليفرقها في الجند فامتنع المتقي اولاً. ثم ارسل لهُ خمسمائة الف لما راى من تهدده فاخذها ولم يعط الجند شيئًا فنهضوا عليهِ ففر منهم هو واخوه وابنهُ واصحابهُ في الماء الى واسط

ثم استولى كورتكين الديلمي على الامور ببغداد وقلده المتقي امارة الامراء فما لبث ان حضر ابن رائق من الشام مستخلفًا عليها ابن مقاتل. وبوصولهِ قبض على كورتكين وحبسهُ وتقلد الولاية بامر الخليفة الى ان قتل (سنة ٩٤١ ٣٣٠–) وكان (ماكان) قد استولى على جرجان فقصده محمد بن مظفر بن محتاج احد قواد بني سامان بعسكر خراسان فهزمهُ عنها فذهب الي طبرستان واقام بها. ثم قام ابن محتاج الى الري ليستولي عليها وبها ابن زيار فارسل وشمكير يستنجد (ماكان) فحضر وقاتلا ابن محتاج فاصاب (ماكان) سهم نفذ من الخوذة الى القفاء ومات وانهزم وشمكير واخذ ابن محتاج الري

فقدم (سنة ٩٤١-٣٣٠) ابن البريدي الى بغداد فهرب المتقي وابن رايق من طريقه الى جهة الموصل ونهب ابن البريدي بغداد وظلم وجار. ولما وصل المتقي الى تكريت كاتب ناصر الدولة ابن حمدان وارسل اليه ابنه ابا المنصور وابن رائق فاكرمهما ثم امر ناصر الدولة بعض رجاله فقتلوا ابن رائق وهو منصرف مع ابي المنصور. ثم سار ابن حمدان الى المتقي فخلع المتقي عليه وجعله امير الامراء وخلع على اخيه ابي الحسن علي ولقبه سيف الدولة

ولما بلغ ذلك الاخشيذ صاحب مصر سار الى دمشق واستولى عليها . وسار ناصر الدولة والمتقي الى بغداد فهرب عنها ابن البريدي ونهب الناس بعضهم بعضًا وكان قيام البريدي ببغداد ثلاثة اشهر وعشرين يومًا

ولما ثبت قدم ناصر الدولة ببغداد امر باصلاح الدنانير وكان الدينار بعشرة دراهم فبيع بعد الاصلاح بثلثة عشر درهمًا

ثم كبس الاتراك سيف الدولة ليلاً بواسط فهرب من المعسكر واذ بلغ اخاهُ ناصر الدولة ترك بغداد الى الموصل (سنة ٣٣١) . وتولى تورون التركي الامارة وكانت ولاية ابن حمدان نحو سنة وشهر ونهبت الديلم دارهُ ولم يجمع تفريق سيف الدولة اربع مئة الف دينار في العسكر وقتئذٍ . وكان المتقي يخشى تورون وهو السادس ممن اخذ امرة الامراء . اي ابن رائق . ويحكم . وابن البريدي . وكورتكين . ثم ابن رائق . ثم ابن حمدان . ثم تورون وكل ذلك في مدة قصيرة

و(في سنة ٣٣١) توفي ابو سعيد نصر بن احمد بن اسمعيل الساماني صاحب خراسان وما وراء النهر لثلثين سنة من ولايته وعمرهُ نحو ثمان وثلاثين سنة وكان عاقلاً حليمًا كريمًا دينًا وخلفهُ ولدهُ نوح ولقب بالامير الحميد

قال ابو الفرج صاحب تاريخ الدول „ ان في السنة المذكورة خلع المتقي تورون وجعل الامير الحميد نوحًا الساماني امير الامراء „ . وفيها ارسل ملك الروم رسولاً الى المتقي يطلب منهُ ان يرسل له منديلاً مسح به المسيح وجهه فصارت صورة وجهه فيه وامر هذا المنديل كما ذكرهُ ابو الفرج انه في السنة التاسعة عشرة من ملك طيباريوس وهي سنة ٣٤٢ (من الاسكندر) ارسل ابجر ملك الرها فيجًا (رسولاً) اسمهُ حنان الى المسيح بكتاب يقول فيه „ من ابجر الاسود الى يشوع المتطبب الظاهر باورشليم —اما بعد فانه بلغني عنك وعن طبك الروحاني وانك تبري الاسقام من غير ادوية فحدست انك اما اله نزلت من السماء او ابن اله فانا اسالك ان تصير اليَّ لعلك تشفي ما بي من السقم . وقد بلغني ان اليهود يرومون قتلك ولي مدينة واحدة تكفيني واياك نسكنها في هدو والسلام „ . فاجابه المسيح بكتاب قائلاً „ طوباك انك امنت بي ولم ترني . واما ما سالتني من المصير اليك فانه يجب ان اتم ما

أُرسلت له واصعد الى ابي ثم ارسل اليك تلميذًا يبرئ سقمك ويحيك ومن معك حيوة الابد —
قال فلما اخذ حنان الجواب من المسيح جعل ينظر اليه ويصور صورته في منديل لانه كان مصورًا
ومضى به الى الرها ودفعه الى ابجر الاسود وقيل ان المسيح تمندل بذلك المنديل ماسحًا به وجهه فانتقشت
به صورته قال وبعد صعود المسيح الى السماء ارسل ادى السليح احد الاثنين والسبعين الى الرها وابراهُ
من سقامه

قال ابو الفداء ما معناهُ ان رسول ملك الروم بلغ المتقي انه ان ارسله اطلق له عددًا وافرًا
من اسرى المسلمين فجمع المتقي القضاة والفقهاء واستفتاهم عن جواز ذلك فاختلفوا وترجح الراي بتسليم
المنديل فداء عن المسلمين. فامر حينئذٍ الخليفة باعطاء ذلك وارسال من يستلم الاسرى . واتفق
(سنة ٣٣٢) شيرزاد من اكابر قواد تورون التركي مع بعض اللصوص المتحيزين على ان يدفع اللص
لشيرزاد كل شهر خمسة عشر الف دينار اقساطًا ويضمن له غوائل اعماله . فهذا وغيرهُ من الاختلال
زاد خوف المتقي من تورون وكان تورون بواسط فتوجه المتقي الى جهة الموصل يطلب مددًا من
ناصر الدولة ابن حمدان فاجابه ناصر الدولة وارسل له عسكرًا مع ابن عمه سيف الدولة الى تكريت
ورحل معهم المتقي بحرمه واهله ووزيره الى الموصل واقام مدة عند ابن حمدان ثم قام الى الرقة فاقام بها

وفيها خرجت طائفة من الروس بحرًا ودخلوا نهر الكلكز الى بردعة وبها نائب المرزُبان ابن
محمد بن مسافر ملك الديلم باذربيجان واستولوا عليها وقتلوا ونهبوا ثم عادوا الى المراكب وقلعوا الى
بلادهم

وفيها مات ابو طاهر القرمطي بالجدري وحدث غلاء عظيم ببغداد واستعمل ابن حمدان
محمد بن علي بن مقاتل على قنسرين والعواصم وحمص ثم استبدله بابن عمه الحسين بن سعيد
الحمداني

ثم ظهر للمتقي ضجر ابن حمدان منه فارسل الى ابن تورون بالمصالحة واخذ عليه اليمين له
وللوزير ونهض المتقي من الرقة الى الفرات فحل في هيت وارسل يطلب تجديد اليمين من تورون
فجددها له وقام للقائه فالتقيا بالسندية فحول تورون وقبل الارض بين يدي المتقي وقال ها قد
وفيت بنفسي من الطاعة ثم اخذ المتقي والوزير وجماعته الى مضربه وسمل عيني المتقي ثم سار بهم
الى بغداد . وكان المتقي قد كتب وهو في الرقة الى الاخشيذ في مصر يشكو اليه فقام الاخشيذ الى
الرقة على طريق حلب وحمل له هدايا عظيمة واجتهد باخذ المتقي معه وخوفه من تورون فلم يقبل
ورجع الاخشيذ . فكان ما كان من مكايدة تورون وندم على عمله قال ابن خلدون ثم سمله
لثلاث سنين ونصف من خلافته واحضر ابا القاسم عبد الله بن المكتفي فبايعه الناس ولقب المستكفي

وجيء بالمتقي فبايعه واخذت منه البردة والقضيب واستوزر ابا الفرج محمد بن علي السامري فكان له اسم الوزارة على سنن من قبله والامور راجعة لابن شيرزاد كاتب توزون · ثم جعل المتقي بالحبس ومات (سنة ٣٣٣) لثلاث سنين ونصف من خلافته وامه ام ولد اسمها خلوب ·

وفي عهد المتقي لم يكن باقيًا في يد الخليفة الا اعمال الاهواز والبصرة وواسط فاستولى معز الدولة على الاهواز ثم على واسط وبقيت البصرة بيد عبد الله البريدي واستولى على بغداد مع المتقي امراء الامراء المتقدم ذكرهم من كل طامع لئيم فكانت الخلافة عارية من كل قوة ملعبًا لاطماعهم · وفي عهده خرج الروم سنة (٣٣٠) وانتهوا الى قرب حلب وعاثوا وغنموا ونهبوا وسبوا نحو خمسة الاف فخالفهم ثمل ودخل الروم من ناحية طرسوس فعاث فيها وغنم واسر عدة بطارقة وقفل

في خلافة المستكفي بالله ثاني عشريهم من (٩٤٤ — ٣٣٣ الى ٩٤٥ — ٣٣٤)

نقل احد خواص توزون ان سبب مبايعة توزون لابي القاسم المذكور قال « دعيت الى صديق لي ولما انفردت به قال لي انه تزوج الى قوم وان امراة قالت له ان هذا المتقي قد عاداكم ولن يصفو قلبه لكم وها هنا رجل من اولاد الخلافة ذو عقل ودين بايعوهُ فيكون لكم غرسة ويملككم من الاموال وما ترغبونه وتستريحوا قال قلت اريد ان اسمع كلامها فجاءني بها واذا هي امراة عاقلة جزلة فاعادت عليَّ مثل ذلك واحضرت اليَّ الرجل بزي امراة فعرفني بنفسهِ وضمن لي ظهارة ثمانمائة الف دينار وظهر لي منه العقل والفصاحة فاخبرت بذلك توزون فوقع الكلام في قلبه وصارت تلك المراة وتسمى علم قهرمانة المستكفي وغلبت على كل اموره »

وكان سيف الدولة بن حمدان قبلاً لما سار المتقي الى بغداد قد سار هو الى حلب وملكها ثم استغنم فرصة غياب الاخشيذ الى مصر فركب الى حمص فلقيه عسكر الاخشيذ محمد بن طغج صاحب مصر والشام مع كافور فاقتتلوا فانهزم كافور واخذ سيف الدولة حمص · ثم سار الى دمشق وحاصرها ورجع عنها خائبًا

وتوفي (سنة ٩٤٥ — ٣٣٤) توزون في داره ببغداد فاجتمع الجند وعقدوا لزيرك بن شيرزاد وحلف له الجند والمستكفي وقلدهُ امارة الامراء

ولما بلغ ذلك معز الدولة بن بويه وهو بالاهواز قدم الى بغداد فاختفى المستكفي وزيرك وانهزمت الاتراك من وجه الحسن بن محمد المهلبي صاحب معز الدولة الى الموصل فظهر المستكفي حينئذٍ واظهر سروره بقدوم معز الدولة وانه اختفى خوفًا من الاتراك · ثم دخل ابن بويه بغداد ١٢ جمادى الاولى واجتمع بالخليفة وبايعه وحلف له وخلع عليهِ ولقبه معز الدولة ولقب اخاهُ عليًا عماد الدولة واخاه

الحسن بركن الدولة وامر بان تضرب القابهم وكناهم على الدراهم والدنانير. قال ابو الفرج « وظهر ابن شيرزاد ولقي معز الدولة فولاهُ امر الخراج وجباية الاموال وكانت ولاية امرة الامراء ثلاثة اشهر وعشرين يومًا »

ونزل معز الدولة بدار مونس وانزل اصحابهُ بدور الاهالي فتضايق الناس . ومن ذلك الوقت صارت امرة الامراء في بني بويه . وترتب للخليفة اجرة يقبضها كاتبهُ يوميًا خمسة الاف لنفقاتهِ وعادت الخلافة امامة عديمة القوة

ثم بلغ معز الدولة ان علم قهرمانة المستكفي كانت عازمة على ازالتهِ فحضر الى الخليفة وحضر رجلان من نقباء الديلم فتناولا يد المستكفي فظن انهما يريدان تقبيلها فمدها اليهما فجذباه عن سريره والقياه على الارض وجعلا عمامتهُ في حلقهِ وساقاه ماشيًا الى دار معز الدولة فاعتقل بها واخذت علم فقطع لسانها . ثم سلم المستكفي الى الخليفة الجديد وهو المطيع لله فسمل عينيهِ واودعهُ السجن الى ان مات وكانت خلافته سنة واربعة اشهر . وقد اصبحت الخلافة لعبة في ايدي القواد وامراء الامراء والامراء المقطعين المستبدين في اقطاعاتهم وفي ايدي النساء الحبولات الى غير ذلك يعزلون ويولون ويخلعون ويبايعون ويلعبون بالرئاسة والسياسة كيف شاءوا

وكان قد سقط ذكر العباسيين في الصلوات العمومية من عهد الراضي وقل اعتبارهم بين المسلمين فكان بنو امية وحكام العجم والهند وافريقية ومصر وجزيرة العرب ونحوها يامرون بالخطبة لهم ولاولادهم . وشرفاء مكة اخذوا بالخطبة للفاطميين حتى ان الراضي نفسهُ رفع اسمهُ وجعل اسم وزيره عوضهُ ولم يزالوا كذلك الى عهد صلاح الدين الايوبي وتوصلوا الى حالةٍ يرثى لها من الفقر واقتصرت ولايتهم على بغداد فقط وكان البغداديون يكرهونهم والحنابلة يضطهدونهم للاسراف وشربهم المسكرات وانقسم الناس بين فاطمي وعباسي . وكان خدامهم الاتراك والافريقيون دائمًا في قتال فيما بينهم ووزراءهم الامراء العمرويةُ يحبسونهم ويخلعونهم كما ارادوا ويتعدون على الجوامع والنساء وقس عليهِ من عدم النظام . حتى قيل ان دعوة ابن بويه الى بغداد كانت براي المستكفي اذلالاً لتلك العساكر الخائنة والقواد المتمردة واخمادًا للفتن فحضر واختص لنفسهِ الولاية الزمنية والحربية وابقى للخليفة الامامة وعين لهُ معاشًا نحو مائة الف ليره انكليزية سنويًا . وبعد اربعين يومًا من ذلك علمله كما مر

ولما استولى معز الدولة . قال ابن خلدون « طلب الجند ارزاقهم علي عادتهم واكثر بسبب ما تجدد من الاستيلاء الذي لم يكن لهُ . فاضطر الى ضرب المكوس واخذ اموال الناس من غير وجهها واقطع قواده وعصبته وغير المساهمين لهُ في الامر جميع القرى التي بجانب السلطان . فارتفعت عنها

ايدي العمال وبطلت الدواوين واختلف حال القرى في العمارة عما كان في ايدي القواد والرؤساء وما كان بايدي العامة والاتباع عظم خرابه لما كان من النهب واختلاف الايدي والظلم ومصادرات الرعايا والحيف في الجباية واهمال النظر في تعديل القناطر والمشارب وقسم المياه على الارضين فاذا خربت قرابهم ردوها وطلبوا العوض عنها فيصير الاخر منها لما صار اليه الاول . ثم امر معز الدولة قواده واصحابه بجباية الاقطاع والضياع وولايتها وصارت الجبايات لنظرهم والتعويل في المرجع على اخبارهم فلا يقدر اهل الدواوين والحسابات على تحقيق ذلك عليهم ولم يوقف عند ذلك على غاية فبطلت الاموال وصار جمعها من المكوس والظلامات وعجز معز الدولة عن ذخيرة يعدها لنوائب سلطانه ثم استكثر من الموالي الاتراك ليجدع بهم من انوف قومه وفرض لهم الارزاق وزاد لهم الاقطاع فعظمت غيرة قومه من ذلك وآل الامر الى المنافرة كما هو الشان في طبيعة الدول (انتهى ملخصًا)

في خلافة المطيع لله ثالث عشريهم (من سنة ٩٤٥ — ٣٣٤ الى سنة ٩٧١ — ٣٦٥

بعد القبض على المستكفي والاكتفاء من نهب دار الخلافة حتى لم يبقَ بها شيء بويع للفضل بن المقتدر ولقب المطيع لامر الله وزاد دبار الدولة العباسية فلم يكن للمطيع الا ما اقطعه اياه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجاته والتزم الخلفاء بترك النخر العالي وملازمة الامور الدينية وتعليم القرآن والسنة ولم يكن للمطيع سوى كاتب يدبر اقطاعه واخراجاته

وفي السنة المذكورة توفي صاحب مصر بدمشق وولي بعدهُ ابنه ابو القاسم انوجور واستولى على الامر كافور الخادم الاسود وسار كافور الى مصر فقصد سيف الدولة الحمداني دمشق وملكها الى ان عاد كافور من مصر فاخرج الاهالي ابن حمدان عنهم وولى كافور بدرًا الاخشيدي فاقام سنة ووليها ابو المظفر ابن طغج

قال ابو الفدا ما ملخصه ان فيها سار ناصر الدولة الى بغداد وارسل معز الدولة عسكرًا لقتاله فاخذ معز الدولة ابن بويه الخليفة وسار الى تكريت فنهبها لانها كانت لناصر الدولة (ابن حمدان) ورجعا الى بغداد ونزلا بالجانب الغربي وناصر الدولة بالجانب الشرقي وجرى بينهما قتال كثير وانهزم اخيرًا ناصر الدولة ورجاله واعيد المطيع الى مكانه (سنة ٣٣٥) واستقر معز الدولة ببغداد وناصر الدولة بعكبرة ثم اصطلحا في السنة المذكورة

قال وكان الاخشيد قبل مسيره عن مصر قد وجد بداره رقعة فيها مرقوم . قدرتم فاسأتم . وملكتم فبخلتم . ووسع عليكم فضيقتم . وادبرت لكم الارزاق فقطعتم ارزاق العباد . واغتررتم بصفو ايامكم ولم تفتكروا بعواقبكم . واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات . وتهاونتم بسهام الاسحار وهنّ صائبات ولا سيما

ان خرجت من قلوب قرحتموها واكباد اجعتموها واجساد اعريتموها—ولو تاملتم في هذا حق التامل لانتبهتم— او ما علمتم ان الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل اليها الجاهل. ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقي. فكفى لصحبة ملك يكون في زوال ملكهِ فرح للعالم ومن المحال ان يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم احد ويبقى المنتظر. افعلوا ما شئتم فانا صابرون. وجوروا فانا بالله مستجيرون. وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فانا بالله واثقون وهو حسبنا ونعم الوكيل» قال فبقي الاخشيذ بعد سماع هذه الرقعة في فكر وسافر الى دمشق ومات»

وملك معز الدولة (سنة ٣٣٧) الموصل ورحل عنها ناصر الدولة الحمداني الى نصيبين ثم وردت الاخبار الى معز الدولة بشغب عسكر خراسان فترك الموصل اليها

وفيها مرض عماد الدولة بن بويه بشيراز من قرحة الكلى ولم يكن لهُ ولد فارسل يطلب الى اخيهِ ركن الدولة ان يشيع لهُ بابنهِ عضد الدولة فناخسرو ليجعلهُ ولي عهدهِ فحضر وعهد لهُ وولاهُ في حياتهِ وامر الناس بالانقياد اليهِ ووقف هو في اكرامهِ وكان يومًا مشهودًا وتوفي (سنة ٣٣٨) فاختلف العسكر على عضد الدولة فسار ابوهُ ركن الدولة واقر الامور على قواعدها. واول كل شي زار قبر اخيهِ باصطخر من اعمال شيراز ومشى اليهِ حافيًا باكيًا ومعهُ العسكر كذلك ولزم القبر ثلاثة ايام. ثم سالوهُ الرجوع الى البلد فرجع. وكان عماد الدولة امير الامراء فاحيلت الرتبة الى ركن الدولة. وكان معز الدولة يحكم على العراق بالنيابة عنهما. وفيها مات المستكفي في سجنهِ

وفيها دخل سيف الدولة الروم واوغل واقتتل وانهزم واخذ الروم مرعش واوقعوا باهل طرسوس. فرجع (سنة ٣٣٩) واوغل وغنم وسبى فاخذ الروم عليهِ المضايق وهلك اكثر عسكره قتلاً واسرًا واسترد الروم الاسلاب وغنموا اثقال المسلمين ونجا سيف الدولة في نفر قليل. ثم عاد ثالثةً (سنة ٣٤٠) وحارب وقتل الدمستق بن نيقفور فعظم الامر على ابيهِ وجمع عساكر كثيرة من الروم والروس والصقالبة والبلغار وقصد الثغور فلقيه سيف الدولة واقتتل الفريقان وصبرا وانجلى الامر عن هزيمة الروم واسر صهر الدمستق ومعهُ ابن ابنتهِ

و(في سنة ٣٤٠) توفي الامير نوح بن نصر الساماني وخلفهُ على خراسان ابنهُ عبد الملك

وذكر ابن الاثير في حوادث (سنة ٣٤٦) نقص البحر ثمانين باعًا وظهور جزائر وجبال لم تعرف قبل ذلك

وغزا سيف الدولة بلاد الروم (سنة ٣٤٩) وغنم وسبى وبلغ الى خرشنة ثم اخذ عليهِ الروم المنافذ وقد اشار عليهِ اهل طرسوس بان لا يرجع من الطريق التي ذهب بل ينطلق معهم في مسالك يعرفونها فلم يقبل لانهُ كان مستبدي الرا يحب ان يصوّب ولا يشار عليهِ لئلا يقال انهُ اصاب براي

غيره فعاد من حيث اتى فظهر الروم عليه واستردوا ما معهُ ووضعوا السيف في رجاله فلم ينج منهم سوى ثلثمائة رجل بعد الجهد

وتوفي (سنة ٣٥٠) عبد الملك بن نوح الساماني بسقطة من جواده وولي بعدهُ اخوهُ منصور بن نوح

وفيها توفي عبد الرحمن الناصر الاموي وكانت امارتهُ خمسين سنة ونصفًا وعمره ثلاثًا وسبعين كما سياتي

وفيها تولى قضاء القضاة ببغداد ابو العباس عبد الله بن الحسن بن ابي الشوارب ضامنًا كل سنة تادية مائتي الف درهم وكانت اول مرة ضمن القضاء في الملة الاسلامية . وجرت في ايام معز الدولة بن بويه ثم ضمنت بعدهُ الحسبة والشرطة ببغداد

وفيها توفي ابو شجاع فاتك الرومي وكان الاخشيذ اخذهُ من سيده بالرملة وتقدم وصار رفيق كافور. فلما مات الاخشيذ وصار كافور اتابك ولده انف فاتك من ذلك وكانت الفيوم اقطاعهُ فرحل اليها ثم عاد الى مصر كرهًا لمرضهِ هناك وكان كافور يخافهُ ويخدمهُ وكان المتنبي ونئذٍ عند كافور ومدح فاتكًا بقصيدة منها

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ فليسعد النطق ان لم تسعد الحالُ
كفاتكٍ ودخول الكاف منقصة كالشمس قلت وما للشمس امثالُ

ولما مات رثاهُ بقصيدة اولها

الحزن يقلق والتجمل يردعُ والدمع بينهما عصيٌّ طيعُ
اني لاجبن من فراق احبتي وتحس نفسي بالحمام فاشجعُ
تصفو الحيوة لجاهلٍ او غافلٍ عما مضى منها وما يتوقعُ

وفيها اخذ ركن الدولة بن بويه طبرستان وجرجان وكتب عامة الشيعة على المساجد بامر معز الدولة بن بويه لعنات على معاوية بن ابى سفيان والظالمين لآل الرسول

وفيها فتح الروم حصن دلوك عنوة وثلاثة حصون اخرى جوارها واسروا ابا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان من منبج وكان واليًا عليها

فصل

في الربع الثالث من القرن الرابع

وامر معز الدولة (سنة ٣٥٢) ان يغلق الناس دكاكينهم عاشر المحرم ويقعدوا عن البيع والشراء

ويلبسوا المسوح ويلطموا بالنياحة وتخرج النساء مسبلات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ولطمن خدودهن على الحسين ففعل الناس كذلك ولم يقدر اهل السنة على منعه واعيد ذلك (سنة ٣٥٢) فوقعت فتنة بين اهل السنة والشيعة ونهب الاموال وفيها اوفي التي قبلها نزل الدمستق بعسكر الروم على عين زربة وفتحها بالاموال وامر المنادي ان ينادي ليلاً بان يخرج اهلها الى المسجد فخرج من قدر فلما اصبح ارسل رجالة وكانوا ستين الفًا فقتلوا خلقًا كثيرًا من رجال ونساء واولاد ممن كانوا خارج المسجد وامروا من في المسجد بان يخرجوا من البلد حيث شاءوا يومهم ذلك فمن امسى قتل فخرجوا مزدحمين لا يدرون اين يتوجهون فماتوا في الطرق ومن بقي قتلة الروم اخر النهار ثم كان الصوم فمضى الروم الى قيسارية على نية الرجوع بعد العيد

وفيها عزل ابن ابي الشوارب عن القضاء وبطل الالتزام وفتح الروم حلب ورجعوا عنها دون سبب وقتلوا ملكهم وملكوا عليهم نيقوفور وصار ابن الشيشق دمستقًا له

وسار معز الدولة (سنة ٣٥٣) واستولى على الموصل ونصيبين وانهزم ناصر الدولة الحمداني ثم اتفقا وضمن ناصر الدولة مالاً يحمله فرضه عليه معز الدولة فرجع معز الدولة عنه الى بغداد

وفتح الروم مصيصة عنوةً وبعد ان قتلوا من قتلوا نقلوا الاهلين الى بلادهم وكانوا نحو مائتي الف ثم ساروا الى طرسوس واخذوها بالامان وسار اهلها عنها في البر والبحر وارسل الروم معهم من يحميهم الى انطاكية وجعلوا جامع طرسوس اصطبلاً واحرقوا المنبر ثم عمروا المدينة ورجع بعض اهلها اليها وتنصر بعضهم

وفيها خالف اهل انطاكية سيف الدولة وذهبوا مع المقدم رشيق الاتي من طرسوس وساروا الى جهة حلب وقاتلوا فرعويه عامل سيف الدولة فارسل سيف الدولة بشاره الخادم وعسكرًا فاجتمع بشاره الى فرعويه وقتلوا رشيقًا وتبددت اصحابه

وفيها مات المتنبي الشاعر الشهير وهو احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي من كندة بالكوفة لا من بني كندة فانهُ جُعفي القبيلة ويقال ان اباهُ كان سقاء بالكوفة وقد قال بعضهم في هجوه

اي فضل لشاعر يطلب ال فضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينًا يبيع في الكوفة ال ماء وحينًا يبيع ماء المحيا

ودعي المتنبي لانهُ ادعى النبوة في برية السماوة وتبع دعوتهُ خلق من بني كلب وغيرهم فخرج اليه لولوه نائب الاخشيد بحمص فاسرهُ وتفرق قومهُ وحبسهُ طويلاً ثم استتابهُ واطلقهُ فلحق بسيف الدولة بن حمدان (سنة ٣٣٧) ثم فارقهُ واتصل بمصر (سنة ٣٤٦) فمدح كافورًا ثم هجاهُ وفارقهُ (سنة ٣٥٠)

وقصد عضد الدولة بن بويه ببلاد فارس ومدحه ثم رجع قاصدًا الكوفة فقتل بقربها بالنعمانية وهي غربي سواد بغداد عند دير العاقول وكان من احسن الشعراء

وفيها (سنة ٣٥٤) غزا الروم بلاد الاسلام وحاصروا آمد وانطاكية ونصيبين واستفك سيف الدولة ابا فراس عمه من الاسر

وسار معز الدولة (سنة ٣٥٦) الى واسط لمحاربة ابن شاهين صاحب البطيحة وهو عمران بن شاهين من اهل الجامدة وكانت حصلت عنده جبايات فهرب الى البطيحة خوفًا من الحكام واقام بين القصب والآجام يقتات بصيد السمك والطير واجتمع اليه جماعة من الصيادين واللصوص. ثم اشتد خوفه فاستامن الى ابي القاسم بن البريدي صاحب البصرة . ثم جمع اليه جماعة واخذ السلاح وجعل له معاقل على تلال البطيحة وغلب على نواحيها. فارسل اليه معز الدولة وزيره ابا جعفر الصيمري (سنة ٣٣٨) فقاتله وهرب واستامن اهله وعياله . فلما مات عماد الدولة وذهب ابو جعفر الى بغداد لاجل ملافاة الامور بامر معز الدولة رجع عمران الى البطيحة واجتمع عليه اصحابه وقوي . ثم حصلت بينه وبين معز الدولة جملة مواقع وثبت قدمه اخيرًا وتولى على البطيحة صلحًا . فذهب هذه المرة لقتاله وحاصره لكنه اعتل ورجع الى بغداد وترك العسكر في محاربة ابن شاهين وعهد لولده بختيار ولقبه عز الدولة واظهر توبة وتصدق باكثر ماله واعتق مما ليكه ومات ببغداد في ربيع الاخر بعلة الذرب لاحدى وعشرين سنة وعشرة اشهر من ولايته

وكان بيد مقطوعة قطعت في بعض المعارك. وهو الذي انشأ السعاة ببغداد لاعلام اخيه ركن الدولة بالاخبار حالاً فنشا في ايامه فضل ومرعوش وفاقا جميعهم فكان يسير الواحد منهما نيفًا واربعين فرسخًا في اليوم هكذا قاله ابو الفدا وغيره

اما بختيار فلم يحسن سيرته وخالف وصايا ابيه وعكف على اللهو والطرب ونفى كبار الديلم شرهًا الى اقطاعاتهم وشغب عليه الاصاغر فزادهم واقتدى بهم الاتراك ثم انتقض بالبصرة حبشي بن معز الدولة على اخيه بختيار (سنة ٣٥٦) فبعث بختيار الوزير ابا الفضل العباس فسار بالاهواز ونزل واسطًا وكتب الى حبشي بانه جاء ليسلمه البصرة وطلب منه المعونة على امره فانفذ اليه مائتي الف درهم. وارسل الوزير خلال ذلك الى عسكر الاهواز ان يوافوه بالابلة لموعد ضربه لهم فوافوه وكبسوا حبشيًا بالبصرة وحبسوه برام هرمز ونهبوا امواله وكان من جملة ما أُخذ له عشرة الاف مجلد من الكتب وبعث ركن الدولة بتخليص ابن اخيه وجعله عند عضد الدولة فاقطعه الى ان مات (سنة ٣٦٧)

وفي (سنة ٣٥٦) قبض ابن ناصر الدولة الحمداني على ابيه لانه كان قد كبر وساءت اخلاقه

والتضييق على اولاده واصحابه وضمن ابن ناصر الدولة ابو التغلب المذكور لبختيار البلاد بمليون ومائتي الف درهم . وكان ذلك باتفاق ام ابي تغلب زوجة ناصر الدولة المذكور وكانت كردية واخته فاطمة واخيه وكاتبه لابي البركات وولده حمدان وكان ابوه قد اقطعه الرحبة وماردين وغيرهما ثم نقله الى قلعة كواشي وخوفه فبلغ ذلك حمدان فتكدر وكان ذلك سببًا لحروب طويلة فيما بينهم قتل فيها ابو البركات وطرد حمدان عن بلاده وتقوى ابو تغلب وكان لقبه عدة الدولة الغضنفر وهلك ناصر الدولة بعد اشهر في القلعة المذكورة

وفيها توفي وشمكير بن زيار اخو مرداويج قتله خنزير مجروح وهو في الصيد اجفلت منه فرسه فسقط ومات وخلفه ولده بيستون

وفيها مات كافور الاخشيدي وكان خصيًا اسود من موالي محمد بن طغج صاحب مصر وتولى على مصر والشام بعد موت الاخشيذ وكان اخرهم علي ومات (سنة٣٥٥) واستقل كافور الملك وكان يدعى له على المنابر بها وبمكة ودفن بالقرافة الصغرى وعمره نحو ستين سنة واقاموا بعده ابا الفوارس احمد بن علي بن الاخشيذ (٣٥٧)

وفي هذه السنة ملك الروم مدينة انطاكية ومات سيف الدولة بن حمدان وهو ابو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي وكانت وفاته في حلب ودفن في ميا فارقين بمرض اسرالبول . وهو اول من ملك حلب من بني حمدان اخذها من احمد بن سعيد الكلابي نائب الاخشيذ وكان على جانب من الشجاعة والكرم شاعرًا وخلفه ابنه سعد الدولة ابو المعالي

وفيها توفي ابو علي محمد بن الياس صاحب كرمان وابو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن احمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن ابي العاصي بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الكاتب الاصفهاني صاحب كتاب الاغاني قيل انه جمع كتاب الاغاني في خمسين سنة وحمله الى سيف الدولة فاعطاه الف دينار واعتذر اليه . وله مولفات اخرى وكان عالمًا بالسير والاخبار والانساب . وهو مولف كتاب نسب بني عبد شمس وكتاب الف وسبعمائة يوم ايام العرب . وجمهرة النسب . ونسب بني شنان

وفيها استولى عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه على كرمان بعد موت صاحبها ابن الياس المذكور من قواد الديلم

وفيها قتل ابو فراس بحمص قتله ابو المعالي بن سيف الدولة لوحشة بينهما فارسل عليه عسكرًا مع فرعويه فحاربه وكان قد انحاز الى صغد وقتله . وكان ابو الفراس خال ابي المعالي وابن عمه واسمه الحارث ابن ابي العلا سعيد بن حمدان .

وفيها ارسل المعز لدين الله العبيدي وهو معدّ بن اسمعيل المنصور بالله بن محمد القائم بامر الله بن عبيد الله المهدي قائد جيشهِ ابا الحسن جوهرًا غلام والده المنصور وكان روميًا بجيش كثيف إلى الديار المصرية فامتلكها بعد موت كافور واقيمت الدعوة للمعز في الجامع العتيق وخطب وقتئذٍ عبد الله الشمشاطي وارسل ففتح سورية وخطب فيها للمعز وقطعت (سنة ٩٦٩-٣٥٩) خطبة العباسيين ثم حضر المعز من افريقية بمالهِ ورجالهِ واهل بيتهِ جميعًا . قال ابو الفرج واخذ جميع ما كان لهُ في قصره من الاموال والامتعة حتى ان الدنانير سبكت وجعلت على هيئة طواحين وحمل كل طاحونتين على جمل ثم سار حتى وصل الاسكندرية فلقيهُ اهل مصر واعيانها فاكرمهم واحسن اليهم وسار المعز فدخل القاهرة خامس رمضان (سنة ٩٧٢-٣٦٢) وملك الديار المصرية بلا حرب ولا طعان

و(في سنة ٣٥٧) دخل ملك الروم بلاد الشام وذهب الى طرابلس وفتح قلعة عرقة واخذ حمص واحرقها وسار الى بلاد الساحل فنهب واخرب وملك ثمانية عشر منبرًا . وبعد ان لبث شهرين في سورية عاد الى بلادهِ ومعهُ من الاسرى والغنائم ما يفوت الحصر

وفيها تملك فرعويه غلام سيف الدولة حلب واخرج ابا المعالي شريف بن سيف الدولة فذهب الى والدتهِ بميافارقين . ثم عبر الفرات وقصد حماة واقام بها

وفيها توفي سابور بن احمد القرمطي محبوسًا لانهُ طلب الى اعمامهِ ان يسلموا اليهِ ولاية الامور

وركب الروم (سنة ٣٥٩) وقصدوا الشام وفتحوا انطاكية واوقعوا باهلها السيف ثم قصدوا حلب وملكوا المدينة وحصروا فرعويه بالقلعة . ثم تسالموا على مال يحملهُ فرعويه سنويًا وذلك كل ما كان مقررًا على حلب وما اليها من البلاد كحماة وحمص وكفرطاب والمعرة وفاميه وشيزر ونحوها وبعد اخذ الرهائن رحل الروم وفتحوا بلاد كرد من ارمينية واصبحت البلاد كلها سبيًا للروم لا يمنعهم عنها احد

وفيها خامرت ثيوفانيه ملكة الروم ابن الشميشق في قتل زوجها نيقوفور لانهُ كان على ما علمت عنهُ قد عزم على خصي اولادها من رومانوس الرابع ليبقى الملك في ولده فادخلت الشميشق في جماعة بزي النساء الى كنيسة القصر حتى اذا جاء الليل وانسحب نيقوفور لمرقدهِ اخرجت الشميشق من مخبأهِ ففاجأوهُ وقتلوهُ وكان ذلك لخير المسلمين لان نيقوفور جلب على مملكتهم مدة ملكهِ ما لا يقدر من البلاوي والخراب . وكان رجلاً ذا باس شديد وهيبة وشهرة فائقتين . وبعد موتهِ اقام الشميشق ملكًا احد اولاد رومانوس وهو باسيل

وفي السنة نفسها اخذ ابو تغلب الحمداني حران وسلمها للبرقعيديين اكابر اصحاب الحمداني ورجع الى الموصل . ثم اصطلح فرعويه مع ابي المعالي الحمداني وخطب لهُ في حلب وكان وقتئذٍ بحمص

وخطب بحمص وحلب للمعز لدين الله صاحب مصر كما تقدم وخطب بمكة للمطيع العباسي وبالمدينة للمعز وخارج المدينة للمطيع

وفي (سنة ٣٦٠) عمدت القرامطة الى دمشق ورئيسهم الحسن بن احمد بن بهرام فبلغ خبرهم الحسن بن فلاح نائب معز الدولة العبيدي فاستحقر امرهم فكبسوهُ خارج دمشق وقتلوهُ واخذوا دمشق وأمنوا اهلها . ثم ساروا الى الرملة فملكوها . واجتمع اليهم خلق من الاخشيدية فقصدوا مصر ونزلوا بعين شمس وجرى بينهم وبين المغاربة وجوهر قتال انتصر فيهِ القرامطة . ثم تقوى عليهم العلوية فعادوا الى الشام

ووصل الروم (سنة ٣٦١) الى الجزيرة والرها ونصيبين فغنموا وقتلوا وفر المسلمون من امامهم الى بغداد فثارت العامة وجرت فتن ببغداد واستغاثوا الى بختيار فوعدهم بالخروج الى الغزاة وارسل يطلب من الخليفة مالاً فاجابهُ المطيع « انا ليس لي غير الخطبة فان اردت اعتزلت » فهددهُ بختيار فباع الخليفة قماشهُ وغير ذلك وحمل الى بختيار اربع مئة الف درهم فانفقها بختيار في مصالحهِ وبطل امر الغزو وشاع انهُ صادر الخليفة

وفيها تسالم منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان وركن الدولة بن بويه على ان يحمل الثاني الى الاول كل سنة مائة الف دينار وخمسين الفًا

وفيها سلم نائب حمدان الحمداني قلعة ماردين التي في يدهِ الى ابي تغلب اخي حمدان المذكور

و(في سنة ٩٧٢–٣٦٢)فصد الدمستق آمد وبها هزا مرد غلام ابي الهيجاء ابن حمدان فكتب هزامرد الى ابي تغلب فسير اليهِ اخاهُ هبة الدين بن ناصر الدولة فالتقياهُ سلخ رمضان وكان الدمستق بقوة عديدة فاسترقا عليهِ المسير وفاجئاهُ في مضيق لاتجول فيهِ الخيل فانهزم الروم واخذ الدمستق اسيرًا واودع السجن الى ان مرض ومات (سنة ٣٦٣) وقد جمع لهُ ابو تغلب الاطباء من كل الجهات فلم يفدهُ ذلك

وفيها حصلت الوحشة بين بختيار بن بويه وبين اصحابهِ من ديالمة واتراك فقام بختيار الى الاهواز واستولى سبكتكين مكانهُ ببغداد ثم اوقع بختيار بمن معهُ من الترك فخرج اليهِ سبكتكين بمن كان معهُ منهم ونهب دارهُ ببغداد ولما رأى سبكتكين عجز المطيع من ثقل لسانهِ لسقوط فالج عليهِ وتعذر الحركة لهُ وهو يتستر طلب اليهِ ان يخلع نفسهُ ويسلم الامر الى ولدهِ الطائع فاجاب المطيع لتسع وعشرين سنة وكسرٍ من خلافتهِ او بالحري امامتهِ في ذي القعدة (سنة ٣٦٣) وفيها خطب بمكة والمدينة للمعز العبيدي سلطان مصر واستولى عضد الدولة على العراق وقبض على بختيار ثم اطلقهُ وعاد الى امرة الامراء ثانية

في خلافة الطائع لامر الله (سنة ٣٦٣-٩٧٣) الى (سنة ٩٩١-٣٨١) وهو رابع عشر بنيهم

بويع للطائع عبد الكريم بن المفضل وهو المطيع واستقرامره · وحدث لاول خلافتهِ قتال بين القرامطة والمعز العبيدي في مصر وانجلى الامر عن هزيمة القرامطة وارسال المعز في اثرهم عشرة الاف فارس حتى ابعدهم عن الشام وانتهوا الى الاحساء والقطيف واستعمل المعز ظالم بن موهوب العقيلي على دمشق فدخلها وعظم شانهُ وكانت فتن بين المغاربة واهل دمشق الى (سنة ٣٦٤)

وكانت الصوائف في يد بني حمدان منذ استبد ناصر الدولة الحمداني بالموصل وامتلك سيف الدولة اخوهُ مدينتي حلب وحمص (سنة ٣٣٣)

اما الولايات فانقطعت منذ استيلاء معز الدولة على العراق وانقسمت الدولة الاسلامية الى دول

وكان لما وقع لبختيار بالاهواز ما وقع وركب عليهِ سبكتكين بالاتراك الى واسط آخذًا معهُ الطائع والمطيع توفي المطيع بدير العاقول ومرض سبكتكين ومات وحملا الى بغداد · وكان بختيار قد عهد حينئذٍ الى من حبسهم من الاتراك فاطلقهم وولى عليهم احد قوادهم زارويه عامل الاهواز وسار الى واسط للقاء سبكتكين اما الاتراك فولوا عليهم افتكين من اكابر قوادهم ونبذوا زارويه وساروا يطلبون بختيار في واسط ونزلوا بالقرب ووقع بينهم وبينهُ مناوشات نحو خمسين يومًا

وكانت رسل بختيار متتابعة الى ابن عمهِ عضد الدولة بالاسراع اليهِ وكتب كذلك الى عمهِ ركن الدولة والى ابي تغلب الحمداني واعدًا بتحريرهِ من مال الاقطاع وهكذا الى عمران بن شاهين بالبطيحة فجهز اليهِ عمهُ ركن الدولة عسكرًا مع ابي الفتح بن العميد وكتب الى عضد الدولة بانجادهِ فتثاقل · واعتذر ابن شاهين بان عسكرهُ لا يحارب الديلم لما بينهم من الولاء اما ابو تغلب فبعث اخاهُ في عسكر الى تكريت وقدم هو نفسهُ ليقيم الحجة بسقوط مال الاقطاع عنهُ ولما راى الفتنة في اشتداد انتظر ما سيكون لبختيار فيدخل بغداد ويملكها ولما اشتد الخطب كتب بختيار بالحاجة الى عضد الدولة ومن جملة ذلك هذا البيت

فان كنت ماكولاً فكن انت آكلي ... والا فادركني ولما امزّق

فركب عضد الدولة في عساكر فارس وتبعهُ ابن العميد وزيرابيهِ الى الاهواز ثم الى الري وسار كلاهما الى واسط فاجفل افتكين واتراكهُ الى بغداد ورجع ابو تغلب الى الموصل فبقي عضد الدولة سائرًا الى الجانب الشرقي وامر بختيار ان يتبعهُ الى الجانب الغربي قاصدين بغداد · فبارزهُ الاتراك وقاتلوا عضد الدولة فانهزموا وحصرهم عضد الدولة من جميع الجوانب

وكتب بختيار الى ضبة الاسدى من عين تمر والى ابي سنان وابي تغلب بان يقطعوا عن الاتراك الميرة والاغارة الى النواحي فاشتد الجوع ونهضت الاسعار ببغداد الى ان استلها عضد الدولة (سنة ٣٦٤) ورجع الخليفة اليها في رجب من السنة المذكورة لان الاتراك في انهزامهم كانوا قد اخذوه معهم فكان يوم رجوعه بالماء يومًا مشهودًا وسار عضد الدولة للقائه

ثم شغب الجند وطلبوا ارزاقهم فاظهر بختيار العجز وقد نفضت يده من المال فاشار عليه عضد الدولة وهو يريد خديعته ان يغلظ لهم الكلام ويظهر الاستعفاء من الامارة ما لم يركنوا اليه وانه عند ذلك يدخل عضد الدولة ويتوسط المادة ففعل بختيار كذلك فاشهد عليه عضد الدولة انه عاجز وقبض عليه وعلى اخوته في جمادي الاخرة واستلم امرة الامراء وعظم امر الخليفة وحمل اليه مالاً وهدايا كثيرة . وكان المرزبان بن بختيار اميرًا على البصرة فامتنع فيها على عضد الدولة وكاتب ركن الدولة بما كان قد جرى على ابيه بيد ولده عضد الدولة ووزيره ابن العميد فعظم الامر على ركن الدولة واغتاظ جدًّا واعتراه مرض المقيم المقعد الى ان انطرح على الارض وامتنع عن الاكل والشرب وانكر على عضد الدولة عملة اشد الانكار . فكتب عضد الدولة الى ابيه ان يعوض على بختيار مملكته في فارس وارسل ابن العميد يعتذر عنه بما فعل لان بختيار كان عاجزًا في الامارة وانه يضمن اعمال العراق بثلاثين مليون درهم ويبعث بختيار واخوته اليه لينزلهم باي الاعمال احب ثم يخير اباه في نزول العراق بنفسه وتدبير امر الخلافة وهو يعود الي فارس متهددًا اباه في الوقت نفسه بقتل بختيار واخوته ان لم يوافق على واحدة . اما ابن العميد فخشي عاقبة هذه الرسالة وطلب ارسال غيره بها اولاً ثم يمضي هو كالمصلح فارسل غيره ولما وصل والقى الرسالة غضب ركن الدولة وكاد يقتل الرسول ثم ارجعه بعد سكون غضبه آيبًا الا اعادة بختيار الى مكانه . واخر الامر التزم باعادته على ان يكون هو نائبًا عنه ويخطب مكانه وجعل اخاه ابا اسحق امير الجيش لعجزه هو عن ذلك ورد عليه ما كان قد اخذه لهم وسار الى فارس . وامر ابن العميد بان يلحق به فيما بعد فتشاغل مع بختيار باللذات ووعد بختيار بان يصير الى وزارته بعد ركن الدولة وافتكين بعد انهزامه من عضد الدولة بالمدائن لحق بالشام ونزل بقرب حمص وقصد ظالم بن موهوب العقيلي العلوي فلم يتمكن منه فسار الى دمشق واميرها ريان خادم المعز العبيدي فاتفق مع اهل دمشق واخرجوا ريانًا وقطعوا خطبة المعز وخطب بها للطائع في شعبان (سنة ٣٦٤) . ولما بلغ المعز ذلك هم بالركوب عليه فادركه الموت وخلفه على تخت مصر ابنه العزيز (سنة ٣٦٥) فجهز جوهرًا الى الشام فذهب جوهر وحاصر افتكين في دمشق فاستنجد افتكين القرامطة فانجدوه وتنحى جوهر الى جهة مصر فاتبعه افتكين والقرامطة وادركوه قرب الرملة واذ رأى جوهر ضعفه دخل عسقلان فحصروه بها وضايقوه جدًّا وبذل اموالاً

جزيلة لافتكين ليطلقه فرحل عنه . وسار جوهر الى مصر واعلم العزيز بما كان فنهض حينئذٍ العزيز بنفسهِ قاصدًا الشام والتقى افتكين والقرامطة ظاهر الرملة واقتتلوا شديدًا وانجلى الامر عن انهزام افتكين وكثر في قومهِ القتل ودفع العزيز مائة الف دينار لمن ياتيهِ بافتكين فامسكهُ مفرج بن دغفل الطائي لانهُ هرب الى بيتهِ وحصر فاعلم العزيز وطلب المال فامر باعطائهِ ذلك وارسل من استلم افتكين . ولما حضروا بهِ امر باطلاقهِ واطلاق اصحابهِ ونصب له خيمة وحمل اليهِ خلع واموال واخذهُ العزيز صحبتهُ الى مصر في اعظم ما يكون وبقي في مصر حتى مات . وكان المعز ابن خمس واربعين سنة وكسر وهو اول الخلفاء العلويين بمصر وكان مولعًا بعلم النجوم ولما مات اخفى ولده موته الى عيد النحر وبايعهُ الناس

و(في سنة ٣٦٦) توفي ركن الدولة ابن بويه لاربع واربعين سنة من ولايتهِ وقد جاوز السبعين من العمر مستخلفًا ابنهُ عضد الدولة على ممالكهِ . وكان على جانب من التقوى والخير وعقد لولده فخر الدولة على همذان واعمال الجبال ولاخيهِ مؤيد الدولة على اصبهان واعمالها بالتابعية لاخيهما عضد الدولة

وفيها توفي منصور بن نوح بن نصر بن احمد بن اسمعيل بن احمد بن اسد بن سامان صاحب خراسان وما وراء النهر لنحو خمس عشرة سنة من ولايتهِ وقام بعده ابنهُ نوح وعمره ثلاث عشرة سنة

وفيها اخذ سبكتكين مدينة غزنه وكان احد غلمان ابي اسحق ابن البتكين صاحب جيش غزنة من قبل السامانية . وكان مقدمًا عند ابي اسحق لعقلهِ وشجاعتهِ فلما مات ابو اسحق عن غير ولد ولي العسكر عليهم سبكتكين فعظم شانه وارتفع قدره وغزا بلاد الهند وتولى على بست وقصدار

وفيها توفي بهستون بن وشمكير بن زيار الديلمي بجرجان واستولى اخوه قابوس على طبرستان وجرجان

اما بختيار فبعد موت عمه ركن الدولة وملك عضد الدولة ابيهِ شرع مع وزيره ابن بقية باستمالة عمال عضد الدولة مثل فخر الدولة اخيهِ وحسنويه الكردي وابن حمدان وابن شاهين . ثم صار عضد الدولة قاصدًا العراق واستعان بابن حمدان وحسنويه فواعداه ومضى الى الاهواز ثم الى بغداد فلقيهُ بختيار فهزمهُ عضد الدولة واستولى على اموالهِ واثقالهِ . وفر بختيار الى واسط . ثم بعث عضد الدولة عسكرًا الى البصرة فاخذوها وكانت مضر شيعة له دون ربيعة

ثم قبض بختيار على ابن بقية وجمع ما كان له ببغداد والبصرة الى واسط وراسل عضد الدولة بالسلم ثم اتاه عبد الرزاق وبدر ابنا حسنويه بالف فارس مددًا فانتقض وصار الى بغداد فسار عضد الدولة الى واسط ثم الى البصرة واصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهم مائة وعشرين سنة وقبض على

ابن العميد وزيرا بيهِ وجذع انفهُ وسمل احدى عينيهِ لما علم من مخامرتهِ بختيار . ثم سار عضد الدولة الى بغداد (سنة ٣٦٧) ودعي بختيار الى الطاعة وان يرحل عن العراق الى اي جهة اراد وامرهُ بانفاذ ابن بقية اليهِ ففقأ بختيار عيني ابن بقية وارسلهُ الى عضد الدولة وترك العراق قاصدًا الشام . فدخل عضد الدولة بغداد وخطب لهُ بها وضربت على بابهِ ثلاث نوب بخلاف العادة لمن قبلهُ وامر بابن بقية فرمي بين الفيلة فقتلتهُ وقيل انهُ صلبهُ ورثاه ابو الحسن الانباري بقصيدتهِ المشهورة التي منها

علو في الحياة وفي المات	لحق انت احدى المعجزاتِ
كان الناس حولك حين قاموا	وفود نداك ايام الصلاتِ
مددت يديك نحوهم اقتفاء	كمدها اليهم في الهباتِ
ولما ضاق بطن الارض عن ان	يضم علاك من بعد المماتِ
اصاروا الجو قبرك واستنابوا	عن الاكفان ثوب السافياتِ
لعظمك في النفوس تبيت ترعى	بحراس وحفاظ ثقاتِ
وتشعل عندك النيران ليلاً	كذلك كنت ايام الحياةِ

وفيها توفي يوسف الجنابي القرمطي صاحب هجر وتولى امر القرامطة ستة نفر شركة وسموا السادة

وفيها رجع ابو المعالي شريف بن سيف الدولة الى حلب باستدعاء الاهلين لان بكجور مولى فرعويه كان قد تقوى وقبض على فرعويه واتفق على ترك حلب لابي المعالي والاستيلاء على حمص

اما بختيار فبمسيره الى الشام لقيهُ ابو تغلب بن حمدان بالحديثة في عشرين الف رجل وعادا جميعًا الى العراق فبلغ ذلك عضد الدولة فسار لملاقاتهما فادركهما عند تكريت وهزمهما واسر بختيار وقتلهُ واستولى على ملك بني حمدان . وسار ابو تغلب بن ناصر الدولة الحمداني الى الشام فوصل الى دمشق وقتل بها قال ابو الفدا ان ابا تغلب صار الى ميافارقين فتبعهُ عسكر صحبة ابي الوفا فهرب الى بدليس فتبعوهُ فسار الى الروم فلحقوهُ واقتتلوا فانتصر ابو تغلب ثم قام الى حصن زيار ويعرف بخرتبرت ثم الى آمد واقام بها ثم فتح عسكر عضد الدولة آمد وصارت كل ديار بكر في يده ثم استولى على ديار مضر والرحبة واستخلف ابا الوفا على الموصل ورجع الى بغداد وصار ابو تغلب الى دمشق وكان يحكمها شخص يسمى قسامًا كان افتكين المقدم خبره يثق اليهِ فلما وصل ابو تغلب منعهُ قسام من الدخول فسار الى طبرية ثم الى الرملة وكان بها مفرج بن دغفل الطائي والفضل احد قواد العزيز فلقياهُ واقتتلوا ولم يكن معهُ سوى سبع مئة رجل من غلمانهِ وغلمان ابيهِ فانهزم منهم وقتل (سنة ٣٦٩) وبعث براسهِ الى عزيز مصر وحملت اختهُ جميلة وزوجتهُ بنت عمهِ سيف الدولة الى

حلب حملها بنو عقيل وكان ابو المعالي ابن سيف الدولة في حلب فترك اخته عنده وارسل جملة الى بغداد فاعتقلت عند عضد الدولة

و(في سنة ٩٧٩-٣٦٩) توفي عمران بن شاهين من اهل الجامدة وكان عمران ممن جنى جنايات كثيرة وهرب الى البطيحة خوفًا من السلطان كما تقدم وكان قد طلبه الملوك والخلفاء بانواع الحيل ولم ينالوا منه امرًا ومات في ملكه حتف انفه فجأة فتولى بعده ابنه الحسن فطمع به عضد الدولة وحاربه ثم تسالما على مال يحمله الحسن الى عضد الدولة

وفيها دعا عضد الدولة اخويه فخر الدولة ومويد الدولة الى الطاعة فاجابه مويد الدولة راغبًا اما فخر الدولة فاجاب جواب مناظر متأذٍ فنقم عليه عضد الدولة وركب قاصدًا بلاده فهرب فخر الدولة ولحق بشمس المعالي قابوس بن وشمكير المقدم ذكره من الديالمة فاكرمه قابوس كل اكرام . واستولى عضد الدولة على بلاد اخيه المذكور همذان والري وما بينهما . ثم سار عضد الدولة الى بلاد حسنويه الكردي وملكها وفي هذه السفرة حدث لعضد الدولة صرع وهو في الموصل فكتمه وصار شديد النسيان لا يذكر الشيء الا بعد جهد . وهذا داب الدنيا فانها لا تصفو لاحدٍ

وفيها ارسل عضد الدولة عسكرًا على الاكراد الهكارية من اعمال الموصل فحاصرهم واوقع بهم واستلم قلاعهم وقادهم مع العسكر الى الموصل

وفيها شرع عضد الدولة بترميم بغداد من اثار الفتن وعمر مساجدها واسواقها وانعم على الائمة والعلماء والقراء والضعفاء الذين ياوون الى المساجد وجدد ما دثر من الانهار واعاد حفرها واصلاحها وتجددت العلاقات بين الطائع وبينه فتزوج الطائع ابنته وكان غرض عضد الدولة ان تكون الخلافة في ولد له فيه نسب وكان الصداق مائة الف دينار

وفيها كانت فتنة عظيمة في شيراز بين المسلمين والمجوس ونهب المسلمون دور المجوس وقتلوا منهم خلقًا فارسل عضد الدولة وقبض على اهل السبب وبالغ في تاديبهم

و(في سنة ٣٧٠) توفي الاحدب المزوّر وكان يكتب على خط كل احد فلا يشك المكتوب عنه انه خطه . وكان عضد الدولة يستعين بخطه لايقاع الفتن بين الملوك

وفيها اهدى عضد الدولة قطعة واحدة من العنبر وزنها ستة وخمسون رطلاً بالبغدادي

و(سنة ٣٧١) فتح البيمارستان العضدي غربي بغداد ونقل اليه جميع ما يحتاج اليه من الادوية

وفيها استولى عضد الدولة على بلاد جرجان وطبرستان واجلى عنها صاحبها قابوس بن وشمكير ومعه فخر الدولة عليّ اخوه لانه امتنع عن تسليم فخر الدولة الى عضد الدولة . وفيها ارسل عضد الدولة ابا بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني رسولاً الى ملك الروم فلما وصل قيل له قبّل الارض بين

بديه فابن فصول الملك بابًا صغيرًا ليدخل منه القاضي منحنيًا فاستدبر الباقلاني الباب ودخل . ثم استقبل الملك قائمًا

و(سنة ٣٧٢) سير العزيز العلوي صاحب مصر عسكرًا مع بكتكين الى الشام فذهبوا الى فلسطين وقاتلوا مفرج ابن الجراح الذي كان قد استولى عليها وهزموهُ وكثر القتل والنهب . ثم سار بكتكين الى دمشق ونازل قسامًا المتولى وقهره وامسكه وارسله الى مصر وزالت الفتن . وفيها اشتد صرع عضد الدولة فخنقته ومات في شوال ببغداد وكانت ولايته بالعراق خمس سنوات ونصفًا ودفن في مشهد الامام علي . وكان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة شديد الهيبة محبًا للعلوم واهلها وقصدهُ العلما من كل بلد وصنفوا له الكتب منها الايضاح في النحو والحجة في القراآت والملكي في الطب والتاجي في تاريخ الديلم ونحوها

و بعد موتهِ اقاموا ابنهُ كاليجار ولقبوهُ صمصام الدولة . وكان اخوهُ شرف الدولة شيزرك بكرمان فلما بلغهُ موت ابيهِ سار الى فارس وملكها وقطع خطبة اخيهِ صمصام الدولة . وكان كاليجار قد انعم قبل ذلك على اخويهِ ابي الحسين احمد وابي طاهر فيروزشاه واقطعهما بلاد فارس . وقتل الفرج محمد بن عمران بن شاهين اخا الحسن صاحب البطيحه واستولى عليها

و(سنة ٣٧٣) توفي مويد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بالخوانيق وكان قد اقرهُ اخوهُ عضد الدولة على ما بيده وزاده مملكة اخيهِ فخر الدولة الذي كان مع قابوس بن وشمكير بن زيار ولما مات فخر الدولة اتفق قواد عسكره على طاعة فخر الدولة وكاتبوهُ فسار اليهم وعاد الى ملكهِ واستقر فيهِ دون قتال وسار مع صمصام الدولة يدًا واحدة وارسل له الخليفة الخلع والعهد بالامارة

وفيها دخل باد الكردي الحميدي الموصل واستولى عليها وسولت له نفسهُ بالتغلب على بغداد وازالة الديلم عنها فخافهُ صمصام الدولة وجمع عساكره وسار بهم الى لقائهِ فخرج باد ولقيهم في صفر (سنة ٣٧٤) وانجلت الموقعة عن هزيمة باد واصحابهِ وملك الديلم الموصل

وفيها تولى بجكور دمشق وهو بجكور مولى فرعويه الذي كان استولى على حمص كما ذكر فانهُ كاتب العزيز صاحب مصر وسالهُ في ولاية دمشق فاجابهُ العزيز الى ذلك وكتب الى بكتكين ان يسلمها اليهِ ففعل فاستقر بها واساء السيرة — وفيها اتفق اعيان عسكر عمران بن شاهين فقتلوا ابا الفرج محمد بن عمران واقاموا ابا المعالي الحسن بن عمران وكان صغيرًا فدبر امره المظفر بن علي الحاجب وهو اكبر قواد جدهِ عمران ثم استبد المظفر بالحكم وانقرض بيت عمران بن شاهين

وفيها توفي يوسف بلكين بن زيري امير افريقية وقام بعده ولده المنصور بن يوسف وارسل هدية الى العزيز بالله قيمتها الف الف دينار

و(في سنة ٣٧٤) ولى ابو طريف عليان بن ثمال الخفاجي حماية الكوفة وهي اول امارة بني ثمال

و(سنة ٣٧٥) قصدت القرامطة الكوفة باثنين من السادة الستة ففتحوها ونهبوها فجهز صمصام الدولة عليهم جيشًا وهزمهم واكثر القتل فيهم فضعفت هيبتهم · ومن حوادث هذه السنة ما نقلهُ ابن الاثير من ظهور طير كبير في بحر عمان اعظم من الفيل ووقوفه على تل هناك يصيح بصوتٍ عالٍ ولسان فصيح قائلاً «قد قرب» يقولها ثلاث مرار ثم يغوص في البحر فعل ذلك ثلاثة ايام ولم يرَ بعدها. وهذه الحادثة عهدتها على الناقل المذكور ولعلها من الخرافات التي نقلها كما نقلت اليهِ والله اعلم

فصل

في الربع الرابع من القرن الرابع للهجرة

وانتهت امارة صمصام الدولة (سنة ٣٧٦) لان شرف الدولة شيزرك بن عضد الدولة ركب من الاهواز فاخذ واسط بمخافة صمصام الدولة اخوه واستامن اليهِ فطيب قلبهُ اولاً ثم غدر بهِ وقبض عليهِ وارسلهُ الى قلعة بفارس · وكانت امارتهُ ثلاث سنوات وابو الفرج يجعلها اربع سنوات وان الحادثة كانت (سنة ٣٧٧)

وفي مستهل جمادي الاخرة من (سنة ٣٧٨) وقال ابو الفرج (سنة ٣٧٩) توفي شرف الدولة ابو الفوارس شيزرك بن عضد الدولة بالاستسقاء لسنتين وثمانية اشهر من امارتهِ بالعراق وعمره ثمان وعشرون سنة · فخلفهُ اخوه بهاء الدولة ابو نصر خاشاذ بن بويه · واما ابنهُ ابو علي فكان قد ارسلهُ الى بلاد فارس ومعهُ الخزائن والعدد وجيش غفير من الاتراك

وفيها ارسل شرف الدولة محمد الشيرازي ليسمل اخاهُ صمصام الدولة المرزبان فوصل الى القلعة التي بها صمصام الدولة بعد موت شرف الدولة وسملهُ

فلما سمع حراس القلعة التي فيها صمصام الدولة واخوه ابو طاهر بموت شرف الدولة اطلقوهما فسارا ومعهما قواد الى شيراز واجتمع على صمصام الدولة وهو اعمى كثيرٌ من الديلم واستولى على فارس · اما ابو علي بن شرف الدولة فارسل اليهِ عمهُ بهاء الدولة وطيب قلبهُ فسار اليهِ لكنهُ قبض عليهِ وقتلهُ ·

وفيها ملك ابو طاهر ابرهيم وابو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة الحمداني الموصل

وفيها اهدى الصاحب ابن عباد الى فخر الدولة علي بن ركن الدولة حسن بن بويه دينارًا وزنهُ الف مثقال منقوشًا عليهِ هذه الابيات

واحمر يحكي الشمس شكلاً وصورةً فاوصافها مشتقة من صفاتهِ

فان قيل دينار فقد صدق اسمهُ وان قيل الف فهو بعض سماتهِ

بديع ولم يطبع على الدهر مثلهُ ولا ضربت اضرابهُ لسراتهِ
وسار الى شاهان شاه انتسابهُ على انهُ مستصغر لعداتهِ
بخير ان يبقى سنينًا كوزنهِ لتستبشر الدنيا بطول حياتهِ

ووقع (سنة ٣٧٩) القتال والفتنة بين الترك والديلم مدة خمسة ايام ولم يصغوا لمفاتحة بهاء الدولة لهم بالصلح ولبثوا كذلك اثني عشر يومًا فاخذ بهاء الدولة جانب الترك فضعف الديلم وسالموهم واخذ بعد ذلك الترك بالتقدم والديلم بالتاخر

وفيها هرب ابو العباس احمد بن اسحق بن المقتدر الى البطيحة فنزل عند مهذب الدولة صاحبها فاكرمهُ واوسع عليهِ وبالغ في خدمتهِ والسبب انهُ لما توفي اسحق بن المقتدر جرى بين ولده احمد المذكور الذي تسمى بعده القادر وبين اخت لهُ منازعة على ضيعة وكان الخليفة الطائع قد مرض وشفي فسعت اختهُ بهِ عنده فتغير الطائع عليهِ فاختفى احمد من وجههِ

قتل باد الكردي صاحب ديار بكر وابتداء الدولة المروانية

فبعد ان اخذ ابو طاهر ابرهيم وابو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة الحمداني الموصل جمع باد صاحب ديار بكر (سنة ٣٨٠) اكراده ونهض الى الموصل يحاربهما فخرج اليهِ ابو طاهر والحسين وناوشاه القتال وبينما اراد باد الانتقال من فرس الى اخر وقد اضناه التعب ولم يقدر على الركوب ادرك وقتل وصلبت جثتهُ على دار الامارة واخذ راسهُ اليهما . وباد المذكور كان خال ابي علي بن مروان. وهذا لما قتل خالهُ ذهب في طائفة من العسكر الى حصن كيفا على دجلة فاخذه ثم قصد مملكة خالهِ حصنًا حصنًا حتى ملكها كلها ثم ذهب الى مصر وتقلد من الخليفة العزيز بالله العبيدي ولاية حلب وتلك النواحي وعاد الى ديار بكر . ثم اتفق بعض اهل آمد مع شيخهم عبد البر وقتلوهُ عند خروجهِ من باب البلد بالسكاكين وكان القاتل لهُ رجل يدعى ابن دمنه واستولى عبد البر شيخ آمد عليها وزوج ابن دمنه بابنتهِ ثم وثب ابن دمنه وقتل عبد البر واستولى على آمد وعمر البلد وهادن ملك الروم وصاحب مصر وغيرهما من الملوك

وكان لابي علي بن مروان اخ يقال لهُ ممهد الدولة فلما قتل اخوه سار الى ميافارقين وملكها وملك غيرها من بلاد اخيهِ وكان في جماعتهِ رجل اسمهُ شروة من اكابر العسكر فعمل شروة دعوة لممهد الدولة وقتلهُ واستولى علي غالب بلاد بني مروان (سنة ٤٠٢)

وكان لممهد الدولة اخ اسمهُ ابو نصر احمد وكان قد حبسهُ اخوهُ ابو علي بسبب رويا راها وذلك انهُ راى ان الشمس في حجرهِ وقد اخذها منهُ فلما قتل ممهد الدولة اخرج ابو نصر من

الحبس واستولى على ارزن الروم كل ذلك وابوهم مروان حي* اعمى مقيم بارزن عند قبر ولده ابي علي

فلما استقام امر ابي نصر انتقض امر شروة وعصتهُ البلاد واستولى ابو نصر على سائر بلاد ديار بكر وحسنت سيرتهُ وطالت مدتهُ من (سنة ٤٠٢ الى ٤٥٣) واستولى على البلاد استيلاء تامًا وتنعم تنعمًا لم يسمع بمثلهِ وكان عنده خمسماية سرية سوى توابعهن* ثمن بعضهن* خمسة الاف دينار واكثر وخمسماية خادم وكان في مجلسهِ من الالات ما تزيد قيمتهُ عن مائتي الف دينار وارسل طباخين الى مصر حتى تعلموا الطبخ ووزر لهُ ابو القاسم المغربي وفخر الدولة بن جهير وقصده الشعراء والعلماء ولما مات كان عمره نيفًا وثمانين سنة وترك ابنين نصرًا وسعيدًا فملك نصر بميافارقين وسعيد بآمد

هذا و(في سنة ٣٨٠) استولى ابو الذواد محمد بن مسيب بن رافع بن المقلد بن جعفر امير بني عقيل على الموصل وقتل ابا طاهر ابرهيم بن حمدان واولاده وعدة من قواده واستقر امرهُ بالموصل

و(في سنة ٣٨١) قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة على الطائع لله عبد الكريم طمعًا في* مالهِ واخذ ما في دار الخلافة من الذخائر وراج امره وكانت مدة خلافتهِ سبع عشرة سنة* وثمانية شهور واياماً وقد عاش غير حميد ومات غير فقيد اذ لا تعلم ما كانت سياستهُ واحكامهُ وكان الشريف الرضي حاضرًا عند القبض عليهِ فبادر بالخروج من دار الخلافة وقال في ذلك ابياتًا بعضها

امسيت ارحم من قد كنت اغبطهُ لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات اعتز بالسلطان ثانية قد ضل عندي ولاّج السلاطين

خلافة القادر بالله احمد بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد خامس عشر سنيهم
(سنة ٩٩١–٣٨١) الى (سنة ١٠٣٠–٤٢٢)

وكان احمد عند خلع الطائع في البطيحة منذ سنتين واحد عشر شهرًا كما تقدم فلما سأل بهاء الدولة بن بويه رجال الدولة عمن يصلح للخلافة انتخبوا ابا العباس احمد بن اسحق المذكور وتوجه اليهِ خاص اصحابهِ ليحضروهُ ولما رجعوا بهِ وقرب من بغداد خرج بهاء الدولة واعيان الناس للقائهِ وبايعوهُ ولقبوهُ القادر بالله في ١١ رمضان (سنة ٩٩١–٣٨١)

وفيها مات سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني صاحب حلب بالفالج وخلفهُ ولدهُ ابو الفضائل وكان الوصي عليهِ وعلى سائر اهلهِ لؤلؤ الخادم

وكان قبل ذلك قد استنقم من بجور وقتله وكان بجور اولاً مستوليًا على دمشق من قبل ابي المعالي سعد الدولة الى ان جاء منير الخادم من جهة عزيز مصر فذهب بجور عنها الى الرقة . ولما كان هذه السنة ذهب بجور الى قتال سعد الدولة وانتهى الامر بهزيمته مع اصحابه وباسره اخيرًا والاتيان به الى سعد الدولة فقتله ولقي بجور عاقبة كفره احسان مولاه — ولما قتله سعد الدولة سار الى الرقة وحصر بها اولاده ثم امنهم وغدر بهم بان قبض عليهم واخذ ما معهم من الاموال وكان شيئًا كثيرًا وبرجوعه الى حلب لحقه الفالج ومات واسمه شريف

وفيها وصل بسيل ملك الروم الى الشام واخذ حمص ونهبها ثم سار الى شيزر ونهبها ثم الى طرابلس فحاصرها مدة ثم عاد الى بلاد الروم

وفيها توفي جوهر خادم المعز العبيدي معزولاً عن وظيفته

و(في سنة ٣٨٢) قصد ملك الروم ارمينية وحصر خلاط وملاذكرد وارجيش وضعفت نفوس الناس الى ان هادنه ابو علي الحسن بن مروان المقدم ذكره الى سنين عشر

وفيها شغبت الجند علي بهاء الدولة لاستيلاء ابي الحسن بن المعلم على الامور كلها فالتزم بتسليمه لهم فقتلوه

ثم دخلت (سنة ٣٨٣) وفيها كانت حروب بين بغراخان هرون بن سليمان ايلك خان وبين الامير الرضى نوح بن منصور الساماني وكان هرون يملك كاشغر وبلاد صاغون الى حدود الصين فانتصر فيها هرون واستولى على بخارا وفر منها الامير نوح مستخفيًا وعبر النهر الى امل الشط ولحق به اصحابه واقام بها يستدعي ابا علي بن سيمجور صاحب جيش خراسان فلم يلبِ دعوته . ثم مرض بغراخان في بخارا فارتحل عنها نحو بلاده ومات في الطريق

وكان بغراخان مسلمًا دينًا حسن السيرة ويحب ان يدعى مولى الرسول . وولي امرة الاتراك بعده طغان خان ابو نصر احمد بن علي خان وبعد موت بغراخان رجع الامير نوح الى بخارا واستقر في ملكه . وبغراخان هذا قد عرضنا لذكره في النبذ التمهيدية في اول هذا التاريخ وهو من ملوك الاتراك الذين منهم الدولة العثمانية فاحفظ ذلك الى عندما نجمع فروع هذه الحوادث الى مجموع تاريخي واحد مبينين حقيقة الاصل العثماني للدولة الاسلامية الكبرى المالكة الان

ولما عاد نوح الساماني الى بخارا (سنة ٣٨٤) اتفق ابن سيمجور المذكور وفائق احد القواد على قتاله فكتب نوح الى سبكتكين وهو بغزنة يعلمه الحال وولاه خراسان فاتاه سبكتكين ومعه ولده محمود وخرج نوح من خراسان فالتقيا وسارا جميعًا قاصدين ابن سيمجور وفائقًا وتنازلوا بنواحي هراة

فانهزم ابن سيمجور وجماعتهُ وتبعهم عسكر نوح وسبكتكين وقتلوا منهم كثيرًا

ولما استقر امر نوح بخراسان استعمل عليها محمود بن سبكتكين ثم عاد ابو علي بن سيمجور (سنة ٣٨٥) الى خراسان وقاتل محمودًا وهزمهُ الى ان اتحد مع ابيهِ سبكتكين وحاربا ابن سيمجور بطوس وهزماهُ وقد قال الشاعر في ذلك عن ابن سيمجور

عصى السلطان فابتدرت اليهِ رجالٌ يقلعون ابا قبيس

وصير طوس معقلهُ فكانت عليهِ طوس اشأم من طويس

ثم استامن ابن سيمجور الى نوح فامنهُ ولما جاء بخارى قبض عليهِ وعلى اصحابهِ واودعهم السجن ومات ابو علي فيهِ

وتوفي (سنة ٣٨٦) العزيز بالله ابو منصور نزار بن المعز بن المنصور اسمعيل العلوي الفاطمي صاحب مصر وعمره اثنتان واربعون سنة وثمانية اشهر بمدينة بلبيس من امراض مركبة وكانت خلافتهُ احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر وكسر وكان قد برز الى بلبيس لغزو الروم

وكان العزيز قد ولى كتابتهُ رجلاً مسيحيًا اسمهُ عيسى بن نسطورس واستناب بالشام رجلاً يهوديًا اسمهُ ميشا فعمد اهل مصر الى قراطيس فعملوها على صورة امراة معها قصة وجعلوها في طريق العزيز فاخذها وفيها مكتوب « بالذي اعز اليهود بميشا والنصارى بعيسى بن نسطورس واذل المسلمين بك الا كشفت عنا » فقبض العزيز على عيسى المذكور وصادره · وكان العزيز يحب العفو ويجريه ومن حلمهِ انهُ كان بمصر شاعر كثير الهجا فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز وابا نصر كاتب الانشاء بقولهِ

قل لابي نصر كاتب القصر والمتأني لنقض ذا الامر

انقض عرى الملك للوزير تفز منهُ بحسن الثناء والشكر

واعطِ وامنع ولا تخف احدًا فصاحب القصر ليس بالقصر

وليس يدري ماذا يراد بهِ وهو اذا درى فما يدري

فشكاهُ الوزير الى العزيز وانشدهُ الابيات · فقال لهُ هذا شيءٌ اشتركنا في الهجاء بهِ فشاركني في العفو عنهُ

وخلف العزيز ولدهُ ابو علي المنصور ولقب الحاكم بامر الله · وفيها مات ابو ذواد بن المسيب العقيلي المقدم خبرهُ امير الموصل وخلفهُ اخوهُ المقلد

وفيها توفي منصور بن يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي امير افريقية وكان ملكًا كريمًا شجاعًا وخلفهُ ولدهُ باديس بن منصور · ثم دخلت (سنة ٣٨٧) — وفيها ابتدت دولة بني حماد ملوك بجاية وهو حماد بن بلكين عقد لهُ على اشير ابن اخيهِ باديس بن منصور بن بلكين صاحب افريقية

فخرج اليها حماد واتسعت ولايته وكثر دخله وعظم شانه واجتمع له الجند والمال واستمرت دولته الى الى ان سار عبد المومن من المغرب الاقصى وملك بجاية (سنة ٥٤٧) كما جاء في ابن الاثير والحرم كان يحيي بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين

وفيها توفي الامير نوح بن سامان صاحب بخارا وخلفه ولده منصور واختل بموته ملك السامانيين

وفيها ظهر ابو الحسن علي بن مزيد في قومه بني اسد ونقض طاعة بهاء الدولة فبعث عليه العساكر فهرب امامهم حتى امتنع عليهم . ثم راجع الطاعة ثم انتقض ثانية (سنة ٣٩٣) واجتمع مع قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل وكان بينهم حروب فيها اشترك ابو جعفر الحجاج نائب بغداد وخفاجة وابو علي بن جعفر استاذ هرمز وابن حسنويه امير الاكراد وهندي بن سعد وابو عيسى شادي بن محمد ورزام اخوه وكابدت بغداد من ذلك الى اخر القرن الرابع وحدثت ولتئذ فتنة بني مزيد وبني دبيس وكان ابو الغنائم محمد بن مزيد مقيما عند اصهاره بني دبيس في جزيرتهم بخوزستان فقتل ابو الغنائم بعض رجالاتهم ولحق باخيه ابي الحسن فانحدر ابو الحسن اليهم بالفي فارس واستمد عميد الجيوش فامده بعسكر من الديلم ولقيهم فانهزم ابو الحسن وقتل اخوه ابو الغنائم

وفيها مات سبكتكين وكان مقامه ببلخ ولما مرض وطال مرضه ارتاح الى هواء غزنة فقام قاصدًا لها فمات بالطريق وحمل اليها ودفن هناك وخلفه ولده اسمعيل بعهده اليه وكان ولده محمود اكبر منه وكان بينه وبين اخيه قتال وانتصر محمود وانهزم اسمعيل وانسحب الى قلعة غزنة وحصره محمود . ثم نزل اسمعيل الى اخيه بالامان فامنه واكرمه وكانت مدة ملك اسمعيل سبعة اشهر واشركه محمود معه في الملك

وفيها توفي فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه وخلفه ولده ابو طالب رستم الملقب بمجد الدولة وعمره اربع سنين وكان مرجع الامر الى امه في تدبير الملك

وفيها توفي مامون بن محمد صاحب خوارزم وخلفه ولده علي وانتق (سنة ٣٨٩) روساء عسكر منصور بن نوح الساماني مع بكتورون وفائق وخلعوا منصورًا وسملوا عينيه واقاموا عوضه اخاه عبد الملك صبيًا صغيرًا وكانت ولاية منصور سنة وسبعة اشهر

ولما بلغ ذلك محمود بن سبكتكين كتب الى بكتورون وفائق يلومهما على ذلك وانتهى الامر بان اقتتلوا وظفر محمود عليهما واستولى على ملك خراسان وقطع منه خطبة السامانية

وفيها انقرضت دولة سامان . وذلك ان بكتورون وفائقًا بعد هزيمتهما من محمود بن سبكتكين التقيا مع عبد الملك بن نوح واخذوا في جمع العساكر لقتال محمود فمات فائق في تلك الاثناء وهو المشار اليه بالبنان وسند الحلقة فضعفت عزائمهم بذلك وبلغ الخبر ايلك خان واسمه ارسلان فمضى في

جمع الاتراك الى بخارا واظهر المودة لعبد الملك فظنوهُ صادقًا وخرج اليهِ بكتورون وغيرهُ من الامراء والقواد فقبض عليهم وسار حتى دخل بخارا وقبض على عبد الملك وحبسهُ حتى مات وحبس معهُ اخاه منصورًا الذي سملوهُ وباقي بني سامان وانتهت دولتهم وكانت قد اشتهرت وامتدت وتعد من احسن الدول سيرة وعدلاً . واخرهم كان عبد الملك المذكور بن نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن احمد بن اسمعيل بن احمد بن اسد بن سامان . وكان ابتداء دولتهم (سنة ٢٦١) وبقيت الى هذه السنة (سنة ٩٩٩–٣٨٩)

ثم دخلت سنة (٣٩١) وفيها توفي المقلد حسام الدولة بن المسيب بن رافع بن المقلد امير بني عقيل وكان اعور . واخوهُ ابو الذواد اول من استولى على الموصل (سنة ٣٨٠) كما تقدم ثم ملكها بعدهُ المذكور (سنة ٣٨٦) الى ان قتل هذه السنة بيد مماليكهِ الاتراك بالانبار وخلفهُ ولده قرواش

وغزا (سنة ٣٩٢)السلطان محمود بن سبكتكين بلاد الهند فغنم واسر وسبى وعاد الى غزنة

وفيها جرى بين قرواش المذكور وبين بهاء الدولة بن بويه حروب كان الوجه فيها لقرواش اولاً ثم لبهاء الدولة

و(في سنة ٣٩٣) اخذ يمين الدولة محمود بن سبكتكين سجستان من يد خلف بن احمد صاحبها وكان خلف المذكور مشهورًا بالعلم ولهُ تفسير من اكبر الكتب ومات (سنة ٣٩٩)

و(في سنة ٣٩٤) اشتهر ابو العباس بن واصل وكان قد تنقل بخدمة الناس وخدم اخيرًا المهذب صاحب البطيحة وتقدم عندهُ حتى جهز معهُ عسكرًا وفتح البصرة وسيراف وغنم منهما اموالاً واشتد عزمهُ وخلع طاعة مهذب الدولة وقصدهُ فانهزم من امامهِ واستولى ابن واصل على بلاد مخدومهِ واموالهِ وكانت جزيلة . وقصد مهذب الدولة بغداد فلم يمكن من الدخول بخلاف ما كان ينتظر من القادر ولهُ عليهِ حق الضيافة والاكرام قبلاً عندما هرب اليهِ

ثم ان ابن واصل اقام نائبًا على البطيحة وسار هو الى البصرة فلم يتمكن النائب من القيام وعصاهُ اهلها فارسل عميد الجيوش وهو امير العراق من جهة بهاء الدولة عسكرًا في البحر مع مهذب الدولة الى البطيحة فبلغ اهلها ولقوهُ فرحين بقدومهِ وسلموا اليهِ جميع الولايات وترتب عليهِ لبهاء الدولة كل سنة خمسون الف دينار واشتغل عنهُ ابن واصل بحرب غيره

ثم دخلت (سنة ٣٩٥) وفيها فتح محمود بن سبكتكين بهادية من اعمال الهند وهي وراء الملتان مدينة عالية السور حصينة ثم سار (سنة ٣٩٦) وفتح الملتان ثم سار الى نحو بيدا ملك الهند فهرب الى كالنجار قلعتهُ فحصره بها ثم سالمهُ على مال والبس ملك الهند خلعتهُ فاستعفى من شد المنطقة فلم يعفهِ وشدها عن كره

وبلما كانت (سنة ٣٩٧) سار ابو جعفر لحصار بغداد وامده ابن حسنويه امير الاكراد وسار معهم ابو الحسن علي بن مزيد المذكور وكانوا عشرة الاف وحاصروا بغداد وبها ابو الفتح بن عنان شهرًا ثم ورد لهم العلم بانهزام ابن واصل بالبطيحة فافترقوا وعاد ابن مزيد الى بلده وسار ابو جعفر الى حلوان وراسل بهاء الدولة بالطاعة وحضر عنده بتستر فاعرض عنهُ رغبًا لعميد الجيوش

و(في سنة ٣٩٧) خرج انسان اموي من ولد هشام بن عبد الملك يسمى ابا ركوة ضد الحاكم بمصر وكان يحمل ركوة على كتفهِ وكثر جمعهُ وملك برقة وجهز عليهِ الحاكم عسكرًا فهزمهم ابو ركوة واخذ ما معهم وسار الى الصعيد واستولى عليه فعظم ذلك على الحاكم فاحضر عساكر الشام واستخدم غيرهم عددًا غفيرًا وعين عليهم فضل بن عبد الله وارسلهم الى ابي ركوة وجرت بينهم حروب عديدة انجلت عن انتصار عساكر الحاكم وهربت جموع ابي ركوة وأُخذ اسيرًا فقتلهُ الحاكم وصلبهُ وطيف براسهِ

وسار (سنة ٣٩٨) يمين الدولة محمود الى الهند وغزا وفتح وفيها استعملت والدة مجد الدولة بن فخر الدولة وكان اليها الامر ابا جعفر المعروف بابن كاكويه على اصفهان فاستقر فيها قدمهُ وعظم شانهُ ومعنى ابن كاكويه ابن الخال وكان ابن خال والدة مجد الدولة المذكورة

وفيها توفي ابو نصر اسمعيل بن احمد الجوهري مولف الصحاح المعروف بصحاح الجوهري في اللغة وهو من فاراب مدينة ببلاد الترك من وراء النهر وتسمى اطرار وكان امامًا في اللغة والعربية قدم نيسابور وتوفي هنالك وكان ذا خط حسن من الدرجة الاولى

ثم دخلت (سنة ٣٩٩) وفيها قتل ابو علي بن ثمال الخفاجي الحاكم من قبل الحاكم العلوي الرحبة ثم انتقلت عنهُ واستولى عليها صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب من الدولة المرداسية بعد الدولة الحمدانية

وفيها توفي علي بن عبد الرحمن بن احمد بن يونس المصري صاحب الزيج الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس وكان كبيرًا في اربعة مجلدات وقيل ان الذي امر بعملهِ كان العزيز ابا الحاكم

و(في سنة ٤٠٠) عاد يمين الدولة وغزا الهند وغنم ورجع

هذا والان فلنرجع الى تاريخ الدولة الاموية في اسبانيا حيث تركناها في اخر القرن الثالث

فصل

في امراء الاندلس مدة المائة الرابعة من الهجرة

تقدم سابقًا خبر امراء الاندلس الى عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل

وبعد ان نهض على الخلافة عبد الرحمن الناصر شابًا وجد الاندلس مضطربًا بالمخالفين فاستنزل اهل العصيان واستقامت له البلاد في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من ايامه وطالت ايامه نحو خمسين سنة وهو اول من تلقب بامير المومنين عندما ضعف امر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك على بني العباس وبلغه ان مونسًا المظفر قتل المقتدر بالله (سنة ٣١٧) . واستفحل ملك بني امية في تلك النواحي وامحى اثر الثوار وقتل ابن حفصون كبيرهم وحمل اهل طليطلة على الطاعة وكانوا مشهورين بالخلاف والانتقاض

وكان عبد الرحمن الناصر كثير الجهاد بنفسه والحرب مع الفرنج الى ان انهزم عام الخندق (سنة ٣٢٧) فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردد الصوائف كل سنة وتوصل المسلمون في دهره الى اماكن لم يطئوها قبله ومدت اليه ام النصرانية من وراء الدروب يد الموادة واوفدوا عليه رسلهم وهدايام من رومة وبزنطية في سبيل السلم ووصل الى سدته ملوك الجلالقة من اهل جزيرة الاندلس المجاورين للمسلمين نظير قشتاله وبنبلونه وثغورها الجوفية والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ثم سما شوقه الى ملك العدوة فتناول سبته ونقل الفرضة من ايدي اهلها (سنة ٣١٧) واطاعه بنو ادريس امراء العدوة وملوك زناته والبربر واجاز اليه الكثير منهم . واخذ من يده ملكه بتخفيف المغارم واستحجب موسى بن محمد بن يحيى واستوزر عبد الملك بن جهور بن عبد الملك بن جوهر واحمد بن عبد الملك بن شهيد فاهدى هذا الاخير له هديته الشهيرة التي قد غالى بها المورخون

وقتل الناصر اخاه القاضي ومحمد بن عبد الجبار ابن عم ابيه لان كلاً منهما سعى في حق الاخر عنده بان الاول كان يريد الخلافة والبيعة لنفسه والثاني الانتقاض وبالفحص عن الجلي من امرهما تحقق نقصها فقتلها (سنة ٣٠٨)

وقبض على بني اسحق المروانيين وهو اسحق بن محمد بن اسحق بن ابرهيم بن الوليد بن ابرهيم بن عبد الملك بن مروان دخل جدهم اول الدولة الى الاندلس ولم يزالوا في اكرام وعز واستقرت الرئاسة في اسحق وسكن اشبيلية ايام الفتنة عند ابن حجاج . ثم هلك ابن حجاج وولى ابن مسلمة فاتهم اسحق وقبض عليه وعلى ولده وصهره يحيى بن حكم بن هشام فقتل الولد والصهر وكان عنده سفيرًا لابن حفصون فشفع في الشيخ اسحق وولده احمد ثم ملك الناصر اشبيلية من يد ابن مسلمة فرحل اسحق الى قرطبة فاستوزر بنيه احمد وابنه ومحمدًا وعبد الله ففتحوا الفتوحات وكفوا المهمات وعلت مقاديرهم في الدولة وتوفي ابوهم اسحق فورثوا مكانه ومات كبيرهم عبد الله وكان مقدمهم عند الناصر واستوزره ثم اتهمه الناصر بالخلاف وكثرت فيهم السعايات فسطا بهم الناصر وغربهم في النواحي فانزوى امية منهم في تسترين (سنة ٣٢٥) فقصده الناصر في العساكر فدخل دار الحرب واجاره ردمير ملكه

الجلالقة

وغزوة الخندق كما فصلها المسعودي هو ان عبد الرحمن غزا مسمورة دار الجلالقة في مئة الف او اكثر وكانت الوقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة (سنة ٣٢٧) في شهر شوال بعد الكسوف الذي كان وقتئذٍ بثلاثة ايام فكانت اولاً للمسلمين عليهم ثم ثابوا بعد ان حوصروا فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين الفًا وقيل ان الذي منع رذمير عن طلب من نجا منهم امية بن اسحق المذكور وخوفه الكمين ثم استامن امية بعد ذلك الى عبد الرحمن الناصر فقبله احسن قبول

وقد وفى بعد ذلك المسلمون بركبات عديدة وقتلوا من الجلالقة اكثر ما قتل الجلالقة منهم

وهدية ابن شهيد المتفق على انها افخر ما تهادت بمثلها الملوك وقد اخذت بعقول اهل الاندلس ووقعت لدى الناصر موقع الاستحسان في حقيقة من اغرب واعظم ما يدل على ضخامة الدولة الاموية واتساع احوالها فقد اجمعوا ان نفسًا لم تسمح باخراج مثلها . فاجمل بها من هدية تدل على كرم العرب الذي لا يجد الا بالنظر الى المواد لا الى طباعهم . قال المقري في نفح الطيب نقلاً عما جاء في تاريخ ابن حيان وابن خلدون ونحوهما «وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يفسر خمسمائة الف مثقال من الذهب العين واربعمائة رطل من التبر ومصارفه خمسة واربعين الف دينار من سبائك الفضة في مائتي بدرة» (واقتصر ابن الفرضي على خمسمائه الف دينار فقط) وعلى اثني عشر رطلاً من العود الهندي الذي يختم عليه كالشمع ومائة وعشرين رطلاً من العود المتخير ومائة رطل من العود الشبه المنتقى (وقال ابن الفرضي مستندًا الى الكتاب الذي وجهه ابن شهيد مع الهدية ان العود العالي من ذلك اربعمائة رطل منها قطعة واحدة مائة وثمانون رطلاً) وعلى مائة اوقية من المسك الذكي المفصل في جنسه (وقال ابن الفرضي ان المسك مائتا اوقية واثنتا عشرة اوقية) وعلى خمسمائة اوقية من العنبر الاشهب المفضل في جنسه على غايته من غير صناعة ومنها قطعة عجيبة مللمة الشكل وزن مائة اوقية (وفي ابن الفرضي الكل مائة اوقية وان هذه القطعة اربعون اوقية) وعلى ثلاثمائة اوقية من الكافور المرتفع الذكاء ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء مختلفة الالوان والصنائع وعشرة افرية من عالي جلود الفنك الخراسانية (وقال ابن الفرضي ومن انواع الثياب ثلاثون شقة وخمس خاصية للباسه بيضاء وملونة وخمس طهائر شعبيية خاصية له وعشرة فراء من عالي الفنك منها سبعة بيض خراسانية وثلاثة ملونة وستة مطارف عراقية خاصية له وثمان واربعون ملحفة زهرية لكسوته ومائة ملحفة زهرية لرقاده ولم يذكر بن خلدون ذلك وابن الفرضي اعرف ولاسيما قد استند الى كتاب المهدي وصاحب البيت ادري) وعلى عشرة قناطير شد اليها مائة جلد سمور وستة من السرادقات العراقية وثمان واربعين من الملاحف البغدادية لزينة الخيل

من الحرير والذهب وثلثين شقة من الملاحف الفربون لسروج الهباث (وابن الفرضي لم يذكر السرادق والملاحف) وعلى اربعة الاف رطل من الحرير المغزول والف رطل من الحرير المنتقى للاستغزال (وزاد ابن الفرضي في الحرير المذكور قيل انه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت به مع الهدية وانما دفعه لاصاحب الطراز واثبته في الدفتر) وعلى ثلاثين بساطاً من الصوف منتقاة مختلفة الالوان (وابن الفرضي يقول مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعاً) وعلى مائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة وخمسة عشر توخاً من عمل الخز المقطوع شطرها (قال ابن الفرضي وسائرها من جنس البسط) ومن السلاح والعدة ثمانمائة من تجافيف الزينة ايام البروز والمواكب (وقال الفرضي مائة تجفاف بابدع الصناعات واغربها واكملها) وعلى الف ترس سلطانية ومائة الف سهم من النبال البارعة الصنعة ومن الظهر خمسة عشر فرساً من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت (وقال ابن الفرضي ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العراب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرساً وخمس من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز عراقي وثمانون فرساً مما يصلح للوصفاء والحشم) وعلى عشرين من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية ولجم بغال مجالس سروجها خز جعفري عراقي (وقال ابن الفرضي خمسة بغال عالية الركاب) وعلى مائة فرس من عتاق الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات ومن الرقيق اربعون وصيفاً وعشرون جارية متخيرات بكسوتهنّ وزينتهنّ . ومن سائر الاصناف قرية تغلّ الافاً من امداد الزرع ومن الصخر للبنيان ما انفق عليه في عام واحد ثمانون الف دينار . وعلى عشرين الف عود من الخشب من اجمل الخشب واصلبه واقومه قيمته خمسون الف دينار « انتهى وقال ابن الفرضي نقلاً عن كتاب ابن شهيد مع الهدية عند ما ذكر الرقيق ما صورته « وكان قد اربي ايده الله بابتياعهم من مال الاخماس فابتعتهم من نعمته عندي وصيرتهم من بعثي ومع ذلك عشرة قناطير سكر طبرزد لاسحاق فيه وقال في اخر الكتاب » ولما علمت تطلع مولاي ايده الله تعالى الى قرية كذا بالقنانية المنقطعة الغرس وترداده ايده الله تعالى لذكرها لم اهنا بعيش حتى اعملت الحيلة في ابتياعها باحوازها واكتبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه وضمها الى ضياعه، وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظر جيان عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلعه اليها فما زلت اتصدى لمسرته بها حتى ابتعتها الان باحوازها وجميع منازلها وربوعها واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقية وصار في يده له ابقاه الله سبحانه وارجو انه سيرفع فيها هذه السنة الاف امداد من الاطعمة ان شاء الله تعالى . ولما علمت بنافذ عزمه ابقاه الله تعالى في البنيان وكلفه به وفكرت في عدد الاماكن التي تطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره في بنيانها مد الله تعالى في عمره واوفى بها على اقصى امله . علمت ان اسه وقوامه الصخر

والاستكثار منهُ فاثارت لي همتي ونصيحتي حكمة حيلة احكمها سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم عليهِ حيلة اقيم لك فيها بعام واحد عدد ما يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عامًا وينتهي تحصيل النفقة فيهِ الى نحو الثمانين الفًا اعجل شانهُ في عام سوى التوفير العظيم الذي يبديه العيان قبلاً ان شاء الله تعالى · وكذلك ما ثاب الى في امر الخشب لهذه المنية المكرمة فان ابن خليل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج اليهِ ثلثمائة الف عود ونيف على عشرين الف عود على انهُ لا يدخل منهُ في السنة الا نحو الالفي عود فنتج لك سعدك رايًا اقيم لهُ بتمامه جميع هذا الخشب العام على كمالهِ بورود الجليبة لوقتها وقيمتهُ على الرخص ما بين الخمسين الفًا والستين الفًا انتهى

وكان ذلك (سنة ٣٢٧) وانشرح الناصر من هذه الهدية واسنى منزلة وزيره ابن شهيد على سائر الوزراء وزاده حظوة واختصاصًا واضعف لهُ الرزق وبلغهُ ثمانين الف دينار اندلسية وثنى لهُ العظمة فسماه ذا الوزارتين وهو اول من سمي بذلك في الاندلس اقتداء بصاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد وامر بتصدير فراشهِ في البيت وتقديم اسمهِ في دفاتر الارتزاق وعظم مقداره في الدولة جدًّا

وفي الناصر المذكور شاهدت الدولة المروانية افخر ايامها وعزها وسطوتها وغناها وتقدمها على كل من سبق ولحق من الدول الاسلامية

وعبد الرحمن هو الذي بنى مدينة الزهراء واستمر العمل بها من (سنة ٣٢٥) الى اخر دولة الناصر وابنهِ الحكم وذلك نحو اربعين سنة واقام بها القصر الشهير بقصر الزهراء ولعلهُ المعروف عند الافرنج الان بقصر العمبرة اذ لم يكن لفظ العمبرة اتيًا من العامرية لابن ابي عامر كما سياتي · وقصر الزهراء هو البناء المتناهي بالجلالة والفخامة وقد اطبق الناس وقتئذٍ على انهُ لم يبنَ مثلهُ في الاسلام البتة قال المقري «وما دخل اليهِ احد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وجهبذ الا وكلهم قطع انهُ لم يرَ لهُ شبهًا بل لم يسمع بهِ بل لم يتوهم كون مثلهِ الى ان قال ولو لم يكن فيهِ الا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنهُ من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كانها افرغت في القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الاشخاص لا تهتدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها اه·

وذكروا ان مباني الزهراء اشتملت على اربعة الاف سارية (اسطوانة) ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة والقصر على نيف وثلاث مئة سارية ست عشرة منها ما جلب من مدينة رومية ومنها ما اهداهُ صاحب القسطنطينية وان مصاريع ابوابها صغارها وكبارها كانت تنيف عن خمسة عشر الفًا

وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه فانها كانت من اهول ما بناه الانس واجلة خطرًا واعظمه شانًا

وكان عدد الفتيان بالزهراء ١٣ الف فتي و٧٥٠ فتى وعدة النساء بقصرها الصغار والكبار وخدم الخدمة ٦٣١٤ وقيل ان عدد صبيان الصقالبة ٣٧٥٠ الى ٣٧٨٧ الى ٦٠٨٧ والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنتا عشرة الف خبزة كل يوم وينقع لها من الحمص الاسود ستة اقفزة وكان لهولاء اي سكان القصر كل يوم ثلاثة عشر الف رطل من اللحم قال ابن حيان الفيت بخط ابن دجون الفقيه قال مسلمة ابن عبد الله العريف المهندس بدا عبد الرحمن الناصر لدين الله ببناء الزهراء اول (سنة ٣٢٥) وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المجبور المعدل ستة الاف صخرة سوى الصخر المتصرف في التبليط فانه لم يدخل في هذا العدد ٠ وكان يخدم في الزهراء كل يوم الف واربعمائة بغل وقيل اكثر منها اربعمائة زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة الف بغل لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر يجب لها في الشهر ثلاثة الاف مثقال وكان يرد الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الايام الف ومائة حمل وكان فيها حمامان واحد للقصر وثانٍ للعامة ٠ وذكر بعض اهل الخدمة في الزهراء انه قدر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة الف دينار مدة ٢٥ سنة التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدائها لانه توفي (سنة ٣٥٠) فحصل جميع الانفاق فيها فكان مبلغ خمسة عشر بيت مال (اذ بيت المال عندهم خمسمائة الف مثقال) قال وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس وكان الذين يجلبونه عبد الله ابن يونس عريف البنائين وحسن وعلي بن جعفر الاسكندراني وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير انتهى وقيل انه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة وعلى كل سارية بثمانية دنانير٠ قيل وكان عدد السواري المجلوبة من افريقيا ١٠١٣ ومن الافرنج ١٩ واهدى اليه ملك الروم ١٤٠ سارية وباقيها من مقاطع الاندلس كطركونة وغيرها فالرخام المجزع من رية والابيض من غيرها والوردي والاخضر من افريقية من كنيسة اسفاقس ٠ واما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه اليها احمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الاسقف القادم من ايليا ٠ واما الحوض الاخضر المنقوش بتماثيل الانسان فجلبه احمد من الشام وقيل من القسطنطينية وقالوا انه لا يقوّم لفرط غرابته وجماله ٠ ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة اسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ٠ وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر ٠ وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس

ويخرج الماء من افواهها وكان المتولي امر البنيان ولده الحكم وكان الناصر قسم الجباية اثلاثًا ثلثًا للجند وثلثًا للبناء وثلثًا للادخار. وكانت جباية الاندلس يومئذٍ من الكور والقرى خمسة الاف الف الف واربعمائة الف وثمانين الف دينار ومن المتوق والمستخلص ٧٦٥ الفًا واما اخماس الغنيمة فلا يحصيها ديوان وقيل ان مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة والمدى تسعة عشر صاعًا والصاع بعرف اهل العراق ثمانية ارطال

وقال الحمداني والفتح في المطمح . كان الناصر كلفًا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من ابعد بقاعها وتخليد الاثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة فافضى به الاغراق في ذلك الى ان ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكرهُ الزائد المنتشر صيتهُ في الارض واستفرغ جهدهُ في تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذهُ ثلاث جمع متواليات اه .

وكان القاضي المنذر ينكر على الناصر الاسراف في البنا و يشير اليهِ في خطبهِ ومواعظهِ وكان من العلماء الفاضلين العاملين . قالوا ان الناصر كان اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم لخصوصية التي كانت فيها وهي ميلها على الصرح الممرَّد المشهور شانهُ بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة انفق عليها مالاً جسيمًا قرمد سقفها بهِ وجعل سقفها صفراء فاقعه الى بيضاء ناصعه تستلب الابصار باشعة نورها وجلس فيها اثر تمامها يومًا لاهل مملكتهِ فقال لقرابتهِ ومن حضر من الوزراء واهل الخدمة مفتخرًا بما صنعهُ هل رايتم او سمعتم ملكًا فعل مثل هذا قبلي او قدر عليهِ فقالوا لا والله يا امير المومنين وانك لاوحد في شانك كلهِ وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رايناه ولا انتهى لنا خبرهُ فابهجهُ قولهم وسرهُ وبينا هو كذلك اذ دخل عليهِ القاضي منذر بن سعيد واجمًا ناكس الراس فلما اخذ مجلسهُ قال له كالذي قال لوزرائهِ فاقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيتهِ وقال له والله يا امير المومنين ماظننت ان الشيطان لعنهُ الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا ان تمكنهُ من قيادك هذا التمكين مع ما اتاك الله من فضلهِ ونعمتهِ وفضلك بهِ على العالمين حتى ينزلك منزل الكافرين فانفعل الناصر لقولهِ وقال له انظر ما تقول وكيف انزلني منزلتهم قال نعم اليس الله تعالى يقول ولولا ان يكون الناس امةً واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون الاية فوجم الخليفة واطرق مليًا وبكى واقبل على منذر وقال له جازاك الله يا قاضي عنا خيرًا وامر بنقض سقف القبيبة فقرمدها ترابًا على صفة غيرها . ونقل انهُ دخل منذر عليهِ مرَّ وهو مشغول بامور البنيان فوعظهُ فانشدهُ عبد الرحمن

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها . من بعدهم فبالسن البنيان

اوما ترى الهرمين قد بقيا وكم . ملك محاه حوادث الازمان

ان البناء اذا تعاظم شانهُ اضحى يدلّ على عظيم الشان

وحضر منذر يوماً معهُ في الزهراء فقام الرئيس ابو عثمان ابن ادريس فانشد للناصر قصيدة منها

سيشهد ما ابقيت انك لم تكن مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج واطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشداً

يا باني الزهراء مستغرقاً اوقاتهُ فيها اما تمهل

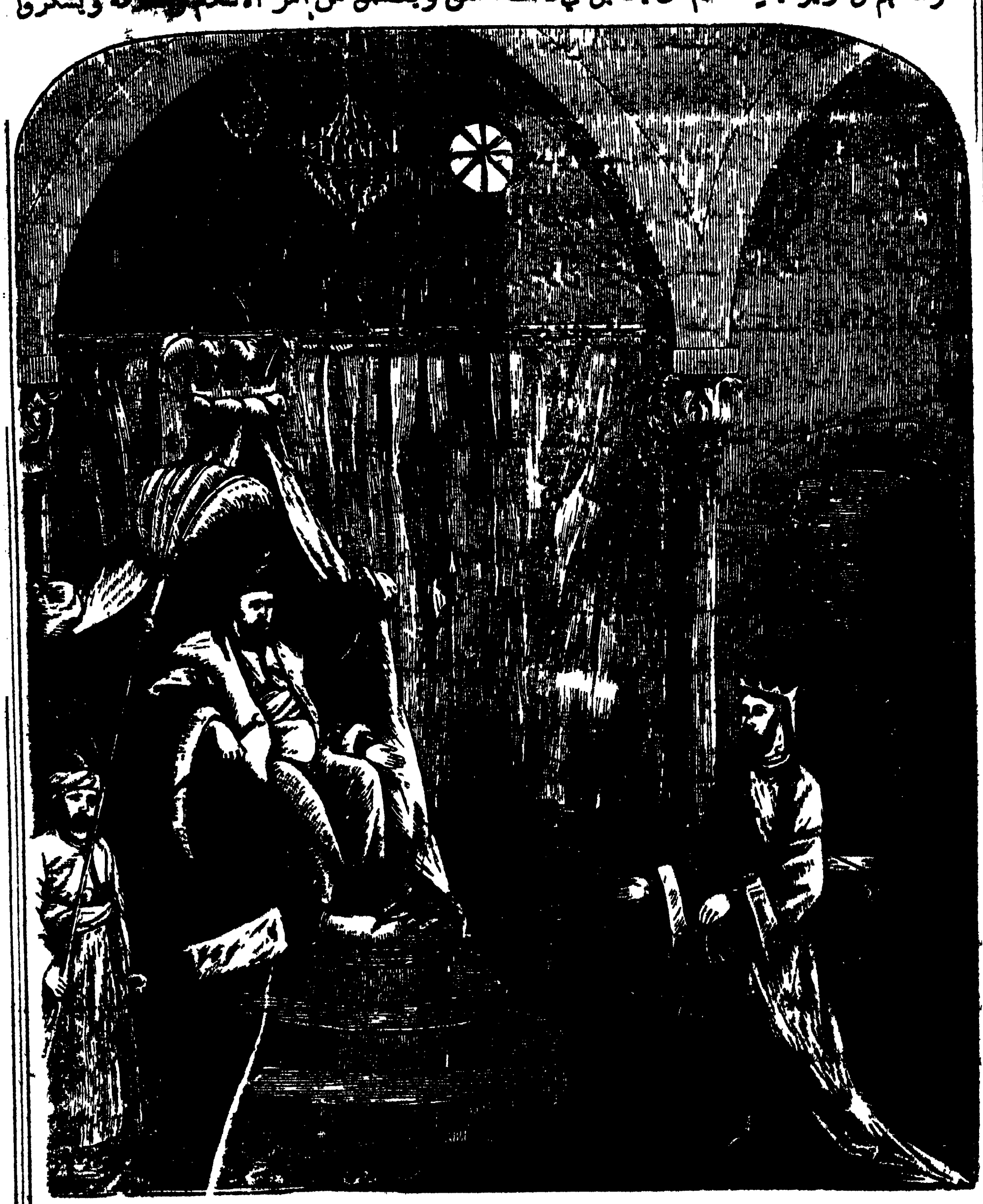
لله ما احسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله تع فقال منذر اللهم اشهد اني قد بثثت ما عندي ولم آلُ نصحاً انتهى

واخبار الناصر طويلة وقد منح الظفر على الثوار واستنزلهم من معاقلهم وصفا له الوقت ومن غزواته غزوة جليقية (سنة ٣٠٨) وملكها اردون بن ادفونش فاستنجد بالافرنج والبشكنس وظاهر شانجة بن فرويله صاحب بنبلونه امير البشكنس فهزمهم ووطئ بلادهم ودوخ ارضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونه (سنة ٣١٢) ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وافسد العائر وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاربهُ في الجبال والاوعار ولم يظفر منهُ بشيء . ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليهِ وكان قد استمد بالنصارى فقتل الناصر من كان من الثائر من اهل البة وفتح من حصونهم ثلاثين . وبلغهُ انتقاض طوطه ملكة البشكنس فغزاها ودوخ ارضها ورجع الى قرطبه . ثم غزا غزوة الخندق الى جليقية (سنة ٣٢٧) فانهزم واصيب فيها المسلمون وقعد بعدها عن الغزو بنفسهِ وصار يردد البعوث والصوائف وبعث جيوشهُ الى المغرب فملك سبته وفاسا وغيرهما وطارصيتهُ وانتشر ذكرهُ . ولما هلك شانجه بن فرويله ملك البشكنس قامت بامرهم بعدهُ امهُ طوطه وكفلت ولدهُ . ثم انتقضت على الناصر (سنة ٣٢٥) فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بنبلونه وكان قبل ذلك (سنة ٣٢٣) غزا الى خشتمه . ثم رحل الى بنبلونه فجاءتهُ طوطه بطاعتها وعقد لابنها غرسيه على بنبلونه . ثم عدل الى البة واستباحها ودوخها وخرب حصونها . ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذٍ رذمير بن اردون ففر من لقائهِ ودخل خشتمه فنازلهُ الناصر فيها وهدم برغش وكثيراً من معاقلهم ثم كانت بعدهُ غزوة الخندق المار ذكرها

ثم وفدت عليهِ (سنة ٣٣٦) رسل قسطنطين ملك الروم ثلاثون واتوا له بهدية ثمينة واحتفل الناصر بوصولهم . قال ابن خلدون , رتبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في اكمل شكة وزين القصر الخلافي بانواع الزينة واصناف الستور وجمل السرير الخلافي بمقاعد الابناء والاخوة

والاعمام والقرابة ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم ودخل الرسل فهالهم ما راوه وقربوا حتى ادوا رسالتهم وامر بوهبذ الاعلام ان يخطبوا في ذلك المحفل ويعظموا من امر الاسلام [illegible] ويشكروا



عبد الرحمن الناصر

نعمة الله فتقدم الخطباء ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وارتج عليهم القول حتى نهض منذر بن سعيد

البلوطي المار ذكره من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له احد بشيء من ذلك فخطب واقتصر وجلى في ذلك القصد وارتجل شعرًا طويلاً ففاز بفخر ذلك المجلس وعجب الناس من شأنه اكثر من كل ما وقع وطرب منه الناصر وولاه القضاء بعدها واصبح من رجال العالم وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره.

ثم انصرف الرسل وبعث معهم الناصر هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ورجع بعد سنتين وجاءه رسول من ملك الصقالبة وهو يومئذ هوتو ورسول اخر من ملك الالمان ورسول اخر من ملك الافرنجة وراء البرت وهو يومئذ اوقه ورسول اخر من ملك الافرنجة بقاصية المشرق وهو يومئذ كلده واحتفل لهم الناصر وارسل مع رسول الصقالبة ربيعًا الاسقف الى ملكهم هوتو ورجع بعد سنتين

و(في سنة ٣٤٤) جاءه رسول اردون يطلب السلم فعقد له. ثم بعث (سنة ٣٤٥) يطلب ادخال فرذلند قومس قشتيلة في عهده فاذن له في ذلك وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد ابيه شانجة بن غرسية ثم انتقض عليه اهل جليقية وتولى فرذلند المذكور ومال الى اردون بن رذمير وكانت غرسية بن شانجة حافدة لطوطة ملكة البشكنس فاستمسكت هي وحافدها غرسية وقصدت الناصر (سنة ٣٤٧) ودخلت في عهد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره على عدوه وجاءت الملكتان معًا فاحتفل الناصر لقدومهم وعقد الصلح لغرسية وامه وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه وخلع الجلالقة طاعة اردون وبعث الى الناصر يشكره وكتب الى الامم بالنواحي بذلك وما ارتكبه فرذلند قومس في تشغيبه في ملكه وولده ويحذره بذلك عند الامم. ولم تزل الناصر على موالاته واعانته الى ان مات

ومن جملة الرسل الذين جاءوا الناصر رسول ملك برشلونة وطركونة طالبًا الصلح فاجابه الناصر اليه. ومثله عمر ورسول صاحب رومه خاطبًا المودة فاجيب اليها . . قال ابن حيان وابو سعيد وغيرهما ان ملك الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الروم وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ولم تبق امة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الامم الا وفدت اليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية قال وكان كتاب قسطنطين بن ليون صاحب قسطنطينية العظمى في رق مصبوغ لونًا سماويًا مكتوبًا بالذهب بالخط الاغريقي وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ايضًا مكتوبة بفضة بخط اغريقي ايضًا فيها وصف هديته التي ارسل بها وعددها وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه اربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الاخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده وكان الكتاب داخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين

الملك من الزجاج الملون البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم وفي سطر آخر العظيم الاستحقاق والفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس اطال الله بقاءهُ قال ولما احتفل الناصر هذا الاحتفال احب ان يقوم الخطباء والشعراء بين يديهِ لذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانهِ فامر الحكم ولدهُ الفقيه محمد بن عبد البر الكسيباني بالتاهب لذلك وكان يدعي من القدرة على تاليف الكلام ما ليس في وسع غيره فلما قام يحاول التكلم هالهُ وبهرهُ هول المقام وابهة الخلافة فغشي عليهِ وسقط الى الارض فقيل لابي علي البغدادي اسمعيل بن قاسم القالي صاحب الامالي والنوادر وهو حينئذٍ ضيف الناصر وفد عليهِ من العراق وكان امير الكلام بحر اللغة فقام وبعد ان حمد واثنى انقطع القول بالقالي ووقف صامتاً الى ان قام منذر كما تقدم بدون سؤال وخطب خطبة بليغة لا محل لذكرها هنا ومن شعرهِ في هذه الواقعة قولهُ

مقالي كحد السيف وسط المحافل ... فرقتُ بهِ ما بين حق وباطل
بقلب ذكيٍ ترتمي جمراتهُ ... كبارق رعد عند رعش الانامل
فما دحضت رجلي ولا زل مقولي ... ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولي عيون اخالها ... كمثل سهام اثبتت في المقاتل
لخير امامٍ كان او هو كائن ... لمقتبل او في العصور الاوائل
ترى الناس افواجاً يؤمون بابهُ ... وكلهم ما بين راجٍ وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائهِ ... مخافة باس او رجاء لنائل
فعش سالماً اقصى حياة مؤملاً ... فانت رجاء الكل حافٍ وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... الى درب قسطنطين او ارض بابل

وتوفي الناصر رمضان (سنة ٣٥٠) قال ابن خلدون خلف الناصر في بيوت الاموال خمسة الاف الف الف ثلاث مرات انتهى وحكي انهُ وجد بخط الناصر ايام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا فعدت تلك الايام فكانت اربعة عشر يوماً وكان من اعظم واسعد ملوك العصر وملكها خمسين سنة واشهراً ومن شعره

ما كل شي فقد الا ... عوضني الله منه شيا
اني اذا ما منعت خيري ... تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليهِ ... فانها نعمة عليا

ونبا وبين الله بهِ دولة الناصر ونباهةُ لاسيما ابن شهيد صاحب الخدبة وكانت امارة عبد الرحمن

اسعد امارة لم يطرقها صرف فقرع الناس فيها هضاب الاماني و رباها ورتعت ظباها في ظلال ظباها
ومن وزرائهِ كان ابن جهور الشهير وكان بينهُ وبين ابن شهيد بعض منافسة كلاهما يتربص بصاحبهِ دائرة السوء ولهما اخبار طويلة

وبعد الناصر تولى ابنهُ الحكم ولقب المستنصر بالله ومشى على طريق ابيهِ ولم يفقد من ترتيبهِ الاَّ شخصهُ واستحجب الحكم جعفر الصقلبي واهدى لهُ يوم ولايتهِ هدية ذكرها ابن حيان في المقتبس وهي مئة مملوك من الافرنج ناشبة على خيول صافنة كاملو الشكة والاسلحة من السيوف والرماح والدرق التراس والقلانس الهندية وثلثمائة ونيف وعشرون درعًا مختلفة الاجناس وثلثمائة خوذة ومائة بيضة هندية وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الافرنجة غير الحبش التي يسمونها الطاشانية وثلثمائة حربة افرنجية ومائة ترس سلطانية وعشرة جواشن فضة مذهبة وخمسة وعشرون قرنًا مذهبة من قرون الجاموس

قال ابن خلدون ولاول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزا الحكم بنفسهِ واقتحم بلد فردلند (فردينند) بن غند شلب فنازل سنت اشتبين وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا الى عقد السلم معهُ وانقبضوا عما كانوا فيهِ ثم اغزا مولاه غالبًا بلاد جليقية وسار الى مدينة سالم قبل الدخول الى دار الحرب فجمع لهُ الجلالقة ولقيهم على اشتة فهزمهم واستباحهم ووطىء بلاد فردينند ودوخها وكان شانجة بن رذمير ملك البشكنس قد انتقض فاغزاه الحكم يحيى بن محمد التجيبي صاحب سرقسطه وجاء ملك الجلالقة لنصرتهِ فهزمهم وامتنعوا بثغورية وعاث في نواحيها وقفل. ثم اغزا الحكم احمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونه فعاثت العساكر في نواحيها. واغزا هذيل بن هاشم ومولاه غالبًا الى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا. وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية وكان من اعظمها فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب فعمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح قطربية على يد قائد وشقه وغنم فيها من الاموال والسلاح والاقوات والاثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرمك والاطعمة والسبي ما لا يحصى

و(في سنة ٣٥٤) سار غالب الى بلد البة ومعهُ يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون فابتنى حصن غرماج ودوخ بلادهم وانصرف وظهرت فيها مراكب المجوس في البحر الكبير وافسدوا بسائط اشبونه وناشبهم الناس القتال فعادوا الى مراكبهم واخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل وامر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الاسطول. ثم وردت الاخبار بان العساكر نالت منهم في كل جهة في السواحل. ثم كانت وفادة اردون بن ادفونس ملك الجلالقة وذلك ان الناصر لما اعان عليهِ شانجه بن رذمير وهو ابن عمه وهو المملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعتهِ واستظهر اردون بصهره فردلند قومس قشتيليه ثم توقع مظاهرة الحكم لشانجه كما

ظاهره ابوهُ الناصر فبادر الى الوفادة على الحكم مستجيرًا به فاحتفل الحكم لقدومهِ وعبي العساكر ليوم وفادتهِ وكان يومًا مشهورًا وصفهُ ابن حيان كما وصف ايام الوفادات قبلهُ ووصل الى الحكم واجلسهُ ووعده بالنصر على عدوهِ وخلع عليهِ لما جاء ملقيًا بنفسهِ وعاقدهُ على موالاة المسلمين ومقاطعة فرد لند القومس واعطى على ذلك صفقة يمينهِ ورهن ولده غرسيه ودفعت الصلات والحملات لهُ ولاصحابهِ وانصرف معهُ وجوه نصارى الذمة وليد بن مغيث القاضي واصبغ بن عبد الله بن نبيل الجاثليق وعبد الله بن قاسم مطران طليطله ليوطدوا لهُ الطاعة عند رعيتهِ ويقبضوا رهنهُ وذلك (سنة ٤٥١) . وعند ذلك بعث ابن عمهِ شانجه بن رذمير ببيعتهِ وطاعتهِ مع قوامس اهل جليقية وسمورة واساقفتهم يرغب في قبولهِ ويذكر ما فعل ابوه الناصر معهُ فتقبل الحكم بيعتهم على شروط منها هدم الحصون والابراج القريبة من ثغور المسلمين . ثم بعث قومس الفرنجة برسل اثناء سيّر ملكا برسلونه وطركونه وغيرهما يسالون تجديد الصلح واقرارهم على ما كانوا عليهِ وبعثوا بهدية وهي عشرون صبيًا من الخصيان الصقالبة وعشرون قنطارًا من صوف السمور وخمسة قناطير من القصدير وعشرة دروع صقلبية ومائتا سيف فرنجيه فتقبل الهدية وعقد على ان تهدم الحصون التي تضر بالثغور وان لا يظاهروا عليهِ وان ينذروا بما يكون من اعاديهِ . ثم وصلت رسل غرسيه بن شانجه ملك البشكنس في جماعة من الاساقفة والقوامس يسالون الصلح بعد ان كان توقف واظهر المكر فعقد لهم الحكم فاغتبطوا ورجعوا . ثم وفدت على الحكم ام لذريق بن بلاشك (بلاجك) القومس بالقرب من جليقية وهو القومس الاكبر . فاخرج الحكم للقائها اهل دولتهِ واكرمها واهداها وعقد لها ولابنها الصلح ودفع لها مالاً تقسمهُ بين وفدها وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج . ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت . ثم اوطأ عساكرهُ بر العدوة من المغرب الاقصي والاوسط وتلقى دعوتهُ ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة نبثوها في اعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ووفد عليهِ ملوكهم من ال خزرون وبني ابي العافية فاجزل صلتهم واكرم وفادتهم واحسن منصرفهم واستنزل بني ادريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف واجازهم البحر الى قرطبة . ثم اجلاهم الى الاسكندرية وكان محبًا للعلوم مكرمًا لاهلها جامعًا للكتب في انواعها ما لم يجمعهُ احد من الملوك قبلهُ . قال ابو محمد بن حزم اخبرني تليد الخصي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لا غير . واقام للعلم والعلماء سوقًا نافقة جلبت اليها بضائعهُ من كل قطر . وبالحقيقة فان الناصر والمستنصر من بني مروان كانا هرون ومامون العباسيين . قال ابن خلدون ووفد على ابيهِ ابو علي القالي صاحب كتاب الامالي من بغداد فاكرم مثواه وحسنت منزلتهُ عنده واورث اهل الاندلس علمهُ واختص

بالحكم المستنصر واستفاد علمهُ وكان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس مالم يعهدوه وبعث في كتاب الاغاني الى مصنفهِ ابي الفرج الاصفهاني وكان نسبه في بني اميه وارسل اليهِ فيهِ بالف دينار من الذهب العين فبعث اليهِ بنسخة منهُ قبل ان يخرجهُ الى العراق وكذلك فعل مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي في شرحهِ لمختصر ابن عبد الحكم وامثال ذلك . وجمع بدارهِ الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فاوعى من ذلك كلهِ واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبلهِ ولا من بعدهِ الا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضي ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبه الى ان بيع اكثرها في حصار البربر امر باخرجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن ابي عامر ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم اياها عنوة انتهى كلامهُ باختصار

هذا ولنذكر احتفال المبايعة في تلك الايام

فاول ما اخذ الحكم البيعة على صقالبة القصر وهم الفتيان المعروفون بالخلفاء الاكابر كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيرهِ من عظمائهم وهولاء تكفلوا باخذها من الاصاغر . ثم الاكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء ولما كملت بيعة اهل القصر تقدم الى عظيم دولتهِ جعفر بن عثمان باحضار اخي الحكم مروان عبيد الله بن الناصر للبيعة دون معذره . والى موسى بن احمد بن حدير بالاتيان بابي الاصبغ عبد العزيز شقيقهِ الثاني فذهب كل منهما بقطيع من الجند واتيا الى قصر مدينة الزهراء وانفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل للاتيان بغيرهما من الاخوة وكانوا ثمانية فوافى جميعهم الزهراء ليلاً ونزلوا في مراتبهم بفصلان دار الملك وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي وجلس المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الاوسط من الابهاء المذهبة القبلية التي في السطح الممرد . واول من وصل اليهِ الاخوة فبايعوهُ وحلفوا بيمين المبايعة المنصوصة وامضوا الصحيفة بكلما انعقد فيها ثم بايع بعدهم الوزرا واولادهم واخوتهم . ثم اصحاب الشرطة وطبقات اهل الخدمة وقعد الاخوة والوزراء والوجوه عن يمينهِ وشمالهِ الا عيسى بن فطيس فانهُ كان قائمًا ياخذ البيعة على الناس

وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة فاصطف في المجلس الذي قعد فيهِ اكابر الفتيان يمينًا وشمالاً الى اخر البهو كل منهم على قدره في المنزلة عليهم الظهائر البيض شعار الحزن قد تقلدوا فوقها السيوف ثم بعدهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين في السطح وفي الفصلان المتصلة بهِ ذوو الاسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض بايديهم السيوف . ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم . ثم صفوف العبيد الفحول شاكين في الاسلحة الرائقة والعدة الكاملة وقامت التعبية في دار الجند والترتيب من رجالهِ العبيد

عليهم الجواشن والاقبية البيض وعلى رؤوسهم البيضات الصقلبية وبايديهم التراس الملونة والاسلحة المزينة انتظموا صفين الى اخر الفصل . وعلى باب السدة الاعظم البوابون واعوانهم ومن خارج باب السدة فرسان العبيد الى باب الاقباء واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة موكبًا اثر مركب الى باب المدينة الشارع الى الصحراء . ولما تمت البيعة اذن للناس بالانصراف الا الاخوة والوزراء واهل الخدمة فانهم مكثوا بقصر الزهراء الى ان احتمل جسد الناصر الى قصر قرطبة ودفن هناك في تربة الخلفاء

ثم تكاثرت في ذي الحجة من (سنة ٣٥٠) الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب من اهل طليطلة وغيرها من قواعد الاندلس واصقاعها فوصلوا الى مجلس الحكم واخذت عليهم البيعة ووقعت الشهادات في نسخها

ومما يذكر مجيء الملك اردون بن ادفونش الى المستنصر بالله دون امان يعقد له اوذمةٍ تعصمه لانه كان قد سمع اعتزام الحكم في ذلك العام على الغزو اليهِ فاحتال في تامليهِ والارتماء عليهِ فقدم بعشرين نفرًا من وجوه اصحابهِ تحت اكناف غالب الناصري الذي قصده اولاً فجاء بهِ الى الحكم فتلقاهم ابنا افلح بالجيش وحضرا بهم الى قرطبة فاخرج الحكم هشامًا المصحفي في جيش كامل التعبية وتقدموا الى باب قرطبة ومروا بباب قصرها . ولما انتهى اردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سال عن مكان رمس الناصر فاشير الى جهتهِ داخل القصر في الروضة فخلع اردون قلنسوتهُ وخضع ودعا . وامر الحكم بانزال اردون في دار الناعورة وقد كان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء فاقام هو واصحابهُ بها خميسًا وجمعة . ولما كان يوم السبت امر باستدعاء اردون ومن معهُ وتدعى العسكر وكمل النظامُ في ذلك من عدد واسلحة وزينة وجلس الحكم على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح وجلس الاخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفًا وفيهم القاضي منذر بن سعيد والحكام والفقهاء فاتى محمد بن القاسم بن طميس بالملك اردون واصحابهِ . وعلى لبوس اردون ثوب ديباجي رومي ابيض وبلبوان من جنسهِ ولونهِ وعلى راسهِ قلنسوةٌ روميةٌ منظومة بجوهر وقد حفته جماعة من مسيحي وجوه الذمة بالاندلس يونسونهُ منهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة فدخل اردون بين الصفوف يقلب الطرف ويجيل الفكر من كثرتهم وتظاهر اسلحتهم ورائق حليتهم فراعه واصحابه ما ابصروه ونكسوا رؤوسهم هيبة حتى وصلوا الى باب الاقباء اول باب قصر الزهراء وهناك ترجل كل من كان خرج للقائهِ وتقدم اردون وخاصة قوامسهِ على دوابهم حتى انتهوا الى باب السدة فامر القوامس بالترجل هناك ودخل الملك اردون وحده راكبًا مع محمد بن طميس فانزل في برطل البهو الاوسط من الابهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي

مرتفع مكسو الاوصال بالفضة . وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه شانجه بن رذمير الوافد على الناصر فقعد اردون على الكرسي . ثم خرج الاذن لاردون بالدخول على الحكم فتقدم ماشيًا متبوعًا من جماعتهِ الى ان وصل الى السطح . ولما قابل المجلس الشرقي الذي فيهِ المستنصر وقف وكشف راسهُ وخلع برنسهُ ثم استنهض ماشيًا بين الصفين المرتبين في ساحة السطح الى ان انتهى الى باب البهو ولما قابل السرير خر ساجدًا مدة ثم استوى قائمًا وتقدم خطوات ثم سجد ووالى ذلك مرارًا الى ان وصل بين يدي الخليفة واهوى الى يده فناولهُ الحكم اياها ثم كر راجعًا الى وساد ديباج مثقل بالذهب جعل لهُ هنالك على قدر عشرة اذرع من السرير . وهكذا فعل من تبعهُ من اصحابهِ وناولهم الخليفة يده فقبلوها وتقهقروا واقفين على راس ملكهم واقام وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة يترجم بين الخليفة والملك اردون واطرق الخليفة في اول الامر عن تكليم اردون الى ان هدي روعه ثم قال « ليسرك اقبالك ويغبطك تاميلك فلدينا لك من حسن راينا ورحب قبولنا ما قد طلبتهُ » فلما ترجم لهُ ذلك تطلق وجههُ ونزل عن مرتبتهِ وقبل البساط وقال « انا عبد امير المومنين مولاي المتورك على فضلهِ القاصد الى مجده الحكم في نفسهِ ورجالهِ فحيث وضعني من فضلهِ وعوضني من خدمتهِ رجوت ان اتقدم فيهِ بنية صادقة ونصيحة خالصة » فقال لهُ الخليفة « انت عندنا بمحل من يستحق حسن راينا وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على اهل ملتك ما يغبطك وتتعرف بهِ فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا فسجد اردون وابتهل داعيًا وقال « ان شانجه ابن عمي تقدم الى الخليفة الماضي مستجيرًا بهِ مني فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثلهِ من اعاظم الملوك واكارم الخلفاء وكان قد قصدهُ قصد مضطر قد شنأتهُ رعيتهُ وانكرت سيرتهُ واختارتني لمكانهِ من غير سعي مني علم الله ذلك فخلعتهُ واخرجتهُ عن ملكهِ مضطرًا فتطول عليهِ رحمهُ الله بان صرفهُ الى ملكه وقوى سلطانهُ واعز نصره ولكنهُ لم يقم بفرض النعمة التي اسديت اليهِ وقصر في اداء المفروض عليهِ وانا قد قصدت باب امير المومنين لغير ضرورة من قرارة سلطاني وموضع احكامي محكمًا لهُ في نفسي ورجالي ومعاقلي ومن تحويهِ من رعيتي فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة » فقال الخليفة « قد سمعنا قولك وفهمنا مغزاك وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية شانٌ ويترادف من احساننا اليك اضعاف ما كان من ابينا رضى الله تعالى عنهُ الى ندك وان كان لهُ فضل التقدم بالجنوح الينا فليس ذلك مما يوخرك عنهُ ولا ينقصك مما اثلناك وسنصرفك مغبوطًا الى بلدك ونشد اواخي ملكك ونملكك جميع ما انحاش اليك ونعقد لك بذلك كتابًا يكون بيدك ونقرر بهِ حدما بينك وبين ابن عمك ونقبضهُ عن كل ما يتصرفهُ من البلاد الى يدك وسيترادف عليك من افضالنا فوق ما احتسبتهُ والله على ما نقول وكيل » فكرر اردون الخضوع واسهب في الشكر وقام للانصراف لا يولي الخليفة ظهرهُ وقد

تكنفهُ الفتيان فاخرجوهُ الى المجلس الغربي في السطح وقد علاه البهر واذهلهُ النظر وجلالة ما عاينهُ من مخافة الخليفة وبهاء العزة· ثم تقدم بهِ الفتيان الى البهو الذي بجوفي هذا المجلس فاجلسوهُ هناك على وسادٍ مثقل بالذهب واقبل نحوهُ الحاجب جعفر فلما بصر بهِ قام اليهِ واحنى راسهُ واوما الى تقبيل يدهِ فمنعها الحاجب عنهُ وانحنى اليه وعانقهُ وجلس معهُ وغبطهُ ووعدهُ بانجاز وعود الخليفة · ثم امر الحاجب فصبت عليهِ الخلع التي امر لهُ بها الخليفة وكانت دراعة منسوجة بالذهب وبرنسًا مثالهُ لهُ لوزة مفرغة من خاص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ثم دعا الحاجب اصحابهُ رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم وخر جميعهم خاضعين شاكرين· ثم انصرف الملك اردون واصحابهُ وقدم لركابهِ في اول البهو الاوسط فرسا من عتاق الخيل عليهِ سرج حلي ولجام حلي مفرغ وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافة مكان تضييفهِ وقد اعد لهُ فيهِ كل ما يليق بالملوك من الالة والفرش والماعون واستشعر الناس من مسرة ذلك اليوم وتحدثوا عنهُ اياما وكان للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فيهِ مقامات حسان وما قالهُ حينئذٍ عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة طويلة

ملك الخليفة اية الاقبال وسعودهُ موصولة بنوال

والمسلمون بعزةٍ وبرفعةٍ والمشركون بذلةٍ وسفال

الست بايديها الاعاجم نحوهُ متوقعين لصولة الريبال

هذا امیرهم اتاهُ آخذًا منهُ اواصر ذمة وحبال

متواضعا لجلالهِ متخشعًا متبرعا لمارع بقتال

سينال بالتاميل للملك الرضى عزًا يعز عداهُ بالاذلال

لا يوم اعظم للولاة مسرة واشدهُ غيظا على الاقيال

من يوم اردون الذي اقبالهُ امل المدى ونهاية الاقبال

ملك الاعاجم كلها ابن ملوكها والى الرعاة الى الاعاجم وال

ان كان جاء ضرورة فلقداتى عن عزم ملك وطوع رجال

فالحمد لله المنيل امامنا حظ الملوك بقدرهِ المتعالي

هو يوم حشر الناس الا انهم لم يسالوا فيهِ عن الاعمال

اضحى الفضاء مخيمًا بجيوشهِ والافق اقتم اغبر السربال

لا يهتدي الساري لليل قتامهِ الا بضوء صوارم وعوالى

وكان آجام الكماة تسربلت مذ عريت عنهُ جسوم ضلال

وكانما العقبان عقبان الفلا منقضة لتخطف الضلاّل

وكان مقضب القنا مهتزة اشطان نازحة ببيدة جال
وكاغاتبل الجافيف اكتست نارًا تاججها بلا اشمال

وتوفي الحكم الى رحمة الله (سنة ٣٦٦) بقصر قرطبة وكان قد فلج فلزم الفراش الى ان هلك وكان قد شدد بابطال الخمر في مملكته تشديدًا عظيمًا

و بعد الحكم قام ولدهُ هشام وعمرهُ تسع سنين وكان ابوهُ قد استوزر له محمد بن ابي عامر ونقله من خطة القضاء الى الوزارة وفوض اليه امورهُ فاستبد

قال ابن خلدون « وترقت حال ابن ابي عامر عند الحكم فلما توفي الحكم وبويع هشام ولقب المويد بعد ان قتل ليلتئذٍ المغيرة اخو الحكم المرشح لامره تناول الفتك به محمد بن ابي عامر هذا بممالاة من جعفر بن عثمان المصحفي حاجب ابيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذٍ ورؤسائهم فائق وجودر فقتل ابن ابي عامر المغيرة بممالاة من ذكر وتمت البيعة لهشام ثم سما لابن ابي عامر في التغلب على هشام لمكانه في السن وثاب له رايه في الاستبداد فمكر باهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضًا ببعض وكان من رجال اليمنية من معافر دخل جده عبد الملك مع طارق وكان عظيمًا في قومه وكان له في الفتح اثر . وعظم ابن ابي عامر هذا وغلب على المويد ومنع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الايام يسلمون وينصرفون وارضخ للجند في العطاء واعلى مراتب العلماء وقمع اهل البدع وكان ذا عقل وراي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضًا ببعض كل ذلك عن امر هشام وخطه وتوقيعه حتى استاصلهم وفرق جموعهم. واول ما بدا بالصقالبة والخصيان الخدام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم واخرجهم من القصر وكانوا ثمان مئة او يزيدون ثم اصهر الى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا اثرهُ من الدولة ثم استعان على غالب بجعفر بن احمد بن علي بن حمدون صاحب المسالة وقائد الشيعة ممدوح ابن هاني بالقافية المشهورة وغيرها وهو النازع الى الحكم اول الدولة ومن كان معه من زناتة والبربر ثم قتل جعفر بممالاة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وامثالهم من اولياء الدولة من العرب وغيرهم. ثم لما خلا الجو من اولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع الى الجند فاستدعى اهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندًا واصطنع اولياء وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يعزز وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة وملأ الدنيا وهو في جوف بيته من تعظيم الخلافة والخضوع لها ورد الامور اليها وترديد الغزو والجهاد وقدم رجال البرابرة وزناته واخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم فتم له ما اراد من الاستقلال بالملك والاستبداد

بالامر وبنى لنفسهِ مدينة لنزلهِ سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة وقعد على سرير الملك وامر ان يحيى بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخاطبات والاوامر باسمهِ وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعا للخليفة ومحا رسم الخلافة بالجملة وكتب اسمهُ على السكة والطرز واغفل ديوانه ما سوى ذلك . وجند البرابرة والماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة وقهر من تطاول اليها فظفر بما اراد . وردد الغزو بنفسهِ الى دار الحرب فغزا ستًا وخمسين مرة لم تنتكس له فيها راية ولا فل له جيش وما اصيب له بعث ولا هلكت له سرية واجاز عساكرهُ الى العدوة وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض فاستوثق له ملك المغرب واخبتت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمهِ واطاعوه واجاز ابنه عبد الملك الى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر . ولما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغهُ ما بلغهُ من اعلانهِ بالنيل منهُ والغض من منصبهِ والتأفف لحجر الخليفة هشام اوقع بهِ عبد الملك (سنة ٣٨٦) ونزل بفاس وملكها وعقد للملوك زناتة على ممالك المغرب واعمالهِ من سجلماسة وغيرها وشرد زيري بن عطية الى تاهرت فابعد المفر وهلك في مفره . ثم قفل عبد الملك الى قرطبة واستعمل واضحًا على المغرب وهلك المنصور اعظم ما كان مالكًا واشد استيلاء (سنة ٣٩١) بمدينة سالم منصرفًا من بعض غزواتهِ ودفن هناك لسبع وعشرين سنة من ملكهِ انتهى قوله بتصرف قليل . ويوجد مكتوبًا على قبره

آثارهُ تنبيك عن اخبارهِ حتى كانك بالعيان تراهُ
تالله لا ياتي الزمان بمثلهِ ابدًا ولا يحمي الثغور سواهُ

وملخص ترجمتهِ من كلام ابن سعيد هو الملك الاعظم المنصور ابو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن ابي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من قرية تركش وعبد الملك جده الوافد على الاندلس مع طارق في اول الداخلين من العرب وذكرهُ ابن حيان في كتابهِ المخصوص بالدولة العامرية والفتح في المطمح والحجاري في المسهب والقشندي في الطرف وكلهم اتفقوا على انه من قرية تركش رحل الى قرطبه وتادب بها ثم اقتعد دكانًا عند باب القصر يكتب فيهِ لمن يستخدمهُ من الخدم والموافقين للسلطان الى ان طلبت السيدة ام المويد من يكتب لها فعرَّفها بهِ من كان يأنس اليهِ بالجلوس من فتيان القصر فترقى الى ان كتب عنها فاستحسنتهُ وحكت عنهُ للحكم ورغبتهُ بهِ فولاهُ قضاء بعض الاماكن فظهرت منهُ نجابة فترقى الى الزكاة والمواريث باشبيليه وتمكن في قلب السيدة ما لم يتمكن لغيرهِ بخدمتهِ ونباهتهِ ولم يقصر مع ذلك في خدمة المصحفي الحاجب الى ان توفي الحكم وولي هشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة ثم جاشت الروم فجهز المصحفي ابن ابي عامر لدفاعهم فانتصر عليهم وتمكن حبهُ في قلوب الناس . ومن شعرهِ

رميت بنفسي هول كل عظيمة — وخاطرت والحر الكريم يخاطر

وما صاحبي الا جنان مشيع — واسمر خطي وابيض باتر

فسدت بنفسي اهل كل سيادة — وفاخرت حتى لم اجد من افاخر

وحاشدت سيانًا ولكن زيادة — على ما بنى عبد المليك وعامر

رفعنا العوالي بالعوالي ومثلها — واورثناها في القديم معافر

ومن رقيق اشعاره

لعينيك في قلبي عليك شجون — وبين ضلوعي للشجون فنون

نصيبي من الدنيا هواك وانه — عذابي ولكني عليه ضنين

وكانت امه تميمية تجمع الشرف بطرفيه والمجد بطرفيه وقد قال فيه القسطلي

تلاقت عليه من تميم ويعرب — شموس تلالا في العلا وبدور

من الحميريين الذين اكفهم — سحائب تهمي بالندى وبحور

وكان اديبًا محسنًا وعالمًا متفننًا ومن ذلك قوله في غيبة له في الجهاد ومصر

منع العين ان تذوق المناما — حبها ان ترى الصفا والمقاما

لي ديون بالشرق عند اناس — قد احلوا بالمشعرين الحراما

ان قضوها نالوا الاماني والا — جعلوا دونها رقابًا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام — يبلغ النيل خطوها والشاما

وكان مع استبداده وخضوع الكل له لم يخلع ربقة اسم الخلافة وكان هو وولده المظفر اخر سعد الدولة الاسلامية بالاندلس وهو باني الزاهرة ومدينة العامرية ولعلها ما تعرف الان بقصر العمرة

وكان ذا حقد عظيم فانه حط صاحبه المصحفي جعفر بن عثمان حتى اصاره للهموم لبيسًا وفي غايات النحس حبيسًا فكتب اليه يستعطفه بقوله

هبني اسات فاين العفو والكرم — اذ قادني نحوك الاذعان والندم

يا خير من مدت الايدي اليه اما — ترثى لشيخ رماه عندك القلم

بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر — ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك الا ضغنًا وحقدًا وما افادته الابيات الا صدًّا وتضييقًا وقد اجابه بقوله

الان يا جاهلاً زلت بك القدم — تبغي التكرم لما فاتك الكرم

اغريت بي ملكًا لولا تثبته — ما جاز لي عنده نطق ولا كلم

فايئس من العيش اذ قد صرت في طبق — ان الملوك اذا ما استنقموا نقموا

نفسي اذا سخطت ليست براضية   ولو تشفع فيك العرب والعجم

قال في كتاب الازهار المنثورة في الاخبار المأثورة في الزهرة السادسة والاربعين ما نصه « انتهت هيبة المنصور بن ابي عامر وضبطه للجند واستخدام ذكور الرجال وقوام الملك الى غاية لم يصلها ملك قبله فكانت مواقفهم في الميدان على احتفالهِ مثلاً في الاطراق حتى ان الخيل لتمتثل اطراق فرسانها فلا تكثار الصهيل والحمحمة قال ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سله بعض الجند باقصى الميدان لهزل اوجد بحيث ظن ان لحظ المنصور لا يناله فقال علي بشاهر السيف فمثل بين يديهِ لوقته فقال ما حملك على ان شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيهِ الا عن اذن فقال اني اشرت بهِ الى صاحبي مغمدًا فذلق من غمدهِ فقال ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى وامر بهِ فضربت عنقهُ بسيفهِ وطيف براسهِ ونودي بذنبهِ (نفح الطيب)

وللمنصور اخبار ونكت طويلة لا محل لذكرها هنا

عبد الملك المظفر

ولما توفي المنصور قام بالامر بعده ابنهُ ابو مروان عبد الملك فجرى على سنن ابيهِ في السياسة والغزو وكانت ايامهُ اعيادًا دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيهًا بسابع العروس ولم يزل مظفرًا كاسمهِ الى ان مات (سنة ٣٩٩) في المحرم وقيل (سنة ٣٩٨) وكاتبه المعز بن زيري ملك مغراوة بعد ان استرجع فاشاد المغرب اثر موت ابيهِ فكتب اليهِ العهد على المغرب وثارت الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم

عبد الرحمن الناصر

وبعد موت المظفر قام بالامر بعده اخوهُ عبد الرحمن ولقب بالناصر لدين الله وقيل بالمامون قال ابن خلدون « وجرى على سنن ابيهِ واخيهِ في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليهِ والاستقلال بالملك دونهُ ثم ثاب لهُ راى بالاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام المويد ان يوليه عهدهُ فاجابهُ واحضر لذلك الملا من ارباب الشوري واهل الحل والعقد فكان يومًا مشهودًا فكتب عهده من انشاء ابي حفص بن برد بما نصهُ « هذا ما عهد بهِ هشام المويد بالله امير المومنين الى الناس عامةً وعاهد الله عليهِ من نفسهِ خاصةً واعطى بهِ صفقة يمينه بيعة تامة بعد ان امعن النظر واطال الاستخارة واهمهُ ما جعل الله اليهِ من الامامة وعصب بهِ من امر المومنين واتقى حلول القدر بما لا يومن وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشي ان هجم محتوم ذلك عليهِ ونزل مقدوره بهِ ولم

برفع لهذه الامة علمًا تاوى اليه ومجاء تنعطف اليه ان يقرّ به تبارك وتعالى مفرطًا ساهيًا عن اداء الحق اليها. واعتبر عند ذلك من احياء قريش وغيرها من يستحق ان يسند هذا الامر اليه ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وامانته وهديه وصيانته بعد اطراح الهوى والتحري للحق والتزلف الى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد ان قطع الاقاصي واسخط الاقارب فلم يجد احدًا يوليه عهده ويفوض اليه الخلافة بعده غيره لفضل نسبه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونفاوته المامون العيب الناصح الحبيب ابي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن ابي عامر وفقه الله تعالى اذ كان امير المومنين ابتلاه واختبره ونظر في شانه واعتبره فرآه مسارعًا في الخيرات سابقًا في الحلبات مستوليًا على الغايات جامعًا للمآثرات . ومن كان المنصور اباه والمظفر اخاه فلا غرو ان يبلغ من سبل البر مداه ويحوي من خلال الخير ما حواه مع ان امير المومنين ايده الله بما طالع من مكنون العلم ووعاه من مخزون الغيب راى ان يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وابو هريرة ان النبي صلعم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده الآثار ولم يجد عنه مذهبًا . ولا الى غيره معدلاً . خرج اليه من تدبير الامور في حياته . وفوض اليه الخلافة بعد مماته طائعًا راضيًا مجتهدًا . وامضى امير المومنين هذا واجازه وانفذه ولم يشترط فيه ثنيًا ولا خيارًا واعطى على الوفاء به في سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه صلعم وذمة الخلفاء الراشدين من آبائه وذمة نفسه ان لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول. واشهد على ذلك الله والملائكة وكفى بالله شهيدًا . واشهد من اوقع اسمه في هذا وهو جائز الامر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المامون ابي المظفر عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى وقيد له ما قلده والزمه نفسه ما في الذمة وذلك في شهر ربيع الاول (سنة ٣٩٨) وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط ايديهم وتسمى بعدها بولي العهد . انتهى

وكان ذلك سببًا لزوال دولتهم وانقراض كلمتهم فان الامويين والقرشيين اسفوا من تحويل الامر جملة من المصرية الى اليمنية وسعوا باهلاكه فاجمعوا امرهم في غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة في بعض غزواته الصيفية ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة (سنة ٣٩٩) وخلعوا هشامًا المويد وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن امير المومنين الناصر لدين الله من اعقاب الخلفاء ولقبوه بالمهدي وطار الخبر الى عبد الرحمن المذكور فانفض جمعه وقفل الى الحضرة حتى اذا قرب منها تسلل عنه الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي واغروه بسبدهم لكونه ماجنًا مستهترًا بالامر ثم قبض عليه واخذ راسه وحمل الى المهدي

وذهبت دولة العامريين كانها لم تكن

ثم خرج على المهدي سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فهرب محمد المهدي واستولى سليمان على الخلافة اوائل شوال من (سنة ٤٠٠). ثم جمع المهدي جمعًا وقصد سليمان بقرطبة فهرب سليمان وعاد محمد المهدي المذكور الى الخلافة في منتصف شوال منها. ثم اجتمع كبار العسكر وقبضوا على المهدي محمد واخرجوا المويد من الحبس واعادوهُ الى الخلافة سابع ذي الحجة (سنة ٤٠٠) ثم احضروا المهدي الى بين يديهِ فامر بقتلهِ واستمر المويد في الخلافة وقام بتدبير امره واضح العامري ثم كان من المويد واخبار الاندلس ما سناتي بهِ تحت فصل اخر

فصل

في قرطبة قاعدة الاندلس الاسلامي

وقصورها والزهراء والزاهرة ونحوها وجامعها الاموي

قال ابن سعيد مملكة قرطبة في الاقليم الرابع واياالته للشمس وفي هذه المملكة معدن الفضة الخالصة في قرية كرتش ومعدن الزيبق والزنجفر في بلد بسطائسه ولاجزائها خواص مذكورة في متفرقاتها وارضها ارض كريمة النبات قال وانما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الاندلسية لكون سلاطين الاندلس الاول اتخذوها سرير سلطنة الاندلس ولم يعدلوا عن حضرتها ثم سلاطين بني امية وخلفاؤهم لم يعدلوا عن هذه المملكة وتقلبوا منها في ثلثة اقطار اداروا فيها خلافتهم قرطبة والزهراء والزاهرة وانما اتخذوها لهذا الشان لما راوها لذلك اهلاً وقرطبة اعظم علمًا واكثر فضلاً بالنظر الى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها

وقسم هذا المورخ كتابهُ المدعو الحلة المذهبة في حلى ممالك قرطبة بالنظر الى الكور الى احد عشر جزءا . الاول كتاب الحلى الذهبية في حلى الكورة القرطبية. والثاني كتاب الدرر المصونة في حلى كورة بلكونة. والثالث محادثة السير في حلى كورة القصير. والرابع الوشي المصدر في حلى كورة المدوّر. والخامس كتاب نيل المراد في حلى كورة مراد. والسادس المزنة في حلى كورة كزنة. والسابع الدر النافق في حلى كورة غافق. والثامن النفحة الارجه في حلى كورة استجه. والتاسع الكواكب الدرية في حلى الكورة القبرية. والعاشر كتاب رقة المحبة في حلى كورة استبة. والحادي عشر كتاب السوسانة في حلى كورة اليسانة... قال وكانت العمارة متصلة في مبادىء قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انه كان يمشي فيها بضوء السرج الممتدة عشرة اميال. ثم ذكر المسافات فقال بين المدور وقرطبة ١٦ ميلاً وبين قرطبة ومراد ٢٥ ميلاً وبينها والقصير ١٨ ميلاً وبينها وغافق مرحلتان

وبينها واستبة ٣٦ ميلاً وبينها وبلكونة مرحلتان وبينها وبين اليسانة ٤٠ ميلاً وبينها وقبرة ٢٠ ميلاً وبينها وبيانة مرحلتان وبين قرطبة واستجة ٣٠ ميلاً . قال وكورة رندة كانت قبلاً من عمل قرطبة ثم صارت من مملكة اشبيلية

وقسم الكتاب الاول الى فروع خمسة . الاول النغم المطاربة في حلى حضرة قرطبة . والثاني الصبحة الغراء في حلى حضرة الزهراء . والثالث البدائع الباهرة في حلى حضرة الزاهرة . والرابع الموردة في حلى مدينة شقندة . والخامس الجرعة السبغة في حلى كورة وزغة . ويتضح من هذا التقسيم المعتنى به ما لتلك الممالك من الزهو والثروة والذكر والاعتبار   وقال الرازي قرطبة ام المدائن وسرة الاندلس وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والاسلام ونهرها اعظم انهار الاندلس وبها القنطرة التي هي احدى غرائب الارض في الصنعة والاحكام والجامع الذي ليس في بلاد الاندلس والاسلام اكبر منه

وقالوا ان مساحتها التي دار السور عليها دون الارباض الف وستمائة ذراع واتصلت بها العمارة ايام بني امية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي الكبير وليس في الاندلس وادٍ غيره يسمى باسم عربي ولم تزل قرطبة بالزيادة منذ الفتح الاسلامي الى (سنة ٤٠٠) فاستولي عليها الخراب بكثرة الفتن الى ان رجعت على النصارى في ١٢ شوال (سنة ٦٣٣) ودور قصرها الف ومئة ذراع وعدد ارباضها احد وعشرون في كل ربض منها من المساجد والاسواق والحمامات ما يقوم باهله ولا يحتاجون الى غيره وبخارج قرطبة ثلثة الاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالص منهم على راسه الا من حفظ الموطا وقيل من حفظ عشرة الاف حديث وكان هولاء المقلصون يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويطالعونه باحوال بلدهم . قالوا وانتهت جباية قرطبة زمان ابن ابي عامر الى ثلثة الاف الف دينار وما احسن ما قيل

دع عنك حضرة بغدادٍ وبهجتها   ولا تعظم بلاد الفرس والصين .

فما على الارض طرّا مثل قرطبة   ولا مشى فوقها مثل ابن حمدين

ولما كانت قرطبة دار الملك كان يجيء اليها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية جامعة بين الكور بمقامها على النهر زاهرة مشرقة حسن مرآها وطاب جناها . وقال بعض اهل العلم اما قرطبة فهي قاعدة الاندلس وقطبها وقطرها الاعظم وام مدائنها ومساكنها ومستقر الخلفاء ودار المملكة في النصرانية والاسلام ومدينة العلم ومستقر السنة والجماعة

وهي مدينة من بنيان الاوائل طيبة الماء والهواء احدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل ناحية وبها الحريف العظيم الذي ليس له نظير في الاندلس ولا اعظم منه

بركة وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة . قالوا وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء الاعلام بها استقر سرير الخلافة المروانية وتمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية واليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء لانها كانت مركز كرماء ومعدن علماء ولم تزل تملى منها الصدور والحقائب ويبارى بها اصحاب الكتب اصحاب الكتائب ولم تبرح ساحاتها مجرّ عوالي ومجرى سوابق ومحط معالي وحمى حقائق وهي من الاندلس بمنزلة الراس من الجسد والزور من الاسد ولها داخل فسيح وخارج يمتع البصر بامداده وقال ابن سعيد ، ومن كلام والدي في شانها في من احسن بلاد الاندلس مباني واوسعها مسالك وابرعها ظاهرًا و باطنًا وتفضل اشبيلية بسلامتها في فصل الشتاء من كثرة الطين ولاهلها رئاسة ووقار ولا تزال سعة العلم متوارثة فيهم الا ان عامتها اكثر الناس فضولاً واشدهم تشنيعًا وتشغيبًا وقال ابن بسكوال عن قصر قرطبة انه قصر اولي تداولته ملوك الامم من لدن عهد موسى النبي وفيه من المباني الاولية والاثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والامم السالفة ما يعجز الوصف ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان فيه البدائع الحسان واثروا فيه الاثار العجيبة والرياض الانيقة واجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة وتمونوا المون الجسيمة حتى اوصلوها الى القصر الكريم واجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة قال وفي هذا القصر القصاب العالية السموّ المنيفة العلوّ التي لم يرَ الراؤون مثلها في مشارق الارض ومغاربها ومن قصوره المشهورة وبساتينه المعروفة الكامل . والمجدد . والحائر . والروضة . والزاهر . والمعشوق . والمبارك . والرستق . وقصر السرور والتاج . والبديع قال ومن ابوابه التي فتحها الله لنصر المظلومين وغياث الملهوفين والحكم بالحق الباب الذي عليه السطح المشرف الذي لا نظير له في الدنيا وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد اثبتت في قواعدها وقد صورت صورة انسان فاتح فمه وهي حلق باب مدينة اربونه من بلاد الفرنج وكان الامير محمد قد فتحها فجلب حلقها الى هذا الباب . وله باب قبلي ايضًا وهو المعروف بباب الجنان وقدام هذين البابين المذكورين على الرصيف المشرف على النهر الاعظم مسجدان مشهوران بالفضل وكان الامير هشام الرضى يستعمل الحكم في المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل . وله باب ثالث يعرف بباب الوادي . وله باب بشماليه يعرف بباب قوريه . وله باب رابع يدعى باب الجامع وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع على الساباط وسدّ ابوابًا بعد هذا طمسها لما فتنة المهدي بن عبد الجبار وذكر المورخ المذكور ان ابواب قرطبة سبعة . باب

القنطرة الى جهة القبلة ويعرف بباب الوادي. وبباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر. وباب الحديد ويعرف بباب سرقسطه او باب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة. وباب رومية وفيه تجتمع الثلثة الرصف التي تشق دائرة الارض من جزيرة قادس الى قرمونة الى قرطبة الى سرقسطة الى طركونة الى اربونة مارة في الارض الكبيرة. ثم باب طلبيرة وهو ايضًا باب ليون. ثم باب عامر القرشي وقدامه المقبرة المنسوبة اليه. ثم باب الحور ويعرف بباب بطليوس. ثم باب العطارين وهو باب اشبيلية وذكر ايضًا ان عدد ارباض قرطبة عند انتهائها في التوسع والعمارة احد وعشرون ربضًا. منها القبلية بعدوة النهر وهي ربض شقندة وربض منية عجب. واما الغربية فتسعة ربض حوانيت الريحاني. وربض الرقاقين. وربض مسجد الكهف. وربض بلاط مغيث. وربض مسجد الشفا. وربض حمام الالبيري. وربض مسجد السرور. وربض مسجد الروضة. وربض السجن القديم. واما الشمالية فثلثة. ربض باب اليهود. وربض مسجد ام مسلمة. وربض الرصافة واما الشرقية فسبعة. ربض سبلار. وربض فرن بربل. وربض البرج. وربض منية عبد الله. وربض منية المغيرة. وربض الزاهرة. وربض المدينة العتيقة. قال ووسط هذه الارباض قصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها. وكانت هذه الارباض بدون سور فلما كانت ايام الفتنة صنع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع. وذكر ابن غالب ان دور الحائط المذكور كان اربعة وعشرين ميلاً وان شقندة معدودة في المدينة لانها مدينة قديمة كانت مسورة

ومن متنزهات قرطبة ومعاهدها المذكورة نظمًا ونثرًا ما ذكرهُ ابن سعيد اولاً. قصر الرصافة بناه عبد الرحمن بن معاوية في اول ايامه لتنزهه وسكناه وكان يصرف اكثر اوقاته في منية الرصافة التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة الى الغرب فاتخذ بها قصرًا حسنًا ودحا جنانًا واسعة ونقل اليها غرائب الغروس واكارم الشجر من كل ناحية واودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة حتى نمت بيمين الجد وحسن التربية في المدة القريبة اشجارًا معتمة اثرت بغرائب من النواكه انتشرت عما قليل بارض الاندلس. قال وسماها باسم رصافة جده هشام بارض الشام الاثير لديه ولهواه وكلفه بها وكثرة تردده اليها وسكناه اكثر اوقاته بها طار لها ذكر في ايامه ومن بعده. قال وكلهم فضلها وزاد في عمارتها وتكاثرت اوصاف الشعراء لها مما هو مشهور عنهم قال والرمان السفري الذي فاض على ارجاء الاندلس اصله من هذه الرصافة. وابن حيان يخصص له فضلاً فقال انه مقدم على اجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة وكان يعرف بالرمان السفري لان سفر بن زيد الكلاعي اول من عالج زرع عجمه في كورة رية واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجرًا اثمر واهدى منه الى عبد الرحمن فلما هو اشبه

شي برمان رصافة هشام فاستبرع استنباطه واستنبل همته وشكر صنعه واجزل صلته واغترس منه بمنية الرصافه و بغيرها من جنائنه فانتشر نوعه واستوسع الناس في غراسه ونسب الى سفر قال وقد وصف الرمان المذكور محمد بن روح الشاعر منها قوله

ولابسة صوفًا احمرا اتتك وقد ملئت جوهرا
كانك فاتح حق لطيف تضمن مرجانه الاحمرا
حبوبًا كمثل لثات الحبيب رضابًا اذا شئت او نظرا
وللسفر تعزى وما سافرت فتشكو الوجى اوتقاسي السرى

وفي قصر الرصافة قال القاسم بن عبود الرياحي

القنيها ازاء قصر الرصافة واعتبر في مآل امر الخلافه
وانظر الافق كيف بدل ارضًا كي يطيل اللبيب فيه اعترافه
ويرى ان كل ما هو فيه من نعيم وعز امر سخافه
كل شي رايته غير شي ماخلالذة الهوى والسلافه

ومنها وهو خارج قرطبه قصر السيد يحيى بن ابي يعقوب بن عبد المومن وهو على متن النهر الاعظم تحمله اقواس · وقيل للسيد كيف تانقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن اهل قرطبه · فقال علمت انهم لا يذكرون واليًا بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي في رووسهم من الخلافة المروانية فاحببت ان يبقى لي من بلادهم اثر اذكر به على رغمهم وقد انشد ناهض بن ادريس شاعر وادي اش لنفسه في هذا القصر

الا حبذا القصر الذي ارتفعت به على الماء من تحت الحواجب اقواس
هو المصنع الاعلى الذي الف الثرى ورفعه عن لثمه . المجد والباس
فاركب متن النهر عزا ورفعة وفي موضع الاقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجناب وبابه يغص وحلت افقه الدهر اعراس

ومنها قصر الدمشق بقرطبة وهو قصر شيده بنو اميه بالصفاح والعمد رفيع الاتقان بديع البنا غميق الساحات والفناء اتخذوه ميدان مراحهم ومضمار افراحهم وحكوا به قصرهم في المشرق وقد انشد فيه لابن عمار الوزير الحاجب ابي عثمان جعفر

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى ولذ المشم

منظر رائق وماء نمير وثرى عاطرٌ وقصر اشم
بت فيهِ والليل والفجر عندي عنبرٌ اشهب ومسك احم

ومنها منية الزبير وتنسب الى الزبير ابن عم الملثم ملك قرطبة وفيهِ عن ابن سعيد يا انشد ابو بكر بن بقي الشاعر المشهور

سطر من اللوز في البستان قابلني ما زاد شيء على شيء ولا نقصا
كانما كل غصن كم جارية اذا النسيم ثنى اعطافهُ رقصا

ومنها القصر الفارسي من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة ذكره الوزير ابو الوليد بن زيدون في قصيد ضمنهُ منتزهات قرطبة وكان قد فر من قرطبة ايام بني جهور واولها.. ياهبة باكرت من نحو دارين.. وفيها كثير من منتزهات قرطبة وسنذكرها وهي من القصائد الجليلة وكنوز الادب

ومنها فحص السرادق وهو مقصود للفرجة يسرح بهِ البصر وتبتهج فيهِ النفس وفيهِ شعر الشريف الاصم القرطبي

الا فدعوا ذكر العذيب وبارق ولا تسأموا من ذكر فحص السرادقِ
مجرّ ذيول السكر من كل مترفٍ ومجرى الكؤوس المترعات السوابقِ
قصرت عليهِ اللحظ مادمت حاضرًا وفكري في غيب لمرآهُ شايقي
ايا طيب ايام تقضت بروضة على لح غدران وشم حدائقِ
اذا غردت فيها حمائم دوحها تخيلتها الكتاب بين المهارقِ
وما باختيار الطرف فارقت حسنها ولكن بكيد من زمان منافقِ

ومن منتزهات قرطبة السد وفيهِ قال ابو شهاب المالقي

ويوم لنا بالسد لو ردّ عيشه بعيشة ايام الزمان رددناه
بكرنا لهُ والشمس في خدر شرقها الى ان اجابت اذ دعا الغرب دعواه
فطعماه شدوًا واغتباقًا ونشوة ورجع حديث لو رقى الميت احياه
على مثلهِ من منزه تبتغى المنى فلله ما احلى وابدع مرآه
شدتنا بهِ الارحا والقت شارها علينا فاصغينا لهُ وقبلناه
لئن بان انا بالانين نفقده وبالدمع في اثر الفراق حكيناه

ولابي الحسن المريني وغيره ادوار واشعار لامحل لذكرها هنا

ومن اثار الاندلس العظيمة قنطرة نهر قرطبة اقواسها سبع عشرة قوسًا وبانيها السمح ابن مالك الخولاني صاحب الاندلس بامر عمر بن عبد العزيز وشيدها بعد ذلك بنو امية وحسنوها

وذكر ابن حيان انه قيل كانت في هذا المكان قنطرة من بناء الاعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة اثرت فيها الازمان بمكايدة المدد حتى سقطت حناياها ومحيت اداليها وبقيت ارجلها واسافلها وعليها بنى السمح (سنة ١٠١) انتهى وقال في مناهج الفكر انها احدى اعاجيب الدنيا بناها عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي زمان عمر بن عبد العزيز طولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون باعًا وارتفاعها ستون ذراعًا وعدد حناياها ١٨ حنية وعدد ابراجها تسعة عشر برجًا وذكر ابن حيان والرازي والحجاري ان باني مدن الاندلس كان طيباريوس قيصر فبنيت في مدته قرطبة واشبيلة وماردة وسرقسطة ولم تزل الاندلس في ايدي الرومان من ولد عيسو الى ان تولى عليها القوط من ولد يافث الى ان اخذها منهم المسلمون ولم تكن قرطبة سريرًا في زمان الجاهلية فصارت في الاسلام سريرًا للخلافة المروانية وصارت اشبيلية وطليطلة تبعًا لها وقال صاحب نشق الازهار «قرطبة مدينة مشهورة دار خلافة واهلها اعيان اناس في العلم والفضل وبها جامع ليس في الاسلام مثله اهـ» ومن اسباب خراب الاندلس عبث البربر بها في دخولهم مع سليمان بن المستعين الاموي حين استولى على قرطبه بالقهر وسفك الدما

وكان علي بن حمود من بني علي بن ادريس من بني علي بن ابي طالب معاونًا لسليمان المذكور . ثم قاتلًا له ومستوليًا مكانه وبويع بقرطبه يوم قتل فيه سليمان. وولي على الناس بالارهاب والسطوة واذل روس البربر وجلس للمظالم والانتقام منهم واستمر مع اهل قرطبه في احسن عشرة نحو ثمانية اشهر حتى بلغه قيام الاندلسيين بالمرتضي المرواني في شرق البلاد فتغير عما كان عليه وعزم على ترك قرطبه بعد ابادة اهلها واغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء الى حاله وانتزع اهل قرطبه وهدم المنازل واستهان بالاكابر والقى المغارم وقبض على بعض الاعيان والزمهم بمال وكان منهم ابو حزم الذي ملك قرطبه بعده وصارت دولته بوراثة ولده معدودة من اول الطوائف . فانجمعت عن علي النفوس وقتلته صبيان اغمار من صقالبة بني مروان في الحمام وكانت مدته نحو عامين. وكان علي بن حمود على عجمته وبعده من الفضائل يصغي الى الامداح ويثيب عليها ويظهر في الميل الى آثار النسب العربي والكرم الهاشمي وكان من شعرائه ابن الخياط القرطبي وعبادة بن ماء السماء

وكان للناصر علي اخ اسمه القاسم اكبر منه وكانت امها واحدة وهي علوية وكان القاسم لما قتل اخوه واليًا على اشبيلية وكان لعلي ولد اسمه يحيي واليًا على سبتة . فمال اكثر البربر لاقامة القاسم لكونه غبن حقه اولًا وقدم عليه اخوه وهو اصغر منه ولكونه قريبًا من قرطبة بخلاف يحيي بن علي لوجود البحر فاصلًا بينه وبينهم فلما وصلت رسلة الى القاسم خاف ان تكون حيلة حتى اتضح له الحق فركب الى قرطبه وبويع بعد ستة ايام من قتل اخيه واحسن السيرة لكنه رأى من البربر بعد ذلك

الميل الى يحيي ابن اخيهِ فاكثر من اقتناء السودان وقوَّدهم على اعمالهِ فانفت البربر من ذلك وانحرفوا عنهُ فقام على شرق الاندلس المرتضي عبد الرحمن من اعقاب الناصر المرواني واجتمع له اكثر ملوك الطوائف مثل منذر التجيبي صاحب سرقسطه وخيران العامري الصقلبي صاحب المرية وانضاف اليهم جمع من الافرنج وناهب القاسم للقائهم. ثم فسدت نية منذر وخيران على المرتضي فكتب خيران الى ابن زيري الصنهاجي المتغلب على غرناطه وكان داهية البربر وضمن له انهُ متى قطع الطريق على المرتضي عند اجتيازهِ عليهِ الى قرطبه تقاعد عن نصرتهِ الموالي العامريون اعدا المروانيين واصحاب رياسة الثغور فاصغى ابن زيري الى كلامهِ. ثم كتب المرتضي الى ابن زيري يدعوهُ الى طاعتهِ فقلب الكتاب وكتب على ظهره يا ايها الكافرون « السورة » فكتب اليهِ المرتضي ثانية يقول له جئتك بجميع ابطال الاندلس وبالافرنج فماذا تصنع. فامر الكاتب ان يحول الكتاب ويكتب في ظهره ألهاكم التكاثر « السوره » فازداد غيظهُ فترك السير الى حضرة الامامة قرطبة وعدل الى محاربتهِ وظن انهُ يصطلمهُ في ساعة. فدامت الحرب اياماً وارسل ابن زيري يستنجز خيران وعده فاجابهُ خيران بما معناهُ اثبت جمعك لنا ونحن نهزم عنهُ ونخذلهُ في غد. وكان كذلك فان خيران ومنذرًا واصحاب الثغور ولوا عنهُ في الصباح وثبت المرتضي حتى كادوا ياخذونهُ. ثم ولى فوضع عليهِ خيران عيونًا فلحقوه بقرب وادي آش وقد جاوز بلاد البربر فهجموا عليهِ وقتلوهُ وجاؤوا براسهِ الى المرية. وبعد هذه الواقعة اذعن اهل الاندلس للبرابرة. ولم يجتمع لهم بعدها شمل ينهضون بهِ اليهم وخرب القاسم بن حمود سرادق المرتضي على نهر قرطبه وتمكنت اموره وولى وعزل الى ان خلع طاعتهُ يحيى ابن اخيهِ وكتب من سبته الى اكابر البرابر يعدهم بمناصبهم وبارجاع العبيد والسودان الى ما يجب ان يكونوا عليهِ. فاجابوا الى ذلك فجمع مراكبهُ واعانهُ اخوهُ ادريس صاحب مالقة فجاز الجرب بجمع وافر وحل بمالقه مع اخيهِ. وكاتبهُ خيران يقدم له المساعدة فقال له اخوهُ احذر فان خيرانْ خداع فقال يحيي ونحن منخدعون بما لا يضرنا. ثم ذهب يحيي الى قرطبة وفر القاسم الى اشبيليه في خمسة فرسان من خواصهِ

وبايع البرابر والسودان واهل البلد يحيي. وكان من النجباء ولكنهُ كان معجبًا يرقي السفلة فاغتاظ منهُ اكابر البرابر وطلبوا ما وعدهم من تنزيل السودان. فبذل لهم ذلك فلم يقنعوا وفر السودان الى عمه باشبيلية ومن البرابر اولئك الذين تكبر عليهم يحيي ايضًا. ومقتهُ ملوك الطوائف وبقي منهم كثير على الخطبة لعمه القاسم الى ان اختلت حال قرطبه ووجد يحيي ان لا سبيل له للبقاء فيها. وكان قد ولى على سبتة اخاه ادريس. وبلغهُ ان اهل مالقه خاطبوا خيران فطمع خيران في اخذها ففر يحيي باصحابهِ تحت الليل الى مالقة. فبلغ ذلك عمهُ فركب من اشبيلية الى قرطبه ووصل اليها في ١٨ ذي القعدة

(سنة ٤١٣) وخطب له بها . ثم وقع الاختلاف فكان هوى السودان للقاسم وكثير من البرابر من حزب يحيى وهوى اهل قرطبه للقائم من بني اميه يشيعون ذكره ولا يظهر وكثر الارجاف بذلك ووقع الاضطهاد على بني اميه فتفرقوا في البلاد ودخلوا في اغمار الناس وتخفوا . ثم حدث الخلاف بين البربر والقرطبيين وتكاثر البلديون واخرجوا القاسم وبرابرته فضرب سرداقة في غربيها وقاتلهم خمسين يومًا قتالاً شديدًا وطال الحصار وبنى القرطبيون ابواب مدينتهم وقاتلوهُ من الاسوار واخيرًا خرجوا خرجة واحدة فمنحهم الله الظفر عليه . ومر السودان مع القاسم الى اشبيليه وفر البربر الى يحيى وكان بمالقة في ١٢ شعبان (سنة ٤١٤) . وكان ابن القاسم واليًا على اشبيليه وثقته المدبر لامره محمد بن زيري من اكابر البرابره وكان قاضيها محمد بن عباد وهو جد المعتمد بن عباد . فاطمع القاضي ابن زيري في التملك فاغلق ابن زيري الابواب في وجه القاسم وحاربهٔ وقتل من البرابرة والسودان خلق كثير وابن عباد يضحك على الجميع حتى يئس القاسم وقنع ان يخرجوا اليهِ ابنهُ واصحابهُ ويرحل عنهم . فاخرجوهم لهُ فسار بهم الى شريش وعند ما استقر بها وصل اليهِ يحيى ابن اخيهِ من مالقة ومعهُ جمع غفير وحاصرهُ في المدينة عشرين يومًا وصار بينهما قتال عنيد وقتل خلق عديد وانجلى الامر عن ظفر يحيى بعمهِ واسلم اهل شريش له وفر سودانهُ وقبض على القاسم وولده محمد واعتقلا وكم من مرة همّ يحيى على قتل القاسم ولم يفعل لانهُ كان ينهى عن ذلك اذ هو عمهُ حتى قيل انهُ راى مرارًا اباه في النوم ينهاه عن ذلك ويقول له انهُ اخوه اكبر منهُ وله فضل عليهِ . الا انهُ بلغهُ عن مفاتحتهِ اهل الحصن الذي كان فيهِ بالعصاوة فقتلهُ

وبقي اهل قرطبة بعد غزو القاسم نيفًا عن عشرين يومًا يرون رايهم في من يبايعونهُ بالامامة ثم احضروا نهار الثلاثاء نصف شهر رمضان (سنة ٤١٤) المستظهر وسليمان بن المرتضي وامويًا اخر معهُ فبايعا المستظهر وقبلا يده بعد ان كان المستظهر قبل البيعة باسم سليمان المذكور على ما اراده الاماثل ثم محى اسمهُ وكتب اسم المستظهر وركب الى القصر واخذ معهُ ابني عمه المذكورين فحبسهما وكان قد رفع جماعة من الاتباع ذهب بهم العجب مذهبه كابي عامر ابن شهيد المنهمك في بطالته وابي محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقالتهِ وابن عمه عبد الوهاب بن حزم المترف في حالته فاحقد بذلك مشائخ الوزراء والاكابر . وبادر المستظهر باصطناع البرابر واكرم مثواهم واحسن منزلتهم واشتغل مع ابن شهيد وابني حزم بالمباحثة في الاداب والشعر والناس في ذلك الوقت اجهل ما يكون واخرج من السجن احد المقضي عليهم بالحبس ابدًا شخصًا يقال له ابو عمران وغيره فسعى الخارجون من السجن بافساد دولته . وخلعهُ البربر وقتلوه في ذي القعدة من السنة نفسها بعد سبعة واربعين يومًا من خلافتهِ ومن شعر المستظهر المذكور وهو من القريض الممدوح

طال عمر الليل عندي مذ تولعت بصدي
ياغزالا نقض العهد ولم يوف بوعدي
انسيت العهد اذ بتنا على مفرش وردِ
واعتنقنا في وشاح وانتظمنا نظم عقدِ
ونجوم الليل نسري ذهبًا في لازوردِ

وقال بعض مورخي الاندلس انتهت مساجد قرطبة ايام عبد الرحمن الداخل الى اربعمائة وتسعين مسجدًا ثم زادت بعد ذلك كثيرًا وقال غيره كانت قرطبة قاعدة الاندلس وام المدائن وقرارة الملك وكان عدد شرافاتها اربعة الاف وثلثمائة وكانت عدة الدور في القصر الكبير اربعمائة دار ونيفًا وثنتين وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها الواجب على اهلها المبيت في السور مائة الف دار وثلثة عشر الفًا حاشا دور الوزراء واكابر الناس والبياض وكانت ديار اهل الدولة اذ ذاك ستة الاف وثلثمائة

وعدد ارباضها ثمانية وعشرون وقيل احد وعشرون ومبلغ المساجد بها ثلثة الاف وثمانمائة وثلثون وعدد الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام وقيل ثلثمائة وقال ابن حيان ان عدة المساجد عند تناهيها في مدة ابن ابي عامر الف وستمائة مسجد والحمامات تسعمائة ونقل في المغرب انه كان بقرطبة في الزمان السالف ثلثة الاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون منها بشقندة ثمانية عشر مسجدًا وتسعمائة حمام واحد عشر ومائة الف دار وثلثة عشر الفًا للرعية خاصة واكثرها لارباب الدولة

واما اليتيمة التي كانت في المجلس البديع فانها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية الى الناصر مع تحف كثيرة سنية وبوجد اقوال مختلفة في كل ذلك فمنهم من جعلها اصغر واقل دورًا ومساجد ونحوها ومنهم من اوصلها الى مائتي الف دار للرعية ونحو ستين الف دار للوزراء والخاصة ما عدا مصارى الكراء والحمامات والخانات ونحو ثمانين الف حانوت

ودامت قرطبة في تقدم ونجاح الى ايام الفتن على راس المائة الرابعة واوائل الخامسة ومما يشهد على حسنها وتعلق القلوب بها قصيدة ابي القاسم عامر بن هشام القرطبي المدعوة بكنز الادب وقد اشرنا اليها قبلاً قالها عندما رقت حالة وزين له بعض اصحابه الرحلة الى حضرة ملك الموحدين مراكش وهي من القصائد الجميلة المعتبرة

ياهبة باكرت من نحو دارين وافت اليّ على بعدٍ تحييني
سرت على صفحات النهر ناشرةً جناحها بين خيريٍّ ونسرين

ردت الى جسدي روح الحيوة وما ... خلتُ النسيم اذا ما متُّ يحييني
لولا تنسمها عن نشر ارضكم ... ما اصبحت من اليم الوجد تبريني
مرت على عقدات الرمل حاملة ... من سركم خبرًا بالوحي يشفيني
عرفت من عرفهِ ما كنت اجهله ... لما تبسم في تلك الميادين
نزوت من طربٍ لما هفا سحرًا ... وظل ينشرني طورًا ويطويني
خلت الشمال شمالاً اذ سكرت بها ... سكرًا بما لست ارجوهُ يمنيني
اهدت الى اريجًا من شمائلكم ... فقلت قربني من كان يقصيني
وخلت من طمعٍ ان اللقاء على ... اثر النسيم واضحى الشوق يحدوني
فظلت الثم من تعظيم حقكم ... مجرّ اذيالها والوجد يغويني
مسارح كم بها سرحت من كمدٍ ... قلبي وطرفي ولا سلوان يثنيني
بين المصلى الى وادي العقيق وما ... يزال مثل اسمه ان بان يبكيني
الى الرصافة فالمرج النضير فوا ... دي الدير فالعطف من بطحاء عبدون
اباب عبدٍ سقتهُ السحب وابلها ... فلم يزل بكؤوس الانس يسقيني
لا باعد الله عيني عن منازهه ... ولا يقرب لها ابواب جيرون
حاشا لها من مجلات مفارقةٍ ... من شيّق دونها بالقرب محزون
اين المسير ورزق الله ادركهُ ... من دون جهد وتاميلٍ يعنيني
يا من يزين لي الترحال عن بلدي ... كم ذا تحاول نسلاً عند عنين
وابن يعدل عن ارجاء قرطبةٍ ... من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
قطر فسيح ونهر ما به كدر ... حفت بشطيه الفاف البساتين
يا ليت لي عمر نوح في اقامتها ... وان مالي فيه كنز قارون
كلاها كنت افنيه على نشوا ... ت الراح نهبًا ووصل الحور والعين
وانما اسفي اني اهيم بها ... وان حظي منها حظ مغبونِ
ارى بعيني ما لا تستطيل يدي ... له وقد حازه من قدره دوني
وانكد الناس عيشًا من تكون له ... نفس الملوك وحالات المساكينِ
يغشي طرف التصابي حين يبهته ... قضبان نعمان في كثبان يبرين
قالوا الكفاف مقيم قلت ذاك لمن ... لا يستقف الى بيت الزراجين

ولا ببلبلة هب الصبا سحرًا ولا بلطنة عرف الرياحين
ولا بهيم بتفليح الخدود ورمـا ن الصدور وترجيع التلاحين
لاتجتنى راحة الا على تعب ولا تنال العلى الا من الهون
وصاحب العقل في الدنيا اخو كدر وانما الصفو فيها للمجانين
يا آمري ان احث العيس عن وطني لما راى الرزق فيه ليس يرضيني
نصحت لكن لي قلبًا ينازعني فلو ترحلت عنه حله دوني
لا لزمن وجني طورًا تطاوعني قود الاماني وطورًا فهو تعصيني
مذللاً بين عرفاني واضرب عن سير لارض بها من ليس يدريني
هذا يقول غريب ساقه طمع وذاك حين اريد البر يجفوني
اليك عني آمالي فبعدك يهديـــــني وقربك يطغيني ويغويني
يالحظ كل غزال لست املكه يدنو ومالي حال منه تدنيني
ويامدامة دبر لا الم به لولا كما كان ما اعطيت يكفيني
لاصبرن على ما كان من كدر لمن عطاياه بين الكاف والنون

الزهراء

قال الشيخ محيي الدين بن العربي في المسامرات قرات على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها ماوى الطير والوحش وبناوها عجيب في بلاد الاندلس وهي قريبة من قرطبة ابياتًا تذكر العاقل وتنبه الغافل وهي

ديار باكناف الملاعب تلمع وما ان بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت احيانًا وحينًا يرجع
فخاطبت منها طائرًا متفردًا له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقيل ان سبب بناء الناصر الزهراء انه ماتت له سرية وتركت مالاً كثيرًا فامر ان يفدى بذلك المال اسرى المسلمين وطلب في بلاد الافرنج اسيرًا فلم يوجد فشكر الله تعالى فقالت له جاريته المحبوبة منه واسمها الزهراء اشتهيت لو بنيت لي بهذا المال مدينة باسمي تكون خاصة بي فبناها تحت جبل العروس من قبلته وشمال قرطبة بنحو ثلاثة اميال منها واتقن بناها واحكم الصنعة فيها وجعلها متنزهًا ومسكنًا للزهراء وحاشية ارباب دولته ونقش صورتها على الباب . قالوا ولما قصرت الزهراء

في مجلسها نظرت الى بياض المدينة وحسنها في حجر ذلك الجبل الاسود فقالت ياسيدي الا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي فامر بزواله . فقال بعض جلسائه اعيذ امير المومنين ان يخطر له ما يشين العقل سماعه . لو اجتمع الخلق ما ازالوه حفرًا ولا قطعًا ولا يزيله الا من خلقه فامر الناصر بقطع شجره وغرسه تينًا ولوزًا ولم يكن منظرًا احسن منه ولا سيما في زمان الازهار وتفتح الاشجار . والزهراء بين الجبل والسهل

قال ابن خلكان في ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته . الزهراء بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء بعدها همزة ممدودة من عجائب ابنية الدنيا انشاها ابو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر احد ملوك بني امية بالاندلس بالقرب من قرطبة في اول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ومسافة ما بينهما اربعة اميال وثلثا ميل . وطول الزهراء من الشرق الى الغرب الفان وسبعمائة ذراع وعرضها من القبلة الى الجنوب الف وخمسمائة ذراع وعدد السواري التي فيها اربعة الاف وثلثمائة وعدد ابوابها يزيد على خمسة عشر الفًا . وكان الناصر يقسم جباية الاموال اثلاثًا فثلث للجند وثلث مدّخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء

قال « وهي من اهول ما بناه الانس واجله خطرًا واعظمه شأنًا . ذكر ذلك كله ابن بشكوال في تاريخ الاندلس »

ونقل بعضهم انه كان يثيب على كل رخامة كبيرة او صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤونة حملها وقد سبق مثل هذا في اخبار الناصر وجلب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزّع من رية . والوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة . والحوض المنقوش المذهب من الشام وقيل من القسطنطينية وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان وليس له قيمة . ولما جلبه احمد الفيلسوف وقيل غيره امر الناصر بنصبه وسط المجلس الشرقي المعروف بالمونس ونصب عليه اثني عشر تمثالاً وبنى في قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتلونة اجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي اهداها الى الناصر ليون ملك القسطنطينية وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزيبق وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملوّن والبلور الصافي وكانت الشمس تضرب بشعاعها تلك الابواب في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور ياخذ الابصار قالوا وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احدًا من اهل مجلسه اومأ الى احد صقالبته فيحرّك ذلك الزيبق فيظهر في المجلس كلمعان

الازرق من النور وياخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس ان المحل قد طار بهم ما دام الزيبق يتحرك . وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس وقال كان قائما على حنية هذا الصهريج وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناؤه في الجاهلية ولا في الاسلام وانما تهيأ له لكثرة الزيبق عندهم . وكان بناء الزهراء في غاية الاتقان والحسن وفيها قال الشاعر المحسن

وقفت بالزهراء مستعبرًا ... معتبرًا اندب اشتاتا

فقلت يا زهرا الا فارجعي ... قالت وهل يرجع من ماتا

فلم ازل ابكي وابكي بها ... هيهات يغني الدمع هيهاتا

كانما اثار من قد مضى ... نوادب يندبن امواتا

وقد كثرت الاقوال والاشعار في وصف الزهراء لا محل لذكرها هنا وقد قدمنا عنها شيئًا في اخبار الناصر قال ابن الرقيق ومن اعجب ما روى انه من نصف نهار يوم الثلثاء لاربع بقين من جمادى الاخيرة الى نصف نهار يوم الاربعاء فتحت قرطبة وهدمت الزهراء وخلع خليفة وهو المؤيد وولي خليفة وهو المهدي وزالت دولة بني عامر العظيمة وقتل وزيرهم محمد بن عسلاجة واقيمت جيوش من العامة ونكب خلق من الوزراء وولي الوزارة اخرون وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين وهم جند المهدي (انتهى)

واما الزاهرة فقال المقري قال ابن خلدون اثناء كلامه على المنصور ما صورته وابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ونقل اليها جزءًا من الاموال والاسلحة . قال ,,وقال غيره" واظنه صاحب المطمح وفي (سنة ٣٦٨) امر المنصور بن ابي عامر ببناء الزاهرة وذلك عندما تكامل واستفحل امره . واتقد جمره . وظهر استبداده . وكثر حساده واضداده وانداده . وخاف على نفسه في الدخول الى قصر السلطان . وخشي ان يقع في اشطان . فتوثق لنفسه . وكشف ما ستر عنه في امسه . من الاعتراز عليه . ورفع الاستناد اليه . وسما الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه . ويحله باهله وذويه . ويضم اليه رياسته . ويتم به تدبيره وسياسته . ويجمع فيه فتيانه وغلمانه . فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة . الموصوفة بالقصور الباهرة . واقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الاعظم . ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم . وشرع في بنائها في هذه السنة المورخة . وحشد الصناع والفعلة . وجلب اليها الآلات الجليلة . وسربلها بهاء يرد الاعين كليلة . وتوسع في اختطاطها . وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها . وبالغ في رفع اسوارها . وثابر على تسوية انجادها واغوارها . وتمم [illegible] الحفير . وانتقل اليها بخاصته . واتخذ فيها الدواوين والاعمال . وعمل في داخلها الاهراء . واطلق بساحتها الارحاء . ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه . وقواده وحجابه . فاقتنوا بها اكبار الدور

وجليلات القصور · واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة · والمنازه المشيدة · وقامت بها الاسواق · وكثرت فيها الارفاق · وتنافس الناس بالنزول باكنافها · والحلول باطرافها · للدنو من صاحب الدولة · وتناهي الغلو في البناء حوله · حتى اتصلت ارباضها بارباض قرطبة وكثرت بجوزها العمارة · واستقرت في بحبوحتها الامارة · وافرد الخليفة من كل الا شيء من الاسم الخلافي · وصير ذلك هو الرسم العافي · ورتب فيها جلوس وزرائه · ورؤوس امرائه · وندب اليها كل ذي خطة بخطته · ونصب ببابها كرسي شرطته · واجلس عليها واليًا على رسم كرسي الخليفة · وفي صفة تلك المرتبة المنيفة · وكتب الى الاقطار بالاندلس والعدوة بان تحمل الى مدينته تلك اموال الجبايات · وتقصدها اصحاب الولايات · وينتابها اصحاب الحوائج · وحذر ان يعوج عنها الى دار الخليفة عائج · فاقتضيت اليها اللبانات والاوطار · واحتشد الناس اليها من جميع الاقطار · وتم لمحمد بن ابي عامر ما اراد · وانتظم بلبنة امانيه المراد · · وعطل قصر الخليفة من جميعه · وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه · وسد باب قصره عليه · وجد في خبر لا يصل اليه · وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر · ويبسط فيه النهي والامر · ويشرف منه على كل داخل · ويمنع ما يحذره من الدواخل · ورتب عليه الحراس والبوابين · والسمار والمتناوبين · يلازمون حراسة من فيه ليلاً ونهارًا · ويراقبون حركاتهم سرًّا وجهارًا · وقد حجر على الخليفة كل تدبير · ومنعه من تملك قبيل او دبير · واقام الخليفة هشام مهجور الفناء · محجوز الغناء · خفي الذكر · عليل الفكر · مسدود الباب · محجوب الذات عن الاحباب · لا يراه خاص ولا عام · ولا يخاف منه باس ولا يرجى منه انعام · ولا يعهد فيه الا الاسم السلطاني في السكة والدعوة وقد نسخه ولبس ابهته · وطمس بهجته · واغنى الناس عنه · وازال اطماعهم منه · وصيرهم لا يعرفونه · وامرهم لا يذكرونه · واشتد ملك محمد بن ابي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الايام في تشييد بنيتها حتى كملت احسن كمال · وجاءت في نهاية الجمال · تفاوت بناء · وسعة فناء · واعتدال هواء رق اديمه · وصفا له جو اعتل نسيمه · ونضرة بستان · وبهجة للنفوس فيها افتتان · وفيها يقول صاعد اللغوي

يا ايها الملك المنصور من يمن	والمبتني نسبًا غير الذي انتسبا
بغزوة في قلوب الشرك رائعة	بين المنايا تناغي السمر والقضبا
اما ترى العين تجري فوق مرمرها	هوى فيجري على اخفافها الطربا
اجريتها فطما الزاهي بجريتها	كما طموت فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة	مستلئمات تريك الدرع واليلبا
تحفها من فنون الايك زاهرة	قد اورقت فضة اذ اورقت ذهبا

بديعة الملك ما ينفك ناظرها ... يتلو على السمع منها اية عجبا

لايحسن الدهران ينشي لها مثلاً ... ولو تعنت فيها نفسه طلبا

ودخل عليه ابن ابي الحباب في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية والروض قد تفتحت انواره وتوشحت انجاده واغواره وتصرف فيها الدهر متواضعاً ووقف بها السعد خاضعاً

لا يوم كاليوم في ايامك الاول ... بالعامرية ذات الماء والظلل

هواؤها في جميع الدهر معتدل ... طيباً وان حل فصل غير معتدل

ما ان يبالي الذي يحتل ساحتها ... بالسعد ان لاتحل الشمس بالحمل

وما زالت هذه المنية رائقة . والسعود بلبتها متناسقة الى ان حان يوم العصيب وقبض لها من المكروه اوفر نصيب انتهى باختصار قليل

وقد حكى الحميدي في جزوة المقتبس هذه الحكاية الواقعة لابن ابي الحباب بزيادة فقال ان ابا المطرّف بن ابي الحباب الشاعر دخل الى المنصور في هذه المدينة فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد فتحتا وواحدة لم تفتح فقال (بعد ما تقدم منها)

كانما غرست في ساعة وبدا ال ... سوسان من حينه فيها على عجل

ابدت ثلاثاً من السوسان مائلة ... اعناقهن من الاعياء والكسل

فبعض نوارها للبعض منفتح ... والبعض منغلق عنهن في شغل

كانها راحة ضمت اناملها ... من بعد ما ملئت من جودك الخضل

واختها بسطت منها اناملها ... ترجو نداك كما عودتها فصل

وذكر بعض مورخي الاندلس انه كان يزرع للمنصور كل سنة الف مدى من الشعير قصيلاً لدوابه الخاصة وكان له دخالة كل يوم اثنى عشر الف رطل من اللحم حاشا الصيد والطير والحيتان وكان يصنع في كل عام اثنى عشر الف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء وانه ابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة العامرية ذات القصور والمنتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من منشآته البديعة

وذكر ابن سعيد ان ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن ابي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي فانشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من ابيات

فالعامرية تزهى ... على جميع المباني

وانت فيها كسيف ... قد حل في غمدان

فقام صاعد وكان مناقضاً لابن العريف فقال اسعد الله تعالى الحاجب الاجل ومكن سلطانه

هذا الشعر الذي قد اعده وتروى فيه اقدر ان اقول احسن منه ارتجالاً فقال له المنصور قل ليظهر صدق دعواك فجعل يقول من غير فكرة كثيرة

يا ايها الحاجب المعـ　　تلي على كيوان
ومن به قد تناهى　　فخار كل يماني
العامرية اضحت　　كجنة الرضوان
فريدة لفريد　　ما بين اهل الزمان

ثم مر في الشعر الى ان قال في وصفها

انظر الى النهر فيها　　ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرًا　　على ذرى الاغصان
والقضب تلتف سكرًا　　بميس القضبان
والروض يفتر زهوًا　　عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو　　بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتار　　نفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها　　في غبطة وامان

فاستحسن المنصور ارتجاله وقال لابن العريف مالك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله فكيف تكون وبينه فقال ابن العريف انما انطقه وقرب عليه الماخذ احسانك فقال له صاعد فيخرج من هذا ان قلة احسانه اليك اسكتتك و بعدت عليك الماخذ فضحك المنصور وقال غير هذه المنازعة اليق بكما

اما مسجد قرطبه فشهير قال بعض المورخين ليس في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء واتقن صنعة وكلما اجتمعت منه اربع سوار كان راسها واحدًا . ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في اعلاه واسفله

والذي بدا بعماره كان عبد الرحمن الداخل واتمه ابنه هشام ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى ان كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء . وذكروا ان عبد الرحمن انفق على الجامع المذكور ثمانين الف دينار واشترى موضعه اذ كان كنيسة بمائة الف دينار . ولم يزل الجامع المذكور محل افتخار المنافسة الى عهد المنصور . قال ابن الفرضي ما صورته . وكان من اخبار المنصور الداخلة في ابواب البر والقرب بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه (سنة ٣٧٧) وذلك انه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب اليها قبائل البربر من العدوة وافريقية وتناهى حالها في الجلالة ضاقت الارباض وغيرها وضاق المسجد الجامع عن

حل الناس فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة · فبدأ ابن ابي عامر في هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولاً من اول المسجد الى اخره · وقصد ابن ابي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم وأول ما عمله ابن ابي عامر تطييب نفوس ارباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بانصافهم من الثمن · وصنع في صحنه الجب العظيم قدرهُ الواسع فناؤهُ · وهو اعني ابن ابي عامر هو الذي رتب احراق الشمع بالجامع زيادة للزيت فتطابق بذلك النوران · وكان عدد سواري الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره بين كبيرة وصغيرة الف سارية واربعمائة وسبع عشرة وقيل اكثر · وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا · وعدد الكئوس سبعة الاف كاس واربعمائة وخمسة وعشرون · وقيل عشرة الاف وثمانمائة وخمسة

وقال ابن سعيد نقلاً عن ابن بشكوال طول جامع قرطبة الاعظم الذي هو بداخل مدينتها من القبلة الى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعًا الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعًا وغير ذلك مقرمد وعرضهُ من الغرب الى الشرق مائتان وخمسون ذراعًا · وعدد ابهائه عند اكتمالها بالشمالية التي زادها المنصور بن ابي عامر بعد هذا تسعة عشر بهوًا وتسمى البلاطات وعدد ابوابه الكبار والصغار احد وعشرون بابًا في الجانب الغربي تسعة ابواب منها واحد كبير للنساء يشرع الى مقاصيرهن · وفي الجهة الشرقية تسعة ابواب منها لدخول الرجال ثمانية · وفي الجهة الشمالية ثلاثة ابواب منها لدخول الرجال بابان كبيران وباب لدخول النساء الى مقاصيرهن · وليس لهذا الجامع في القبلي سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة في قبلته متصل بالساباط المفضي الى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر الى الجامع لشهود الجمعة · وجميع هذه الابواب ملبسة بالنحاس الاصفر باغرب صنعة وعدد سواري هذا المسجد الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من اعماله بين كبار وصغار الف واربعمائة سارية وتسع سوار منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة · قال وذكر المقصورة البديعة التي صنعها الحكم المستنصر في هذا الجامع فقال انه خطر بها على خمس بلاطات من الزيادة الحكمية واطلق حنا فيها على الستة الباقية ثلاثة من كل جهة فصار طولها من الشرق الى الغرب خمسًا وسبعين ذراعًا وعرضها من جدار الخشب الى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعًا وارتفاعها في الهواء الى حد شرافاتها ثماني اذرع وارتفاع كل شرافة ثلاثة اشبار ولهذه المقصورة ثلاثة ابواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة الى الجامع شرقيًا وغربيًا وشماليًا ثم قال وذرع المحراب في الطول من القبلة الى الجوف ثماني اذرع

ونصف وعرضه من الفرق الى القرب سبع اذرع ونصف وارتفاع قبوه في السماء ثلاث عشرة ذراعاً ونصف . والمنبر الى جنبه مولف من اكارم الخشب ما بين ابنوس وصندل ونبع وبقم وشوحط وما اشبه ذلك ومبلغ النفقة فيه ٣٥٧٠٥ دنانير وثلاثة دراهم وقيل غير ذلك . وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله قال وذكر ان عدد ثريات الجامع التي تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة سوى ما منها على الابواب مائتان واربع وعشرون ثريا جميعها من لاطون مختلفة الصنعة منها اربع ثريات كبار معلقة في البلاط الاوسط اكبرها الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة وفيها من السرج كما زعموا الف واربعمائة واربعة وخمسون تستوقد هذه الثريات الضخام في العشر الاخير من شهر رمضان تسقى كل ثريا منها سبعة ارباع في الليلة . وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح في هذا المسجد في السنة تمام وقوده في مدة ابن ابي عامر مكملة بالزيادة المنسوبة الف ربع منها في شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربعاً قال وفي بعض التواريخ القديمة كان عدد القومة بالمسجد الجامع بقرطبة في زمن الخلفاء وفي زمن ابن ابي عامر ثلثمائة انتهى وقال بعض المورخين عند ذكر قرطبة ما معناه « هي قاعدة بلاد الاندلس ودار الخلافة الاسلامية وهي مدينة عظيمة واهلها اعيان البلاد وسراة الناس في حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم وبها اعلام العلماء وسادات الفضلاء واجلاد الغزاة وانجاد الحروب وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً وبين المدينة والمدينة سور حصين عظيم حاجز وكل مدينة مستقلة بنفسها وفيها ما يكفي اهلها من الحمامات والاسواق والصناعات . وطول قرطبة ثلاثة اميال في عرض ميل واحد وهي في سفح جبل مطل عليها . وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرة والجامع الذي ليس في معمور الارض مثله وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين وفيه من السواري الكبار الف سارية وفيه مائة وثلث عشرة ثريا للوقود اكبرها تحمل الف مصباح . وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر احد على وصفه . وبقبلته صناعات تدهش العقول وعلى فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون في حسن وضعها . وفي عضادتي المحراب اربعة اعمدة اثنان اخضران واثنان لازورديان ليس لها قيمة لنفاستها وبه منبر ليس على معمور الارض انفس منه ولا مثله في حسن صنعته . وخشبه ساج وابنوس وبقم وعود قاقلي . ويذكر في تاريخ بني امية انه احكم عمله ونقشه في سبع سنين وكان يعمل فيه ثمانية صناع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي . فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة الاف وخمسون مثقالاً . وفي الجامع حاصل كبير ملآن من انية الذهب والفضة لاجل وقوده وبهذا الجامع مصحف يقال له عثماني . وللجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الاندلسي مخرمة تخريماً عجيباً بديعاً يعجز البشر ويبهرهم . وفي

كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة . وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكي المعروف بالرشاشي . وفيها من انواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته وبهذا الجامع ثلثة اعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد وعلى الاخر صورة عصا موسى واهل الكهف وعلى الثالث صورة غراب نوح قال والجميع خلقة ربانية . قال واما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة عجيبة المرأى فاقت قناطر الدنيا حسنًا وعدة قسيها سبع عشرة قوسًا سعة كل قوس منها خمسون شبرًا وبين كل قوسين خمسون شبرًا وبالجملة فمحاسن قرطبة افضل المحاسن واعظم من ان نحيط بها وصفًا (انتهى ملخصًا)

وفي كلام هذا الناقل بعض اختلافات عما سبق في عدد السواري وقياس الطول والعرض ونحوه ولعل الذراع المذكورة منه تختلف القياس او لعله قرأ عن الزيادة التي زادها الحكم وابن ابي عامر في الجامع المذكور فظنها مجموع قياسه . قال صاحب مجموع كتاب المفترق „كان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة الى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسًا وعشرين ذراعًا والعرض من الشرق الى الغرب مئة وخمسين ذراعًا ثم زاد الحكم في طوله مئة وخمس اذرع فكمل الطول ثلث مئة وثلاثين ذراعًا وزاد محمد بن ابي عامر بامر هشام ابن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعًا فتم العرض مئتي ذراع وثلثين ذراعًا فتامل . قالوا وقد انفق الحكم في زيادة الجامع مائة الف وواحدًا وستين الف دينار ونيفًا وكله من مال الاخماس هذا ما عدا ما انفق عليه بقية الخلفاء وساعد على بنيانه اسرى النصارى فلا تقصر كلفته عن نحو مليون واربع مئة الف دينار (اي مثقال) من الذهب

هذا اخر ما اردنا ذكرهُ في هذا الشان ومن اراد ان يعرف تمامًا محاسن الاندلس وعاصمتها قرطبة فعليهِ بالمطولات

فصل

في انقراض الخلافة الاموية من الاندلس وتشعب المملكة الى الطوائف واخبار الدولة العلوية فيها

سبق رجوع المويد هشام الى الخلافة وقتله المهدي وجعله واضح العامري مدبرًا لاموره

ثم قبض المويد على واضح المذكور وقتله فشبت نيران الفتن واتفق البربر مع سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وساروا لحصار المويد بقرطبة وملكها منه سليمان عنوة واخرجه من قصر الخلافة ولم يعلم له بعد ذلك خبر . وبويع سليمان بالخلافة في شوال (سنة ١٠١١ — ٤٠٣) وتلقب بالمستعين بالله

ثم خرج على المستعين المذكور (سنة ٤٠٧) شخص من القواد اسمهُ خيران العامري كان من اصحاب المويد وترك قرطبة لما ملكها المستعين في جماعة كبيرة من العامريين وكان وقتئذٍ علي بن حمود العلوي يملك سبتة وبينهُ وبين الاندلس عدوة المجاز وكان اخوهُ القاسم بن حمود امير الجزيرة الخضراء من الاندلس فلما راى علي العلوي خروج خيران على المستعين تجاوزا البحر الى مالقه وقدم عليهِ خيران وغيره من الثغور ضد سليمان الاموي الى المنكب ما بين المرية ومالقه وكان امر هشام المويد قد خفي عليهم مذ استولى سليمان على قرطبة كما تقدم وبايعوا علي بن حمود المذكور على طاعة المويد ان ظهر خبره (سنة ١٠١٥–٤٠٦) ثم ساروا الى سليمان بقرطبة وصار بينهم حروب عظيمة اخذ فيها سليمان اسيرًا واحضروهُ واخوهُ وابوهما الحكم وكان الحكم متخليًا عن الملك للعبادة وملك ابن حمود قرطبة ودخلها (سنة ١٠١٦–٤٠٧) وقصد ومعهُ القواد القصر طمعًا في ان يجدوا المويد فيهِ حيًا فلم يقفوا لهُ على خبر فانتقم ابن حمود على سليمان واخيهِ والحكم ابيهما وقتلهم

ولما قدم الحكم للقتل سالهُ علي ابن حمود يا شيخ هل قتلتم المويد فقال والله ما قتلناه وهو حي يرزق فاسرع حينئذٍ علي في قتلهِ واشاع موت المويد ودعا الناس الى نفسهِ فبايعوهُ وتلقب (بالمتوكل على الله) وقيل الناصر لدين الله قال ابو الفدا في نسبهِ هو علي بن حمود بن ابي العيش ميمون بن احمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب» وقد ذكرنا اخبارهم في الفرع الافريقي

اما خيران فلما لم يجدوا هشامًا في قصر الخلافة كما كان يومل خرج عن طاعتهِ وترك قرطبة يجد لهُ واحدًا من بني امية يبايعهُ الى ان حظي بعبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الاموي وكان مستخفيًا بمدينة جيان فاخذهُ وبايعهُ ولقب (بالمرتضي) واجتمع الى عبد الرحمن المذكور اهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة مخالفين على علي بن حمود فبلغ ذلك عليًا فجمع جموعهُ بقصد الانطلاق اليهم وظهرت العساكر الى خارج قرطبة ودخل علي الحمام ليغتسل ويذهب على راسهم فوثب عليهِ غلمانهُ وقتلوهُ وذلك (سنة ١٠١٧ – ٤٠٨) وكان عمرهُ ثمانيًا واربعين سنة وولايتهُ سنة وتسعة اشهر. اما المرتضي فلم ينتظم امرهُ مع كل ذلك. واذ علم العسكر امر قتل ابن حمود دخلوا البلد وبويع مكانهُ اخوهُ القاسم بن حمود وكان اكبر من علي بعشرين عامًا ولقبوهُ (بالمامون) فبقي مالكًا قرطبه وغيرها الى (سنة ١٠٢١–٤١٢)

ثم خرج على القاسم وقد كان سار الى اشبيلية يحيى ابن اخيهِ ودعا الناس الى نفسه فاجابوهُ وخلع عمه بالسنة نفسها وتلقب (بالمعتلي) واقام بقرطبة حتى قفل عمه فنهض الى مالقة والجزيرة الخضراء واستولى عليهما (سنة ١٠٢٢–٤١٣)

ودخل عمه القاسم قرطبة وجرى بين اهلها وبينه قتال شديد بقي نيفًا وخمسين يومًا واخيرًا انتصر الاهلون واخرجوه فتفرق عسكره وانهزم الى شريش فتبعه يحيى ابن اخيه وامسكه والقاه بالسجن حتى مات بعد موت يحيى المذكور . ولما جرى امساك القاسم خرج اهل اشبيلية عن طاعته وطاعة ابن اخيه يحيى وولوا عليهم قاضيهم ابا القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد اللخمي وانفرد بامر اشبيلية . وكانت ولاية القاسم الى ان حبس نحو ثلث سنين وتوفي محبوسًا (سنة ١٠٢٩–٤٣١) شيخًا مسنًا

ثم وقع اختيار اهل قرطبة على رجل اموي اسمهُ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر فولوهُ عليهم ولقب بالمستظهر بالله . وهو اخو المهدي محمد بن هشام المار الذكر . لكنهم بايعوهُ في رمضان وقتلوهُ في ذي القعدة (سنة ١٠٢٣–٤١٤) . ثم بايعوا بالخلافة لمحمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ولقب بالمستكفي فقام سنة واربعة اشهر وخلع فغر وسم في الطريق ومات

ثم اجتمع اهل قرطبة على طاعة يحيى بن علي بن حمود المقدم ذكره وكان بمالقة يخطب له بالخلافة ثم خرجوا عن طاعته (سنة ١٠٢٧–٤١٨) وكان بعد ذلك قتال بين يحيى المذكور والقاضي ابي القاسم بن عباد حاكم اشبيلية وحاصر يحيى اشبيلية مقيما في قرمونة وقتل يحيى بمعركة كانت مع خيالة ابن عباد الذين خرجوا من المدينة يفرجون عنها وكان ذلك (سنة ١٠٣٥ — ٤٢٧)

اما اهل قرطبة فبعد خروجهم عن طاعة يحيى بايعوا لهشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الاموي ولقبوه (المعتد بالله) (سنة ٤١٨) وفي ايام هشام هذا جرت فتن وخلافات من اهل الاندلس يطول شرحها الى ان خلع هشام (سنة ١٠٣٠–٤٢٢) وسار هشام مخلوعًا الى سليمان بن هود الجذامي قام عنده الى ان مات (سنة ١٠٣٦–٤٢٨)

ثم اقام اهل قرطبة من ولد عبد الرحمن الناصر بعد موت هشام رجلاً اسمهُ امية وحذروه قبل مبايعته بقولهم نخشى عليك ان تقتل فان السعادة قد وليت عنكم يا بني امية فاجاب بايعوني اليوم واقتلوني غدًا ففعلوا ولم ينتظم له امر واختفى ولم يعرف له خبر بعد ذلك

ثم اقتسم مملكة الاندلس اصحاب الاطراف والرؤساء وصاروا مثل ملوك طوائف فاستولى على قرطبة ابو الحسن بن جهور وكان من وزراء الدولة العامرية وبقي حتى مات (سنة ١٠٤٣–٤٣٥) وخلفهُ ولدهُ ابو الوليد محمد بن جهور واستبد (باشبيلية) قاضيها ابو القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد اللخمي وهو من ولد النعمن بن المنذر . وفي تلك الاثناء شاع خبر ان هشام بن الحكم المعروف بالمويد كان حيًا وسار الى قلعة رباح واطاعه اهلها فاستدعاه ابن عباد الى اشبيلية

فسار اليه وقام بنصره وكتب بظهوره الى ممالك الاندلس فاجاب اكثرهم وخطبوا له وجددت بيعته في المحرم (سنة ١٠٣٧–٤٢٩) وبقي المويد حتى ولي المعتضد بن عباد فاظهر موت المويد . والمعتمد عليه ان ظهور المويد كان كذبًا وتمويهًا من ابن عباد وحيلةً يتوصل بها الى الخلافة

واستولى على (بطليوس) سابور الفتى العامري وتلقب بالمنصور ثم انتقل الامر من بعده الى ابي بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الافطس وتلقب محمد المذكور بالمظفر . واصل ابن الافطس من بربر مكناسة ولد ابوه بالاندلس . وبعد توفي محمد المذكور ذهب الامر لولده عمر ولقب بالمتوكل فاتسع ملكه الى ان قتل صبرًا مع ولديه عند تغلب يوسف بن تاشفين امير المسلمين واسم ولدي عمر المذكور الفضل والعباس

وتولى على (طليطلة) ابن يعيش ثم اسمعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن ذي النون ولقب بالظافر بحول الله . واصله من البربر وخلفه ولده يحيي الى ان اخذها الفرنج منه (سنة ١٠٨٥–٤٧٧) وبقي هو ببلنسية الى ان قتله القاضي ابن جحاف الاحنف

وتولى على (سرقسطة) والثغر الاعلى منذر بن يحيي ثم ولده يحيي . ثم سليمان بن احمد بن محمد بن هود الجذامي ولقب بالمستعين بالله . ثم ولد هذا احمد . ثم ابنه عبد الملك بن احمد . ثم ولده احمد بن عبد الملك ولقب بالمستنصر بالله . وفيه انتهت دولتهم اواخر المائة الخامسة وصارت في يد الملثمين

ودخلت ولاية (طرطوشه) في يد لبيب بن الفتى العامري

و(بلنسية) للمنصور ابي الحسن عبد العزيز المعافري . وبعده اضاف اليه المرية . ثم ملك بعده ابنه محمد الى ان غدر به صهره المامون بن ذي النون واخذ منه الملك (سنة ١٠٦٤–٤٥٧

وملك (السهلة) عبود بن رزين واصله بربري

وكانت دانية والجزائر بيد الموفق بن ابي الحسين مجاهد العامري

و(مرسية) وليها بنو طاهر وبقيت لابي عبد الرحمن منهم الى ان نزعها منه المعتمد بن عباد . ثم عصي بها نائبه ثم صارت للملثمين

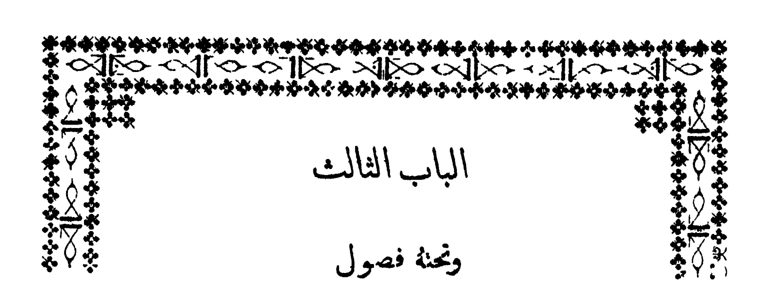
وملك (المرية) خيران العامري . ثم زهير العامري واتسع ملكه الى شاطبه . ثم قتل وصار ملكه الى المنصور بن عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور بن ابي عامر . ثم وثم الى ان صارت للملثمين

واستولى على مالقة بنو علي بن حمود العلوي وبقيت بيدهم يخطب لهم بها بالخلافة الى ان اخذها باديس بن حبوس صاحب غرناطة

اما (غرناطه) فكانت لحبوس بن ماكسن الصنهاجي وهذه دامت الى (سنة ١٤٩٢–٨٩٨).

فهذه في ممالك الطوائف المتفرقة اليها مملكة الاندلس بعد الدولة الاموية. وهذا التفرق كان مقدمة الانحلال الذي جرى بعده ورجوع كل شي الى يد صاحبه الاول. ولم يبق من آثار ذلك الفتح وتلك السلطة الاسلامية الزاهية سوى الاعلام الخرس من ابنية متهدمة واعمال داثرة واسماء مفرنجة اللفظ ونحو ذلك مما يشهد بوجود تلك الامة هنالك يومئذٍ . هذه هي سنة الخالق في خلقه وما الحوادث والامم والممالك الا العوبات دهراوكما قلت شعرًا

خطوط على بحر الزمان تراكمت نقلبها امواجه وهو خالدُ
فلا عائد مثل الذي هو فاقد ولا فاقد غير الذي هو عائدُ



الباب الثالث

وتحته فصول

فصل

في الربع الاول من القرن الخامس

الدولة المرداسية

سبق ذكر ابي المعالي شريف الملقب بسعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان والي حلب وموته بالفالج (سنة ٣٨١) . ثم قيام ابي الفضائل ابنه مقامهُ ودبر امرهُ لؤلؤ احد موالي ابيه سعد الدوله وبعد استولى ابو نصر بن لؤلو واخذ حلب من يد ابي الفضائل وخطب بها للحاكم العلوي ولقب ابو نصر المذكور مرتضي الدولة واستقر في ملك حلب وكان بينهُ وبين صالح بن مرداس المار ذكره وبني كلاب وحشة وقصص يطول شرحها وحروب تخالف فيها النصر . وكان لابن لولو غلام اسمهُ فتح وكان دزدار قلعة حلب. وجرت بين فتح وسيده ابن لولو وحشة في الباطن حتى ظهرت بعداوة فتح المذكور بالقلعة واستولى عليها وكاتب الحاكم العلوي بمصر . وانتهت بان سلم فتح حلب الى نواب الحاكم واخذ عوضها صيدا وبيروت وذهب ابن لولو الى انطاكية وهي للروم فاقام هناك وتنقلت حلب بايدي نواب الحاكم عزيز مصر حتى صارت بيد انسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك الى ان قتل الحاكم وولي الظاهر لاعزاز دين الله العلوي . فاقام على حلب انسانًا يعرف بابن ثعبان واستولى امر القلعة رجل يعرف بموصوف . ثم قصدها صالح بن مرداس الكلابي المذكور فسلم اليهِ اهل حلب المدينة لسوء تصرف المصريين فيهم. وانسحب ابن ثعبان الى القلعة فحاصره صالح واخذها (سنة ٤٧٤) ولبث صالح مالكًا حلب وملك معها من بعلبك الى غانة

ففي (سنه ٤٢٠) جهز الظاهر العلوي عسكرًا على صالح وعلى حسان امير بني طي لانهُ كان قد استولى على الرملة وما اليها تحت امرة انوشتكين فاتفق صالح وحسان على قتال انوشتكين . واجتمعا على الاردن عند طبرية واقتتلا مع المصريين وقتل صالح وولدهُ الاصغر وارسل براسهما الى مصر . ونجا ولده ابو كامل نصر وسار الى حلب وملكها .وكان يلقب بشبل الدولة . وبقي شبل الدولة المذكور

مالكًا في حلب الى (سنة ٤٢٩) . ففيها جهز المستنصر بالله العلوي عسكرًا وجعل امرهم لانوشتكين المذكور وكان يلقب بالدزبري لقتال شبل الدولة . فقتل شبل في تلك الحروب وملك الدزبري حلب في رمضان (سنة ٤٢٩) وملك الشام كله وعظم امره وكثر ماله . ثم توفي بحلب (سنة ٤٣٣)

وكان لصالح بن مرداس الكلابي ابن بالرحبة يسمى ابا علوان ثمال ولقبهُ معز الدولة فهذا لما بلغهُ وفاة الدزبري قام الى حلب واستولى عليها وعلى القلعة (سنة ٤٣٤) وبقي مالكًا لها الى (سنة ٤٤٠) فارسل عليهِ المصريون جيشًا فهزمهم ثمال ثم ارسلوا جيشًا اخر فهزمهم ايضًا ثم تصالحوا ونزل لهم ثمال عن حلب فارسل المصريون رجلاً يقال لهُ الحسن بن علي بن ملهم ولقبوهُ مكين الدولة فتسلم حلب (٤٤٩) . وسار ثمال الى مصر وسار اخوهُ عطية بن صالح بن مرداس الى الرحبة وكان لنصر الملقب بشبل الدولة الذي قتل في حرب الدزبري ولد يسمى محمودًا فكاتبهُ اهل حلب وخرجوا عن طاعة ابن ملهم فذهب اليهم محمود وحصر ابن ملهم (سنة ٤٥٢) فجهز المصريون جيشًا للكشف عنهُ ولما قاربوا حلب رحل محمود عنها هاربًا فقبض ابن ملهم على جماعة من اهل حلب واخذ اموالهم وتبع عسكر المصريين محمودًا واقتتلوا معهُ فانتصر محمود عليهم وهزمهم وعاد الى حلب وحصرها وملك المدينة والقلعة في شعبان من تلك السنة واطلق ابن ملهم ومقدم الجيش وهو ناصر الدولة من ولد ناصر الدولة بن حمدان فانطلقا الى مصر واستقر محمود بن شبل الدولة مالكًا حلب. وبوصول ابن ملهم وناصر الدولة الى مصر وكان ثمال بن صالح بن مرداس هنالك جهز المصريون ثمال بن صالح بجيش لقتال ابن اخيهِ محمود المذكور فسار ثمال الى حلب وهزم محمودًا وتسلم حلب في ربيع الاول (سنة ٤٥٣) . ثم توفي ثمال بها (سنة ٤٥٤) في ذي القعدة مرصيًا لاخيهِ عطية الذي كان قد ذهب الى الرحبة فقدم عطية من الرحبة وتسلم حلب وكان ابن شبل الدولة لما هرب من عمهِ ثمال قد سار الى حران فلما مات ثمال واستولى عطية على حلب جمع محمود المذكور عسكرًا وسار الى حلب وحارب عطية وهزمهُ فقام عطية الى الرقه فملكها ثم اخذت منهُ فسار الى الروم واقام بقسطنطينية حتى مات . وملك محمود بن نصر بن صالح بن مرداس حلب اواخر (سنة ١٠٦٢—٤٥٤) ثم استولى على ارتاح من الروم (سنة ١٠٦٧—٤٦٠) ومات محمود المذكور في ذي الحجة (سنة ١٠٧٥—٤٦٨) في حلب وخلفهُ ابنهُ نصر الى ان قتلهُ التركمان (سنة ١٠٧٦—٤٦٩) وملك حلب بعدهُ اخوهُ سابق . واستمر سابق بن محمود مالكًا حلب الى (سنة ١٠٧٩—٤٧٢) عندما اخذ حلب منهُ شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل كما سياتي . ولنرجع الى سياق التاريخ

وكانت في تلك الايام مغائرات بين الفاطمية حكام مصر وبين العباسيين . ففي (سنة ٤٠١)

خطب قرواش بن المقلد امير بني عقيل للحاكم الفاطمي سلطان مصر باعماله وفي الموصل والانبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل « الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب . وانهدت بعظمته اركان النصب . واطلع بقدرته شمس الحق من الغرب » فارسل بها الدولة عميد الجيش الى قرواش يحاربه فاعتذر قرواش وابطل الخطبة

وفيها سار ايلك خان ملك الترك من سمرقند بجيوشه لقتال اخيه طغان خان فوصل الى اوزكند ثم عاد الى سمرقند من وقوع الثلوج

وفيها توفي عميد الجيوش ابو علي بن استاذ هرمز وكان اميرًا من جهة بهاء الدولة على العسكر وعلى الامور ببغداد مدة ثمانْ سنين واربعة اشهر واياماً وعمره تسع واربعون سنة . واقام بهاء الدولة عوضه على بغداد فخر الملك ابا غالب

وكُتب (سنة ٤٠٢) محضر ببغداد بامر القادر يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر ووقّع عليه علويون وقضاة وفضلاء وابو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة ونسخة المحضر المذكور « هذا ما شهد به الشهود ان معد بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن سعيد منتسب الى ديصان بن سعيد الذي ينسب اليه الديصانية وان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم - حكم الله عليه بالبوار والدمار - ابن معد بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن سعيد - لا اسعده الله - وان من تقدم من اسلافه الارجاس - الانجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين - ادعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن ابي طالب رضي الله عنه وان ما ادعوهُ من الانتساب اليه زور وباطل وان هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار وفساق زنادقة ملحدون معطلون وللاسلام جاحدون اباحوا الفروج واحلوا الخمور وسبوا الانبياء وادعوا الربوبية ونحو ذلك - كتب في شهر ربيع الاخر سنة ٤٠٢

وفيها اشتد اذى عرب خفاجة للحجاج . وتوفي في التي بعدها قابوس بن وشمكير بن زيار قتله اصحابه لقسوة معاملته لهم واقيم ولده منوجهر عوضه ولقب ملك المعالي وكان قابوس عالمًا بالنجوم وغيرها . ومثله توفي ملك الترك ايلك خان وملك بعدهُ اخوهُ طغان خان وكان ايلك خان رجلاً متعبدًا

وفيها اي (سنة ٤٠٣) توفي بهاء الدولة ابو نصر خاشاذ من بويه بتتابع الصرع كما جرى لابيه عضد الدولة وذلك في ارجان استولى على العراق وعمرهُ اثنتان واربعون سنة وتسعة اشهر واستمر في ملكه اربعًا وعشرين سنة

وبعدهُ ولي ولده سلطان الدولة ابو شجاع

وعاد (سنة ٤٠٤) يمين الدولة محمود فغزا الهند وتوغل فيها وفتح وغنم وعاد الى غزنة وفيها

عاث خفاجة واستباحوا سواد الكوفة فلقيهم العسكر وفتك بهم

وكانت (سنة ٤٠٥) حرب بين ابي الحسن بن مزيد الاسدي و بين مضر وحسان ونبهان وطراد من بني دبيس وانتهت تلك الحرب بان مضر بن دبيس كبس ابا الحسن بن مزيد فهزمهُ واستولى على خيلهِ واموالهِ وفر ابو الحسن الى بلد النيل

وفيها توفي الحافظ محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني المعروف بابن الحكم النيسابوري امام اهل الحديث في عصرهِ والمؤلف فيهِ كتبًا لم يسبق اليها سافر في طلب الحديث وبلغت عدة الشيوخ الذين اخذ عنهم نحو الفين وصنف عدة مصنفات منها الصحيحان والامالي وفضائل الشافعي

قال ابو الفدا ما معناهُ انهُ فيها توفي باديس بن منصور بن يوسف بلكين بن زيرى امير افريقية وولي بعدهُ امرة افريقية ابنهُ المعز بن باديس وعمره ثمان سنين فقلدهُ وخلع عليهِ الحاكم العلوي ولقبهُ شرف الدولة وهو الذي حمل اهل المغرب على اتخاذ المذهب المالكي وكانوا قبلهُ حنفية»

وفيها غزا يمين الدولة المقدم ذكرهُ الهند على عادتهِ فتاه ووقع هو وعسكرهُ في مياه فاضت من البحر فغرق كثير منهم وبعد الجهد تخلص ورجع الى خراسان

وفيها عزل سلطان الدولة بن بويه بالعراق فخر الملك ابا غالب المقدم ذكرهُ وقتلهُ لخمس سنين واشهر من ولايتهِ واستولى على مالهِ من جملتهِ الف الف دينار من النقود واستوزر ابا محمد الحسن بن سهلان

وفيها توفي ابو نصر قراخان صاحب تركستان وقيل (سنة ٤٠٨)

وعاد (سنة ٤٠٧) يمين الدولة محمود فغزا الهند ووصل الى قشمير وقنوج حتى الكنج وفتح عدة اماكن وغنم وعاد الى غزنة بالنصر والظفر

وفيها قتل خوارزم شاه ابو العباس مامون بن مامون وملك يمين الدولة المذكور خوارزم ..

وفيها صارت مقتلة الشيعة بافريقية وكان سببها ان المعز بن باديس كان راكبًا بالقيروان فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل لهُ رافضة يسبون ابا بكر وعمر فقال المعز رضى الله عنهما فثار بهم الناس وكانت فتنة وقتلوهم حبًا بالنهب

وخرج الترك والخطا من الصين (سنة ٤٠٨) في عدد عديد قيل ثلاثمائة الف خركاة الى بلاد قراخان وملكوا بعضها وبقي بينهم وبين بلاساغون ثمانية ايام فتجمعت عساكر طغان خان وذهبوا في طلبهم فبلغ الترك ذلك فرجعوا فتتبعوهم نحو ثلاثة اشهر حتى ادركوهم وهم آمنون فكبسوهم وقتلوا منهم نحو مائتي الف وغنموا من الدواب واواني الذهب والفضة ومصنوعات الصين ما لا يحصى

وفيها مات مهذب الدولة ابو الحسن بن علي بن نصر وعمره ثلاث وسبعون سنة وهو الذي هرب اليهِ القادر بالله العباسي · ووثب على ملكه بعده ابن اخته وامات ابن مهذب الدولة احمد ضربًا ثم هلك هو بالذبحة لنحو ثلاثة اشهر من ولايته ثم تولى بعده على البطيحة الحسين بن بكر الشرابي من خواص مهذب الدولة الى ان قبض عليهِ سلطان الدولة بن بويه (سنة ٤١٦) وولى عوضهُ صدقة بن فارس المازياري

وفيها مات علي بن مزيد الاسدي وصار الامر بعده لابنهِ دبيس

وفيها وهنت شوكة الديلم في بغداد وطمعت العامة وكثرت الفتن والفساد والتناهب الى ان قدم سلطان الدولة ابن بويه وضرب الطبل في اوقات الصلوات الخمس كما كان يفعل جده عضد الدولة في اوقات ثلاث صلوات وهجعت الحركات

وفي (سنة ٤٠٩) غزا يمين الدولة بن سبكتكين الهند على عادتهِ فقتل وغنم وعاد مظفرًا الى غزنة

وفيها توفي ابو المظفر ارسلان خان بن طغان خان علي وملك بعده ما وراء النهر قدرخان يوسف بن بغرا خان هرون بن سليمان الى ان توفي (سنة ٤٣٠)

و(في سنة ٤١٠) توفي وثاب بن سابق النميري صاحب حران وملك بعده ولدهُ شبيب

وفيها لثلاث بقين من شوال فقد الحاكم بن العزيز ابو علي منصور العلوي صاحب مصر ولم يعلم له خبر والصحيح انهُ قتل وعمرهُ ٣٧ سنة وولايتهُ خمس وعشرون سنة · وكان جوادًا بالمال وبدم غيرهِ · وكان فقده بان خرج يطوف الليل على رسمه واصبح عند قبر الفقاعي مارًا الى شرقي حلوان ومعهُ ركابيان فاعاد احدهما مع جماعة من العرب ليوصل اليهم ما اطلق لهم من بيت المال ثم عاد الاخر واخبر بانهُ ترك الحاكم عند العين والمقصبة · فذهب جماعة من اصحابهِ للكشف عن امرهِ فوجدوا حماره عند حلوان مجروح اليد بسيفٍ وعليهِ سرجهُ ولجامهُ · فاتبعوا الاثر وعثروا على ثيابهِ فعادوا موقنين بقتلهِ · قالوا وكان سبب قتلهِ انهُ تهدد اختهُ فاتفقت مع بعض القواد واعتدوا عليهِ من وقتهِ

وكان يصدر عنهُ افعال متناقضة يامر بالشيء ثم ينهي عنهُ · فانهُ امر مرةً بسب الصحابة ثم نهى عنهُ · وهدم بيعة القيامة ببيت المقدس · ثم امر ببنائها · وحمل اهل الذمة على الاسلام او لبس الغيار فاسلم كثير ثم كان الرجل منهم يسال ان يرجع الى دينهِ فياذن لهُ · ومنع النساء عن ترك بيوتهن وقتل من خرجت منهن فشكت اليهِ من لاقيم لها يقوم بامرها · فامر الناس ان يحملوا كلما يباع في الاسواق الى البيوت ويبيعوهُ للنساء وبان يكون للبائع شي كالمغرفة بيد طويلة يمد بها الى المراة وهي داخل البيت وعليها ما تكون قد اشترتهُ فان ارادتهُ وضعت الثمن في المغرفة واخذتهُ فيها وفي اختفائهِ ادعى بعض اتباعهِ معجزة صعوده الى السماء · ولهم فيهِ اقوال غلوّ ·

ثم بويع لولده علي ولقب الظاهر لاعزاز دين الله وهو اذ ذاك صبي وكتب الى جميع بلاد مصر والشام باخذ البيعة له وباشرت عمته ست الملك الامور بنفسها وهابتها الناس وصفت الامور وماتت ست الملك بعد موت اخيها باربع سنين

وفيها مال طالع سعد سلطان الدولة بن بويه الى الافول فشغبت الجند عليه ببغداد ولم يتركوه يرحل الى واسط دون ان جعل اخاه مشرف الدولة مكانه على العراق · ثم سار الى الاهواز واستوزر في طريقه ابن سهلان فاستوحش مشرف الدولة من ذلك وذهب اليه ابن سهلان ليخرجه عن العراق فاقتتلا وكان النصر لمشرف الدولة وقبض على ابن سهلان وسمل عينيه فبلغ ذلك سلطان الدولة فهرب وسار الى الاهواز في اربعمائة فارس واستقر مشرف بملك العراق وخطب له بها في اواخر المحرم (سنة ٤١٢)

وفيها قبض معتمد الدولة قرواش بن المقلد العقيلي على وزيره ابي القاسم المغربي ثم اطلقه وقبض على سليمان بن فهد وكان سليمان ظالمًا طاغًا فحبسه وقتله وهو الذي يقول فيه الزمكدم

وليل كوجه البرقعيدي مظلم وبرد اغانيه وطول قرونه
سريت ونومي فيه نوم مشردٍ كعقل سليمان بن فهد ودينه

وفيها اجتمع غريب بن معن ودبيس بن علي بن مزيد واتاها عسكر من بغداد وجرى بينهما وبين قرواش قتال انهزم فيه قرواش وامتدت يد نواب السلطان الى اعماله فارسل يطلب الصلح

ونقل ابن الاثير ان فيها في ربيع الاخر صار برق ورعد شديدان وامطرت السماء حجارة في افريقية هلك بها من اصابته

و(في سنة ٤١٣) توفي صدقة بن فارس المازياري الذي ارسله سلطان الدولة على البطيحة وضمنت عمالته لابي نصر شيرزاد بن الحسن بن مروان فاستقام الحال وامنت به الطرق · وتوفي علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور واليه انتهى الخط · وذكر ابو الفرج موته (سنة ٤١٤) وكان شيخه في الكتابة محمد بن اسد بن علي البغدادي

و(في سنة ٤١٤) استولى علاء الدولة ابو جعفر بن كاكويه على همذان وانتزعها من صاحبها سماء الدولة ابي الحسن بن شمس الدولة من بني بويه ثم سار الى الدينور فملكها ثم ملك شابور خواشت وقويت هيبته

وفيها قبض مشرف الدولة المذكور على الرخجي وزيره واستوزر ابا القاسم المغربي واسمه الحسين وقد تقدم ذكره · وكان ابوه من اصحاب سيف الدولة بن حمدان

وفيها غزا يمين الدولة محمود بلاد الهند وعاد غانمًا سالمًا

و(في سنة ٤١٥) توفي ابو شجاع سلطان الدوله بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز وعمره اثنتان وعشرون سنة واشهر فاستولى اخوه قوام الدولة ابو الفوارس ملك كرمان على فارس وكان ابو كاليجار بن سلطان الدولة بالاهواز فسار الى عمه واقتتلا وانجلى الامر عن انهزام ابي الفوارس واستيلاء ابي كاليجار على مملكة ابيه ثم اخرجه عمه عنها ثم تقوى على عمه وقر في ملكه

ثم دخلت (سنة ٤١٦) وفيها عاد يمين الدولة الى غزو الهند فاوغل وفتح مدينة الصنم العظيم (سومنات) وكانوا يحجون اليه وله من الوقوف اكثر من عشرة الاف ضيعة وفي بيت ذلك الصنم من الجواهر والذهب والفضة ما لا يحصى فغنم تلك الاموال وكسر الصنم واخذ بعضه معه الى غزنة وجعله في عتبة الجامع مدوساً بعد ان كان معبوداً

وفيها توفي مشرف الدولة بن بهاء الدولة وعمره ثلث وعشرون سنة واشهر وولايته خمس سنوات واياماً وكان عادلاً حسن السيرة

وفيها قتل علي بن محمد التهامي الشاعر المشهور صاحب المرثية الشهيرة التي عملها في ولد صغير له ومنها

حكم المنية في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرارِ
طبعت على كدرٍ وانت تريدها صفواً من الاقذاء والاكدار
ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وسبب قتله انه حضر مصر ومعه كتب من حسان بن مفرج بن دغفل البدوي الى بني قرة فعلم امره وحبس في خزانة البنود ثم قتل بها محبوساً

وفيها تمادى الاتراك في الجور ومصادرات الناس ببغداد وعظم الخطب ودخل العامة والعيارون في الطمع بسبب موت مشرف الدولة وخلو بغداد من السلطان

وفيها ملك نصير الدين بن مروان صاحب ديار بكر مدينة الرها وكانت لرجل من بني نمير يسمى عطيراً وكان شريراً جاهلاً فكاتبه الرهاويون بان يرسل اليهم من يسلموه البلد فارسل اليهم نائباً كان له اسمه زنكي فقتل عطيراً وتسلمها هذا ما قاله ابو الفرج

و(في سنة ٤١٨) استدعا الجند بامر الخليفة اباطاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة وكان بالبصرة الى بغداد بسبب ما حصل من النهب والاختلال فدخلها ثالث رمضان وخرج للقائه الخليفة العباسي القادر وحلفه واستوثق منه واستقر جلال الدولة في ملك بغداد .

وفيها توفي ابو القاسم الوزير المغربي المقدم ذكره وعمره ست واربعون سنة . وسقط بالعراق برد كبار وزن الواحدة رطل ورطلان بالبغدادي واصغره كالبيضة . ونقضت الدار التي بناها

معز الدولة بن بويه ببغداد وكان قد صرف عليها مليون دينار

ثم كانت (سنة ٤١٩) وفيها توفي قوام الدولة بن بهاء الدولة صاحب كرمان فسار ابن اخيه ابوكاليجار بن سلطان الدولة صاحب فارس الى كرمان واستولى عليها دون قوام.

و(في سنة ٤٢٠) استولى يمين الدولة محمود بن سبكتكين على الري وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة حسن بن بويه وكان السبب ان مجد الدولة التهى عن سياسة الري بمعاشرة النساء وتلاوة الكتب فشغبت عليه الجند فشكاهم الى محمود فاستغنم محمود الفرصة وارسل عليه عسكرًا قبضوا عليه وامتلكوا الري

وفيها توفي منوجهر بن قابوس بن وشمكير بن زيار وخلفه ابنه انوشروان

وفيها اوقع يمين الدولة محمود بالغز اصحاب ارسلان بن سلجوق وكانوا يفسدون بخراسان وينهبون فارسل اليهم جيشًا فسبوهم واجلوهم عنها وسار منهم نحو الفي خركاة الى اصفهان. اما طغريل وداود واخوهما ينغو اولاد ميكائيل بن سلجوق بن دقاق فانهم كانوا بما وراء النهر. ووصل طائفة من الغز الى اذربيجان ثم الى مراغة فدخلوها واحرقوا جامعها وقتلوا فيها مقتلة عظيمة من عوامها ومن الاكراد الهذبانية. ثم سارت طائفة منهم الى الري واخرى الى همذان فملكوها . وهكذا ملكوا الموصل (ابو الفرج)

وفي ربيع الاخر من (سنة ٤٢١) توفي يمين الدولة محمود بن سبكتكين بالاسهال وولادته (سنة ٣٦٠) واوصى بالملك لابنه محمد وكان اصغر من مسعود فجلس محمد على تخت ابيه واخوهُ مسعود باصفهان فقصد مسعود اخاهُ ثم اتفق اكابر الدولة وقبضوا على محمد وسلموا المملكة لمسعود فاستلمها واطلق اخاهُ واحسن اليه ثم قبض على القواد الذين قبضوا على اخيه

وارسل (سنة ٤٢٢) عسكرًا فاستولى على التيز ومكران

وفيها قال ابو الفدا راسل ابن عطير رومانوس ملك الروم وباعهُ حصنهُ من الرها بعشرين الف دينار مع عدة قرى وكانت على قوله بين ابن عطير المذكور وبين ابن شبل وصلت اليهما (سنة ٤١٦) من ابي نصر بن مروان بعد اخذها من عطير صاحبها بشفاعة صالح بن مرداس فحضر الروم برج ابن عطير وهرب اصحاب شبل واستولى الروم على البلد وقتلوا المسلمين اما ابو الفرج فيقول ان الروم اخذوها من نصر الدولة بن مروان ويمكن التوفيق بان ابن عطير وابن شبل كانا عاملين لنصر المذكور بشفاعة ابن مرداس بعد اخذها من عطير

وفيها توفي القادر بالله ابو العباس احمد بن الامير اسحق بن المقتدر وعمره ثمانون سنة وعشرة اشهر لاحدى واربعين سنة من خلافته

في خلافة القائم بامر الله سادس عشر بنهم من (سنة ١٠٣٠–٤٢٢) الى (سنة ١٠٦٨ – ٤٦٧)

كان القادر قد عهد لولده القائم قبل موته بسنة فلما توفي اثبتوا له وبايعوهُ بالخلافة واسمهُ عبد الله ابو جعفر وارسل ابو الحسن الماوردي الى ابي كاليجار بن بويه فاخذ البيعة عليهِ وخطب له في البلاد

و(في سنة ٤٢٢) سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج الطائي وكان قد هرب اليهم حين انهزم على الاردن من عسكر الظاهر العلوي فذهب معهم الى الشام وعلى راس المذكور علم فيهِ صليب وهو مسلم فوصلوا الى فاميه وكبسوها واخذوا قلعتها واسروا وسبوا ثم دخلت (سنة ٤٢٣)

وفيها شغبت الجنود على جلال الدولة ببغداد ونهبوا داره واخرجوهُ من المدينة وكتبوا الى السلطان ابي كاليجار يستدعونهُ الى بغداد فتاخر وكان جلال الدولة قد خرج الى عكبرا فاتفقوا ورجع جلال الدولة

وفيها توفي قدرخان يوسف بن بغراخان هرون بن سليمان وكان يملك ما وراء النهر منذ (سنة ٤٠٩) وخلفهُ ولدهُ عمرخان

و(في سنة ٤٢٤) قبض مسعود بن محمود على شهر بوش صاحب ساوه وقم وتلك النواحي وكان قد اضر جدًّا بحجاج خراسان وغيرهم . وامر بصلبهِ على سور ساوه و(في سنة ٤٢٥) فتح الملك المذكور قلعة سرسي وما اليها من بلاد الهند . وكان ابوهُ قد قصدها مرارًا ولم يقدر عليها لحصانتها وقتل اهلها وسبى ذراريهم

وفيها توفي بدران بن المقلد صاحب نصيبين فقصد ولدهُ قريش عمهُ قرواشًا فاقر عليهِ حالهُ ومالهُ وولاية نصيبين

وفيها كانت حرب عنيدة بين نور الدين دبيس واخيهِ ابي قوام ثابت . ثم اصطلحا وتعاهدا وكان البساسيري قد صار نجدة لثابت فلما سمع بصلحهما عاد الى بغداد . والمذكوران اميرا عرب من بني اسد وخفاجة وفيها مات ملك الروم رومانوس وملك بعده رجل صراف ليس من بيت الملك احبتهُ ابنة الملك وتزوجت بهِ فكان انهُ توصل الى الملك ايضًا

فصل

في الربع الثاني من القرن الخامس للهجرة

ولما كانت (سنة ٤٣٦) انحل امر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم امر العيارين واعتدوا على

الناس باموالهم وجلال الدولة عاجز عنهم والخليفة اعجز وانبث العرب في البلاد ونهبوا الاطراف . ووصلت الروم الى ولاية حلب فالتقاهم صاحبها شبل الدولة بن صالح بن مرداس وبعد القتال رحل الروم دون نفع . وفيها نهب خفاجة الكوفة

وفي التي بعدها مات الظاهر العلوي ابو حسن علي بن الحاكم ابي علي منصور العلوي بمصر وعمرهُ ٣٣ سنة لخمس عشرة سنة وتسعة اشهر من خلافتهِ . وكان له حكم مصر والشام ويخطب له بافريقية . وكان جميل المعاملة للرعية . وخلفهُ ولدهُ ابو تميم معد ولقب المستنصر بالله . قال ابو الفدا « ومولده سنة عشرين واربع مائة وهذا هو المستنصر الذي خطب له ببغداد . ووصل اليهِ الحسن بن الصباح الاسماعيلي وخاطبهُ في اقامة دعوتهِ بخراسان وبلاد العجم . وقال له ان فقدت فمن الامام بعدك . فقال ابني نذار »

وفيها سار ابن وثاب وابن عطية مع عسكر كثيف من قبل نصر الدولة بن مروان وفتحوا السويدا من الروم وكانوا قد احدثوا عمارتها وقدم اليها اهالي القرى المجاورة

وفيها قتل يحيى بن علي بن حمود كما سبق وخلفهُ اخوهُ (ادريس) ولقب بالمتايد وبقي بمالقة حتى مات (سنة ٤٣١) . ثم خلفهُ (القاسم) بن محمد ابن عم ادريس فاقام مدة . ثم ترك الملك الى التزهد وخلفهُ (الحسن) بن يحيى المذكور وتلقب بالمستنصر ولم يعلم متى توفي . قال ابن خلدون وهلك حسن مسمومًا بيد ابنة عمهِ ادريس . ثم قام بعد الحسن اخوهُ (ادريس) بن يحيى وتلقب بالعالي . قال ابن خلدون . وبويع له (سنة ٤٣٤) واطاعتهُ غرناطه وقرمونه وما بينهما وولى على سبتة سكوتًا ورزق الله من عبيد ابيهِ . ثم قتل محمدًا وحسنًا ابني عمهِ ادريس فثار السودان بدعوة اخيهما بمالقة وامتنعوا بالقصبة . وكانت العامة مع ادريس . ثم اسلموهُ « لانه على قول ابي الفدا » كان فاسد التدبير يدخل الاراذل على حريمهِ ولا يحجبهن منهم وسلك نحو ذلك من السلوك وبايعوا ابن عمهِ (محمد) بن ادريس بن علي بن حمود بمالقة (سنة ٤٣٨) وتلقب بالمهدي فامسك ابن عمه العالي وسجنهُ وولى اخاه عهده ولقبهُ السامي . ثم تنكر منهُ فنفاه الى العدوة فاقام بين غمارة ولحق العالي بقارش فامتنع بها وزحف باديس من غرناطه منكرًا على المهدي فعلهُ فامتنع عليهِ فبايع له وانصرف . واقام المهدي بملكه بمالقه واطاعتهُ غرناطه وجيان واعمالها الى ان مات بمالقة (سنة ٤٤٥) قال ابو الفدا « وكان المهدي المذكور اخر من ملك منهم تلك البلاد وانقرضت دولتهم في السنة المذكورة وقيل بل ان العامة اخرجوا العالي بعد موت محمد المهدي وملكوهُ . فلما مات انقرضت دولتهم »

وقال ابن خلدون « وبويع ادريس المخلوع ابن يحيى العالي من مكانه بقارش بويع له بمالقة

واطلق ايدي عبيده عليها لحقده عليهم ففر كثير منهم الى ان هلك (سنة ٤٤٧). وبويع (محمد) الاصغر ابن ادريس المتايد وتلقبه وخطب له بمالقة والمرية ورندة ثم سار اليهِ باديس فتغلب على مالقة (سنة ٤٤٩) . وفي ايام خلافة المهدي قام من بني عمه شخص اسمهُ محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء وتلقب بالمهدي ايضًا واجتمعت عليهِ البرابر ثم افترقوا عنهُ فمات بعد ايام يسيرة ثم ملكها بعده ابنهُ القاسم ولقب بالواثق الى ان هلك (سنة ٤٥٠) وصارت الجزيرة للمعتضد بن عباد وكان سكوت البرغواطي الحاجب مولى القاسم او مولى يحيى العالي واليًا على سبتة من قبلهم فلما غلب ابن عباد على الجزيرة طالبهُ في الطاعة وطلب هو ملك الجزيرة فامتنعت عليهِ واتصلت الفتنة بينهما الى ان كان من امر المرابطين وتغلبهم على سبتة والاندلس ما كان

وفيها اي (سنة ٤٢٧) توفي الشيخ الرئيس ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري كان ابوهُ بلخيًا قدم الى بخارى في عهد نوح بن منصور الساماني فاقام بها وتزوج بافشنة واستوطن هناك وبها ولد لهُ الشيخ الرئيس واخوهُ . وختم الشيخ القرآن وهو ابن عشر سنين وقرأ الحكمة على ابي عبدالله الناتلي ثم اشتغل بالطب واتقن ذلك كلهُ وهو ابن ١٨ سنة ثم انتقل الى كاكنج (الجرجانية) ثم وثم الى ان اتى الى جورجان فاتصل بهِ ابو عبد الله الجورجاني اكبر اصحاب الشيخ . ثم قام الى الري ودخل بخدمة مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه . ثم خدم شمس المعالي قابوس بن وشمكير . ثم فارقهُ الى علاء الدولة بن كاكويه باصفهان ونقدم عند علاء الدولة . ثم مرض بالصرع والقولنج وترك الحمية ومضى الى همذان مريضًا ومات بها وكان عمره ثمانيًا وخمسين سنة ولهُ مصنفات مشهورة

قال ابو الفدا « وحكى الرئيس ابو علي المذكور في المقالة الاولى من الفن الخامس من طبيعيات الشفا — قال وقد صح عندي بالتواتر ما كان ببلاد جورجان في زماننا من امر حديد لعلهُ بزن مائة وخمسين منًا نزل من الهواء فنشب في الارض ثم نبا نبوة الكرة التي يرمى بها الحائط ثم عاد فنشب في الارض وسمع الناس لذلك صوتًا عظيمًا هائلاً . فلما تفقدوا امره ظفروا بهِ وحملوهُ الى والي جورجان . ثم كاتبه سلطان خراسان محمود بن سبكتكين يامر بانفاذه او انفاذ قطعة منهُ فتعذر نقلهُ لثقلهِ فحاولوا كسر قطعة منهُ فما كانت الآلات تعمل فيهِ الا بجهدٍ وكانت كل الة تعمل فيهِ تنكسر لكنهم فصلوا منهُ اخر الامر شيئًا فانفذوهُ اليهِ ورام ان يطبع منهُ سيفًا فتعذر عليهِ . وحكى ان جملة ذلك الجوهر كان ملتئمًا من اجزاء جاورشية صغار مستديرة التصق بعضها ببعضٍ . قال وهذا الفقيه عبد الواحد الجورجاني صاحبي شاهد على ذلك »

و (في سنة ٤٢٩) هادن المستنصر بالله العلوي ملك الروم ان يطلق خمسة الاف اسير ليمكن من عمار قمامة التي كان قد خربها الحاكم في ايام خلافته فاطلق الاسرى وارسل من عمر قمامة وانفق

ملك الروم عليها مبالغ عظيمة .

قال ابو الفرج وفيها دخل ركن الدولة ابو طالب طغريل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق مدينة نيسابور وملكها

ووصل الملك مسعود بن سبكتكين من غزنة (سنة ٤٢٠) الى بلخ واجلا السلجوقية من خراسان وخطب شبيب بن وثاب النميري صاحب حران وسروج والرقة للخليفة القائم العباسي وقطع خطبة المستنصر العلوي

في السلجوقيين

و(في سنة ٤٣٣) توطد امر طغريل بك السلجوقي واخيه داود ابني ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ودقاق كان احد مقدمي قواد يبغو خان ملك اتراك قفجاق سكان مروج شمالي الخزر وكان رجلاً مقداماً اميناً محبوباً من سيده يبغو خان وولد له ولد سماهُ سلجوق فانتشا سلجوق وظهرت عليهِ امارات النجابة فقدمهُ يبغوخان فقوي امرهُ ونما جسورًا وصار له جماعة كثيرة فاشتبه يبغو في صدقهِ وخافهُ فاقصاهُ فترك سلجوق بجماعتهِ وبكل من يطيعهُ وذهب الى نواحي سمرقند وبخارى، واستوطن «بجند» واسس امارةً صغيرة واحتضن الاسلام وكان يغزو الاتراك غير المسلمين على الحدود. وكان سلجوق في اخر القرن الرابع من الهجرة وهو اخر القرن العاشر للمسيح. وخلف ثلثة ابناء وقيل اربعة وهم ارسلان وميكائيل وموسى وتوفي بجند وعمرهُ مائة وسبع سنين وبقي اولادهُ المذكورون على ما كان عليهِ ابوهم من غزو التتر وقتل ميكائيل في تلك المقاتل تاركاً يبغو وطغريل بك وجعفر بك داود

ثم ارتحلوا ونزلوا على فرسخين من بخارى فاساء اميرها اليهم فالتجئوا الى بغراخان ملك ما وراء النهر فقبلهم ضامرًا لهم الشر. واتفق طغريل واخوهُ ان لا يجتمعا في وقت واحد عندهُ فاحتال ان يجمعها فلم يمكن له فقبض اخيرًا على طغريل وارسل عسكرًا على داود اخيهِ فسار العسكر واقتتلوا معهُ فظفر داود عليهم وقصد مكان اخيهِ فخلصهُ من الاسر ورجعا الى جند الى ان انقرضت الدولة السامانية وملك ايلك خان بخارى. وعظم عنده محل ارسلان بن سلجوق وقربهُ منهُ ثم سار ايلك خان عنها وبقي بها علي تكين ومعهُ ارسلان المذكور حتى عبر محمود جيحون قاصدًا بخارى فهرب علي وذهب ارسلان بقومهِ ودخلوا المفازة والرمال من وجه السلطان يمين الدولة محمود فكاتب محمود ارسلان واستماله فحضر فامر بالقبض عليهِ ونهب خركاوانهُ وامر بتفريق قومهِ في نواحي خراسان الى اصفهان وجعل عليهم الخراج فجار عليهم العمال فانفصل منهم جماعة الى اصفهان وجرى بينهم وبين علاء الدولة بن كاكويه قتال فانطلقوا الى اذربيجان وكان اولئك اتباع ارسلان وبقي

اسمهم هناك الترك العربية

ثم سار طغربل واخواهُ بيغو وداود من خراسان الى بخارى فالتقاهم علي تكين المقدم ذكرهُ واوقع بهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا فرجعوا الى خراسان وعبروا نهر جيحون وضربوا بظاهر خوارزم (سنة ٤٢٦) واتفقوا مع خوارزم شاه هرون بن الطيطاش ثم غدر بهم واكثر القتل والنهب فيهم فتركوا خوارزم الى اطراف مرو فارسل اليهم مسعود بن السلطان محمود عسكرًا فهزمهم · ثم جرى بين عسكره خصام على الغنيمة ادى الى قتال فاغتنم داود الفرصة ورد عليهم وقاتلهم وهزمهم واسترد ما كانوا قد اخذوهُ منهم وتمكنت هيبتهم في عساكر مسعود فكاتبهم مسعود واستمالهم اليهِ فراسلوهُ بالطاعة وارسلوا اليهِ عمهم ارسلان الذي كان قد قبض عليهِ ابوهُ السلطان محمود فاستقدم ارسلان الى امام السلطان مسعود وطلب اليهِ ان يستحضر قومهُ ولما لم يتم لهُ ذلك ارسلهُ الى السجن · فبلغ ذلك قومهُ فقاتلوا قائد جيش مسعود وانتصروا عليهِ وقوي امرهم واستولوا على خراسان وفرقوا الولاة والعمال في الاطراف وخطب لهم في نيسابور وتقدم داود الى هراة فهربت عساكر مسعود وتقدم من هناك الى غزنه وبلغ مسعودًا تفاقم الخطب فنهض بالعساكر لمقاومتهم وكان كلما ادركهم في مكان نهضوا الى غيره حتى طال الامر واتسع البيكار على مسعود وعساكره وتصايقوا من قلة الاقوات ثم نهض السلجوقية الى البادية فتبعهم مسعود بعساكره وقد ضجرت تلك العساكر من طول المدة والمدى وكثرة التعب وفروغ الزاد مدة ثلث سنوات وقلت المياه ووقعت بينهم الفتن وبدا الخون والاختلاف فاغتنم السلجوقية ذلك واقتحموا اعداءهم فهزموهم وولى مسعود بن بقي معهُ واغتنموا منهم اموالاً واثقالاً جزيلة واستولوا على خراسان وخطب لطغربل بك على منابرها (سنة ٤٣١)

ولما انهزم مسعود توجه الى غزنة وهناك قبض على مقدم عساكره بشاوش وعلى عدة من الامراء وارسل ولده مودودًا الى بلخ ليرد عنها داود بن ميكائيل السلجوقي وذهب هو الى بلاد الهند ليصرف الشتاء هناك على عادة والده محمود فنهب انوشتكين احد قواده بعض الخزائن واخذ لهُ حزبًا والزم محمدًا اخا مسعود بمباشرة امور السلطنة مكان اخيهِ كرهًا وكان ذلك سببًا للقتال بين الاخوين وتغلب حزب محمد فاسر مسعود وحبس في قلعة كيدى مع اهلهِ واولاده ثم فوض محمد امر دولتهِ الى ابنهِ احمد وكان رجلاً احمق اهوج فقتل عمهُ مسعودًا في قلعة كيدى على غير علم من ابيهِ فاحزنهُ ذلك جدًّا · وكان مسعود المذكور عالمًا كريمًا الف لهُ التآليف وقصدهُ العلماء من كل جهة وكان ملكهُ عظيمًا واسعًا — اصفهان والري وطبرستان وجرجان وخوارزم وبلاد الران وكرمان وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور واطاعه اهل البحر والبر — وكان اعظم سلطان ظهر في دولة آل سبكتكين بعد ابيهِ محمود · وعندما قتل مسعود كان ابنهُ مودود في حرب السلجوقية بخراسان فلما بلغهُ

ذلك رجع الى غزنة وحارب عمهُ محمدًا فانهزم بعسكره فقبض على ابن عمهِ احمد قاتل ابيهِ وعلى انوشتكين الخصي الذي كان قد نهب الخزائن وقتلهما وقتل جميع ابناء عمهِ الا عبد الرحيم ودخل مودود غزنة (سنة ٤٣٢) واستقر الملك له وسلك حسن السيرة وثبت قدمهُ في الملك وكاتبهُ ملك الترك بما وراء النهر مقدمًا له الطاعة والتابعية

وقال بعض المورخين انهُ كان لسلجوق ولد اسمهُ اسرائيل ارسلهُ طغريل بك وداود الى محمود سلطان غزنة خراسان في سفارة خصوصية فسالهُ محمود عن قومهِ واقتدارهم فاجابهُ بطريق القرينة بانهُ لو ارسل اسرائيل الى قومهِ احد سهمين كانا معهُ لارسلوا اليهِ خمسين الف خيال. ولو شيع السهمين لاتاه مائة الف فلو ارسل قوسهُ معها لجاءه مئتا الف خيال. فاوهم هذا الجواب محمودًا فاعتقلهُ في احدى قلاع خراسان حتى مات

واختلف المورخون في مجيء السلاجقة الى خراسان فمنهم من قال اتوا في زمان محمود بن سبكتكين والبعض في عهد ولده مسعود والذي ثبت ان ابا طالب محمد ركن الدولة طغر بل بك نودي باسمهُ في نيسابور (سنة ١٠٣٨-٤٢٩) وهو اول ملك سلجوقي في ايران ثم فتح هراة ومرو. وبعد قليل كل خراسان ومدة ملكهِ ست وعشرون سنة كلها حروب مع دولة غزنة وفي افتتاح الفرس. ولما مات طغربل وداود بقي كل شيء اولد داود وهو الب ارسلان الذي كان قد اشتهر في مدة ابيهِ وعمهِ بالاقدام والفروسية

وانقسم السلاجقة الى اربع دول. دولة ايران. ودولة كرمان. ودولة روم. ودولة الشام. وهذه الاخيرة كانت على الاكثر ايرانية واسم الب ارسلان كان اسرائيل والب ارسلان لقبهُ ومعناه الاسد الشجاع واعطاه الخليفة القائم لقب عز الدين. وكان الب ارسلان في اول ملكهِ مشغولاً باخماد الفتن والثورات التي كانت في اكثر المملكة ونوجد قصص غريبة في علو نجمهِ وحسن توفيقهِ في الحروب وسنورد كل ذلك في محلهِ

عمان

هذا ولما توفي ابو القاسم بن مكرم صاحب عمان خلفهُ ولدهُ ابو الجيش وكان له اخ يقال له المهذب وكان يكره ابن هطال صاحب جيش ابيهِ فعمل ابن هطال دسيسة على قتلهِ واغراء اخيهِ بهِ فقتلهُ ثم توفي ابو الجيش وكان له اخ صغير فطلبهُ ابن هطال من امهِ ليملكهُ فابت فاستولى هو على الولاية واساء السيرة فبلغ ذلك الملك ابا كاليجار فارسل عليهِ جيشًا وخرجت الناس عن طاعتهِ فقتلهُ خادم له وفراش واستقر الامر لابي محمد ابن ابي القاسم ابن مكرم في هذه السنة او التي قبلها وفي السنة نفسها انتقض اهل دمشق على الدزبري بامر المستنصر العلوي فترك الدزبري دمشق

الى حماة فعصى عليه اهلها . فلستعان بمقلد بن منقذ من كفرطاب فحضر اليه بخو الفي رجل وسار الدزبري بحمايته الى حلب ومات هناك بعد مدة قليلة . وكان الدزبري يعرف بامير الجيوش واسمه انوشتكين ولقب بالدزبري نسبة الى دزبر بن رويتم الديلمي

ولما توفي الدزبري اختل امر الشام ونظام احكامها وطمعت الاعراب وخرجوا في الاطراف . فكان ما كان من خروج صاحب الرحبة ابي علوان ثمال معز الدولة بن صالح المرداسي الكلابي وملكه حلب ورجوع حسان بن مفرج الطائي الى الاستيلاء على فلسطين وهو حسان الذي كان قد ترك القسطنطينية ورجع (سنة ٤٢٢)

وفيها ارسل ابو كاليجار بن بويه عسكرًا من فارس الى عمان فملكوها . وتوفي ابو منصور بهرام العادل وزيره

و (في سنة ٤٣٣) توفي ميخائيل ملك الروم واستولى طغريل بك على جرجان وطبرستان بلد الجبل واخذ خوارزم وكانت من جملة ممالك محمد بن سبكتكين والعامل عليها في عهده الطيطاش حاجبه فلما مات الطيطاش تولاها ابنه هرون خوارزمشاه ثم قتل هارون قتله جماعة من غلمانه وهو في الصيد واستولى على خوارزم رجل يسمى عبد الجبار فقتله غلمان هرون وولوا عليهم اسمعيل اخا هرون ثم سار شاه ملك بن علي امير بعض تلك الاطراف واستولى على خوارزم وهزم اسمعيل عنها. وفي هذه الاختلالات سار طغريل بك وملكها وهزم شاهملك عنها واستقرت للسلجوقية

وفيها توفي علاء الدولة ابو جعفر بن شهريار المعروف بابن كاكويه وكان شجاعًا حازمًا وخلفه باصفهان ابنه ظهير الدين ابو منصور فرامرز اكبر بنيه وسار ولده كرشاسف الى همذان فاقام بها وخصها لنفسه

وفيها خرج رجل اسمه سكين بمصر يشبه الحاكم العلوي وادعى انه الحاكم واتبعه جماعة يعتقدون رجعته وقصدوا دار الخليفة وقالوا هذا الحاكم فارتاع من كان بالباب ثم وقعت عليه الشبهة فقبض عليه وصلب مع اصحابه

وتوفي (سنة ٤٣٥) جلال الدولة ابو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ببغداد من مرض الكبد لست عشرة سنة واحد عشر شهرًا من ولايته وعمره اثنتين وخمسون سنة وكان ولده الملك العزيز ابو بكر منصور بواسط فقصد الولاة مثل قرواش وابي الشوك فلم يجده احد لزوال مملكة ابيه فقصد نصر الدولة بن مروان وتوفي عنده بميافارقين (سنة ٤٤١) ولما لم ينتظم له امر كاتب ابو كاليجار عسكر بغداد واستقر له الامر

وركب (سنة ٤٣٥) مودود بن مسعود بن محمد سلطان غزنة واخذ عدة حصون من بلاد

الهند . واسلم من الترك نحو خمسة الاف خرگاة وتفرقوا في بلاد المسلمين

وفيها اقتسم شرف الدولة ملك الترك ما لكه فابقى لنفسهِ بلاساغون وكاشغر واعطى اخاه ارسلان تكين عدة بلاد . واخاه يغراخان اطرار واسبيجاب . وعمه طغان خان فرغانة باسرها . وعلي تكين بخارى وسمرقند وغيرها والجميع بالطاعة لامره

وفيها قطع المعز بن باديس بافريقية خطبة العلويين وخطب للقائم العباسي وارسل القائم له الخلع والاعلام بطريق القسطنطينية بحرًا

و(في سنة ٤٣٦)خطب للملك ابي كاليجار ببغداد وفي بلاد ابي الشوك وبلاد دبيس بن مزيد . وبلاد نصر الدولة بن مروان وسار هو الى بغداد ودخلها في رمضان بالزينة والافراح . وفيها امر السلطان المذكور ببناء سور شيراز ودوره اثنا عشر الف ذراع وارتفاعه ثمان اذرع وله احد عشر بابًا . فلم يكمل الى سنة اربعين واربعمائة

و(في سنة ٤٣٧) ارسل طغريل بك اخاه ابرهيم ينال بن ميكائيل فاستولى على همذان من يد كرشاسف بن علاء الدولة بن كاكويه . واخذ الدينور من ابي الشوك واستولى على الصيمرة وفيه توفي ابو الشوك فارس بن محمد بن عنان بقلعة السيروان . وغدر الاكراد بابنهِ سعدى وصاروا الى مهلهل بن محمد اخي ابي الشوك . ومن حوادثها موت عيسى بن موسى الهمذاني صاحب اربل قتيلاً . وكان لعيسى اخ اسمهُ سلار بن موسى قد نزل على قرواش صاحب الموصل لوحشة بينهُ وبين عيسى اخيهِ . فلما بلغهُ قتل اخيهِ اخذهُ قرواش وسار فملك اربل من يد ابني اخٍ لعيسى المذكور كانا قد قتلاه وملكا القلعة وفي هذه السنة صار وباء في الخيل وعم البلاد

ومن حوادث (سنة ٤٣٨) استرجاع مهلهل بن محمد بن عنان اخي ابي الشوك الدينور من يد ابرهيم ينال السلجوقي . وفي التي بعدها اخذ الملك ابو كاليجار البطيحة من يد صاحبها ابي نصر بن الهيثم وهرب ابو نصر وحدث غلا عظيم حتى اكل الناس الميتة بالعراق . وتوفي بغراخان محمد بن قدر خان يوسف . وقبض على اخيهِ عمر . فان شمس الملك طفقاج خان ابو اسحق ابرهيم بن نصر ايلك خان سار من سمرقند وملك بلادها

قال ابو الفرج «وفيها وقع الصلح بين الملك ابي كاليجار والسلطان طغريل بك السلجوقي » وكان ابو كاليجار قد جعل ابنهُ خسروفيروز المعروف بالملك الرحيم على بغداد برتبة امير الامراء التي كانت في دولة بني بويه

و(في سنة ٤٤٠) مات ابو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بمدينة «جناب» من كرمان وكان قد سار الى هناك بسبب انتقاض عاملهِ بهرام

الديلمي وكان عمرهُ اربعين سنة وشهورًا لاربع سنين وشهرين من ملكهِ العراق ولما توفي نهبت الاتراك الخزائن والسلاح والدواب . وكان ولدهُ ابو منصور فلاستون معهُ فعاد الى شيراز وملكها ولما بلغ الخبر بغداد جمع الملك الرحيم الجند واستحلفهم لهُ ثم ارسل عسكرًا على شيراز فقبضوا على اخيهِ ووالدتهِ وخطب للملك الرحيم بشيراز ثم ركب الملك الرحيم الى خورستان فقدموا لهُ الطاعة ومن جملتهم كرشاسف بن علاء الدولة صاحب همذان لانهُ كان قد التجا الى كنف ابيهِ عندما اخذ منهُ ابرهيم ينال السلجوقي همذان

و(في سنة ٤٤١) جمع فلاستون بن ابي كاليجار واستولى على بلاد فارس وجرى بين طغريل بك واخيهِ ابرهيم ينال قتال وانهزم ابرهيم وعصي بقلعة سرماح فحصره طغريل واستنزلهُ قهرًا

وفيها هادى ملك الروم طغريل بك وطلب منهُ المعاهدة فاجابهُ وكان عمار مسجد القسطنطينية واقيم فيهِ الخطبة لطغريل بك ودانت الناس لهُ وتمكن ملكهُ وثبت (ابو الفدا) ثم افرج طغريل بك عن اخيهِ ينال واستصحبهُ

وفيها اخذ البساسيري كبير الاتراك ببغداد الانبار ودخلها باصحابهِ واظهر العدل وحسن السيرة وقور قواعدها وعاد الى بغداد . وتوفي مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وملك عمه عبد الرشيد وكان محبوسًا فأُخرج وولي ولقب شمس دين الله سيف الدولة

وفيها وقعت الفتنة ببغداد بين اهل السنة والشيعة وعظم الامر وبطلت الاسواق وشرع اهل الكرخ في بناء سور عليهم وشرع السنية من القلايين ومن يجري مجراهم في بناء سور على سوق القلايين فكان آذان اهل الشيعة « بحي على خير العمل واهل السنه » الصلاة خير من النوم

و(في سنة ٤٤٣) اخذ طغريل بك اصفهان من صاحبها ابي منصور ابن علاء الدولة بن كاكويه بعد حصار نحو سنة ودخلها (سنة ٤٤٣) ونقل اليها ما كان لهُ بالري من سلاح وذخائر

وفيها استولى ابو كامل بركة بن المقلد على اخيهِ قرواش وانفرد في المملكة ولقب زعيم الدولة

وفيها قطع المعز بن باديس خطبة العلويين من افريقية وخطب للعباسيين فتدارك المستنصر العلوي ووزيره الحسن بن علي اليازوري من يازور الرملة قبيلتي زغبة ورباح من العرب فساروا واستولوا على برقة فلقيهم المعز فهزموهُ وساروا الى افريقية وقطعوا الاشجار وحصروا المدن وحل البلاء في الاهالي . ثم جمع لهم المعز نحو ثلاثين الف فارس فهزموهُ ايضًا وفر الى القيروان . ثم جمع لهم والتقاهم بعسكر غفير فانتصروا عليهِ ووصل العرب الى القيروان ونزلوا بمصلاها واقاموا يحاصرون البلاد وينهبونها الى (سنة ٤٤٩) وانتقل المعز الى المهدية ونهبت العرب القيروان

وفيها سار مهلهل بن محمد بن عنان اخو ابي الشوك الى طغريل بك فانعم عليهِ واقره على بلاده

من جملتها السيروان ودقوقاوشهرروز والصاقعان واطلق له اخاه سرخاب الذي كان مسجونًا عنده

وفي التي بعدها صارت الفتنة بين السنية والشيعة وعظم الخطب واحرقوا قبر موسى بن جعفر وقبر زبيدة وقبور ملوك بني بويه وجميع الترب المجاورة · ووقع النهب وذهب اهل الكرخ الى خان الحنفيين وقتلوا مدرس الحنفيين ابا سعيد السرخسي واحرقوا الخان ودور الفقهاء · ثم امتدت الفتنة الى الجانب الشرقي فاقتتل اهل باب الطاق وسوق يحيى والاساكفة

وفيها اي (سنة ٤٤٣) مات بركة بن المقلد بن المسيب بتكريت · واجتمع العرب وكبراء الدولة على اقامة ابن اخيه قرواش بن بدران بن المقلد صاحب نصيبين قبل ان صارت لقريش المذكور · وكان قرواش معتقلاً · فلما تولى قريش نقل عمهُ قرواش الى قلعة الجراحية من اعمال الموصل

وفيها ظهر ببغداد كوكب ذو ذوابة غلب نوره على الشمس وسار سيرًا بطيًا ثم انقضى · وفيها هادى طغريل بك الخليفة القائم · وتوفي كرشاسف بن علاء الدولة بن كاكويه بالاهواز · وكان قد استخلفهُ بها ابو منصور بن ابي كاليجار

و(في سنة ٤٤٤) قتل عبد الرشيد بن محمود صاحب غزنة رجلٌ يسمى طغريل · وكان حاجبًا لمودود بن مسعود · فاقره عبد الرشيد وقدمهُ فطمع وخرج على سيده وقتلهُ وتزوج بنت السلطان مسعود قهرًا · ثم اتفق كبار الدولة ووثبوا على ذلك الحاجب فقتلوهُ وسموا فرخزاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين سلطانًا · وكان محبوسًا في بعض القلاع وقام بتدبير اموره خرخير امير الاعمال الهندية فاستقدم وتتبع كل من كان اعان على قتل عبد الرشيد

وفيها توفي قرواش بن المقلد وهو ابو منيع معتمد الدولة من بني عقيل الذي كان صاحب الموصل في قلعة الجراحية · ودفن بتل توبة من مدينة نينوى شرقي الموصل · وقيل قتلهُ ابن اخيه قريش · وكان من ذوي العقل ولهُ شعر حسن وهو القائل

لله در النائبات فانها   صدأُ القلوب وصيقل الاحرار
ما كنت الا زبرة فطعنني   سيفًا واطلق صرفهن غراري

وفيها قبض عيسى بن خميس بن معن على اخيه ابي غشام صاحب تكريت واستولى مكانهُ

قال ابو الفدا · وفي حوادث هذه السنة زلزلت خورستان وغيرها زلازل كثيرة · وكان معظمها بارجان فانفرج من ذلك جبل كبير قريبًا من ارجان وظهر في وسطهِ درجة بالاجر والجص فتعجب الناس من ذلك « وكذلك كانت زلازل بخراسان · وكان اشدها ببيهق وخرب سور قصبة بيهق وبقي خرابًا حتى عمره نظام الملك في (سنة ٤٦٤) ثم خربهُ ارسلان ارغو · ثم عمره مجد الملك البلاساني »

وفيها تجددت الفتن ببغداد · واعادت الشيعة الاذان بحي على خير العمل وكتبوا على مساجدهم محمد وعلي خير البشر

و(في سنة ٤٤٥) استرد ابو منصور فلاستون بن ابي كاليجار بن بويه شيراز من يد اخيه ابي سعيد وخطب فيها للسلطان طغريل بك ولاخيه الملك الرحيم ولنفسه بعدهما

و(في سنة ٤٤٦) استولى طغريل بك على اذربيجان واطاعة صاحب تبريز وهشوذان وخطب له فيها وهكذا فعل اهل تلك النواحي · ثم سار الى ارمينيه وقصد ملاذكرد الروم وحصرها فلم يملكها فعبر الى الروم وغزا فيهم ونهب وقتل وعاد سالمًا غانمًا

وفيها حصلت الوحشة بين الخليفة القائم والبساسيري · وثار جماعة من السنية ببغداد واستاذنوا في نهب دور المذكور وكان غائبًا بواسط فاذن لهم خوفًا من شرهم فنهبوها واحرقوها وارسل الخليفة الى الملك الرحيم بابعاد البساسيري فقدم الملك الرحيم من واسط الى بغداد وسار البساسيري الى جهة دبيس بن مزيد لمصاهرةٍ بينهما

وفيها ارسل قواد بغداد يبذلون الطاعة والخطبة لطغريل بك وعظم الارجاف وكان طغريل قد سار الى حلوان فاجابهم طغريل الى ذلك وامر الخليفة القائم فخطب لطغريل بجوامع بغداد لثمان بقين من رمضان · ثم استاذن طغريل الدخول فتوجهت اليه الرسل وحلفوهُ للخليفة القائم وللملك الرحيم ودخل طغريل بغداد ونزل بباب الشماسية

ثم تخاصم عسكر طغريل مع بعض اهل السوق وثارت اهل تلك المحلة على الغز ونهبوهم وخرجت العامة الى وطاقات طغريل بك واقتتلوا مع العسكر وانهزم العامة. وانتهى الامر بان قبض طغريل بك على الملك الرحيم وبعض القواد فاغتاظ من ذلك الخليفة من خرق حرمته وامانهِ فافرج طغريل عن بعض القواد وابقى البعض مع الملك الرحيم في الاعتقال

وهذا الملك الرحيم اخر من استولى على العراق من ملوك بني بويه فاولهم معز الدولة احمد · ثم ابنه بختيار · ثم ابن عمه عضد الدولة · ثم فناخسرو بن ركن الدولة · ثم ابنه صمصام الدولة بن كاليجار المرزبان بن عضد الدولة · ثم اخوهُ شرف الدولة شيزرك بن عضد الدولة · ثم اخوهُ بهاء الدولة ابو نصر بن عضد الدولة · ثم ابنه سلطان الدولة ابو شجاع بن بهاء الدولة · ثم اخوهُ مشرف الدولة بن بهاء الدولة · ثم اخوهُ جلال الدولة ابو طاهر · ثم ابن اخيهِ ابو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة · ثم ابنه الملك الرحيم خسرو فيروز بن ابي كاليجار بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه وهو اخرهم (انتهى ملخصًا ابو الفدا)

و(في سنة ٤٤٨) تزوج الخليفة القائم باخت طغريل بك ابنة داود السلجوقي وبعد ذلك

نهض طغربل بعساكرهِ من بغداد بعد اقامة ثلثة عشر شهرًا وايامًا وذهب الى نصيبين ثم الى ديار بكر التي كانت لابن مروان · ثم عاد الى بغداد (سنة ٤٤٩) بعد ان استولى على الموصل واعمالها وسلمها الى اخيهِ ابرهيم وخرج للقاء طغربل بك كبراء بغداد مثل عميد الملك وزيره ببغداد ورئيس الروساء ودخل المدينة وقصد الاجتماع بالخليفة لانهُ لم يكن اجتمع بهِ بعد فجلس لهُ الخليفة وعليهِ البردة على سرير عالٍ عن الارض نحو سبع اذرع وحضرت اعيان بغداد وكبراء العسكر وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة · ودخل طغربل بك وجماعتهُ وقبلوا الارض ويد الخليفة ومثلوا بين يدي القائم · ثم جلس طغربل على كرسي وقال لهُ رئيس الروساء „ الخليفة قد ولّاك جميع ما ولّاهُ الله تع من بلادهِ ورد اليك مراعاة عبادهِ فاتقِ الله فيما ولّاك واعرف نعمته عليك „ ثم خلع عليهِ واعطاهُ العهد فقبل طغربل الارض ويد الخليفة ثانيةً وانصرف وارسل الى القائم خمسين الف دينار وخمسين مملوكًا بخيولهم وسلاحهم والبستهم

وفيها قبض المستنصر العلوي خليفة مصر على اليازوري الحسن بن عبد الله وزيره ووجد عنده مكاتبات مع بغداد

وفيها توفي ابو العلا احمد بن سليمان المعري الاعمى وعمره ست وثمانون سنة واختلف في عماهُ والصحيح انهُ عمي في صغرهِ من الجدري وهو ابن ثلث سنين وقيل ولد كذلك · وكان عالمًا شاعرًا لغويًا يميل الى مذهب الفلاسفة · دخل بغداد (سنة ٣٩٩) واقام بها سنة وسبعة اشهر واستفاد من علمائها ولم يتتلمذ ابو العلا لاحدٍ اصلاً · ثم عاد الى المعرة ولزم بيتهُ وشاع لهُ ذكر ونقلت عنهُ اقوال واشعار فيها يظهر قلة اعتقادهِ ونسب الى التمذهب بمذهب الهنود لتركهِ اكل اللحم خمسًا واربعين سنة حتى البيض واللبن وكان يحرم ايلام الحيوان

قلت وهذا لا يدل على انهُ كان يفعل ذلك عن اعتقاد ديني فان الامتناع عن اللحوم طريقة معروفة الان في اوربا فلا ياكل اهل هذه الطريقة سوى البقول وما شابهها مما لا روح فيهِ ويدعون الاعشابيين وكذلك يوجد كثير ممن يمنعون استعمال القسوة في معاملة الحيوان وقد ترتبت لذلك لجنات خاصة لاجل منعهِ فابو العلا بذهابهِ الى وجوبِ مثل ذلك كان لا ريب من باب الشفقة على الحيوان فدل على انهُ رجل سبق العصر بقرون شتى

قال ابو الفدا ولهُ مولفات كثيرة اكثرها ركيكة فهجرت وكان يظهر الكفر ويزعم ان لقولهِ باطنًا وانهُ مسلم في الباطن فمن شعره الموذن بفساد عقيدتهِ قولهُ

عجبت لكسرى واشياعه وغسل الوجوه ببول البقر

وقول النصارى الهٌ يضام ويظلم حيًا ولا ينتصر

وقول اليهود اله يحب رسيس الدماء وريح القتر
وقوم اتوا من اقاصي البلاد لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجبًا من مقالاتهم ايعمى عن الحق كل البشر

وله غير ذلك كثيرٌ ثم دخلت (سنة ٤٥٠) وفيها انتقض ابرهيم نيال على اخيهِ بعد انفصالهِ عن الموصل وسار الى همذان فتبعهُ طغريل بك فاغتنم الفرصة البساسيري المقدم ذكره وقصد بغداد ومعهُ قريش بن بدران العقيلي في مائتي فارس ووصل اليها ومعهُ اربعمائة غلام ونزل بمشرعة الزوايا وخطب البساسيري بجامع المنصور للمستظهر العلوي خليفة مصر ثم عبر الى الزاهر وخطب لهُ بجامع الرصافة وكاتب دولة مصر بذلك فلم يلتفتوا اليهِ . وجرت بينهُ وبين مخالفيهِ حروب . وقوي البساسيري ونهب الحريم ودخل الباب النوبي . ولما راى القائم ذلك ركب لابسًا السواد وعلى كتفهِ البرده وبيده سيف وعلى راسه اللواء وحولهُ زمرة من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة . وقام النهب من داره الى باب الفردوس . ونهبت دار الخلافة والحريم مدة ايام . والتزم قريش بعد معاهدتهِ اميرا لمومنين ان يجاري البساسيري وسلم القائم لابن عمهِ مهارس وسار بهِ في هودج الى (حديثة عانة) فنزل بها . ووصل خبر كل ذلك الى طغريل بك . وكان قد انتصر على اخيهِ ينال وخنقهُ بوتر هذه المرة لانهُ كان قد عفا عنهُ مرارًا ولم يمتثل

وتوفي وقتئذٍ كل من شهاب الدولة ابو الفوارس منصور بن الحسين الاسدي صاحب الجزيرة واجتمعت عشيرتهُ على ولده صدقة . ومن الملك الرحيم ابو نصر خسرو فيروز آخر ملوك بني بويه بعد ان نقل من قلعة السيروان الى قلعة الري فمات بها مسجونًا وهو ابن ابي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه وهي الدولة التي كان لها ذكر عظيم في الخلافة الاسلامية وقام منها اثنا عشر سلطانًا على العراق وامرة بغداد ومثلهُ توفي ابو الطيب الطبري الفقيه الشافعي . وكانت زلزلة عظيمة لبثت ساعة بالعراق والموصل فخربت كثيرًا وهلك فيها كثيرٌ وكل ذلك (سنة ٤٥٠)

فصل

في الربع الثالث من القرن الخامس للهجرة

ولما بلغ طغريل بك ما فعلهُ البساسيري بالقائم قدم (سنة ٤٥١) واعاد القائم من اسرهِ بحديثة عانة في غاية الاكرام والوقار فانهُ وقف بالباب النوبي واخذ بلجام بغلتهِ حتى اوصلهُ الى باب قصره وكان البساسيري قد هرب فبعث خلفهُ بعسكر فادركوهُ وقتلوهُ وجاءوا براسهِ الى بغداد فجعل على

باب قصر الخلافة والبساسيري كان مملوكًا تركيًا من مماليك بهاء الدولة بن بويه اسمهٔ ارسلان وينسب الى بسا (فسا) بفارس مدينة سيده

وكان داود بن ميكائيل بن سلجوق اخو طغريل بك مستوليًا على خراسان وقد تسالم مع ملك غزنة فرخزاد بن مسعود بن سبكتكين وكان فرخزاد ملكًا حسن السيرة وفتح حصونًا في الهند وتوفي (سنة ٤٥٠) وتوفي داود المذكور (سنة ٤٥١) وعمرهُ سبعون سنة وترك من البنين الب رسلان وياقوتي وقارون بك وسليمان فتزوج طغريل بك بام سليمان امراة اخيهِ وخلف داود في ملكهِ ابنهُ الب ارسلان المذكور

و(في سنة ٤٥٢) ملك محمود بن شبل الدولة نصر بن مرداس حلب وسار طغريل بك الى بلاد الجبل وجعل الامير برسق شحنة بغداد

وتوفي (سنة ٤٥٢) المعز بن باديس لسبع واربعين سنة من ملكه وملك بعدهُ ابنهُ تميم وبعد موتهِ طمعت اصحاب البلاد بسبب العرب وتغلبهم على افريقية ٠ وفيها توفي قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب صاحب موصل ونصيبين واقام بعده بالامر ابنه شرف الدولة ابو المكارم مسلم بن قريش

وفيها توفي نصر الدولة ابو نصر احمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر لنيف وثمانين سنة من عمره واثنين وخمسين سنة من امارتهِ وقد تقدم خبره في الدولة المروانية

و(في سنة ٤٥٤) تزوج طغريل بك بابنة القائم العباسي وكان العقد في شعبان بظاهر تبريز

و(في سنة ٤٥٥) قدم بغداد ودخل بزوجتهِ وحصل من عسكره اذية للاهالي فنزح الى بلد الجبل وتوفي يوم الجمعة ٨ شهر رمضان وعمره سبعون سنة ولم يكن لهُ ولد واستقرت السلطنة بعده لابن اخيهِ الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق

و(في سنة ٤٥٦ قبض السلطان الب ارسلان على عميد الملك ابي نصر منصور بن محمد الكندري وزير عمهِ طغريل بسبب سعي نظام الملك وزيرهِ بهِ وحبسهِ في مروروز وبعد سنة ارسل اليهِ غلامين ليقتلاه ٠ وكان عميد الملك خصيًا لان طغريل بك ارسلهُ خاطبًا لهُ امراة فتزوجها فخصاه طغريل واقام بمكة اربع سنين فلقب امام الحرمين

وفيها اخذ الب ارسلان قلعة ختلان ٠ ثم سار الى هراة فحاصر عمهُ بيغو بن ميكائيل بن سلجوق وملكها واخرج عمهُ ٠ ثم احسن اليهِ ٠ ثم تملك صغانيان بالسيف

وفيها عصى قطلومش بن ارسلان بن سلجوق على الب ارسلان فارسل اليهِ ونهاه وانهُ يرعى لهُ القرابة والرحم ٠ فلم يلتفت قطلومش الى ذلك فسار الب ارسلان الى قرب الري ٠ والتقى الجيشان

وانهزم عسكر قطلومش وهرب الى جهة قلعة كردكوه . فلما انقضى القتال وجد قطلومش مجندلاً قيل انه مات خوفًا فاحزن موته الب ارسلان وبكى عليه وجلس للعزاء فسلاه نظام الملك . ودخل الب ارسلان الري في اخر المحرم من هذه السنة . وهذا قطلومش السلجوقي هو جد ملوك قونيه واقصرا وملطيه الى ان استولى التتر على ممالكهم . وكان قطلومش مع انه رجل تركي عارفًا بعلم النجوم (ابو الفدا)

وعبر الب ارسلان (سنة ٤٥٧) جيحون وصار الى (جند) وصبران وهما عند بخارى فاطاعه صاحب جند واقره على مكانه . ورحل الى كركنج خوارزم ومنها الى مرو

وفيها ابتدا نظام الملك بعمار المدرسة النظامية ببغداد وكملت (سنة ٤٥٩) واقطع الب ارسلان (سنة ٤٥٨) شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب صاحب الموصل الانبار وتكريت زيادة على الموصل

ذكر ابو الفدا انه « حدثت (سنة ٤٦٠) زلزلة شديدة بفلسطين ومصر حتى طلع الماء من روس الآبار وهلك من الروم عالم عظيم وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم فنزل الناس الى ارضه يلتقطون فرجع الماء عليهم واهلك خلقًا عديدًا »

و(في سنة ١٠٦٨ — ٤٦١) احترق جامع دمشق بسبب فتنة بين المغاربة والمشارقة فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال نفيسًا

وتوفي (سنة ٤٦٣) طفغاج خان ملك ما وراء النهر واسمه ابو اسحق ابرهيم بن نصر ايلك خان وملك بعده ابنه شمس الملك نصر ثم توفي ولا يعلم تاريخ ذلك وخلفه اخوه حصر خان ثم ملك بعده ابنه احمد الى ان قتل (سنة ٤٨٦)

وفيها صار غلا بمصر حتى اكل الناس بعضهم بعضًا ونزح من قدر على الانتزاح واحتاج خليفة مصر المستنصر الى اخراج الآلات وبيعها فاخرج من خزينته ثمانين الف قطعة بلور كبار وخمسًا وسبعين الف قطعة من الديباج واحد عشر كزغندًا وعشرين الف سيف محلى ووصل من ذلك مع التجار الى بغداد . وسار السلطان الب ارسلان الى ديار بكر فاطاعه صاحبها ابن مروان ثم سار الى حلب فاتاه ابن مرداس خاضعًا ودخل هو ووالدته على السلطان المذكور ليلاً فاحسن اليهما واقر محمود بن مرداس على مكانه

وفيها ركب ملك الروم ارمانوس (رومانوس) الملقب بديوجانيوس على جموع عظيمة من انواع الروم والروس والجركس وغيرهم ونهض الى ملاذكرد لطرد الغز الذين كانوا مالئين البلاد وذلك ان الب ارسلان لما نظر ان كل شيء كان خاضعًا له في المملكة دون مقاوم كره الحياة

الرافهة واراد ان يجد لقومهِ بلادًا جديدة · فقطع الفرات (سنة ١٠٦٣ — ٤٥٥) بخلق عديد ملأوا تلك المهاد الواسعة من بحر الخزر الى البحر الاسود الى الطورس ودوخ بلاد الارمن والكرج والقوقاز فاخلاها الروم وارتجعوا الى اوربا . قالوا ولما رات المملكة يودوصية انحطاط الجنس الاغريقي وموت بسالتهم وشهامتهم الحربية تزوجت الى عسكري غريب ذي جراءة اسمهُ رومانوس ديوجانيوس طمعًا بصيانة المملكة من تعديات جيرانها فنهض رومانوس لطرد اولئك الاتراك السلجوقية واسترجع منهم فريجيا وقبادوقيه وبلاد الارمن فبلغ الب ارسلان وكان في مدينة خونج من اذربيجان فرد على قومهِ (سنة ١٠٧٠ — ٤٦٣) لملتقى رومانوس وهو بملاذكرد في مائة الف في خمسة عشر الفًا من احسن فرسانهِ اذ لم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو وجد في السير · لما قرب العسكران ارسل السلطان الب ارسلان الى رومانوس يطلب منهُ المهادنة فابى المهادنة الا بالري فانزعج الب ارسلان · ولما كان نهار الجمعة صلى وبكى فبكى الناس لبكاه . وقال لهم من اراد الانصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يامر وينهي · والقى القوس والنشاب واخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسهِ بيده وفعل عسكرهُ مثلهُ ولبس البياض وتحنط وقال ان قتلت فهذا كفني وزحف الى الروم وزحفوا اليهِ واشتد القتال فانهزم الروم وقتل منهم خلق وسقط رومانوس جريحًا بجانب فرسهِ العاثر المجروح تحتهُ واسرهُ بعض المماليك اسمهُ شادي · وكان قد حضر عندهُ مع رسول فعرفهُ فلما راهُ نزل وسجد لهُ وقصد بهِ السلطان فضربهُ ثلاث مقارع بيدهِ ولامهُ على عدم قبول المهادنة فقال دعني من التوبيخ وافعل ما تريد · فقال الب ارسلان ما كان مرادك تفعل بي لو دفعت في يديك · فقال القبيح . قال لهُ فما تظن انني افعل بك قال اما ان تقتلني واما ان تشهرني في بلادك والاخرى بعيدة وهي العفو وقبول الاموال واصطناعي نائبًا عنك · قال ما عزمت على غير هذا · ففداه بالف الف دينار وان يطلق كل اسير عندهُ من المسلمين · ثم اجلسهُ معهُ على سريره وانزلهُ في خيمةٍ وارسل اليهِ عشرة الاف دينار فتجهز بها واطلق جماعة من البطارقة وخلع عليهِ وعليهم وسير معهُ عسكرًا ليوصلوهُ وشيعهُ فرسخًا بنفسهِ · واما الروم فلما بلغهم خبر الموقعة وثب ميخائيل على المملكه وملك البلاد. ولما وصل رومانوس الملك الى قلعة دوقيه بلغهُ الخبر فلبس الصوف واظهر الزهد وارسل الى ميخائيل يخبرهُ ما تقرر مع السلطان · وجمع رومانوس ما عندهُ من المال وكان مائتي الف دينار فارسلها الى السلطان وحلف لهُ انهُ لا يقدر على غير ذلك · فحزن ملكشاه على رومانوس وكان من نيتهِ الذهاب لتخليصهِ وردهِ الى الملك لولا ان الموت قد رفعهُ عن هذه الدنيا · وقنع الب ارسلان بملك الاناطول وانطاكية وبلاد الارمن وكولسيده وسواحل البحر الاسود الاسيوية وامتدت مضارب قومهِ في كل اسيا الغربية · وكان في دائرة ممالكهِ الف ومائتا امير ومائتا الف فارس

من بغداد الى ترابزون الروم يلبون صوته

وتوفي (سنة ٤٦٣) ابو الوليد احمد بن عبدالله بن احمد بن غالب بن زيدون الاندلسي القرطبي · وكان من ابناء الفقها بقرطبة ثم خدم المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية وصار وزيرًا له · ولابن زيدون المذكور اشعار رائقة منها

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع ... سرٌّ اذا ذاعت الاسرار لم يذعِ

يابائعًا حظه مني ولو بذلت ... لي الحياة بحظي منهُ لم ابعِ

يكفيك انك لو حملت قلبي ما ... لم تستطعهُ قلوب الناس يستطع

ته احتمل واستطل اصبر وعزاهن ... وول اقبل وقل اسمع ومر اطع

ومن قصائدهِ المشهورة قصيدتهُ النونية التي منها

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الاسى لولا تاسينا

ولهُ مولفات عديدة ورسائل جليلة منها رسالتهُ لابن عبدوس عن لسان ولادة الشهيرة

وجمع (سنة ٤٦٥) الب ارسلان عساكرهُ وذهب الى ما وراء النهر · وعقد جسرًا على نهر جيحون وعبر في نيف وعشرين يومًا ما يزيد على مائتي الف فارس ولما عبر السلطان الب ارسلان النهر امر فمد سماط في بليدة هناك يقال لها فربر · وكان بتلك البلدة حصن على النهر فامر باحضار مستحفظ ذلك الحصن وقد كان ارتكب جريمة واسم المستحفظ يوسف فاحضر وامر الب ارسلان بان يشد الى اربعة اوتاد ويترك ليموت صبرًا فقال له يوسف يامخنث امثلي يقتل هذه القتلة فغضب الب ارسلان واخذ القوس ورماه بسهمٍ فاخطأَهُ فوثب يوسف عليهِ بسكين كانت معهُ فنهض السلطان عن السدة فوقع على وجههِ فضربهُ يوسف بالسكين ثمَّ جرح رجلاً اخر كان عند راس السلطان يقال له سعد الدولة ثم ضربهُ احد الفراشين دبوسًا على راسهِ فقتلهُ وقطعوهُ · وقال السلطان وهو مجروح بعدلِ جوزيت فاني اذكر عدد ما كنت صغيرًا كان مهذبي يقول لي انصح امام الله ولا تثق بقوتك ولا تستخف عدوًا وقد اهملت كل ذلك ولما كان امس صعدت على تل فارتجت الارض من عظم الجيش وقلت في نفسي انا ملك الدنيا وما يقدر احد عليَّ فعجزني الله تع باضعف خلقهِ · واني استغفرهُ واستقيله عن ذلك الخاطر

وتوفي بعد اربعة وعشرين يومًا في عشرٍ خلت من ربيع الاخر وعمره اربعون سنة وشهور وايام وكانت ايام ملكهِ مذ خطب له نيفًا وتسع سنين ونصفًا واوصى بالسلطنة لابنهِ ملكشاه وكان في صحبتهِ وحلف له جميع العسكر وكان المستولي على الامر نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان وحمل الب ارسلان ودفن في قبة السلاطين السلجوقية وجعلوا على رمسهِ منقوشًا ما معناه « على الذي راى

البارسلان يسمو مجدًا الى الكواكب ان يرى الان قبره . وقد جعلت ذلك شعرًا

يامن راى ألبارسلان على فلكٍ   سامٍ من المجد قد صيغت كواكبه

تعال وانظر فلم يبقَ سوى حجرٍ   هذا التراب فقد تلت مواكبه

وعاد ملكشاه بالعسكر من وراء النهر الى خراسان وارسل الى بغداد والاطراف فخطب له فيها على قاعدة ابيهِ وذلك (سنة ١٠٧٣—٤٦٦) واستمر نظام الملك على نفوذ امره وكان قاروت بك اخو السلطان البارسلان اميرًا على كرمان فلما بلغتهُ وفاة اخيهِ سار الى الري في طلب الملك. وكان الامر قد انتقل لملكشاه وانحاز اليهِ نظام الملك ومسلم بن قريش ومنصور بن دبيس وامراء الاكراد ونحوهم فالتقوا على نهرمان وانهزم قاروت بك واحضر الى امام سعد الدولة كوهراس فقتلهُ خنقًا. واقر ملكشاه كرمان على بني قاروت وبعث اليهم بالخلع واقطع العرب والاكراد مجازاة لما ابلوا في الحرب. واذ راى ازدياد تلك العساكر الظافرة تمردًا بالاظفار واذيةً للبلاد والعباد فوض الامر الى نظام الملك في كبح جموحهم فزاده من الاقطاعات على ما كان بيده من جملتها مدينة طوس واعطاه القابًا من جملتها اتابك والاصل اطابك اي الوالد الامين فاحسن نظام الملك نظام المملكة والسياسة واستقر الامر والسلطان لملكشاه بعد ابيهِ وخضعت لهُ العمال والاطراف

وبينا كانت الامور في المشرق كذلك ظهر في مصر ضعف في الدولة العلوية واستولت والدة المستنصر على احكام البلاد وانقسم العبيد والاتراك حزبين وجرت بينهم حروب. وكان ناصر الدولة من احفاد ناصر الدولة بن حمدان من اكبر قواد مصر قد اجتمعت اليهِ الاتراك وحصروا مصرًا وقطعوا الميرة عنها برًا وبحرًا فغلت الاسعار وفني ما كان بخزائن المستنصر فالتزم الى بيع ما كان عندهُ من الذخائر كما تقدم . ثم استولى ناصر الدولة على مصر وتفرقت العبيد وقبض ناصر الدولة على والدة المستنصر وصادرها بخمسين الف دينار وتفرق عن المستنصر اهلهُ واولاده وانقضت (سنة ٤٦٤) وما قبلها بالفتن وبالغ ناصر الدولة في تحقير الخليفة العلوي وسلبهُ كل شي حتى لم يعد لهُ ما يقعد عليهِ سوى حصيرة . وكان غرض ناصر الدولة ان يخاطب للخليفة العباسي . ثم وقعت المغائرة والحسد ضد ناصر الدولة واتفق قائد كبير من الاتراك اسمهُ الدكز مع جماعة على قتلهِ وقصدوه الى داره فخرج ناصر الدولة اليهم مطمئنًا فهبروه بسيوفهم واخذوا راسهُ وقتلوا اخاه فخر العرب وتتبعوا جميع من بمصر من بني حمدان فقتلوهم عن اخرهم (سنة ٤٦٥) وبقي امر الاختلال بمصر الى (سنة ٤٦٧) لما تولى الامر بدر الجمالي وقتل الدكز والوزير ابن كدينة واستهامت الامور. وكان الجمالي متوليًا على سواحل الشام فدعاه المستنصر وشكا اليهِ اموره فركب البحر في قرة الشتاء ومن الله عليهِ ووصل الى مصر وقبض على اولئك العصاة من امراء وقواد واخذ اموالهم واعاد منار الدولة وشيد

ما كان قد درس من معالم الخلافة . ثم سار الى اسكندرية ودمياط واصلح الاختلال وعاد الى القاهرة ثم الى الصعيد وقهر اهل الفساد وقرر قواعد الاحكام واحسن الى الرعية وعادت مصر الى احسن ما كانت . هذه هي احوال الدول والممالك لا يبتدي نموها الا مقرونًا بذبولها وبالعكس وما احسن ما قال الشاعر

اذا ساعدتك الحال فارقب زوالها ، فما هي الا مثل حلبة اشطر

وان قصدتك الحادثات ببوسها فوسع لها ذرع التجلد واصبر

و(في سنة ٤٦٦) طاف دجلة وغرق الجانب الشرقي وبعض الغربي ومات خلق وتعطلت اشياء كثيرة وغرق في الجانب الغربي مقبرة احمد ومشهد باب التبن ونحو ذلك

وتوفي القائم بامر الله العباس (سنة ٤٦٧) وهو ابو جعفر عبد الله بن القادر احمد بن الامير اسحق بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد احمد وكان موتهُ بانفجار فصادهِ ليلاً فخرج منهُ دم كثير وهو نائم لا يشعر ولم يكن عنده احد فاستيقظ وقد سقطت قواه فدعي الوزير ابن جهير والقضاة واشهدهم انهُ جعل ابن ابنهِ عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم ولي عهده وتوفي وعمره ست وسبعون سنة وكسر لاربع واربعين سنة وثمانية اشهر وايام من خلافتهِ وقيل عمره ست وتسعون

خلافة المقتدي بامر الله سابع عشرينهم من (سنة ١٠٧٤–٤٦٧ الى سنة ١٠٩٤–٤٨٧)

لم يكن للقائم ولد ذكر سوى محمد وكان يلقب ذخيرة الدين وهذا توفي في حياة ابيهِ القائم . وكان لمحمد المذكور جارية اسمها ارجوان حاملاً منهُ فذكرت ذلك للقائم ففرح . ثم وضعت بعد ستة اشهر ولدًا دعوهُ عبد الله . فلما بلغ الحلم جعلهُ القائم ولي عهده

وحضر عند موت القائم مويد الملك ابن نظام الملك وابن جهير والشيخ ابو اسحق الشيرازي وابن الصباغ ونقيب النقباء وطراد الزينبي والقاضي ابو عبد الله الدامغاني وكثير من الاعيان فبايعوا عبد الله بالخلافة ولقب المقتدي بامر الله (سنة ٤٦٧)

وفيها جمع ملكشاه ونظام الملك وزيره جماعة من المنجمين وجعلوا النيروز عند نزول الشمس اول الحمل . وكان اولاً عند نزولها نصف الحوت . وعمل ملكشاه الرصد واجتمع لذلك جماعة من الفضلا منهم عمر الخيام وابو المظفر الاسفزائيني وميمون بن النجيب الواسطي وانفق لذلك اموالاً جزيلة

و(في سنة ٤٦٨) ملك اتسز بن ابق الخوارزمي احد الامراء في عسكر السلطان ملك شاه دمشق . وكان قبل ذلك اخذ الرملة (سنة ٤٦١) وحاصر دمشق بدون فائدة . ثم راجعها هذه السنة وتسلمها وقطع الخطبة العلوية واقام الخطبة العباسية ومنع الاذان « بحي على خير العمل » . ثم

ذهب انسز الى مصر (سنة ٤٦٩) وعاد منها مهزومًا قيل بقتال وقيل بغير قتال الى الشام

ثم اقطع السلطان ملك شاه اخاه تاج الدولة تنش ابن السلطان الب ارسلان السلجوقي الشام وما يفتحه · فسار تاج الدولة الى حلب (سنة ٤٧١) وكان بدر الجمالي قد ارسل عسكرًا من مصر لقتال انسز الخوارزمي المذكور بدمشق فاستنجد انسز بتاج الدولة وهو يحاصر حلب · فقام تاج الدولة تنش الى دمشق ولما وصل لقية انسز بالقرب فانكر تنش عليهِ تاخره عن القدوم اليهِ وقبض عليهِ وقتلهُ وملك دمشق واحسن السيرة

و(في سنة ٤٧٢) غزا الملك ابرهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد الهند ففتح وغنم وسبى وعاد الى غزنة سالمًا

وفيها حاصر شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي صاحب الموصل حلب واستلم البلد (سنة ٤٧٢)وحصر القلعة واستنزل منها سابقًا ووثابًا ابني محمود المدراسي وتسلمها

وفيها توفي نصر بن احمد بن مروان صاحب ديار بكر وملك بعدهُ ابنهُ منصور ودبر امره ابن الانباري

و(في سنة ٤٧٤) توفي نور الدولة دبيس الاسدي وعمره ثمانون سنة لسبع وخمسين من امارتهِ وكان ذا فضل واحسان وولى بعده ابنهُ منصور بهاء الدولة فاحسن السيرة وصار الى السلطان ملكشاه فاقره وخلع الخليفة عليهِ ايضًا ثم مات (سنة ٤٧٩) وولى الحلة والنيل وجميع ما كان لهُ ابنهُ سيف الدولة صدقة الاسدي

و(في سنة ٤٧٥) ارسل المقتدى العباسي الشيخ ابا اسحق الشيرازي الى السلطان ملكشاه بخراسان يشكو من عميد العراق ابي الفتح بن ابي الليث فاكرم السلطان ملكشاه ابا اسحق وعاد بالاجابة ورفعت يد العميد عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة

فصل

في الربع الرابع من القرن الخامس للهجرة

وفي جمادى الاخره (سنة ٤٧٦) توفي ابو اسحق ابرهيم بن علي الشيرازي الفيروزبادي وفيروزباد بلدة بفارس ومولده سنة ٣٩٣ وقيل ٣٩٦ وكان وحيد عصره علمًا وزهدًا دخل شيراز وقرأ بها الفقه ثم البصرة ثم بغداد (سنة ٤١٥)وكان امام وقتهِ في المذهب والخلاف والاصول وصنف المهذب والتنبيه والتخليص والنكت والتبصير واللمع ورؤوس المسائل وكان فصيحًا ويحسن الشعر مستجاب الدعوة مطرح التكلف

وصار فخر الدولة بن جهير (سنة ٤٧٧) بعساكر السلطان ملكشاه الى قتال شرف الدولة

مسلم بن قريش العقيلي والحقة السلطان المذكور بجيش ثان فيهم الامير ارتق بن اكسك وقيل اكسب والاول اصح جد الدولة الارتقية التي تملكت اولاً بيت المقدس والذي في مدتهِ تحركت اول مرة ركاب اهل اوربا شاهرين الحرب على المسلمين لاجل الاراضي المقدسة فانهزم شرف الدولة وانحصر في آمد فاذن له ارتق وخرج من آمد حادي عشر ربيع الاول وسار الى الرقه وبعث بما تعهد به لارتق

ثم ارسل السلطان ملكشاه عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير بعسكرٍ كثيف وارسل معهُ اقسنقر قسيم الدولة الى الموصل فاستولى عليها . وهذا اقسنقر هو والد عماد الدولة زنكي جد الدولة الاتابكية في الموصل وما اليها ثم ارسل اقسنقر مويد الدولة بن نظام الملك الى شرف الدولة مسلم بن قريش بالعهود يستدعيهِ الى السلطان فقدم شرف الدولة اليهِ وذهب بهِ الى السلطان ملكشاه بالبوازيج وكان مسلم قد فقد كل مالهِ فاقترض ما خدم بهِ السلطان وقدم اليهِ خيلاً من جملتها فرسهُ الذي نجا عليهِ في المعركة وكان اسمهُ بشارًا من السوابق وقد جربهُ السلطان ملكشاه فكان سابقًا وتعجب منهُ السلطان جدًّا . ورضي من مسلم وانعم عليهِ واقرهُ على بلاده

نبذة في الدولة السلجوقية وفروعها

بينما كانت ذرية البارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق تمتد وتوطد في العجم والعراق العربي والشام كان الفرعان الاخران يمتدان ويتملكان الواحد في كرمان والثاني اسيا الصغرى

فالفرع الكرماني ابتدا في كرمان وامتد الى الخزر ومكران وقسم من سجستان وزابلستان حتى الهند واولهم كان قاروت بن داود بن سلجوق بن دقاق وكان قاروت قد تولى على كرمان بامر عمهِ طغربل بك (سنة ١٠٤١–٤٣٣)

اما فرع اسيا الصغرى المعروف بسلاجقة الروم سلاطين قونية واقصرا فاصلهُ من قطلومش بن ارسلان بن سلجوق وهو الذي كان عمهُ طغربل بك قد ارسلهُ الى الروم واذ لم يفلح عصي على عمهِ وبعد اختلافات طويلة وموت طغربل عمل البارسلان معهُ عهدة لذريتهِ على ان كلما فتحوهُ من الروم يكون لهم ووعدهم بالمساعدة . فالفرع الايراني يبتدي من الب ارسلان المقدم ذكرهُ ثم ملكشاه

وكان ملك شاه يلقب بمعز الدين ابي الفتح وتخلف اباه (سنة ١٠٧٣–٤٦٦) . ثم ارسل انسز (سنة ١٠٧٥–٤٦٨) على سورية فاخذ دمشق واكثر البلاد وقطع الخطبة العلوية وجعل الخطبة العباسية باسم المقتدي بامر الله . وركب انسز على مصر فلم ينجح واخذ ملكشاه ما وراء النهر اي نهر جيحون (سنة ١٠٧٨) . ثم استعد لغزو مملكة ابرهيم التاسع من سلاطين غزنه ولكنهُ عدل واتفق مع ابرهيم وزوج بنتهُ لابن ابرهيم . وفي (سنة ١٠٩٠) كانت شيعة الباطنية وهم الاساسيون من

الاسماعيلية المعروفون بالحسانية والقرامطة اخذوا بالتقدم فارسل ملك شاه لهم سفارة يطلب خضوعهم ويتهددهم فاجاب رئيسهم السفير قائلاً اذهب واخبر سيدك . عسكري ليس كعسكره فليتركنا لاننا لم نفعل شيئاً يسوءه ثم امر ثلاثة منهم بان يقتل كل واحد نفسه بنوع ففعلوا فتعجب السفير من طاعتهم ورجع بالخبر فتوقف ملكشاه عن ضربهم وبعده وزيره نظام الملك مات غدرًا بيد تباع الشيعة المذكورة . وداوم السلاجقة على الامتداد في اسيا الغربية في حكم ملك شاه وخلفائه يضايقون الروم في مملكتهم حتى القسطنطينية . ثم توفي ملك شاه في بغداد (سنة ١٠٩٢—٤٨٥) وهو كان افضل ملوك السلاجقة ولم يقم فيهم مثله لا قبل ولا بعد

وبعد ان توفي مالك شاه وقد كان اوصى الى ابنه الاصغر محمود بالملك وكان عمره وقتئذٍ ست سنوات وقيل اربع سنوات تحت وصاية امهِ تركان خاتون نهض ولده الاكبر برقيارق واراد استلام الملك فذهبت تركان الملكة واقامت في اصفهان فذهب برقيارق الى هناك وحاصرها . وهي خوفًا من نهوض الاهالي عليها قبلت بقسمة الملك بينها بالوكالة عن ولدها محمود وبين ابن زوجها برقيارق المذكور واخذت لها اصفهان ومتعلقاتها واخذ برقيارق ما تبقى . ثم توفى الله محمودًا بعد قليل فاستولى برقيارق على حصتهِ . ثم نهض لمقاومتهِ عمهُ تاج الدولة تتش حاكم سوريه فتقوى عليهِ برقيارق وقتلهُ (سنة ١٠٩٥ —٤٨٨) . ثم تبع هذه الثورة غيرها بعد ثلاث سنوات فان محمدًا اخا برقيارق الاصغر على راس بعض من عساكر اخيهِ العاصية استولى علي العراق دون قتال وبقي بين الاخوين النزاع والقتال الى (سنة ١١٠٤—٤٩٨) . ثم تصالحا وتعاهدا وترك لمحمد ولاية سوريا وبين النهرين والموصل واذربيجان والارمن والكرج والباقي لبرقيارق وهذا مات بعد ذلك واوصى لولده ملك شاه بالملك . وفي عهده دخل الصليبيون سوريه

اما محمد فلم يكن قابلاً بعد وفاة اخيهِ بولاية ولده ملك شاه وهو صغير السن فركب يوم مات اخوهِ وذهب الى بغداد ولبس هناك على البلاد كلها ثم ركب على الهند وفتح بعضها واستولى على صنم كبير فاتى بهِ الي اصفهان ورفض قبول ثمنٍ عظيم فداءه عن الصنم وامر بان يضعوه عتبة في مدرسة اصفهان لكي يدوسهُ الناس ومات (سنة ١١١٧—٥١١) واوصى لولده محمود ابي القاسم بالملك وكان لمحمد المذكور اخ يسمى سنجر يحكم على خراسان من عشرين سنة وهذا استغنم الفرصة لاخذ الخلافة لنفسهِ وترك لمحمود ولد اخيهِ ولاية العراق لا غير

و(في سنة ١١٢٧—٥٢١) مات قطب الدين شاه صاحب خوارزم وهو كان اولاً سقاء الخليفة وكانت وظيفة السقاء في عهد العباسيين مخصصًا لها دخل خوارزم ثم نمت الى مملكة . وكلٌ من قطب الدين وولده عزيز باشرا تلك الوظيفة وحفظا اراضيها . ولما قام عزيز على الامارة اخذ

بمضايقة الامير سنجر ومنازعته وكان اول من ساعد على ملاشاة دولة ايران السلجوقية . وبعد ان ظفر سنجر (سنة ١١٥٣-٥٤٨) بموقعة عظيمة على سلطان الغور ركب على التركمان لعدم دفعهم الخراج فحاربوهُ واخذوه اسيرًا وحفظوه اربع سنين الى ان خلص بحيلة ولكنه مات في السنة التي بعدها حزنًا قيل من التخريبات التي عملها التركمان في غيابه . وكانت وفاته (سنة ١١٥٧ - ٥٥٣) بعد ان ملك اربعين سنة . ثم خلفه محمود ابن اخيه وملك خمس سنوات في خراسان ثم نهضوا ضده وبمساعدة سلطان خوارزم المذكور كسروهُ وسملوا عينيه . والمورخون الشرقيون يسمون ما بين سنجر ومحمود ثلاثة سلاطين سلجوقية وهم محمود ابو القاسم المقدم ذكرهُ سلطان العراق وخليفته طغريل شاه ومسعود شاه . وملك هولاء السلاطين الثلاثة الذين مات احدهم قبل نهاية ملك سنجر اشتهروا بخصامهم مع خلفاء بغداد وبتجديد دولة الاتابك في العراق . وبعد موت مسعود (سنة ١١٥٢ -٥٤٧) ضعف جدًّا حكم السلاجقة في العراق . ومن خلفاء مسعود ملكشاه الثاني من ولد ملكشاه الاول . ومحمد الثاني اخو ملكشاه . وسليمان شاه بن محمد الاول . ومالك ارسلان ابن اخيه . كل هولاء السلاطين اخبارهم قليلة ولم يشتهروا الَّا بالاختلافات فيما بينهم واخرهم مات (سنة ١١٧٥ - ٥٧١) وخلفه طغريل الثاني اخر ملوك هذه الدولة وملك ثمان عشرة سنة مذلولًا مكروهًا واخيرًا قتلوهُ (سنة ١١٩٣ - ٥٨٩) - هذا اخر ما جاء عن دولة ايران السلجوقية

والفرع الكرماني . فبعد قاروت الذي قتله ملكشاه الاول قام سلطانشاه وسمح له ملك شاه بالملك وقتل (سنة ١٠٨٤ - ٤٧٧) وبقية امراء هذا الفرع هم تورانشاه ومات (سنة ١٠٩٩ - ٤٩٣) . ثم ابنه ايرانشاه وقتله رعاياه لظلمه (سنة ١١٠٠ - ٤٩٤) . ثم ارسلان شاه ابن اخيه وملك ثنتين واربعين سنة . ثم محمد شاه ولده ومات (سنة ١١٥٦ - ٥٥١) . ثم ابنه طغريل شاه ومات (سنة ١١٦٧ - ٥٦٣) تاركًا ثلاثة ابناء ارسلان وبهرام وتوران . وكل من هولاء كان ظالمًا وتولى دوره بالجور الى ان انتزع الملك محمدشاه واغتصبه من هذا اخيرًا مالك دينار الذي فتح كرمان (سنة ١١٨٧ - ٥٨٣) وفيه انتهت سلاجقة كرمان .

واما الفرع الرومي فمن بعد مقتل قطلومش كما تقدم خلفه ابنه سليمان شاه احد ابنائه الخمسة وهو اول سلطان سلجوقي في اسيا الصغرى (سنة ١٠٦٤) وقد اختلف مورخو الروم والمسلمين عن اصل قوة سليمان شاه المذكور فان الروم يقولون انه اخذ كل ذلك هبة خاصة من السلطان الب ارسلان لامن قطلومش ابيه . وسليمان هذا فتح نيقية وانطاكية (سنة ١٠٨٥ - ٤٧٧) وكان يصرف اكثر زمانه في الانتصار لادعيا مملكة الروم الواحد ضد الثاني مستغنمًا الفرصة لتكبير ملكه باختلافاتهم . وبعده بتسع سنين خلفه قلج ارسلان وتنالوا ان هذا اصلح نيقية وجعل فيها مقامهُ وكان

لهُ مع الاغريق والنورمان الصليبيين حروب . ومات غرقًا في موقعة ضدّ قائد السلطان محمد شاه حاكم العراق الذي بعد ان اخذ الموصل حسب دعوة الاهالي له حاربهُ وكان ما كان من امره . وذكر الاغريق ايضًا سلطانًا اخر بعده يسمى ساسان لم يذكره مورخو الاسلام وهذا بعد ان كابد كسرات كثيرة في حرب الاغريق وبعد ان عاهدهم واصطلح معهم قبضوا عليهِ اخيرًا وسملوا عينيه وقتلوه ثم خلفهُ اخوه مسعود (سنة ١١٥٢ - ٥٤٧) ثم ولده قلج ارسلان الثاني وهذا كان اميرًا امامًا بصيرًا وهو بعد ان نزع من اخويه قسمهما من الملك استغنم فرصة المحابة مع الامبراطور مانويل وجمع مالاً بقصد تجهيز عساكر لاجل مساعدتهِ ثم وقع بينهما النزاع بسبب ان الامبراطور اقام قلعتين لم يوافقا مرغوبهُ فحارب الامبراطور وكسره في موقعةٍ عظيمة والتزم مانويل بمصالحتهِ على ان يهدمها ولما لم يكمل الشروط حاربهُ ايضًا ومات مانويل وانتهى الامر في توسيع مملكة قلج ارسلان . ثم قسم المملكة بين اولاده في شيخوختهِ ولكنهم عاملوه بخشونة حتى ان قطب الدين الذي خصهُ ملك قونية عاصمة الملك حبسهُ فاحتال وهرب والتجى الى ولده كيخسرو فاعاده الى ملكهِ ولذلك جعل كيخسرو على قونية سلطانًا فخلفهُ بعد موتهِ (سنة ١١٩٢-٥٨٨) وهذا الملقب بغياث الدين حارب الامبراطور الكسس في اول الامر وانتصر عليهِ في مواقع كثيرة ولكن اخاه ركن الدين نزع منهُ الملك (سنة ١١٩٨-٥٩٥) وكذلك لما مات اخوه قطب الدين اغتصب ملكه وملك بقية اخوتهِ وضم الجميع الى مملكة واحدة . ثم توفي (سنة ١٢٠٣-٦٠٠) وترك الملك لابنهِ قلج ارسلان الثالث وهذا اذ كان صغيرًا نهض عليهِ عمه كيخسرو المذكور ونزع الملك من يدهِ وملك هو بقوةٍ وعظمة لم يسبقهُ الى مثلها احدٌ من عائلتهِ وتداخل بمجادلات اهل الدعوة على مملكة الاغريق ومات بسببها بمقتلة مع لاسكرس احد الادعياء وترك ابنين وهما عزالدين كيكاوس وهذا مات (سنة ١٢١٩-٦١٦) والثاني علاء الدين كيقباذ وهو علاء الدين الشهير في حروب الصليبيين

وكان علا الدين اعظم سلاطين هذه الدولة ومدّ ملكهُ الى الشرق وحكم بحكمة وثبات تامين وهو الذي في عهدهِ جاء ارطغريل بك موسس الدولة العثمانية ومات (سنة ١٢٣٦) وخلفهُ ولده غياث الدين كيخسرو الثاني وكان رجلاً شهوانيًا متقلبًا وفي مدتهِ صارت المملكة تابعة المغول ومات (سنة ١٢٤٤ -٦٤٢) وخلفهُ عزالدين فطلب اقطاي خان امير المغل حضوره اليهِ واداء واجبات خضوعهِ فارسل اخاه ركن الدين وكان المغل عادة بارسال نائب من قبلهم يقيم مع سلطان السلاجقة فاتى النائب وكان امره ان يخلع عزالدين ويقيم ركن الدين سلطانًا و بعد الرجا والرشوة وما اشبه ذلك صارت قسمة المملكة بينهما فوقع لعزالدين حكم المعاملات الغربية ولركن الدين الشرقية ثمَّ اراد عزالدين اغتيال اخيهِ فخلعوهُ وفرَّ هاربًا الى امبراطور القسطنطينية (سنة ١٢٦١ - ٦٦٠) وهذا

اخذ يعلله بالمواعيد ولما علم ان في نية الامبراطور من اسره ورده على اخيه فرَّ هاربًا واختفى اسمه من التاريخ . وبقية سلاطين قونيه هم كيخسرو الثالث ابن ركن الدين المذكور وقتل (سنة ١٢٨٢-٦٨٣) ثمَّ غياث الدين مسعود الثاني ابن عز الدين كيكاوس ومات (سنة ١٢٨٨-٦٨٧) . ثمَّ كيقباذ ابن اخي مسعود وهذا قتل (سنة ١٣٠٠) وبعد ذلك لم يعد لسلاطين هذه الدولة اهمية لانهُ من زمان غياث الدين كيخسرو عاد السلاجقة خدامًا للمغول فكانوا يسمونهم ويخلعونهم ويقتلونهم على هواهم ثمَّ قام علاء الدين فرامذر الثاني وهذا بالحقيقة كان اخر سلاطين هذه الدولة وقتله المغل (سنة ١٣٠٧ - ٧٠٧) وانقسمت المملكة فعاد . قاسي بك حاكم ميذيا . وصاري خان . وعايدين بك اقتسما ليدية . ومنتش بك كارية . ونقي بك نيقية وبمفيلية . وحامد بك بسيدية وايسورية . وقرمان بك اعظمهم قونيه عاصمة المملكة . وكرمان خان اسس امارة في شمال فريجية . وغازي شلبي المتنازل بالحق عن الدولة السلجوقية عاش عيشة قرصان في سينوب وهرقلية في البحر الاسود . وعلى رميم هذه المملكة نهضت المملكة العثمانية وكان السلاجقة مع الاغريق احيانًا اعداء واحيانًا اصحابًا وكم من مرة ضاف اولاد يودوصية امراء سلجوق في سكودار امام قصرهم في اوربا وكانت حدود الاغريق والبرابرة تلتقي في نيقومديه وكان القياصرة يتحدون اوقاتًا مع اولئك السلاطين ضد عساكر الصليب الواردين من المغرب على طريق القسطنطينية

و(في سنة ٤٧٧) فتح سليمان بن قطلومش السلجوقي مدينة انطاكية من الروم بمواطئة حاكمها وكانت بيدهم من (سنة ٣٥٨)

وقد قدمنا في النبذ التمهيدية في الجزء الاول من هذا التاريخ ما مفاده انهُ لما اخذ سليمان المذكور انطاكية طلب منهُ مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب ما كان يحملهُ اهلها اليهِ فانكر سليمان طلبهُ بقولهِ ان ما كان يحملهُ اليهِ صاحب انطاكية كان على سبيل الجزية من كونهِ نصرانيًا ولم يعطهِ شيئًا فجمعا واقتتلا في ٢٤ صفر (سنة ٤٧٨) في طرف اعمال انطاكية فانهزم عسكر مسلم بن قريش وقتل هو في المعركة وقتل بين يديهِ اربع مئة غلام من احداث حلب

وكان شرف الدولة مسلم بن قريش احول واتسع ملكه وزاد على ملك من تقدم من قومهِ فانهُ ملك السندية التي على نهر عيسى الى منبج وديار ربيعة ومصر من الجزيرة وحلب وما كان لابيهِ وعمهِ قرواش من الموصل وغيرهم وكان مسلم يسوس مملكتهُ حسنًا بالعدل ولما قتل مسلم قصد بنو عقيل ابرهيم بن قريش اخاه وهو محبوس من مدة سنوات فاخرجوهُ وملكوهُ

وفيها ولد لملكشاه ابنٌ بسنجار فدعاهُ احمد فغلب عليهِ اسم مكان مولده ويعرف بالسلطان

سنجر وسياتي

و(في سنة ٤٧٨) استرد الفرنج مدينة طليطلة من الاندلس بعد ان حاصرها ادفونش(الفونس) سبع سنين وكان ذلك بعد تفرق مملكة الاندلس

وفيها اخذ فخر الدولة بن جهير آمد وميافارقين وجزيرة بن عمر وهي بلاد بني مروان وانقرضت حينئذٍ دولتهم

وفيها سار بدر الجمالي امير جيش مصر بعسكر وحاصر دمشق وبها تاج الدولة تنش السلجوقي وعاد عنها خائبًا

ولما قتل مسلم بن قريش امر سليمان بن قطلومش بان تلف جثته وتحمل على بغلة الى مقدم حلب ابن الحبيبي العباسي ويطلب منه تسليم حلب اليهِ وبان يخاطب بذلك ملكشاه السلجوقي فابن الحبيبي استدعا تنش بن الب ارسلان صاحب دمشق وكان ارتق بن اكسك في خدمة تنش لانهُ كان قد فارق ملكشاه لاطلاقهِ مسلم بن قريش وبينهما ثار كما تقدم فحضر تنش وتنازل مع ابن عمهِ سليمان فانهزم عسكر سليمان وقتل سليمان نفسهُ بسكين وقيل بل قتل في المعركة٠ فامر تنش بان تلف جثتهُ بازار وترسل الى حلب (سنة ٤٧٩) الى ابن الحبيبي وطلب منهُ تسليم حلب فاجابهُ المقدم المذكور يستمهلهُ الى ان يكون حضر مرسوم ملكشاه اخيهِ بذلك فحاصر تنش حلب وضيق عليها وملكها فاستجار ابن الحبيبي بارتق فاجارهُ واما قلعة حلب فكان بها سالم بن مالك بن بدران العقيلي ابن عم شرف الدولة مسلم فالقى تنش الحصار على القلعة سبعة عشر يومًا الى ان بلغهُ وصول مقدمة اخيهِ ملكشاه

وكان ابن الحبيبي قد كتب الى السلطان ملكشاه في ذلك باصفهان فحضر واخذ في طريقهِ حران واقطعها لمحمد بن مسلم بن قريش وسار الى الرها وهي بيد الروم من حين ما اشتروها من ابن عطير فحصرها وملكها٠ وقام الى قلعة جعبر وبها صاحبها سابق الدين جعبر القشيري وهو شيخ اعمى فامسكهُ والقى القبض على ولديهِ وكانا يقطعان الطريق٠ ثم سار الى منبج فملكها وقام الى حلب٠ فرحل عنها تنش اخوهُ وتوجه الى دمشق عن طريق البادية فوصل ملكشاه وتسلمها وتسلم القلعة من سالم بن مالك وعوضهُ بقلعة جعبر وبقيت في يدهِ ويد اولادهِ الى ان اخذها منهم محمود بن زنكي كما سياتي ان شاء الله

وارسل الى ملكشاه وهو بحلب الامير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر داخلاً في طاعتهِ وسلم اليهِ اللاذقية وكفرطاب وفاميه٠ فاجابهُ ملكشاه الى طلبهِ واقر عليهِ شيزر وسلم حلب الى قسيم الدولة اقسنقر وقام الى بغداد

هذا في المشرق٠ اما في المغرب فان يوسف بن تاشفين امير المسلمين عدا البحر من سبته الى الجزيرة

الخضراء بسبب استيلاء الفرنج على الاندلس واجتمع اليهِ الامراء مثل المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف واقتتلوا مع الفونش وانتصر المسلمون على الفرنج قال ابو الفدا « وقتل منهم ما لا يحصى حتى جمعوا من روُّسهم تلاً واذنوا عليه» واستلم يوسف غرناطه من صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن جبوس بن مالس بن بلكين بن زيري الصنهاجي .

قالوا واول من ملك غرناطه من الصنهاجية كان راوي بن بلكين ثم تركها وعاد الى افريقية (سنة ٤١٠) فاستلمها ابن عمه جبوس ماليس بن بلكين الى ان مات (سنة ٤٢٩) وخلفهُ ابنهُ باديس الى ان مات وولي بعدهُ ابن اخيهِ عبدالله بن بلكين ودام بها حتى اخذها يوسف بن تاشفين هذه السنة ٤٧٩ . وقال صاحب تاريخ القيروان ان ذلك كان (سنة ١٠٨٧—٤٨٠) . ثم ان يوسف اخذ معهُ عبدالله واخاه تميما وعبر البحر الى سبته ثم الى مراكش فكانت غرناطة اول ما ملكها من الاندلس

اما ملكشاه فانهُ ترك حلب ودخل بغداد في ذي الحجة وهو اول قدومهِ اليها واجتمع بالخليفة المقتدي واقام هناك الى صفر من سنة ٤٨٠ وعاد الى اصفهان

وفيها اقطع ملكشاه محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش مدينة الرحبة واعمالها وحران وسروج والرقة والخابور وزوجه باخته زليخا وكان مسرورًا منهُ

وفيها كانت زلازل عظيمة وترك الناس بيوتهم

و(في سنة ٤٨١) توفي الملك المويد ابرهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وقد رجحوا موته (سنة ٤٩٢) وكانت ولايتهُ من (سنة ٤٥١) وابرهيم من الملوك العادلين اهل الحزم وخلفهُ ابنهُ مسعود وكان ابوهُ قد زوجه بابنة السلطان ملكشاه

وفيها سار اقسنقر صاحب حلب بعساكره الى شيزر وحاصر صاحبها نصر بن علي الكناني وضيق عليهِ ثم تصالحا وعاد الى حلب

و(في سنة ٤٨٢) سار السلطان ملكشاه بجيوش عديدة الى ما وراء النهر وعبره الى بخارى وملك ما على طريقهِ من الممالك واخذ بخارى ثم قام الى سمرقند فملكها واسر صاحبها احمد خان واكرمهُ ثم سار الى كاشغر فبلغ الى بوزكند وكتب الى ملك كاشغر باقامة الخطبة لهُ والسكة فاجاب وحضر عنده فاكرمهُ ملكشاه واعاده الى ملكه ورجع الى خراسان

وتوفي (سنة ٤٨٣) ابو نصر فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير بالموصل ودخل ابنهُ عميد الدولة في وزارة الخليفة المقتدي . وكان فخر الدولة قد تنقل في الخدمات ما بين بركة بن المقلد وثمال بن صالح بن مرداس واحمد بن مروان واخيهِ والخليفة العباسي وملكشاه

و(في سنة ٤٨٤) سار يوسف بن تاشفين الى سبته واجاز العساكر مع شير بن ابي بكر فانولوا على مرسية بالاندلس فملكوها من صاحبها ابي عبد الله بن طاهر ثم تقدموا الى شاطبة ودانية فملكوها واستلموا بلنسية بعد ان اخلاها الفرنج . ثم ساروا الى اشبيلية فملكوها من صاحبها المعتمد بن عباد وارسلوا المعتمد الى يوسف فحبسهُ حتى مات . ثم ساروا الى المرية وبها صاحبها محمد بن صمادح بن معن وهذا لما سمع باخذ اشبيلية ومسير العسكر اليهِ مات غمًّا . ورحل ابنهُ الحاجب باهلهِ ومالهِ الى بلاد بني حماد المتاخمين لافريقية . ثم قصد شير بن بطليوس فاخذها من صاحبها عمر بن افطس وقبض على عمر وولديهِ الفضل والعباس وقتلهم صبرًا ولم يترك من ملوك الاندلس سوى بني هود فانهُ لم يقصد بلادهم وهي شرقي الاندلس وكان بين صاحبها المستعين بالله ويوسف بن تاشفين مراسلات وتهادٍ فرعى يوسف حرمتهُ واوصى ولدهُ عليًا بترك التعرض لبلاد بني هود

وفيها زار السلطان ملك شاه بغداد وقدم عليهِ اخوهُ تتش من دمشق واقسنقر من حلب وغيرهما من زعماء الاطراف وصرفوا الميلاد ببغداد وكان احتفال عظيم واكثر الشعراء من مدح تلك الليلة وامر ملكشاه بعمل الجامع المعروف باسم السلطان ببغداد وعمل قبلتهُ بهرام منجمه وجماعة من اصحاب الرصد واقام امراؤه الكبار دورًا لهم ينزلون بها متى قدموا اليها

وفيها توفي الامير ارتق بن اكسك التركماني جد ملوك ماردين وكان يملك القدس منذ وفد على تتش حسبما مر . ولما توفي ارتق استقرت القدس لولديهِ ايلغازي وسقمان الى ان سار الافضل امير الجيوش من مصر واخذ القدس وسار ايلغازي وسقمان الى الشرق ثم دخلت (سنة ١٠٩٢ــ٤٨٥) وكان السلطان ملكشاه امر اقسنقر بانجاد اخيهِ تتش على ملك سوريه وما بايدي اهل مصر من البلاد فسار اقسنقر وتتش ونزلا على حمص وملكاها من صاحبها خلف بن ملاعب وامسكاه وولديهِ وسار تتش الى عرقة وفاميه فملكها

و(في سنة ٤٨٥) قتل نظام الملك بالقرب من نهاوند قتلهُ صبي ديلمي من الباطنية اتاه في صورة مستميح او مستغيث فضربهُ بسكين فقضى عليهِ وكان نظام الملك وزيرًا للسلاطين ثلثين سنة سوى ما وزر لالب ارسلان وهو صاحب خراسان ايام عمهِ طغربل بك قبل ان يتولى السلطنة وكان عمرهُ سبعًا وسبعين سنة وكان سبب قتلهِ ان عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك كان قدولاهُ جده رئاسة مرو وارسل السلطان لهُ شحنة اسمهُ قودن وهو من خواصهِ فنازع عثمان في شيء فحملت عثمان حداثة سنهِ وطمعهُ بجدهِ على ان قبض عليهِ واخرق بهِ ثم اطلقهُ فقصد السلطان مستغيثًا شاكيًا فارسل السلطان الى نظام الملك رسالة يقول لهُ ان كنت شريكي في الملك فآمدلك حكم وان كنت نائبي فيجب ان تلزم حد التبعية والنيابة فاولادك قد جاوزوا حد السياسة وطمعوا الى ان فعلوا كذا وكذا

فحضر المرسلون واوردوا على نظام الملك الرسالة فقال قولوا للسلطان ان كنت ما علمت اني شريكك في الملك فاعلم الان فانك ما نلت هذا الامر الا بتدبيري ورايي اما تذكر حين قتل ابوك فقمت بتدبيرك وقمعت الخوارج عليك من اهلك وغيرهم وانت ذلك الوقت كنت تتمسك بي فلما قدت الامور اليك واطاعك القاصي والداني اقبلت تتجنى لي الذنوب وتسمع فيّ السعايات . قولوا له عني ان ثبات تلك القلنسوة قائم بهذه الدواة وان اتفاقهما سبب كل غنيمة ومتى اطبقت هذه الدواة زالت تلك الى غير ذلك . ولما خرجوا من عنده اتفقوا على اخفاء ذلك عن السلطان وقالوا له ما مضمونه العبودية والطاعة والاعتذار الا ان واحدًا منهم اسرّ للسلطان بذلك فسعى السلطان بقتله كما ذكر ومات السلطان بعدهُ بخمسة وثلاثين يومًا وانحلت الدولة ووقع السيف وكان قيل نظام الملك شبه النبوة . وقالوا ان ابتدا امر نظام الملك انه كان من ابنا الدهاقين بطوس وتعلم العربية وكان كاتبًا للامير بافر صاحب بلخ وكان الامير يصادره في راس كل سنة وياخذ ما معهُ ويقول له قد سمنت يا حسن فهرب الى جعفر بك داود وهو بمرو فدخل اليهِ ولما راه اخذ بيدهِ وسلمهُ الى ولده الب ارسلان وقال له هذا حسن الطوسي فتسلمهُ واتخذهُ والدًا ولا تخالفهُ . وكان نظام الملك اذا دخل عليهِ الائمة الاكابر يقوم لهم ويجلس في مسنده وكان له شيخ فقير اذا دخل عليهِ قام له واجلسهُ في مكانهِ وجلس بين يديهِ فسئل عن ذلك فقال ان اولئك اذا دخلوا علي يثنون علي بما ليس في فيزيدني كلامهم عجبًا وتيهًا اما هذا فيذكر عيوب نفسي فارجع عن كثير مما انا فيهِ . وكان مجلسهُ عامرًا بالعلماء واهل الخير والصلاح واكثر الشعرا مراثيه فمن جيد ما قيل قول شبل الدولة

كان الوزير نظام الملك لولوة   يتيمة صاغها الرحمن من شرف

بدت فلم تعرف الايام قيمتها   فردها غيرةً منهُ الى الصدف

وبعد قتل نظام الملك سار ملكشاه الى بغداد ودخلها في ٢٤ رمضان واتفق انهُ خرج الى العيد وعاد ثالث شوال مريضًا بحمى محرقة توفي بها ليلة الجمعة انصاف شوال وعمره ثمان وثلاثون سنة وكان من احسن الناس صورة ومعنى وخطب له من حدود الصين الى اخر الشام ومن اقاصي بلاد الاسلام في الشمال الى اخر بلاد اليمن. فسترت تركان خاتون زوجته موته وسارت من بغداد وجثتهُ معها محمولة وبذلت الاموال للامراء واستحلفتهم لولدها محمود وكان تاج الملك وزيرها يتولى ذلك لها وارسلت الى الخليفة المقتدي في الخطبة فاجابها وخطب لمحمود وعمره اربع سنين وسارت تركان خاتون من بغداد الى اصفهان وفيها بركيارق وهو الكبير من اولاد ملكشاه فخرج بركيارق منها ومن معهُ من الامراء النظامية وساروا نحو الري فسيرت تركان خاتون العساكر لقتال بركيارق فانحاز منهم جماعة اليهِ فتقوى بهم وعاد الى اصفهان وحاصرها وكان تاج الملك مع عسكر خاتون فاخذ وحمل

الى برقيارق فهجم النظامية عليه وقتلوه وكان كثير الفضائل جم المناقب وانما غطت محاسنه موافقته على قتل نظام الملك

و(في سنة ٤٨٦) خرج من اصفهان الحسن بن نظام الملك الى برقيارق وهو محاصر البلد فاكرمه وولاه الوزارة ولقبه عز الملك

و(في سنة ٤٨٧) قدم برقيارق بغداد وخطب له بالسلطنة ولقب ركن الدين

ثم تحرك تتش اخو ملكشاه من دمشق في طلب السلطنة لنفسه واتفق معه اقسنقر صاحب حلب وخطب له باغي سيان صاحب انطاكية وبزان صاحب الرها . وسار تتش واقسنقر ففتحا نصيبين عنوة ثم قصدا الموصل وكان بها ابرهيم بن قريش الذي قدمنا ذكره . وكان بنو عقيل قد انتخبوه مكان اخيه مسلم وكان ملكشاه قد قبض عليه (سنة ٤٨٢) واخذ الموصل منه ولما مات ملكشاه انطلق واخذها . فلما قصد تتش الموصل خرج ابرهيم لقتاله والتقوا بالمضيع من اعمالها وجرى بينهم قتال عنيد وانهزمت المواصلة واخذ ابرهيم اسيرًا وجماعة من امراء العرب فقتلوا صبرًا . واخذ تتش الموصل واستناب عليها علي بن مسلم بن قريش وارسل الى بغداد يطلب الخطبة فتوقفوا . ثم سار تتش واستولى على ديار بكر وقام الى اذربيجان وكان برقيارق قد تولى على اكثرها فلقي برقيارق عمه ليمنعه فعلم بذلك اقسنقر فمال مع برقيارق ولحق به فضعف تتش لذلك ورجع الى الشام

وفيها ملك المستنصر بالله العلوي خليفة مصر مدينة صور ودخلت (سنة ٤٨٧)

وفي ١٥ محرم (سنة ١٠٩٤-٤٨٧) توفي الامام المقتدي بامر الله فجاة وكان قد احضر عنده تقليد السلطان بريقارق ليعلم عليه فقراه وتدبره وعلم عليه ثم قدم اليه طعام فاكل وغسل يديه وعنده قهرمانته شمس النهار فقال لها هذه الاشخاص التي دخلت عليّ بغير اذن „ قالت فالتفت فلم ارَ شيئًا ورايته قد تغيرت حالته وانحلت قوته وسقط ميتًا فقلت لجارية عندي ان صحت قتلتك واحضرت الوزير فاعلمته فشرعوا في البيعة لولي العهد وجهزوا المقتدي ودفنوه وكان عمره ثمانيًا وثلثين سنة و٨ اشهر وخلافته تسع عشرة سنة و٨ اشهر وامه ام ولد ارمينية تسمى ارجوان ادركت خلافته وخلافة ابنه المستظهر وابن ابنه المسترشد

في خلافة المستظهر بالله ثامن عشرينهم من (سنة ١٠٩٤- ٤٨٧ الى سنة ١١١٨-٥١٢)

ابو العباس احمد ابن المقتدي بايعه ابوه قبل موته ولقب المستظهر بالله (سنة ٤٨٧) وكان برقيارق قد قدم الى بغداد واخذت البيعة عليه له ولما عاد تتش من اذربيجان الى الشام اخذ في جمع الجيوش وهكذا اقسنقر جمع بحلب وامده برقيارق بالامير كربغا والتقى الفريقان عند نهر سبعين

بقرب تل سلطان ستة فراسخ عن حلب واقتتلوا وخامر بعض عسكر اقسنقر وصار مع تنش وانهزم الباقون وثبت اقسنقر فاخذ اسيرًا واحضر الى تنش فقتله وسار الى حلب فملكها واسر بوازار وقتله وارسل كربغا الى حمص الى السجن هناك . ثم استولى على حران والرها وسار الى بلاد الجزيرة فملكها ثم ملك ديار بكر وخلاط وسار الى اذربيجان فملك بلادها ثم همذان فاخذها وارسل يطلب الخطبة ببغداد من المستظهر بالله فاجيب الى ذلك ولما بلغ برقيارق استيلاء عمه على اذربيجان سار الى اربل ومنها الى بلد سرحاب الكردي بن بدر الى ان قرب من عسكر تنش وكان معه نحو الف رجل فكبسوه فهرب الى اصفهان وكانت تركان خاتون قد ماتت فدخل اصفهان وفيها اخوه محمود فارادوا ان يفتكوا به ويسملوا عينيه فلحق محمودًا جدري فتوقفوا قليلاً فمات محمود في سلخ شوال (سنة ٤٨٧) وكان فرجًا بعد شدة لبرقيارق . ومولد محمود (سنة ٤٨٠) وبعده صار قتال بين تنش وبرقيارق بقرب الري قتل فيه تنش وانهزم عسكره واستقام الامر والسلطنة لبرقيارق (سنة ٤٨٨)

وفيها توفي المستنصر بالله معد ابو تميم بن ابي الحسن على الظاهر بن الحاكم بامر الله وكانت خلافته ستين سنة وعمره سبعًا وستين وولى بعده ابنه ابو القاسم احمد ولقب المستعلي بالله

وفيها اجتمع قواد عسكر احمد خان صاحب سمرقند وقبضوا عليه بدعوى الزندقة فانكر وقدموا شهودًا عليه بذلك فافتى الفقهاء بقتله فخنقوه واقاموا ابن عمه مسعودًا مكانه باسم قدرخان واسمه جبريل بن عمر وهذا قتله السلطان سنجر وولى مكانه محمد خان بن سليمان بن داود بن ابرهيم بن طنغاج وعمره نيف وعشرون سنة وبقي الى (سنة ٥١٥) قال ابو الفدا «ولم يقع لنا خبر احد منهم بعده»

وكان لتنش اربعة ابنا — دقاق وكان معه في مقتلة الري ورضوان وبلغه مقتل ابيه وهو بالقرب من هيت متوجه للاستيلاء على العراق وكلاهما لحقا بحلب مع جماعة من قواد ابيهما. وكان بحلب من طرف تنش ابو القاسم حسن بن علي الخوارزمي. ومن ابنا دقاق بهرام وطالب وهما صغيران ولحقا باخيهما رضوان وكانوا كلهم ضيوفًا عند ابي القاسم المذكور ثم كبس رضوان ابا القاسم المذكور نصف الليل وامسكه وامر ان يخطب لنفسه في حلب. وكان مع رضوان باغي سيان بن محمد التركماني صاحب انطاكية

وسار رضوان بن معه للاستيلاء على ديار بكر وقصد سروج فسبقه اليها سقمان بن ارتق الذي كان صاحب القدس واخذ سروج ومنع رضوان عنها . فسار رضوان الى الرها وملكها واطلق قلعتها لباغي سيان . ثم وقع الاختلاف بين باغي سيان وجناح الدولة من اكبر قواد رضوان وزوج امه فعاد رضوان الى حلب وسار سيان الى انطاكية ومعه ابو القاسم الخوارزمي

اما دقاق بن تنش فكاتبه ساوكتين الخادم الوالي بقلعة دمشق يستدعيه سرًا ليملكه المدينة

فاسترق دقاق من حلب وجد في السير فاركب اخوهُ رضوان في طلبهِ فلم يدركهُ ووصل الى دمشق فاستلمها . ثم وصل الى دقاق طغتكين ومعهُ جماعة من خواص تتش . وكان طغتكين مع تتش في الموقعة واسر ثم خلص وقصد الى دمشق فلقيهُ دقاق واكرمهُ وكان طغتكين زوج والدة دقاق ثم اتفق دقاق وطغتكين على ساوتكين الخادم وقتلاه . ثم جاء الى دقاق باغي سيان ومعهُ حسن الخوارزمي فجعل دقاق الخوارزمي وزيرًا له

هذه كانت صفات اولئك الحكام والولاة الذين لم تكن تنام لهم عين فاكرين الليل والنهار كيف يلاشي احدهم الآخر ليحوز مالهُ ويضيف ذلك الى نفسهِ وكلهم يتخاصمون على اغتنام اموال الاهالي المساكين عائشين في الظلم والجور وخراب البلاد وزرع الفساد والشقاق بين الملل والطوائف حتى انتزعت هذه الوسائل المشئومة محبة الناس لهم وخلفت الضغائن والاحقاد عليهم ونفرت منهم الطباع وبدل التعظيم لهم بالتحقير والمدح بالذم وها هي اثارهم تدل عليهم انظر الى رسوم المدن والقرى والاطلال المخضبة بدما سكانها فهي تشهد على شناعة اعمالهم وقبح مساعيهم وخروجهم عن حدود الانسانية حتى ترى ان افضل وصف يعطى لاحسنهم هو عدم الظلم والجور والارتشاء وغير ذلك والحال ان هذه الاعدام لا تعد مدحًا اذ لا حق لهم بالتعدي فيمدحون بالكف عنهُ . والان فلنوجه الحاظنا قليلاً الى جهة اوربا لنرى ما كان يفعل هنالك

فصل

في حروب الفرنج المعروفة بالحروب الصليبية

من حين ما تجزأت مملكة العرب الى دول عديدة وامارات متنوعة واخذت الفتن بالظهور فيما بين تلك الاحزاب من الاندلس الى المشرق الاقصى ومن قفار العربية الى قفار افريقية سقط نظام الاحكام واختلت سياسة الولايات فكان الواحد ينقض ما ابرمهُ الآخر ويلاشي العامل ما شيده المستعمل وطفقت بين الاضطهادات تحرك سيف العدوان وشعرت النصرانية بغلال العبودية في اتمام شعائر معتقداتها في كل جهات العالم الاسلامي وعادت زوار اوربا القادمين الى اورشليم موضوع اهواء الاولياء الذين كانوا يتنازعون الولاية تحت الخلافتين الاسلاميتين اي العباسية ببغداد والعلوية بمصر ودولها المصطنعة . ففي عهد القادر بالله العباسي والحاكم بامر الله العلوي وهشام المويد بالله الاموي بالاندلس في اخر دولة بني سامان ما وراء النهر وزهو دولة بني بويه في العراقين وعدة من الامراء المختلفي الالقاب كالحمدانيين والمروانيين وبني عقيل ونحوهم المتنازعين القوة في اطراف البلاد واوساطها قرعت اصوات التشكيات الاولى آذان اوربا النصرانية من اولئك الذين كانت

المتقوى تقودهم الى ضريح المخلص في بيت المقدس حتى اعتقد البابا سلفسترس الثاني المتوفى (سنة ١٠٠٣-٣٩٤) وجوب المناداة بالجهاد ضد الدولة الفاطمية وتحرير اورشليم من سلطتها وذلك نحو اربعة قرون منذ معاهدة عمر الفاروق امير المومنين والبطريرك صفرونيوس كما تقدم . وكان المغرب كل تلك المدة يرسل دون مانع او تعدٍ حجاجه العديدة غير مبالٍ بالصعوبات المادية الكثيرة التي كانت في اعتبار اصحاب التقوى مما تزيدهم اجرًا وثوابًا ولم تجد تلك التشكيات الاولية وذلك الوعظ بالجهاد تلبية عظيمة حينئذٍ وان كانا قد تركا اثرًا رديًا في عقول المومنين . واحتملت النصرانية تلك الاضطهادات كضحايا جديدة يطلبها الله على مذابح التقوى فغضوا الطرف عن اعمال الحاكم بامر الله العلوي صاحب مصر الذي اراد بفرط تعصبهِ وحماقة سياستهِ ان يلاشي معبد اورشليم خلافًا لسلفائهِ الذين كانت خلافتهم للنصارى افضل من العباسيين انفسهم . فلم يكن يهم هذا الخليفة الهوائي صالح مملكتهِ ولا ما كان يحصل لرعاياه من الارباح التجارية من اولئك الحجاج العديدين القادمين كل سنة الى اورشليم من اطراف المسكونة حتى انهُ شغل عساكره حمقًا بهدم كنيسة القيامة وملاشاة نفس المغارة التي القي فيها جسد المسيح موقتًا . ولكن بعد هذه الاعمال المضادة لروح العصر والموجبة الحقد والغضب العادلين عاد كل شي فيما يخص امور الحجاج الى ما كان عليهِ قبلاً ما خلا تجديد مكس على كل زائر يدفعهُ على ابواب المدينة حتى ان هذا المكس لم يجرح النصرانية ولا ثقل عليها حملهُ بل كان في اعتبار الحجاج اجرًا اعظم وكان ذلك فرصة للاغنياء منهم ان يبذلوا شيئًا في سبيل الاحسان ومساعدة الفقراء الذين لا يقدرون على دفعهِ . ولا سيما ان العالم النصراني كان خارجًا بوقتهِ الى حياة جديدة من تلك الاوهام الاعتقادية المهمة ما يومل بدوام تلك الحال طويلاً فان كل النصرانية كانت قبل ذلك بعشر سنين تنتظر حصول القيامة على راس الالف سنة من المسيح واستدعاء الاموات من الاجداث الى حياة اخرى وكانت عدة السنين قد انقضت والشمس كعادتها تشرق وتغرب ولم ياتِ اليوم المخيف حتى حسن لابي العلا المعري الذي كان في تلك الايام ان ينشد شعره المؤذن بشكه في الاديان وبما كانوا يقولون

اتى عيسى فبطل شرع موسى   وجاء محمد بصلاة خمس

وقالوا لا نبي بعد هذا   فضل القوم بين غدٍ وامس

ومهما عشت في دنياك هذه   فما تخليك من قمر وشمس

نعم ان ذلك كان قد اوجد شبهة الشك في صحة النبوات عند البعض الا ان الاكثر كانوا قد افاقوا من الرعدة التي اعترتهم بقرب النهاية الاخيرة وخراب العالم واخذوا بتاويل تلك الايات النبوية بحسب ما يوافق الظروف ويزيل الشبهة فاخذ سيل الحجاج بالتزايد الى الشرق من كل

الجهات — اناس من كل جنس ورتبة يتركون اوطانهم بقصد تقريب صلواتهم على قبر المخلص — اساقفة يهاجرون اسقفياتهم وامراء اماراتهم لكي يزوروا المنازل ويشاهدوا المناظر حيث تالم الفادي واكمل واجبات رسالته وكان الفرنج (الفرنسويون) اكثر عدداً وجهداً وغيرة دينية في ذلك من غيرهم حتى عاد اسمهم علماً لجميع الاوربيين

وكان الخطر عظيماً على الضعفاء والاحداث والنساء بل على الاشداء انفسهم في تلك الاسفار فان انغلف كانب وليم الظافر ترك بثلاثين فارساً في العدد الكاملة لزيارة قبر المسيح فلم يرجع منهم سوى عشرين مشاة في حالة رثة . وكان كل يحمل تلك الصعوبات والمشقات بصبر ناسباً اياها لتعس الازمنة ومنهم من كان يتلقاها بفرح لاسباب كثيرة دينية ودنيوية ولا سيما ان بدخول هنكارية في النصرانية على راس الالف سنة جعل للحجاج طريقاً جديدة في وسط اوربا لتلك الزيارات وحماية صادقة في ماري اسطفانوس رسول تلك الامة الغيور فكانوا يتسابقون افواجاً افواجاً الى زيارة اورشليم

الا ان المستقبل كان يشير الى قوة جديدة زاحفة من قفار الشرق الاقصى قد اخذت بان تختط لها طريقاً يتهدد وجود المملكة العربية نفسها اعني بذلك الاتراك فان الغز السلجوقية كانوا قد تقدموا من قفار اسيا الوسطى الى جهة الغرب على مملكة فارس وانتشروا في اسيا الصغرى مملكة الروم وقد وجدوا مساعدة مهمة لتقدمهم في حيادة قسم كبير من النصرانية الذين كانوا قد اضحوا في كرب وانحطاط كليين من المصادرات المالية والنكايات الدينية المتراكمة عليهم في تلك الازمنة . فان حكام بزنطية لعمري واكليروسها قد بذلوا كل جهد لتسهيل طريق اولئك الغزاة . وكان تجمع الاراضي بكثرة في ايدي القليل قد قلل السكان فما لبث الغزاة ان غاب عددهم في كل قبادوقية وفريجية وغلاطية ونحوها وامكن لهم بسهولة مقاومة تلك الجيوش الجهادية في بلاد تملكوها بالامس . واختار امراء السلاجقة بعد تقدمهم الى جهة القسطنطينية مدينة نيقية تختاً لهم وهي المكان الذي التئم به اول مجمع عام للنصرانية لاجل تحديد صورة الايمان المسيحي وكيفية الثلثة في الواحد ونادوا برسالة محمد كنبي الله وامروا بهدم كنائس النصرانية واستعباد احداثها ذكوراً واناثاً وامتدوا الى جبال يمكن رويتها من قبة ايا صوفية وضايقوا العاصمة القيصرية حتى ارتج من ذلك الكسيوس قيصر الروم وطلب مساعدة نصارى المغرب وما عدم تلبية دعوته وقتئذٍ الا من عدم اضطرام نار الحمية الانتقامية كما ينبغي فان الحروب الصليبية التي جرت بين نصارى اوربا والمسلمين مدة جيلين لم تكن بالحقيقة حروباً دينية او سياسية بل انتقاماً واخذاً بثار اولئك الحجاج الذين كان حكام الاتراك يضطهدونهم بكل انواع الاهانات والظلم في زيارتهم قبر المسيح بحسب اعتقادهم الموافق لروح العصر ولما كانت المواصلات

السياسية قليلة وقتئذٍ بل مجهولة كان السيف اصدق انباء من الكتب بين الامم. ولو لم يكن هذا التغيير في الاشخاص اي انتقال القوة الاجرائية في مملكة الاسلام من يد العرب اهل الصيانة والسماحة والحرية الى ايدي السلاجقة اهل الجراءة والطمع كسائر امم الشمال لما كنا ربما سمعنا بمثلها حروب قد جلبت الدمار والعار على الجنس البشري الى يومنا هذا وقد ضمت عناصر الاختلافات الدينية والسياسية والانتقامية الى عنصر وجسد واحد وهو ما يدعونه الان المسألة الشرقية فان في عهد الاولياء الجدد لم يعد الحجاج قادرين على اتمام فرائض دينهم دون ان يعرضوا انفسهم لنكايات واهانات عديدة وكان ذلك يتزايد سنة فسنة حتى عادت جميع اقطار اوربا تردد بغيظ صدى تشكيات زوارها الذين عوض رجوعهم حاملين الذخائر المقدسة كانوا ينقلبون على اوطانهم محملين المذلات والاحتقارات في سياحتهم المذكورة ثم تفاقم الخطب ولم يعد لذلك دواء عند ما حضر سبعة الاف من جرمانية ومطران منتز وغيره على مقدمتهم فلم يرجع منهم الى بلادهم سوى الفين (سنة ١٠٦٤ —٤٥٧) موسوقين بالاخبار المهيجة ضد حراس القبر وتعدياتهم الفائقة الطبع والاحتمال وانتشرت هذه الاخبار المحزنة مالئة اقطار اوربا وتحركت حماسة القوم فهاجوا وماجوا لاخذ الثار وطالما كانت القلوب مستعدة لمثل ذلك

هذا من جهة الاسباب الظاهرة. ثم انه كان يوجد غير محركات جوهرية لولاها لم يكن هذا الاستعداد الشعبي والاقدام على انصاف المظلوم تهيئا الى مساعدة مادية لان الاندفاعات الشعوبية وثوران افكار العموم في جهة قد تلاشى بعضها بعضاً مع الوقت ما لم يحفظ ذلك الروح ابدًا في هيجان بعوامل اخرى فهذه العوامل الباطنية لم تكن تنقص وقتئذٍ في قاعدة النصرانية وتعصبات الاجيال السالفة

نعم ان الصياد الجليلي عند ما دخل ابواب رومة العظمى انما دخلها كغريب قدم لهداية فريق قليل من الناس ممن نظروا وابغضوا البقاء في ارجاس الرومانيين وقتئذٍ باحتضانهم النصرانية لكن البابوات اساقفة رومه لم يكونوا كذلك بل كانوا يفتخرون كما يحق لهم ان يذكروا حقارة اصل تملكهم الواسع روحيًا وزمنيًا كنائسيًا ومدنيًا. ثم كما ان النصرانية نفسها لما تمكنت في اوربا حدث فيها بعض تغييرات توافق حاسات الشعب والنظامات الرهبانية كذلك النظام الكنائسي تلطف الى هيئة موافقة لشرائع البلاد السياسية التي فيها اولاً رفعت تلك الديانة اعلام جهادها اي رومة فان المدينة المذكورة لم تكن كباقي العواصم ولا كان ممكنًا لاسقفها ان يكون كباقي اساقفة الكنائس الاخرى ناظرًا وراعيًا رعية بسيطة فقط اذ انه اصبح عاملاً بالضرورة على الرعية وقائمًا في قلب المملكة فكان لا بد من اقتران السلطان المدني والسلطة الدينية في سياسة الكنيسة فلم يمضِ

على ذلك زمن طويل حتى اخذ الافتخار ان يبوّق تلك العبارات المحبوبة نحو السماء « المسيح حي » « المسيح يملك » « المسيح سلطان الارض » ونال الباباوات كخلفاء المسيح الملك الغير المنظور مع الوقت من (سنة ٥٨٧ — ٦٠٤) قوةً تزدري بقوة اعظم ملوك الارض وهذه القوة كان يجريها غريغوريوس الكبير بصرامة رهبانية · وغريغوريوس السابع كان يديرها بحكمة قائد عظيم فان الاول كان كراهب يعتقد ببطلان كل الامور المادية وقذارتها والثاني بارادته اخضاع العالم للسلطة الروحية ولم يكن ذلك ممكنًا له بدون استعمال القوة المادية احب ان يكون له سلطان على كل الممالك وامر على جميع الامراء بمالهم ورجالهم واذلال القوة المدنية للقوة الكنائسية فلم يكن هذا البابا العظيم (الملقب هلدربراند) يخجل من تسميته السلطة المدنية جرثومة المبادى الردية واتساعها · ثم ان هلدربراند هذا وجد امامه اساس مطامعه قد القاهُ سلفاوهُ فلم يتهامل في اكمال بناء السلطة البابوية عليه · وطالما اغتنم سلفاوهُ الفرص واستخدموا اميال الشعب ومطامع الامراء لادارة حركات كلية او اختلافها — اذ ان الاستحسان البابوي هو الذي ساعد على خلع الملك المرونجي والشقاق البابوي هو الذي توّج اول ملك كارولنجي ولم يكن الاَّ تاج القياصرة القدماء ما وضعهُ البابا ليون الثالث على راس كارلس العظيم · وكان البابا غريغوريوس السابع الذي نقل تاج انكلترا على يد صنيعته اسكندر الثاني من ابن غودوين الى الدعي وليم النورماندي

ففي الوقت الذي نحن فيه كانت السلطة البابوية قد تعاظمت جدًّا وعادت قادرة على ايجاد مواد عديدة لتسعير نيران الحواس الانسانية التي كانت قد انقدت بما ذكرناه من الاسباب وتغذيتها بمهيجات جديدة فان ذلك كان لازمًا لامكان تحميس اوربا الى درجة الانقضاض على ظلمة سورية واكتساب الحماسات الشعوبية اليها كما يتأكد من عدم نجاح هلدربراند في منشوره (سنة ١٠٧٤) الى جميع من يحب ويريد ان يحامي عن الايمان الكاثوليكي طالبًا اليهم ان يتركوا كل امرٍ وينهضوا الى حرب الاتراك السلجوقية وطردهم الى ما وراء حدود المملكة الرومية الشرقية فان القسطنطينية نفسها يقول المنشور ام التلول السبع كانت وقتئذٍ في خطر منهم ولم يكن يعلم متى تكون رومه نفسها كذلك · ولم يكن يخامر احدًا شك في ان النصرانية بما لها من الايمان والهمة والمعارف الحربية وقتئذٍ قادرة بكل سهولة على اتمام ذلك · وكان ثمن تخليص قيصر القسطنطينية من يد الاتراك خضوعه لرومه بمعنى ان البابا يكون الملك الاعلى شرقًا وغربًا وتسقط ادعاآت بطريرك بزنطية في وحدة الرئاسة مع خليفة بطرس وهذا الراي وان يكن عائده لنفع الكنيسة اللاتينية اجمالاً فانهُ كان بجملته امرًا سياسيًا موضوعًا في غاية الاحكام فلم تكن الانزعاجات والمصائب المحيطة بالمملكة الشرقية معتبرة بموجب روح المنشور لان قيصر القسطنطينية لم يظهر ادنى غيرة ولا سفك نقطة من الدم ليتخلص من اعدائه · ثم ان الحرم الذي

اجراه البابا عن غير تبصر على نيقوفور الثالث وما شابه . كل ذلك ترك اثرًا رديًا في الشرق غير موافق للمقاصد البابوية فان منشور هلدر براند لا يستغيث بالحاسات الدينية ولا بذكر الكبائر المرتكبة في الاماكن المقدسة والجرائم العظيمة الحاصلة ضد الحجاج ولا يقول شيئًا بخصوص الثواب الاخير للمجاهدين في عالم الارواح وبالاجمال فانه لم يصب الغرض في منشوره المذكور ولا قرع الوتر الصحيح ولذلك خاب امله وقتئذٍ في تحريك الغرب للركوب على اعداء الايمان

ثم تبع ذلك تقدم السلاجقة في مملكة الاسلام ومجيء تنش (او تكش) اخي ملكشاه السلجوقي واخذه دمشق وبيت المقدس من يد الفاطميين فعلاً (سنة ١٠٧٦–٤٦٩) فعظم الخطب ولم يزل يتضاعف الشر من الجهة الواحدة والحماسة الدينية من الجهة الاخرى سنة بعد سنة حتى طفح الكاس والتزم البابا اوربانوس الثاني ان يقضي في مجمع بياشنسه اذار (سنة١٠٩٥–٤٧٨) ثم في مجمع كلارمونت من اولبرن في تشرين الثاني من السنة نفسها (سنة ٤٧٩) بالجهاد الاول وقد ساعده في ذلك سفير الامبراطور القسطنطيني وعدد من الامراء المقتدرين وتعين خامس عشر آب (سنة ١٠٩٦–٤٩٠) لسفر العساكر وكانت حماسة الناس وقتئذٍ قد تناهت بما كان يجري على الحجاج من المبالص والمصادرات والاختلاس في كل مكان من المملكة حتى عاد السفر الى اورشليم محاطًا باخطار ياباها اشد الناس اقدامًا . وكانت الاهانات الشخصية لافراد الحاج ترافقها اهانات فوق الطاقة للاماكن المقدسة ولخدام الدين بنوع انهم كانوا يوقفون الاحتفالات الدينية والصلوات ويجرون البطريرك من شعرهِ على الارض الى ان يودعوهُ السجن ويصادرونهُ بمبالغ وافرة فلا يخرج حتى يفي كل شيء . فكان الزوار يذهبون بالميات والالوف ويرجعون بالآحاد والعشرات مهانين مطرودين حاملين اخبار تلك المظالم وممثلين صور ذلك الجور الجاري على النصارى في اورشليم وعموم المشرق قائلين الكنيسة في يد الظالم ودم الشهدا يصرخ للانتقام في كل العالم النصراني وزاد على كل ذلك مواعظ بطرس الناسك من امينس وقدوم بطريرك اورشليم بكتابات توصية من البابا المذكور الى اوربا فزار كل مكان واستنجد هم المومنين على الاتراك والاقدام على تلك الحرب المقدسة. وكان من اراد ان يتطوع لذلك الجهاد والذهاب الى فلسطين يضع على صدرهِ سمة صليب احمر فدعيت من ثم حروب الصليب . وهكذا اندفعت اوربا فلئت بعظام ابنائها البر والبحر تاركين بلادهم وهواءهم وعوايدهم انتصارًا للمظلومين واخذًا بثار النصرانية والحقوق الانسانية

فصل

في اول ركبة الافرنج على فلسطين

ولما حضر الوقت المعين للسفر ولم يكمل الاستعداد لذلك صار تاجيله الى مدة غيران الذين كانوا قد حضروا لتلك الغاية لم يكن ممكنًا صرفهم ولا حفظهم كذلك فقر الراي بالمسير نظير طلائع وتجرد بطرس الناسك من اميَنس المتقدم ذكره (وولطر الملقب بعديم النضة ممن يدعون الاقدام لمرافقتهم وسارا بتلك الجماهير الى ان وصلوا الى كولون وهناك لم يعد ممكنًا لهم المسير سوية لعدم وجود ادنى ترتيب في تلك الجماهير فانحاز منهم نحو خمسة عشر الفًا الى والطر المذكور والباقي ذهبوا مع بطرس الناسك قاصدين هنكارية وكانوا يتزايدون عددًا وهم سائرون

ثم توجهت فيئة اخرى نحو عشرين الفًا صحبة اميكوس كونت (دي لانجن) وتبعتهم ثالثة تحت قيادة الراهب (غوطشلك) وكانت هذه الفرق جميعها نحو ثمانين الى مائة الف حاشا النساء والاولاد والتابعة

ثم ركبت قوة اخرى اكثر ترتيبًا ونظامًا نحو مائتي الف متطوع وعلي راسهم نحو ثلاثة الاف فارس من شهراء ذلك العصر وامرائهِ وانقسموا في طرق مختلفة

وكان من الامراء المعدودين بينهم (كودفروا ديبوليون) دوقة اورين السفلى من اكثرهم تهذبًا يعرف جيدًا لغتي فرنسا والمانيا مقدام حكيم مستقيم السيرة وانضم اليهِ نحو ثمانين الف راجل وعشرة الاف فارس وذهب معهُ اخواه (بالدوين ويوستاق) كونت دي بولون ثم (هيو) كونت ورماندواز الملقب بالكبير اما لكونهِ اخًا للملك فرنسا فيليب الاول او لكبر جثتهِ · ثم (رايموند) كونت تولوز و (اسطفان) كونت جارطرس و (بوهموند) امير طرانتم وابن عمه (طانكريد) و (روبرت) دوقة نورمانديه وهذا رهن دوقيته لهذه الغاية عند اخيهِ وليم

وكان القاصد الرسولي (اديمار) اسقف بوي على مقدمتهم نظرًا لرتبتهِ اشبه بقائد قواد العساكر ولهُ الراي الاول في التدبير

وكل هولاء الامراء كانوا من اول رتبة بعد الملوك ويظهر انهُ كان مقدرًا على هذه الركبة الاولى ان تفلح اكثر من كل الثمان ركبات التي بعدها ولعلهُ لخلوها من الروس المتوجة لان امبراطور المغرب هنري الرابع نائب كارلس الكبير كان عدو البابا · وكان فيليب الاول ملك فرنسا محرومًا منهُ في مجمع كلارمونت ولم يكن ملك الدانمرك وملك سكوتلندا والسويد وبولونيه قد انتظموا بعد في سلك ملوك اوربا وملوك اسبانيا كان لهم ما يكفيهم من الجهاد في مملكتهم · وكان وليم الثاني ملك

انكلترا اكثرا اهتماماً بتحصيل دوقيات وثروة من الالقاء بنفسهِ الى التهالك لنوال اكليل الشهادة على ابواب اورشليم فترك من ثمَّ تاسيس مملكة لاطينية في فلسطين للامراء الثواني

وهذه العساكر المتطوعة البالغة نحو ثلثمائة الف ومع النساء والاولاد والتابعة نحو نصف مليون من الناس الذاهبين في طرق مختلفة وتحت قواد متنوعة بدأ اكثرهم بالجهاد من اول سفرهم لان الجهاد على الاتراك في فهمهم كان شاملاً لكل اعداء النصرانية ويدخل تحتهُ ابناء اولئك الذين قتل اباؤهم المسيح فاخذوا باضطهادهم وسلب اموالهم وقتلهم ايضاً حتى جرى الدم فيضاً في اسواق (وردن وتريف) ومدن الرين الكبيرة ونحوها وكثير من اليهود من القوا بامتعتهم في النهر وبانفسهم اما في الماء او النار فراراً من ميتةٍ اكثر فظاعة وهكذا افتتحت تلك الجماهير الاولى الجهاد الذي قضى بهِ البابا اوربانوس كفريضة واجبة على كل مسيحي . هذا كان روح ذلك العصر . على انهُ لم تكن تلك الجموع خالية من جم غفير من اهل الفضل الذين حركهم لتلك السفرة مجرد حبهم اغاثة المظلوم ولو بتضحية اموالهم وراحتهم ولذة عيشهم ووطنهم حتى وحياتهم ايضاً اذ ان لمثل ذلك ترتاح اولو الهمم وفيهِ تجد الاذهان الانسانية لذة لا يعلوها لذة ومثل هولاء الفضلاء كانت افكارهم ابداً متنقلة بين امرين كلاهما مضاد للاخر ظاهراً مع اتحادهما فعلاً الواحد اشتعالهم غيظاً من الظلم الجاري على نصارى المشرق . والثاني الوقار الاضطراري الى درجة الانذهال الذي كانوا يشعرون بهِ لاعدائهم كافضل ابطال العصر بعد انفسهم فكان الامر الاول يسوقهم بعنفٍ لاسترداد الارض المقدسة والقبر ويجعل الاخر لهم حدوداً غير مرعي حفظها دائماً في مقاتلات حملت عليها القوى الغضبية الوحشية لاستئصال كل عدو اكثر ضعفاً او توحشاً . وبقدر ما كان يرعى الجهاديّ منهم هذه الاحساسات كانت تزداد فيهِ مشاعر المروة التي من شانها تخفيف بلاوى الحروب واجتناء الثمار الجيدة بعدها . وهذا ما كانت توءمهُ وتميل اليهِ الكنيسة اي ردع خشونة اولادها اذا لم تقدر على استئصال تلك الخشونة منهم فكانت تبين وتثبت قداسة المبادي السلمية التي تحرم انقلاب النزاع الخاص الى حمل ثقيل تابي الارض تحملهُ . الاَّ ان في الركوب على الارض المقدسة اصبحت الحرب نفسها مقدسة بل كل شيء صار طاهراً وتجددت مع ذلك عوائد كانت قد تلاشت بوجود النصرانية كالفروسة المقدسة فكان الفرسان الذين لبوا تلك الدعوة المقدسة يرتفعون الى رتبة قريبة من رتبة الكاهن والراهب وجعل على الاحداث الطالبين تلك الدرجة بعض رسوم ووعود في صرامتها تشبه المرشحين للسيرة الرهبانية كالطهارة الظاهرة والباطنة والانتصار للمظلوم ومساعدة المحتاج وحماية الضعيف لا سيما النساء والاطفال والعاجزين والانتقام من الظالم والشرير ونحو ذلك. وكان الواحد منهم يركع امام مجلس الكهنة الملتئم ويعد بحفظ كل ذلك فيرسم حينئذٍ فارساً على

اسم الله والسيدة وماري ميخائيل او ماري جرجس وكان اسم البتول مريم اعظم شيء في اعتبارهم بعد السيد المسيح وكانوا يتخصصون في محبتها واكرامها سر الوطنية العظمى والاتحاد العيالي وكان ذلك سببًا عظيمًا لرفع مقام النساء الى الرتبة الحالية في اوربا فان الفضل كله هو للنصرانية وللحروب الصليب التي نبهت في اولئك المتعصبين حاسات الفروسة والشرف والامتناع عن الفظائع والشهامة والمروة التي هي من شروط هذه الرتبة المعروفة عندهم بالشوالرية اذ انه يجب ان يكون الفارس المقدس مرآة اللطافة والنخوة

هذا وكان انباع والطر عديمي الفضة كقائدهم خالين من كل شيء ولم يكن لهم ما يقتاتون به في كل تلك المسافة التي لا تقصر عن ستمائة ميل ما بين تخوم النمسا والقسطنطينية سوى السلب والنهب مصحوبين بتغضبات الاهالي ولعناتهم وجلبت عليهم افعالهم هذه في هنكارية البلاوى الدهم ولولا ان جهزهم قائد الامبراطور بما يقيتهم بقية الطريق ويخلصهم من اخصامهم لما وصل منهم ديار وكانوا يقضون ثمن تلك الموءونات ببيع من لا سلاح له من المجاهدين لا سيما النساء والاولاد اما عسكر بطرس الناسك فلم يصل منه على ما قيل سوى سبعة الاف

وعند وصول هذه الجماعة المتفرقة الى دار القيصر الرومي نظر اليهم بعين الاحتقار ولم تحظَ في عينيه تلك الطلائع اللاطينية سمات الوقار نعم انه بذل لهم الضيافة فما لبثوا ان خرقوا حقوقها ولما لم يذعنوا لرايه الانتظار بصبرٍ الى وصول ارفاقهم اجازهم الى الجانب الاسيوي وهي القارة التي جاوا لينتزعوها من ايدي العدو · وكانت غاية الامبرور التخلص منهم وتركهم يتدبرون الامر مع عدو اشد باسًا واحتيالاً وهو داود الملقب بقلج ارسلان اي سيف الاسد السلجوقي

ولما عبروا البصفور تفرقوا بالجهات في طلب الاقوات فوقعوا في تلك المكيدة التي عملها لهم السلطان المذكور فانه امر بان يذاع ان فئة صغيرة من اولئك الغزاة صدموا نيقية واخذوها عنوة واذ بلغ هذا الخبر المتواتر الى اذان معظمهم اندفعوا الى السهول والربى المقابلة للمدينة المذكورة فلم يرجع منهم الاّ كل طويل العمر وبقي الباقون اكوام عظام شهادةً على ما اصابهم عند ما مر بتلك الارض رفقاوهم المتاخرون · ولم يخلص من تلك الحبائل سوى نحو ثلثة الاف هربوا والتجأوا الى القسطنطينية وكان ذلك عند ما اخذ معظم عساكر الجهاد الاكثر نظامًا بالمسير افواجًا افواجًا الى جهة المشرق صحبة كودفروا دي بويليون من ضفات نهر الموز والموزل في فرنسا فقادهم ذلك الامير بكل اعتناء سالمين دون معارض الى تخوم هنكارية · وهناك اعترضت جنود البلاد تقدم تلك العساكر في ارضهم لما كانوا قد كابدوهُ من انباع والطر وبطرس الناسك المتقدم ذكرهم وكان كل تعب كودفروا مدة ثلث جمع لاخذ الاذن بذلك دون افادة وطلب ملك هنكارية ان يسلموا

اليه الامير بالدوين رهينة على صدق الوعود فرفض كودفروا تسليم اخيه وقدم نفسه رهينة ملتمساً فقط ممرًا حرًا لرجاله وسوقًا لمشترى احتياجاتهم في ارض مرورهم وانتهى الامر فيما بينهم بمرافقتهم بخفراء يخفرون الاهلين منهم واخيرًا وصلوا الى ابواب فيلبه. وهناك بلغ كودفروا ان(هيو) دي ورمندواز كان اسيرًا في القسطنطينية عند الامبراطور الكسيوس وكان قد بلغ الملك المذكور خبر وصوله اربعة وعشرون شواليه (فارس مقدس) بالدروع الذهبية ذاكرين له انه اخو ملك الملوك وامير امراء الفرنج وكان (هيو) المذكور قد فضل ان يمر بايطاليا صحبة (روبرت)دي نورمانديه (وروبرت) دي فلاندر (واسطفان) دي جارترس وغير امراء من الدرجة الثانية. وكانت جوده تلك الارض قد ولذاتها قد اضعفت على ما يظهر خشونة طباعهم وبصائرهم فقطعوا البحر دون ادنى نظام وركب هيو البحر في باري وعلى قول حنة كومينا المورخة والمطنبه في فضائل ابيها الكسيوس ان العواصف كسرت اسطوله ما بين(بالوس ودوراظو)حيث كان يحكم يوحنا كومنيوس ابن اخت الامبراطور . وهناك كان الحجر على ذلك الامير تحت خاطر الامبراطور وكان هذا يعرف قيمة اسيره فاتى به بكل وقار واحترام الى عاصمته حنظة عنده على طريق الصحبة ظاهرًا واما باطنًا فكان كرهينة. وقد سحر الامير(هيو) لطف الكسيوس وحسن معاملته له حتى صار كالآلة في يده ووعده بعمل كل ما يسره شخصيًا ومع رفقائه

فارسل كودفروا سفيرًا الى القسطنطينية بتخلية سبيل الامير(هيو) في الحال فرفض الطلب فزحف كودفروا بعساكره معاملاً تلك الاماكن التي مرَّ بها نظير ارض عدو الى ان بلغ العاصمة عن طريق ادرنه في عيد الميلاد (سنة ١٠٩٦ – ٤٩٠) ونصب مضاربه بمراى من المدينة . ولما نظر الكسيوس كثرة تلك العساكر ونظامها بخلاف ما عهده في الذين قبلهم وقع الخوف في قلبه وضاعف ذلك ما كان يعهده من قرب قدوم غيرهم مع الامير تانكريد وبوهموند وان هذا لم يكن نظير كودفروا لا يلتفت الى غير مصلحته كجهادي بل كان يدعي حق الارث على جملة من ممالكه ولا سيما انه كان يعلم ان اولئك الجماهير لم ياتوا الا بطلبه ذلك عن يد سفرائه من اوربانوس الثاني في مجمع بياشنسة فاساءة معاملتهم الان بسبب عداوتهم . ثم اصبح عقله مترددًا ما بين تشبيعهم حالاً في طريقهم والتخلص منهم وبين وجوب اعتقال رومائهم عنده وحجزما يفتحونه من الاماكن في سوريه نعم انه اطلق سبيل (هيو) وارسله الى معسكر كودفروا الا ان ذلك كان ترقيعًا للدعوى لا انهاءها وكان تحريك الشبهة والمغايرات اقرب واسهل من اعادة الحب وتوطيده بعد ذلك فنزع الامبراطور الى زرع الوداد والالفة بكل جهده بينه وبين الجنود المجتمعة حوله قبل وصول عدوه بوهموند ونجح في ذلك اخيرًا وجرت المعاهدة بين الفريقين بان الكسيوس من طرفه يقدم لهم كل ما يلزمهم من

الاقوات ويساعدهم في مسيرهم ويحمي الزوار المارين بمملكتهِ على ان يعطي لهُ الجهاديون كلمة ايمانهم مدة بقائهم في مملكتهِ فلا يخونونهُ ويرجعون لهُ كلما يكون قد فتحهُ العدو من اراضيهِ حديثًا وقد حصل على هذا بعد كل تعب ومشقة ونفس ذايقة الموت فان جسارة تلك الفرسان وخشونة طباعهم لم تكن توفر احدًا حتى قيل ان احدهم ولعلهُ روبرت كونت دي باريز جاء والقى نفسهُ على سرير الملك في حضرة الملك وقال لا ارى وجوبًا لوقوفي ما دام واحد جالسًا ولم يكن حكم اصحابهِ عليهِ وقتئذٍ الا انهُ قليل الادب · اما بوهموند بوصولهِ وسماعهِ عن المعاهدة تكدر جدًّا ولام اصحابهُ على بيع استقلاليتهم للامبراطور ولكن بمساعدة كونت دي فلاندر الذي كان قد جرى بين ابيهِ وبين الامبراطور حلفة من ثمان سنين انجلى الامر وانضم بوهمود الى رفقائهِ ولو ظاهرًا وقبل ضيافة الامبراطور وهدية ثمينة منهُ وكان يصغي لتجميلاتهِ وصحب خضوعهُ لهُ بطلبهِ منهُ ان يسميهِ دمستقًا وهي رتبة قائد واصل معناها خادم اما الامبراطور فلم يكسفهُ ولكن وعدهُ بامارة مستقلة ثم التفت الى كودفروا واراد اكرامهُ ولما راهُ لا يبالي بشيء سوى اكمال نذره وجد انهُ لا يخطي باتخاذه اياه ابنًا

واخيرًا غلبت سياسة الكسيوس وعطاياه مضادة بوهموند ولكنهُ لم يكن يعلم ما كان محفوظًا لهُ من المقاومة مع رجلٍ جعل بوهموند وراءهُ مراحل اعني بهِ رايموند دي تولوز الذي لم يكن قد وصل بعد لانهُ اخر من سافر بعد ان كان اول من وافق على السفر وكان يقول « لا اريد ان اسافر الا مرة واحدة واحب ان اكون متاهبًا كما يجب » وهذا الامير كان من طبعهِ الكبر واستبداد الراي فلم يرد ان ياخذ طريق الامراء الذين سبقوهُ فقاد رجالهُ عن طريق لومباريه وكان سفره حتى وصل اليها سهلاً لكنهُ في جبال الصقالبة والدلامسة الموحشة واوديتهم المقفرة لم يكن كذلك وكابد برجالهِ من المصائب ما لا يقدر فان السكان كانوا قد ساقوا مواشيهم وهي كل ما يملكون الى اماكن يتعذر الوصول اليها ولم يكن لتلك الجماهير ما ياكلون وزد على ذلك انهم اصبحوا عرضةً للصوص وقطاع الطرق الذين لم يتركوا لهم راحة حتى التزم رايموند ان ينقم عليهم متى اخذ احدهم اسيرًا بقطع يديه وانفهِ وسمل عينيهِ ·

ثم انهُ دخل في نوع معاهدة في سكودره مع بودن السربي ولكن البلاد لم تكن تغل ما يقيم بتلك الجيوش العديدة والتزموا التقدم تحت تلك الصعوبات العظيمة

ومن الغريب كيف ان رايموند استمر بعد كل ذلك يفتخر بكونهِ قائد مائة الف جهادي رافضًا ما طلب اليهِ من الخضوع لامبراطور الروم · ورايموند لم يكن يعتبر ان لاحد سلطانًا عليهِ حتى ولا لملك فرنسا فاجابت طلب الامبراطور وقتئذٍ الى الموادة كالاكفاء لا ان يكون تابعًا لهُ ولم يكن شي يقدر على تغيير عزمهِ في ذلك حتى ان بوهموند المذكور استغرب عليهِ وعنفهُ بقولهِ « لو تركت الحكم لي لفضيت

عليك وللامبراطور » فكان كلام بوهموند في عهنيه ذنبًا غير مغفور واخيرًا عرف الكسيوس طباع خصمهِ وحرارة دمهِ وانهُ لا يوخذ جزرًا وانهُ في قلبهِ وعزمهِ لا يفضل عليهِ ولا كودفروا فجعل سياستهُ بحسب ذلك فما ابث ان استمال قلب ذلك القائد المحنك وامكنهُ ان يبلغهُ بكل حرية بغضه لجلبة الفرنج وعوائدهم الخشنة وخوفهُ الشديد (من بوهموند) ولم يكن انشغاف حنة كومينا بهِ اقل من الوقار الذي كان يظهرهُ لهُ ابوها فان رايموند على قولها «كان يشرق ما بين اولئك البرابرة اشراق الشمس بين النجوم»

هذا ولم يكن الكسيوس في انهماكهِ بضيوفهِ مثل رايموند وبوهموند وطنكريد مهملاً تشييع تلك العساكر الجرارة واجازتهم البوصفور قبل ان يستاصلوا كالجراد من جوار العاصمة كل موجود غير ان التخلص منهم لم يكن سهلاً كاستقبالهم وما قطع اصحاب كودفروا الى اراضي اسيا الا بعد اكثر من شهرين من وصولهم . وكان بكل الوجوه افضل للامبراطور وجود حاجز ولو مهما كان ضيقًا بينهُ وبين اولئك الضيوف المتعنتين فطالما يهددوهُ بكل فظائع الحرب وكان قد انتشر الخبر مرةً ان غاية الكسيوس كانت ان يجمعهم في اماكن ذات نقاع ويتركهم فيها يموتون فهجموا من مجرد الخبر على الارباض واتضح للامبراطور وقتئذٍ رداءة العاقبة ما لم يبادر لازالة تلك الشبهات من عقولهم وقد يمكن ان لا يكون اضمر اهلاكهم بالكلية بل خامر على تركهم عرضة لخداع شعبهِ وغشهم لهم في المعاملات واستلابهم اموالهم ما ليس بغريب في طباع ذلك القوم فالتزم اخيرًا ان يغير سياستهُ ويسلك طريقًا بجملتهِ مغائرًا لما سبق حتى امتلك قلوبهم واصبحوا كانهم مرتزقتهُ

وبحالما انزلت المراكب رجال كودفروا في الجانب الشرقي من البوصفور رجعت الى الغربي وتسهل اخيرًا للامبراطور ان ينظف بعمق سياستهِ وكثرة عطاياه جوار عاصمتهِ من جميع تلك الجموع المحيطة بها . وكان بحسب وصولهم اليها يردهم الى الجانب الاسيوي بنوع انهُ لم يبق واحدٌ منهم في عيد العنصرة بالقسطنطينية وكان فرجًا عظيمًا على الكسيوس لان الخطر في قيامهم هناك كان عظيمًا بسبب الكراهة الطبيعية الكائنة بين الجنسين في الافكار والعوائد ومبادي التمدن والشرائع والواجبات اذ النظام الا قطاعي كان عند الروم من الاخبار القديمة والاعلام الدارسة فكان يجب ان يتاخروا نحو عشرين قرنًا ليكونوا نظير اوربا الغربية وقتئذٍ اي الى ايام سولون وامراء تسالية وثيبية حلفاء اخشورش الملك . وكانت حماية الاشخاص والاموال الخاصة في مملكة الروم اثمن شي عند الشعب يتحملون لاجلها ظلم الحكام وفسادهم بمعنى ربما لم يتناهَ الى درجة ما كان يفهم من تلك الكلمات في عهد هيرودتس «الشرع سلطانهم» اي ان الشرع هو الملك والحال ان الشعب اللاتيني لم يكونوا يفهمون ما معنى الشريعة العامة . ولم يكن اكره لرؤوس الجنود الصليبية من القوة المركزية

المنبثة الى جميع اصناف الرعايا بنوع متساوٍ وكان افضل لديهم الاستبداد الاقطاعي وحقوق المحاربة الخاصة التي لا تعرف حقوق الاشخاص والاموال الذاتية ولا يجب ان ننسى ايضاً تلك الهوة الفاصلة بين اكليروس الامتين فان اللاتين كانوا قد شرعوا بالفون طريقة العزوبة التي اجراها عليهم اخيراً بطرس داميانى وهلدربرند واصبح الاكليروس اللاتيني بواسطة ذلك اشبه بعصبة منفردة عن الناس يعتمدون الحبر الروماني نقط رئيساً لهم ويانفون كل خضوع للسلطة الزمنية . وهذا النظام الشبيه بمملكة ضمن مملكة تصورٌ لم يخطر للعقل الشرقي وكان من ثم اكليروس المغرب يستهزئون باخوتهم الشرقيين لخضوعهم للقوة العالمية . اما اكليروس المشرق فكانوا ينقبضون فظاعةً عند ما يشاهدون اساقفة وكهنة ورهباناً راكبين بسلاح مخضب بالدماء في مشاهد الحروب يمتازون احياناً بالجهل قدر امتيازهم بالضراء على الانسانية . وهكذا فالامتزاج بين امم واجناس هذه صفاتها اصعب من امتزاج الزيت والماء . ولا تفيدهم المخالطة الا احياء الشبهات والحسد والبغض التي يشعر بها الواحد بالطبع لما يظنهُ في الآخر من الخديعة والكذب والجور

وعلى هذا النوع تجمع على حفافي البوصفور في الجانب الاسيوي عسكر لا نظنهُ اقل عدداً من جنود احشورش الملك التي غزا بها اوربا واكثر جداً من عدد اولئك الذين رافقوا الاسكندر في غزوة اسيا . والحق انهُ متى اندفعت الشعوب والامم بجملتها رجالاً ونساء واولاداً الى امرٍ فلا يمكن تعيين عدد المندفعين ولا نظننا نبالغ اذا قلنا ان اكثر من مائة الف فارس شاكي السلاح في العدد الكاملة داست في القرن الصليبي الاول بحوافر خيلها سهول بثينية واذا اعتمدنا قول كاهن كونت بالدوين فعساكر الصليبيين لم تكن اقل من ستمائة الف وقتئذٍ

والان فلننظر ماذا جرى في تلك المواجهة الاولى الدموية بينهم وبين الاتراك الذين يصفهم البابا اوربانوس الثاني بالجبانة في مجمع كلارمونت . فبعد ان نقل السلطان داود قلج ارسلان السلجوقي اهلهُ واولاده وذخائرهُ الى عاصمتهِ نيقية صار هو بخمسين الفاً من رجالهِ الى الجبال . وكان من وقت الى اخر يسطو على طلائع تلك الجماهير واطرافها وكان الافرنج قد القوا الحصار على المدينة ولازموا الهجوم عليها سبع جمع بالآت الحصار الرومانية القديمة دون فائدة وكان بعض تلك العساكر يقوّضون على البلد من الملة التي عليها عظام اتباع بطرس الناسك الا ان المدينة كانت مصونة من الغرب بحيرة اسكان فلم يكن على الاتراك من خوف ما دامت تلك بيدهم حتى تدارك الامر الامبراطور الكسيوس وارسل عدداً وافراً من السفائن على عربات نقالة فاتم حصار البلد من كل جهة وحينئذٍ سلمت في يديهِ وهو لم يكن لهُ بغية مطلقاً ان يراها في ايدي الصليبيين — وفيما الصليبيون يتحضرون للهجمة الاخيرة واذا بالاعلام الامبراطورية تخفق على اسوارها فاستشاطوا غيظاً

من نجاة الكفار كما كانوا يدعون الاتراك واخذوا يتهددون بما من شانهِ اعادة الاختلافات والخصام لكن الكسيوس اكد لهم وقد ايد كلامهُ بعطاياه الجزيلة ان اقصى مراده انما كان لكي يعجل سفرهم بالسلامة

ثم انهم ما بعدوا كثيرًا حتى التقوا بعدوهم ينتظرهم بالمرصاد واصطلت نار الحرب بينهم بقرب درولية وكان الوجه في اول الامر للاتراك وكم من مرة ظهر انقلاب نتيجة تلك الموقعة بجراءة روبرت النورماني وطنكريد وبوهموند وبما كان يصل اليهم من النجدات من (كودفروا وهيو) والاسقف اديمار كلما تكاثر عليهم العدو والاتراك كل ذلك ثابتون صابرون حتى ظن انهم لا يوخذون. ثم جاءت الفرقة الاخيرة من عسكر رايموند وجددت القتال فوقع في قلب الاتراك الرعب وانهزموا وكان نصر عظيم للصليبيين وقتل من عسكر السلاجقة ثلاثة الاف فارس وذهب السلطان قلج ارسلان يستصرخ اقاربه واكتسحت عساكر الافرنج الى الامام مارين بقونية وهرقلية وانطاكية فيسيدية—اما الاخطار فكانت كثيرة امامهم ومقاساتهم عظيمة لان ابن قلج ارسلان اخذ عشرة الاف فارس وسبق يخرب الارض وينهب المدن ويلاشي الزروع ويسلب الكنائس والاديرة من كل شي والناس تفر من امامهِ حتى ترك قدامهم كل شي بلقعا فكانوا يزحفون تحت شمس الاناطول المحرقة حتى هلكت الخيل والدواب ومئات منهم واستخدموا الكلاب والمعزى لنقل المهمات ·

واخيرًا وصل طنكريد بجماعته الى طرسوس وهي المدينة التي ولد فيها ماري بولس ونشر بالنجيل لم يكن حربيًا كانجيل ضيوف الاتراك. ثم وصل بعده بقليل بالدوين فداخلهُ الحسد العظيم لرويتهِ اعلام الامير الطلياني تخفق على ابراجها وطلب الاولوية فاعترضهُ طنكريد بان ذلك ارادة السكان ووعدهم بالحماية لكن احتيالات بالدوين غلبت وكان ذلك سببًا لقتال بين الاميرين وعساكرهما قلت لقد اعجلوا في مغائرتهم الدموية

ثم زحف معظم القوم الى الامام وكان رايموند ناقهًا من مرض شديد وكودفروا يكابد من جروح سببها لهُ دبٌ او خنزير ولو لم تكن الاتراك في خوف وانهزام وقتئذٍ لكفت قوة قليلة لتشتيت الفرنج في مسيرهم ضمن منافذ جبل طورس

ثم استنجد حاكم اورفه الارمني او الرومي المسمى ليون فلبى دعوتهُ بكل شوق الامير بالدوين اخو كودفروا وهذا فعل فعل الامبراطور الكسيوس باستقبالهِ بالدوين كابن لهُ. اما بالدوين فبدون اعتبار الاسباب التي اتت بهِ الى هناك حكم بموت ابيهِ الجديد واسس امارة لاتينية بقيت اربعًا وخمسين وقيل سبعًا واربعين سنة. وكان بالدوين يترقب تسليم سميصاط صلحًا فابي الحاكم التركي تسليمها الا بعد دفعهم لهُ عشرة الاف دينار الى ان وقع في ايدي بالدوين وقتلهُ

وفي هذه الاثناء كان معظم جنود الفرنج زاحفين الى انطاكية قاعدة سورية وهي المدينة القديمة التي طار لها صيت في العالم بثروتها ونموها المفرطين وكثرة ملذاتها وتنعماتها نعم ان ايام عظمتها كانت قد ولت واكثر سورها خرابا وابنيتها اما ساقطة او متهدمة لكنها مع ذلك كانت لمن لا يحسن الحصار في غاية المتانة وكان يلزم اولاً اخذ الجسر الحديدي القائم على نهر عفرين تسعة اميال عن البلد وكان له تسعة قناطر وبابه ملبساً بصفائح من حديد فاخذه روبرت النورماني هجوماً وساعده عليه كود فروا . وعلى ما قال مورخو العصر الذين تعودوا استعمال الارقام الاجمالية ان مائة الف هجمت عليه للحصول على الغنيمة التي كانت تظهر كانها في اليد وقتئذ وكان ذلك في تشرين الاول (سنة ١٠٩٧ – ٤٩١) لكن البلد كانت في يد اناس تعودوا على احتقار الروم ولم يعتادوا على احترام جراءة اللاتين بعد وكان صاحبها باغي سيان السلجوقي وهذا بعد ان اخرج اكثر النصارى الى خارج استعد للدفاع وبينما كان روساء الفرنج يتداولون فيما اذا لم يكن ترك الحصار الى الربيع اوفق اذ نهض رايموند دي طولوز وغيره امراء معه وقالوا ان التاخير دليل الخوف ولا شيء كالخوف مضر بنا فقر الراي على الحصار بقدر كفاءة العساكر للاحاطة بها وكان كذلك فغطت العساكر الجانب الشرقي والشمالي كاملاً وقسما من الغربي فقط وبقي بابان من خمسة منتوحين فكان يخرج ويدخل بهما

ويظهر ان الصليبين لم يكونوا في عجلة الى اهراق الدما وكانت غزارة الحصاد وخصب الكرم وكثرة القطعان في تلك المراعي الخصلة وسعة العيش والحبوب والخمر شاغلة لهم ياكلون ويشربون ويتمتعون وكان للاتراك داخل المدينة عيون من الروم والارمن يدخلون ويخرجون بلا ممانعة يتجسسون لهم اخبار النصارى فكانوا يعرفون كل ما كان يجري خارجًا وكانوا بموجب ذلك يدبرون خرجاتهم ويفتكون باعدائهم الذين لم تكن الآت حصارهم كافية ولا هي ذات قوة لعمل شي. وكان الفرنج تطمنوا بسد باب الجسر بصخور ضخمة اتوا بها من المقالع القريبة فمضي على ذلك الحصار ثلاثة اشهر وقد انتهى الزاد والكثرة السابقة وكل شي كما كان وكانت الامطار قد احالت مكان الخيام الى مناقع وكثرت فيهم الامراض . وكان بوهمنود وتانكريد قد ذهبا وجمعا مبالغ من الاقوات وكلها نفدت وعاد الجوع اشد مما كان حتى اخاف ذلك تاتيكوس نائب ملك الروم وقد تاثر الصليبيون كثيرًا من فرار وليم ملون المعروف بالنجار وكان ينفعهم بضرب المهدات في الهجمات على البلد وفعل الجوع ايضًا في بطرس الناسك وكان هاربًا مع وليم المذكور عندما قبض عليهما تانكريد واتى بهما الى بوهموند

وبينما الامر كذلك واذا بسفراء من مصر ارسلهم الخليفة الفاطمي المعتلي وهو كان مسرورًا في الباطن من نجاح الفرنج لان ضعف السلاجقة كان قوة له اللهم اذا امكن الخلاص من الفرنج ايضًا . فكان

انه ارسل الملك الافضل شاهنشاه امير الجيوش وحاصر القدس اربعين يومًا مستغنمًا فرصة غياب سقمان بن ارتق عنها لان هذا كان قد ذهب مع امراء الشام والجزيرة وديار بكر ليكشفوا عن انطاكية وتفرقوا منهزمين فملك المصريون بيت المقدس واخرجوا الامير سقمان المذكور (وكان قد رجع) واخاهُ ايلغازي وابن اخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج فلحق ايلغازي بالعراق وولي شحنكية بغداد وسار سقمان الى الرها فاقام بها

فبعث المستعلي حينئذٍ يعرف الفرنج عن دخول فلسطين بيده وتخليصها من يد الظالم وعرض عليهم الصلح آذنًا لكل اعزل من السلاح ان يدخل المدينة المقدسة ويقيم بها شهرًا ووعدهم بالمساعدة في رجوعهم بشرط ان يعرفوا سلطانهُ في تخوم المملكة السورية فرفض الصليبيون كل ذلك وتبرأوا من كل ما يتعلق بعداوة الخلفا مع بعضهم بعض واختلافاتهم وامور المسلمين اجمالاً قائلين ان الله قد جعل اورشليم للنصارى فمن تولاها وهو ليس بنصراني كان غاصبًا ووجب طرده وقتله · فرجع السفير خائبًا وقد تعجب من غزارة كل شي في ذلك المعسكر وعظمتهِ بخلاف ما كانوا يظنون

ولما راى باغي سيان صاحب انطاكية ثبات عزم العدو استصرخ ثانيةً حكام الجهات فبادروا اليهِ من قيصارية وحلب وغيرها اماكن فالتقاهم بوهموند ورايموند برجالها وفتكوا بهم وارسلوا عددًا من تلك الرؤوس الى سفراء المستعلي خليفة مصر ورشقوا مئات منها الى المدينة بالآلات الدافعة ترهيبًا للسكان . ثم قدمت بعض مراكب جنوية وبيزاوية الى فم العاصي واجتمع اليها قسم كبير من عساكر الافرنج واشتغلوا بها فنزع باغي سيان الى عمل كمين لهم اخذًا بثاره وبغتوهم راجعين ومعهم الاقوات والاسلحة واعملوا فيهم السيف واشتد القتال بين الفريقين وانهزمت رجال رايموند ثم قدم كودفروا وروبرت النورماني برجالها واعادا ببطشهما الكسر نصرًا وسقط مئات من الترك مجندلين ودفن رفقاؤهم اشليتهم خارج البلد اما النصارى فنبشوا تلك الجثث وقطعوا منها الرؤوس ورفعوها على اطراف حرابهم افتخارًا وارسلوا منها عددًا الى الخليفة الفاطمي يظهرون لهُ ما كان قد حل باصحابهِ السلاجقة هذه لعمري امور تنفر الاذان من استماعها والنفوس من فظاعتها ونود لو امكنا الصمت عنها ولكن صمتنا يحرم التاريخ من حقائقهِ وفوائده المقصودة فضلاً عن أننا نحن ننقل اخبار حروب وحشية فلا يجب ان يتعجب من فظائع تلك الاعصار

ثم حدث اختلاف فيما بين كودفروا وبوهموند على خيمة كان المراد اهداءها للاول فقبض عليها امير ارمني وارسلها للثاني الا ان ذلك الاختلاف قد ابتلعهُ ما هو اهم منهُ وقتئذٍ – اولاً انهم اشاعوا اخبار قدوم عساكر من الفرس للكشف عن المدينة ثم جاء رسول من المدينة يطلب المهادنة مظهرًا ارادة الحاكم تسليم البلد على شروط يجب المداولة فيها ثم عرضها عليهم فاجيب

الرسول الى ذلك. وما كان هذا الا حيلة لاكتساب الوقت لانهُ مضت عدة ايام ولم يظهر من الاتراك خبر وقد تاكد الامر بقبضهم على فارس افرنجي وهبره قطعًا فرجع اللاتين بشراسة مضاعفة الى الحصار ولكنهُ مع ضعف الدفاع فما زال بطيئًا . ثم اخذ بوهموند يتفكر لهُ في حيلة يعملها ربما كانت اكثر نجاحًا من القوة واقرب انجازًا للمشكل واهم نفعًا لتكثير ثروتهِ وعظمتهِ الذاتية. وكان قد عرف رجلاً نصرانيًا قد اسلم وصار ذا كلمة نافذة عند الحاكم اسمهُ فيروز فاجتمع بهِ يومًا واسر اليهِ ارادتهُ وبذل لهُ من الوعود الجليلة ما استمالهُ اليهِ وعهده المساعدة على اتمام اربهِ وتسليم البلد في يده . ثم حضر بوهموند وطلب مجلسًا حربيًا وقرر ان في قدرتهِ اخذ البلد وانجاز الحصار بشرط انهم يعرفونهُ حاكمًا عليهِ نظير بالدوين في ادسّة (اورفة) فاعترضهُ رايموند بغيظ ولكنهُ صمت عندما راى موافقة بقية الامراء على ذلك

فاخذ حينئذٍ بوهموند بالسعي لاتمام حيلتهِ وكان لابد من ذلك سريعًا لانهُ كان قد فشا خبرهُ في البلد عن وجود مخابرة على تسليم البلد للعدو ووقعت الشبهة عند البعض على فيروز المذكور. اما هذا فلكي يشغل الافكار عنهُ كان السابق في اظهار الاشتباه وطلب من الحاكم ان يامر بعزل جميع حراس القلاع والابراج صباحًا فاختلف الظن فيهِ واخذوا ذلك دليلاً على براءة شانهِ وصدقهِ. وما كان ذلك منهُ الا لانهُ قد اتفق على تسليمها تلك الليلة فارسل واعلم بوهموند فذهب بوهموند وبعض رجالهِ تحت الليل الى السور فوجدوا سلمًا من حبال مدلى لهم فصعد بوهموند وصعد ستون من الرجال الى فوق السور وانقطعت الحبال فما قدر على الصعود غيرهم . وبعد ان قتلوا الحراس واستولوا على عشرة ابراج فتحوا احد الابواب فدخل الباقون واشغلوا السيف ثم نفخ بالبوق وكانت هذه علامة الهجوم فاندفعت العساكر وانقضوا على المدينة غير مميزين اولاً بين نصراني ومسلم وفي هذا الاختلاط نجا بعض الاتراك الى القلعة واغلقوا عليهم الابواب في نية الدفاع حتى الموت. وقتل في ذلك اليوم نحو عشرة الاف ولم ينج الا القليل وفر باغي سيان ببعض مقربيهِ هاربًا مرعوبًا وجاوزوا معسكر الافرنج . ولما رجع الى باغي وعيهُ اخذ يندب اهلهُ واولاده وسقط من فروغ الدم مغشيًا عليهِ ولم يعد قادرًا على الركوب فنجا اصحابهُ وتركوه مرميًا فاجتاز بهِ رجل ارمني كان يقطع خشبًا فقطع راسهُ واخذه للافرنج . وهو باغي سيان بن محمد بن الب ارسلان السلجوقي وقيل التركماني وملك الافرنج البلد (سنة ١٠٩٧—٤٩١) . اما فيروز فعاش حتى اسلم ثانية وانهى حياتهُ لصًا

وكان هذا النصر للصليبيين انتقالاً من القلة الى سعة العيش فعيدوا لانتصارهم بولائم اجملوها سكرًا وفحشًا وكان الاسراف اقل خطاياهم واكثر خطاءهم

هذا وما كانت الاشاعات بقدوم عساكر العجم كاذبة فانهُ لما بلغ كربوغا صاحب الموصل ما

فعلى الافرنج بانطاكية جمع عسكره وحضر الى مرج دابق وقدم اليه دقاق بن تتش ملك دمشق وطغتكين اتابك وجناح الدولة صاحب حمص وغيرهم من الامراء والقواد وساروا حتى نازلوا انطاكية وحصروا الافرنج وضايقوهم وعاد الاتراك الذين لجأوا الى القلعة حاصرين لم بعد ان كانوا محصورين وعاد الجوع اردأ مما كان واشتد البلاء على اللاتين

واتفق ان (اسطفان) كونت دي جارترس كان قد غافل اصحابه ومضى قبل سقوط البلد وتبعه اخرون. وفيما هم راجعون الى بلادهم التقوا بالامبراطور الكسيوس آتيًا لمساعدة الصليبيين بعساكره ومعه جيش من الجهاديين الافرنج كانوا قد وصلوا الى القسطنطينية بعد سفر كودفروا فقص عليهم اسطفان الاخبار وما كان اصحابه فيه من الضنك والياس فزال من عقل الامبراطور كل فكر الا فكر الرجوع وامر العساكر بالعود على الاعقاب . وكان (غوي) اخو بوهموند معهم فبذل جهده في اقناع الكسيوس بمداولة السفر وعرفه انه واقف نفسه وسيفه لتلك الحرب والح عليه فلم يكن لكلامه نفع حتى قال في اشتعال غضبه „ ان الله القادر على كل شي لا يقدر على احتمال ذلك »

وكانت العساكر في انطاكية في حالة تعيسة وكان النظام قد بطل ولم تعد الجنود تطيع صوت قوادها وابوا حمل السلاح والكفاح . والتزم بوهموند الى احراق منازلهم ليخرجهم منها وامتدت النار في المنازل حتى عاد يخشى احتراق المدينة كلها واشتد الخطب وظهر جليًا انه ما لم تحصل لهم مساعدة فوق العادة فالنهاية قد قربت وقضى عليهم بالدمار

قال بعض اهل الشك في صحة المعجزات ان مساعدة كهذه في الساعة الاخيرة اذا حصلت لم يكن حصولها في اعتقاد ذلك العصر المومن الا باعجوبة — ذكروا ان كاهنًا لومبارديًا قام في الوسط وقال وقتئذٍ ان القديس امبروسيوس من ميلان كان قد اعلن له في رويا انه لا تنتهي السنة الثالثة من تلك الحرب الا باخذ اورشليم . وقال اخر انه شاهد المسيح نفسه وصحبته البتول مريم وبطرس هامة الرسل وسمع من فمه ما كان يوبخ به الصليبيين على انقيادهم للنساء الغريبات واخذ منه وعدًا اكيدًا انه في خمسة ايام من ذلك سينجدون . فتجددت من هذا الكلام آمال الصليبيين وبالآمال رجعت الهمم واستفرص حينئذٍ الاب بطرس بارثلماوس كاهن رايموند دي طولوزان يقص عليهم امرًا كان اعظم من رويا بسيطة . قال حضر عندي القديس اندراوس وقال لي „ ان في كنيسة القديس بطرس سنان الرمح الذي طعن به الشرطي جنب الفادي عند ما كان معلقًا على الصليب احفروه فان فيه نصرًا على الاعداء » وبعد يومين من تقديم العبادة وصلوات خاصة لجناب الحق سبحانه وتع اخذوا بالتفتيش على ذلك الرمح المقدس وبدا الحفارون في اليوم الثالث بحفر المكان حتى غربت الشمس ولم يجدوا شيئًا . فلما كان الليل جاء الاب بطرس حافيًا وعليه قميص فقط وانحدر الى الحفرة

واخذ يحفر بنفسهِ مدة واذا بالذخيرة المقدسة ملفوفة بمنديل من حرير مزركش بالذهب فاعلن الكاهن حينئذٍ نجاحهُ وتراكض الناس من كل جانب الى الكنيسة ومنها طارت الاخبار المستثيرة بالاذهان الى جميع انحاء المدينة ما يعجز عن وصفهِ اعظم كتاب الاعصار

ذكروا ان بعد تسعة او عشرة اشهر من ذلك فقد الاب بطرس المذكور حياتهُ من اجل خديعتهِ او خرافتهِ هذه. قالوا ان رايموند ارتشى على كاهنهِ المذكور وترك عليهِ خصمهُ الاب ارنولد كاهن بوهموند وكان رايموند قد تاجر بروٰيات اخرى راهامعصومهُ هذا فخالفهُ ارنولد المذكور في نفس صرابتهِ حتى انهُ انكرامر سنان الرمح وصدقهُ فاجابهُ الاب بطرس « النار تقضي بيننا » فاضرموا لهُ نارًا وعبر الاب بطرس ضمنها واقبل عليهِ المتفرجون من كل جانب يتفقدون اعضاءهُ وارتفعت اصوات ابتهاجهم الى السموات لما لم يروا فيهِ ضررًا ظاهرًا وحكموا بصدق سنانهِ . لكن موتهُ بعد اثني عشر يومًا من ذلك اوقع بعض الشبهة وسقط اعتبار رايمود وسطوتهُ في اعين الناس

فلما انتشر خبر معجزة السنان كما ذكرنا قطع العسكر بحلول القضاء على الكفار كما كانوا يلقبونهم ولكنهم ارادوا عملاً بالشريعة الانجيلية ان يخبروهم قبل ذلك فارسلوا بطرس الناسك الى كربوغا يطلب اليهِ اما الارتحال حالاً عن ارض قد وهبها ماري بطرس للنصارى او انهُ يتنصر و يعتمد فيجعلوهُ واليًا على انطاكية وما اليها فكان جواب كربوغا قصيرًا قاطعًا « لا ادين بدين اكرههُ واحتقره ولا ارحل عن ارض هي لنا بحق السيف » فاستشاط الصليبيون من ذلك الجواب غيظًا ونهضوا في يوم عيد ماري بطرس ٢٨ ح (سنة ١٠٩٨–٤٩٢ﻫ) وزحفوا على العدو في اثنتي عشرة فرقة على عدد الرسل وبقي رايموند دي طولوز ليمنع فرار الاتراك الذين في القلعة وحمل القاصد الرسولي اديمار السنان المقدس امامهم وكانت ثقة الرجال بالظفر غير محدودة فكانوا يرون في كل ما يحدث فالاً جميلاً وبشرى بالنصر وكانوا موقنين ان انفس الشهدا والقديسين ستحارب عنهم في ذلك اليوم فالتقاهم عسكر كربوغا والامراء واحتبك القتال واشتد النزال بشراسة وحشية من الطرفين وجالت الفرسان وتجندلت الفتيان وطال الجولان حتى كل الفريقان

هذا وبينما تقدم تانكريد لنجدة بوهموند على خصمهِ قلج ارسلان الذي كان من جملة الامراء السلجوقية. وكان قد ضيق على بوهموند. وكان كربوغا حاملاً بشدة على كود فروا (وهو) دي ورماندواز واذا برجال في الدروع البيض على خيل بيض ظهروا على التلال القريبة . فنادى اسقف بوي قد جاءت الاولياء لنجدتكم يا شجعان . ونظر الجنود فيما بينهم ماري جرجس وماري موريقس وماري ثيودوروس الشهداء . فاندفع الافرنج قبل وصول تلك الطغمة على الاتراك بحماسة واقدام لايقاومان ولم يكن عندهم خيالة سوى مائتي فارس من بعد ان كان لهم ستون الف فرس ترعى في

تلك السهول من شهور قليلة · وكان الفعل في ذلك كلهِ للمشاة من الانس فانهم جعلوا في وجه عدوهم سورًا من الرماح فتقهقر الترك وكان يومًا مخيفًا ومذبحة مهولة افتعلها الخطاة وحدهم ولم يتركوا وقتًا لان تشاركهم بها الاولياء · ثم وضع الصليبيون السيف في الرجال والنساء والاولاد وسلمت حامية القلعة وتنصر بعضهم واعتمدوا ومن لم يتنصر منهم ارسلوهُ الى اقرب الاماكن الاسلامية · وعادت انطاكية بعد حصار عشرة اشهر لبوهموند كما كان الاتفاق وبقيت في ملكهِ ضد ارادة رايموند الذي حاول ان يضبطها لنفسهِ فنصب بنوده على الاسوار · وبعد ان كمل النهب صار تنظيف الكنائس ومرمتها وزينت هياكلها بالاواني الذهبية الماخوذة من العدو ورجع البطريرك الشرقي الى كرسيهِ الى ان استلم مكانهُ بعد سنتين برنردوس احد كهنة القاصد اديمار الرسولي اسقف بوي المذكور

وبعد ان فتح الصليبيون انطاكية بعشرة شهور زحف معظم عسكرهم الى اورشليم وكان في نيتهم الركوب عليها حالاً لكن خوفًا من مقاساة حر القفار الناشفة في ذلك الصيف اخّر القواد السفر واكتفوا وقتئذٍ بارسال «هيو» دي ورماندواز وبالدوين دي هنهولت الى ملك الروم يوبخانه على اهمالهِ لهم وقلة امانتهِ معهم · وكانت اخبار ما كابده النصارى والمسلمون في تلك الحروب اعذب شي في آذان الكسيوس وسرجدًا برويتهِ «هيو» مسافرًا الى اوربا الى حيث سبقهُ اسطفان دي جارترس لا راجعًا الى سورية · ثم اقبل الشتا والقواد يتباطون في السفر وكان البعض منهم يغزون وينازلون المدن القريبة · ثم دهمهم الطاعون بقوةٍ واهلك جمعًا غفيرًا · قيل ان الفًا وخمسمائة من الجرمن كانوا قد وصلوا حديثًا ماتوا جميعهم بهِ ومن جملة ضحاياه المرحوم اديمار القاصد الرسولي

ثم اخذ روح الجزع يمتد بين العساكر · وبذل الامراء كل جهد لاقناع البابا بالمجي لزيارة المدينة التي فيها اول ما قبل تلاميذ بطرس الاسم المسيحي فلم يقبل · وداخل الجنود القنوط مما كانوا يرونهُ من النفسانيات والاثرة والاغراض التي كانت تمزق شمل الاتفاق بين القواد فان رايموند بقي مصرًّا على اخذ انطاكية من بوهموند بقولهِ يمكن لبوهموند وقومهِ ان يتقسموا غنائم الركبة الاخيرة الكبرى · واقبح من ذلك كلهِ ما جرى في حصار المعرة وبعد فتحها فان الاسراف والاهمال كانا قد الزما المهاجمين ان ياكلوا لحم الكلاب والقتلى فكانوا يحفرون جثث المسلمين من قبورها ويشقون بطونها ليروا ما كانوا قد ابتلعوهُ من الذهب ثم يطبخونها وياكلونها · فكان كثير من المحصورين يفضلون قتل انفسهم على الوقوع في ايدي الافرنج وبوهموند بعد ان امن البعض برشوة دفعوها لهُ فلما صارت المذبحة امرفاني بهم فقتل عاجزهم وضعيفهم وارسل الباقين للبيع في سوق انطاكية

ومما زادهم طلب الكسيوس بان يتاخروا قليلاً الى وصولهِ اليهم في حزيران المنتظر الا استعجالا في المسير واجابوا انهُ من حيث ان تاتيكيوس اخذ عساكرهُ البزنطية وتركهم الى قبرس فلم يكن

للامبراطور بعد ذلك حق الطاعة عليهم ثم اسرعوا في طريقهم فمروا بسهول بيروت بمنظر من ثلوج جبال لبنان على ذلك اللسان الضيق البحري من حيث كانت مدن فينيقية الكبرى ترسل نوتيتها ومستعمراتها بكل غنى الشرق الى سواحل الادريانيك ومواني البحر المتوسط. وبعد ان وصلوا الى يافة عطفوا الى الرملة ستة عشر ميلاً من بيت المقدس وبعد يومين من ذلك اقبل الصليبيون على المدينة المقدسة غايتهم القصوى وموضوع سياحتهم الطويلة وعلة مصائبهم الكبرى وموت ملايين منهم وعقدة المسالة الشرقية التي لا تحل

ولما استقرت اعينهم على المشاهد التي طالما شخص ايمانهم لهم من الصغر قداستها استحالت حميتهم الى خشوع شهدت به تنهداتهم ودموعهم فخروا جميعهم سجدًا وقبلوا تلك الارض المقدسة وصلوا وشكروا الله الذي من عليهم برؤية ما كانوا به يهيمون. وبعد ان نزعوا عنهم السلاح والدروع تقدموا حفاة لابسين لبس الحجاج نحو المكان الذي وطئه المخلص ساعات الامه

وكان عليهم قبل التمتع تمامًا بملوء هذه الحاسات الخشوعية عمل اهم وهو اخذ البلد. فاخذ القواد مراكزهم حيث كانت آمالهم بالنجاح اقوى. فكان في الشمال كودفروا وطانكريد وروبرت دي فلاندرس وروبرت النورماني وفي الغرب رايموند وجماعته وفي اليوم الخامس هجم الصليبيون هجمة مستميتين على الاسوار دون آلات حصار ما خلا سلمًا واحدًا ووصل البعض منهم الى اعلا السور واوقعت اول الامر هذه الكرة الشديدة رعبًا في قلوب اعدائهم ثم عطفوا عليهم وطردوهم من عن السور وعلم الصليبيون حينئذٍ انه لابد من اجراء الحصار على الاصول المالوفة في الحرب ومن وجود الات لهذه الغاية ولما كان الزيتون في الجوار لا يفيد ذلك شيئًا التزموا الى جلب المواد من آجام شخيم نحو ثلثين ميلاً من اورشليم وكان مدير هذه الاعمال غسطون من بيارن واستعمل ملاحي بعض المراكب التي كانت قد وصلت حديثًا الى يافه فلبثوا ثلاثين يومًا ينتظرون ذلك مقاسين العذاب الاليم. ففي انطاكية كانت مصيبتهم الجوع اما امام اورشليم فكان العطش وهو شر مصيبة وكان العدو قد خرب كل مكان يصلح لحفظ الماء وكانوا في الذهاب لطلبه في ذلك الجوار المقفر عرضة لفرسان المسلمين ٠ ولم تكن المعجزات والرويات هنالك تستفز الهمم وتزيد في نظام المعسكر قالوا ان نفس اديمار ظهرت لبعضهم ووبختهم على الذنوب التي ارتكبها الصليبيون حتى قضى الله عليهم بكل هذه البلاوى

وكان افعل من ذلك كله ما اجراه طانكريد بكرم طباعه في مسالمته مع رايموند ٠ وزادت حماسة الصليبيين بمواعظ ارنولد وبطرس الناسك وتذكروا حصار اريحا في عملهم تلك الدورة حول سور اورشليم والكهنة يرتلون والشعب يتبعون والمسلمون يضحكون ويرشقون الصلبان بالقذرات والكل يتوعدون ليوم كان في الازال مقضيًا

ففي اليوم الثاني كان الهجوم الاخير وجرى القتال طول النهار على العادة المالوفة بالشراسة الوحشية عينها التي رافقت تلك الحروب الى اخرها . ولما كان الليل انفصلوا — الفريق الواحد ليرم ما قد تخرب والاخر يستعد للفصل الاخير من هذه الطرغذية المحزنة . ولما كان اليوم الاخير وقد اشتد النزال من كل جانب وظهر ضعف في حزب الصليب امام حزب الهلال اذا بفارس رمح كالبرق على جبل الزيتون وحرك ترسه يستنهض همة الابطال فصرخ كودفروا « هذا ماري جرجس الشهيد (الخضر) قد جاء لنجدتنا» فهجم الصليبيون على صوته ولم يشعروا بتعب وحملوا كل شي امامهم وامتلكوا المدينة . وكان ذلك على ما قيل نهار الجمعة الساعة الثالثة بعد الظهر اذ وقف (ليتولد دسي تورناي مقدام ابطال الصليب على السور . ثم على ما قيل (انجابرت) اخوه . ثم كودفروا ديبوليون. وهجم طانكريد وروبرت دي جارترس ورو برت النورماني واستلموا باب ماري اسطفان. وتساق رجال رايموند بالسلالم على الاسوار . وتم النصر واخذ ثار الاهانات السالفة بقتل مئات من الناس في الاسواق بامر كودفروا. وجرى في مذبحة جامع عمر من الدم ماحمل الوفا من القتلى ووصل الى ركب الخيل واُحرق اليهود جميعًا في كنائسهم

هذه هي صور فرسان النصارى يقتلون ويهتبرون بحد السيف الاحياء والاموات وثمار ظلم السلاجقة وجنا خطبة البابا اوربانوس في مجمع كلارمونت . وقيل بقي القتل اسبوعًا وكان من جملة المقتولين كثير من العلماء والائمة والعباد والزهاد ممن جاوزوا بيت المقدس وغنم الافرنج اموالاً كثيرة ووصل النازحون الى بغداد واجتمع اهل بغداد بالجوامع واستغاثوا وبكوا وقال المظفر الابيوردي ابياتًا منها

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرصة للمراجم
وشر سلاح المرء دمعٌ يفيضهُ	اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام اضحى مقيلهم	ظهور المذاكي او بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وانتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

ثم نهض تلامذة رسول السلام من الذبح والسلب والنهب وكل الفظائع الى تقديم العبادة ودخل كودفروا كنيسة القبر المقدس حافيًا مكشوف الراس لابسًا لباسًا ابيض من الكتان النقي بقلب مملو من الشكر والفرح الممزوج بالخشوع الكلي وجثى على ركبتيهِ عند قبر المخلص . ثم دخل كل من اصحابهِ بالتنهدات والدموع تذرف على خدودهم وشكروا رحمة الباري كل بدورهِ على اعطاء النصارى النصر . وقربوا بكل عبادة حارة نذورهم بالامتناع عن كل ما يغيظ الله في المستقبل. وقد جعلت حرارة الصلاة وحرارة القتل او كلاهما هولاء الرجال ينظرون وجود كلما يزيد تلك الطرغذية

وقارًا ورونقًا فقالوا ان ارواح الزوار الذين ماتوا في ذلك السفر الطويل حضرت لتشترك في شكر ذلك اليوم ولم ادبار فكان يتهلل فرحًا من صلوات الاستغفار والتوبة المقدمة ما ينذر بعصر جديد وسلام على الارض وارادة صالحة نحو جميع الناس . ونسوا كل ذنوب بطرس الناسك ولم يعودوا يذكرون سوى فصاحة كلامهِ وحرارة خطبهِ عندما استدعاهم الى هذه السياحة الظافرة وغيرتهِ الفائقة التي بها حرك قلوب المسيحيين لِلاشاة جور الكفار في مهد النصرانية — ثم جثى المجتمعون على ركبهم امامهُ وشكروا الله الذي منحهم ذلك الواعظ البليغ

ومن بعد ان نال بطرس الناسك ذلك الشكر على عملهِ لم يعد يذكر عنهُ شيئًا في صحف التاريخ. وعفا طانكريد في ذلك اليوم الفظيع عن ثلاث مئة اسير واعطاهم رايةً من راياتهِ وثيقة لحمايتهِ لم الا ان عملاً مثل هذا كان ذنبًا في اعين رجال الصليب ولما كانت مذبحة اليوم الاول قد جرت عن عرض لغليان الدم بحرارة النصر ارادوا ان تكون ضحايا اليوم الثاني اكثر انتخابًا وتحريًا فذبحوا اول كل شيء اوليك الذين عفا عنهم طانكريد وصعب الامر على طانكريد ليس لاجلهم ولكن لان ذلك مس حاسات شرفهِ ثم اخذ الذبح اجمالاً بالشيوخ والاحداث من رجال ونساء فكنت ترى اباء وابناء امهات واطفالاً صبيانًا واخواتهم شبانًا وشابات في عنفوان الصبا كلهم بدون تمييز يهبرهم سيف الانتقام حتى اختلطت الرؤوس بالاعضاء بنوع تقشعر منهُ الابدان وقد اخفى رايموند دي طولوز البعض منهم لا شفقة عليهم لكن لاجل بيعهم والانتفاع بثمنهم . ثم شغلوا من بقي من الاسرى في تنظيف الاسواق من الدم ولا يعلم اذا كانوا بعد ذلك صادفوا ما صادف غيرهم قبلهم

وكانت عساكر الصليبيين الذين حاصروا اورشليم ستين الفًا واستلام البلد قيل في ٢٥ تموز (سنة ١٠٩٩—٤٩٣) وقيل ان عدد الذين قتلوا بها سبعون الفًا

هذه هي الاعمال التي اجراها الفرنج اربعة قرون ونصف منذ دخول عمر الفاروق بيت المقدس ظافرًا وصلاتهُ خارج كنيسة قسطنطين لكيلا يكون سبب للمسلمين بعده ان يتعدوا على امتيازات اهل الذمة كما تقدم « فشتان ما بين سيرة ذلك الامير العربي وبين امراء الصليبيين »

ونحن ممتنون لجناب صاحب الفضل والفضائل جبرائيل افندي مخلع على نسخة المرسوم الاتي الذي يقال انهُ طبق الاصل المعطى من الخليفة عمر وقتئذٍ الى البطريرك صفرونيوس فانهُ لا يخلو من الفوائد التاريخية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اعزنا بالاسلام واكرمنا بالايمان ورحمنا بنبيه محمد صلى الله عليهِ وسلم وهدانا من الضلالة وجمعنا بعد الشتات والف قلوبنا ونصرنا على الاعدا ومكن لنا في البلاد وجعلنا اخوانًا

متحابين واحمد الله على هذه النعمة هذا كتاب عمر بن الخطاب لعهد وميثاق اعطى الى البطريق المبجل المكرم وهو صوفرونيوس بطريق الملة الملكية في طور الزيتون بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا واين وجدوا وان يكون عليهم الامان وان الذمي اذا حفظ احكام الذمة وجب له الامان والصون نحو المومنين والى من يتولى بعدنا. وليقطع عنهم اسباب جوائجهم بحسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع وان يكون الامان عليهم وعلى كنائسهم ودياراتهم التي بيدهم داخلاً وخارجًا وهي القمامة وبيت لحم مولد عيسى عليه السلام كنيسة الكبراء والمغارة ذي الثلاثة ابواب قبلي وشمالي وغربي. وبقية اجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين ياتون للزيارة من الافرنج والقبط والسريان والارمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين للبطريق المذكور ويكون متقدمًا عليهم لانهم اعطوا من حضرة النبي الكريم والحبيب المرسل من الله تعالى وشرفوا بختم يده الكريمه وامر بالنظر اليهم. ويكونوا معافًا من الجزيه والغفر والمواجب ومسلمين من كافة البلايا في البر والبحور وفي دخولهم للقمامة وبقية زياراتهم لا يوخذ منهم شيء واما الذين يقبلون للزيارة الى القمامة يودي النصراني الى البطريق درهمًا وثلثًا من الفضة. وكل مومن ومومنة يحفظ ما آمرنا به سلطانًا ام حاكمًا ام واليًا يجري حكمهُ في الارض غنيًا ام فقيرًا من المسلمين المومنين والمومنات وقد اعطي لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وبقية الاخوة الصحابة الكرام فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به وابقاه في ايديهم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل — في العشرين من شهر ربيع الاول سنة خمس عشرة للهجرة النبوية وكل من قرأ مرسومنا هذا من المومنين والمومنات وخالفهُ من الان الى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثًا وللرسول الحبيب مبغضًا ومخالفًا

طبق اصلهِ الخطير نمقه الفقير اليه عز شانه محمد مراد المولى الخلافة بمحكمة بلاط بدار الخلافة العلية غفر له انتهى (لنا في صدق الاصل شك)

وبعد ان اتم الصليبيون احتفالات القرابين البشرية صمد الامراء الى تسمية ملك على المملكة التي فتحوها بسيوفهم ولم يكن الا واحد ظاهر اللياقة لذلك وهو كودفروا ديبويليون فان (بالدوين) كان اميرا اورفة و(بوهموند) انطاكية و(هيو) ورماندواز و(اسطفان) جارترس كانا قد رجعا الى اوربا و(روبرت) دي فلاندرس لم يكن يحب القيام في فلسطين و(روبرت) النورماني كان في فكره من استرجاع دوقيته من اخيه وليم التي رهنها عنده و(رايموند) كان ممقوتًا لبخله ومتاجرته بروبيات بطرس برثلماوس فوقع الانتخاب على كودفروا

اما هذا القائد الهام فبعد ان نظر بدون تأثر الذبائح الانسانية وشارك جنسه في اراقة الدماء لم يكن يقبل ان يلبس تاجًا ملوكيًا في مدينة لبس بها سيدهُ تاجًا من شوك فاختار بان يكون ناظرًا لقبر سيده ومصالح المومنين بلقب بارون او حامي القبر المقدس فقط. ثم بعد جمعتين من انتخابه صار لمحاربة الخليفة الفاطمي الذي شعر وقتئذٍ ان خسارة القدس كانت اعظم من اذلال السلاجقة اعدائه واصطلى القتال في عسقلان وانهزمت عساكر الخليفة ورجع كودفروا رابحًا وعلق سيفًا كان قد غنمهُ من الخليفة وعلمًا مصريًا على القبر المقدس وودع الصليبيين برجوعهم الى الاوطان مبقيًا عنده طانكريد وثلاثمائة فارس والفين من المشاة لصيانة مملكته . ثم تجددت امارات في طرابلس وصيدا وصور

ومات كودفروا قبل مضي سنة من ملكه وخلفهُ اخوه بالدوين الاول ثم بالدوين الثاني (سنة ١١١٨) ثم فولك (سنة ١١٣٠) ثم بالدوين الثالث (سنة ١١٤٨) ثم أمريك (سنة ١١٦٣) ثم بالدوين الرابع (سنة ١١٧٣) ثم بالدوين الخامس (سنة ١١٨٦) ثم (كويدو) ديلوزنيان وبقي الى (سنة ١١٨٧) عندما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبي وانهى المملكة اللاتينية بالقدس وكانت عساكر هذه المملكة قد قلت الى نحو اثني عشر الفًا ضد عدوين قويين الاتراك والدولة الايوبية وهذا الجهاد الاول ظهر فيه نظامان جهاديان الواحد نظام فرسان بيت المقدس واسسهُ بالدوين الاول . والاخر نظام فرسان الهيكل واسسهُ «هوكو» دبيانس وكودفروا وسنت اديمار وسبعة فرسان اخر اما نظام فرسان الصليب الجرماني فصار بعد ذلك وهكذا انتهى الفصل الاول من طرغذية الجهادات الصليبية وسياتي تمامها ولنرجع الان الى ما كنا بصدده

فصل

في غلاقة الربع الرابع من القرن الخامس

و(في سنة ٤٨٨) توفي المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وغيرها من الاندلس في سجن اغمات وكان من العقلاء ولهُ اشعار لذيذة منها انهُ دخل عليهِ يوم عيد بعض بنيهِ وبناتهِ يهنئونهُ حسب العادة وكانت البنات ملتحفات باطمار حافيات واثار نعمتهن خافية فشق علي المعتمد ان يرى تلك الشموس الانسة خاسفات في تلك الاطمار الرثة فقال

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا فجاءك العيد في اغمات ماسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعةً يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين والاقدام حافية كانها لم تطأ مسكًا وكافورا
لا خدٌ الا تشكى الجدب ظاهره وليس الا مع الانفاس ممطورا

قد كان دهرك ان تامرهُ ممتثلاً فردك الدهر منهيًا ومامورا
من بات بعدك في ملكٍ يسربهِ فانما بات في الاحلام مغرورا

ولما مات المعتمد رثاهُ ابو بكر بن اللبانه بقصيدة طويلة منها

لكل شيءٍ من الاشياء ميقات وللمنى من مناياهنَّ غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمسٌ الوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يدهِ وربما قمرت بالبيدق الشاة

الى ان قال

رماهُ من حيث لم تستره سابغة دهرٌ مصيباتهُ نبل مصيبات
لهفي على آل عبادٍ فانهمُ اهلة مالها في الافق هالات
تمسكت بعرى اللذات ذاتهم يابئس ماجنت اللذات والذات

ثم —

فجعت منها باخوان ذوي ثقة فاتوا وللدهر في الاخوان آفات
واعتضت في اخر الصحراء طائفةً لغاتهم في جميع الكتب ملغاة

و(في سنة ٤٨٩) اطلق رضوان صاحب حلب بامر برقيارق السلجوقي كربوغا واخاهُ الطنطاش من السجن بحمص حيث كان اودعهما تنش ملك دمشق لقتل كربوغا اقسنقر المقدم ذكره. وقصد كربوغا نصيبين وغدر بمحمد بن مسلم بن قريش واخذ بلادهُ وحصر الموصل وبها علي بن مسلم اخو محمد ففر الى صدقة بن مزيد صاحب الحلة ونسلم كربوغا الموصل بعد حصار تسعة اشهر ثم قتل اخاهُ الطنطاش لانهُ استطال عليهِ ثالث يوم استولى على الموصل

و(في سنة ٤٩٠) قتل ارسلان ارغون بن الب ارسلان وكان قد استولى علي خراسان بعد موسى اخيه ملك شاه — قتلهُ احد غلمانهِ لانهُ كان شديد العقوبة عليهم. وذهب برقيارق واستولى على خراسان واقيمت الخطبة باسمهِ فيما وراء النهر واستعمل عليها اخاهُ السلطان سنجر واستوزر ابا الفتح علي بن الحسين الطغرائي المعروف

ابتدا دولة بيت خوارزم شاه

ابتداء هذه الدولة كان في (سنة ٤٩٠) من محمد خوارزم شاه بن انوش تكين غرشه مملوك رجل من غرشستان — اشترى بلكابك السلجوقي انوش تكين المذكور من سيده وكان محبوبًا وعلا محله وتقدم وولد لهُ محمد المذكور فرباه واحسن تاديبهُ فنشأ عارفًا وابتسم السعد لهُ واشتهر بحسن

التدبير والمعرفة . وكان قد حصل فتنة من الاتراك في خراسان قتل فيها النائب على خوارزم فارسل برقيارق احد امرائهِ المسمى داذا الحبشي لاخماد الفتنة واصلاح الشان فذهب واصلح امر خوارزم واستعمل عليها السنة المذكورة محمد بن انوشتكين ولقبهُ خوارزم شاه فبذل محمد جهده في معدلةٍ ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب اهل العلم والدين وعظم ذكره ثم اقره السلطان سنجر على ولايتهِ وعظمت منزلتهُ وامتد حكمهُ وحكم بنيهِ الى ان كان سبب زوال ملك السلاجقة في ايران ولهذه الدولة ذكر عظيم في حرب التتار كما سياتي وبعد محمد المذكور ولي ابنهُ اطسز فمد ظلال الامن ونشر لواء العدل

وفيها كانت حروب بين رضوان صاحب حلب واخيهِ دقاق صاحب دمشق ابني تتش السلجوقي وكان مع رضوان اولاً باغي سيان بن محمد صاحب انطاكية وجناح الدولة صاحب حمص وقصد رضوان دقاقًا ورجع خائبًا وصار الى القدس ورجع كذلك ثم فارق باغي سيان رضوان وسار مع دقاق وقصد دقاق رضوان والتقيا في قنسرين وانجلى الامر عن هزيمة دقاق والخطبة في دمشق لرضوان

وخطب رضوان للخليفة المستعلي صاحب مصر اربع جمع ثم اعاد خطبة العباسيين وفيها قتلت الباطنية ارعش النظامي بالري وكان قد علا وارتفع شانهُ وتزوج بابنة ياقوتي عم السلطان برقيارق وقتلوا ايضًا الامير برسق من اصحاب طغريل بك وهو اول شحنة من جهة السلاجقة ببغداد وكان الباطنية يغتالون كل من يتوهمون فيهِ ضررًا لشيعتهم

وبدأ الاختلاف (سنة ٤٩٢) بين برقيارق واخيهِ محمد بن ملكشاه ومحمد وسنجر شقيقان وامهما ام ولدٍ وقوي محمد واستوزر مويد الملك عبيد الله بن نظام الملك وقصد اخاهُ برقيارق بالري فسار برقيارق منها وقبض مويد الملك وزير محمد على زبيده خاتون ام برقيارق واخذ خطها بمال ثم خنقها . ثم استمال محمد كوهرايين شحنة بغداد وكربوغا صاحب الموصل وارسل يطلب الخطبة في بغداد فخطب لهُ بها ثم ذهب برقيارق الى بغداد (سنة ٤٩٣) واستعاد الخطبة لنفسهِ وجمع لقتال اخيهِ والتقيا عند النهر الابيض في نواحي همذان وكان النصر لمحمد وانهزم برقيارق الى الري وارسل محمد الى بغداد فاعاد الخطبة لنفسهِ . ثم قصد برقيارق خراسان واجتمع مع داذا امير الجيش ووقع بين برقيارق واخيهِ سنجر قتال وكانت الهزيمة لبرقيارق وانطلق الى جرجان والدامغان واجتمع اليهِ اصحابه (سنة ٤٩٤) ثم سار الى همذان فلحق بهِ الامير اياز بخمسة الاف فارس والتقى اخاهُ محمدًا واشتد النزال الى اخر النهار وانهزم محمد واُسر مويد الملك واُحضر الى برقيارق فقبل منهُ خط والدتهِ وقتلهُ بيدهِ . وهرب محمد الى خراسان واجتمع باخيهِ سنجر وتحالفا على الصفو والكدر وجمعا وقصدا برقيارق بالري فسار برقيارق الى بغداد وضاقت

الاموال عليهِ فصرف لهُ الخليفة كرهًا خمسين الف دينار ومد برقيارق يدهُ الى اموال الرعية ولحقة مرض واستولى اخواهُ على بلادهِ وقصداهُ الى بغداد فطلب ان يحمل الى الجانب الغربي ثم وجد خفةً فسار عن بغداد الى جهة واسط ووصل محمد وسنجر الى بغداد وشكى الخليفة المستظهر اليهما سوء تصرف برقيارق معهُ وخطب لمحمد ببغداد

ثم سار محمد عن بغداد (سنة ٤٩٥) وجمع برقيارق من واسط والتقاهُ بروذرواذ وكانت جنودها متقاربة العدد فتصافا ولم يقتتلا ومشى الامراء بينهما بالصلح على ان يكون برقيارق السلطان ومحمد الملك ويكون لمحمد من البلاد اذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل والباقي لبرقيارق وتحالفا على ذلك وافترقا ثم انتقضا والتقيا عند الري وهو المصاف الرابع بينهما فانتصر برقيارق على محمد وهرب محمد الى اصفهان ونهبت خزائنهُ ثم سار برقيارق وحصره في اصفهان وضيق عليهِ ففر من اصفهان مستخفيًا وشيع برقيارق خلفهُ عسكرًا فلم يظفروا بهِ ورحل برقيارق الى همذان

و(في سنة ٤٩٦) كان المصاف الخامس بين برقيارق واخيهِ محمد بخوى وانهزم محمد الى ارجيش من اعمال خلاط على اربعين فرسخًا من خوى وسار برقيارق الى جبلٍ بين مراغة وتبريز كثير العشب والماء ثم سار الى زنجان . ثم دخلت (سنة ٤٩٧) وفيها جرى الصلح بين برقيارق ومحمد على ان لا يذكر اسم برقيارق في البلاد التي لمحمد وان لا يتكاتبا بل تكون المكاتبة بين وزيريهما وان لا يعارض العسكر في قصد ايهما شاء . والبلاد التي استقرت لمحمد بموجب الصلح فهي من النهر المعروف باسبيذرا الى باب الابواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون لهُ من العراق بلاد صدقة بن مزيد وما بقي لبرقيارق . وبلغت الرسل المستظهر العباسي واعلموه بالصلح وخطب لبرقيارق ببغداد وكان شحنتهُ وقتئذٍ ايلغازي بن ارتق

ومن حوادث المدة المذكورة من حروب برقيارق ومحمد ما جرى بين كمشتكين بن طيلو المعروف بابن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس وبين الفرنج وكانوا قد قصدوا بلاده وانتصر عليهم (سنة ٤٩٣) وقيل لهُ ابن الدانشمند لان اباه كان معلم التركمان والمعلم عندهم يدعى كذلك

وفيها توفي ابو علي يحيى بن عيسى بن جذلة الطبيب صاحب المنهاج في الادوية والاغذية المفردة والمركبة وكان نصرانيًا فاسلم واشتهر بمؤلفاتهِ منها كتاب تقويم الابدان وغيره وبرسالة يرد بها على النصارى ويخطئهم

ومنها في السنة المذكورة ابتدأت دولة بيت (شاهرمن) في خلاط وذلك ان سقمان القطبي اولهم الذي كان مملوك الملك اسمعيل قطب الدين السلجوقي صاحب مدينة مرند من اذربيجان اشتهر بالكفاءة والشهامة وكان تركيًا . وكان بنو مروان ملوك ديار بكر قد كثر ظلمهم لخلاط فكاتب اهل

خلاطة سقمان المذكور واستدعوه للاستيلاء عليهم وفتحوا له الابواب فذهب واستلمها وفر بنو مروان عنها وملكها سقمان الى (سنة ٥٠٥) وخلفه ولده ظهير الدين .

ومن الحوادث المذكورة ايضاً (سنة ٤٩٤) اخذ ابن عمار مدينة جبلة وهو ابو علي بن محمد بن عمار صاحب طرابلس . وكان صاحب جبلة اولاً ابن صليحة فلما قدم الفرنج وحاصروه بها كتب ابن صليحة وهو القاضي ابو محمد عبيد الله بن منصور الى طغتكين اتابك دقاق صاحب دمشق يطلب اليه ارسال من يستلم جبلة منه ويحفظها فارسل اليها طغتكين ابنه الملقب تاج الملوك بوري فتسلم جبلة واساء السيرة واستدعى اهلها ابن عمار المذكور فارسل عسكراً فأسر بوري الى طرابلس فاحسن اليه ابن عمار ورده على ابيه

ومنها اخذ الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة من بلك الارتقي وارسوف بساحل عكة وقيسارية

ومنها وفاة المستعلي بامر الله ابي القاسم احمد بن المستنصر معد العلوي في صفر (سنة ٤٩٥) وعمره ثمان وعشرون سنة لسبع سنين من خلافته . وكان مدبر دولته الافضل بن بدر الجمالي . وخلفه ابنه ابو منصور ولقب الآمر باحكام الله وكان عمره لما بويع نحو خمس سنين وقام بامره الافضل المذكور

ومنها موت كربوغا في السنة المذكورة بخوى واستيلاء موسى التركماني عاملة بحصن كيفا على بلاد الموصل بطلب اهلها — وكان يملك جزيرة ابن عمر رجل تركي يقال له شمس الدولة جكرمش وهذا قصد الموصل واستولى بطريقه على نصيبين فالتقاه موسى المذكور ولكن غدر بموسى عسكره وصاروا الى خصمه فرجع الى الموصل ولحق به جكرمش وحصره بها مدة طويلة فاستعان موسى بسقمان بن ارتق وكان بديار بكر واعطاه حصن كيفا فسار سقمان اليه فرحل عنها جكرمش وخرج موسى لملتقى سقمان فوثب عليه جماعة من اصحابه وقتلوه عند قرية كوثا ودفن على تل هناك يعرف بتل موسى ورجع سقمان الى حصن كيفا . وعاد جكرمش فحاصر الموصل وتسلمها صلحاً وحكم بعدل فيها

ومنها حصار دي صنجيل الافرنجي ابن عمار بطرابلس والصلح على مال حمله اهلها . ثم حصاره حصن الاكراد وجمع جناح الدولة صاحب حمص العسكر ليسير اليه فقتله الباطنية فكان ان ذهب صنجيل من حصن الاكراد ونازل حمص وملك اعمالها

ومنها استيلاء دقاق بن الب ارسلان صاحب دمشق على الرحبة واخذ بلك بن بهرام بن ارتق بن اكسك مدينتي عانة والحديثة من بني يعيش بن عيسى (سنة ٤٩٧) وذلك بعد اخذ الافرنج سروج منه

ومنها وصول المدد الى الفرنج فسار دي صنجيل الى طرابلس وحاصرها برًّا وبحرًا ثم تركها الى

جبيل فاخذها صلحًا ثم قام الى عكه وبها (بنا) زهر الدولة امير الجيوش عامل الخليفة العلوي وحاصرها برًّا وبحرًا وبعد قتال طويل اخذها عنوة وهرب بنا الى الشام ثم الى مصر ثم سار صنجيل الى خران. وهناك اتفق جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن ارتق ومعه التركمان واجتمعا على الخابور والتقاه على نهر البليخ فانهزم صنجيل وعسكر الفرنج هدنًا غفيرًا

وفيها مات دقاق صاحب دمشق فخطب طغتكين اتابكه لابن دقاق وكان طفلاً ثم قطع الخطبة وخطب البلتاش اخي دقاق ثم قطعها واعادها للطفل فاستقر طغتكين بملك دمشق

وفيها سار صدقة بن مزيد صاحب الحلة الى واسط واستولى عليها وضمن البطيحة لمهذب الدولة بن ابي الخير بخمسين الف دينار

وفي (سنة ٤٩٨) توفي بركيارق بن ملكشاه ومرضهُ السل والبواسير ولما ايس من الشفا خلع على ولده ملكشاه وعمره اربع سنين و٨ اشهر فاحضر الامراء واعلمهم باقامة ولده ولي عهده وجعل الامير اياز اتابكًا له فاجابوهُ مطيعين وخطب لملكشاه في جوامع بغداد

وتوفي بركيارق ببروجرد ودفن باصفهان وكان عمره خمسًا وعشرين سنة لاثنتي عشرة سنة واربعة اشهر من ولايته وقاسى في حياته من اختلاف الحالات ورخاء وشدة ونعمة وزوالها ما لم يقاسه غيره في سنه وابتلي بطمع امرائه وكان صابرًا حليمًا جوادًا حسن المداراة جوازًا عن السيئات

ولما بلغ محمدًا موت اخيه بركيارق عزم على اخذ الامر لنفسه فقصد بغداد ونزل بالجانب الغربي وكان اياز وملكشاه في الجانب الشرقي منها وجمعا للمبارزة لكن الصفي وزير اياز اشار على اياز بالصلح ومشي بينهما فيه وحضرت الفقهاء والعلماء وحلفوا محمدًا لاياز وللامراء الذين معه وحضر اياز ومعه ملكشاه الى محمد فاكرمها وصارت السلطنة لمحمد وعمل اياز وليمة عظيمة دعا اليها السلطان محمدًا وقدم له اموالاً عظيمة فما مضى على تلك الحالة عشرون يومًا وذلك خمسة ايام من الوليمة المذكورة حتى غدر السلطان محمد باياز وقتله وبعد نحو شهر من ذلك في رمضان في السنة المذكورة قتل الصفي ايضًا وكان من بيت رئاسة بهمذان وعمره ست وثلاثون سنة

وفيها توفي سقمان بن ارتق في القريتين على طريق دمشق بالخوانيق وكان ذاهبًا اليها بطلب طغتكين ليجعله مقاتلاً للافرنج وخلف سقمان ابرهيم وداود وحمل الى حصن كيفا ودفن هناك وكان واليًا عليه وعلى ماردين وتوصله الى الاستيلاء على ماردين كان بدعوة نائب علي ابن اخي ياقوتي لابن اخي سقمان وكان علي قد ورثها عن اخيه ياقوتي وهذا اخذها من انسان مغنٍّ كان قد وهبها له السلطان بركيارق . ولما مات سقمان صارت ماردين لاخيه ايلغازي وحصن كيفا لولده ابرهيم ثم مات ابرهيم فاخذه اخوه داود وبعد داود ابنه قرا ارسلان المتوفي (سنة ٥٦٠)

وفيها كانت وقعة بين فرنج انطاكية ورضوان السلجوقي صاحب حلب عند شيزر وكانت مشومة على المسلمين واستولى الفرنج على ارتاح

و(في سنة ٤٩٩) اخذ سيف الدولة صدقة بن مزيد صاحب الحلة مدينة البصرة

وفيها حاصر الفرنج فامية واخذوا القلعة والبلد وقتلوا القاضي الذي كان يتولاها من قبل رضوان صاحب حلب وكانت اولاً في يد خلف بن ملاعب الكلابي وهذا كان اولاً مستوليًا على حمص وكان يقطع الطرق حتى طردهُ منها تنش السلجوقي صاحب دمشق فسار الى مصر واقام هناك ثم اتفق ان متولي فامية من قبل رضوان صاحب حلب كان يميل الى مذهب خلفاء مصر فكاتبهم سرًّا بان يرسلوا من يستلم فامية منهُ فطلب ابن ملاعب الكلابي ان يرسلوهُ ففعلوا واستولى عليها وعلى القلعة ثم استبد وخلع الطاعة لمصر ورجع الى قطاعة الطرق فاتفق قاضي فامية وجماعة من اهلها على التخلص منهُ فطلبوا الى رضوان صاحب حلب فارسل اليهم من ساعدهم على قتل خلف وتولى القاضي فامية فاخذها منهُ الفرنج تلك السنة

وفيها فتح دي صنجيل جبلة وحصر طرابلس وبني حصنًا بالقرب منها وبنى تحتهُ ربضًا ويعرف بحصن صنجيل فخرج عليهِ ابو علي بن عمار صاحب طرابلس واحرق الربض ووقف صنجيل على بعض سقوفهِ المحرقة فانخسف بهِ فمرض ومات ودفن في بيت المقدس ودامت الحرب بين الفرنج وابن عمار خمس سنوات

و(في سنة ٤٩٩) سار السلطان محمد السلجوقي من اذربيجان الى الموصل لياخذها من جكرمش صاحبها وحاصرها فقاتل أهلها اشد قتال ودام القتال من صفر الى جمادى الاولى فوصل الخبر الى جكرمش بوفاة السلطان بركيارق فارسل الى محمد يبذل له الطاعة ودخل اليهِ وزير محمد وقال له المصلحة ان تحضر بالحال الى السلطان محمد وهو لا يخالفك بشيء واخذ بيده فقام وسار معهُ ولما راهُ اهل الموصل بكوا خائفين عليهِ لانهم كانوا يحبونهُ ولما دخل على السلطان محمد اقبل عليهِ واكرمهُ وعانقهُ ولم يمكنهُ من الجلوس بل ارجعهُ حالاً لاهل المدينة قائلاً ارجع الى رعيتك فان قلوبهم اليك فقبل الارض وعاد وعمل من الغد سماطًا بظاهر الموصل وضيافة عظيمة والطف السلطان بهدايا والطاف جليلة وهكذا الوزير

و(سنة ٥٠٠) نهض الجاولي سقاوو الى الموصل محاربًا بالف فارس وخرج اليهِ جكرمش في مثلها فانهزمت عساكر جكرمش وبقي هو لا يقدر على الفرار لانهُ كان مفلوجًا فقبض عليهِ وكان في الحرب صورة محمولاً على محفة فامر الجاولي بحفظهِ وحراستهِ ولما بلغ اهل الموصل ذلك اقاموا ولدهُ زنكي وعمره احدى عشرة سنة فحاصر الجاولي الموصل آمرًا ان يحمل جكرمش كل يوم على بغل

وينادي اصحابهُ بالموصل ليسلموا البلد ويخلصوا اصحابهم ويامرهم هو ايضًا بذلك فلا يسمعون وكان يسجنهُ في جب فاخرج يومًا ميتًا وعمره نحو ستين سنة فكتب اصحابهُ الى قلج ارسلان بن قطلومش السلجوقي صاحب مدينة قونية واقصرا فسار بعساكره ولما بلغ ذلك جاولي رحل عن الموصل فتوجه قلج ارسلان وتسلم الموصل ونزل بالمفرقة وخرج اليهِ زنكي ولد جكرميش واصحابهُ فخلع عليهم وجلس على التخت واسقط خطبة السلطان محمد بن ملكشاه صاحب ايران وخطب لنفسهِ واحسن الى العسكر ورفع الرسوم المحدثة في الظلم وترك فيها ابنهُ ملكشاه ثم سار عنها الى جاولي وهو بالرحبة والتقيا على نهر الخابور فقوي عليهِ جاولي والقى قلج ارسلان نفسهُ في النهر يحمي نفسهُ من اصحاب جاولي بالنشاب فانحدر بهِ الجواد الى ماء عميق فغرق وظهر بعد ايام فدفن بالشمالية وسار جاولي الى الموصل وملكها وذهب ملكشاه بن قلج ارسلان الى السلطان محمد

وفيها مات يوسف بن تاشفين ملك المغرب والاندلس وكان قد ارسل الى بغداد فطلب التقليد من المستظهر العباسي فارسلهُ اليهِ مع الخلع وهو الذي بنى مدينة مراكش وخلفهُ ولده علي ولقب كابيهِ اميرالمسلمين

وفيها ملك سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد صاحب الحلة والنيل مدينة تكريت سلمها اليهِ كيقباذ بن هزارسب الديلمي وكانت اولاً لبني معن ثم خرجت عنهم وتنقلت حتى صارت لاقسنقر صاحب حلب ثم لكوهراتين ثم لمجد الملك البلاساني ثم لكيقباذ المذكور

وفيها توفي الامير شرخاب بن بدر بن مهلهل المعروف بابن ابي الشوك الكردي وكان لهُ اموال وخيول لا تحصى وخلفهُ اخوهُ منصور وبقيت امارتهم ماية وثلثين سنة

فصل

في الربع الاول من القرن السادس للهجرة

وكان افتتاح هذا الربع من الجيل السادس بمقتل سيف الدولة صدقة بن دبيس الاسدي في قتال مع السلطان محمد السلجوقي وكان اميرًا شجاعًا وقاتل حتى قتل وهلك يومئذٍ من اتباعهِ نحو ثلثة الاف فارس لاحدى وعشرين سنة من امارتهِ وكان عمره تسعًا وخمسين وكان من متشيعي السلطان محمد وضد بركيارق ولكنهُ طمع في كرم محبوبهِ فكان يحمي كل من بينهُ وبين السلطان محمد المذكور خلف حتى غضب السلطان على ابي دلف شرخاب بن كيخسرو صاحب ساوة فاستجار بصدقة فاجاره ولم يرد ان يسلمهُ فكان ما كان من قتالهِ وقتلهِ واسر ولده دبيس وشرخاب المذكور

• وفيها توفي تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية وعمره تسع وسبعون وولايته ست واربعون سنة وترك اربعين ابنًا وستين بنتًا وكان ذكيًا حليمًا وخلفهُ ابنهُ يحيى وعمره فتئذٍ ثلث واربعون سنة ونصف

وفيها ذهب فخر الملك ابو علي بن عمار صاحب طرابلس الى العراق مستنفرًا همة الخليفة والسلطان محمد السلجوقي ومساعدتهما ضد الفرنج فلم ينل اربهُ فرجع الى دمشق واقام عند طغتكين فاقطعهُ الزبداني ودخل اهل طرابلس في طاعة خليفة مصر

و(في سنة ٥٠٢) اركب السلطان محمد مودود الطنتكين على الموصل فاخذها من اصحاب جاولي وكان جاولي قد هرب الى الرحبة ثم لحق بالسلطان محمد بقرب اصفهان فعفا عنهُ

وفيها ولي السلطان محمد شحنكية بغداد لمجاهد الدين بهروز وامره بعمار دار المملكة فيها ففعل واحسن الى الناس ثم ولاه لسروره منهُ شحكية العراق كلهِ

وفيها كان بين الباطنية وامراء بني منقذ قتال في شيزر فهلك كل باطني وكان ذلك في فصح النصارى والامراء قد ذهبوا يتفرجون على الاحتفال فثار جماعة من الباطنية في شيزر وامتلكوا القلعة فرجع الامراء وتبادرت الاهالي فاصعدتهم النساء بالحبال وقبضوا على المذكورين واهلكوهم

وفيها توفي الخطيب ابو زكريا يحيى بن علي التبريزي احد ائمة اللغة قرأ على ابي العلا بن سليمان المعري وغيره وسمع الحديث بمدينة صور من الفقيه سليم بن ايوب الرازي وغيره وتخرج عليهِ خلق كثير وشرح ديوان المتنبي ولهُ في النحو مقدمة عزيزة الوجود والف كتابًا في اعراب القران سماه الملخص في اربعة مجلدات وغير ذلك من التاكيف المفيدة — سافر من تبريز الى المعرة ثم الى مصر وقرأ بها على طاهر بن باشباذ ثم عاد الى بغداد واقام بها الى الممات وكانت ولادتهُ (سنة ٤٢١)

قال ابو الفدا وفي هذه السنة (اي سنة ٥٠٢) حادي عشر ذي الحجة ملك الافرنج مدينة طرابلس. وقال ابو الفرج ان فيها سار تنكريد الفرنجي صاحب انطاكية الى الثغور الشامية فملك طرسوس وادنه ونزل حصن الاكراد وتسلمهُ من اهلهِ وملك الفرنج بيروت وكانت بيد نواب الخليفة العلوي انتهى

و(في سنة ٥٠٤) ملك الفرنج صيدا بالامان. وفيها سار صاحب انطاكية الى الاثارب بقرب حلب وحصره واخذه عنوة ثم سار الى ذروتا فاخذها بالسيف ثم الى منبج وباليس وكان قد اخلاها اهلها فرجعوا عنها وصالح رضوان صاحب حلب الفرنج على اثنين وثلثين الف دينار يحملها اليهم مع خيول وثياب ووقع خوف الافرنج بقلوب الشاميين فذلوا لهم واخذوا يبذلون لهم الاموال لاجل الصلح فصالحهم اهل صور على سبعة الاف دينار وابن منقذ صاحب شيزر على اربعة الاف وعلي الكردي

صاحب حماة على النبن الى غير ذلك

وفيها في جمادي الاخرة توفي الامام ابو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي حجة الاسلام زين الدين الطوسي اشتغل بطوس ثم قدم نيسابور واشتغل على امام الحرمين واجتمع بنظام الملك فاكرمهُ وفوض اليهِ تدريس مدرسة النظامية ببغداد في (سنة ٤٨٤) ثم ترك جميع ما كان عليهِ في (سنة ٤٨٨) وسلك طريق التزهد والانقطاع وحج وقصد دمشق واقام بها مدة ثم انتقل الى القدس واجتهد في العبادة ثم قصد مصر واقام باسكندرية مدة ثم عاد الى وطنهِ بطوس وصنف الكتب المفيدة المشهورة منها البسيط والوسيط والوجيز والمنخول والمنتخل في علم الجدل وغير ذلك وكانت ولادتهُ (سنة ٤٥٥) ونسبة الى طوس من خراسان وطوس مدينتان تسمى احداهما طابران والاخرى نوقان والغزالي نسبة الى الغزال والعجم تقول في القصار قصاري وفي الغزال غزالي وفي العطار عطاري (ابو الفدا)

و(سنة ٥٠٦) في المحرم سار مودود صاحب الموصل الى الرها وارعى عساكره زرعها ثم رحل الى سروج وفعل كذلك ولم يحترس من الفرنج فلم يشعر الا وجوسلين صاحب تل باشر قد دهمهم وكبسهم وكانت دواب العسكر في الرعي منتشرة فاخذ كثيرًا منها وقتل كثيرًا من العسكر وعاد الى تل باشر

وفيها مات باسيل الارمني صاحب دروب بلاد ابن لاون وهو المسمى كوغ باسيل اي اللص باسيل لانهُ سرق عدة قلاع من الثغور وتملكها الارمن

وفيها توفي قراجه صاحب حمص وقام بعده قيرخان ومثلهُ سقمان القبطي صاحب خلاط وخلفهُ ولده ظهير الدين ابرهيم ومات (سنة ٥٢١) ثم اخوهُ احمد ومات بعد عشرة اشهر فتولت امهُ اينانج خاتون وهي بنت اركان واستبدت بخلاط ومعها ابن ابنها سقمان بن ابرهيم ابن ست سنين فلحظ انها تريد اعدامهُ لتنفرد بالملك فخنقت براي كبراء الدولة (سنة ٥٢٨) واستقر ابن ابنها سقمان (شاهرمن) الى ان توفي (سنة ٥٧٩)

و(في سنة ٥٠٧) سار المسلمون ومعهم الامير مودود الطنتكين صاحب الموصل ودخلوا بلاد الافرنج والتقوا عند طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان وانهزم الافرنج اخيرًا فاذن الامير مودود للعساكر بالعود والراحة ثم الاجتماع في الربيع ودخل دمشق ليقيم بها عند طغتكين صاحبها الى الربيع فدخل الجامع ليصلي فوثب عليهِ باطني كانهُ يدعو لهُ ويتصدق منهُ وضربهُ بسكين وجرحه اربع جراحات فمات من يومهِ وقتل الباطني واخذ راسهُ ولم يعرف فاحرق

وفيها توفي رضوان بن تنش صاحب حلب وخلفهُ ابنهُ الب ارسلان الاخرس دعي كذلك لان

في لسانهِ حبسة وتمتمة ولم يحسن السيرة وكان رضوان قد قتل اخويه ابا طالب وبهرام وكان لهُ مع الباطنية دخل لستخدمهم في اموره الاغتيالية . ولما قام الب ارسلان بن رضوان استولى على اموره لولوء الخادم وكانت امهُ بنت باغي سيان صاحب انطاكية وصار قتل الباطنية الذين في حلب وكانوا جماعة ونهبت اموالهم

ثم دخلت (سنة ٥٠٨) وفيها ارسل السلطان محمد السلجوقي اقسنقر البرسقي واليًا على الموصل عوض مودود بن الطنتكين الذي كان قد قتل وامر السلطان الامراء واصحاب الاطراف بالمسير لقتال الفرنج

ثم حدث اختلاف بين ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ادى الى قتال هرب فيهِ البرسقي وسار ايلغازي الى طغتكين صاحب دمشق خوفًا من السلطان محمد واتفق مع طغتكين وكاتبا الافرنج وتحالفا معهم ونهض ايلغازي الى جهة بلاده فقبض عليهِ بقرب حمص قيرخان بن قراجه صاحبها وبقي في اسره ثم تحالفا واطلقهُ

وفيها توفي الملك علاء الدين ابو سعد مسعود بن ابرهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين سلطان غزنة لثمان وعشرين سنة من ولايتهِ وملك بعده ابنهُ ارسلان شاه فقبض على اخوتهِ وفر منهم بهرام شاه واستجار بالسلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي صاحب خراسان فشفع بهِ عند اخيهِ فلم يقبل فقصد السلطان سنجر غزنة والتقى بالسلطان ارسلان شاه واشتد القتال بينهما وكان النصر للسلطان السلجوقي ودخل غزنة واستولى عليها (سنة ٥١٠) واخذ منها اموالاً عظيمة واجلس بهرام شاه على التخت على ان يخطب في مملكتهِ للسلطان محمد ثم لهُ ثم لبهرام شاه وعاد سنجر الى بلاده وكان ارسلان شاه قد هرب الى جهة الهند ثم جمع وعاد الى غزنة فاستنجد بهرام شاه بسنجر ثانية فانجده بعسكر فهرب ارسلان دون قتال وتبعوهُ حتى امسكوهُ وخنق ودفن بتربة ابيهِ بغزنة (سنة ٥١٢) وعمره سبع وعشرون سنة

وفي السنة المذكورة (٥٠٨) قتل تاج الدولة الب ارسلان الاخرس صاحب حلب قتلهُ غلمانهُ بقلعة حلب واقاموا اخاه سلطان شاه بن رضوان وكان المتولي لولوءا

ثم للاسباب التي ذكرت سابقًا ارسل السلطان محمد السلجوقي عسكرًا غفيرًا لقتال طغتكين صاحب دمشق وايلغازي صاحب ماردين فعبروا الفرات من الرقة وقصدوا حلب فعصت فساروا الى حماة وهي تابعة دمشق ففتحوها عنوةً ونهبوها ثلاثة ايام وسلموها الى الامير قيرخان بن قراجه صاحب حمص واقام العسكر بحماة وكان طغتكين وايلغازي وملوك الفرنج وهم صاحب انطاكية وصاحب طرابلس وغيرها حلفًا واحدًا بفامية ثم تفرقوا فسار السلاجقة من حماة الى كفرطاب فاستولوا عليها

من الافرنج واعملوا بهم السيف ثم قاموا الى المعرة وهي للفرنج فلم يقدروا عليها فساروا الى حلب فالتقاهم بغتة صاحب انطاكية في اثناء طريقهم فهزمهم ونهبهم وقتل منهم كثير وتفرق الباقون

وفيها توفي يحيى بن تميم صاحب افريقية فجأة وخلفه ولده علي وكان عمر يحيى ثنتين وخمسين سنة وخلف ثلثين ولدًا

وفيها اصطلح طغتكين والسلطان محمد واخذ السلطان محمد الموصل من اقسنقر البرسقي واقطعها لجيوش بك وبقي البرسقي في الرحبة

و(في سنة ٥١٠) مات جاولي سقاوة بفارس التي ولاه عليها السلطان محمد بعد اخذه الموصل منه

و(سنة ٥١١) مرض السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ومات وعمره ست وثلاثون سنة وكسر واول ما خطب له ببغداد (سنة ٤٩٢) وقطعت خطبته عدة مرار ولقي من الاخطار ما لا مزيد عليه واطلق المكوس والضرائب في جميع بلاده وعهد لابنه محمود واحضره قبل موته وقبله وبكيا وامره ان يجلس على تخت السلطنة وعمره فوق اربع عشرة سنة وقتئذٍ . فقال محمود لابيه انه يوم غير مبارك كما يقول المنجمون فقال صدقت ولكن على ابيك واما عليك فمبارك فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين وكان السلطان محمد عظيم الهيئة عادلاً حسن السيرة شجاعًا

وفيها قتل لولو وكان قد استولى على حلب واعمالها قتله جماعة من اتراكه وهو في زيارة سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر ونهبوا خزائنه وعادوا الى حلب فانفق اهل حلب واستعادوا منهم المال وقام باتابكية سلطان شاه بن رضوان شمس الخواص بارقطاش شهرًا ثم عزل وولي ابو المعالي الدمشقي ثم عزل وصودر وسلم اهل حلب المدينة لايلغازي بن ارتق صاحب ماردين خوفًا من الفرنج فاستلمها واستناب فيها ولده حسام الدين تمرتاش وعاد الى ماردين

وفيها تغرقت مدينة سنجار من عظم السيل ومات خلق كثير وهدمت المنازل

وفيها عزل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه مجاهد الدين بهروز وولى شحنكية بغداد لاقسنقر البرسقي وعاد بهروز الى تكريت وكانت اقطاعه

واطلق الامير دبيس بن صدقه باذن السلطان محمود وذهب الى الحلة واجتمعت عليه العرب والاكراد وقد ذكرنا كيف اسره السلطان محمد وقتل اباهُ صدقه

و(في سنة ٥١٢) توفي الامام المستظهر بالله خليفة بغداد لاربع عشرة بقين من ربيع الاخر وعمره احدى واربعون سنة ونصف وخلافته اربع وعشرون وكان في ايامه ثلثة سلاطين خطب لهم بحضرة بغداد وهم تاج الدولة تتش بن الب ارسلان والسلطان برقيارق ومحمد ابنا ملكشاه قال ابو

الفدى ومن الاتفاق الغريب انهُ لما توفي السلطان الب ارسلان توفي بعدهُ القائم بامر الله ولما توفي ملكشاه توفي بعده المقتدي ولما توفي محمد توفي بعده المستظهر وموتهُ كان سنة مات فيها بالدوين الثاني ملك القدس

خلافة المسترشد بالله تاسع عشريهم من (سنة ١١١٨ - ٥١٢ الى سنة ١١٣٤-٥٢٩)

بويع لابي المنصور فضل بن احمد المستظهر بعد وفاة ابيهِ ولقب بالمسترشد قال ابو الفرج «وكان ولي عهد خطب لهُ ثلثًا وعشرين سنة في حياة ابيهِ»

و(في سنة ٥١٢) توفي بالدوين الاول ملك القدس قال ابو الفرج وكان قد سار الى ديار مصر في جمع من الفرنج وبلغ مقابل بلبيس وسبح في النيل فانتقض جرح كان بهِ فلما احس بالموت عاد الى القدس فمات بهِ ووصي لقومص صاحب الرها وهو الذي كان قد اسره جكرمش واطلقهُ جاولي سقاوهِ» والاصح ما قالهُ ابن خلكان في ترجمة الآمر العلوي «وقيل في سنة ٥١١ قصد بردويل (بالدوين) الفرنجي الديار المصرية فانتهى الى الفرما ودخلها واحرقها واحرق جامعها ومساجدها ورحل عنها راجعًا الى الشام وهو مريض فهلك في الطريق قبل وصولهِ الى العريش فشقهُ اصحابهُ ورموا حشوتهُ هناك فهي ترجم الى اليوم ورحلوا بجثتهِ فدفنوها بقمامة» وتاريخ الفرنج يذكرانهم حنطوهُ ورجعوا بهِ والذي خلفهُ هو قريبهُ بالدوين دي بورغ لان اخاه يوستاق كان في اوربا وقتئذٍ ودعي بالدوين الثاني وكان السبب في ذلك جوسلين دي كورتناي ولذلك جازاه بالدوين بامارة ادسه (اورفه)

و(في سنة ٥١٣) جرت حرب شديدة بين السلطان سنجر بن ملكشاه وابن اخيهِ محمود بن محمد بالري قرب ساوه وانهزم محمود ونزل سنجر في مضاربهِ . ثم اصطلحا وزار السلطان محمود عمهُ سنجر واكرمهُ واحسن اليهِ وصارت الري لسنجر والخطبة اولاً لسنجر ثم لمحمود

وفيها هزم ايلغازي الفرنج بموقعة قرب حلب وقتل منهم كثير وفيها صار جوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر الى بلاد دمشق ليكبس بني ربيعة واميرهم (مر) فضل جوسلين عن عسكرهِ والتقى العسكر بالعرب واقتتلوا وانهزم الفرنج وفيها اعاد السلطان سنجر بهروز الى شحنكية بغداد . ونقل ابو الفدا في تاريخهِ عن ابن الاثير في كاملهِ عن تاريخ حمزة بن اسد بن علي بن محمد التميمي انهُ فيها ظهر قبر ابرهيم الخليل وولديهِ اسحق ويعقوب بالقرب من بيت المقدس وراهم كثير من الناس وكانت اجسادهم غير بالية وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضة وقد ادرجنا ذلك على عهدة الناقل لا من حيثية الحادثة نفسها بل من حيثية كون ذلك القبر قبر ابرهيم وابنيهِ

و(في سنة ٥١٤) خرج الكرج ومعهم القفجاق وغيرهم من الامم فاجتمع الامير ايلغازي ودبيس بن صدقه والملك طغريل وكان له ايران ونخجوان وهو من السلاجقة وساروا الى الكرج حتى قاربوا تفليس . وكان المسلمون في عسكر كثير نحو ثلاثين الفًا فالتقوا واصطف الطايفتان فخرج من القفجاق مائتا رجل فظن المسلمون انهم مستأمنون . فلم يحترزوا منهم فدخلوا بينهم ورموهم بالنشاب فاضطرب صفوف المسلمين وظن من وراهم انها هزيمة فانهزموا ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضًا فقتل منهم جم غفير وتبعهم الكرج نحو عشرة فراسخ وقتلوا كثيرًا واسروا نحو اربعة الاف ونجا الملك طغريل وايلغازي ودبيس وعاد الكرج وحاصروا تفليس واشتد قتالهم لمن بها وعظم الامر وتفاقم الخطب وبقي الحصار الى (سنة ٥١٥) وملكوها عنوة

وفيها كتب دبيس بن صدقة ابتغاء نوال المنزلة العالية الى جيوش بك اتابك مسعود بن السلطان محمد وكان له الموصل واذربيجان برغبة في طلب السلطنة لمسعود ووعده بالانجاد وهكذا كان قد فعل ابوهُ صدقة سابقًا بالقاء الفتنة بين السلطان بركيارق واخيهِ محمد . فاستحسن مسعود هذا الراي وخطب لنفسهِ بالسلطنة وجمع وسار الى قتال اخيهِ محمود فالتقيا عند عقبة استراباذ واشتد القتال بينهما وانهزم عسكر مسعود وهرب مسعود واختفى في بعض الجبال وارسل يطلب الامان من اخيهِ فبذلهُ له وقدم مسعود الى اخيهِ فالتقاهُ باحتفال وتعانقا وبكيا واعلى محمود اكرام اخيهِ مسعود . ثم قدم جيوش بك اتابك مسعود على السلطان محمود فاحسن اليهِ . اما دبيس فلما بلغهُ كل ذلك اخذ في افساد البلاد ونهبها فنهاهُ السلطان محمود عن ذلك فلم ينتهِ فسار اليهِ فترك الحلة والتجأ الى ايلغازي صاحب ماردين وانتهى الامر بان ارسل دبيس اخاه منصورًا رهينة وعاد الى الحلة لازمًا السلام وحسن التصرف

فصل

في دولة الموحدين بالعدوتين وافريقية وبداية امرهم وتقلب احوالهم

فلنترك الان الشرق قليلاً ونوجه النظر لحظة الى اطراف المغرب في تلك الاماكن المتنازعة في ايام الملثمين المقدم ذكرهم

قال ابن خلدون ما معناهُ « انهُ في عهد علي بن يوسف من دولة لمتونه نجم محمد بن عبد الله بن تومرت صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدي اصلهُ من هرغة من بطون المصامدة وهو محمد بن عبد الله بن وجليه بن يصال بن حمزة بن عيسى فيما ذكرهُ ابن رشيق وحققهُ ابن القطان . قال وذكر بعض مورخي المغرب انهُ هو محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سقيون بن انكلديس

بن خالد . ثم قال وزعم كثيرٌ من المورخين ان نسبهُ في اهل البيت واصّلهُ الى ادريس الاكبر من العلويين نسجت عروقهُ في قبائل المصامدة والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار في عددهم وكان اهل بيتهِ اهل نسك ورباط »

ورحل ابن تومرت هذا في طلب العلم الى المشرق على راس المائة الخامسة ومر بالاندلس ودخل قرطبة مقرّ العلم وقتئذٍ ثم اجاز الى الاسكندرية وحج ودخل العراق ولقي جملة من العلماء وفحول النظار وافاد علمًا واسعًا واتقن العربية والفقه والحديث واجتمع بالغزالي على ما قيل وبالكيا الهراسي رئيس المدرسة النظامية في بغداد وبابي بكر الطرطوشي وكان يحدث نفسهُ بالدولة لقومهِ على يدهِ لما كان الكهان يتحينون ظهور دولة يومئذٍ بالمغرب وكانت نفسهُ تميل الى ذلك لما كان فيهِ الاسلام يومئذٍ باقطار الارض من اختلال الدولة وتقوض اركان الخلافة الجامعة للامة وانطوى هذا الامام على ذات صدرهِ راجعًا الى المغرب بحرًا متفجرًا من العلم وشهابًا واريًا في الدين وكان قد لقي ايمة الاشعرية من اهل السنة واستحسن طريقهم وذهب الى رايهم في تاويل المتشابه من الآي والاحاديث واعلن بامامتهم ووجوب تقليدهم وكان من رايهِ القول بعصمة الامام على راي الامامية من الشيعة واخذ بالانكار على الناس والزامهم باقامة الصلوات وغير ذلك من احكام الشريعة وتغيير المنكرات

وبوصولهِ راجعًا من المشرق الى قرية ملالة بالقرب من بجاية اتصل بهِ عبد المومن بن علي الكومي وكان على جانب من النجابة وسار معهُ واخذ ينهي عن المنكر ويامر بالمعروف ويعظ الناس بمذهبه ويذهب من مكان الى اخر وهو يلتقي اذيات بنفسهِ وكان يحتسبها من صالح عملهِ فشدد بالنهي عن المنكرات وكثرت اتباعهُ وحسنت ظنون الناس فيهِ

ثم ارتحل الى بلاد هرغة ونزل على قومه (سنة ٥١٥) وبنى رابطة للعبادة واجتمعت اليهِ الطلبة يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري . ولما اشتهر امره استحضره امير المسلمين علي بن يوسف بن ناشفين بحضرة الفقهاء فناظرهم وقطعهم ثم اشار بعض وزرائهِ عليهِ وهو مالك بن وهب القرطبي وكان حزّاء ينظر في النجوم وعلم الغيب بقتل ابن تومرت او اقله سجنه فطلبهُ علي بن يوسف ثانية ففقده وسرح الخيالة في طلبهِ ففاتهم وسار الى اغمات ولحق بالجبل واجتمع اليهِ الناس وكبرت شيعتهُ وصدق بدعوته كثير من رجالاتهم وقام اليهِ عبد المومن المذكور في عشرة انفس وبايعوهُ ولقبوهُ بالمهدي وكان قبلاً يدعى الامام وكان يسمي اصحابهُ الطلبة واهل دعوتهِ الموحدين ولما تم لهُ خمسون صاحبًا سماهم آية الخمسين وزحف اليهم عامل السوس ابو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرغة بامر علي بن يوسف امير المسلمين فهزموهُ وقويت نفوس اصحابه واقبلت اليهِ القبائل يبايعونهُ

وعظم امره وتوجه الى جبل عند تينمليل لثلاث سنين من بيعتهٔ فاوطنهٔ وبني داره ومسجده بينهم وقاتل من تخلف عن بيعتهِ من المصامدة مثل اولاد هزرجة وهكورة و بني سكيت وعجرامة وانتصر على جميعهم الى ان كان شأن البشير وميز الموحد عن المنافق—وهو انهٔ راى من بعض جموعه قومًا خافهم فقال ان الله اعطاني نورًا اعرف بهِ اهل الجنة من اهل النار وجمع الناس الى راس جبل وجعل يميزهم فمن خافهٔ كان من اهل النار والقي من راس الشاهق ومن لم يخف شره قال انهٔ من اهل الجنة فجعل عن يمينهِ وكان عدد اهل النار يومئذٍ على ما نقل سبعين الفًا . وكانوا يسمون لمتونه الحشم فاعتزم على غزوهم وجمع كافة اهل دعوتهِ من المصامدة وزحف اليهم فلقوهُ (بكيكب) وهزمهم واتبعهم الى اغمات فلقيهِ هناك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف وغيره واقتتلوا وانتصر الموحدون ولحقوهم الى مراكش (سنة ٥٢٤) وكان فيما بين اصحابهِ الونشريسي وعبد المومن ونزلوا البحيرة زهاء اربعين الفًا منهم اربعماية فارس فقط والقوا الحصار على مراكش فبرز اليهم علي باحشاده من باب ايلان فهزمهم واثخن فيهم قتلاً وسبيًا فقتل النوشريسي وصار عبد المومن مقدم العسكر ولما بلغ المهدي هزيمة عسكره وكان مريضًا اشتد مرضهٔ وسال عن عبد المومن فقالوا سالم فقال المهدي لم يمت احد واوصى اصحابه باتباع عبد المومن وعرفهم انهٔ هو الذي يفتح البلاد وسماهُ اميرالمومنين ومات في مرضهِ المذكور وعمرهُ احدى وخمسون سنة لعشرين سنة من بيعتهِ

ولما هلك المهدي (سنة ٥٢٤) وقيل سنة ٥٢٢ قام عبد المومن الى تينمليل واقام بها يولف القلوب خوفًا من افتراق كلمة الموحدين لان عبد المومن لم يكن من المصامدة فارجأوا الامر الى ان يخالط بشاش الدعوة قلوبهم وكتموا موت المهدي قيل ثلث سنين يموهون بمرضهِ ويقيمون سنته في الصلاة وكان اصحابهٔ يجلسون حوالي قبره للاستشارة ثم يخرجون لانفاذ ما راموهُ فيتولاهُ عبد المومن بتلقينهم حتى اذا استحكم امرهم وتمكنت الدعوة من نفوس كافتهم كشفوا جسد القناع عن حالهم وتمالأ من بقي من العشرة على تقديم عبد المومن واظهروا للناس موت المهدي وعهدهُ لصاحبهِ وانقياد بقية اصحابهِ لذلك فاجمع القوم على بيعتهِ بمدينة تينمليل (سنة ٥٢٨) وقيل (٥٢٤)

ثم سار عبد المومن واستولى على الجبال وابعد في الغزوات فغزا تادلا ودرعه وتاسعون ونحوها وتسارع الناس الى دعوتهِ افواجًا وانتقض البرابر في سائر اقطار المغرب علي لمتونه فسرّح علي بن يوسف لقتالهم (سنة ٥٣٣) من ناحية ارض السوس وحشد معهٔ قبائل كزولة وجعلهم في مقدمتهِ فلقيهم الموحدون باوائل حفلهم وهزموهم ورجع علي ولم يلق حربًا ودخل كزولة بعده في دولة الموحدين واجمع عبد المومن على غزو بلاد المغرب فغزا غزواتهِ الطويلة منذ (سنة ٥٣٤) الى سنة احدى واربعين غير راجع الى تينمليل ثم خرج اليهِ علي بعساكره يحاذيه في البسائط والناس

يفرون منه الى عبد المومن وهو ينتقل في الجبال في سعة من الفواكه والعيش الى ان وصل الى جبل غمارة واشتعلت نار الفتنة والغلا واقشعرت الرعايا في المغرب وتضايق المسلمون في العدوة ايضًا وكان علي بن يوسف قد جعل ابنه تاشفين يسير في الوطأة قبالة عبد المومن ثم هلك علي بن يوسف (سنة ٥٣٧) وولى امر العساكر تاشفين ابنه وبعد مصاعب ومناوشات عديدة اجمع تاشفين الرحلة الى وهران وبعث ابنه ابرهيم ولي عهده الى مراكش في جماعة من لمتونة ورحل هو الى وهران (سنة ٥٣٩) فاقام عليها شهرًا ينتظر قائد اسطوله محمد بن ميمون الى ان وصله من المرية بعشرة اساطيل وارسى قريبًا من معسكره وزحف عبد المومن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ ابا حفص عمر بن يحيى من الاصحاب وابن مانو من زناتة ونقدموا الى بلاد بني يلومى وبني عبد الواد وبني ورسيفين وبني توجين واثخنوا فيهم حتى دخلوا في دعوتهم ووفد على عبد المومن روساوهم وكان منهم سيد الناس بن امير الناس شيخ بني يلومى فتلقاهم بالقبول وسار بهم في جموع الموحدين الى وهران ففتحوها ولجا تاشفين الى رابية هناك فاحدقوا بها واضرموا النيران حولها حتى غشيهم الليل فخرج تاشفين من الحصن راكبًا على فرسه فتهور من بعض حافات الجبل وهلك لسبع وعشرين من رمضان (سنة ٥٣٩) وبعث براسه الى تينمليل وقيل ٢٩ رمضان وهي ليلة يعظمها المغاربة ونجا فلّ العسكر الى وهران فانحصروا مع اهلها حتى جهدهم العطش واخذوا قرع السيف يوم الفطر من تلك السنة

ثم قام عبد المومن الى تلمسان وهي مدينتان بينهما شوط فرس الواحدة اسمها قاررت (تاكرارت) بها اصحاب السلطان والاخرى اسمها افادير فملك قاررت اولاً وقرر امرها وجعل على افادير جيشًا يحصرها ثم سار الى فاس وملكها بالامان (سنة ٥٤٠) ورتب امرها ثم الى سلا فاخذها (سنة ٥٤١) وفتح العسكر افادير بعد حصرها سنة وقتلوا اهلها

ثم سار عبد المومن ونازل مراكش وكان يملكها اسحق بن علي بن يوسف اخو تاشفين المذكور وهو صبي فحاصرها عبد المومن احد عشر شهرًا وفتحها بالسيف وامسك اسحق وجماعة من امراء المرابطين فطلب اسحق العفو واخذ يبكي فقال له (سير) اكبر امراء المرابطين وكان مكتوفًا اتبكي على ابيك وامك اصبر صبر الرجال وبصق في وجه اسحق فنهض الموحدون وقتلوا سيرًا المذكور وقدم اسحق على صغر سنه فضربت عنقه (سنة ٥٤٢)وهو اخر ملوكهم وكانت مدة دولة المرابطين ثمانين سنة من (٤٦٢) وولى منهم اربعة يوسف وابنه علي وابنا علي تاشفين واسحق المذكور

ولما فتح عبد المومن مراكش استوطنها وجعل قصر ملوك مراكش جامعًا زخرفه وهدم الجامع الذي بناه يوسف بن تاشفين

ثم اركب جيوشاً عديدة الى الاندلس ووكل الامر لاحمد بن قيسي صاحب مرتلة وكان القواد على العساكر برار بن محمد المسوفي وموسى بن سعيد وعمر بن صالح الصنهاجي . ثم الحق بهم يحيى بن يغمور فاكمل الفتح الاول وتلاحق الثوار بمراكش طالبين الامان من عبد المومن فتقبلهم وصفح عنهم ونهض الى مدينة سلا (سنة ٥٤٥) واستدعى منها اهل الاندلس فوفدوا عليهِ وبايعوهُ جميعاً وبايعهُ الروساء من الثوار على الانخلاع من الامر مثل سدراتي بن وزير صاحب باجة وباثورة . والبطروجي صاحب لبلة . وابن عزرون صاحب شريش ورندة . وابن الحجام صاحب بطليوس وعامل بن مهيب صاحب طبايرة وتخلف ابن قيسي واهل شلب عن هذا الجمع فكان سبباً لقتلهِ من بعد . ورجع عبد المومن الى مراكش وانصرف اهل الاندلس الى بلادهم واستصحب الثوار فلم يبرحوا في حضرتهِ

ثم بلغ عبد المومن ما هيّج افريقية عليهِ من اختلاف الامراء واستطالة العرب عليها بالفساد والعيث وانهم حصروا مدينة القيروان وان موسى بن يحيي المرداسي دخل مدينة باجة وملكها فاجمع الرحلة الى غزو افريقية بعد ان شاور الشيخ ابا حفص وابا ابرهيم وغيرهما من المتيجة فوافقوهُ وخرج من مراكش (سنة ٥٤٦) فانتهى الى سبتة واستوضح احوال الاندلس . ثم رحل موريا بمراكش الى باجة فدخل الجزائر على غفلة وخرج اليهِ الحسن بن علي صاحب المهدية واعترضهُ جيوش صنهاجة بام العلو فهزمهم . وركب يحيي بن العزيز البحر في اسطولين كان اعدها لذلك واحتمل فيهما ذخائره واموالهُ ولحق بقسنطينه الى ان نزل بعد ذلك منها على امان عبد المومن واستقر بمراكش تحت الجراية والعناية

ثم سرح عبد المومن عساكر الموحدين وعليهم ابنهُ عبدالله الى القلعة فاقتحمها واستلحم من كان بها من جموع صنهاجة وقيل نحو ثمانية عشر الفاً وامتلأت ايدي الموحدين من الغنائم والسبي وبلغ خبر ذلك الى العرب من الاثبج وزغبة ورياح وقسرة فعسكروا بظاهر باجة وتآمروا على الدفاع عن ملكهم يحيي بن العزيز وارتحلوا الى سطيف وكان عبد المومن قد قفل الى المغرب ونزل متيجة فبعث المدد لعبدالله والتقى الفريقان بسطيف واقتتلوا فتفرق جموع العرب واستلحموا وسبيت نساوهم واكتسحت اموالهم واسرت ابناوهم ورجع عبد المومن الى مراكش (سنة ٥٤٧) . ثم وفد عليهِ كبراء العرب طائعين فوصلهم ورجعوا الى قومهم وعقد على فاس لابنهِ السيد ابي الحسن واستوزر لهُ يوسف بن سليمان . وعقد على تلمسان لابنهِ السيد ابي حفص واستوزر لهُ ابا محمد وانودين . وعلى سبتة لابنهِ السيد ابي سعيد واستوزر لهُ محمد بن سليمان . وعلى بجاية للسيد ابي محمد عبد الله واستوزر لهُ يخلف بن الحسين . واختص ابنهُ عبدالله بولاية العهد . فتغيرت بذلك ضمائر عبد العزيز وعيسى اخوي المهدي فلحقا بمراكش مضمرين الغدر وادخلا بعض الاوغاد في شأنهما فوثبوا بعمر بن تافراكين

وقتلوهُ بمكانهِ من القصبة · ووصل على اثرهما ابو حفص بن عطيه وعبد المومن نفسهُ على اثره فطفأا نار تلك الثورة وقتل اخوا المهدي وغيرهما ممن داخل فيها

ثم اكمل فتح الاندلس واستولى على كل اعمال الملثمين وجعل بعض تغييرات في الولاة (سنة ٥٥٣) ثم ثارت عليهِ بعض الولايات في الاندلس وانتقضت عليهِ افريقية فذهب الى افريقية اولاً واخذ المهدية صلحًا (سنة ٥٥٥) وبها من نصارى اهل صقلية واستنقذ جميع البلد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من ايدي العدو وارسل ابنهُ عبدالله الى قابس فاستخلصها من يد بني كامل و(قفصة) من يد بني الورد و(ورغة) من يد بني يروكسن و(طبرية) من يد ابن علال وجبل زغوان من يد بني حماد بن خلفة ونحو ذلك واستبد بملك تلك البلاد · ثم انتقض عليهِ الاعراب فرجع اليهم عسكر الموحدين فنهضوا الى القيروان واوقعوا بالعرب وقتل كبيرهم عزر بن زياد الفارغي من بني علي احد بطون رياح

ثم ارسل جيوشًا فحاربوا ابن همشك في غرناطة وهزموهُ مع نصيره ابن مردنيش في جموع النصارى وفر ابن مردنيش الى مكانهِ من شرق الاندلس ولحق ابن همشك بجيان فحاربوهُ هنالك ايضًا

وتوفي عبد المومن بن علي في تلك السنة (٥٥٨) في سلا ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين وقال لهم قد جربت ابني محمدًا فلم اره يصلح لهذا الامر وانما يصلح لهُ ابني يوسف فبايعوهُ ودعي بامير المومنين واستقرت قواعد ملكه وكانت مدة ولاية عبد المومن ثلثًا وثلاثين سنة وكان سفاكًا للدماء سديد الراي حسن السياسة متعصبًا وكان يلزم الناس على الصلاة فمن وجد غير مصلٍّ وقت الصلوة قتل · وجميع المغرب على مذهب ابي الحسن الاشعري في الاصول وعلى مذهب مالك في الفروع

واقام يوسف في ملك المغرب والاندلس وافريقية الى (سنة ٥٨٠) التي فيها سار الى بلاد الاندلس في جمع عظيم من عساكره وقصد بلاد الافرنج غربي الاندلس فحصر شنترين واصابهُ مرض ومات في ربيع الاول وحمل الى اشبيلية لثنتين وعشرين سنة من ولايتهِ وكان حسن السيرة واستقامت لهُ المملكة · ولما توفي بايع الناس ولده يعقوب وكنيته ابو يوسف وقام يعقوب بالملك احسن قيام وكان من المجاهدين ثم توفي (سنة ٥٩٥) بمدينة سلا لخمس عشرة سنة من امارتهِ وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية واعرض عن مذهب مالك ولقب بالمنصور وكان عمره لما مات ثمانيًا واربعين سنة · وخلفهُ ولده محمد وتلقب بالناصر ومولده (سنة ٥٧٦) وكان اشقر اسيل الخد دائم الاطراق كثير الصمت الثغ · وتوفي (سنة ٦١٠) لست عشرة سنة من امارتهِ وقام بعده ابنهُ يوسف وتلقب بالمستنصر وكنيته ابو يعقوب

وهذا كان منهمكًا باللذات ودخل في وقتهِ الوهن على الدولة وتوفي (سنة ٦٢٠) ولم يترك ابنًا فاجتمع كبراء الدولة واقاموا عم ابيهِ عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن ولقبوهُ المستضيء وكان

قبل بيعته قد افتقر جدًا فلما صار امير المومنين اشتغل باللذات والتنعم في المآكل والملابس ثم خلع بعد تسعة اشهر وقتل وقام عوضهُ ابن اخيهِ عبد الله وتلقب (بالعادل) وهو عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن

فهذا اقام الى (سنة ٦٢٤) وخلع وفي ايامهِ كانت الوقعة بين المسلمين والافرنج بالاندلس على طليطلة وانهزم المسلمون هزيمة قبيحة وبها انهدت دعائم الاسلام في تلك البلاد وبعد خلعه خنقوهُ ونهب المصامدة قصره بمراكش واستباحوا حرمهُ . ثم ملك بعده يحيى بن محمد الناصر بن يعقوب من ولد عبد المومن وكان شابًا امرد ولما تمت البيعة ورد الخبر عن قيام ادريس بن يعقوب المنصور وهو اخو العادل وتلقب بالمامون وجميعهم كانوا يتلقبون بامير المومنين وتعقد البيعة لهم بالخلافة

ولما استقر امر ادريس المامون المذكور باشبيلية ثار بعض اهل مراكش ومعهم العرب ووثبوا على يحيى بن محمد الناصر فهرب الى الجبل ثم اتصل بعرب المعقلي فغدروا بهِ وقتلوهُ وخطب للمامون بمراكش واستقر امره بالخلافة في البرين . ثم خرج عليهِ بشرق الاندلس المتوكل بن هود واستولى على الاندلس ففارق ادريس الاندلس الى مراكش وخرجت الاندلس حينئذٍ عن ملك بني عبد المومن

ولما استقر في ملك مراكش تتبع الخارجين فقتلهم عن اخرهم وسفك دماء كثيرة حتى دعي حجاج الغرب . وكان المامون المذكور فصيحًا عالمًا بالاصول والفروع ناظمًا ناثرًا وامر باسقاط اسم مهديهم ابن تومرت من الخطبة على المنابر وعمل في ذلك رسالة طويلة افصح فيها بتكذيب المهدي وضلالهِ

ثم ثار على ادريس المذكور اخوه بسبتة فسار ادريس من مراكش اليهِ وحصرهُ ثم بلغهُ وهو محاصر لسبتة ان بعض اولاد محمد الناصر قد دخل مراكش فرحل عن سبتة الى مراكش ومات في الطريق

ثم خلفهُ ولده عبد الواحد وتلقب بالرشيد ثم توفي الرشيد غريقًا في صهريج بستان لهُ بحضرة مراكش (سنة ٦٤٠) وكان حسن السياسة فاعاد اسم المهدي الى الخطبة وقمع العرب الا انهُ تحلى للذاتهِ ولم يخطب لهُ بافريقية ولا بالغرب الاوسط . ثم خلفهُ اخوهُ علي بن ادريس وتلقب بالمعتضد امير المومنين (وكان اسود) وقتل (سنة ٦٤٦) في حصار قلعة بالقرب من تلمسان

ثم ملك بعد المعتضد ابو حفص عمر بن ابي ابراهيم بن يوسف منهم وتلقب بالمرتضي . ثم قدم في الحادي والعشرين من محرم (سنة ٦٦٥) الواثق ابو العلاء ادريس المعروف بابي دبوس الى مراكش وهرب المرتضي الى ازمور بالنواحي فقبض عليهِ واعلم الواثق بذلك فامر بقتلهِ فقتل (سنة ٦٦٥) بموضع يسمى كتامة ثلاثة ايام عن مراكش . واقام الواثق ابو دبوس ثلث سنين وقتل في

حروب بني مرين ملوك تلمسان وانقرضت دولة بني عبد المومن بموتهِ (سنة ٦٦٨) واستولى بنو مرين على ملكهم وابو دبوس هو نفسهُ اسمهُ ادريس بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن كما ذكرهُ صاحب وفيات الاعيان

تتمة الربع الاول من القرن السادس للهجرة

و(في سنة ٥١٠) اقطع السلطان محمود الموصل واعمالها كالجزيرة وسنجار للامير اقسنقر البرسقي الملقب بقسيم الدولة وهو جد دولة الاتابك المشهورة

وفيها قتل الافضل امير الجيوش ابن بدر الجمالي بسوق الصياقلة وبقي الآمر باحكام الله الخليفة العلوي ينقل من داره الاموال اربعين يومًا وكان لهُ من التحف والغنى ما لا يحصى وولى الخليفة بعده ابا عبد الله البطائحي

و(سنة ٥١٥) عصى سليمان ابن ايلغازي بن ارتق على ابيهِ بحلب وقد جاوز عمره عشرين سنة فسمع والده فسار اليهِ مجدًا فلم يشعر بهِ سليمان حتى هجم عليهِ فخرج اليهِ معتذرًا فامسك عنهُ وقبض على من كان اشار عليهِ بذلك منهم اميركان قد التقطهُ ارتق ورباهُ واسمهُ قرناس فقلع عينيهِ وقطع لسانه ومنهم انسان حموي كان قد قدمهُ ايلغازي على اهل حلب وجعل اليهِ الرئاسة فقطع يديه ورجليهِ وسمل عينيهِ فمات واحضر ولده وهو سكران واراد قتلهُ ومنعهُ عنهُ رقة قلبهِ فابقاه فهرب الى دمشق واستناب ايلغازي سليمان ابن اخيهِ عبد الجبار بن ارتق وبقي بها الى ان اخذها منهُ ابن عمهِ (سنة ٥١٧) بلك بن بهرام بن ارتق لما راى ضعف بدر الدولة سليمان المذكور عن حوط بلاده من الفرنج فسار اليهِ الى حلب وضيق على من بها وتسلمها بالامان . وبلك المذكور هو الذي سار (سنة ٥١٨) الى منبج وملكها وحصر القلعة وبينا هو يقاتل اتاه سهم فقتلهُ واضطرب عسكره وتفرقوا وملك اقسنقر البرسقي حلب وقلعتها

وفيها اي (سنة ٥١٥) اقطع السلطان محمود السلجوقي ميافارقين للامير ايلغازي المذكور وكان بين بلك بهرام بن ارتق وبين جوسلين حرب انتصر بها بلك واسر جوسلين ومعهُ ابن خالتهِ وليم (كليام) واسر جماعة من فرسانه ولم يقبل بلك الفدى بالمال وسجنهم في قلعة خرتبرت

وفيها توفي ابو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري صاحب المقامات ولادتهُ نحو (سنة ٤٤٦) كان اماماً في النحو واللغة ولهُ عدة مولفات منها المقامات التي امره بتصنيفها انوشروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود وكان الحريري قد الف مقامة واحدة على وضع مقامات البديع وعرضها على انوشروان وكان خصيصًا بهِ فامره بانشائها واتمامها والحريري بصري المولد

وكان ينتسب الى ربيعة الفرس

وفي السنة نفسها قتل مويد الدين الحسين بن علي بن محمد الطغرائي المنشي الدئلي من ولد ابي الاسود الدئلي الاصفهاني وكان عالمًا فاضلاً شاعرًا كاتبًا منشئًا خدم السلطان ملكشاه بن الب ارسلان وكان متوليًا ديوان الطغر ثم استوزره السلطان مسعود وجرت بينهُ وبين اخيهِ محمود الحرب فاسر الطغرائي وقتئذٍ وقتل صبرًا ومن شعره قصيدتهُ الشهيرة التي مبداها

اصالة الراي صانتني عن الخطل   وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وكان قد جاوز الستين وقيل قتل (سنة ٥١٤) والطغراوي من علماء الكيميا ولهُ في ذلك مولفات

و(في سنة ٥١٦) قتل السلطان محمود جيوش بك وهو الذي كان قد خرج على السلطان مع مسعود اخيهِ وكان قد اقطعهُ اذربيجان فسعوا بهِ اليهِ فامر بقتلهِ على باب تبريز

وفيها توفي ايلغازي بن ارتق بميافارقين وملك بعدهُ في ماردين ابنهُ تمرتاش وفي ميافارقين ابنهُ سليمان وكان بحلب ابن اخيهِ سليمان بن عبد الجبار

وفيها اقطع السلطان محمود مدينة واسط لاقسنقر البرسقي صاحب الموصل واعمالها فاستعمل عليها البرسقي عماد الدين زنكي ابنهُ

و(في سنة ٥١٧) كانت حرب بين الخليفة المسترشد بالله وبين دبيس بن ضدقة وخرج اليهِ الخليفة بنفسهِ فانهزم دبيس وسار الى البصرة ونهبها ثم سار الى الشام وصار مع الفرنج ورغبهم في ملك حلب . وفيها اخذ الافرنج الاثارب من سليمان بن عبد الجبار بن ارتق واستولوا على خرتبرت وخلصوا جوسلين وجماعتهُ من حبسهم هناك وكانت لبلك الارتقي ثم تركوها ورجع بلك اليها

وفيها هجم طغتكين صاحب دمشق على حمص ونهبها وحصر صاحبها قيرخان بن قراجه بالقلعة ثم رحل عنها الى دمشق

وفيها صار محمود بن قراجه صاحب حماة الى فامية وهجم ربضها فاصابهُ سهم في يده فعاد الى حماة وعملت عليهِ يده فمات وكان ظالمًا فلما بلغ ذلك طغتكين ارسل الى حماة عسكرًا وملكها

و(في سنة ٥١٨) قتل بلك بن بهرام وسببهُ انهُ قبض على الامير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار الى منبج فملكها وحصر القلعة فاتاه سهم منها فقتلهُ وتفرّق عسكره وخلص حسان وعاد اليها . وكان في عسكر بلك تمرتاش ابن عمهِ فحملهُ الى حلب وملكها في عشرين ربيع الاول ورتب امرها وعاد الى ماردين

وفيها فتح الافرنج مدينة صور بالامان بعد حصار طويل وكانت للعلويين وخرج منها المسلمون في ٣٠ جمادى الاولى بما قدروا من الاموال .

وفيها انضم الى الفرنج دبيس بن صدقة وحاصروا حلب وضاق الامر على الحلبيين وكاتبوا تمرتاش المذكور فلم ينجدهم لانهُ كان منهمكًا باللذات والرفاهة فكتبوا الى اقسنقر البرسقي صاحب الموصل فسار اليهم ورحلت الفرنج عنها وسلم اهل حلب المدينة والقلعة له ثم سار البرسقي (٥١٩) الى كفرطاب واخذها من الفرنج ثم الى عزاز وكانت لجوسلين فاجتمع الفرنج لقتاله وانهزم وكانت موقعة خاسرة. وفيها مات سالم العقيلي صاحب قلعة جعبر وقام بعده ابنه مالك

و(سنة ٥٢٠) قتل قسيم الدولة اقسنقر البرسقي صاحب الموصل بالموصل قتلهُ الباطنية يوم الجمعة بالجامع وملك ابنهُ عز الدين مسعود ولم يختلف عليهِ احد . وكان البرسقي مملوكًا تركيًا شجاعًا دينًا حسن السيرة

وفيها كان قتال بين طغتكين صاحب دمشق والفرنج فانهزم طغتكين والتركمان الذين معهُ وتبعهم الافرنج فتمادوا في تتبعهم وكان قد تاخر من عسكر طغتكين قسم لعدم قدرتهم على الجري فذهبوا الى خيام الفرنج ونهبوها وقتلوا من وجدوهُ فيها ولما رجع الفرنج من وراء عدوهم ووجدوا كذلك تفرقوا وفيها حصر الفرنج دفنية

قال المورخ ابو الفرج « ومن العجب ان صاحب انطاكية ارسل الى عز الدين مسعود يعرفهُ عن قتل والده قبل ان يصل اليهِ الخبر وكان الافرنج قد عرفوهُ لشدة عنايتهم بمعرفة الاحوال الاسلامية»

و(سنة ٥٢١) تولي اتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر شحنكية العراق اسندها اليهِ السلطان محمود السلجوقي قبل ان ترك بغداد تلك السنة

وفيها توفي عز الدين مسعود بن اقسنقر وتولى اخوهُ عماد الدين زنكي المذكور الموصل واعمالها وكان عز الدين مسعود يحارب الرحبة فاستولى عليها ومرض ومات يوم تسليمها اليهِ فقام بالامر بعده مملوك لهُ اسمهُ جاولي وهذا اقام اخًا لمحمود صغيرًا وارسل الى السلطان محمود يطلب توليتهُ فلم يجبهُ الى ذلك فسار عماد من بغداد ورتب امر الموصل واقطع الرحبة لجاولي المذكور ثم سار عماد الدين واستولى على نصيبين وسنجار وحران وجزيرة ابن عمر ثم ولي السلطان محمود شحنكية بغداد لمجاهد الدين بهروز

و(في سنة ٥٢٢) استرد عماد الدين زنكي حلب وقلعتها واخذ في طريقهِ منبج وبزاعة وكان قد عصى في حلب قتلغ الذي اقامهُ عماد الدين عليها فقبض عليهِ وكحلهُ فمات

و(في سنة ٥٢٤) في ٢ ذي الحجة قتل الآمر باحكام الله ابو علي ابن المستعلي العلوي صاحب مصر وقتلهُ الباطنية لتسع وعشرين سنة من خلافتهِ وعمرهُ ٣٤ سنة وكان بلا ولد فولى بعدهُ ابن عمهِ ابو الميمون عبد المجيد ابن ابي القاسم ابن المستنصر ولقب الحافظ لدين الله ولم يبايع بالخلافة بل

[illegible] ولم يكن يظهر حق للآمر بالامر من ولد المهدي عبد الله

وفيها ظهر ببغداد عقارب طيارة ذوات شوكتين فآذت الناس كثيرًا واستوزر الحافظ ابا علي احمد بن الافضل الجمالي فاستبد بالامر وتغلب على الحافظ ونقل ما كان بالقصر الى داره ولم يزل كذلك الى ان قتل (سنة ٥٢٦)

و(في سنة ٥٢٥) توفي السلطان محمود ابن السلطان محمد بهمذان وكان عمرهُ نحو سبع وعشرين سنة وولايته ١٣ سنة وكان حليمًا كريمًا عاقلاً يسمع ما يكره ولا يعاقب قليل الطمع عفيفًا كافلاً لاصحابهِ عن التطرف الى اموال الناس وملك ابنهُ داود بعدهُ

ومن طوارق اخر هذا الربع موت طغتكين صاحب دمشق وهو من ماليك تتش بن الب ارسلان وكان يلقب ظهير الدين وخلفهُ ابنهُ تاج الملوك توري بعهدٍ من ابيهِ ثم عصيان دبيس على السلطان والخليفة وترددت بينهم الرسل واخيرًا التزم السلطان ان يذهب الى بغداد ويجهز عسكرًا على دبيس فهرب المذكور ناهبًا البصرة واموال الخليفة والسلطان   وتاج الملوك المذكور هو الذي ساعد وزيره طاهر بن سعد المزدغاني بهرام من الاسماعيلية وسلمهُ قلعة بانياس وعظم امر بهرام بالشام كما سبق في خبر الاسماعيلية الى ان قتل بهرام في قتال بينهُ وبين اهل وادي التيم فاستناب عوضهُ المزدغاني رجلاً من الباطنية اسمهُ ابو الوفا وارتفع شان ابي الوفا وصار كل شيء بيده فكاتب الفرنج يعرض عليهم دمشق عوض صور فاجابوهُ الى ذلك فعلم غدرهُ وقبض عليهِ وقتل هو وكل باطني بدمشق وكانوا نحو ستة آلاف نفر ثم وصل الفرنج في الميعاد وحصروا دمشق فلم ينالوا شيئًا فرحلوا ولحقهم توري بعسكر دمشق الى ان تجاوزوا الحدود وكان منهم اسمعيل الباطني يحكم على قلعة بانياس فسلمها للافرنج ومنها ما فعل عماد الدين زنكي من الغدر على سونج بن توري وذلك ان عماد الدين زكب من الموصل الى جهة الشام وعبر الفرات وكاتب توري ملك الشام يستنجدهُ على الفرنج فطلب توري الى سونج ابنهِ صاحب حماة ان يسير الى عماد الدين فلما وصل اليهِ غدر بهِ وامسكهُ ونهب خيامهُ واعتقل سونج وجماعة من مقدمي عسكرهِ بحلب وسار الى حماه وملكها لخلوها من الجند ثم سار الى حمص وحاصرها وكان معهُ صاحبها قيرخان بن قراجه الذي كان قد غدر بهِ كذلك وامرهُ ان يامر نائبهُ بتسليمها فامرهُ فلم يفعل ولما آيس منها رحل عائدًا الى الموصل ومعهُ سونج وبقية المعتقلين وكتب توري اليهِ يبذل الاموال في ابنهِ فلم يطلقهُ

ومنها اخذ الافرنج القدموس واخذ عماد الدين زنكي حصن الاثارب منهم وكان الحصن المذكور مضرًّا جدًّا على حلب لان الفرنج كانوا يسطون دائمًا على كل اعمال حلب ويقاسمونهم كل شيء بها ثم خرب عماد الحصن المذكور وبقي خرابًا

ومنها اتخاذ الرصد شرقي بغداد تولاه البديع الاسطرلابي ولم يكمل

ومنها اسر دبيس بن صدقة وكان السبب في اسره ان صاحب قلعة صرخد الخصي مات وكان لهُ سرية فاستولت على القلعة ولما علمت انها لا تقدر على حمايتها بدون ان يكون لها رجل رحلت الى دبيس بن صدقة تستدعيه للتزوج بهِ وتسلم اليهِ صرخد وما فيها من مال وغيره فسار دبيس وضل بهِ الادلاء فوقع في يد عرب من كلب بنواحي دمشق شرقي الغوطة فحملوهُ الى تاج الملوك توري فحبسهُ وسمع بذلك عماد الدين زنكي بن اقسنقر فارسل الى توري يطلبهُ ويطلق لهُ ولده سونج ومن معهُ من الامراء فاجابهُ توري وافرج زنكي عن المذكورين وتسلم دبيسًا فايقن دبيس بالموت لانهُ كان كثير الوقيعة في عماد الدين اما زنكي فعاملهُ بعكس ظنه واحسن اليهِ وحمل اليهِ الاموال والسلاح والدواب وبقي عنده حتى انحدر معهُ الى العراق وسمع الخليفة المسترشد فارسل يطلب دبيسًا مع سديد الدولة ابن الانباري وابي بكر بن بشر الجزري فامسكهما عماد الدين زنكي وسجن ابن الانباري واساء معاملة ابن بشر ثم شفع المسترشد بابن الانباري فاطلقهُ

فصل

في الربع الثاني من القرن السادس

ولما توفي السلطان محمود السلجوقي (سنة ٥٢٥) انفق وزيره ابو القاسم النشاباذي واتابكه اقسنقر الاحمديلي على مبايعة ابنهِ داود وخطب لهُ في جميع بلاد الجبل واذربيجان ووقعت الفتنة بهمذان ونواحيها ثم سكنت فسار الوزير ابو القاسم الى الري باموالهِ ليكون امينًا في ايالة السلطان سنجر وقصد السلطان داود بن محمد بغداد يطلب الخطبة لنفسهِ من المسترشد فوصل الى ربكان وكاتب الخليفة بذلك . ثم بلغهُ خبر ان عمهُ مسعودًا كان قد تحرك في طلب السلطنة لنفسهِ وسار من جرجان الى تبريز فسار اليهِ والقى الحصار على تبريز الى سلخ المحرم (سنة ٥٢٦) ثم اصطلحا وافرج داود عن تبريز وخرج مسعود وانضمت اليهِ العساكر فانتقض وسار الى همذان وكاتب المسترشد في طلب الخطبة لنفسهِ فكان الجواب من الخليفة لكليهما بان الخطبة كانت للسلطان سنجر صاحب خراسان ولمن يراه من بعده . واعلم السلطان سنجر بذلك فوقع عنده عمل الخليفة موقع الاستحسان

ثم كاتب السلطان مسعود عماد الدين زنكي صاحب الموصل واستمالهُ فصار اليهِ حتى انتهى الى المعشوق وبينما هم في ذلك نهض قراجه الساقي صاحب فارس وخوزستان بالملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وكان اتابكًا لهُ ودخل بغداد في جيش عديد ونزل بدار السلطنة واستحلفهُ الخليفة لنفسه ثم وصل مسعود الى عباسة فبرزوا للقائهِ وبلغهم وصول عماد الدين زنكي في مقدمتهِ فذهب اليهِ

الاتابك قراجه وعبر الى الجانب الغربي وناوشه القتال فانهزم زنكي الى تكريت وكان الدزدار بها وقتئذٍ نجم الدين ايوب الكردي ابو السلطان صلاح الدين فسهل له المعابر على الجسر فعبر ومنها كان الموالاة بينهما الى ان حكم بنو ايوب البلاد وهم الدولة الايوبية الشهيرة في مصر والشام والعربية ولها مكانة عظيمة في حروب الصليبيين · وهنا دولتان مما ذكرناهن في النبذ التمهيدية كانتا في الوجود عندما ظهرت الدولة العثمانية المالكة الان وهما الاتابكية والايوبية

ثم قدم السلطان مسعود من العباسة للقاء اخيهِ سلجوق شاه ومن معهُ فبلغهُ خبر عماد الدين زنكي وانهزامهُ فارتجع على الاعقاب وخاطب المسترشد على عمل الاتفاق بينهما واخيرًا اتفقوا على ان يكون العراق للمسترشد يتصرف فيهِ بنوابهِ وتكون السلطنة لمسعود بن محمد والحشنكية وولاية العهد تكونان لسلجوق شاه وعادوا الى بغداد ونزل مسعود بدار السلطنة وسلجوق بدار الحشنكية كل ذلك في جمادي الاولى (سنة ٥٢٦)

ولما بلغ السلطان سنجر ما قر الراي عليهِ بين مسعود وسلجوق شاه اخيهِ سار من خراسان واخذ معهُ طغريل ابن اخيهِ محمد بقصد اخذ السلطنة من مسعود فوصل الى الري ثم الى همذان وسار السلطان مسعود واخوه سلجوق وقراجه الساقي اتابكه وكان المسترشد قد عاهدهم على الخروج فالزموه ثم ان السلطان سنجر بعث الى دبيس بن صدقة واقطعهُ الحلة وامره بالمسير الى بغداد وولى عماد الدين زنكي شحنكية بغداد وامره بالمسير اليها فبلغ المسترشد الخبر فرجع الى بغداد وسار السلطان مسعود واصحابه للقاء سنجر ونزل سنجر باستراباذ في مائة الف من العسكر فخاموا عن لقائهِ ورجعوا الى الوراء اربع مراحل فاتبعهم سنجر وتلاقى الجمعان عند الدينور ثامن رجب فاقتتلوا وكان على ميمنة مسعود قراجه الساقي وكزل · وعلى ميسرتهِ برنقش باردار شحنة بغداد وغيرهما فحمل قراجه الساقي في عشرة الاف على السلطان سنجر حتى تورط في مصافهِ فانعطفوا عليهِ من الجانبين واخذ اسيرًا وانهزمت رجال مسعود وقتل منهم جانب واسر اخرون واحضر قراجه الساقي امام السلطان سنجر فوبخهُ وقتلهُ ثم قدم السلطان مسعود على سنجر فاكرمهُ وعاتبهُ على مخالفتهِ واعاده اميرًا الى كنجة وولي طغريل ابن اخيهِ محمد اخا داود على السلطنة واستوزر لهُ ابا القاسم الشاباذي المقدم خبره ورجع الى خراسان ودخل نيسابور في ١٠ رمضان منها

اما الخليفة فسار الى العباسة وبلغهُ خبر انهزام السلطان مسعود والتقى بخصميهِ عماد الدين ودبيس وتنازلوا بحصن البرامكة اخر رجب وكان في ميمنة المسترشد جمال الدولة اقبال وفي ميسرتهِ مطر الخادم فانهزم اقبال امام زنكي وحمل المسترشد ومطر الخادم على دبيس فانهزم فجاءهُ زنكي واستمرت الهزيمة عليهما ثم افترقوا ومضى دبيس الى الحلة وكانت بيد اقبال وجاء اقبالاً المدد من

بغداد وتصافا وانهزم دبيس و بعد الجهد تخلص من خصمهِ وقصد واسط واطاعهُ عسكرها ثم دخلت (سنة ٥٢٧) فزحف برنقش باردار واقبال في العساكر برًّا وبحرًا وهزموا اهل واسط

هذا ما كان من امر المذكورين اما داود بن محمود فكان في بلاد اذربيجان وكنجة فلما استقر طغريل اخوهُ في بالسلطنة ومضى عمهُ سنجر الى خراسان لخلاف احمد خان صاحب ما وراء النهر عليهِ انتقض وجمع رجالهُ وسار الى همذان وبرز اليهِ طغريل وفي ميمنتهِ ابن برسق وفي ميسرتهِ كزل وفي مقدمتهِ اقسنقر وكان على ميمنة داود برنقش الزكوى والتقيا في رمضان منها فامسك برنقش عن القتال واستراب التركمان منهُ فنهبوا خيمتهُ واضطرب عسكر داود فهرب واسر برنقش الزكوى ومضي داود الى بغداد فانزلهُ المسترشد بدار السلطنة واكرمهُ

ولما بلغ السلطان مسعود هزيمة داود ووصولهُ الى بغداد قدم اليها وخرج داود لتلقيهِ ونزل داود بدار السلطنة في صفر (سنة ٥٢٧) وخطب لهُ على منابر بغداد وخطب لداود بعده ثم اتفقا مع المسترشد على ان يمدها وسار الى اذربيجان وملك مسعود البلاد وحاصر جماعة باردبيل وهزمهم وسار الى همذان و برز طغريل للقائهِ فانهزم واستولى مسعود على همذان وقصد طغريل الري بعد هزيمتهِ ثم عاد الى اصفهان ليمتنع بها وسار مسعود الى حصاره فقام طغريل الى بلاد فارس فتبعهُ مسعود واستامن اليهِ بعض امراء طغريل فهرب طغريل الى الري ولحقهُ مسعود وقاتلهُ فانهزم طغريل وعاد مسعود الى همذان ظافرًا وقتل طغريل وزيرهُ ابا القاسم النشاباذي لموجدة وجدها عليهِ

ثم بلغ مسعودًا وهو بهمذان انتقاض داود ابن اخيهِ محمود باذربيجان فسار اليهِ وحصرهُ فخالفهُ طغريل الى بلاد الجبل واجتمعت عليهِ العساكر ففتح عدة من البلاد وقصد مسعودًا ووصل الى قزوين فسار مسعود للقائهِ وسار من عسكرهِ جماعة الى طغريل لانهُ كان قد استمالهم اليهِ بالوعود فولى مسعود منهزمًا (سنة ٥٢٨) واستاذن المسترشد في دخول بغداد وكان نائبهُ باصفهان البقش السلامي ومعهُ اخوهُ سلجوق شاه فلما بلغهم الخبر لحقوا ببغداد ونزل سلجوق بدار السلطان واهداهُ الخليفة بعشرة الاف دينار ثم قدم مسعود بعدهم وكان قد لقي شدائد في طريقهِ واصحابهِ بين راجل وراكب فارسل لهم المسترشد بالخيام والاموال والآلات ونزل مسعود بدار السلطان واقام طغريل بهمذان

ثم اصلحوا امور العسكر ووعد المسترشد مسعودًا بالمسير معهُ لقتال طغريل وكان جماعة امراء السلجوقية قد تعبوا من الفتنة التي اضعفت المملكة فلحقوا بالخليفة ثم وقع فيهم الخلاف ودس اليهم طغريل بالمواعيد وارتاب بهم المسترشد وهمّ على العدول عن مساعدة مسعود وحصلت الوحشة فيما بين الخليفة ومسعود وبينما هما على ذلك جاء الخبر بوفاة طغريل في المحرم (سنة ٥٢٩) ورجع السلطان

مسعود الى همذان وإطاعة البلاد واستوزر شرف الدين انوشروان خالدًا وكان قد سار معهُ باهلهِ

ولما نفرت القلوب بين المسترشد والسلطان مسعود وكان قد استوحش من السلطان بعض اعيان الامراء مثل برنقش وكزل وسنقر والي همذان وعبد الرحمن بن طغريل بك وفارقوهُ ومعهم دبيس بن صدقة فساروا الى المسترشد فقبلهم وبذل لهم الامان الا دبيسًا فانهُ لم يكن يامن اليهِ فرجع دبيس الى السلطان مسعود واشتدت الوحشية والمنافرة بين الخليفة والسلطان وادى الامر للقتال ونهض المسترشد من بغداد واقام بالشفيع وخاطب صاحب البصرة بالاتيان اليهِ فعصاهُ فاقبل الامراء السلجوقية على تحريضهِ بالمسير فارسل مقدمتهُ الى حلوان واستخلف (اقبالاً) خادمهُ على العراق وسار ولحقه برسق بن برسق واخيرًا جرى القتال بين الفريقين (سنة ٥٢٩) فانهزم اصحاب المسترشد واخذ هو اسيرًا بموكبهِ وفيهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وقاضي القضاة والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم فانزل الخليفة في خيمة وحبس الباقون بقلعة سرجاب وارسل من قبض على املاك الخليفة في بغداد وضج الناس وبكوا على خليفتهم . ثم عمد العامة الى المنبر فكسروه ومنعوا من الخطبة وتعاقبوا في الاسواق يحثون التراب على روءوسهم وقاتلوا اصحاب الشحنة فهرب الوالي والحاجب وعظمت الفتنة

ثم بلغ السلطان ان داود ابن اخيهِ عصى عليهِ بالمراغة فسار لقتالهِ واخذ معهُ المسترشد ونزل السلطان على فرسخين من مراغة والمسترشد معهُ في خيمة منفردة وكان قد اتفق مسعود مع الخليفة على مال يحملهُ اليهِ المسترشد ويلزم بغداد ثم اتفق وصول رسول السلطان سنجر الى مسعود فركب مسعود والعساكر لملتقاهُ فوثب الباطنية على الخليفة فقتلوهُ ومثلوا بهِ وجدعوا انفهُ واذنيهِ ومقتلهُ كان في سابع عشر ذي القعدة بظاهر مراغة وعمره ثلث واربعون سنة واشهر لسبع عشرة سنة ونصف من خلافتهِ وكان فصيحًا حسن الخط شهمًا

ومن الامور التي حدثت في اثناء فتنة السلاجقة هو غدر الباطنية بتوري بن طغتكين صاحب دمشق وجرحهِ ثم موتهِ من جراحهِ لاربع سنين من امارتهِ (٥٢٦) وخلفهُ ولدهُ اسماعيل شمس الملوك . ومنها حصار المسترشد الموصل ثلثة اشهر بعساكر بغداد وكان عماد الدين زنكي صاحبها قد مضى الى سنجار وحصن الموصل بالرجال والذخائر . ثم رجع عنها خائبًا ووصل الى بغداد يوم عرفة . ومنها ذهاب اسمعيل بن توري ملك دمشق الى حماة وكانت لعماد الدين زنكي منذ اخذها من سونج بن توري غدرًا كما تقدم وقتاله لها واخذها عنوةً . ثم حصر القلعة ولم تكن حصينة وقتئذٍ فعجز النائب عن حفظها وسلمها اليهِ فاستولى على ما بها من ذخائر وسلاح ثم سار شمس الملوك المذكور الى شيزر وبها صاحبها احد امراء بني منقذ فنهب البلد وحصر القلعة ثم اصطلحوا على مال

حملوهُ اليهِ ورجع الى دمشق

ومنها اجتماع التراكمين وقصدهم طرابلس فخرج اليهم الفرنج واقتتلوا وانهزم الفرنجة واميرهم الى حصن بعرين فحاصروا بهِ ثم هرب اميرهم (القومص) من الحصن في عشرين فارساً ثم جمع الفرنج واقتتلوا وثبتوا امام التراكمين فرحلوا عنهم

ومنها قتل شمس الملوك اسمعيل ملك دمشق اخاهُ سونج بن توري لشبهة داخلته بمجرد تقرير احد المماليك الذي اراد قتل اسمعيل فاخطأ الغرض ولما قرر تحت الضرب عن كثيرٍ داخلين في المخالفة ضده امر اسمعيل دون فحص بقتلهم منهم سونج المذكور فعظم ذلك على الناس ونفروا من شمس الملوك

ومنها (سنة ٥٢٨) تغلب شمس الملوك على حصن الشقيف وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم وعظم ذلك على الفرنج وقصدوا حوران وجمع شمس الملوك وناوشهم القتال ثم اغار على بلادهم من جهة طبرية فرحلوا عائدين ثم وقعت الهدنة بين الفريقين

ومنها استيلاء عماد الدين زنكي على جميع قلاع الاكراد الحميدية كقلعة العقر وقلعة شوش ثم استولى على قلاع الهكارية وكواشي . ومنها ايقاع ابن الدانشمند بالافرنج وقتله منهم كثيرًا . ومنها اصطلاح المسترشد مع زنكي المذكور ومنها قتل شمس الملوك اسمعيل بن توري ومولدهُ (سنة ٥٠٦) قتلهُ جماعة باتفاق والدتهِ قيل لفرط جورهِ ومصادرتهِ وشكوى الناس اليها وقيل لانهُ اراد قتل امه لتهمتها بشخص من اصحاب ابيهِ اسمهُ يوسف بن فيروز فاتخذت لذلك الى قتلهِ سبيلاً وسر الناس منهُ وقام عوضهُ اخوه شهاب الدين محمود . ثم بعد قتل اسمعيل قدم عماد الدين زنكي وحصر دمشق وضيق عليها وقام في حفظ البلد معين الدين (اتز) مملوك طغتكين ولما راى زنكي عدم اقتداره على اخذها اصطلح مع اهلها ورحل الى بلادهِ ومنها قتل حسن بن الحافظ لدين الله العلوي لان اباه الحافظ كان استوزرهُ فاستبد واساء السيرة واكثر من القتل من مصادرات الناس ظلمًا حتى اراد العسكر قتله وقتل ابيهِ فعلم ابوهُ فسقاهُ سمًا ومات فاستوزر الحافظ تاج الدولة بهرام الارمني النصراني فتحكم واستعمل الارمن على الناس .

في خلافة الراشد وهو الثلثون منهم من (سنة ١١٣٤ — ٥٢٩ الى سنة ١١٣٥ — ٥٣٠)

لما قتل المسترشد بويع لابنه ابي جعفر المنصور ولقب بالراشد بالله وكان ابوهُ قد بايعهُ بولاية العهد في حياتهِ واثبتوها لهُ بعد موتهِ بامر السلطان مسعود وحضر بيعته احد وعشرون رجلاً من اولاد الخلفاء

ولما استقر الراشد في الخلافة قدم عليهِ برنقش الزكوي من طرف السلطان مسعود يطلب من الخليفة ما تعهد بهِ ابوهُ من المال ايام كونهِ عندهم وهو اربعمائة الف دينار فاجابهُ ان اباهُ لم يخلف شيئًا وان مالهُ كان معهُ فنهب . ثم نُمي الى الراشد تهجم برنقش على دار الخلافة وبحثه عن المال فشق ذلك على الراشد واتفق مع ملوك الاطراف مثل عماد الدين زنكي وغيره على خلاف مسعود وطاعة داود بن السلطان محمود واخذ الراشد بالاستعداد واصلح سور بغداد . ولما راى برنقش منهُ ذلك هجم ومعهُ الامراء البلخية على الدار وقاتلهم عسكر الخليفة والعامة فساروا الى طريق خراسان وانحدر بكآي الى خراسان ونهبت العامة دار السلطان واشتدت الوحشة بين الخليفة والسلطان وانحرف الناس عن طاعة الاخير

ثم قدم داود ابن السلطان محمود بعسكر اذربيجان ونزل بدار السلطان (سنة ٥٣٠) ووصل عماد الدين زنكي من الموصل وبرنقش بازدار صاحب قزوين والبقش الكبير صاحب اصبهان وصدقة بن دبيس صاحب الحلة وابن البرسق وابن اقسنقر الاحمديلي ونحوهم وقدم سلجوق شاه الى واسط وقبض بها على بكآي ونهب مالهُ فانحدر زنكي اليهِ وصالحهُ ورجع الى بغداد

ثم سار السلطان داود ومعهُ عماد الدين زنكي نحو طريق خراسان وبرز الراشد كذلك لكنهُ رجع بعد ثلاث الى بغداد وارسل الى الملك داود والامراء بالعود وقتال مسعود من وراء السور وكان مسعود قد بلغهُ ذلك ونهض بالعساكر الى بغداد وراسلهم بالطاعة والموافقة فابوا فحصرهم ببغداد وثار العيارون وكثر الخلاف واقاموا كذلك نيفًا وخمسين يومًا وخاب السلطان في نيلهِ منهم الارب واقلع عنهم ثم وصل اليهِ طرنطاي صاحب واسط بالسفن فعاد وعبر الى الجانب الغربي فعبر اليهِ الراشد وسار معهُ الى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد وامن الناس واستدعى اهل العلم والوجوه وعرض عليهم يمين الراشد بخطهِ حيث يقول اني متى جندت جندًا وخرجت ولقيت احدًا من اصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي فافتوا بخلعهِ ووافقهم على ذلك اصحاب المناصب والولايات . فامر السلطان بخلعهِ وقطع خطبتهُ في ذي القعدة من سنة ٥٣٠) لنحو سنةٍ من خلافتهِ

خلافة المقتفي حادي ثلاثينهم (من سنة ٥٣٠ الى ٥٥٥—١١٦٠)

ولما خلع الراشد سال السلطان مسعود اعيان بغداد فاشاروا بمحمد بن المستظهر فتقدم السلطان اليهم بعمل محضر في خلع الراشد وذكر ما كان قد ارتكبهُ من اخذ الاموال ومن الافعال القادحة بالامامة وختموا اخر المحضر بان من هذه صفتهُ لا يصلح ان يكون امامًا وحصر القاضي ابو طاهر بن

الكرخي فشهدوا عندهُ بذلك وحكم بخلعهِ ونفذهُ القضاة الاخرون وكان قاضي القضاة غائبًا عند زنكي بالموصل وحضر السلطان دار الخلافة ومعهُ الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن ابن العسقلاني وأُحضرا بو عبد الله بن المستظهر فدخل اليهِ السلطان والوزير فاستخلفاهُ · ثم دخل الامراء وارباب المناصب والقضاة والفقهاء فبايعوهُ ولقبوهُ المقتفي لامر الله واستوزر المقتفي شرف الدين علي بن طراد الزينبي وبعث كتاب الحكم بخلع الراشد الى جميع الاقطار واعيد قاضي القضاة ابو القاسم علي بن الحسين الى مقامهِ وكذلك كمال الدين حمزة بن طلحة صاحب المخزن

قال ابو الفدا « والمقتفي عم الراشد المذكور وهو والمسترشد ابنا المستظهر وليا الخلافة · وكذلك السفاح والمنصور اخوان · وكذلك المهدي والرشيد اخوان وكذلك الواثق والمتوكل · واما ثلثة اخوة ولوا الخلافة فالامين والمامون والمعتصم اولاد الرشيد · وكذلك المكتفي والمعتذر والقاهر بنو المعتضد والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر · واما اربعة اخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان ولا يعرف غيرهم »

الهادي موسى

ولما بويع المقتفي بعث السلطان مسعود وهو ببغداد عسكرًا على الملك داود ابن اخيهِ عند مراغة فانهزم داود ودخلت اذربيجان في يد قراسنقر · ثم ذهب داود الى خوزستان واجتمع اليهِ من التركمان ونحوهم مقدار عشرة الاف مقاتل وحاصر تستر · فارسل السلطان سلجوق شاه بواسط يستنجد اخاه مسعودًا ففعل وسار الى تستر وقاتل داود وهزمهُ · ثم صار الراشد من الموصل فبلغ امرهُ مسعودًا فاذن للعسكر في العود الى بلادهم وصرف صدقة بن دبيس صاحب الحلة بعد ان زوجهُ ابنتهُ · ثم قدم على السلطان مسعود بعض الامراء الذين كانوا مع الملك داود مثل البقش السلامي وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر خمارتكين شحنة همذان فرضي عنهم واعطى البقش حشنكية بغداد فكان للناس بلاي عظيمة بظلمه

اما الراشد فسار الى اذربيجان ثم مراغة · وكان بوزابة وعبد الرحمن طغرلبك صاحب خلخال والملك داود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان مسعود فاجتمعوا الى منكبرس صاحب فارس واتفقوا على سلطنة داود وخلافة الراشد فعرف السلطان بذلك فترك بغداد وسار اليهم (سنة ٥٣٢) ونازلهم بخوزستان فانهزموا واسر منكبرس المذكور وقتلهُ السلطان مسعود صبرًا ولحقت عساكره المنهزمين ناهبين ما امامهم · وقصد مسعود اذربيجان وداود همذان وجا اليهِ الراشد بعد الوقعة واشار بوزابة وكان كبير القوم بالمسير فقاموا الى فارس وملكوها واضافوها الى خوزستان · وسار سلجوق شاه ليملكها فدافعهُ عنها البقش الشحنة ومطر الخادم امير الحاج وثار العيارون ايام تلك الحرب وعظم الهرج ببغداد وتفرق الناس عنها في البلاد

ولما انصرف سلجوق شاه واستقر البقش الشحنة فتك بهم ولما قتل دبيس بن صدقة ولي السلطان مسعود على الحلة اخاه محمدًا وجعل معهُ مهلهلاً اخا عنتر بن ابي العسكر يدبره

وبعد ان ملك الراشد وداود فارس سارا الى العراق ومعهم خوارزم شاه ولما قاما الى الجزيرة خرج السلطان مسعود لمقاومتهم فتفرقوا ومضى الملك داود الى فارس وخوارزم شاه الى بلاده وبقي الراشد وحده وسار الى اصبهان فقتلهُ الخراسانية الذين كانوا معهُ في القيلولة رمضان (سنة ٥٣٢) ودفن بشهرستان ظاهر اصبهان

واشتدت هذه الفتنة واختلفت الاحوال والمواسم وانقطعت كسوة الكعبة من دار الخلافة من قبل السلاطين حتى قام بكسوتها تاجر فارسي من المترددين الى الهند انفق فيها ١٨ الف دينار مصرية وكثر الاشقياء وركب زعماؤهم الخيول وجمعوا الجموع وتستر الوالي ببغداد بلباس ابن اخيهِ سراويل الفتوة عن زعيمهم ليدخل في جملتهم ونسب امر العيارين الى البقش الشحنة فقبض عليهِ السلطان مسعود وحبسهُ بتكريت عند مجاهد الدين بهروز ثم امر فقتل

ثم قدم السلطان مسعود (سنة ٥٣٣) شتاء وكان من عادتهِ يشتي بالعراق ويصيف بالجبال فازال المكوس وكتب ذلك في الالواح فنصبت في الاسواق وعلى ابواب الجوامع ورفع عن العامة نزول الجند عليهم فكثر الدعاء لهُ والثناء عليهِ

ومن حوادث تلك المدة استيلاء الفرنج علي جزيرة جربة من اعمال افريقية وهرب واسر من كان بها من المسلمين ومنها امتلاك شهاب الدين محمود بن توري صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها لان اصحابها بني الامير قيرخان بن قراجه والوالي بها من قبلهم تعبوا من كثرة تعرض عماد الدين زنكي اليها والى اعمالها ففاتحوا شهاب الدين على تسليمها لهُ ويعوضهم بها تدمر فاجابهم الى ذلك واقطعها لمملوك جده معين الدين (اتز)واذ راى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص الى صاحب دمشق تابعوا الغارات الى ان استقر بينهما الصلح ومنها فتح حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين قلعة الهتاخ اخذها من بعض بني مروان وهو اخر من بقي لهُ ولاية

ومنها ايقاع عساكر عماد الدين زنكي التي بالشام بالافرنج في نواحي اللاذقية فكسبوا من الجوار والمماليك والاسرى والدواب اشياء عديدة . ومنها عزل الحافظ العلوي بهرام النصراني الارمني واستوزر عوضهُ رضوان بن الوكحشي ولقبهُ بالملك الافضل ثم قتل الحافظ رضوان ولم يستوزر بعده احدًا و باشر الاشغال بنفسهِ ومنها منازلة عماد الدين زنكي مدينة حمص وفيها صاحبها معين الدين اتز (سنة ٥٣١) ولم يظفر فرحل عنها الى بعرين وهي للفرنج وحصر قلعتها فجمع الفرنج وساروا اليهِ فلقيهم وتقاتلوا وانهزم الفرنج ودخل كثيرٌ من امرائهم في هزيمتهم الى حصن بعرين فعاود عماد

الدين حصار الحصن وطلب الفرنج الامان فكان لهم على تسليم حصن بعرين ودفع خمسين الف دينار وكان زنكي في اثنا حصاره بعرين قد فتح المعرة وكفر طاب ورجع الى اهل المعرة املاكهم التي كان قد حجزها الفرنج حسب ما طلبوا اليهِ بموجب كشف من ديوان حلب عن الخراج لان حجج املاكهم كانت قد فقدت وافرج عن كل ملك كان عليهِ الخراج لاصحابه

ومنها (سنة ٥٣٢) اخذ زنكي المذكور حصن المجدل وكان لصاحب دمشق واطاعه مستحفظ بانياس وحاصر حمص ثم رحل عنها الى سلمية بسبب مجيء الروم الى حلب ثم عاودها واستلم البلد والقلعة وارسل فخطب ام شهاب الدين محمود صاحب دمشق مرد خاتون بنت جاولي وتزوجها وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك وبنت المدرسة المطلة على وادي الشقراء بظاهر دمشق وكانت بغيتهُ بزواجها الاستيلاء على دمشق لما راى من سطوتها ولكن خاب املهُ فاعرض عنها

ومنها خروج الروم بملكهم (سنة ٥٣٢) متجهزين الى بلاد الارمن اولاً فقاتلوهم وناوشوا الافرنج مثل صاحب انطاكية الرومية ونحوها ثم تجاوزهم تلك البلاد الى الشام في التي بعدها فذهبوا الى بزاعة على ستة فراسخ من حلب وملكوها بالامان ثم غدروا باهلها وقتلوا وسبوا منهم وتنصر القاضي ونحوار بعمائة نفس وبعد عشرة ايام رحلوا عنها الى حلب ونزلوا على قويق وجرى بين اهل حلب وبينهم قتال شديد قتل فيهِ بطريق من الروم عظيم القدر فرجعوا عن حلب خاسرين بعد ثلاثة ايام الى الاثارب نملكوها وتركوا فيها سبايا بزاعة ومحافظين وساروا الى شيزر فخرج الامير اسوار عامل زنكي بحلب واوقع بمن في الاثارب من الروم وقتلهم واستفكت اسرى بزاعة وسباياها

ثم القى الروم الحصار على شيزر ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً وارسل صاحب شيزر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الى عماد الدين زنكي يستنجده فسار زنكي ونزل على العاصي بين حماة وشيزر وكان كل يوم يركب برجاله ويشرفون على الروم بحيث يرونهم ويرسل السرايا فياخذون منهم ما امكن وبعد اربعة وعشرين يوماً من حصار شيزر رحل الروم عنها دون ان يحصلوا على شيء وتبعهم زنكي يناوشهم في موخرتهم فظفر بكثير منهم ومدح الشعراء زنكي على عملهِ

ومنها حدوث زلزلة عظيمة بالشام والعراق وغيرها فخربت كثيرًا وهلك تحت الردم كثير ثم تكررت لاسيما في حلب وقاسى الناس من ذلك كثيرًا

ومنها محاربة السلطان سنجر مع خوارزم شاه اطسز بن محمد بن انوش تكين السابق خبره وانهزام خوارزم شاه فاستولى سنجر على خوارزم وابقى بها نائبهُ وعاد الى مرو (سنة ٥٣٣) فعاد خوارزم شاه واستولى عليها

ومنها مقتل شهاب الدين محمود بن توري صاحب دمشق — قتلهُ غيلة على فراشهِ ثلاثة من

خواص غلمانه فنجا احدهم واخذ الاثنان وصلبا واتى معين الدين بجمال الدين محمد بن توري مكان اخيه وكان صاحب بعلبك . فسار عماد الدين زنكي الى بعلبك وحصرها وجعل عليها اربعة عشر منجنيقًا فسلم اهلها اليه البلد وبقي الحصار على القلعة مدة بعد ذلك ثم استامنوا فامنهم وسلموا اليه كل شي ثم غدر بهم وصلبهم عن اخرهم فاستقبح الناس عمله وخافوه خوف الغنم من الوحوش الضارية — وكانت بعلبك لمعين الدين (اتز) اعطاه اياها جمال الدين محمد المذكور لما ملك دمشق وكان اتز مزوجًا بام جمال الدين وكان له جارية يحبها فاخذها زنكي وتزوجها وبقيت عنده حتى قتل على قلعة جعبر فاعادها ابن زنكي نور الدين محمود الى (اتز) وكانت سببًا لمودة عظيمة بينهما بعده

و(في سنة ٥٣٤) سار عماد الدين زنكي الى دمشق وحصرها وبذل لصاحبها بعلبك وحمص عوضها فلم يامن اليه لغدره . ثم مرض جمال الدين ومات فطمع زنكي وضايق البلد فلم ينل غرضًا وخلف جمال الدين ولده مجير الدين ابق بن محمد بن توري وبقي (اتز) مدبر الدولة ثم رحل زنكي ونزل (بعذرا) من المرج واحرق عدة قرى وقام الى بلاده . ثم ملك زنكي شهرروز واعمالها من صاحبها قفجاق بن الب ارسلان شاه التركماني وبقي قفجاق المذكور في خدمة زنكي

وفيها قتل الباطنية جوهرًا من كبراء عسكر سنجر غدرًا . وفيها مات هبة الله بن الحسين بن يوسف المعروف بالبديع الاسطرلابي وكانت له اليد الطولى في الاسطرلاب والالات الفلكية وهو من شعراء الهزل

و(في سنة ٥٣٥) ارجع السلطان سنجر بردة الرسول والقضيب اللذين كان قد اخذهما من المسترشد

و(في سنة ٥٣٦) كان المصاف العظيم بين الترك الخطا وبين السلطان سنجر فان خوارزم شاه اطسز بن محمد لما هزمهُ سنجر وقتل ولده عظم ذلك عليه وكاتب الخطاء ولم يكونوا مسلمين واطمعهم في ملك ما وراء النهر فنهضوا في جمع عظيم واقتتلوا مع السلطان سنجر فانهزم سنجر واسرت امراته وسار خوارزم شاه اطسز الى خراسان ونهب اموال سنجر وبلاده واستقر الخطا بما وراء النهر

و(في سنة ٥٣٧) خرب عماد الدين زنكي قلعة اشب من اعظم حصون الاكراد الهكارية وامنعها وبني القلعة المعروفة بالعمارية عوضها . وتوفي محمد بن الدانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده السلطان مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية

و(في سنة ٥٣٨) صار الصلح بين السلطان مسعود وبين عماد الدين زنكي وسار زنكي الى ديار بكر وفتح منها طنزه . واسعرد . وحيزان . وحصن الروق . وحصن قطليس . وحصن باتان . وحصن ذي القرنين . واخذ من ماردين مما هو في يد الفرنج جملين . والموزر وتل موزر من حصون شنحنان

وفيها سار السلطان سنجر بعساكره وحصر خوارزم شاه اطسز فبذل له اطسز الطاعة فاجابهُ الى ذلك وعاد سنجر الى مرو وفيها ملك زنكي عانة من اعمال الفرات وفيها قتل داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي غيلةً وفيها توفي محمود بن عمر النحوي الزمخشري من زمخشر قرية في خوارزم وعمره تسع وستون سنة وكان اماماً في العلوم وله المفصل في النحو والكشاف في التفسير ونحو ذلك وكان يحسن الشعر

و(في سنة ٥٣٩) فتح عماد الدين زنكي اتابك الموصل والشام الرها من الفرنج بالسيف وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي بيد الفرنج شرقي الفرات اما البيرة فلم ياخذها وترك حصارها لسماعهِ بقتل نائبهِ بالموصل نصير الدين جقر فترك كل شي ومضى الى هناك وكان الذي قتل جقر الب ارسلان ابن السلطان محمود بن محمد السلجوقي لكي يستولي مكانهُ ولكنهُ منع ولم يطعه احد فرجع زنكي الى الموصل . ولما راى الفرنج ضعفهم في البيره راسلوا نجم الدين صاحب ماردين وسلموهُ البيرة وصارت للسلمين وفيها خرج اسطول صقليه الى ساحل افريقية وملك الفرنج الذين فيهِ مدينة برسك ثم دخلت (سنة ٥٤٠) وفيها هرب علي بن دبيس بن صدقة من وجه السلطان مسعود الى الحلة واستولى عليها وعظم امره وقويت شوكتهُ . وفيها تولت الافرنج شنترين . وتاجر . وماردة . واشبونة . وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الاندلس

وكانت (سنة ٥٤٠—٥٤٤) فتن ما بين السلطان مسعود وانتقض عليهِ الامراء الاعياص واستبدوا بالامر فاذلهم مراراً وكان اكبر اضداده البقش كون والطرنطاي وابن دبيس وملكشاه ابن السلطان محمود وكان بتلك المدة المذكورة من الحوادث قتل عماد الدين زنكي (سنة ٥٤٠—٥٤١) في ٥ ربيع الاخر وهو يحاصر قلعة جعبر وعمره ستون سنة وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيتهِ عظيم السياسة وكانت الموصل خراباً قبل ما وصلت اليهِ فاصلحها وعمرها واكثر فيها الشجر والفاكهة والرياحين

وبعد قتلهِ اخذ ولدهُ نور الدين محمود خاتمهُ من يدهِ وكان معهُ وسار الى حلب وملكها وكان اخوهُ سيف الدين الغازي بمدينة شهرزور وهي اقطاعه فارسل اليهِ زين الدين علي كوجك نائب ابيهِ عماد الدين زنكي بالموصل يستدعيهِ اليها فحضر واستقر ملكهُ على البلاد وبقي اخوهُ نور الدين بحلب وهي له

و(سنة ٥٤٤) توفي سيف الدين غازي بالموصل من مرض حاد ولما اشتد مرضهُ استدعى اوحد الزمان ابا البركات فحضر عندهُ فعالجهُ ولم ينجع وتوفي اخر جمادى الاخرة وكانت ولايتهُ ٣ سنين وولي امر الجزيرة والموصل بعده اخوهُ قطب الدين مودود وكان اخوهُ الاكبر نور الدين محمود بالشام وله

حلب وحماة فسار الى سنجار وملكها ولم يعاقه اخوهُ قطب الدين ثم اصطلحا واعاد نور الدين سنجار وتسلم حمص والرحبة فعادت الشام لهُ ولاخيهِ الجزيرة

ومنها امتلاك الفرنج طرابلس الغرب بعد ان حصروها ثلثة ايام لاختلاف وقع بين اهلها فان طائفة منهم كانوا يميلون الى تقديم رجل من الملثمين اميرًا لهم وطائفة اخرى رجلاً من بني مطروح ووقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الاسوار فانتهز الفرنج تلك الفرصة وتسلقوا البلد بالسلالم واخذوهُ واعملوا السيف في السكان و بعد استقرار الفرنج بها بذلوا الامان لمن بقي من اهل طرابلس ورجعت اليها الناس

ومنها اخذ مجير الدين ابق حصن بعلبك من نجم الدين ايوب بن شاذي بعد مقتل زنكي فخاف نجم الدين عدم امكان مساعدة اولاد زنكي لهُ فصالح مجير الدين وسلمهُ القلعة واخذ منهُ اقطاعًا ومالاً وعدة قرى من بلاد دمشق

ومنها دخول نور الدين زنكي بلاد الفرنج الشامية وفتح مدينة ارتاح عنوةً وحصر مامولة · و بسرفوث · وكفرلاثه

ومنها امتلاك الفرنج المهدية بافريقية (سنة ٥٤٣) وذلك انهُ كان قد حصل غلا بافريقية منذ (سنة ٥٣٧) اكل الناس فيهِ بعضهم بعضًا فنزح اكثر الناس الى جزيرة صقلية فانتهز هذه الفرصة الملك رجار صاحبها وجهز اسطولاً من نحو مائتين وخمسين شينيًا وملأ ها رجالاً وسلاحًا وقدم عليها جورج القائد وساروا من صقلية الى جزيرة قوصرة ما بين المهدية وصقلية ثم ساروا منها الى المهدية وكان بها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي صاحب افريقية فجمع كبار البلد واستشارهم واتفقوا على اخلا المدينة واخذ ما خف وثمن وكان الاسطول في البحر تمنعهُ الرياح عن الوصول ثم دخلوها بعد مضي ثلثي النهار بدون مدافعة فدخل جورج قصر الامير حسن بن علي فوجدهُ على حالهِ ووجد فيهِ جماعة من حظاياه والخزائن مملوة من الذخائر النفيسة من كل شي غريب قليل الوجود وبقي الحسن يتنقل الى ان نزل على ملك بجاية يحيى بن العزيز من بني حماد فكان بين معتقل ومطلق حتى ملك عبد المومن بن علي (سنة ٥٤٧) واخذها هي وجميع ممالك بني حماد فاخذ الحسن في خدمتهِ الى ان فتح المهدية فاقام واليًا فيها من جهتهِ وامره ان يقتدي براي الامير حسن المذكور ويرجع الى قولهِ · وكان عدد من ملك من بني باديس بن زيري بن مناذ الى الحسن تسعة ملوك و بداية ذلك من (سنة ٣٦١ الى سنة ٥٤٣) · ثم بذل جورج الامان لاهل المهدية فتراجعوا وكانوا قد قاسوا جدًا من الجوع

· هذا ولننظر ما كانت عليهِ دولة الفرنج البالدوينية في بيت المقدس واعمالهِ وعلاقاتها مع اوربا

فصل

في مملكة اللاطين في القدس والركبة الصليبية الثانية

اعلم ان غاية ركبة الافرنج الاولى على سوريه انما كانت اولاً نزع القبر المقدس من يد الاتراك ثم حماية مسيحيي المشرق من اضطهاد وظلم تلك الدول والامراء المقطعين من كل لون الذين كانوا يتنازعون تلك الاراضي من مصر الى بغداد ومن السند الى اسيا الصغرى متصرفين في عباد الله واموالهم جزافًا كما شآوا وقد اريق باختلافاتهم بحور من الدماء وخربت الوف من المدن والقرى ودمر وسلب من الاموال ما لا يحصيه عقل ثم على فرض استحصال الاول بالمكاتبات السفارية والمعاهدات الدولية فلم يكن ممكنًا الحصول على الثاني والاتراك ملوك فلسطين لانهم لم يكونوا يحكمون البلاد بقصد ضبط امورها والانتصار للمظلوم من الظالم بل على وجه الاستعباد والتمتع بمال البلاد والعباد فلم يحترموا احدًا لا من مسلمين ولا نصارى حتى ولا انفسهم وكان القتل فيما بينهم دولاً وقد نعق بوم الخراب على البلاد فاصبحت تلك الديار العامرة التي لم يخلق الله اجمل منها قفارًا وبلاقع قلت ولو تصرف الفاتحون بالحكمة ولم يكن اساس مبتغاهم التعصب والطمع لامكنهم نوال مطامعهم تلك باتفاقهم اما مع الخليفة العباسي او الفاطمي على نزع البلاد من ايدي ظلامها وحماية حقوق الرعايا ومنع الظلامات والتعدي بتقوية احكام احدى الخلافتين الاسلاميتين

هذا وبعد اقامة (كودفروا) على تلك المملكة الاورشليمية كما تقدم اخذ هذا الامير بردع قوة خلفاء مصر عنها وتاسيس نظام احكامها على شرائع راهنة ثم بتسوية الاختلاف الذي كان بينه وبين القاصد الرسولي ارنولف دايبرت اسقف بيزا الذي صار بطريرك اورشليم بامر البابا باسكوالس الثاني (فان اوربانوس كان قد توفي قبل ان يبلغه خبر اخذ بيت المقدس) وذلك ان دايبرت كان قد البس كودفروا وبوهموند على ولايتهما بالخضوع للحبر الروماني بموجب العهود التي اخذها البابا على امراء الجهاد الصليبي من ان البلاد التي يفتحونها تكون خاضعة لامره فاخذ عهد كودفروا على انه اذا مات دون نسل يكون مرجع ذلك للبابا ولكن ان عمله هذا لم يسلم من المقاومة فيما بعد

وبعد ان خاض هذا الجهادي ابحرًا من الدم واشترك في فظائع تلك الحروب الوحشية كما تقدم اخذ بعد اسابيع قليلة بتنظيم الشرائع اللازمة لتلك المملكة فكان يجلس وقته كله ما بين اناس من مختاريه قاضيًا وشارعًا دستورًا لائقًا ونظامًا اساسيًا صحيحًا لتلك المملكة نعم ان الحرية في النظام الاقطاعي وقتئذٍ كانت قليلة وكانت السنن المندرجة في ذلك القانون الذي عمله

المعروف بالمحاكم الاورشليمية وحاية الشرائع الجارية في كل غربي اوربا الا ان قانون كودفروا وخلفائهِ كان مشحونًا من افادات ليس لاظهار الامكان في نجاح نظام بلاد واحدة في غيرها بل لايضاح حقيقة ما كانت عليهِ السنن الاقطاعية وقتئذٍ

وذكر التاريخ انهُ بعد تنظيم ذلك القانون بموجب اراء تلك المستعمرة اللاتينية صار ايداعهُ في القبر المقدس وفقد باخذ المسلمين المدينة — غير ان هذا الكلام فيهِ نظر لانهُ مهما كان ذلك القانون ضخمًا فانهُ لم يكن يعسر نقلهُ على دابة . ولا كان من الاشياء الثمينة في نظر فاتحي المسلمين حتى يمنعوا نقلهُ فضلاً عن ان التقاليد المحفوظة عن هذا القانون قد استمرت جارية في ولايات اللاتين في المشرق الى ان صارت بعد تنقيحها (سنة ١٣٦٩) نظام الاحكام القبرسية

وكان هذا القانون بالنظر للعلاقات بين متبوع وتابع في كل مسائل النظارات والمرافعات الشرعية والمزارعات والاستعباد اكثر تدقيقًا من شرائع اوربا الاقطاعية مع كون الاصول واحدة واهم من ذلك كلهِ ما كان ينظر في تلك المحاكم التي اخذت منشاها من تلك المملكة بموجبهِ كان الملك رئيس مجلس الاشراف وزعيم مجاس العامة احد الويكونتية الذي هو نائب الملك . وفي هذا المجلس المختص بالشعب نشأ اصل العنصر الشعبي الذي كان مزمعًا ان يغير هيئة اوربا الى ما هي عليهِ الان فانهُ كان مولفًا من عدد معلوم من الشعب المنتخبين لاجل استحقاقهم واخلاصهم . نعم انهُ لم يكن يوجد انتخاب شعبي ولكن في جمهور من العامة قد حلفوا على القضاء بموجب شرائع معلومة في كل ما يختص بامثالهم كائن جل ما كان يطلب جناهُ من الثمار الجيدة اذا كانت الاغراس في ارض موافقة

•

ومن حكمة تلك الشرائع وجود محكمة ثالثة لاجل مصالح النصارى الوطنيين خاصة قضاتها اهليون ثم وان تكن تلك السنن الكودفراوية قد القت اساسًا حسنًا فان دوامها لم يكن ممكنًا الا بدوام تلك المملكة اللاتينية اذ انها غرست بالدم وربيت بالزوابع ثم استاصلتها نفس العواصف التي اكتسحت آثار الاوربيين من فلسطين

وكودفروا لم يكمل السنة ومات وبموتهِ تجدد في البطرك دايمبرت امال لم تكن لتتم (سنة ١١٠٠) لان رعايا كودفروا لم يكونوا ليخضعوا لسياسة كاهن وكان طانكريد يرغب تصيب بوهموند لكن هذا كان اسيرًا وقتئذٍ وكان الشعب يميل الى بالدوين اخي كودفروا الذي كان امير ارفه بالجزيرة فاستدعوهُ فترك ولايتهُ لاحد اقاربهِ واسرع الى اورشليم فبايعوهُ ملكًا عليهم وفي اول الامر اظهر البطريرك المذكور كدرهُ بالانعزال عن كل عمل الا انهم تقووا اخيرًا على ما نعتهِ وسكب على راس بالدوين الزيت المقدس باسم بالدوين الثاني

فاقام بالدوين هذا ثماني عشرة سنة · ومات ضمن تلك المدة جميع روساء الجهاد. وفي السنة الثانية من ملكه غزا المصريون مملكتهُ وتواقعوا في الرملة وكانت الهزيمة على عساكر بالدوين واسر اسطفان دي جارترس وقتل · وهذا الامير كان قد رجع من اوربا بسبب تعيير زوجتهِ لهُ وهي اديلا بنت فاتح انكلترا النورماني حتى انها لما سمعت بموتهِ قالت انهُ قد غسل ذلك العار. وبعد اربع سنوات توفي رايموند شيخًا كبيرًا على ساحل البحر قبل ان يبلغ املهُ في ارضاء حرصهِ ومطامعهِ فكان قد فتح طرطوزه واسس امارة هناك لكنهُ كان طامعًا بامتلاك طرابلس فلم يتم لهُ ذلك ووقع لنصيب ولده برتران وهذا لم يبق في اقطاعهِ سوى سنتين ومات وخلفهُ ولدهُ بنطيوس ثم توفي طانكريد وترك لهُ ارملتهُ زوجةً (سنة ١١١٢)

وكان بوهموند بعد رجوعه الى انطاكية قد وقع في الاسر في غزوة عملها قصد بها توسيعُ ملكه فناب عنهُ طانكريد وقتئذٍ ولما رجع بعد سنتين وقد خاب الكسيوس ملك الروم من الحصول عليهِ وجد انهُ كان قد اضيف الى ملكه كل اعمال انطاكية واللاذقية وفامية ثم كانت حرب بينهُ وبين القسطنطينية وانكسرت عساكر بوهموند برًا وانتصرت بحرًا بمساعدة مراكب بيزا لمراكبه ثم استنجده البطرك دايمبرت ضد ظلم بالدوين على قومهِ فلباهُ وسافر مع البطريرك المذكور واستناب طانكريد يومئذٍ ليدبر مملكتهُ وكان لا ريب مفتكرًا بعمل جهاد جديد · ولما كان اكتسبهُ من الشهرة في الحروب بادر لدعوتهِ اليهِ ملك فرانسا فيليب الاول وزوجهُ ابنتهُ · ثم رجع الى ارض اشتهاره بخمسة الاف فارس واربعين الف بيادة (سنة ١١٠٦) واقتحم (دوراظو) المرة الثانية فلم يوقفهُ عن ذلك الا عطايا الكسيوس والتزم بعمل عهدة مفادها ان لهُ الحق بالمثول لدى الحضرة الامبراطورية كبطريق المملكة البزنطية (سنة ١١٠٧) ثم رجع الى ايطاليه يستعد للذهاب الى ولايتهِ انطاكية في السنة التالية ففاجأهُ الموت وكان امرًا مقضيًا . اما طانكريد فاستمر مدبرًا امرا بن بوهموند القاصر وكان لم يزل في عز عمرهِ والامال فيهِ كبيرة لما كان يمتاز بهِ عن رفقائهِ بكرم الطباع والحلم ولكنهُ لم يمض عليهِ بعد ذلك ثلاث سنوات حتى مات دون ولد من جرحٍ كان قد لحقهُ بالحرب فترك كفالة القاصر لقريبهِ روجرس (١١١٢)

ومن الغريب ان الاعظم نفعًا كان الاكثر تضجرًا وتكرهًا من تلك الحروب فانهُ كان من اهم الامور للمملكة البزنطية ان تقصي تلك الطوائف التركية عن البلاد القريبة منها مثل بثينية وفريجية وهذه عينها كانت نتائج الحروب الصليبية فنقلت عاصمة سلطان الاتراك من نيقية القريبة الى مدينة ايقونيوم القاصية وتجددت سلطة الامبراطور الرومي في كل اقطار اسيا الصغرى البحرية وامتدت حياة مملكتهِ اقلهُ ثلاثمائة وخمسين سنة غير ان الكسيوس معما كان فيهِ من الخبث ونعومة السياسة

ما يظهر معنى الاهمية فيما يتعاطاه من الامور حتى الطفيفة منها كان دائمًا يتضجر من الاشياء التي تكدر مزاجه قليلاً اكثر من البلايا الكبرى فانهُ كان يتحرق من روية افواج الحجاج الذين كانت اوربا تفرغهم الى اسيا من لدن بلوغ الاخبار عن فتح بيت المقدس اكثر مما كان يهتم بافصاء اعدائهِ الذين كانوا يلغمون حياة المملكة. ولم يترك الحجاج الجهاديون الكسيوس في راحة فكانت زمرهم متتابعة واقبل بعد والطر عديم الفضة وكودفروا اللمبارديون يقودهم مطران ميلان وكانوا اكثر جلبة ممن قبلهم وعندما الح عليهم الامبراطور باجتيازهِ البوصفور قبل ان يصل غيرهم ثاروا وارادوا الفتك بهِ ثم تبعهم سرايا اكثر ترتيبًا صحبة كونت دي جارترس خادم الامبراطور انركيوس الرابع وكان قائدهم يتكلم بثقة عن فتح بغداد وملاشاة الخلافة وقد انتهى امر هولاء العساكر اسوأ من الذين اهتبرهم سيف قلج ارسلان في تل العظام كما تقدم وذلك لانهم نهضوا لاسباب لاطائل تحتها على اكليروس الروم في بعض بلاد فريجية وفتكوا بهم و بالشعب وآل امرهم الى الدمار الاكبر

ولم تكن تلك الجموع التي انحازت الى بنود الكونت دي نيوَر والكونت دي بواطير و(هيو)دي ورماندوا اكثر نجاحًا ولم تحظَ النساء اللواتي قدمن مع الاخير بما كن ينتظرن من زحف مجيد من عاصمة الروم الى اورشليم وحاق تلك الجماهير كلها الشقاء العظيم وختموا ايامهم في سوق العبيد ببغداد وغيرها من مدن المشرق ووصل الكونت دي(نيور)ودي بواطير مع قليل من اتباعهما مشاة الى انطاكية وهرب هيو دي ورماندوا الى طرسوس ومات هنالك

وافنى الكسيوس حياتهُ بحروب عديدة منها ما غصب اليها ومنها ما كانت اغلاط سياسته وكان اكثر لذة بالحيل الناجحة والخداع النافذ منهُ بالظفر المجيد في ساحة القتال ولقد ادرجت بنتهُ حنه المورخة كثيرًا من اقبح سقطاتهِ كفضائل جليلة ولكنها علمت مع والدتها ايريني عندما كان ابوها في قبضة الموت انهما هما ايضًا قد تضررتا من تلك الفضائل اذ انهُ اذن لولده يوحنا (سنة ١١١٨) بعمل ما لاشى اعظم آمالها حتى ان زوجتهُ المذكورة اذ ودعتهُ وداعها الاخير قالت لهُ „ تموت كما قد عشت رجلاً دجالاً "

وبينما الكسيوس على اخر عمره كان بالدوين ملك اورشليم في نزع الموت بمصر حيث كان قد ذهب ءامل اذلال قوة الخلافة الفاطمية فحنطوه وقدموا بهِ الى اورشليم ودفنوه بجانب كودفروا

ثم اجتمع المجلس يوم جنازتهِ وسموا قريبه بالدوين دي بورغ بموجب راي جوسلين دي كورتناي ملكًا لان اخاه يوستاق كان في اوربا وكان جزاء جوسلين امارة ادسه (اورفه والرها)

وفي عهد هذا الملك وعهد خليفتهِ توسع نطاق الملك وتجددت جملة امارات تابعة للبلاط الاورشليمي . فان صيدا كانت قد سقطت بيد الفرنج في ايام بالدوين الاول (سنة ١١١٥)

وساعد الصليبيين وقتئذٍ عمارة سيوارد النرويجي . ثم قدم بعد تسع سنين ميخائيل دوج البندقية ليزور القبر المقدس فساعد بعمارته على فتح عسقلان وصور . ثم اختار صور وشرط ان يكون نصفها له ابدًا وبان يكون للبنادقة كنيسة وسوق وخلاف امتيازات في القدس وبعد حصار خمسة اشهر سقطت تلك المدينة الفينيقية التي كانت فقيدة النظير قبلاً ولم تزل عظيمة وقتئذٍ وصارت كرسيًا اسقفيًا . ولكن مع كل هذا الاتساع فان حالة المملكة كانت دائمًا مضطربة كامواج البحر

وكان الثالث بعد كودفروا فولك دي انجو وهذا كانت ايامهُ راحة الا لما حصر في حصن بارين عند ما كان يساعد رايموند كونت طرابلس على زنكي سلطان حلب وافتدى نفسهُ حينئذٍ بالمال

وقام بعد فولك ابنهُ بالدوين الثالث وعمرهُ اذ ذاك ثلاث عشرة سنة (سنة ١١٤٤) وفي عهدهِ كانت الركبة الثانية . وانتهز زنكي فرصة اختلافات امراء انطاكية واورفه فاصطدم امارة جوسلين الثاني واخذها عنوة وصبر اهلها حينئذٍ على حصار ثمانية عشر يومًا في خوف لا يوصف لان التسليم عندهم كان اسمًا اخر للموت فان افعال كودفروا واصحابهِ في مذبحة القدس لم تكن قد انتست من الافكار وقد علم زنكي اتباعهُ بان الفتح يتضمن حق السبي والنهب وفاق الترك في علم كل ذلك واظهرت افعال الذم والقسوة عند اخذ ادسة (سنة ١١٤٥) ان المسلمين قد حصلوا في مدرسة الفظائع التي تسلموها من الفرنج فنونًا تركوا بها اساتيذهم وراءهم مراحل عديدة ولم يعد لفرنج بيت المقدس الا الاستغاثة بحماسة نصارى اوربا وجهاد اخر وكل ذلك كان لخراب نصارى الشرق

كان سنت برنردس للجهاد الثاني ما كان بطرس الناسك للاول ولكنهُ كان يحتقر بطرس ويوكد ان عدم نجاح ذلك الجهاد كان بسوء ارائهِ التعصبية . وكان ينظر الى تلك الحرب المقدسة التي كان يضرم نيرانها دون ادنى انزعاج—وما تلك الثقة الشامخة التي كان يشعر ويعظ بها في كل مكان الا دليل ما كانت عليهِ الرهبنات الغربية في ايام زهوها—اذ عندما اخذت رهبنات المشرق تنحدر يومًا فيومًا في غياهب احلام الابحاث الساقطة اصبحت صومعة الراهب الغربي صرحًا ملوكيًا منها كانت تنبثق الكتابات لتقوية وتدريب خليفة بطرس ولتوبيخ الملوك واهل السياسة وهداية المومنين ورد الضالين الى حظيرةُ الخراف وعربسة الكافرين . وكان لبرنردس على زعمهِ في هذه الوظائف رسالة اعلى من كل قوة عالمية فكان من واجباتهِ كعضو الكنيسة المسيحية ان يحارب في خدمة ملك الملوك لابسًا درع الروح الذي لا يسبر ومتقلدًا سيف الايمان الذي لا يقهر . وكان برنردس قد تعلم لغة النظام الاقطاعي ونقل الى صومعتهِ الرهبانية صورتهُ وعباراتهِ وكان يعتبر العمل كل شي والوحدة وراحتها الجوهرية بالمقابلة مع العمل كلا شي . وما فر هاربًا من البيت الى الدير الا لانهُ كان اقدر هنالك على حرب الفساد الروحي والمادي واختار اخشن المدارس ليتعلم كيف يكبح جماح هواه حتى

اذا لم تكن كافية له في امانة نفسهِ نزع الى القفار المقفرة لنوال ذلك واذا وجد ان الشرائع الحاضرة كانت مواطئة للضعف البشري سعى الى اصلاحها وتغييرها . هذه كانت صفة ذلك الرجل فكان من اولهِ الى اخرهِ جهاديًا وقد ابتدأ جهادهُ بعناد نجح فيهِ ضد سلام وراحة ذويهِ — علم صاحبنا ان والدته كانت قد نذرت نذرًا سريًا بتقديم كل اولادها لخدمة الله فاراد ان يكون نذرها موفيًا وكان ذا قوة وغنى ومركز عالٍ في الدنيا فنبذها جميعًا ودخل دير الرهبنة القسترقية في سيتاو بحدود شامبان وبرغوندي وهي الرهبنة ذات القوانين الاكثر صرامة وخشونة وكان هناك في عنفوان شبابهِ ثم ذهب بنفسهِ فاسس ديرًا في ذلك الوادي المظلم الموحش المعروف بوادي برنردس في كلاربو وفيهِ تقلد والده اسكيم الرهبان ومات على ذراعيهِ وعمل اخوتهُ واختهُ نذورهم قدامهُ باقناعهِ اياهم ان الله يريدهُ فلم يقدموا على مقاومة ارادتهِ تعالى المظهرة على يدهِ حتى ان زوجة احد اخوتهِ كانت قد رفضت ان تضحي محبة زوجها فمرضت وخافت واتخذت لها نظير زوجها مركزًا في دير. هذا كان الانسان الذي ملأهُ خبر اخذ اودسه من النصارى غيظًا ولم يعد يرتاب في وجوب تحرير الارض المقدسة من يد الكافر اكثر من ارتيابهِ في رسالتهِ ضد الاثم والخطية وانهُ اذا جاز اقتحام اورشليم عند ما كانت في يد الظالم فمن الاحرى ان يجوز ذلك وقتئذٍ لكي يحفظ القبر المقدس والارض التي هو فيها من يد الاستبداد . وكان اذا انغرس امر في عقل سنت برنردس لم يكن يقر له قرار حتى يتممهُ ولم يكن لحدة فصاحتهِ قياس ولا حد وكانت قد جعلت له محاماتهُ عن البابا انوشنسيوس الثاني ضد بابا اخر نفوذًا لا نفوذ فوقهُ وقد استعمل ذلك الى درجة التناهي ضد ابيلارد اذكى عاقل واجسر عالم في نصارى اللاتين (سنة ١١٤٠)

واتفق انهُ توفى لثلث سنوات قبل مجمع سنس الذي قضي تحت نظارة سنت برنردس على مقدمات او هرتقات ابيلارد المذكور لويس السادس ملك فرنسا الملقب بالسمين وكانت مملكتهُ حينئذٍ صغيرة وكان هذا الملك قد سعى في حياتهِ الى تكبيرها بعقدهِ مع وليم امير (بواطو) و(غيان) صاحب تلك البلاد الواسعة ما بين نهري اللوار والادور عقد زواج بين ابنة ووريثة الامير المذكور الينورا وبين ابنهِ ووريث ملكهِ وبهذا الاتحاد وجد لويس السابع نفسهُ عند موت ابيهِ وحميهِ صاحب مملكة اعظم واغنى جدًا من مملكة ابيهِ (سنة ١١٣٧) وقد كان ممكنًا ان يكون قد وجه هذا الملك جل عنايتهِ لتوسيع نطاق مملكتهِ لو لم يرَ نفسهُ مضطرًا لحمل صليبهِ واتباع اثار عمهِ (هيو) دي ورماندواز وذلك انهُ حدث بين لويس المذكور وبين (ثيو بلد) كونت دي شامبان قتال فركب عليهِ لويس واقتحم واحرق قلعتهُ في (وترى) ففر الناس منها الى كنيسة بالجوار ثم امتدت النار الى الكنيسة واحرقت من فيها من رجال ونساء واطفال نحو الف وثلث مئة نفس كما قيل فلما نظر

لويس ذلك المنظر الفظيع وتلك الجثث المشوية ارتجف خوفًا واقشعرارًا واضمر تكفير ذنوبهِ بذهابهِ على راس عساكره الى الارض المقدسة وقد قوى عزمهُ عند ما سمع خطب سنت برنردس البليغة واعتلق لويس الصليب الاحمر في مجمع وزه لى

وكان البابا ايوجانيوس غائبًا عن ذلك المجمع ونائبهُ فيهِ حبيبهُ ومستشاره سنت برنردس فاسمعت قرعات صوتهِ اعمق اوتار القلوب (سنة ١١٤٦) وجدد ابوجانيوس بكتابتهِ الى حمال الصليب كل وعود سالفهِ البابا اوربانوس في مجمع كلارمونت وحذرهم من الكبائر التي كانت علة للبلاوي والعار على جنود النصرانية قبلاً وكانت فصاحة سنت برنردس قد ازالت من الافكار كل شي غير الاقدام واقتحام الاخطار وكان يعظ الفرسان الهيكليين اعضاء ذلك النظام الجهادي الذي كان قد حير العالم بجراءة ذويهِ وكانوا قد استوطنوا في المدينة المقدسة لاشتراكهم في حماية الحجاج ضمن مسيرهم ومنحهم بالدوين الثاني ارضًا الى شرقي الهيكل وصار جامع عمر كنيسة لهم نعم ان مواعظ برنردس كانت تحرك نفس الصخور لكن لم يكن لهولاء الابطال الذين كانوا مجردين انفسهم لحماية القبر المقدس احتياج الى محرك معنوي لاظهار نخوتهم وكانت الجزارة في تلك الفلسفة المحدثة اوثق وسيلة لنوال النعمة وان لكل مسيحي يقتل كافرًا في تلك الحرب ثوابًا يكون اكثر تاكدًا اذا قتل هو ايضًا فانفتحت من ثم بنود الحماسة الاعتقادية واندفقت منها مياه التعصب الديني فاستعيدت مشاهد مجمع كلارمونت بفرق جزئي وصعد سنت برناردس على منبر من خشب وعلى جانبهِ ملك فرنسا لابس الصليب الاحمر والقى خطبة مهيجة على القوم لم تنتهِ حتى صرخ الحاضرون بصوت جهير هلم بسمات الجهاد فاخذ يفرق ما عندهُ عليهم ولما فرغ الوطاب نزع الى ثوبهِ فمزقهُ قطعًا ووزعهُ عليهم

هذا ما كان من امر ملك فرنسا واتباعه اما كونارد امبراطور جرمانيا فكان متوانيًا في امر السفر وكان اهم اليهِ تاديب اولئك الامراء المستبدين في مملكتهِ من قتل كفار مجهول لديهِ امرهم. ثم دخل عيد الميلاد وكان اجتهاد برنردس في كلتا مدينتي (اسبير) (ورا تسبون) ان يقنع الامبراطور بواجباتهِ نحو الجهادِ حتى اخذ منهُ وعدًا بانهُ يعطي عن ذلك جوابًا في الغد وحينئذٍ استعد ذلك الخطيب لليوم المذكور والقى موعظة حافلة بين فيها بالوان فظيعة اهوال ذلك اليوم العظيم عند ما تحشر جميع الامم والشعوب امام منبر ابن الانسان وطلب الى الامبراطور ان يتبصر فيما يجب عليهِ ان يقدمهُ من الحساب وفي العار العظيم والعذاب الاليم اللذين سيكونان من نصيبهِ اذا قضى عليهِ بانهُ لم يحق وكالتهِ فتحرك قلب الامبراطور من كلامهِ وانسجمت دموعهُ على خديهِ وقبل اخيرًا راي برنردس وهذا كان مستعدًا لهُ ولغيره فتناول الصلبان وناولها لهم فتنكبوها ثم تناول العلم المقدس من عن المذبح واعطاهُ للامبراطور وحينئذٍ ظهرت عجائب الله في اولئك الاحشاد فاسترقموا اسماءهم في اعلام

الصليب ورجالهِ

وبعد اربعة اشهر من ذلك استقبل (سنة ١١٤٧) لويس حضرة البابا في سنت دنيز واقتبل من يديه الجراب والعصا والعلم الذي كان ليعطيهُ النصر على الاعداء وكان اهل التقوى من تلك الصفوف يرتقبون قائدًا في سنت برنردس الا ان هذا الخطيب اجابهم بما يترع من افكارهم ذلك بقولهِ انا لست بقائد فانظروا لكم رجلاً يحسن ذلك ويقدر على ادارة الاسلحة الارضية

ولقد ذكرنا في الجهاد الاول كيف بدأ اتباع بطرس الناسك ووالطر عديم الفضة باظهار غيرتهم الجهادية في ارتكاب الفظائع واضطهاد اليهود وهكذا شرع هولاء الزمر المتجمعة تحت اعلام الامبراطور وتزايد هذا الظمأ لسفك الدم بمناداة الراهب رودلف لا سيما وقد كان سرى سم هذا التعصب او سحرهُ الى ذلك الشيخ الجليل الفاضل بطرس خوري كلوبني . لكن برنردس لم يكن في تعصبهِ ما يجيز هذه الفعال القبيحة فابى ان يواخذ اليهود بذنوب ابائهم في عهد بيلاطس وقال ان الله قد قاصّ اليهود بالتشتيت فقط فليس للانسان ان يقاصهم بالقتل وامر بارسال رودلف الى ديرهِ ولم يكن سهلاً ردع ضراء الناس الذين كانوا قد خمروا بدم مئات من الضحايا في كل مدن الرين الشهيرة

ثم اجتمع كونارد ولويس في (مينز) ورافق لويس زوجتهُ الينورا وجاء اليهِ هناك كونت دي (طولوز) ودي (نيور) ودي (فلاندر) وغيرهم من امراء الصليب وما بينهم قبل (روجر) دي موميراي (وارل) دي وارن وسوراي من انكلتره. وكان عدد الجهاديين كثيرًا لا يمكن ضبطهُ كما في كل تجمعات نظير هذه . ولعل في انتظام تلك الجماهير ما قلل خطر مرورهم في اوربا وسهل للنساء المسلحات بالحراب والتروس صحبة السيدة ذات الارجل الذهبية الزحف المجيد كما كن يفتكرن الا ان الخطر الحق لم يبتدِ الا بعد عبورهم الى اسيا وكان قد داخل الامبراطور كونارد قبل وصولهِ الى القسطنطينية شبهات قوية في صدق مانويل حافد الكسيوس ملك الروم وكان ذلك يتجسم يومًا بعد يوم حتى انهُ رفض كل مواجهة معهُ وقطع البوصفور دون ان يجتمعا . اما ملك فرنسا فكان الطف طبعًا ولكنهُ مع انشراحهِ من حسن استقبال مانويل لهُ شخصيًا فانهُ كان يلتهب غيظًا وخوفًا من سماعهِ عن انهُ كان في اتصالات سرية مع سلطان الاتراك صاحب قونية وشاركهُ في غيظهِ هذا كل الجموع. وفيما كان البعض يجتمون انهُ كما حملتهم واجبات الرحمة على ترك بلادهم والذهاب الى فلسطين يجب ان تحملهم ايضًا على عدم التصدي للانتقام الشخصي كان اخرون ايضًا يغرون بان المملكة التي سمحت باتصالات القبر المقدس من قبضتها ولم تفعل الا القاء الصعوبات في طريق الجهاديين لاسترجاعهِ يجب ان تمحى عن وجه الكره

ثم همدت الفتنة وزحف الصليبيون امنين ولم يشعروا حتى علموا علم اليقين ان ادلتهم المعطاة لهم من مانويل ليروهم الطرق قد قادوهم اما الى القفار اليابسة او الى كمين الاعداء فان الامبراطور كونارد كان قد فقد الوفًا وعشرات الوف في لاكونيه وكان ملك فرانسا بتصديقهِ خداعهم عن نجاح مسيره وجد نفسهُ في داهية كبرى عند بحيرة اسكان و بادر كونارد الى اتباع الفارين من عسكره الذين حملوا اخبار دماره وعزم كلا الاميرين على العدول عن الجادة المطروقة والذهاب في الاراضي المتاخمة شطوط بحر (اجه) الشرقية ومشوا حتى وصلوا الى فيلادلفية ليديا ثم الزمت مشاهد الاخطار كثيرين منهم بالرجوع الى القسطنطينية وركب كونارد البحر بقرب افسس

اما لويس وقومهُ فانهم لزموا ضفات نهر مياندر وقطعوا الاتراك الذين تعرضوهم في مسيرهم لكن اخذ اولئك منهم ثارهم عند وصولهم الى منافذ جبال اللاذقية و بعد مذبحة فظيعة تقدم الفرنساويون الى اطالية البافيلية وهناك عرض البعض رايًا بان يركب جميعهم البحر الى انطاكية والبعض قالوا ومنهم ملك فرانسا ان يركب الحجاج فقط وتنطلق العساكر في اثر فاتحي اورشليم واخيرًا وجد ان المراكب الموعود بهامن حاكم اطالية لم تكن كافية فركب الملك لويس البحر بعساكره وقصد انطاكية وترك المرضى والحجاج لعناية كونت دي فلاندرس فنهض شعب اطالية وذبحوا المرضى لقلة الخفر ودهم الاتراك صفوف الحجاج فلم يخلص منهم سوى سبعة الاف تغلغلوا شتيتًا يطلبون الوصول الى اورشليم الارضية فما لبثوا ان وجدوا في القتل جوازًا الى اورشليم السموية كما سبقت لهم الوعود

واحدث وصول ملك فرانسا الى انطاكية رعبًا في قلوب اتراك حلب وقيصارية على العاصي لكن لم يكن ما يقنع ذاك الامير في تاخير سفره الى اورشليم وانتهاز فرصة انذعار القوم للايقاع بهم على الفور مع كل اضطراره الى ذلك وما افادت توسلات زوجتهِ الينورا اليهِ بالبقاء حيث كانوا الا تحريك غضبهِ والاشتباه في صدقها • وصحب دخولهُ الى بيت المقدس علامات تشير الى النصر بعد كل التهالك التي كابدها • وبعد المواجهة مع كونارد وكان قد وصل الى بطولمية (عكة) اخر امر استرجاع اديسه التي لاجلها كان ذلك الجهاد وابرموا علي حصار دمشق لانها كانت اكثر اهمية من غيرها ثم القوا الحصار عليها بكل صرامة واقدام وساعدهم في ذلك فرسان الهيكل وفرسان سنت جون وكانوا يوملون بالفتح دون ادنى ريب ولما ايس الدمشقيون من النجاة واخذوا بالفرار كالوسيلة الوحيدة للخلاص شرع الامبراطور والملك يتشاوران فيما بينهما ليس لاتمام الفتح بل عما يجب ان يصنع بالمدينة متي اخذت وقر قرارهما اخيرًا بتركها (لتياري) كونت دي فلاندرس فتحرك عن ذلك غضب وغيرة باروني فلسطين الذين لم يانفوا وقتئذٍ من اضافة الغدر الى برنامج جناياتهم وبعد ان ارتشوا من حاكم دمشق مجير الدين انق بن احمد بن توري بن طغتكين اقنعوا

الملكين بانهم اذا اقتحموا المدينة من جانب اخر غير الذي قد اقتحموها منهُ (والحال انهُ لم يبق الا استلامها وحينئذٍ) فانهم في يقين من النجاح · ثم تركوا مركزهم الاول في البساتين الجميلة امام البلد وذهبوا الى ارض متروكة لاشي فيها ولا امل بعمل شي · ولما كان اسهل للامبراطور والملك ايقاع الشبهة من قصاص خداع اصحابها ندما على ما كان ورفضا ما عرض عليهما من اقتحام عسقلان وانجلى الامر اخيرًا برجوع العسكر الى القدس وقفل كونارد مع بقية عسكره الى اوربا. وبعد سنة من ذلك اتبع ملك فرانسا مثلهُ مع زوجتهِ الينورا · وكان لويس قد ارتاب من صدق محبتها فحصل في اقل من سنتين على الاذن بطلاقها بعلة القربى الممنوعة مذهبيًا · ونقلت الينورا ميراثها العظيم الى زوجها الثاني هنري الديوك النورماني الذي صار ملك انكلتره باسم هنري الثاني

وهكذا انتهى الفصل الاول من تلك الركبة العظيمة التي تطوع لها مئة واربعون الف فارس ونحو مليون راجل من كل نوع ومهنة وخالفت نتائجها ما كان قد تنبأ بهِ برنردس دي كلاررو وكان كلما فعلتهُ استرجاع عمَاراتها البحرية لزبونة من العرب وكان الاستهلاك على الرجال لتغذية نيران تلك الحرب كما قال بعض من شهد ذلك الى درجة خلت معها القلاع والمدن منهم فلم يكن ينظر الا نساء واولاد وبالكاد لكل سبع اناث ذكر واحد وعندما قطعت النساء الرجاء من رجوع اولئك الاباء والازواج والاخوة والاولاد الذين فارقوهن علا عويل الياس فهتم بجنبيهِ جوارح برنردس واصم بترداد انينهِ اذانهُ والقى عليهِ كلاهما وصوت الشعب جناية ارسالهم في مهمة لم يتموا فيها شيئًا ولا حصدوا منها غير العار والدمار ولبث برنردس مدة كالاصم الاخرس لا يفوه بشيءٍ ثم تذكران كلامهُ انما كان بامر الله وايعاز نائبهِ فلا ذنب عليهِ بذلك وانما الذنب في عدم نجاح الامر كان على الحجاج انفسهم اذ انهم اطلقوا كالذين انطلقوا من قبلهم عنان الشهوات وملاوا مضاربهم دمًا وفتنة فجلبوا على انفسهم القصاص العادل وتاوه وقتئذٍ على جهالة اشراكهم اللصوص والقتلة بما لا يصح ان يشترك بهِ الا الاتقياء والمومنون ولما كانت هذه الملاحظات غير كافية لتهجيع الافكار المضطربة نزع كثير الى المبادي الدينية فاعلن يوحنا الراهب بان الحجاج المقتولين قد ماتوا شهداء فرحين من تخلصهم من شقاء هذا العالم وانهُ سمع من فم الرسولين بطرس وبولس نفسيهما بان اماكن الملئكة المطرودين ملئت بارواح الساقطين في تلك الحروب سواء كان ذلك في الارض المقدسة او على الطريق · وقال ايضًا ان الملئكة والقديسين ينتظرون بفروغ صبر قدوم برنردس عليهم وقد اتم كل من يوحنا وبرنردس المذكورين في خمس سنوات من ذلك رغبة اولئك الارواح الابرار · سنة الله في خلقهِ الى اخر الادوار والاكوار

فصل

في فتح المسلمين اورشليم وخراب المملكة اللاتينية

اعلم ان الجهاد الثاني ليس انهُ خاب في غايتهِ بل لم يات بشيء لتوطيد سلطة اللاتين المترجرجة هنالك حتى ان الانتصارات نفسها لم تفضي الى نتيجة راهنة وكثيرًا ما استحال النصر مع سوء التدبير الى عكسهِ فان فوز جوسلين دي كورتناي مثلاً في قتالهِ مع نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سلطان حلب (سنة ١١٥١ – ٥٤٦) جعل في امكان جوسلين المذكور استرجاع اورفه ولكنهُ قد اختار هذا الامير الشماتة لهُ شعارًا فاراد التمتع بلذة اهانة خصمهِ بارسالهِ سلاح نور الدين الماخوذ من سلاح داره الذي اسر وقتئذٍ الى حميهِ مسعود بن قلج ارسلان السلجوقي صاحب قونية وافتخارهُ بقولهِ هذا سلاح صهرك نور الدين فآل الامر الى تجديد القتال والمكائد واسر جوسلين وسجنهِ وموتهِ ثم سلمت زوجتهُ ما كان بقي لهُ الى امبراطور الروم براي بالدوين الثالث ملك القدس على دفع مبلغ من النقود وانتهى امر تلك الولاية الافرنجية

ثم اخذت الاخطار ان تلم بالمملكة من كل ناحية وظهرت علاماتها اولاً في اغارة التركمان اراضيها حتى جبل الزيتون نعم انهُ صار وقتئذٍ تاديب جسارتهم بصرامةٍ ولكنها كانت من المقدمات الردية قالوا ان الملك بالدوين كان غائبًا حينئذٍ فاخذ فرسان الجهاد الذين في بيت المقدس بعض اللاتين لذلك من الاهلين وانطلقوا للتقائهم واحرقوا خيامهم فانهزموا والتقوا بالملك راجعًا فاوقع بهم وقتل منهم نحو خمسة الاف نفس (سنة ١١٥٣ – ٥٤٨)

ثم بسمت السعادة قليلاً على مطامع جنود الافرنج ففتحوا عسقلان بعد حصار عنيد والياس من اخذها الا ان كل ذلك كان وقتيًا وظاهرًا ودامت المناوشات بلا عدد ولا راحة وبقي الاخذ والعطا الحربيان بينهم وبين جيرانهم ومات بالدوين الثالث في عنفوان شبابهِ (سنة ١١٦٢ – ٥٥٨) لثلاث وثلثين سنة من عمرهِ دون نسل وخلفهُ اخوهُ المرك وكان بالدوين محبوبًا من رعيتهِ موقرًا من أعدائهِ

اما المرك فاخذ منذ بداءة حكمهِ ان يتكدر صفاء العلاقات بينهُ وبين المصريين وشوهد الفرنج يحاربون مع الفريق الواحد من المسلمين ضد فريق اخر منهم · وانتهز نور الدين زنكي سلطان حلب الفرصة ليبني لهُ فوق تلك الاختلافات جسرًا يتصل بهِ الى مصر ويمد قوتهُ ونفوذهُ هناك وكان قد التجأ اليهِ شاور وزير العاضد العلوي (سنة ١١٦٢ – ٥٥٨) لما نهض عليهِ ضرغام وقهرهُ وطردهُ ووزر مكانهُ فاستقبلهُ ببشاشة وكان عزل الوزير وقتئذٍ لهُ من الاهمية ما لو خلع الخليفة

نظرًا للقوة التي كانت في يد الوزراء لان الخلفاء العلويين كانوا قد اصبحوا لعبة في ايدي وزرائهم نظير ما كان الملوك المرووبجية في ايام كارلو مارتللو وبيبين (٧٤٠ — ٧٧١) للنصرانية

وكان ما بين قواد نور الدين محمود رجل يسمى اسد الدين شيركوه بن شاذي وابن اخ له اسمهُ صلاح الدين يوسف بن ايوب الكردي وقد ذكرنا قبلاً كيفية اتصال نجم الدين ايوب بن شاذي من هذه العائلة وعماد الدين زنكي ابي نور الدين المذكور في حرب السلطان مسعود السلجوقي (سنة ١١٣١ — ٥٢٦) وكان نجم الدين ايوب وقتئذٍ دزدار تكريت فارسل نور الدين شيركوه وصلاح الدين المذكورين لاجل ترجيع شاور الى منصبهِ في مصر وكان لما علم خصمه ضرغام ذلك استنجد بالفرنج وبذل لهم مواعيد عظيمة ولكن قبل تمام الشروط كانت عساكر نور الدين قد انتصرت على ضرغام المذكور وقتلوهُ وورد شاور الى الوزارة ثم خطر لشاور ما جعلهُ يخشى مكائد عاضديهِ فاراد نقض عهده وكان على ثلث اموال مصر فامر القائد المذكور بترك البلاد والذهاب الى سيده اما جواب شيركوه فكان بالذهاب والاستيلاء على بلبيس (بلوزيوم) فاستدعى حينئذٍ شاور الافرنج وكان اكثر نجاحًا من سالفهِ فحضر الفرنج واجتمعوا مع شاور وعساكر مصر والقوا الحصار على بلبيس وشيركوه وعساكره بها ثم بلغ الافرنج بعد حصارها ثلثة اشهر خبر اعمال نور الدين في الشام وحصاره حارم التي كانت لهم فخاطبوا شيركوه بالصلح وهو لعدم معرفتهِ الاسباب اجاب اليهِ وفتحوا له فخرج بعسكره وبعد ان سلم الاسرى ذهب الى الشام حسب العهود ووصل اليها سالمًا بمن معهُ (سنة ١١٦٣ —٥٥٩) ولكن لم تترك عساكر الافرنج مصر وتذهب الى الشام الا لتكابد من الكسر والبلية ما كابدتهُ من عساكر نور الدين محمود بقرب انطاكية وترك انطاكية عينها لرحمة العدو ونهاية ذلك كلهِ اخذ المسلمون حارم . وربما عدل نور الدين عن مهاجمة انطاكية وقتئذٍ خوفًا من ان يجلب عليهِ عدوًّا اخر وهو امبراطور الروم فكان اهتمامهُ الاول اضعاف القوة الفاطمية بمصر وامتلاك تلك البلاد المحادة مملكة اللاتين جنوبًا وشمالاً وهذا ما كان يخشاهُ ملك اورشليم

ثم استاذن نور الدين المرتضي الخليفة العباسي وبدّل غاراتهِ بحرب قانونية وفي تلك المقاتل التي جرت بين الطرفين ما يكفي لبيان الجراءة والقوة المتبادلتين وتعاقب النصر والكسر دولاً بينهما وكان ملك اللاتين قد دخل القاهرة عند ما وقّف اعصار الرمال حركة عساكر شهركوه لكن لم يكن ارتداد شيركوه الى سواحل النيل كافيًا لتامين المصريين فدفعوا الى المريك ملك القدس مائتي الف دينار ووعدوهُ بمثلها عند تتمة طرد عدوهم وصار توقيع العهدة في حضرة الخليفة العلوي الذي كان قد فقد القوة الاجرائية وصار صورة ولعبة في ايدي الوزراء

اما بقية حوادث تلك الحروب فكانت اولاً موقعة انهزم فيها بعض عساكر أمرك وسلمت الاسكندرية الى شيركوه فجعل فيها ابن اخيه صلاح الدين ثم حصار عساكر أمرك لها ونواله من عساكر نور الدين عهدًا باطلاق الاسرى وترك مصر والرجوع الى الشام وابقا طريق سورية حرة له وتسلم المصريون اسكندرية وخفقت اعلام الفرنج واعلامهم على اسوارها وصار شيركوه الى الشام واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على ان يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وابوابها في يد فرسانهم ولهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار كل ذلك (سنة ١١٦٧–٥٦٢)

انما هذا الصلح لم يكن الا هدنة لاكتساب الوقت فان لا نور الدين ولا الفرنج كانوا قد نزعوا من فكرهم افتتاح مصر ووجد المرك سببًا قريبًا لاعادة الخلاف وذلك انه علم بعد رجوعه الى فلسطين ان المضريين كانوا في مكاتبات مع عدو الطرفين سلطان حلب . وكان المرك قد تزوج بنت امبراطور الروم ووعدهُ بالمساعدة بحرًا وبذل له الفرسان الاسبيتاريون خدمتهم (اما الهيكليون فتقاعدوا حسدًا منهم) وجهز اخيرًا المرك عسكرًا ضخمًا وقام بهِ كانهُ يقصد حمص (سنة ١١٦٨–٥٦٤) ثم عطف وفي عشرة ايام وصل الى بلبيس واقتحمها واخذها واستلم اهلها بنوع اكد منهُ ما كان قد شاع عن قسوة النصارى وقلة رحمتهم

ولما راى شاور الوزير ذلك استنجد على اصحابهِ القدم عدوهُ سلطان حلب وبعث رسلاً الى المرك يعرض عليهِ مليون دينار منهُ مائة الف جاهزة ويرجع عنهم فقبل المرك الرشوة واخبر العسكر ان يتوقفوا عن النهب والسبي الى ان يكون اجتمع المال . اما الوزير شاور فاعتنى بان لا ينتهي جمعهُ قبل وصول عساكر نور الدين ثم قدمت تلك العساكر ووجد المرك نفسهُ ولكن بعد فوات الفرصة في معقل عظيم ولم يعدلهُ الا الرجوع على الاعقاب الى بلاده وكان طريقهُ محفوفًا بالاخطار والعار وظهرت العمارة الرومية على افواه النيل ثم رجعت على الفور ولما لم يجد المرك سبيلاً لمقاصة ملك الروم والقاه ذنب الكسر عليهِ القاه على زعيم الاسبيتاريين فقطعوهُ عن رتبتهِ

وكان انصراف الافرنج وانتصار اسد الدين شيركوه سببًا لمكائد صنعها شاور المذكور ليتخلص من شيركوه انتهت اخيرًا بالقبض على شاور وقتله فاقام العاضد العلوي مكانهُ شيركوه المذكور (سنة ١١٦٨ ٥٦٤) ولقبهُ بالملك المنصور امير الجيوش وكتب له المنشور بانشاء الفاضلي وهو بعد البسملة

« من عبد الله ووليهِ ابي محمد الامام العاضد لدين الله امير المومنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الائمة اسد الدين ابي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله بهِ الدين وامتع بطول بقائهِ امير المومنين وادام قدرتهُ واعلى كلمتهُ سلام عليك — ثم يفوض اليهِ امور الخلافة ويذكر على طرة المنشور هذا عهد لم نعهد لوزير بمثلهِ فتقلد امانة رآك امير المومنين اهلاً لحملها

وخذ كتاب امير المومنين بقوة واسحب ذيل الفخار بان اعتزت خدمتك الى بنوة البنوة »

ومدح الشعراء شيركوه وهنوه بذلك تاريخًا منه ما ارسله اليهِ عماد الكاتب من الشام وهي قصيدة اولها.

بالجد ادركت ما ادركت باللعبِ	كم راحة جنيت من دوحة التعبِ
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من	نادى فعرف خيرا ابن لخيرابِ
جرى الملوك وما حازوا بركضهم	من المدى في العلى ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت	عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد امكنت اسد الدين الفريسة من	فتح البلاد فبادر نحوها وثبِ

وشيركوه لم يعش بعد ذلك غير شهرين وخمسة ايام وهو اسد الدين شيركوه بن شاذي من بلد دوين من الاكراد الروادية اخو نجم الدين ايوب بن شاذي ونجم الدين كان الاكبر قصدا العراق وخدما (بهروز) شحنة الدولة السلجوقية ببغداد وجعل بهروز نجم الدين مستحفظًا لقلعة تكريت وقد تقدم ما كان بينهُ وبين عماد الدين زنكي صاحب الموصل ثم قتل شيركوه رجلاً من تكريت فاخرجها بهروز ولحقا بعماد الدين زنكي فاحسن اليهما واعطاهما اقطاعات جليلة ولما ملك عماد الدين بعلبك جعل ايوب مستحفظًا لقلعتها الى ان اخذها منهُ ملك دمشق بعد موت زنكي كما ذكرنا على اقطاع كبير شرطوه لهُ وبقي ايوب من كبراء عسكر دمشق وشيركوه مع نور الدين محمود صاحب حلب فاقطعهُ نور الدين حمص والرحبة لما راى من شجاعتهِ وامرهُ على عسكره ونال بعدهُ بمساعدة نجم الدين ايوب اخيهِ ملك دمشق وبقي كلاهما مع نور الدين الى ان ارسل نور الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف ابن اخيهِ نجم الدين الى مصر . وصلاح الدين هذا هو بدء الدولة الايوبية الشهيرة في جهاد الصليبيين

ولما توفي شيركوه تقدم جماعة من الامراء النورية وطلبوا رياسة العسكر والوزارة العاضدية مثل عين الدين الياروقي وقطب الدين ينال المنبجي وسيف الدين على الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين اما العاضد فبقصد انتقاء رجل اميل الى اللذات وادنى الى الضعف ارسل فاحضر صلاح الدين يوسف وولاه الوزارة ولقبهُ بالملك الناصر فابى بقية الامراء الخضوع لهُ الا بعد الاقناع والتعب وترك الياروقي مصر وذهب الى نور الدين قائلاً انهُ لايخدم يوسف

وكان نور الدين محمود يضع بمكاتبتهِ الى صلاح الدين طرته على راس الكتاب تعظيمًا عن اسمهِ ويدعوه بالامير الاسفهسلار (القائد) ويجمل في كتابهِ اليهِ جميع الامراء بمصر وكل ذلك استخفافًا بهِ وكلهم كانوا في ضلالٍ ولم يقدروه حق تقدير ثم ارسل صلاح الدين فاتى بابيهِ نجم الدين ايوب

وباكراده واستخدم ما جعل اليه من الوسائل والخزائن فوجد الخليفة الفاطمي ان النير الاخيركان اشد من الاول وقتل صلاح الدين موتمن الخلافة وكان مقدم السودان فاجتمعت السودان وهم حفاظ القصرفي عدد غفيروجرى بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثيروتبعهم صلاح الدين واجلاهم شتيتاً واستولى صلاح الدين على القصرواقام فيه بهاء الدين قراقوش الاسدى وهو خصي ابيض

وكانت نتيجة ترقية صلاح الدين بالنظر الى المملكة اللاتينية وضع حاجز قوي بازائها على حدودها الجنوبيةوتهدداً مستمرًا لها ولذلك اضطرهم خوفهم الى ارسال سفارات للملك الروم ودول نصارى اوربا (سنة ١١٦٩–٥٦٥) يستفزونهم غيرانهُ لم يكن حضر الوقت لجهادٍ صلبي ثالث فلم يلبِّ طلبهم الامنويل باسطولهِ في حصارٍ على دمياط آل امره الى لا فائدة وما نجاهم من جنود نور الدين الزاحفة عليهم من الشمال الا الزلزلة التي حدثت وقتئذٍ فتركت حلب خراباً وزعزعت اسوار انطاكية

وما زال صلاح الدين يقوى رغماً عن دسائس الحزب القديم اعدائهِ الى ان فعل (سنة ١١٧١–٥٦٧) بالخلافة الفاطمية الاسميةما فعل« ببين» بالملوك المروونجية ولم يعلم الخليفة العلوي وهو على فراش سقامهِ انقطاع الخطبة لهُ واقامتها للخليفة العباسي فان لصلاح الدين وحده فخرانهاء ذلك الشقاق الذي دام مائتي سنة ونال من المستضيء خلعةً من كتان وسيفين جزاء عن فعلهِ وما سد باب الشقاق المذكور حتى فتح غيره وذلك ان صلاح الدين كان فعلاً خادم سلطان حلب وعلى ذلك الشرط فقط عرفهُ وثبتهُ الخليفة العباسي لكن هذا الوزير الجديد لمصر لم يعد يرغب طاعة سيده نور الدين ولما تهدده ُ جمع صلاح الدين جميع اقاربهِ وكبراء دولتهِ وقص عليهم الوحشة بينهُ وبين نور الدين فقال عمر ابن اخي صلاح الدين نقاتلهُ ونصدهُ ونرد تهديده عليهِ بالحرب فنهض نجم الدين ابو صلاح الدين في وسط ذلك المحفل وقال ما معناه ان الطاعة لنور الدين واجبة والانقياد لاوامرهِ فرضٌ فبردت حدة صلاح الدين ولما اجتمعا سرًّا قال لهُ ابوهُ ما مفاده اني لا الومك على الفكر بالمقاومة ولكن على كلامك فيها واشار عليهِ بانشاء كتاب وارساله الى نور الدين محمود وكان ذلك كافيًا لتمهيد الامور بينهما الاَّ ان هذا الصمت لم يطل وكانت مقاصد صلاح الدين تزداد ظهورًا يومًا فيومًا الى ان عزم نور الدين اخيرًا على السفر الى مصر وفيما هو ذاهب فاجاهُ الموت في الطريق وبالحقيقة ان تاريخ ذلك العصر والاعصار التالية قد عرف في كل من نور الدين وصلاح الدين رجلاً لهُ عظمة وبساطة عمر. ولا ريب ان اللطافة والشهامة الاسلاميتين كانتا اوفر كرمًا وسماحةً من لطافة وشهامة نصارى المغرب وكفانا بذلك شهادة اثناء

كليام مطران صور على نور الدين بذكره جوابهُ لسلطانتهِ وهي تشتكي اليهِ احتياجها بقولهِ—لي ثلثة دكاكين في حمص فخذيها فانها هي كلما املك وانا لست الاَّ خازن المسلمين لا اخونهم بشيءٍ مما بيدي واني اخاف الله ولا اخوض نار جهنم لاجلكِ — وكان دابهُ تجديد الجوامع والمستشفيات والمدارس والخانات للقوافل في كل مكان من مملكتهِ وهو الذي بنى اسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل وكان القضاء يجري في ايامهِ بدون تمييز وموته (سنة ١٢٧٣ — ٥٦٩) ولما مات كان حصن بانياس بيد ارملتهِ فاراد المرك اخذه ومضى لحصارهِ فعرضوا عليهِ مالاً والرجوع عنهُ فلم يقبل اولاً ثم قبل وعاد الى اورشليم ومات حالاً تلك السنة وكان بعكس خصمهِ بخيلاً دنيئًا

ثم نهض عوضهُ ابنه بالدوين الرابع وهذا كان ابرص واشتد مرضهُ فاستناب غيره في اعمال المملكة وكان قد اختار اولاً نائبًا لهُ «غوي» دي لوزنيان زوج اخته سبيلاً ولكن اما لضعف غوي او لاختلاف البارونين فلم يتم لهُ ذلك ولما لم يقدر بالدوين ابطال زواجهِ ترك تاجه لبالدوين الطفل ابن اختهِ سبيلاً من زوجها الاول وسمى رايموند الثاني امير طرابلس وكيلاً وجوسلين دي كورتناي ناظرًا لهُ . ولكن بالدوين الرابع توفي بعد ثلاث سنين وتبعهُ الطفل بالدوين الخامس (سنة ١١٨٦ — ٥٨٢)

ثم تجدد النزاع على الملك ونهض غوي المذكور واثبت استحقاقهُ اياه بحق زوجتهِ سبيلاً وكان وقتئذٍ شابًا ولكنهُ ذو اسم ردي فانهُ كان قد قتل باتريك ارل دي سالزبري ونفاه هنرى الثاني من ملكهِ في فرنسا وكان الراي العام فيهِ بحسب ما قال عنهُ اخوهُ جوفراي « لو عرفني الناس الذين عملوا اخي ملكًا لعملوني الهًا »

ولما ملك غوي رفض رايموند امير طرابلس طاعتهُ فحاصرهُ غوي فعمل رايموند عهدًا مع صلاح الدين وكان في بال صلاح الدين وقتئذٍ مسئلة اكثر اهمية — كان صلاح الدين وقتئذٍ صاحب مصر والشام فاراد ان تكون لهُ فلسطين ايضًا وان يرى اعلام الهلال تخفق على اسوار اورشليم وجامع عمر عوض اعلام الصليب ولم يكن يلزم سبب وقتئذٍ لعمل الحرب مع ان الاسباب كانت وافرة نظرًا لغارات البارونيين الدائمة على املاك المسلمين فجمع صلاح الدين خمسين الف فارس وعسكرًا ضخمًا من المشاة ونهض لقتال اورشليم وكان اول هجومهِ على مدينة طبرية فلما سمع ذلك رايموند امير طرابلس ترك كل اضغانهِ جانبًا واسرع الى القدس معتمدًا سلامة مملكتهِ امرًا ثنويًا واشار على الملك غوي بان يلزم الدفاع لا غير فان فيهِ افناء عدوهِ وكان هذا الراي جيدًا اما زعيم الهيكليين العظيم فنسب ذلك الى مقاصد خفية من رايموند واقنع غوي برايهِ وصار القرار على ملتقى العدو في مكان خارجًا

وكانت عساكر المسلمين عند ما تلاقى بها عسكر غوي قد تعبت من العطش واضناها الحر فكانت اول موقعة بينهم دون نتيجة ودامت كل النهار وانسحب كل فريق بمحضر · وفي الغد اغتلس عسكر اورشليم القتال وكان جمال ذلك الصبح قد تكسر على بياض سواحل ذلك البحر الراكد حيث كان يسوع يعلم الصيادين الجليليين كلام الحيوة من نحو اثنى عشر قرنًا فاضاف الى حماسة المتحاربين وكان قد اشتد العطش في كل فريق وعلم الفرنج ان على ذلك القتال كان موقوفًا بقاء المملكة وسقوطها · وكان بالقرب منهم مكان عزت لديهم كرامتهُ — تلةٌ عليها ذخيرة عود الصليب الاصلي فكان اليها المفزع ومنها المدفع مدة دوام تلك الموقعة فكل هذه الافكار والاذكار كانت نسوق رجال الصليب الى المدافعة والمهاجمة بقلب لا يهاب الموت ولكن حيث يكون حسن القياد العسكري مفقودًا فالعدد هو الغالب اخيرًا وهكذا كان فان عساكر الافرنج انهزمت واخذ غوي وزعيم الهيكليين اسيرين ونزعت ذخيرة عود الصليب التي كانت تكسبهم الثبات والحماسة

وكان انتصار صلاح الدين كثير الثمرة فانهُ على اثره سقطت طبرية وفتحت بيروت وعكة وقيسارية ويافه ابوابها ولم يبق غير صور فانها خلصت بشجاعة صاحبها كونارد دي منطفرات اخي زوج سبيلاَّ الاول

وصلاح الدين لم يرد ان يحاصر القدس اولاً فترك بعض عسكره هناك وذهب الى عسقلان وعرض على حاميتها صلحًا مجلاً فقبل وفتحوا لهُ الابواب وبعد ان اكمل فتوحاتهِ عاد · وكانت اورشليم ملئى من الناس ولكن حاميتها قليلة والعسكر الذي حارب عنها كان قد تشتت وكان صلاح الدين قد عزم على ملاشاة مملكة اللاتين والحرب حتى يكل احد الفريقين وكان العدد والعدد والثروة والوسائل ونحوها كلها على جانبهِ فلا تقدر الشجاعة وحدها والحالة هذه ان تغلب كل ذلك ولم تكن اطالة المقاومة الا اطالة العذاب والشقاء فارسل يطلب الى الاهلين والرؤساء بان يسلموا البلد ويحقنوا دم العباد فان لا ارادة لهُ ان ينجس مكانًا قد اجمع اليهود والنصارى والمسلمون على طهارتهِ وبعدهم ان فعلوا يسد احتياجات السكان بالدرهم وغيره ويجد لهم منازل لسكنهم في الشام · فرفضت هذه المقدمات لان التعصب يولد العناد · فتهددهم صلاح الدين حينئذٍ انهُ اذا الزم لاخذ البلد بالسيف سيجعل فيهِ مذبحة اشد من مذبحة كودفروا واصحابهِ عند ما اخذوهُ — وبعد ان حصرهم جمعتين وعمل الفريقان قدرتهما ليلاشيا بعضهما بعضًا فكان النصارى من جهة اقتناعهم ان موت جهادي الصليب حياة لهُ مخلدة قد بذلوا كل جهد في الدفاع عمدًا والمسلمون بايمانهم ان ابواب الجنة مفتوحة لكل من يجاهد عن الاسلام قد حملوا كل خطر امامهم منصبين على الموت قصدًا راى المحصورون ان النجاة عادت مستحيلة وان الاسوار التي عند ماري اسطفان كانت قد ثقبت واخذوا يتسابقون كهنة

وغيرهم الى الكنائس لعل الله يخلصهم باعجوبة وزادهم خوفًا علمهم ان الروم الذين داخل المدينة كانوا في مواصلات مع العدو فتذكروا حينئذٍ مقدمات صلاح الدين بالصلح فارسلوا اليهِ يطلبون الامان فلم يجبهم الى ذلك فعاودوهُ وعرفوهُ ما هم عليهِ من الكثرة وانهم ان ايسوا من الامان قاتلوا غير قتال فرق لهم واجابهم اليهِ على ان يدفع كل رجل عشرة دنانير وكل امراة خمسة ويدفع عن كل طفل ديناران ومن عجز عن الاداء كان اسيرًا وان الشرفاء والجهاديين يوخذون الى صور التي كانت في يد كونارد وان المرضى والمقطوعين لا خوف عليهم واذن للفرسان الاسبيتارية بالبقاء سنة لخدمة السقاء الذين لا يمكن نقلهم وسلمت اليهِ المدينة يوم الجمعة سابع وعشرين رجب (سنة ١١٨٧ — ٥٨٣) ورفعت الاعلام الاسلامية على اسوار المدينة ورتب السلطان من يقبض المال من الاهلين على ابواب البلد فخان المرتبون ولم ياتوا بالجميع الى السلطان وهذه هي العادة في كل دولة وزمان — ومثل هذه الشروط تحسب خفيفة هينة في حروب دينية كانت قد بدات من نحو قرن

واعطى للناس اربعة ايام للرحيل ففي اليوم الخامس مر النصارى بمعسكر المسلمين الرجال عاثلون ما امكن لهم حمله من امتعة بيوتهم والنساء حاملات او قائدات اولادهن وفيما هم كذلك واذا بالملكة ورفيقاتها قد اقبلن وعليهن البسة دنية وهيئة الاسترحام فخرج صلاح الدين من خيمته وتقدم اليهن ووجه اليهن كلامًا رقيقًا يشجعهن ويسليهن ثم استفسر عن حاجاتهن فاجبنهُ ان اهتمامهن لم يكن في اراض او بيوت او امتعة بل في ان يرد اليهن اباءهن وازواجهن واخوتهن واولادهن فاجاب صلاح الدين الى طلبهن واحسن اليهن وتصدق على الايتام والفقراء وترك لهم بعض الفدية المعينة فقل عدد الذين تركوا غير مفتدين

ثم دخل صلاح الدين الى المدينة مصحوبًا بالامراء والعساكر والاعلام الاسلامية تخفق على رووسهم والنوب تضرب امامهم الى جامع عمر وكان على فارعة الجامع المذكور او كما قيل على راس الصخرة صليب منصوب فتسلق المسلمون وانتزعوهُ من مكانهِ فسمع عند ذلك ضجة عظيمة من كلا غالب ومغلوب الاول للفرح والسرور والثاني للكدر والثبور ثم اخذ البعض باهانة ذلك الصليب وتمريغهِ بالحماة مدة يومين والبعض الاخر بتنظيف الجامع وتطهيره بما الورد والاطياب واقاموا فيهِ الصلاة والشكر لله تعالى على ظفرهم!

وكان النصارى قد جمعوا الذهب والفضة من الكنائس وضربوها نقودًا واخذوا الصلبان والذخائر والاواني المقدسة وجعلوها في اربعة صناديق باعتناء فوقعت هذه التحف بيد المسلمين واراد صلاح الدين ارسالها الى الخليفة علامة نصره لكنهُ قبل رجاء النصارى وتركها عند البطريرك وعدلوا ثمنها فكان اثنين وخمسين الف بزنطي او عبارة عن سبع مئة وثمانين الف جنيه انكليزي دفعها

ريجار ملك انكلترا

اما مدينة صور فانها حفظت استقلالها بواسطة اميرها كونارد ولم يقدر صلاح الدين على فتحها والتزم برفع الحصار وكان اول من ظهر بعد رفعهِ على ابوابها غوي دي لوزنيان فانهُ كان قد حصل على الحرية وطلب الدخول وشفع طلبهُ ذلك زعيم الهيكليين لكن جواب الشعب كان مختصرًا مفيدًا لا نعرف اميرًا غير الذي خاصنا

وخلاص صور لم يغير شيئًا في نتائج الحرب العامة فان البلاد كلها سلمت لصلاح الدين بلدًا بعد بلد الى ان دخل انطاكية وكمل الفتح

فهذه ثمان وثمانون (سنة ٩٢ هجرية) منذ وقف كودفروا واصحابهُ منتصرين على اسوار اورشليم وقلما ارتاحت تلك المملكة ضمن المدة المذكورة من الحروب والغارات والعدوان والاختلافات المتنوعة ولم تكن من الاول تدل على ثبات بل كان كل شي يشير الى سقوطها يومًا ما لانها عرفت الغدر لها نصيرًا واجازت مبدا خرق العهود مع من لم يكن نصرانيًا ولا ريب ان من يزرع زرع الخيانة يحصد زوابع الندامة والاهانة فان بالدوين الثالث اذن مرة للمسلمين ان يرعوا اغنامهم حوالي بانياس ولما فعلوا وتكامل العدد هجم العسكر وساقوا تلك القطعان وقتلوا الرعيان . ولم يكونوا يملكون غير النصارى ويجيزون ايقاع الظلم والمحذور دون ردع ويطلقون عنان الهوى في الغارات والتعديات مع عدم الاعتناء بتنظيم القوى الحربية . ولم يراعوا سياسة حكيمة في تصرفاتهم فان الحاكم الحكيم في بلاد كهذه من بذل غاية جهده في ملاطفة اعدائهِ وادمال قروح الشعب المغلوب واجراء الاتحادات واتمامها والدخول في عهود وحفظها اضعافًا لضده ومنعًا لعمل محالفات عليهِ . وكل ذلك كان ناقصًا في تلك المملكة نعم انهم كانوا قد تحالفوا مع مصر ولكنهم طمعًا بالربح الدني تصرفوا بما ابطل ذلك بعده . وكانت اداب المملكة بالاجمال غير مرعية وتصرف النساء بحرية تامة ما بين قوم اختلفت عوائدهم ومباديهم فجلبوا على انفسهم كرههم وبغضتهم وكان رجالها المحاميون عنها انما فعلوا ذلك لنذر نذروه فاذا انقضى النذر تركوها ما لم يروا لهم فيها منافع خاصة فكثرت اخيرًا تلك الاختصاصات وادت الى تكثير الاختلافات وتخليدها ودوام العدوان بين باروني المملكة كان يفضي بهم اخيرًا الي خيانة بعضهم بعضًا

وزد على ذلك تالف جمعيات استبدادية فابطلت سطوة القوة المركزية كفرسان الهيكل وفرسان الاسبيتارية فان هذه النظامات بدات في المساعدة والخدمة وانتهت في المضادة والتحكم حتى غدا الملك ضد امرائهِ والامراء ضد ملكهم والاكليروس ضد الاسبيتارية وهولاء ضد الهيكليين والكل يمقتون بعضهم بعضًا واصبح الشقاق والانقسام شعارًا فصدقت الاية «كل مملكة انقسمت على ذاتها خربت»

فصل

في تتمة الربع الثاني من القرن السادس للهجرة

وكان بين الفرنج وبين نور الدين محمود صاحب حلب مصاف (سنة ١١٤٨-٥٤٣) بارض يغري من العمق وكانت الهزيمة على الافرنج . وحدث غلاء عام من خراسان الى العراق الى الشام الى بلاد المغرب . واخذ الافرنج طرطوشه وجميع قلاعها وحصون ماردة من الاندلس . وقتل نور الدولة شاهنشاه بن ايوب اخو صلاح الدين في نزال دمشق . وهو ابو الملك المظفر عمر صاحب حماة وفرخشاه صاحب بعلبك . ومات فيها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي وكان اخوه قطب الدين مودود بن زنكي في الموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين علي امير الجيوش وحلفاه وحلفا له واطاعه العسكر وجميع بلاد اخيه و بعد تملكه تزوج بابنة تمرتاش من بني ارتق صاحب ماردين وكان سيف الدين اخوه قد تزوجها ومات قبل الدخول

وفي تلك السنة مات الحافظ لدين الله العلوي لاقل من عشرين سنة من ولايته وعمره نحو سبع وسبعين . وبويع مكانه ابنه الظافر بامر الله اسمعيل واستوزر ابن مصال فبقي اربعين يومًا ثم حضر من الاسكندرية العادل بن السلار وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين فارسل العادل بن السلار ربيبه عباس بن ابي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في طلب ابن مصال وكان العادل قد تزوج بام عباس وربى عباس في بيته فذهب عباس وقتل ابن مصال واستقر العادل بالوزارة الى ان قتله ربيبه عباس المذكور (سنة ٥٤٨) وتولى الوزارة

وفيها تواقع نور الدين محمود صاحب حلب وبرنس انطاكية في حصن حارم وانتصر نور الدين وقتل البرنس وقام بعده ولده بيموند وهو طفل وتزوجت امه برجل اخر ودعي البرنس . ثم غزاهم نور الدين ثانية واسر زوجها المذكور وتمكن بيموند في حكم انطاكية . وصارت زلزلة شديدة في تلك النواحي

وتوفي وقتئذٍ معين الدين (انر) صاحب دمشق وكان من مماليك طغتكين وهذا كما مر كان من مماليك تنش السلجوقي . ومات ناصح الدين الارجاني وارجان من اعمال تستر وكان فقيهًا شاعرًا واسمه احمد بن محمد بن الحسين ومن شعره

ولما بلوت الناس اطلب عندهم   اخا ثقةٍ عند اعتراض الشدائد

تطلعت في حالي رخاء وشدةً | ونادبت في الاحياء هل من مساعد
فلم ارَ فيما ساءني غير شامتٍ | ولم ارَ فيما سرني غير حاسد
تمتعتما يا ناظري بنظرةٍ | واوردتما قلبي امسر الموارد
أعينيَّ كفا عن فوادي فانهُ | من البغي سعي اثنين في قتل واحد

و(في سنة ٥٤٥) اخذت العرب جميع الحجاج الا القليل وتملك نور الدين محمود فامية وحصر قلعتها وتسلمها وتوفي علي بن دبيس صاحب الحلة

و(في سنة ٥٤٦) كان القتال بين نور الدين محمود وبين جوسلين صاحب اديسه وكان جوسلين من اشجع فرسان الفرنج وانهزم المسلمون واخذ سلاحدار نور الدين اسيرًا فارسل جوسلين حينئذٍ السلاح الى مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية وكان حما نور الدين يفتخر بهِ على محمود ويعيره بذلك فانفعل نور الدين وجمع التركمان وبذل لهم الوعود على امساك جوسلين او قتلهِ فترقبوه الى ان خرج للصيد وكبسوه فاخذ اسيرًا ثم بذل لهم مالاً فقبلوا باطلاقهِ على دفع المال ثم اعلم بعض التركمان بالخبر ابا بكر بن الداية نائب نور الدين فارسل عسكرًا كبسوا التركمان واحضروا جوسلين الى نور الدين اسيرًا وكان اسر جوسلين مصيبة كبرى على مملكة اللاتين لان نور الدين سار الى جميع قلاعه وملكها وهي تل باشر وعين تاب وذلوك وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفر سود وكفرلاثه ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك

وتوفي (سنة ٥٤٧) السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وعمره خمس واربعون سنة وفيهِ ماتت سعادة بيت سلجوق فلم يقم لهم بعده راية وكان من الملوك المحمودين وعهد لابن ابنهِ ملكشاه بن محمود فخطب لهُ وكان المتغلب على امور السلطنة رجل يقال لهُ خاص بك واصلهُ تركماني اتصل بخدمة مسعود وقدمهُ على سائر امرائهِ وهذا قبض على ملكشاه وسجنهُ وارسل الى اخيهِ محمد بن محمود بخوزستان فحضر وتولى السلطنة وجلس على السرير وكان قصد خاص بك القبض عليهِ والجلوس هو نفسهُ على التخت فبدره السلطان محمد المذكور ثاني يوم وصولهِ فقتله وقتل معهُ زنكي الجاندار والقى براسيهما فتفرق اصحابهما

ظهور الدولة الغورية وانقراض دولة آل سبكتكين بالافراغ الى الاولى

قال ابو الفدا ان اول من اشتهر من ملوك الغورية محمد بن الحسين صهر بهرام شاه بن مسعود صاحب غزنة فسار الى غزنة يظهر الطاعة لحميهِ ويبطن الغدر فقبض عليهِ بهرام شاه وقتلهُ

ثم تولى بعده اخوه (سودي) وسار الى غزنة يطلب بثار اخيهِ من بهرام شاه وتقاتلا فظفر بهِ بهرام وقتله كذلك وهرب عسكره

ثم قام بعدهما الحسين بن الحسين (علا الدين) اخوهما وسار الى غزنة فظهر على بهرام شاه وهرب بهرام وملك علاء الدين غزنة وولي عليها اخاه سيف الدين (سام) بن الحسين ورجع الى الغور. ولما رجع علاء كاتب اهل غزنة بهرام شاه فرجع وتقاتل مع سام وانتصر عليهِ وقتله واستقر في ملك غزنة ثم توفي بهرام شاه وخلفهُ ابنهُ خسروشاه فسار اليهِ علاء الدين (سنة ٥٥٠) الى غزنة ففارقها خسروشاه الى لهاوور وملك علاء الدين غزنة وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية ثم استعمل عليها ابني اخيهِ سام وهما غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد ثم جرى بينهما و بين عمهما علاء الدين حرب انتصرا فيها عليهِ واسراه ثم اطلقاه واجلساه على التخت ووقفا في خدمتهِ واستمر في السلطنة وزوج غياث الدين بابنتهِ وعهد لهُ ثم توفي علاء الدين (سنة ٥٥٦) وملك بعده غياث الدين المذكور وخطب لهُ بالملك في غزنة والغور. ثم استولى الغز على غزنة مدة خمس عشرة سنة. ثم اركب غياث الدين اخاه شهاب الدين على الغز فسار وهزمهم وقتل منهم جمعًا واستعاد غزنة وما جاورها من البلاد مثل كرمان وشندران وماه السند وقصد لهاوور وبها خسروشاه بن بهرام شاه بن سبكتكين المقدم ذكره فملكها وكان ذلك (سنة ٥٧٩) واعطى الامان لخسرو وحلف لهُ واكرمهُ واقام عنده شهرين . فلما بلغ ذلك غياث الدين ارسل يطلب من اخيهِ شهاب الدين ارسال خسروشاه اليهِ فامره بالذهاب فقال « انا لا اعرف اخاك وما سلمت نفسي الا اليك » فطيب شهاب الدين قلبهُ وارسلهُ وابنهُ معًا وارسل معهما عسكرًا يحافظها فلما وصلا امر غياث الدين فارسلا الى بعض القلاع دون ان يراهما وكان ذلك اخر العهد بهما

وخسروشاه المذكور هو ابن بهرام شاه بن مسعود بن ابرهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين اخر ملوك هذه الدولة وكان ابتداء دولتهم (سنة ٣٦٦) وملكوا ٢١٣ سنة تقريبًا فان انقراض دولتهم كان (سنة ٥٧٨) وكان ملوكهم من احسن الملوك سيرة وقيل ان خسروشاه مات في الملك وملك بعده ابنهُ ملك شاه

ولما استقر ملك الغورية بلهاوور كتب غياث الدين الى اخيهِ شهاب الدين باقامة الخطبة لهُ بالسلطنة وتلقب بالقاب منها معين الاسلام قسيم امير المومنين

ثم اجتمع شهاب الدين واخوه غياث الدين وجمعا جمعهما وسارا الى خراسان وحصرا مدينة هراة وتسلمها غياث الدين بالامان . ثم سارا الى بوشنج فملكاها ثم عادا الى باذغيس وكالين وبيوار وملكها غياث الدين ثم رجع غياث الدين الى بلده فيروزكوه ورجع شهاب الدين الى غزنة

ولما استقر شهاب الدين بغزنة قصد الهند فذلل صعابها وتيسر له فتح كثير من البلاد ودوخ وبلغ ما لم يبلغ احد من ملوك المسلمين حتى اذا كثر فتوحه اجتمع الهنود مع ملوكهم والتقوا بشهاب الدين وكان بينهم قتال عظيم انجرح فيه شهاب الدين وانهزم رجاله . ثم اجتمع عليه اصحابه وحملوه الى مدينة (اجر) واجتمعت اليه عساكره واقام هنالك حتي اتاه المدد من اخيه. ثم اجتمعت الهنود وتنازلوا وبينهما نهر فانتصر المسلمون وانهزم الهنود وقتلت ملكتهم. وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند فاقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دهلي فارسل ايبك عسكرًا مع محمد بن بختيار فملكوا مواضع لم يتوصل اليها مسلم قبله حتى قاربوا جهة الصين انتهى ملخصًا

و(في سنة ٥٤٧) توفي حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي الارتقي صاحب ماردين وميافارقين لثلاثين سنة من ولايته وتولى بعده ابنه نجم الدين

وصار بين السلطان سنجر السلجوقي وبين الاتراك الغز قتال وكانوا بما وراء النهر فاخرجهم الخطا منها فقصدوا خراسان واقاموا بنواحي بلخ مدة ثم اراد الامير قماج مقطع بلخ ان يخرجهم عنها فرفضوا فركب عليهم قماج بعشرة الاف فارس فحضر اليه كبراؤهم وسالوهُ ان يتركهم في مراعيهم ويدفعوا لهُ عن كل بيت مائتي درهم فلم يقبل واصر على طردهم فقاتلوهُ وهزموهُ وتبعوهُ يقتلون ويأسرون وعاثوا في البلاد واسترقوا النساء والاطفال وخربوا المدارس وقتلوا الفقها وارتكبوا كل عظيمة

ثم وصل قماج منهزمًا الى السلطان سنجر فجمع السلطان عساكره وركب عليهم قيل في مائة الف فارس فارسل الغز يعتذرون اليه وبذلوا لهُ النفيس والخسيس فلم يجبهم وتحاربوا حربًا شديدة وانجلى الامر عن هزيمة عساكر السلطان وتبعهم الغز يقتلونهم ويأسرون منهم فقتل علاء الدين قماج المذكور واسر السلطان سنجر ومعهُ جماعة من الامراء فضربوا اعناقهم وابقوا سنجر ثم اجتمع امراء الغز وقبلوا الارض بين يديه وقالوا نحن عبيدك ولا نخرج عن طاعتك وبقي عندهم مدة ودخلوا معهُ الى مرو كرسي ملك خراسان فطلبها منهُ احد امرائهم العظام اسمهُ بختيار اقطاعًا فقال سنجر هذه دار الملك لا تقطع لاحد فضحكوا منهُ وسخروا عليه فخاف سنجر ونزل عن سرير الملك ودخل مرو . واستولى الغز على البلاد فنهبوا نيسابور وقتلوا الكبار والصغار ولم يتركوا لا علماء ولا فقهاء ولا قضاة. وقتل الحسين بن محمد الارسانيدي والقاضي علي بن مسعود والشيخ محيي الدين محمد بن يحيي الفقيه الشافعي اوحد اهل زمانهِ مغربًا ومشرقًا وكثيرٌ غيرهم من الائمة والفضلاء ولم يسلم من خراسان غير هراة ودهستان لحصانتها

ثم اجتمع عسكر سنجر وولوا مملوكًا لهُ يقال لهُ «آي بك» ولقب بالمويد فاستولى علي نيسابور

وطوس ونسا وابيورد وشهرستان والدامغان فاخرج الغز عنها واحسن السيرة في الناس واستولى في السنة المذكورة احد مماليك سنجر اسمهُ «اينانج» على الري وهادى الملوك واستقرت قدمهُ وعز شانهُ

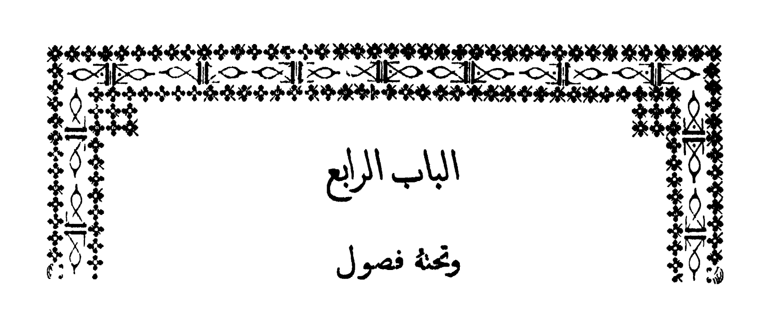
وفيها فتحت مراكب من صقلية مدينة تنيس بمصر . وتوفي ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن احمد الشهرستاني المتكلم على مذهب الاشعري إمام في علم الكلام والفقه ولهُ مصنفات كثيرة منها نهاية الاقدام في علم الكلام . وكتاب الملل والنحل . والمناهج . وتلخيص الاقسام لمذاهب الانام . وُلد (سنة ٤٦٧) بشهرستان ومات بها — وشهرستان اسم لثلاث مدن الاولى شهرستان خراسان بين نيسابور وخوارزم عند اول الرمل المتصل بخوارزم ومنها المذكور وبناها عبد الله بن طاهر امير خراسان . والثانية شهرستان بفارس . والثالثة مدينة جي باصفهان يقال لها شهرستان وبينها وبين اليهودية مدينة اصفهان نحو ميل

و(في سنة ٥٤٩) قتل الظافر بالله العلوي قتلهُ وزيره عباس الصنهاجي قالوا انهُ كان لعباس ابن حسن الصورة يسمى نصرًا فاحبهُ الناصر ثم قدم مويد الدولة اسامة بن منقذ الكناني من الشام في وزارة العادل فحسن لعباس قتل العادل ثم حسن لهُ قتل الظافر فانهُ دعاهُ الى بيتهِ واشترك في قتلهِ هو وولدهُ نصر المذكور وقتلا كل من معهُ الاَّ خادمًا صغيرًا فحضر واعلمهم بقتل الظافر . ثم حضر عباس واتهم اصحاب القصر بقتلهِ واحضر اخوي الظافر يوسف وجبريل وقتلهما ثم احضر ابن الظافر وكان عمرهُ ثلاث او خمس سنوات واسمهُ عيسى وحملهُ على كتفهِ واجلسهُ على سرير الملك وبايع لهُ الناس واخذ عباس من القصر اموالاً وجواهر نفيسة لا تحصى

ولما فشا الخبر ثارت الجند والسودان وكان طلائع بن رزيك في منية ابن خصيب واليًا عليها فارسل اليهِ اهل القصر يستنجدونهُ وكان رجلاً ذا شهامة فقصد عباسًا فهرب عباس بما معهُ الى جهة الشام فاسرهُ الفرنج وهو في اثناء الطريق وقتلوهُ واخذوا ما معهُ واسروا ابنهُ ثم استقر ابن رزيك بالوزارة ولقب الملك الصالح فارسل الى الفرنج وبذل لهم مالاً واستفك نصرًا واحضره الى القصر فقتل وصلب على باب زويلة واما اسامة بن منقذ فكان مع عباس فنجا الى الشام . ثم اوقع رزيك بالاعيان المصريين فاباده قتلاً وتهجيجًا الى البلاد البعيدة

وفيها اخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين ابق بن محمد بن توري بن طغتكين وحصره في القلعة وبذل لهُ اقطاعًا من جملتهِ مدينة حمص فسلم مجير الدين القلعة وسار الى حمص فلم يعطها لهُ واعطاهُ بالس فلم يرضها وسار الى العراق واقام ببغداد وابتنى دارًا بقرب النظامية ومات هناك . وعاد نور الدين محمود مالكًا اكثر الشام ولا منازع لهُ سوى الفرنج فيها

والآن قد عرفنا جميع الدول التي كانت في تلك المدة من سلاجقة وغزنية وغوربة وخوارزمية واتابكية واسماعيلية وارتقية وايوبية ولاتينية ونحوها في عهد الخلافتين الاسلاميتين العباسية والفاطمية وعلمنا ما نقلب على تلك الاماكن من الدول منها ما زالت ومنها ما هو باقٍ في حالة ضعيفة ومتقسمة ولم يعد علينا الا تتبع تلك الايام بدقة لنرى الفصل الاخير الذي سيلعبهُ التتار قريباً وتولد الدولة العثمانية في باب مخصوص



الباب الرابع

وتحته فصول

فصل

في الربع الثالث من القرن السادس للهجرة

و(في سنة ٥٥١) ثارت اهل البلاد من افريقية على من بها من الفرنج واخرجوهم منها وانتهى ملكهم من تلك النواحي وقبض على السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي — قبض عليهِ علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل . وكان سليمان شاه المذكور قد قدم بغداد وخطب لهُ بالسلطنة وخلع عليهِ الخليفة المقتفي وخرج من بغداد بعسكر وقصد بلاد الجبل لياخذها فالتقاهُ ابن عمهِ محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه وقاتلهُ فانهزم سليمان شاه الى جهة بغداد فلقيهُ علي كوجك عند شهرروز فاسرهُ واعتقلهُ بقلعة الموصل مكرمًا

وفيها توفي خوارزم شاه اطسز بن محمد بن انوشتكين بالفالج وعمرهُ احدى وستون سنة وخلفهُ ولدهُ ارسلان وفيها توفي مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قطلومش صاحب قونية وخلفهُ ابنهُ قلج ارسلان وفيها هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من اسر الغز وسار الى مرو عن طريق ترمذ وجيحون فكانت مدة اسره نحو ثلاث سنوات

وفيها قصد السلطان محمد بن السلطان محمود السلجوقي بغداد بعساكر عديدة والقى عليها الحصار وحصن المقتفي دار الخلافة واشتد الامر على السكان وبينا الامر كذلك واذا بخبر دخول اخيهِ ملكشاه بن محمود والدكز صاحب بلاد اران والملك ارسلان ابن الملك طغريل بن محمد الى همذان بلاده فرحل محمد عن بغداد اول (سنة ٥٥٢)

وفيها احترقت بغداد ولعبت النار بدرب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن جردة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الازج وسوق السلطان وغيرها . وقتل مظفر بن حماد صاحب البطيحة . ومات الحكيم ابو جعفر بن محمد النجاري الاسفرايني وكان عارفًا بعلوم الفلسفة

وكان (سنة ٥٥٢) زلازل قوية فخربت حماة وحمص وشيزر وكفرطاب والمعرة وفامية وحصن الاكراد وعرقه واللاذقية وطرابلس وانطاكية وغيرها من البلاد المجاورة واماتت في ردمها خلقًا كثيرًا . ذكران معلمًا بمدينة حماه كان قد فارق المكتب لغرض فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يحضر احد يسال عن ولده

ولما خربت شيزر بهذه الزلزلة ومات بنو منقذ الكناني تحت الردم سار نور الدين محمود بن زنكي اليها وملكها (سنة٥٥٢) واستولى على كل ما بها لبني منقذ وسلمها لابن الداية مجد الدين ابي بكر

نقل ابو الفداء عن تاريخ مويد الدولة اسامة بن مرشد وكان افضل بني منقذ قال وفي (سنة ٤٦٨) بدا جدي سرير الملك ابو الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني بعمارة حصن الجسر وحصر بهِ حصن شيزر وكان في شيزر والٍ للروم اسمهُ ديمتري فلما طالت المضايقة لديمتري المذكور راسل جدي هو ومن عنده من الروم في تسليم حصن شيزر اليهِ باقتراحات اقترحوها عليهِ منها مال يدفعهُ الى دمتري المذكور . ومنها ابقاء املاك الاسقف الذي بها عليهِ فانهُ استمر مقيمًا تحت يد جدي حتى مات بشيزر . ومنها ان القنطارية وهم رجالة الروم يسلفهم ديوانهم لثلاث سنين . فسلم اليهم جدي ما التمسوهُ وتسلم حصن شيزر يوم الاحد في رجب (سنة ٤٧٤) واستمر سرير الملك علي بن مقلد المذكور مالكها الى ان توفي فيها في سادس المحرم (سنة ٤٧٩) وتولى بعده ولده ابو المرهف نصر بن علي وتوفي (سنة ٤٩١) ثم ابو العساكر سلطان بن علي ثم توفي وخلفهُ محمد بن سلطان فمات تحت الردم مع ثلثة اولاده بالزلزلة انتهى ملخصًا

وفيها توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بالاسهال والقولنج وقطعت الخطبة ببغداد لهم وولادتهُ (سنة ٤٧٩) وخطب لهُ على اكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو ٤٠ سنة وكان قبل ذلك يخاطب بالملك مدة عشرين سنة وكان مهيبًا كريمًا وامنت البلاد في زمانهِ وكان يسكن مدينة مرو من خراسان ولما حضره الموت عهد لمحمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن اختهِ

وفيها اخذ نور الدين بعلبك من ضحاك البقاعي كان قد ولاه عليها صاحب دمشق وقلع المقتفي باب الكعبة وجعلهُ لنفسهِ تابوتًا وعوض الكعبة بابًا مصفحًا بالذهب والفضة

وقصد ملكشاه بن محمود السلجوقي قم وقاشان ونهبهما وكان اخوه السلطان محمود قد مرض بعد رحيلهِ عن بغداد وطال مرضهُ فارسل الى اخيهِ ملكشاه ان يكف عن النهب ويجعلهُ ولي عهده فلم يقبل . ثم سار الى خورستان واستولى عليها من صاحبها ابن شملة التركماني وهو من اصحاب خاص بك التركماني واسمهُ ايدغدي هرب يوم قتل السلطان محمد صاحبهُ (خاص بك) بعد ان حذره منهُ فلم يقبل ونجا من الواقعة فجمع جموعًا وصار يطلب خورستان وصاحبها يومئذٍ ملكشاه بن محمود بن

محمد وبعث المقتفي عسكره لدلك فلقيهم شملة وهزمهم واسر وجوههم ثم اطلقهم وارسل الى الخليفة يعتذر فقبل عذره وسار الى خورستان وملكها (ابن خلدون)

و(في سنة ٥٥٤) توفي السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه السلجوقي وهو الذي حاصر بغداد وكان ذلك بباب همذان بالسل وعمره ثنتان وثلثون سنة وكان عاقلاً كريماً وخلف ولداً صغيراً. سلمهُ الى اقسنقر الاحمديلي وقال لهُ انا اعلم ان العساكر لا تطيع مثل هذا الطفل فهو وديعتك فارحل بهِ الى بلادك فرحل بهِ اقسنقر الى مراغه . واختلف الامراء على السلطان فمنهم طلبوا ملكشاه بن محمود ومنهم سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه الذي كان معتقلاً بالموصل كما تقدم وهم الاكثر ومنهم ارسلان بن طغريل الذي كان مع الدكز وبعد موت محمد سار اخوهُ ملكشاه الى اصفهان فاخذها

وفيها فاض دجلة فامتلأت الصحاري وخندق البلد وخرج السراب فوق بغداد ووقع بعض الجسور فغرق بعض القاطعة وباب الازج والمامونية ودب الماء تحت الارض الى مواضع فوقعت واخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة جملة دنانير ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف فاخذت الناس حدود دورهم بالحدس

هذا ولما مات السلطان محمد كما تقدم وطلب اكثر الامراء تولية سليمان شاه وكان معتقلاً في الموصل صار استدعاء سليمان شاه واخرج من سجنهِ (سنة ٥٥٥) وجهزه قطب الدين مودود بن زنكي بجهاز يليق بالسلطنة وارسل معهُ زين الدين علي كوجك بعسكر الموصل الى همذان واقبلت الجيوش اليهم كل يوم تلقاه طائفة ثم استحال كل هذا الاعتبار الى احتقار لانهم لم يجدوهُ كفوءًا للمرتبة فانهُ كان مدمناً لشرب الخمر حتى في رمضان ويصرف زمانهُ مع المساخر فلا يلتفت الى الامراء واهمل العسكر امره وكان قد رد جميع الامور الى شرف الدين (كرد بازو) الخادم وكان ديّناً حسن التدبير فاتفق ان سليمان شرب بظاهر همذان بالكشك فحضر اليهِ (كرد بازو) يهِ ولامهُ فامر سليمان الى من عنده من المساخر فعبثوا بهِ حتى ان بعضهم كشف لهُ سوءته فاتفق كرد بازو مع الامراء على قبضهِ وعمل كرد بازو دعوة عظيمة فلما حضرها الملك سليمان في داره قبض عليهِ وحبسهُ وبقي في الحبس مدة ثم ارسل اليهِ كرد بازو من خنقهُ وقيل سقاه سمًّا فمات (سنة ٥٥٦)

ولما فشا خبر موت سليمان شاه سار الدكز في نحو عشرين الفاً ومعهُ ارسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه ووصل الى همذان فلقيهُ كرد بازو وانزلهُ في دار المملكة وخطب لهُ بالسلطنة . وكان الدكز مزوجاً بام ارسلان شاه فجاء لهُ منها اولاد منهم البهلوان محمد وقزل ارسلان عثمان وبقي الدكز اتابك ارسلان شاه والبهلوان حاجبه والدكز احد مماليك السلطان مسعود اشتراه ثم

اقطعهٔ اران و بعض بلاد اذربيجان فعظم شانهٔ

ثم ارسل الدكز الى بغداد يطلب الخطبة باسم ارسلان شاه على عادة الملوك السلجوقية فلم يجب اليهِ

وفي هذه السنة (٥٥٥) او في التي بعدها توفي الفائز بنصر الله ابو القاسم عيسى بن اسمعيل العلوي خليفة مصر لست سنين وشهرين من خلافتهِ واختار الصالح بن رزيك على سنة سلفهِ عباس مراهقًا منهم وهو عبد الله ابن الامير يوسف بن الحافظ ولم يكن ابوهُ خليفة فبويع بالخلافة ولقب بالعاضد لدين الله وهو اخر خلفاء مصر العلويين. وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لم يسمع بمثلهِ

وفيها توفي المقتفي لامر الله العباسي وكان مولده (سنة ٤٨٩) وخلافتهُ اربعًا وعشرين سنة واشهرًا وهو اول من استبد بالعراق منفردًا عن سلطان معهُ يكون وكان يبذل الاموال بالبلاد لاصحاب الاخبار فلم يكن ينقصهُ خبر ما هو جارٍ وحكم على عسكره واصحابهِ بقوة لم تكن من حينما تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى وقته

في خلافة المستنجد بالله ثاني ثلثينهم من (سنة ١١٦٠ – ٥٥٥ الى سنة ١١٧٠ – ٥٦٦)

كان المقتفي عهد لولده يوسف بالخلافة وكان للمقتفي حظية ام ولده ابي علي فاحبت الخلافة لابنها فاحضرت عدة جوارٍ وحالفتهن على قتل يوسف واعطت لهن سكاكين بناء على انهُ متى حضر يوسف ودخل الدار يهجمن عليهِ ويهبرنهُ وكان ليوسف خصي صغير يرسلهُ كل يوم يتعرف لهُ اخبار والده فراى الجواري بايديهن السكاكين فعاد الى يوسف واخبره فاستدعا يوسف استاذ الدار واخذه معهُ وجماعة من الفراشين ولبس درعهُ واخذ سيفهُ بيده وساروا فلما دخل يوسف ثارت بهِ الجواري فضرب واحدة فجرحها واخرى فرماها وصاح فدخل استاذ الدار والفراشون فهربت الجواري واخذ اخاهُ ابا علي وامهُ فسجنهما واخذ الجواري فغرق بعضا وقتل بعضًا ولما توفي ابوهُ جلس للبيعة فبايعهُ الناس ولقب المستنجد بالله وخطب لهُ في ربيع الاول (سنة ٥٥٥)

وفيها توفي السلطان ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه باصفهان مسمومًا والسلطان علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري

وفيها امر المويد آي بك بامساك اعيان نيسابور لانهم كانوا روساء الحرامية واهل الفساد وبقتلهم فخربت نيسابور وكان من جملة ما خرب مسجد عقيل وكان مجمعًا لاهل العلم وفيهِ خزائن الكتب الموقوفة وخرب من مدارس الحنفية سبع عشرة واحرق ونهب عدة من خزائن الكتب ثم امر بعمار سور الشاذياخ وسكنها هو والناس فخربت نيسابور كل الخراب

والشاذياخ بلدة بناها عبد الله بن طاهر اولاً وسكنها هو والجند ثم خربت بعد ذلك وتجددت في زمان السلطان الب ارسلان السلجوقي ثم تهدمت الى ان بناها آي بك كما ذكر

وفيها قتل طلائع بن رزيك الارمني وزير العاضد العلوي قتلتهُ عمة العاضد بحيلة ثم قتلت في بخاطر اخيها وولي رزيك بن طلائع الوزارة ولقب العادل

و(في سنة ٥٥٨)قتل شاور العادل رزيك بن طلائع بن رزيك المذكور ووزر مكانه وذلك ان شاور المذكور كان يخدم طلائع فولاه الصعيد وكانت ولاية الصعيد اكبر المناصب بعد الوزارة ولما مات طلائع اوصى ولدهُ العادل في ان لا يعارض شاور لما كان يعهد عنهُ القوة والباس اما ولده فكتب الى شاور يعزلهُ فجمع شاور وسار نحو العادل الى القاهرة فهرب وطرد وراءهُ حتى امسكهُ وقتلهُ وانقرضت بهِ دولة رزيك وفي ذلك قال عمارة اليمني

ولت ليالي بني رزيك وانصرمت   والمدح والشكر فيهم غير منصرم
كأن صالحهم يومًا وعادلهم   في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

ثم استقر شاور على الوزارة فقام لهُ منازع وهو الضرغام احد القواد وجمع عليهِ وحاربهُ وفر شاور منهُ هاربًا الى نور الدين محمود كما تقدم وكان ذلك علة لانقراض دولة الفاطمية وابتدا الايوبية كما سبق

وفيها امر الخليفة المستنجد باجلاء بني اسد وهم اهل الحلة المزيدية فقتل منهم جماعة وهربت جماعة وتشتتوا في البلاد وسلمت بطائحهم وبلادهم الى رجل يقال لهُ ابن معروف

ولما كانت (سنة ٥٦٠) توفي رستم بن علي بن شهريار بن قارن شاه مازندران وخلفهُ ابنهُ علاء الدين حسن . وتولى آي بك على هراة وكان بين قلج ارسلان صاحب قونيه وبين باغي ارسلان بن الدانشمند صاحب ملطية حروب شديدة انهزم بها قلج ارسلان ومات باغي ارسلان وقام مكانهُ ابن اخيهِ ابرهيم بن محمد بن الدانشمند واستولى ذو النون بن محمد بن الدانشمند على قيسارية وملك شاهنشاه بن مسعود اخو قلج ارسلان مدينة انكورية واصطلح المذكورون على ذلك وتقررت بينهم العهد

وفيها توفي ابو الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله المعروف بامين الدولة ابن التلميذ وقد ناهز المائة سنة من عمرهِ وكان طبيب دار الخلافة ببغداد ومحظيًا عند المقتفي وكان حاذقًا فاضلاً ظريف الشخص عالي الهمة مصيب الفكر لهُ في الاداب يد طولى متفننًا في العلوم وكان نصرانيًا وكان اوحد زمانهِ ابو البركات هبة الله بن ملكان الحكيم المشهور صاحب كتاب المعتبر في الحكمة معاصرًا لابن التلميذ وكان بينهما مغايرة كما يقع كثيرًا بين اهل كل فضيلة وصنعة وكان ابو البركات يهوديًا ثم اسلم اخر عمره وجذم وتداوى وبرىء وذهب بصرهُ وبقي اعمى وكان متكبرًا فهجاهُ ابن

التلميذ بقوله

لنا صديق يهودي حماقته اذا تكلم تبدو فيه من فيه

يتيه والكلب اعلى منهُ منزلة كانهُ بعد لم يخرج من التيه

ولابن التلميذ تصانيف حسنة منها كتاب اقراباذين وحواشٍ على كليات القانون وكان شيخهُ بالطب ابا الحسن هبة الله بن سعيد صاحب المغني والاقناع في اربعة اجزاء في الطب وهولاء الثلثة باسم هبة الله كانوا ممثلين الثلاثة اديان النصرانية واليهودية والاسلامية

و(سنة ٥٦٣) فارق زين الدين علي بن سبكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وصار الى اربل وكان هو الحاكم في الدولة واكثر البلاد بيدهِ . فلما عزم على مفارقة الموصل الى بيتهِ باربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود وبقي معهُ اربل وكان شجاعًا عادلاً حسن السيرة سليم القلب كثير العطا للجند وغيرهم . مدحهُ الحيص بيص ولما اراد ان ينشدهُ القصيدة قال انا لا اعرف ما يقول ولكني اعلم انهُ يريد شيئًا وامر لهُ بخمسمائة دينار وفرس وخلعة سنية ولم يزل باربل الى ان مات بها في هذه السنة

و(سنة ٥٦٤) ملك نور الدين قلعة جعبر واسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور الوزير ولما ثبتت قدم اسد الدين وظن انهُ لم يبقَ لهُ منازع اتاهُ اجلهُ ايضًا كما تقدم

و(سنة ٥٦٥) في شوال مات قطب الدين مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وكان قد عهد بالملك لابنهِ الاكبر عماد الدين زنكي فعدل عنهُ الى ابنهِ المعز سيف الدين غازي وانما فعل ذلك لان القيم بامور دولتهِ فخر الدين عبد المسيح كان يكره عماد الدين لانهُ كان طوع عمهِ نور الدين المذكور وكان نور الدين يبغض عبد المسيح . فاتفق عبد المسيح وخاتون بنت حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي الارتقي وهي والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الى سيف ورحل عماد الدين الى عمهِ نور الدين مستنصرًا بهِ ليعينهُ على اخذ الملك

وفيها توفي مجد الدين ابو بكر ابن الداية رضيع نور الدين محمود وكانت حلب وحارم وقلعة جعبر اقطاعهُ فاقر نور الدين اخاهُ عليًا على ذلك

و(سنة ٥٦٦) ٩ ربيع الاخر توفي الامام المستنجد بالله العباسي وكانت خلافتهُ احدى عشرة سنة وعمرهُ ستًا وخمسين سنة وكان من احسن الخلفاء سيرةً مع الرعية عادلاً لا يحابي بالوجوه ولا يطلق ظالمًا وكان سبب موتهِ انهُ كتب الى وزيرهِ مع طبيبهِ ابن صفية يامرهُ بالقبض على استاذ الدار وقطب الدين قايماز وصلبهما وكان قد اشتد مرضهُ فاجتمع الطبيب بهما واوقفهما على الخط

فدخل المذكوران على المستنجد ومعهما جماعتهما فحملوهُ وهو يستغيث الى الحمام واغلقوهُ عليهِ الى ان مات

في خلافة المستضي ثالث ثلاثيهم من (سنة ١١٧٠–٥٦٦ الى سنة ١١٧٩–٥٧٥)

لما اعلن موت المستنجد احضر ابنهُ ابو محمد الحسن وبايعوهُ البيعة الخاصة يوم توفي ابوهُ ٩ ربيع الاخر (سنة ٥٦٦) وبايعهُ الناس من الغد في (التاج) بيعة عامة ولقب المستضي بامر الله واظهر من العدل اضعاف ما عمل ابوهُ وفرق واعطى اموالاً جزيلة . وكان شديدًا على اهل العيث والفساد

واذ بلغ نور الدين محمد بن زنكي وفاة اخيهِ قطب الدين مودود صاحب الموصل وتولى ولدهُ يوسف وتحكم عبد المسيح سار جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك الرقة والخابور ونصيبين وحاصر سنجار وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن اخيهِ وعبر دجلة عند مخاضة الى الجانب الشرقي ونزل على حصن نينوى فارسل عبد المسيح الى نور الدين في تسليم البلد على ان يقرهُ على سيف الدين ويطلب لنفسهِ الامان فاجيب الى ذلك وشرط ان ياخذ فخر الدين معهُ الى الشام ويعطيهِ عندهُ اقطاعًا مرضيًا فتسلم البلد ودخل القلعة وامر بعمارة الجامع النوري وسلم الموصل الى سيف الدين وسنجار لعماد الدين وعاد الى الشام واستصحب معهُ فخر الدين عبد المسيح

(وسنة ٥٦٧) لما ثبتت قدم صلاح الدين بمصر وضعف امر الخليفة العاضد فكان قصرهُ في حكم صلاح الدين ونائبهُ قراقوش خصي الامراء الاسدية عزم على قطع خطبة العاضد وكان يخاف المصريين وكان دخل الى مصر رجل اعمى يعرف بالامير العالم . فلما راى ما هو فيهِ من الاحجام وان لا احدًا يتجاسر ان يخطب للعباسيين قال انا ابتدى بالخطبة المستضي فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضي فلم ينكر احد ذلك فقطع الخطبا كلهم بمصر خطبة العاضد وخطبوا المستضي ولم ينتطح فيها عنزان وتوفي العاضد يوم عاشورا ولم يعلموهُ بقطع خطبتهِ . وهو ابو محمد (عبد الله) ابن الامير يوسف بن الحافظ لدين الله ابي الميمون (عبد المجيد) بن ابي القاسم محمد . ولم يلِ الخلافة ابن المستنصر بالله ابي تميم (معد) بن الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن (علي) بن الحاكم بامر الله ابي علي (المنصور) ابن العزيز بالله (ابي منصور) ابن المعز لدين الله ابي تميم (معد) ابن المنصور بالله ابي الطاهر (اسمعيل) ابن القائم بامر الله ابي القاسم (محمد) ابن المهدي بالله ابي محمد (عبيد الله) اول الخلفاء العلويين

وفيها عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسار صاحبها خوارزم شاه ارسلان بن اطسز في عساكرهِ

ليقابلهم و يصدهم فمرض فسير جيشهُ مع امير كبير فلقيهم فانهزم الخوارزمية واسر مقدمهم واخذ الى الخطا الى ماوراء النهر وعاد خوارزم شاه الى خوارزم مريضًا وتوفي بها وملك بعدهُ ابنهُ سلطان شاه محمود. وكان ابنهُ الاكبر علاء الدين تكش مقيما في جند فقصد ملك الخطا واستمدهُ على اخيهِ فسير معهُ جيشًا كثيفًا وساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطان شاه منها ومعهُ امهُ وقصد خراسان وملك علاء الدين خوارزم

وفيها سار نور الدين محمود توران شاه بن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى النوبة فغنم وعاد الى مصر وكان قد ذهب بقصد التملك فلم تعجبهُ وفيها توفي شمس الدين الدكز بهمذان وملك بعده ابنهُ محمد البهلوان

وفيها سار قراقوش مملوك تقي الدين عمر بن ايوب الى افريقية وحاصر طرابلس الغرب وفتحها وملك عليها وفتح كثيرًا من البلاد

وفيها سار نور الدين محمود صاحب حلب الى بلاد قلج ارسلان واستولى على مرعش و بهنسا ومرزبان وسيواس فارسل اليهِ قلج ارسلان يطلب الصلح فاجابهُ نور الدين لا ارضى حتى ترد ملطية على ذي النون بن الدانشمند وكان قلج ارسلان قد اخذها منهُ فبذل لهُ سيواس واصطلح معهُ نور الدين فلما مات نور الدين عاد فاخذ سيواس وطرد ابن الدانشمند

وفيها مات نجم الدين ايوب بن شاذي ابو صلاح الدين بوقعةٍ عن فرسهِ وكان عاقلاً حسن السيرة كريمًا كثير الاحسان

ولما كان صلاح الدين واهلهُ خائفين دائمًا من نور الدين محمود لانهم لم يحسنوا نحوهُ السلوك اتفق رايهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث ان قصدهم نور الدين وهزمهم التجأُوا الى تلك المملكة فجهز صلاح الدين اخاه توران شاه المقدم ذكره الى اليمن وكان صاحبها حينئذٍ رجل يقال لهُ عبد النبي فسار توران شاه وقاتل عبد النبي فهزمهُ وهجم زبيد وملكها واسر عبد النبي ثم قصد عدن وكان صاحبها رجل اسمهُ ياسر فحاربهُ واسره وملك عدن واستولى توران شاه على اليمن ودخلت في سلطنة صلاح الدين

وعلم صلاح الدين ان في مصر جماعة كانوا يريدون اعادة الخلافة الفاطمية والوثوب عليهِ فقبض عليهم وصلبهم وكانوا من اعيان المصريين مثل عبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الذي قال في احوال العلويين وانقراضهم ما ياتي من قصيدة طويلة

رميت يا دهر كف المجد بالشللِ وجيده بعد حسن الحلى بالعطلِ

جزعت ما رنك الاقنى فانفك لا ينفك ما بين انف الشين والخجل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة على فجيعتها في اكرم الدول
يا عاذلي سيف هوى ابناء فاطمة لك الملامة ان قصرت في عذل
بالله زر ساحة القصرين وابك معي عليها لا على صفين والجمل
وقل لاهلها والله لا التحمت فيكم جروحي ولا قرحي بمندمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة في نسل آل امير المومنين علي

و(في سنة ١١٧٤ — ٥٧٠) تملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماه وذلك ان شمس الدين ابن الداية المقدم ذكره في حلب خاف لما استولى سيف الدين غازي بن السلطان مودود بن زنكي على الديار الجزرية بعد موت نور الدين محمود فطلب مسيرا الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود من دمشق الى حلب وكان اسمعيل قد خلف اباهُ نور الدين محمود (سنة ٥٦٩) وعمرهُ احدى عشرة سنة وحلف لهُ العسكر بدمشق واقام بها واطاعهُ صلاح الدين بمصر وخطب لهُ بها وضربت السكة باسمهِ وكان المتولي تدبير دولتهِ شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم

فذهب الملك الصالح اسمعيل ومعهُ سعد الدين كمشتكين ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوتهِ والرئيس ابن الخشاب واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد الدين بتدبير الدولة فخافهُ ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وكاتبوا صلاح الدين بن ايوب فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس ووصل الى دمشق واخرج كل من كان بها من العسكر اليهِ وخدموهُ ونزل بدار والده ايوب المعروفة بدار العقيقي فعصي عليهِ ريحان خادم الملك الصالح حامي القلعة ثم سلمها اخيرًا لصلاح الدين واخذ صلاح الدين ما فيها من الاموال ثم قرر امر دمشق وسلمها الى اخيهِ سيف الاسلام طغتكين بن ايوب وسار الى حمص وكانت حمص وحماه وبارين وسلميه وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في اقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني وكان لما مات نور الدين قد تعذر على الزعفراني لسوء سيرتهِ المقام بحمص وحماه وكانت البلاد المذكورة لهُ بغير قلاعها لان القلاع كانت في يد ولاة نور الدين ما عدا قلعة بارين فكانت بيد الزعفراني . وكان وصول صلاح الدين في جمادى الاولى فملك المدينة وعصت عليهِ القلعة فابقى عليها من يحاصرها وسار الى حماه فملكها وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك احد مماليك نور الدين فامتنع بالقلعة فارسل اليهِ نور الدين يقول ان ليس لهُ غرض في القلعة سوى حفظ البلاد للملك اسمعيل وانهُ هو نائبهُ وطلب اليهِ ان يسلمها ويذهب برسالةٍ منهُ الى حلب فاستحلفهُ جرديك فحلف لهُ فاستخلف اخاه

في القلعة وذهب الى حلب بالرسالة فقبض عليهِ كمشتكين وسجنهُ فلما علم اخوهُ ذلك سلم القلعة الى صلاح الدين

ثم سار صلاح الدين الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح فجمع اهل حلب وقاتلوا صلاح الدين ومنعوهُ عن حلب وارسل كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية اموالاً غزيرة ليقتلوا صلاح الدين فارسل سنان جماعة فوثبوا على غيرهِ بالغلط فقتلوهُ وبقي صلاح الدين محاصرًا حلب الى مستهل رجب ثم رحل عنها بسبب قصد الافرنج حمص ولما وصل الى حماه وسمع الافرنج بهِ رحلوا منها فقام الى حمص وحصر قلعتها وملكها في شعبان من هذه السنة ثم سار الى بعلبك فاخذها ولما استقر صلاح الدين في تلك البلاد كاتب الملك الصالح ابن عمهِ سيف الدين غازي صاحب الموصل يطلب منهُ المعاونة فجهز سيف الدين عسكرًا صحبة اخيهِ عز الدين وجعل عز الدين محمود اكبر امرائهِ مقدمًا وطلب اخاهُ الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير معهم فامتنع مصالحةً فسار سيف الدين غازي وحصر سنجار ووصل عسكر الموصل صحبة عز الدين مسعود ومقدم عسكره الى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وقصدوا صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبذل لهم حمص وحماه وان يبقي بيده دمشق بالنيابة عن الملك الصالح فلم يجيبوهُ الى ذلك وساروا والتقوا واقتتلوا عند قرون حماه فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح الدين اموالهم واثقالهم وتبعهم حتى حصرهم في حلب وقطع صلاح الدين ح ـ خطبة الملك الصالح وازال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة . ثم كاتبوا صلاح الدين على ان يحفظ كل من الملك الصالح وصلاح الدين ما بيده من الشام فصالحهم ورحل عن حلب في العشر الاول من شوال. وفي العشر الاخير منهُ اخذ قلعة بارين من صاحبها فخر الدين الزعفراني المقدم ذكرهُ

وفيها توفي الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر الدمشقي الملقب بنور الدين كان امامًا في الحديث ومن اعيان الفقهاء الشافعية والف تاريخ دمشق في ثمانين مجلدًا على وضع تاريخ بغداد اتى فيهِ بالغرائب وعمرهُ لما مات ثنتان وسبعون سنة

و(في سنة ٥٧٢) قصد صلاح الدين الاسمعيلية فاحرق قلعة مصياف فارسل سنان مقدمهم الى خال صلاح الدين شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسالهُ ان يسعى في الصلح فتوسط الحارمي واجابهُ اليهِ صلاح الدين وقام الى مصر لطول مدة غيابهِ وبوصولهِ امر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ودوره تسعة وعشرون الف ذراع وثلاثمائة ذراع بالهاشمي ولم يزل العمل فيهِ الى ان مات . وامر ببناء المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي بالقرافة بمصر وعمل مرستان بالقاهرة

و(في سنة ٥٧٣) سار الى الشام لغزو الفرنج فوصل الى عسقلان وفرق عساكره في الاغارات فطلعت عليه الفرنج وقاتلوه اشد قتال وهزموه ورجع صلاح الدين الى مصر على طريق البرية ولقي في طريقه مشقة وعطشًا وهلك كثير من الدواب واخذت الافرنج العسكر الذي كان قد تفرق في الاغارات منهم فقيهه عيسى فافتداه السلطان بعد سنتين بستين الف دينار ووصل السلطان الى القاهرة في جمادي الاخرة

وفيها حصر الفرنج حماة ولم يكن غير توران شاه بدمشق وكان رجلاً يحب اللذات ولا يميل للحروب وكان بحماة صاحبها شهاب الدين الحارمي مريضًا وحصروها مدة طويلة ولم يقدروا عليها ثم رحلوا عنها ومات شهاب الدين وكان له ولد مات قبله بثلاثة ايام

وفيها قبض الملك الصالح اسمعيل على سعد الدين كمشتكين وكانت حارم له فكاتبهم الملك الصالح فلم يسلموها له فامر كمشتكين ان يامرهم بتسليمها ففعل فلم يقبلوا فعذبه فلم يهمهم ذلك . ثم قصد الفرنج مدينة حارم وحصروها ومات كمشتكين تحت العذاب فارسل الملك الصالح وصالح الفرنج بمال فاخذوه وذهبوا ثم ارسل عسكرًا وحصرها واستلمها منهم واستناب بها مملوكًا كان لابيه اسمه سرخك

وفيها خطب للسلطان طغريل بن ارسلان بن طغريل ابن السلطان محمد ابن السطلان ملك شاه المقيم ببلاد الذكر وكان ابوه ارسلان قد توفي

و(في سنة ٥٧٤) طلب توران شاه بعلبك من اخيه صلاح الدين وكان قد اعطاها لشمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم لما سلم له دمشق فلم يكن يريد ان يمنع طلب اخيه فاستنزل المقدم فعصي فحصره وطال الحصار ثم عوضه عنها مكانًا اخر واستلمها منه وسلمها لتوران شاه

وفيها كان غلاء عام بالبلاد وارسل صلاح ابن اخيه تقي الدين عمر الى حماة وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص ليحفظاها

وفيها ماتت هند بنت احمد بن عمر الابري سمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت حتى ناهزت المائة سنة وكانت من الشهيرات

و(في سنة ١١٧٩ — ٥٧٥) سار صلاح الدين وفتح حصنًا كان قد بناه الفرنج عند مخاضة الاجران بالقرب من بانياس . وجرت حرب بين عسكر صلاح الدين ومقدمهم ابن اخيه تقي الدين بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب وبين عسكر قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية وسببها ان حصن رعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قلج ارسلان وارسل نحو عشرين الفًا لحصاره فسار اليهم تقي الدين في الف فارس وهزمهم فكان تقي الدين يقول هزمت بالف عشرين الفًا

وفيها توفي الامام المستضيء بنور الله لتسع سنين من خلافته وعمره تسع وثلاثون سنة وكان عادلاً

حسن السيرة قليل المراقبة حليمًا عاش حميدًا ومات فقيدًا

وفيها طلب تورا نشان الاسكندرية وينزل عن بعلبك فاجابهُ السلطان صلاح الدين الى ذلك واقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب وذهب كل الى اقطاعه وبقي تورا نشان الى ان مات بالاسكندرية في السنة التي بعدها وبهذا انتهى الربع الثالث من القرن السادس

فصل

في الربع الرابع من القرن السادس للهجرة

في خلافة الناصر لدين الله رابع ثلثينهم (من سنة ١١٧٩ — ٥٧٥ الى سنة ١٢٢٥ — ٦٢٢)

لما توفي المستضيء نهض ظهير الدين ابن العطار في اخذ البيعة لابن المستضيء وهو احمد ابو العباس فبايعوهُ ولقبوهُ الناصر. ثم صار الحاكم في الدولة مجد الدين ابو الفضل ابن الصاحب وكان جزاء ابن العطار عندهم هوان. قبضوا عليهِ وحبسوهُ في دارهِ ثم نقل الى تاج وقيد وطلبت ودائعهُ واموالهُ ثم أُخرج ميتًا على راس حمال سرًّا فغمز بهِ بعض العامة فثاروا بالميت وفعلوا بجثتهِ ما لا يليق ذكرهُ من اهانة وتعرية وجر في الاسواق والحال انهُ كان حسن السيرة كافًا عن اموالهم واعراضهم

و(في سنة ٥٧٦) توفي سيف الدين غازي بن مودود زنكي صاحب الموصل وولي اخوهُ عز الدين الموصل واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده معز الدين سنجرشاه واعطى قلعة شوس وبلد الحميدية لابنهِ الصغير ناصر الدين كبك وكان المدبر لدولة عز الدين مجاهد الدين قيماز واستقر الامر بدون خلاف

و(في سنة ٥٧٧) توفي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره ١٩ سنة واوصى بحضرة الامراء لابن عمهِ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي المقدم ذكرهُ وهكذا تم فانهُ تسلم حلب وسلمها لاخيهِ عماد الدين واخذ عوضًا عنها مدينة سنجار

وكان من نية امير الكرك الافرنجي المسير الى المدينة للاستيلاء على تلك النواحي فجمع عز الدين فرخشاه الايوبي وقصد بلاد الكرك واغار عليها وكان سببًا لان فرق جيوش البرنس وعدل عن ذلك

وفيها وقع اختلاف بين نواب تورا نشاه باليمن بعد موتهِ فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فارسل اليهِ عسكرًا واستولوا عليهِ وكان نواب تورا نشاه على عدن عز الدين عثمان بن

الزنجيلي · وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت منافقذة شيزر

و(في سنة ٥٧٨) سار السلطان صلاح الدين من مصر الى الشام ولم يرَ بعدها مصر واغار في طريقهِ بلاد الفرنج ووصل الى دمشق وانتهز فرخشاه فرصة تجمع الافرنج ضد عمه فذهب الى الشقيف بعساكر الشام وفتحهُ وغار على ما يجاورهُ من بلاد الفرنج

ولما مات الامير الذي كان قد ارسلهُ صلاح الدين الى اليمن ورجع الاختلاف بين حطان وعثمان ارسل صلاح الدين سيف الاسلام طغتكين اخاهُ ليقطع الفتن فتحصن حطان في بعض القلاع فتلطف بهِ سيف الاسلام حتى نزل اليهِ فاكرمهُ واحسن صحبتهُ ثم سالهُ حطان الاذن بالمسير الى الشام فلم ياذن لهُ الّا بعد الجهد فجمع اثقالهُ ودخل بودع سيف الاسلام فقبض عليهِ واخذ جميع اموالهِ وكان في جملة ذلك سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبًا عينًا ثم سجنهُ في بعض القلاع وكان آخر ما سمع عنهُ اما عثمان الزنجيلي فخاف وسار الى الشام وارسل اموالهُ بحرًا فاخذتها مراكب سيف الاسلام وصفت البلاد من الفتن

وفيها سار صلاح الدين الى قرب طبرية واغار املاك الفرنج مثل بانياس وجينين والغور وغنم وقتل وعاد · ثم سار الى بيروت وحصرها واغار على بلادها وعاد ثم سار الى البلاد الجزرية وقطع الفرات من البيرة وصار معهُ مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي بن بكتكين صاحب حران · وكاتب صلاح الدين ملوك تلك الاطراف واستمالهم فاجابهُ محمد بن قرا ارسلان صاحب حصن كيفا وسار معهُ ونازلوا سلطان الرها وملكها وسلمها الى كوكبوري · ثم سار الى الرقه واخذها من صاحبها قطب الدين ينال المنبجي المقدم خبره ومضى ينال الى عز الدين صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين الى الخابور وملك قرقيسه وماكسين وغربان ونصيبين والخابور كله ثم سار الى الموصل وبها عز الدين صاحبها ونائبهُ مجاهد الدين قد جمعا بها العساكر الكثيرة من فارس وراجل وما حارت لهُ الابصار من السلاح وآلات القتال وراى بقربهِ من البلد ما هالهُ وملأ صدره وصدر اصحابهِ لكنهُ نزل عليها وانشب القتال وخرج اليهِ يومًا بعض العامة فمال نحوهُ واخذ لالكة من رجلهِ فيها المسامير الكثيرة ورمى بها اميرًا يقال لهُ جاولي الاسدي وهو مقدم الاسدية وكبيرهم فاصاب صدره فتالم كثيرًا واخذ اللالكة وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال قد قابلنا اهل الموصل بحماقات ما راينا مثلها بعد والقى اللالكة وحلف انهُ لا يعود يقاتل عليها انفة انهُ ضرب بها · فلما راى صلاح الدين انهُ لا ينال من الموصل غرضًا سار عنها الى سنجار وملكها

وفيها جهز امير الكرك اسطولين في بحر ايلة وسار الواحد الى حصن ايلة يحصرهُ والثاني الى جهة عيذاب يفسدون في السواحل وبغتوا المسلمين بتلك النواحي اذ لم يعهدوا فرنجًا بذاك البحر

وكان النائب عن صلاح الدين بمصر اخوه الملك العادل فجهز اسطولاً في بحر عيذاب وارسله صحبة الحاجب لولو امير البحر في الديار المصرية فسار لولو مجدًّا واوقع بالذين يحاصرون ايلة فقتلهم واسرهم ثم سار في طلب الفرقة الثانية وكانوا قد عزموا على الدخول الى الحجاز وسار لولو يقفو اثرهم فبلغ (رابغ) وادركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا اشد قتال وظفر لولو بهم فقتل بعضهم واسر الباقين وارسل منهم الى منى واتى بالباقي الى مصر وقتلهم جميعًا

وفيها توفي فرخشاه وكان كريمًا شجاعًا فاضلاً شاعرًا وبلغ خبرهُ صلاح الدين وهو في الجزيرة فارسل لشمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم لينوب عنهُ في دمشق واقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه

و(في سنة ٥٧٩) ملك صلاح الدين آمد وسلمها الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان الارتقي صاحب حصن كيفا ثم صار الى الشام الى تل خالد وملكهُ ثم صار الى عينتاب واخذها واقر صاحبها بها وصار من امرائهِ وهو الشيخ اسمعيل ثم سار الى حلب فنزل بجبل جوشن واظهر ارادتهُ بالاقامة هناك طويلاً فمال عماد الدين الى تسليم حلب واخذ العوض عنها وتم الصلح على اعطاء حلب لصلاح الدين واخذ سنجار ونصيبين والخابور والرقه وسروج وجرت المحالفة على ذلك وكان ثمنًا بخسًا فلامهُ الناس جدًّا

وكان اهل حلب ينادون على عماد المذكور ياحمار بعت حلب بسنجار ومن الغريب ما ذكره ابو الفدا ان محيي الدين بن الذكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها

وفتحكم حلبًا بالسيف في صفرٍ مبشر بفتوح القدس في رجبِ

قلت وعلى ما يظهر لي ان الذي فتح القدس هو التزامه هذه القافية وفي الصدفات معجزات فان القدس فتحت في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ بعد ذلك بخمس سنوات

وبعد ما فرغ صلاح الدين من حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وسار الى دمشق ثم تجهز وعبر الاردن فاغار على بيسان واحرقها ثم تجهز على الكرك وامر اخاه ونائبهُ العادل بمصر فلاقاه اليها وحاصراها ثم رجعا عنها واستناب على مصر ابن اخيهِ تقي الدين عمر واعطى العادل مدينة حلب وقلعتها واحضر ولده الى دمشق

و(في سنة ٥٨٠) مات قطب الدين ابن ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وملك بعدهُ حسام الدين بولق ارسلان وهو طفل وكان نظام الدين البقش شاه ارمن صاحب خلاط خالِ قطب الدين فحكم في دولتهِ بعد موتهِ ورتب نظام الدين البقش مع ولده وقام بتربيتهِ وتدبير المملكة وكان رجلاً مستقيمًا فاحسن تهذيب الولد وتزوج بامهِ

فلما كبر لم يمكنه النظام من المملكة لخبط وهوج كان فيه ولم يزل الامر كذلك الى ان مات الولد وله اخ اصغر منه لقبه قطب الدين كابيه وقيل ناصر الدين ارتق ارسلان فرتبه النظام في الملك بالاسم وبقي الحكم للنظام ولمملوك له اسمه لولو وبقي الامر كذلك الى (سنة ٦٠١) فمرض النظام فاتاه قطب الدين يزوره ولما خرج خرج معه لولو فضربه قطب الدين بسكين فقتله ثم دخل على النظام فقتله ايضاً وخرج وحده ومعه غلام له والقى الراسين الى الاجناد فاذعنوا له بالطاعة واستولى على قلعة ماردين وقلعة البارعية وحكم فيها وحزم في افعاله

وفيها ركب صلاح الدين ايضاً الى الكرك وحصره وضيق عليه ولاقته عساكر مصر فتكاثر الافرنج عليه ولم يقدر على شي فرجع عنه وسار الى نابلس واحرقها ونهب ما بتلك النواحي ثم سار الى سبطية وبها مشهد زكريا فاستنقذ ما بها من اسرى المسلمين ثم قام الى جنبتين ثم الى دمشق

و(في سنة ٥٨١) حصر صلاح الدين الموصل ثانية فسير عز الدين اتابك والدته اليه ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرها من النساء وجماعة من اعيان الدولة يطلبون المصالحة وكان يظن انه يعطيهم كل سوالهم ولو مملكة الشام ولا سيما ان معهم كانت بنت مخدومه وولي نعمته نور الدين محمود ولما وصلوا اليه انزلهم واعتذر لهم وردهم خائبين فبذل الناس حينئذٍ نفوسهم غيظاً وحنقاً لرده النساء خائبات وندم صلاح الدين على فعله وراحت له كتب القاضي الفاضل وغيره يقبحون فعله وينكرونه وكان عامة الموصل يعبرون دجلة ويقاتلون في الجانب الشرقي ويعودون فعزم صلاح الدين على قطع دجلة عن الموصل الى ناحية نينوى لياخذها بالعطش لكن علم عدم امكان قطعه بالكلية وان المدة تطول فترك الى ميافارقين لانه كان قد سمع ان شاه ارمن صاحب خلاط قد توفي ولم يخلف ولداً وقد تولى على بلاده مملوك له اسمه بكتمر فسير صلاح الدين في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمود بن شيركوه ومظفر الدين وغيرهما فساروا الى خلاط وسار صلاح الدين الى ميافارقين وسار البهلوان بن الدكز صاحب اذربيجان فنزل قريباً من خلاط وترددت رسل خلاط بينهم وبين البهلوان وصلاح الدين ثم انهم اصلحوا امرهم مع البهلوان وساروا من حزبه وخطبوا له

وكانت ميافارقين للارتقية وفيها من يحفظها من جهة شاهرمن صاحب خلاط فحاصرها صلاح الدين وملكها ثم رجع الى الموصل فتصالح مع عز الدين مسعود حسب طلبه وذلك باعطائه شهرروز واعمالها وولايته القرابلي وجميع ما وراء الزاب وان يخطب له على جميع منابر الموصل ومتعلقاتها ويضرب اسمه على الدنانير والدراهم وكان قد قام عن الموصل لمرض فلحقه الرسل بالطريق بهذا الصلح وكان قد وصل الى كفر زمار فعاد الى حران واشتد مرضه ثم عوفي وقام الى دمشق

وفيها مات ناصر الدين محمد بن شيركوه وهو يشرب وقيل ان السلطان صلاح الدين دس عليه

من سقاه سمّا لانهٌ بلغهُ مكاتبتهٌ اهل دمشق في مرض صلاح الدين ان يسلموا دمشق لهُ على فرض موتهِ . ولما مات اقر السلطان حمص وما بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره ثنتا عشرة سنة وخلف محمد اشياء كثيرة من دواب وآلات ونحوها فاستعرضها صلاح الدين واخذ احسنها

· واحضر السلطان (سنة ٥٨٢) ولده الملك الافضل من مصر واقطعهُ دمشق وكان الافضل مع تقي الدين عمرا ابن اخي السلطان ونائبهِ وكان عمر يشتكي من الافضل فاحضره لذلك من مصر ولكنهُ تغير خاطره باطنًا على ابن اخيهِ المذكور فاستدعى اخاه العادل من حلب وجعل معهُ ولده العزيز عثمان وارسلهُ نائبًا عنهُ بمصر واستدعى تقي الدين عمر من مصر فابى اولاً ثم لاطفهُ فحضر فاعطاه حماة ومنبج والمعرة وكفرطاب وميافارقين وجبل جور بجميع اعمالها . واستقر العادل والعزيز عثمان بمصر وعوض اخاه العادل كذلك حران والرها عن حلب التي اخذها منهُ

وفيها توفي البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلاد الجبل همذان والري واصفهان واذربيجان وارانية وغيرها وكان عادلاً واستولى بعده اخوه قزل ارسلان واسمهُ عثمان وكان السلطان طغريل بن ارسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان ولهُ الخطبة في البلاد دون الامر فلما مات البهلوان استبد طغريل واستولى على بعض البلاد وكان بينهُ وبين قزل مواقع

وفيها اخذ برنس الكرك قافلة عظيمة من المسلمين فطلب اليهِ صلاح الدين اطلاقهم بحكم الهدنة التي بينهما فلم يفعل فتوعده وركب عليهِ (سنة ٥٨٣) وضايق الكرك وارسل فرقة مع ولده الافضل فاغار على عكة وتلك النواحي وغنم اشياء كثيرة ثم سار هو نفسهُ وحاصر طبرية وفتحها عنوة وبقيت القلعة وكانت طبرية تابعة طرابلس فهادن صاحبها صلاح الدين فلامهُ الملك والامراء والبطريرك واجتمع الافرنج لملتقى صلاح الدين وجرى بينهم من القتال ما ادى اخيرًا الى انتصار المسلمين واخذ القدس كما تقدم قال ابو الفرج الملطي ما معناه في فتح اورشليم ونحوها

و(في سنة ٥٨٣) ملك صلاح الدين مدينة طبرية وقلعتها وسار عنها الى عكا فخرجت اليهِ الاعيان يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك بالمال والنفس وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل وساروا عنها متفرقين وحملوا ما امكنهم من اموالهم وتركوا الباقي على حالهِ وسلم صلاح الدين البلد الى ولده الافضل وغنم المسلمون ما بقي ولم يقدر الفرنج على حملهِ

وفيها ملك صلاح الدين قيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفوله ويافا وتبنين وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان ثم سار الى بيت المقدس ودخل في قلوب رجالهِ الخوف من كثرة الرجال على الاسوار يذبون عنهُ وبقي صلاح الدين خمسة ايام يحاول ان يرى المكان الاضعف الى ان وجد الجهة الشمالية اقل ما يكون تحصينًا فنزل عند باب عمودا وكنيسة صهيون في ٢٠ رجب ونصب المنجنيقات

وتقاتل الفريقان اشد القتال كل منهما يرى ذلك دينًا وحتمًا واجبًا فلا يحتاج فيهِ الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون ولما راى الفرنج شدة القتال وتحكم المجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب ارسلوا باليان صاحب الرملة الى صلاح الدين يطلب الامان فابى وقال لا افعل بكم الا ما فعلتم بالمسلمين يوم اخذتموهُ من القتل والسبي فقال لهُ باليان ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير وانما ينكفون عن القتال رجاء الامان فاذا راينا الابد من الموت فوالله لنقتلن اولادنا ونساءنا ونحرق اموالنا ولا نترككم تغنمون منا دينارًا ولا درهمًا ولا تسبون وتاسرون رجلاً او امراة فاذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانًا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا لا يقتل الرجل منا حتى يقتل امثالهُ ونموت اعزاء ونظفر كرماء فاستشار صلاح الدين اصحابهُ فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يحرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الامر فيهِ وعن اي شيء ينجلي فاجاب صلاح الدين حينئذٍ الى بذل الامان للفرنج واستقر ان يزن الرجل عشرة دنانير يستوي فيهِ الغني والفقير وتزن المراة خمسة ويزن الطفل من الفريقين دينارين فمن ادى ذلك الى اربعين يومًا فقد نجا والا صار مملوكًا فبذل باليان عن الفقراء ثلثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة ٢٧ رجب

ولما فرغ صلاح الدين من بيت المقدس سار الى مدينة صور وكان قد فتحها المركيز وصار صاحبها وساسها احسن سياسة فقسم صلاح الدين القتال على العسكر كل جمع لهم وقت معلوم يقاتلون فيهِ بحيث يكون القتال متصلاً على اهلها لكن لما كانت المساحة التي يقاتلون فيها تكفيها الجماعة القليلة لحفظها وعليها الخنادق التي قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطائر يطير عليها لان المدينة كالكف في البحر والساعد متصل بالبر والبحر في جانبي الساعد والقتال انما هو في الساعد فلم يتمكن منها صلاح الدين ورحل عنها وكان للمسلمين خمس قطع من الشواني مقابل مينا صور ليمنعوا من الخروج منهُ والدخول اليهِ فنازلتهم شواني الافرنج وقت السحر وضايقتهم واوقعت بها فقتلت من ارادت واخذت الباقين بمراكبهم وادخلوهم مينا صور والمسلمون من البر ينظرون ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشواني فمنهم من سبح ونجا ومنهم من غرق (انتهى ملخصًا)

وبعد ان اخذ صلاح الدين القدس صرف ذلك الشتاء في عكه. ثم قصد (كوكب) وابقى على حصارها الامير قيماز النجمي وقام الى دمشق ففرح الناس بقدومهِ وكاتب امراء الاطراف بجمع العساكر اليهِ ونهض من دمشق في انصاف ربيع الاول (سنة ٥٨٤) ونزل ببحيرة (مقدس) غربي حمص وهناك اتاه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب سنجار ونصيبين وغيرهُ فرحل

وعسكر تحت (حصن الاكراد) وشن من هناك الغارات على المملكة اللاتينية فنزل على انطرطوس وكان الفرنج قد اخلوها فسار الى (مرقية) وكانت كذلك مخلاة فقام الى تحت (المرقب) وكان للفرسان الاسبيتاريين فوجدهُ لا يصوى التعب فسار الى (جبلة) فاخذها وجعل بها سابق الدين عثمان ابن الداية صاحب (شيزر) . ثم قام الى (اللاذقية) في ٢٤ جمادي الاول فحصر قلعتيها وملكها بالامان وسلم اللاذقية واعمالها الى ابن اخيهِ تقي الدين عمر بن شاهنشاه وكان تقي الدين عالي الهمة فحصن القلعتين كما فعل بقلعة حماه . ثم نهض السلطان الى (صهيون) وصالح اهلها على امان بيت المقدس وتسلم القلعة وسلمها الى ناصر الدين منكورس احد امرائهِ صاحب قلعة (ابي قبيس) ثم فرق عسكرهُ في تلك الجبال فملكوا حصن (بلاد نوس) وكان قد اخلي . وحصن (العيد) وحصن (الجماهرتين) ثم صار الى قلعة (بكاس) فاخلاها اهلها وتحصنوا بقلعة (الشغر) وكانت حصينة وبعد الحصار سلمها اهلها بالامان . وارسل ولدهُ غازيًا صاحب حلب فحاصر (سرمينية) وملكها وجعل على اهلها قطيعة مقررة وهدم الحصن وكان فيهِ اسرى المسلمين فاطلقهم . ثم قام من الشغر الى (برزية) ورتب عسكرهُ ثلاثة اقسام وملكها بالسيف . ثم سار الى جسر الحديد الذي على العاصي بالقرب من انطاكية فاقام اياماً الى ان تلاحق العسكر فقام الى (دربساك) وتسلمها بالامان على شرط ان لا يخرج احد منها الا بثيابهِ فقط . ثم نهض الى (بغراس) وحصرها وتسلمها على نحو شروط دربساك

وارسل بيموند صاحب انطاكية يطلب المدنة والصلح ويطلق كل اسير عندهُ فاجابهُ الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر. وكان صاحب انطاكية اعظم امراء الافرنج وكان اهل طرابلس قد سلموا اليهِ البلد بعد موت اميرهم وجعل ابنهُ فيها وبعد هذه المهادنة سار السلطان الى حلب فدخلها وتوجهت الافكار في العمل الى جهات اخرى

فصل

في الركبة الصليبية الثالثة

انما كان حلم المجد الفارغ ما قد حجب شمس الحقائق عن ان نشرق على مساوي هذا الجهاد لاسيما وقد اشترك فيهِ اناس ممن عرفوا بالاقدام الموقر وقتئذٍ الى درجة العصمة حتى حركت افعال اولئك الفرسان في اعين المورخين زهو البلاغة والاطناب واسترسلت من عوائد العصر اوهام التزويق على ساذج الاذهان فخدعت بذلك ارصن الناس واحذرهم الى اعتبار قصة اخيلوس وايليون بعض ما قد اتاهُ المذكورون من الامور المستغربة . وقد اغربوا لعمري بما نقلوهُ من ان تلك الافعال الحربية

احدثت نفس الانذهال حتى في قلوب الاعداء فوجد له الرومان (كتب القصص) سهمًا في ذلك فاخذ يدمج الى صورة ذهبية ما نقلوهُ من ان اخا صلاح الدين لشدة تاثرهِ من بسالة ريجار قلب الاسد ملك انكلترة ارسل اليهِ وهو في معمعة القتال نجيبين من احسن الخيل دلالة على تقديره جراءته حتى تقديرها . لكن اذا تركنا المجاز الى الحقيقة نرى ان الغيرة القوية التي سترت فظائع كودفروا والصليبيين الاول قد استحالت في هذا الجهاد الى اطماع دنية وحيل وخيمة وجنايات لو علمتها الشمس لحولت وجهها عنها . ونشاهد في قواده رجالاً قد تبرأت الفضيلة منهم تسلحوا بكل قوة صماء وحشية خلت عن كل معرفة حربية قد حاز بعضهم من الاقدام ما يزدري بكل خطر ويقصي كل تعب ويقوي على كل صعوبة مهما كانت فسحروا بهِ الناس الذين تعودوا على تاليه الشجاعة والسجود لاصحابها فلا يرون عليهم عيبًا . فان ريجارا المذكور كان احقر من ان يحقر فيما يخص قيادة الجيش بالمقابلة مع نابوليون الاول واعظم من ان يذكر معهُ في الجنايات والفظائع . وما كان لعمري الاريك الغوطي واطيله الهوني وهما قط لم يقودا شعبًا ممدنًا باولى من ريجار وامثالهِ في عدهما من ضربات العالم

لقد ثبت بالتجربة ان كل امر كانت الخواطر له قاعدة ومساعدة الخاصة محورًا فغير راكز على قرار متين كما في الحروب الصليبية فانك كنت تراهم اولاً على هم متساوية الى ان يحدث نصر او كسر فتختلف الاراء فمنهم يظن انهُ نذر نذرًا وقد تممهُ واخر انهُ ارتكب غلطًا وقد كفرهُ وثالثًا انهُ قصد شيئًا وقد نالهُ او لم ينلهُ فتفتر فيهم الحماسة ويعقب ذلك التهامل ثم الاغضاء المطلق وذلك في امور كانت بالامس ذات اهمية عظمى فضلاً عن انهُ لم يكن في سيرة ملوك اورشليم المتاخرين ما يحفظ تلك الحرارة وذلك النشاط اللذين تحركا بواعظ بطرس الناسك وكان قد ظهرا ايضًا فتور في حيوية ذلك الحلم الذي سلب راحة نصارى المغرب مدة نحو مائة سنة

واقرب شاهد لنا على روح ذلك العصر في تاريخ المملكة اللاتينية ما نراه في سياسة المريك ملك القدس واقدامهِ على افتتاح مصر فان ذلك لم يكن فقط لمنع اتحاد قوتين كلتاهما عدو له شمالاً وعربًا وقاية لمملكتهِ من الخطر بل لامتلاك بلادٍ كلية الاهمية للتاجر وغيره وهذا ما قد نظره واراده مجمع اللاتراني الثالث فجعل افتتاح دمياط اول واجب على كل جهادي ورجحهُ على وجوب مملكة القدس نفسها . ولا ريب ان هكذا حروبًا لا تحسب جهادية واذا استثنيت من المتاخرين ماري لويس التاسع ريدمرس لان فيهِ كما في كودفروا واصحابهِ كانت البواعث الدينية اول كل شي فلا ترى الجهاد في غيرهم الا برقعًا تحتهُ اطماع مختلفة كشن الغارات وفتح البلاد حتى اذا خاب املهم من ذلك قدموا عليهِ بنفس تجردت عن الحمية الصادقة وفاضت بحب الخصام والعدوان القاتل ما يجعل اقرب الناس الى الوحوش طباعًا ولهذا لم يكن ممكنًا تحريك امراء المغرب الى عمل جهاد ثالث قبل ان

خلف الهلال الصليب على قبة جامع عمر

ولم يكن قط ذلك الروح الجهادي عامًا فان هنري الثاني ملك انكلتره كان يجد دائمًا عذرًا مقبولاً للتخلص منهُ كالنظر في مصالح بلاده ووقايتها من الاخطار التي تتهددها من الشمال حتى انهُ لما ضعف عذره باسر عدوهِ كليام ملك سكوسيه (سنة ١١٧٤–٥٧٠) وحاف ذلك الملك بحنظهِ مكانتهُ كناشب لهُ ولم يعد قادرًا على ان يصم اذنيهِ عن توسلات لويس السابع ملك فرانسا وعد (سنة ١١٧٧–٥٧٣) بانهُ سيضم عسكره نظير كونهِ ديوك نورماديه الى تابعهِ لورد تلك الامارة لاجل مساعدة نصارى الاراضي المقدسة ولم يأسف لعمري ذلك الملك عندما بلغهُ موت لويس المذكور (سنة ١١٨٠–٥٧٦) وتوقف ذلك الجهاد

ولما قدم عليهِ هرقليوس بطرك القدس بعد خمس سنوات ومثل لديهِ مع رفيقهِ عظيم فرسان الاسبيتارية جاعلاً في يديهِ صولجان فولك ذي (انجو) جده والملوك الذين تبعوهُ مع مفاتيح المدينة المقدسة وقبر المسيح كان اعتناء الملك البريطاني في ان يبذل لهُ كلامًا تشجيعيًا دون ممسك بقولهِ انهُ سيتخابر مع مجلسهِ الخاص وطلب راي ذلك المجلس وقتئذٍ انما كان بوجه يعرف منهُ ماهية الجواب الذي يريده فانهُ قال لهم اريد ان اعرف اذا كانت واجباتي الملكية ادعى الى ان اسوس رعاياي في مملكتي او الى ان ابادل الطعن مع المسلمين لاجل توطيد سلطة مملكة قاصية . فلم يكن حينئذ ريب في عقول بارونيه واساقفتهِ في ان الاقرب كان الاوجب . فاراد هنري ان يتخلص منهُ وقتئذٍ بوعده بخمسين الف مارك لسد احتياجات المملكة اللاتينية في فلسطين . وكان ما ظهر على وجه البطريرك المذكور من الاشمئزاز داعيًا لاظهار غضب هنري حتى اجابهُ هرقليوس بدون خجل انك تقدر ان تفعل بي ما قد فعلت بتوما مطران كانتربري فاني لست باقل تحضرًا لقبول الموت بيدك منهُ بايدي المسلمين الاكثر رحمة . وكان هنري قد تتوج ملكًا ضد راي المطران المذكور (سنة ١١٦٩) فحرم الاساقفة الذين توجوهُ فقتلهُ هنري . ولما لم يكن للملك ما يجيب صمت عن جواب البطريرك المذكور ومضى هرقليوس بسلام بعد ان كرس كنيسة فرسان الهيكل في لندره . اما سقوط اورشليم فانهُ غير كثيرًا في هيئة السياسة والواجبات وبعد ذلك بايام قليلة وربما قبل انتشار الخبر توفي اوربانوس الثالث في «ورونه» مملوءًا كآبة ليس من ذلك بل مما كان يهدد العالم النصراني من الخصام المهلك المزمع ان يكون بين البابوية والامبراطورية وقد تاسف على ذلك خليفتهُ غريغوريوس الثامن الذي لم يعش بعده غير شهرين داعيًا اياهُ حادثًا فيهِ نكبة النصرانية كلها . ولم يكن غافلاً ذلك البابا عن اجراء ما يحول تلك الزوبعة الى جهة اخرى ويخلص البابوية اقلهُ من تهالكها اذا لم يكن من اتعابها فامضى الايام القليلة التي بقيت لهُ من عمره بكتابة الرسائل وتهييج الروح الذي كان قد حركهُ بالتعاقب بطرس

الناسك والقديس برنردس المار ذكرهما وقضى بصوم خمس سنوات لاجل تخفيف غضب الله . وعزم الكردينالية على ترك الرشوات ومنع ما كان يحصل من الفساد والظلم في الاحكام وبان لا يمتطوا سراة الخيل ما نجست قدم كافر الارض التي تردد عليها المخلص ومات البابا غريغوريوس في طريقهِ (سنة ١١٨٨-٥٨٤) ذاهبًا لاجل عمل الصلح بين جمهوريتي جنوة وبيزة اللتين كانت عماراتهما وقتئذٍ اهم شيء لاجراء ما كان يتردد في ذهنهِ

وبعد جمع قليلة تشرفت نواحي «غيزور» «واتري» باجتماع الملك هنري المذكور والملك فيلب اوغسطوس الفرنسوي لاجل استماع دعوى نصارى فلسطين من فم كليام مطران صور مورخ الجهاد الاول والثاني وتقلد هناك الملكان المذكوران الصليب واتبع مثلهما كونت دي شامبان وكونت دي فلاندرس وجم غفير من بارونيين وفرسان واتفقوا على ان يكون صليب الانكليز ابيض والفلمنك اخضر ويبقى الاحمر للفرنسوية ثم اسرع الملك هنري بالرجوع الى انكلتره وتقرر في مجلس التأم في جدنتون من اعمال نورغمتون القاء ضريبة دعيت عشور صلاح الدين اي ان يدفع كل من تمنع عن الجهاد بنفسهِ عشر مالهِ من منقول وغير منقول وجمعوا حينئذٍ سبعين الف جنه وصادروا اليهود بستين الفًا مع قلتهم ولا يعلم حقيقةً كيف تدبر اليهود ذلك وباي تعب وجهد دفعوهُ ولكن يعلم ان كثيرًا من البلاوي كانت محفوظة لهذا الشعب المسكين ظهرت بعد ذلك باشهر قليلة

ولا يبعد ان يكون هنري صادقًا فيما عملهُ ظاهرًا فانهُ ارسل رسلاً الى بيلا ملك هنكاريه والى اسحق انجلوس ملك الروم يطلب ممرًا سليمًا وسوقًا حرة لقومهِ واجيب الى ذلك الا انهُ ما لبث ان ظهر ما شغلهُ عن الذهاب وقتئذٍ وذلك ان المنازعات الدنية التي نجمت عن التقسمات الامرية ومبادى الاقطاع الردية كانت قد تعاظمت في امراء آل انجو . ولا يعلم من كان من ابناء هنري الثلاثة الشرعيين اي هنري وريجار ويوحنا اقبحهم سيرة وانجبهم في رذائل ذلك العصر فان ظلم ريجار في اكويتانية كان غريبًا حتى في ذلك الزمن المشهور بالقسوة والجور والخيانة وكانت رعاياهُ تكابد مرار الموت في المبالص وقصاصهُ خارجًا عن كل قياس للمذنبين ولم تكن امراة في المملكة كلها امينة على عرضها الاضمن اسوار القلاع . ولم يكن لعمري حب الانتصار المظلوم ما جلب عليهِ عساكر اخويهِ هنري وجوفراي عندما توسط ذلك الامر ابوهم وخصم النزاع فوجهوا حربهم عليهِ بعده كابناء مطيعين . وما منع وقوع القتال فيما بينهم الامرض ابيهم قبل ذلك

ولما مرض هنري وظهر لريجار الذي كان ينتظر الخلافة بحق سنهِ لانهُ كان اكبر اخوتهِ الاحياء ان اباهُ كان يميل الى اخيهِ يوحنا ويريد ان يعهد اليهِ بعدهُ اخذ بتجديد العلاقات الودادية بينهُ وبين فيلب اوغسطوس ملك فرنسا وكان خطيب اختهِ ادبلايده من مدة طويلة . وكانت تلك

الاميرة قد ادخلت في حراسة الملك هنري وتصرف بها على ما قبل وولدت لهُ ولدًا . اما ريجار فلم تكن هذه المادة الطفيفة عهمهٔ وقتئذٍ وطلب مساعدة فيلب على تسليمها واداء بارونى المملكة الطاعة لهُ كولي عهد الملك ولما راى جواب والده مترددًا في المسالة الاخيرة صرخ منذهلاً بقولهِ اني اصدق الان ما كنت اظنهُ غير ممكن ثم قدم على الملك فيلب وخر على قدميهِ طالبًا حمايتهُ وتحصيل حقوقهِ العادلة وجعل لهُ من الغنيمة كل املاك ابيهِ في فرنسا وفي الحرب التي تبعث فيا بينهم طرد هنري من معاقلهِ في مانس وامبواز وتورس وكانت الامراض قد اجهدتهُ كثيرًا فالتزم ان يلقي ابنهُ ريجار والملك فيلب بقرب تورس (سنة ١١٨٩—٥٨٥). وينهي الخلاف وقد زادهُ رهبًا حصول زوابع ورعود وقتئذٍ وقد سقطت صاعقتان بالقرب منهم فنضب ما كان فيهِ من العزم الاخير وقبل بان يدفع عشرين الف مارك الى فيلب ويسلم اديلايده اليهِ ويامر الامراء اتباعهُ بان يحالفوا لولده ريجار بولاية العهد وطلب ان يرى فقط اسماء الذين كانوا في تلك المحالفة فاعطى لهُ القائمة فوجد في اولهم اسم ابنهِ الحبيب يوحنا فرمى بتلك الورقة حنقًا ثم اعترتهُ حمى محرقة لعن فيها اولاده العاقين ومات بعد جمعة الى رحمة مولاه

ثم بويع ريجار الملك وهو لم يكن ليثبت افكارهُ بما كان شاغلاً افكار ابيهِ من المطامع الواسعة بل كان يريد الشهرة والصيت العظيم فاراد ان يستخدم غني مملكتهِ وقوتها لذلك فلم يكن محلاً على فكره البق من الارض المقدسة لذلك ولا الفخر من قطع هام الكفار بسيفهِ البتار فكانت مطامعهُ مطامع متمرد قد طلي بزخرف رقيق مستعار من شهامة تانكريدية وشوالرية عصرية فنهض لاجرائها بتضحية منافع مملكتهِ الحقة ونفسهِ ايضًا ولما اقتضى لجهازه مبلغ اوفر جدًّا مما كان قد جمعهُ ابوهُ بحرص في خزنتهِ بسالزبرى اي مائة الف مارك باع ارلية «نورثمبرلند» بالف جنيه لاسقف درهم مدة حياتهِ ورضى عن اخيهِ جوفراى الذي كان وقتئذٍ مطران يورك بثلاثة الف جنيه ونزل لكليام عن كل حقوقهِ على مملكة سكوسيه التي كان قد نزل عنها كليام لابيهِ هنري بما فيهِ معاقل ركصبرج وبردويك بعشرة الاف جنيه وقام الى نورمانديه بقصد تحصيل النقود باي واسطة كانت

ولما كانت بداية الجهاد الاول والثاني باضطهاد اليهود وراى يهود انكلتره تجمع الضباب في سماء السلام احتسبوا من سوء العاقبة وسارعوا لتقديم الهدايا الثمينة للملك فغلب اهتمامهم رصانتهم . وكان الملك قد امر بان لا يوذن ليهودي بالظهور امامهُ بيوم التتويج فاختلط بعضهم مع العامة في ذلك اليوم عن غير اعتناء فعرفوا واخذوا وقتلوا وانتشرت نيران هذا التعصب كالبرق فأخذ كل يهودي وُجد في شوارع المدينة وارباضها وعومل كذلك وامتد الشر من النفوس الى البيوت فنهبت كل منازل اليهود وأُحرقت ثم ارادوا ثان يوقفوا هذا الشر فامسكوا ثلثة رجال وشنقوهم ليس لانهم قتلوا

اليهود لكن لتهمة انهم كانوا ينهبون النصارى بعذر انهم يهود او باحراقهم بيوتًا بنية الاضرار بالنصارى وبيوتهم وهذا الظلم لم يقتصر على لونده بل جرى في كل المدن الكبيرة وهرب اليهود في لنكولن ويورك الى القلاع باموالهم . ففي لنكولن وجدوا ملجئًا اما في يورك فبعد ان دخلوا القلعة خرج الحاكم بغرض له ففسروا ذلك بانهُ كان مشاركًا للباقين في اضطهادهم لهم فقفلوا الابواب في وجهه عند رجوعهِ وهو في غضبهِ طلب من شريف البلد بان يامر رجالهُ بالهجوم ثم انضم الى المذكورين الرعاع الذين اظهروا باغرائهم انهم كانوا يريدون اكثر من استرداد القلعة وكان المحصورون يسمعون بسهولة صوت تنخية الشعب بعضهم بعضًا في اهلاك اعدا المسيح فعلموا ان لا مفر من القضاء وارادوا ان يختاروا اموتة اقبل اليهم اذ كان لا بد من الموت . فانتدبوا بعضهم بعضًا الى مجلس للتفاوض في الامر فاغرام الحاخام بتسليم ارواحهم لخالقهم وقتلهم انفسهم هربًا من استماع الشتائم الفظيعة وتعذيب اولادهم ونسائهم وانفسهم ايضًا وبرهن على وجوب ذلك وموافقتهِ لناموسهم فاستحسن البعض كلامهُ والبعض استصعبوهُ اما الحاخام فحسم النزاع بقولهِ كل من لا يوافق على ذلك فليذهب فلم يترك الا عدد نذر وفي ساعات قليلة تم كل شيء واعطوا النار للقلعة واحترقوا بها . اما الباقون الذين لم تكن لهم الجسارة كاخوتهم على قتل انفسهم فطلبوا ان يفتحوا الباب ويتنصروا ويعفى عن دمهم فاجيبوا الى ذلك وحينئذٍ فتحوا القلعة فهجم القوم ودخلوها وقتلوا كل واحد منهم حفظًا للعهود . وكان كل ذلك خطا عرضيًا في اعين ذلك العصر واما شعب يورك فاضاف الى هذا كلهِ فعلاً كان جرمًا عظيمًا لا يغفر في اعين ريجار فانهم اسرعوا الى الكاندره في البلد واخذوا كل الاوراق والقراطيس المالية المودعة هناك واحرقوها في البهو لان هذه الاوراق بموت اصحابها عادت كلها للملك فاقام ريجار اسقف أَلي مستشارهُ ليفحص ويقاص المذنبين الا انهم كانوا قد هربوا الى حدود سكوسية ولم يمكن تاديبهم

وبعد ان ملأ ريجار صناديقهُ مالاً بقدر الامكان التقى فيلب اوغسطوس في وزه لاي (سنة ١١٩٠) حيث كان ماري برنردس من اربع واربعين سنة يقرع بفصيح خطابهِ اوتار قلوب النصرانية لمثل تلك الغاية ولم يكن حينئذٍ الصوت الفعال صوت الكاهن او الناسك او القديس بل صوت الشاعر الرباب الذي بربابهِ كان يحرك في الشعب حاسات الاقدام بنوع لم يكن كلهُ روحانيًا بل ماديًا ايضًا

وكانت قوة الملكين كما قيل مئة الف اما نظام تلك العساكر فيعرف من القوانين المرتبة عليهم منها ان القاتل يربط الى جثة مقتولهِ ويرمى كلاهما في البحر . ومنها ان من استل سيفهُ بالغيظ قطعت يداهُ وان اللصوص تطلى اجسامهم بالقطران ويلقون على الساحل وقس عليهِ . وعند ما اخذ فيلب وريجار بالتاهب للذهاب الى صقلية كان الامبراطور فردريك الاول الملقب (باربارصه) باحمر اللحية على طريقهِ الى القسطنطينية وكان هذا الملك قبلاً قد تخاصم مع الكرسي الروماني وعارض

انتخاب البابا اسكندر الثالث واقام بابا امبراطوريًا تحت اسم باسكوالس الثالث . و براي هذا الحبر الدعي حارب فردريك رومه وكسر باب ماري بطرس بالفووس وتقدمت عساكره الى باب المذبح الكبير مالئين الكنيسة بالدم ووضع البابا باسكوالس المذكور في وسط تلك الملحمة الاكليل على راس الامبراطورة بيانريس و بارك تاج القيصر المذكور . ونزل فردريك في رومه الى ان حدث طاعون ففر بعساكره وتبعهُ باباه ورجع البابا الشرعي اسكندر الثالث الى كرسيهِ ثم كان الصلح بينهُ و بين الباباوية ظاهرًا ولكنهُ بقي يحرك حتى نال في عهد البابا اوربانوس الثالث يد المعاهدة الزواجية لابنهِ مع قسطانسية وريثة مملكة صقلية وكان واقفًا دائمًا للباباوية بالمرصاد . ولو لم يبدُ لهُ من الحوادث ما استفز همتهُ الى جهة ثانية لكانت تجددت تلك الخلافات بينهما غير ان اخبار سقوط اورشليم وكتابات غريغوريس الثامن بحمس ملوك المغرب الى مساعدة نصارى فلسطين حركت الامبراطور المذكور الى الركوب برجالهِ ونشر اعلام الصليب مجتازًا هنكارية الى جهة عاصمة المشرق . وابى فردريك نظير سالفهِ كونارد الدخول الى القسطنطينية . وما منح لهُ ملك الروم الاذن بشترى الزاد لعساكره الا بفظاظة وخشونة واحترس اسحق من ان يعطيهُ القابًا تدل على اشتراكها بالامبراطورية

وكانت عساكر فردريك تمتاز عن غيرها بالضبط وحسن النظام ما كان يومل بجودة العاقبة . وحاربوا وانتصروا على الاتراك السلجوقية في موقعة شهيرة وفتحوا قونية وبها قطب الدين بن ملكشاه بن قلج ارسلان وكان قد غلب عليهِ اولادهُ وافترقوا في النواحي فلم يقدر على صدهم فاشاروا من هناك وقاموا الى بلاد الارمن وصاحبها قاقولي بن حطفاي بن ليون فامدهم بالازواد والعلوفات واظهر طاعتهُ وزحفوا الى جهة انطاكية فابتلاهم الله بموت امبراطورهم وهو يقطع او كما قال بعضهم يغتسل في بعض الانهر في قيليقية وحل بهم ما حل بالصليبيين الاولين . واذا صدقنا التاريخ فلم يدخل الى انطاكية منهم الا عشرة الاف قال ابن خلدون „ودخل ملكهم يغتسل في نهرٍ هنالك فغرق وملك بعدهُ ابنهُ ولما بلغوا انطاكية اختلفوا فبعضهم مال الى تمليك اخيهِ و بعضهم مال الى العود فعادوا كلهم وسار ابن الملك فيمن ثبت معهُ يزيدون على اربعين الفًا واصابهم الموتان وحسن اليهم صاحب انطاكية المسير الى الافرنج على عكا فساروا الى جبلة واللاذقية ومروا بحلب وتخطف اهلهُ منهم خلقًا و بلغوا طرابلس وقد افناهم الموتان ولم يبق منهم الا نحو الف رجل فركبوا البحر الى عكا ثم راوا ما هم فيهِ من الوهن والخلاف فركبوا البحر الي بلدهم وغرقت بهم المراكب ولم ينجُ منهم احد " . اما الصحيح فان ولدهُ المذكور اشترك بمن بقي معهُ في حصار عكة ومات قبل نهايتهِ

وكان لاتيين فلسطين في تلك المدة التي تجهزت اوربا لنجدتهم يجاهدون لاجل استرجاع ملكهم وكان يقدم عليهم جماهير من الحجاج متسلحين ويشتركون معهم في القتال وهولاء كانوا اناسًا دفعتهم

الغيرة الدينية والجنسية للمبادرة الى مساعدة اخوتهم فلم يكن يطيب لهم الانتظار وكانوا يقبلون على خطرهم ومصاريفهم وعددهم كثير . وهذا يظهر للقاري كمية ما كان من الانجرار على رجال اوربا في تلك الازمنة

وكانت عكة قد فتحت ابوابها لصلاح الدين بعد موقعة طبرية . وكان قد تجمع الى «غوي» المذكور نحو مائة الف من تلك الاخلاط والقى الحصار على عكة قبل ان يضع فيليب وريجار اقدامهما في الارض المقدسة بسنتين قال ابو الفدا وغيره ما معناه

«كان قد اجتمع بصور اهل البلاد التي اخذها السلطان بالامان فكثر جمعهم حتى صاروا في عالم لا يحصى وارسلوا الى البحر (بلادهم) يبكون ويستنجدون وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضربهُ وقد ادماه وقالوا هذا نبي العرب يضرب نبينا فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا الى عكا ونازلوها في منتصف رجب (سنة ١١٨٩ — ٥٨٥) وضايقوها واحاطوا بسورها من البحر الى البحر ولم يبق للمسلمين اليها طريق وصار اليهم السلطان ونزل قريب الفرنج وقاتلهم في مستهل شعبان»

ثم حمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان على الفرنج فازالهم من موقفهم والتزق بالسور وافتتح الطريق الى المدينة وانجدوا عكه وكان من جملة الداخلين ابو الهيجاء السمين وبقي المسلمون يغادون القتال ويراوحونهُ الى ٢٠ شعبان . ثم كان موقعة عظيمة وضرب الفرنج مع السلطان مصافًا وحملوا على القلب فازالوه واخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا الي خيمة السلطان فانحاز السلطان الى جانب وانضاف اليهِ جماعة وانقطع مدد الافرنج واشتغلوا بقتال الميمنة فحمل السلطان على الذين خرقوا القلب وانعطف عليهم العسكر فافنوهم قتلاً وكانت قتلى الفرنج عشرة الاف ووصل منهزموا المسلمين بعضهم الى طبرية وبعضهم الى دمشق وجافت الارض بعد هذه الوقعة ومرض السلطان واعتراه قولنج فاشار عليهِ الامراء بالانتقال فرحل من عكا رابع عشر رمضان الى الخروبة فتمكن الفرنج من حصار عكة وانبسطوا في تلك الارض ثم وصل اسطول المسلمين في البحر مع حسام الدين لولو فظفر ببطشة للفرنج فاخذها ودخل عكة ووصلت عساكر مصر مع الملك العادل فقويت قلوب المحصورين»

و(في سنة ٥٨٦) عاد السلطان من الخروبة لحصار عكة وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكة ثلاثة ابرجة طول البرج ستون ذراعًا جاءوا بخشبها من جزائر البحر وجعلوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة ولبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار فتحيل المسلمون واحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيهِ من الرجال والسلاح ثم احرقوا الثاني والثالث ووصل الى السلطان

لعساكر من البلاد . وهكذا بقي القتال بين الفريقين الى ان حضر الملكان المذكوران

وكانوا لعدم معرفتهم فن الحرب ولما الم بهم من المصائب والجوع في حالة يرثى لها ثم جاء طاعون فاكتسحهم الوفا الى ارض الاموات وكان ذلك في اواخر الصيف ومدة الخريف ثم قدم بعض تجار المان في قلب الشتا من سواحل البلطيك فرقوا لحال المعذبين وجعلوا اشرعة مراكبهم خياما للمرضى والذين في نزع الموت فاتى عملهم ذلك بنتائج جيدة وانضم اليهم غيرهم وتولد عن هذه المبادي الانسانية نظام جهادي جديد تحت اسم الفرسان التيتونية وشب هذا النظام الى درجة النظامين الاخيرين اي الهيكلي والاسبيتاري . وكان بموجب تاريخ الصليبيين رئيس هذا النظام هرمان السلزاوي ذا نفوذ عظيم لدى كل من الامبراطور والبابا ولما حبطت الجهادات الصليبية في المشرق نقل هذا النظام الى النواحي القاصية من المانية فوجهوا جهادهم الى كفرة لثوانيه واستونية وبروسية وغيرهم وبشروهم بانجيل السلام على اسنة الرماح ونجحوا اقله حربيا وضبطوا الاراضي التي تملكوها وارتقى اخر رئيس لهم الى درجة ملك وتقدمت دولته الى ان صارت المملكة المترأسة الان على كل المانية اعني بها بروسية

فهذا من عجيب ما نشاهد حدوثه في هذه المخلوقات الفسيحة كيف ان العناية تختار من اضعفها ماتضبط به اقواها ان في اعماله تعالى معجزات يومية لا تدركها ولن تدركها العقول الى اخر الدوران

ثم ما عدا المرض والفساد في تلك الجماهير دخل بين الامراء والقواد الخلف والعدوان وذلك ان سبيلا اخت بالدوين الرابع زوجة غوي المذكور ملك القدس ماتت في ذلك الحصار بالطاعون ومعها ولداها فسقط حق زوجها بالملك بسبب ذلك وكان لها اخت اسمها ازبل حية وقد ترملت من زوجها همفري لورد دي «ثورون» وتزوجت بكونارد مركيز صور فادعى المركيز المذكور مملكة القدس بحق نزول ملك ألمرك الى زوجته ازبل فحصل الخصام وابقيت هذه الدعوي لحكم فيليب وريجار ملكي فرنسا وانكلتره

وكان هذان الملكان وقتئذ على طريقهما الى الشرق . فكان ريجار قد سار الى جنوة برا وارسى اسطوله بعد قطعه خليج بسكى على لزبونه وكان وقتئذ بعض امرا المسلمين ملقيا الحصار على سنترم اربعين ميلا من لزبونه فمضى الانكليز لمساعدة الاهالي ورفعوا عنها الحصار . ولكن التزم اهل لزبونه اخيرا الى محاربة مخلصيهم لما كان منغرسا في افكار عسكر ريجار من ان اذنهم بالسبي والنهب والاهانة كان عاما اينما توجهوا ولم يقتنع روساءهم الا بعد صعوبات عظيمة وسفك دم بتاجيل افعالهم لوقت اخر واجرائها في بلاد قصوى

وكان الصيف قد ولى لما اجتمع ريجار باسطوله ودخل في ٢٧ ايلول (سنة ١١٩٠) دخول

منتصر تقريباً الى مسينه على رهب الاهلين واشمئزاز فيليب

وصارت صقلية وقتئذٍ نظير عادتها في كل وقت كما تنبي تواريخها عرضةً لتنازع الملوك وركائب الاخطار ٠ وكان يملكها في ذلك الوقت تانكريد الدعي ابن رجار ديوك دي ابوليه وكانت اخته قسطنسية ابنة رجار (روجر) الشرعية متزوجة بابن فردريك الاول المقدم ذكرهُ الذي اراد ان يجعل صقلية تابعة لملكهِ وقد خيب آماله تانكريد المذكور باخذ الاحتياطات اللازمة عند ذلك وحبسه جوانه ارملة سالفهِ كليام الملقب بالجيد. وجوانه هذه كانت اخت ريجار الاول ملك الانكليز فلم يكن هذا بطيئًا الان في طلب اطلاقها ومهرها وما كان قد وقف كليام الجيد على ابيهِ هنري الثاني واصحب مطالبتهُ هذه بالقوة والاختلاس وشاركهُ بذلك اتباعهُ وبدا بينهم وبين الاهلين الخصام في اسواق مسينه وانتهى ذلك بنهب البلد ٠ ولما اعتبر فيليب اغوسطس رفع الاعلام الانكليزية بحضرتهِ على اسوار مسينة اهانة لشخصهِ تدارك ذلك ريجار وسلم البلد لحراسة فرسان الهيكل والاسبيتاربة تمهيدًا لغيظ فيليب وجرت تسوية الاختلاف مع تانكريد بخطب ابنتهِ الطفلة «لارثر» ديوك دي بريطانية ذاك الضحية التعيسة لقسوة يوحنا الذي يذكر روايتهُ شاكسبير المشهور

اما منازعات رجال الصليب فكانت ككلاليب سلسلة منضمة الاطراف لاتنتهي واحدة حتى تبتدي الاخرى فان تانكريد بقصد اظهار محبتهِ لريجار وضع في يدهِ كتابًا موقعًا بامضاء فيليب فيهِ يطلب هذا الملك من تانكريد ان يدخل معهُ في اتحاد سري ضد ريجار فقرف ريجار حينئذٍ فيليب اغوسطس بالخيانة وقرفهُ فيليب باظهاره كتابات مزورة بقصد التخلص من التزوج باختهِ اديلايده ٠ وكان ريجار (ريكارد) قد طلب ان يتزوج برنكارية ابنة سانكو ملك ناوار فاجاب فيليب بفظاظة مقصودة انهُ لا يقدر ان يتزوج بام ولد ابيهِ ٠ وهكذا استحالت تلك الحلفة التي جمعتها في اولها على مائدة واحدة وفي فراش واحد الى بغضة لدود

وعلى هذا النمط مضى فصل الشتاء في جدالات معيبة واسراف مهين ٠ وقام ملك فرنسا بمراكبهِ في الربيع الى عكه وريجار الى رودس وبينما كان ملقى هنالك بالحمى اذ اتاهُ خبر عن غرق بعض قومهِ على سواحل قبرس وانهُ اختلس امتعتهم منهم اسحق كومينوس وكان يدعى نفسهُ سلطان تلك الجزيرة ٠ ولما رفض كومينوس طلب ريجار التعويض والترضية امر ريجار فظهرت اساطيلهُ امام ليماصول مينا تلك الجزيرة وامتلكت رجال الانكليز المدينة والزم اسحق الى الوعد بانهُ يجاهد بخمسمائة من قومهِ مع الصليبيين فوعدهُ ريجار انهُ ان احسن سلوكهُ رجع لهُ مملكتهُ ثم غلب خوف اسحق على رصانتهِ فهرب ثم التقى ريجار في القتال وانجلى الامر بالقبض عليهِ وايداعهِ الحبس في حصن على سواحل فلسطين ثم ارسل ريجار مركبًا واتى بالاميرة برنكاريه بنت ملك ناوار وتزوج بها وفيها وعد ريجار غوي

دي لوزنيان بالمساعدة لان فيليب ملك فرنسا كان قد انحاز الى كونارد خصمهِ · وكان عسكر الجهاديين بعكة قائمًا في السهل والمسلمون وصلاح الدين في الربى تحت البنود السود. وكان ريجار قد تاخر في طريقهِ بقدر ما اراد او وافقهُ ذلك فغمر بجار توبيخاتهِ وشتائمهِ الرسل الذين ارسلهم امراء الحصار ليبلغوهُ ان شغلهُ لم يكن ليعزل امراء كومينية ويأخذ ممالكهم بل ليقاتل المسلمين على ميراث النصرانية المقدس · واخيرًا وصل الى عكة وقد نهكتهُ الحمى وانقلب فتورهُ الى غيرة عظيمة فانهُ طلب ان يحملوه على فراشهِ لكي ينصب بنفسهِ المنجنيق الذي كان لرشق الصخور عبارة عن المدافع المستحدثة وفي اول الامر لم يكن الملكان في اتحاد واقتسما عساكرها ووقف المسلمون بصبر امام تلك القوات

ثم تصالحا وعلى الاكثر ظاهرًا وآل اتحاد قواها الى طلب المحصورين الامان فعرض الفرنج على المسلمين شروطًا رفضوها ونادى صلاح الدين مشجعًا المحصورين الى الصبر املاً بوصول النجدة من مصر فلم يأتِ والتزم صلاح الدين اخيرًا بان يوافق على شروط اكثر صرامة من الاولى اي ارجاع عود الصليب الماخوذ في القدس واطلاق محابيس النصارى وابقاء بعض الوف نظير رهائن في ايدي الفرنج ونقدهم مائتي الف دينار في اربعين يومًا وعلى ذلك صار التسليم ونزل ريجار في القصر وذهب فيليب الى منزل الهيكليين وخفقت اعلام فرنسا وانكلترا على اسوار المدينة · وحينئذٍ اعتبر فيليب انهُ قد اكمل نذرهُ واراد الرجوع الى فرنسا واما ريجار فودع صاحبهُ بكل احتقار وغضب ظاهرين وسار فيليب الى صور واعطى كونارد النصف الذي خصهُ من مدينة عكه

ثم انتهت مدة الاربعين يومًا ولم يرد او لم يقدر صلاح الدين على ان يرد عود الصليب ويدفع المائتي الف دينار فحذرهُ ريجار وقتئذٍ عما تكون عاقبة الاهمال وتمم كلامهُ فانهُ في اليوم الاخير امر فاخذ الفان وسبعمائة نفر من الرهائن الى راس تلة بمرأى من عساكر نور الدين وضربت رووسهم كلهم وشقت العساكر بطونهم ليروا ما فيها من الجواهر والذهب ظنًا بانهم كانوا قد ابتلعوا من ذلك شيئًا وكذلك لاخذ مرائرهم دواء وذبحوا مقدار ذلك على اسوار البلد بامر دبوك دي بوركندي نائب الملك فيليب

وكان فتح عكة لاولئك الرحومين الانقياء من رجال الصليب عذرًا مقبولاً لاشغالهم باللذات والفساد مدة ثم تحركت عساكر ريجار جنوبًا زاحفين زحفة واحدة وصار الاسطول البحري بمنظر منهم على الشطوط بحركة واحدة وكانت عساكر صلاح الدين عن شمالهم · وكانت سياسة هذا القائد في محاولة عدوهِ واتعابهِ في اماكن قد خرب قلاعها بدون ان يواقعهُ ولم يزل عسكر ريجار زاحفًا الى ان وصلوا الى ارسوف وحينئذٍ عزم ريجار على مبارزة عدوهِ فكان على الميمنة يعقوب دي آوزن

وعلى الميسرة دبوك دي بوركندي وكان ريجار في القلب واظهرت هيئة القتال نوعًا من حسن القياد الحربي وظهرت جراءة ريجار برزانة طبعهِ وحفظهِ هجوم فرسانهِ الى الساعة الاخيرة فشقوا صفوف الاعداء وكان النصر تمامًا وقتل يومئذٍ يعقوب دي آوزن وبكى عليهِ ريجار بكاءً مرًّا

وكانت زحفتهُ الثانية الى يافه وان تكن ارادتهُ الذهاب الى عسقلان فان البارونين الفرنساويين كانوا يرغبون بناء اسوار يافه . واكملوا ذلك العمل في مدة وجيزة رغمًا عن عوائد الصليبيين في الابطاء والاهمال

ثم قضى بتجديد القتال بعزم واعلم ريجار صلاح الدين انهُ لا يقبل الّا بارجاع كل مملكة القدس بحسب ما كانت في عهد بالدوين الابرص لانهُ كان قد عرض عليهِ كل الاماكن الكائنة بين الاردن والبحر ثم ظهر ان كل تلك المفاتحات انما كانت لاكتساب الوقت فامر ريجار بالزحف على اورشليم حتى اذا وصلت العساكر الى الرملة بعد ان كابدوا من المطر والعواصف كثيرًا وظهرت لهم سهولة نوال ما كانوا يحتسبونهُ جزاءً كافيًا لكل اتعابهم وهو اخذ اورشليم قالت العساكر ورجال بيزا ان افتتاح اورشليم سيكون علة لتشتيتهم اذ لا يمكن حفظ الرجال مجتمعين بعد ان يكونوا وفوا نذورهم على قبر المخلص وقضوا من ثم بالرجوع الى عسقلان وهناك صرفوا فصل الشتاء قليلة في بناء الاستحكامات والاكثر في عداوات مستمرة وكان دبوك دي اوسطريه قد كرهِ ريجار منذ حصار عكا والسبب على ما ذكر ان ريجار اهان العلم الاسطري برميهِ لهُ عند ما رآهُ يخفق على اسوارها وزادت هذه الكراهة بطلبهِ الى كل من في المعسكر ان يساعدوا في بناء اسوار عسقلان شخصيًا فاجاب الديوك المذكور بانهُ لم يكن قط نجارًا ولا بناءً فبادرهُ ريجار بلبطةٍ طرحتهُ على الارض . فقد يمكن ان يكون كل ذلك خبرًا مزوقًا ولكن في انقسام العسكر دليلاً كافيًا على الخلاف كانحياز الجنوية الى كونارد والبيزوية الى غوي في مسالة التخت الاورشليمي وتفرق الفرنسوية لعدم قدرة ريجار على دفع اجرتهم ومثلهُ انهُ لم يكن ما يرضي كونارد الا محالفتهُ مع صلاح الدين وتس عليهِ . ثم وردت اخبار الى ريجار توجب وجوده ضرورة في انكلترا فاقتضى ان يخفف مطلوبهُ الاول من صلاح الدين قانعًا هذه المرة بالقدس وعود الصليب فقط . اما صلاح الدين الذي لم يكن يابى قبلاً ترجيع الاخير فاختلفت افكاره الان واجاب انهُ لا يريد ان يعبد الناس قطعة من خشب باذنهِ . ولم ينجح امر زواج اخت ريجار بسيف الدين اخي صلاح الدين ولا نفع ترك ريجار مساعدة غوي وقبولهُ كونارد اميرصور ملكًا لاورشليم قال ابو الفدى

«واستمر حصار الافرنج لعكا وقد احاطوا بها من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقًا فلم يتمكن السلطان من الوصول اليهم وكانوا محاصرين ومحصورين من خارجهم واشتد حصارهم وطال وعجز

صلاح الدين عن رفع العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين علي بن احمد المشطوب من عكا وطلب الامان على مال واسرى يقومون بهِ للفرنج فاجابوهم الى ذلك وصعدت اعلام الفرنج على عكا يوم الجمعة سابع عشر جمادى الاخره (سنة ١١٩١—٥٨٧) واستولوا على البلد بما فيهِ وحبسوا المسلمين في اماكن من البلد ليقوموا بالمال والاسرى وصليب الصلبوت وكتبوا الى السلطان صلاح الدين بذلك فحصل ما امكن تحصيلهُ وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوا . ثم قتل الافرنج من المسلمين كثيرًا واستمر الباقون في الاسر

وبعد استيلاء الفرنج على عكه رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ثم ساروا من قيسارية الى ارسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف ازالوا المسلمين عن موقفهم ووصلوا الى سوق المسلمين فقتلوا من السوقية وغيرهم خلقًا كثيرًا

ثم سار الفرنج الى يافا وقد اخلاها المسلمون فملكوها . ثم راى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا فسار اليها واخلاها وخربها ورتب الحجارين في تفليق اسوارها وتخريبها فدكها الى الارض ثم رحل عنها ثاني شهر رمضان الى الرملة فخرب حصنها وكنيسة لد . ثم سار الى القدس وقرر اموره وعاد الى مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك الانكليز ويكون للملك العادل القدس ولامراتهِ عكا فحصر القسيسون وانكروا عليها ذلك الاَّ ان يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذي القعدة او شوال وفي كل يوم بينهم وبين المسلمين مناوشات فلقوا من ذلك شدة شديدة واقبل الشتاء وحالت الاوحال بينهم ولما راى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر اعطاهم الدستور وسار الى القدس ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيهِ واخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه وامر العسكر بنقل الحجارة وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسهِ على فرسهِ ليقتدي بهِ العسكر (انتهى ملخصًا)

ثم اتفق ان قتل كونارد اثنان من الباطنيين فوقعت الشبهة والغضب على ريجار بدون برهان ثم ظهر مدع جديد اكثر قبولاً للشعب الى تخت القدس وهو هنري كونت دي شامبان وهذا بعد تسميتهِ ملكًا لقبيًا تزوج بارملة كونارد وعوض غوى مملكة قبرس وبقيت قبرس في ايدي سلفائهِ الى ان خلف الهلال الصليب على كنيسة جوستنيانوس قيصر (سنة ١٤٥٣) في القسطنطينية

وهكذا قضي الشقاق وسوء القيادة العسكرية على الجهاد الصليبي بالاخفاق ولكن ريجار كان يهمهُ اخذ اورشليم اكثر من تاديب اخيهِ يوحنا فزحف بالعساكر في حزيران ثانية الى المدينة المطهرة وبخبر دنوهِ منها وقع الرعب في قلوب اهلها لكن بوصولهم الى بيت نوبه ظهر للصليبيين ان قوتهم

لم تكن كافية للاحاطة بالمدينة ولم يكن لهم ما يقيهم من اخطار الجوع والعطش ولا سيما ان المسلمين كانوا قد خربوا كل الآبار والصهاريج فاخذ يحسن لهم ريجار ولكن دون نفع بان يوجهوا قوتهم لغزو مصر واخذ القاهرة . واتفق انه كان وقتئذٍ على تل فقيل له انه يمكن روية اورشليم منه فلم يرد ان ينظر قائلاً اني لا استحق ان ارى المدينة التي لم استطع اخذها . ثم تفرقت تلك العساكر فالبعض ذهبوا الى يافه وكثيرٌ الى عكة وتقدم حينئذٍ صلاح الدين بسرعة الى الاولى وضايق عليها فوعده المحصورون انه ان لم ينجدوا في اربع وعشرين ساعة يسلموا البلد فظهر ريجار ضمن المدة المحددة واظهر بطشًا اشد من السباع الكاسرة وجراءةً لا مزيد عليها وانهزم المسلمون وخجلوا لما علموا ان الذين هزموهم لم يكونوا الا شرذمة صغيرة من الفرسان . قالوا ان بسالة ريجار هيجت في سيف الدين خصيء شهامة الفروسة وكان ريجار قد فقد حصانه في معظم الموقعة فارسل له الملك العادل سيف الدين اخو صلاح الدين فرسين لتجديد القتال وكان قد البس ريجار قبلاً وسام الفروسة لابن سيف الدين بطلب ابيه . وثبت اخيرًا النصر للصليبيين فانتهز ريجار فرصة ذلك الظفر لنوال شروط صلح مجلة فكان بين الفريقين هدنة في اول ايلول (سنة ١١٩٢) لثلاث سنوات وثمانية اشهر على ان تهدم استحكامات عسقلان ويبقى للفرنج يافا وصور وما بينهما من البلاد ويجاز كل زائر اورشليم دون ضريبة قال ابو الفدى

«واستقر امر الهدنة يوم السبت ثامن عشر رمضان (سنة ٥٨٨) وتحالفوا على ذلك في يوم الاربعا ٢٢ شعبان ولم يحلف ملك الانكليز بل اخذوا يده وعاهدوه واعتذر بان الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك وحلف الكونت هنري ابن اخيهِ وخليفته في الساحل كذلك حلف غيره من عظماء الفرنج ووصل ابن الهنفري وباليان الى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين واخذوا يد السلطان على الصلح واستحلفوا الملك العادل اخا السلطان والملك الافضل والظاهر ابني السلطان والملك المنصور صاحب حماة محمد بن تقي الدين عمر الايوبي والملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والملك الامجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك والامير بدر الدين يلدرم الياروقي صاحب تل باشر والامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر والامير سيف الدين علي بن احمد المشطوب المذكور وغيرهم من المقدمين الكبار وعقدت هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلث سنين (وثلاثة اشهر) اولها ايلول الموافق لحادي وعشرين من شعبان (سنة ١١٩٢–٥٨٨) وكانت الهدنة على ان يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها وان تكون عسقلان خرابًا . واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في عقد هدنته واشترط الفرنج دخول صاحب انطاكية وطرابلس في عهد هدنتهم وان تكون لد

والرملة مناصفة بينهم و بين المسلمين فاستقرت القاعدة على ذلك (انتهى ملخصاً)

فاراد فرنسوية عكة ان يشتركوا في هذه الامتيازات اما ريجار فرفض ذلك بغضب بناء على انهم لم يكونوا صنعوا شيئاً ليستحقوه · وكان ما بين اولئك الحجاج اسقف سالزبري وهذا ضاف صلاح الدين وسمع من فمهِ مديحاً بجراءة ريجار وكان جوابهُ على سبيل التخلص لا تقدر الارض ان تولد بطلين نظير سلطان سوريه والملك الانكليزي

وعلى هذا النمط انتهت تلك الركبة الصليبية حالما ابتدا شغلها حقيقة بان حصل المجاهدون على شروط لم تكن عظيمة الاهانة وكانوا يتسلون باحالتهم الامور على المستقبل وبان لهم قطعة واسعة على طرفيها ومدينتين كبيرتين كمركز يمكنهم استخدامهُ عند اللزوم وبكونهم قد اضعفوا والحالة هذه النتائج التي كان يوملها صلاح الدين بفتحهِ القدس وانتصارهِ في طبريه

وفي غد ركوب ريجار البحر التفت هذا الملك الجسور نحو الارض المقدسة وقال مودعاً لها باسطاً ذراعيهِ على طولها « ايتها الارض المطهرة استودعك الله القادر على كل شي واسالهُ ان يمد بعمري لارجع واخلصك من نير الكافرين » وكانت معظم العمارة قد ذهبت بامراتهِ واختهِ ووصلت الى صقلية بسلام اما هو فتبعها بمركب واحد وبعد شهر من معاناة الزوابع والاهوال وجد نفسهُ في (كورفو) وهناك استاجر مركباً تجارية لتاخذهُ الى (راكوزه) (وزاره) فصادفهُ في مسيره عواصف رمتهُ على سواحل (السترية) ما بين (اكوليه) و (البندقية) وهناك ابتدات مخاطره فكان ليوبولد قريب كونارد اميرصور يكرههُ لوقوع الشبهة عليهِ بقتل كونارد وملك فرنسا لم ينس اعمالهُ فكان في مراسلات مع يوحنا اخيهِ وكان انريكوس السادس امبراطور المغرب ابن احمر اللحية ضاغناً عليهِ لاتحادهِ مع تانكريد ملك صقليه الا ان ريجار افتكر ان لباسهُ المقدس ولحيتهُ الطويلة يجعلانهِ ضمن كل خطر . ولما وصل الى قلعة (غورتز) خاصة ماينار من ابناء اخوة كونارد ارسل رفيقهُ بالدوين دي بيثون بخاتم من العقيق يطلب جوازاً لنفسهِ وللتاجر هيو كسائحين حاضرين من القدس فتامل ماينار الخاتم وقال في نفسهِ ان هذه الجوهرة لا تكون الا مع الملوك وما ادراك اذا لم يكن هذا ريجار ملك انكلتره والتفت الى الرسول وقال قل لهُ يقدم عليَّ بسلام اما ريجار فلم يركن اليهِ وفر ليلاً فاخذ بالدوين وسبعة معهُ واودعوا السجن كرهائن · وفي (فراساك) قبض كذلك على ستة من رفقائهِ ونجا هو وفارس معهُ وولد لا غير كان يعرف لغة البلاد ثم ارسل الولد المذكور الى السوق لكي يحوج بعض اشيا في (اربرج) قرب البندقية فتظاهر بكثرة النقود فقبض عليهِ تحت الشبهة والقي تحت العذاب فاقر باسم سيدهِ فاستدارت بمنزلهِ الجنود وطلب ريجار ان يسلم نفسهُ الى قائدهم فاسرع القائد لاخذهِ (سنة ١١٩٢) وكان هذا ليوبولد نفسهُ · وكان لا ريب يستعذب الانتقام من ريجار على تلك الاهانات في فلسطين الا انهُ نزل عن

احساسه بمبلغ ستين الف جنه وسلم خصمهُ الى انريكوس السادس وهذا اعتقلهُ في بعض قلاع التيرول

فاثر هذا الخبر في رعايا ريجار اسفًا عظيما وفي اخيهِ يوحنا وفيليب اغوسطس ملك فرانسا فرحًا عميا واراد الاول ان يغتصب التاج فنهض وحارب الرعية لاجلهِ فهزم وطلب هدنة . وارسل الثاني فاعلم ريجار عن خرقهِ عهود الموادة واغار على نورماندية (سنة ١١٩٣) فصد صدًا عظيما بقرب روين . واخيرًا عرف مكان ريجار عرفةً كليام لونشام اسقف أُلي مستشار انكلتره اوكما قال (الرومان) (بلوندل) مغنى ريجار الامين فتسابقت العريضات الى الحبر الاعظم الروماني بطب اطلاقهِ وذكر بطرس دي (بلوار) ارخيدياقنس باث البابا شلستينوس الثالث بما لريجار عليهِ من الحقوق كابن غيور للكنيسة وبواسطة بطرس المذكور كتبت ام ريجار الينورا اليهِ بكلام اشد تسالهُ ان يظهر غيرة ايليا ضد اخاب ويوحنا ضد هيرودس والبابا اسكندر الثالث ضد ابي الامبراطور انريكوس اصل هذا الجور على النصرانية قائلة « ان كردينا ليتك لاجل اقل سبب يرسلون الى اقصى البلاد المتوحشة مسلحين بكل قوة اما في هذه الدعوى فانك لم ترسل لا شماسًا ولا اخًا والحال لو انك ذهبت بنفسك لخلاصهِ لما وطيت بقدر الكرسي الروماني فرد علي ولدي يا رجل الله ان كنت بالحقيقة رجلهُ ولم تكن رجل الدما فان بقيت متهاملًا فالله يطلب دمهُ منك » وفي مكاتيب تالية تسالهُ هل كان يعتقد الخلاص لنفسهِ وقد اهمل خلاص غنم رعيتهِ وتقول لهُ انهُ يجب ان يقدم نفسهُ عن واحد قد انف لحد الان ان يقول كلمة لاجلهِ » والحق ان شلستينوس كان مملوءًا من الغيرة نحو ريجار وكان منتظرًا بكل احتراس باباوي نجاة ريجار ليظهر غيرتهُ بقوة

واخيرًا بعد اربعة اشهر احضر ريجار امام مجلس (هاجنو) وكان لهُ ان يقدح في لاولائية ذلك المجلس او ما يعبرون عنهُ الان بعدم الاختصاص الا انهُ اجاب على التهمات المقدمة عليهِ واقنع القضاة ببراءة شانهِ وامال الامبراطور للمذاكرة بقبول الفدى

وصار جمع مال الفدى بضرائب القيت على الرعية الى اقصى درجة احتمالهم ومع ذلك كانت تظهر انها لا تكفي لان يوحنا عرض على انريكوس ان يدفع لهُ كل شهر يمسك ريجار عنده عشرين الف جنه ولكن كان قد فرغ صبر البارونين الالمان واقنعوا انريكوس بان الشيء اخذ حدهُ فعتق ريجار من سجنهِ في ٤ شباط (سنة ١١٩٤ — ٥٩١) واخذت عليهِ الرهائن لدفع ما كان تبقى غير مدفوع من الفدى وحينئذٍ انطلق لسان البابا شلستينوس الثالث فكتب الى الديوك الاوسطري والى الامبراطور بارجاع الفدى واطلاق الرهائن فالامبراطور لم يلتفت الى ذلك ولكن ليوبولد من خوفهِ ومرضهِ بعده اذعن للطاعة فاعاده الى انريكوس . وهكذا عاد ريجار بعد غياب اربع سنين الى بلادهِ لا لخير بل ليفقر شعبهُ بضرائب جديدة في خصامات اقل فائدة من ركبتهِ هذه .

فصل

في تتمة الربع الرابع من القرن السادس للهجرة

ومن حوادث هذا الربع ذهاب صلاح الدين الى مرج عيون وقبضهِ على ارنلط صاحب الشقيف وارسالهِ الى حبس دمشق واستلام الشقيف . ووفاة زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل في عسكر السلطان فاقطع صلاح الدين اربل لاخيهِ مظفر الدين كوكبوري كوجك واضاف اليهِ شهرزور واعمالها واخذ ما كان بيد مظفر وهو حران والرها . واستيلا الخليفة الناصر لدين الله علي حديثة عانه بعد حصرها مدة فاقطع صلاح الدين حران والرها وسميساط والموزر للملك المظفر تقي الدين عمر الايوبي زيادة عما بيده وهو ميافارقين وحماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية و بلاطنس وبكراس كل ذلك (سنة ٥٨٦)

وسار الملك المظفر يتفقد البلاد المذكورة فامتدت عينهُ الى بلاد مجاورة واستولى على السويداء وحاني وانقع مع بكتمر صاحب خلاط فهزمهُ وحصرهُ في خلاط وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها وحارب ملاذكرد وكانت لبكتمر وكان مع المظفر ولده الملك المنصور محمد ومرض الملك المظفر ومات هناك فاخفى ولده وفاتهُ ورحل عن ملاذكرد وحمل اباه ودفنهُ بظاهر حماه و بنى الى جانب تربتهِ مدرسة . وكان الملك المظفر شجاعًا شديد الباس من اركان البيت الايوبي ثم كاتب الملك المنصور عمهُ صلاح الدين يتطلب شروطًا نسبهُ بها صلاح الدين الى العصاوة وكاد امره يضطرب بالكلية فراسل الملك المنصور عمهُ الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان فما برح الملك العادل باخيهِ حتى رضي عليهِ وقرر لهُ حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم وارتجع البلاد الشرقية وما اليها واقطعها اخاه الملك العادل على شروط ان الملك العادل ينزل عن كل مالهُ من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت ونصف خاصتهِ بمصر وان يكون عليهِ في كل سنة ستة الاف غرارة تحمل من الصلت الى البلقاء والقدس ولما قر الامر كذلك ذهب الملك العادل وزار البلاد وقرر امورها ورجع ووجد الملك المنصور عند صلاح الدين وقد قبلهُ مكرمًا

ومنها قتل قزل ارسلان وهو عثمان بن ايلدكز الذي كان صاحب اذربيجان وهمذان واصفهان والري بعد اخيهِ محمد البهلوان ثم تقوى عليهِ طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد . ثم تغلب عليهِ عثمان المذكور واعتقل طغريل بن ارسلان بن طغريل في بعض البلاد وصار الى اصفهان وتعصب على الشفعوية وصلب جماعة من اعيانهم ثم عاد الى همذان وخطب لنفسهِ بالسلطنة [illegible] دخل لينام فدخل عليهِ من قتلهُ ولم يعرف ومنها قدم على صلاح الدين معز الدين قيصر شاه [illegible] قلج ارسلان صاحب

قونية . وسببهُ ان والدهُ فرق مملكتهُ على اولاده واعطى معز الدين ملطيه ثم تغلب بعض اخوته على والده والزمهُ باسترجاع ملطيه منهُ ففر والتجأ الى صلاح الدين فاكرمهُ وزوجهُ بابنة اخيهِ الملك العادل وعاد الى ملطيه وقد انقطعت اطماع اخيهِ منهُ — ذكر ابن الاثير ما معناهُ انهُ لما ركب صلاح الدين ليودع قيصر شاه ترجل قيصر شاه لهُ وترجل صلاح الدين ثم ركب صلاح الدين فعضده قيصر شاه وركبهُ وكان مع صلاح الدين علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل من الدولة الاتابكية واقارب نور الدين محمود ولي نعمة صلاح الدين فسوى ثياب السلطان ايضًا فلاحظ بعض الحاضرين في نفسهِ «ما بقيت تبالي يا ابن ايوب باي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي ويسوي قماشك ابن اتابك زنكي» ومنها قتل ابي الفتح يحيى بن حنش بن اميرك الملقب بشهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوسًا امر بخنقهُ الملك الظاهر غازي بامر والده السلطان صلاح الدين — قرأ المذكور الاصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين الجيلي ثم سافر الى حلب وكان علمهُ اكثر من عقلهِ واتهموه بانهُ يعتقد معتقد الفلاسفة فافتوا بقتلهِ (سنة ٥٨٧) وكان اشدهم عليهِ زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل وكان عمره لما قتل ثمانيًا وثلاثين سنة ولهُ عدة مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب الهياكل وحكمة الاشراق وكان شاعرًا قلت وكم من عالم فقد هذه الحيوة شابًا كالسهروردي وكان ضحية التعصب فاي حق للانسان ان يلاشي البنية الانسانية والله تعالى قد خلقها في احسن تقديم ولم يرض ان يجعل نكبات الدنيا ولا نعيمها جزاء اعمالهِ اوكيف يجوز ان يقتل الانسان لاجل الدين والدين ينهي عن القتل فمن ياترى يكون المخالف لدين الله أَلقاتل ام المقتول فان دما ملايين تصرخ للانتقام من ظلمةٍ اهانوا بعملهم الدين الحق وقضوا على الله بالظلم كما نراه ونقرأ عنهُ في تواريخ الاعصار

وتوفي (سنة ٥٨٨) عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قطلومش بن ارسلان بن بيغو بن سلجوق وكان ابتداء ملكه (سنة ٥٥١) وكان ملكًا حسن السياسة عظيم الهمة عادلاً غازيًا وكان لهُ عشرة بنين وولى كلاً منهم قطرًا . فاكبرهم قطب الدين ملكشاه وكان قد ولاه ابوه سيواس اراد القبض على ابيهِ واخوته والانفراد بالسلطنة وكان صاحب ارزنكان مساعدًا لهُ فهجم يومًا على ابيهِ بقونية وقبض عليهِ واشهد انهُ جعلهُ ولي عهده ثم مضى الى حرب اخيهِ نور الدين سلطانشاه صاحب قيسارية ووالده معهُ ليظهر ان كل ذلك كان بارادة والده فخرج عسكر قيسارية لحربه فانتهز الاب فرصة الاقتتال وهرب الى سلطانشاه فاكرمهُ واعلى مكانهُ . ثم رجع ملكشاه الى قونية وخطب لنفسهِ بالسلطنة وبقي والده يتردد في البلاد من عند ولد الى ولد حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فرق لابيهِ وجمع لهُ ونهض بهِ الى قتال اخيهِ ملكشاه

فملك قونية اولاً ثم سار الى اقصرا فمرض عز الدين قلج ارسلان ومات في التاريخ المذكور فاخذه ولده الى قونية ودفنه بها واتفق وقتئذٍ موت ملكشاه فاستقر كيخسرو في ملك قونية واثبت انه ولي عهد ابيهِ فنهض ركن الدين سليمان اخو غياث المذكور وتغلب على اخيهِ واخذ منه قونية وهرب كيخسرو الى الشام مستجيرًا بالملك الظاهر صاحب حلب . ثم مات ركن الدين سليمان (سنة ٦٠٠ وخلفهُ ولده قلج ارسلان فرجع غياث الدين الى بلاد الروم وازال يد قلج ارسلان المذكور وملك بلاد الروم جميعها ثم قتل وملك بعده ابنهُ عزالدين كيكاوس بن غياث الدين ثم بعده اخوه السلطان علاء الدين كيقباذ وتوفي (سنة ٦٣٤) ثم ولده غياث الدين كيخسرو وكسره التتر (سنة ٦٤١) وتضعضع حينئذٍ ملك السلاطين السلاجقة ببلاد الروم واخذت دولتهم بالانحطاط

ثم مات غياث الدين وترك صبيين ركن الدين وعز الدين فملكا معًا مدة مديدة ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب اخوه عز الدين الى القسطنطينية وتغلب على ركن الدين معين الدين البرناواه والبلاد في الحقيقة للتتر . ثم قتل البرناواه ركن الدين واقام ابنًا لركن الدين يخطب لهُ بالسلطنة والحكم للبرناواه وهو نائب التتر

ومن حوادثها غزو شهاب الدين الغوري الهند واغتنامهُ كثيرًا وقتلهُ اكثر. وخروج طغريل السلجوقي من الحبس وكان قد اعتقلهُ قزل ارسلان بن ايلدكز من (سنة ٥٨٧) . ووفاة سنان بن سليمان بن محمد صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام واصلهُ بصري

و(في سنة ٥٨٩) توفي السلطان صلاح الدين الايوبي بدمشق وكان قد خرج متصيدًا ومعهُ اخوه الملك العادل وغاب خمسة عشر يومًا وعاد الى دمشق وودعهُ اخوهُ وذهب الى الكرك ثم ركب صلاح الدين ١٥ صفر وتلقى الحجاج وكان موكب عظيم ثم اخذتهُ حمى صفراوية وهي الطيفوسية وكان سبب موتهِ في ٢٧ صفر ليلة الاربعاء (سنة ١١٩٣–٥٨٩) ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضًا فيها

وكان الناس قد حلفوا لولده الافضل وجلس للعزاء في القلعة وكتب الملك الافضل الى اخيهِ العزيز عثمان والى اخيهِ الظاهر غازي بحلب والى عمهِ الملك العادل بالكرك ثم عمل لابيهِ تربة بقرب الجامع وكانت دارًا ونقل اليها جثتهُ (سنة ٥٩٢) وكان لذلك احتفال عظيم وانفقت ست الشام بنت ايوب اختهُ اموالاً عظيمة

وكان مولد صلاح الدين بتكريت (سنة ٥٣٢) وملك بمصر ٢٤ سنة وفي الشام ١٩ سنة وخلف سبعة عشر ولدًا ذكرًا وبنتًا واحدة واكبر اولاده نور الدين علي ولد بمصر سنة (٥٦٥) ويليهِ العزيز عثمان اصغر منهُ بنحو سنتين و بعده الظاهر صاحب حلب وتزوج البنت ابن عمها الملك الكامل

صاحب مصر وترك السلطان صلاح الدين في خزانته سبعة واربعين درهمًا لا غير وليس بشاهد أكبر من هذا على كثرة كرمهِ ولم يخلف دارًا ولا عقارًا — قال العماد الكاتب حسبت ما اطلقهُ السلطان في مدة مقامهِ بمرج عكا من خيل عراب واكاديش فكان اثني عشر الف راس وذلك غير ما اطلقهُ من اثمان الخيل المصابة في القتال ولم يكن لهُ فرس يركبهُ الا وهو موهوب او موعود بهِ ولم يوخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا في جماعة وكان صبورًا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب اصحابهِ طاهر اللسان . قال ومات بموت السلطان الرجال وفات بوفاتهِ الافضال وغاضت الايادي وفاضت الاعادي وانقطعت الارزاق وادلهمت الافاق وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزئ الاسلام بمشيد اركانهِ . اه

و بعد موت صلاح الدين استقر حال مملكة الايوبيين كما ياتي

في دمشق واعمالها . الملك الافضل نور الدين علي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب

وفي حلب واعمالها . الملك الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين المذكور

وفي الكرك والشوبك والبلاد الشرقية . الملك العادل ابو بكر سيف الدين اخو صلاح الدين

وفي حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم . الملك المنصور ناصر الدين ابن الملك المظفر تقي الدين عمر

وفي بعلبك . الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخ شاه بن شاهنشاه بن ايوب

وفي حمص والرحبة وتدمر . شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي

وفي الديار المصرية . الملك العزيز عماد الدين عثمان

وكان الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين في خدمة اخيهِ الملك الافضل و بيده بصرى وكان في خدمة هذه الدولة في الحصون من الامراء سابق الدين عثمان بن الداية (بشيزر وابي قبيس) وناصر الدين بن كورس بن خمارد كين . بصهيون وحصن برزية . وبدر الدين يلدرم ابن بهاء الدين ياروق . بتل باشر . وعز الدين سامة بكوكب وعجلون . وعز الدين ابرهيم بن شمس الدين ابن المقدم . ببعرين وكفرطاب وفامية

والملك الافضل هو ولي العهد والاكبر من اولاد صلاح الدين واستوزر ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الاثير وهو اخو عز الدين مولف التاريخ المسمى بالكامل

هذه كانت اول هيئة في المملكة الايوبية بعد السلطان صلاح الدين لكن لم يطل الامر كذلك فان ابن الاثير وزير الملك الافضل حسّن لهُ طرد امراء ابيهِ فتركوه الى اخويهِ العزيز والظاهر

ملكي مصر وحلب . وحسن الذين مضوا منهم الى مصر للملك العزيز الانفراد بالملك ووقعوا في اخيهِ الافضل وطعنوا في سياسة وزيره فمال الى رايهم وحصلت الوحشة بين الاخوين ولم تزل تلك الهيئة تتقلب حتى انتقل الملك الى الملك العادل ونزع من يد عقب صلاح الدين قال ابن الاثير صاحب التاريخ « رايت كثيرًا من ابتدا بالملك ينتقل الى غير عقبهِ فان معاوية تغلب وملك وانتقل الملك الى بني مروان بعدهُ ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك الى اخيهِ المنصور وعقبهِ ثم السامانية اول من ابتدا بالملك منهم نصر بن احمد فانتقل الملك الى اخيهِ اسمعيل وعقبهِ ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الى عقب اخيهِ ركن الدولة ثم ملك طغريل بك السلجوقي فانتقل الملك الى عقب اخيهِ داود ثم شيركوه فانتقل الملك الى ابن اخيهِ فلما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبهِ بل انتقل الى اخيهِ العادل وعقبهِ ولم يبق لاولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك اولاً واخذه الملك وعيون اهلهِ وقلوبهم متعلقة بهِ فيحرم عقبهُ ذلك »

ومن الحوادث حينئذٍ مجي الملك العادل الى دمشق واقامتهُ بها وظيفة العزا على اخيهِ ثم ذهابهُ الى بلاده التي وراء الفرات . وموت عز الدين صاحب الموصل فخلفهُ ولده ارسلان شاه في ٢٧ شعبان وكانت وفاتهُ بعد وفاة صلاح الدين بنصف سنة . وكان عز الدين مسعود قد كاتب ملوك البلاد المجاورين واتفق مع اخيهِ عماد الدين صاحب سنجار بالركوب واخذ حران ونواحيها وركبوا فمرض وعاد الى الموصل ومات ورجع معهُ مجاهد الدين قيماز وكان هذا القيم بامر ابنهِ بعده ومدة ملك عز الدين ثلاث عشرة سنة ونصف وهو من المشكورين دينًا ودنيا

ومنها قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان قد اسرف باظهار الشماتة لما مات صلاح الدين وضرب البشائر في بلادهِ وفرح فرحًا عظيمًا وعمل تختًا يجلس عليه ولقب نفسهُ السلطان المعظم صلاح الدين وسمى نفسهُ الملك العزيز وكان من مماليك ظهير الدين شاهرمن وكان لهُ خشداش اسمهُ هزار ديناري وكان ساقيًا عنده وقوي وتزوج ابنة بكتمر عيناخاتون وطمع في الملك فسلط على سيده من قتلهُ وولي بعده — واسم هزار ديناري المذكور اقسنقر ولقبهُ بدر الدين وكان لبكتمر ولد ابن سبع سنين فاعتقلهُ مع امهِ بقلعة ارزاس وملك الى ان توفي (سنة ٥٩٤) .

ومنها موت سلطان شاه بن ارسلان بن اطسز بن محمد بن انوشتكين وكان قد ملك مرو وخراسان وخلفهُ اخوهُ تكش (سنة ٥٨٩)

انقراض سلاجقة ايران (سنة ٥٩٠)

كان طغريل اخر هذه الدولة قد اعتقلهُ قزل ارسلان بن ايلدكز ثم خرج من محبسهِ (سنة

٥٨٨) واستولى على همدان وغيرها وجرى بينهُ وبين ازبك بن البهلوان بن ايلدكز وقتلغ مع اخيهِ قطلغ اينانج فانهزم ابن البهلوان واستنجد بخوارزم شاه تكش المذكور فسار خوارزم شاه علاء الدين تكش وملك الري في السنة المذكورة ثم بلغ تكش ان اخاهُ سلطان شاه قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي وعاد الى خوارزم وبقي الامر كذلك الى ان مات سلطان شاه (سنة ٥٨٩) وتسلم علاء الدين تكش مملكة اخيهِ وخزائنهُ وولى ولده محمد بن تكش نيسابور وابنهُ الاكبر ملكشاه مرو

وسار علاء الدين تكش (سنة ٥٩٠) لقتال طغريل السلجوقي والتقاه طغريل ولم يكمل جمع عسكرهُ بقرب الري وقتل طغريل في ٢٤ ربيع الاول وحمل راسهُ الى تكش فارسلهُ الى بغداد فنصب بها عدة ايام وسار تكش فملك همذان وتلك البلاد جميعها وسلم بعضها الى ابن البهلوان حليفهِ واقطع بعضها لماليكهِ ورجع الى خوارزم

وطغريل هو ابن ارسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو اخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا العجم

وبدء هذه الدولة كان (سنة ٤٢٣) واولهم كان طغريل بك ملك العراق وازال دولة بني بويه · ثم ملك بعدهُ ابن اخيهِ الب ارسلان · ثم ابنهُ ملك شاه · ثم ابن ملكشاه محمود وكان طفلاً فقامت بتدبير الملك امهُ تركان خاتون · ومات محمود وهو ابن سبع سنين وملك اخوهُ برقيارق ثم اخوهُ محمد ثم ابن محمد محمود ثم ابن محمود داود ثم طغريل بن محمد عم داود ثم اخوهُ مسعود ثم ابن اخيهِ ملكشاه بن محمود اياماً يسيرة ثم اخوهُ محمد

وبعد محمد المذكور اختلفت العساكر ونهض من السلاجقة ثلاثة ملكشاه اخو محمد المذكور · وسليمان شاه بن محمد بن السلطان ملك شاه وهو عم محمد المذكور · والثالث ارسلان شاه ابو الاخير منهم اي طغريل وكان ايلدكز مزوجاً بام ارسلان شاه المذكور ثم قتل سليمان شاه وسم ملك شاه (سنة ٥٥٥) وانفرد بالسلطنة ارسلان شاه ربيب الدكز ثم ملك بعدهُ طغريل ارسلان شاه اخرهم · وهذه الدولة كان سبب زوالها اولئك الذين قدمتهم في خدمتها لا سيما الخوارزمية فان علا الدين تكش صاحب خوارزم الذي قتل طغريل هو من ذرية انوشتكين مملوك السلجوقية كما تقدم فالشجرة انما تولد الدودة التي تميتها

وكان قد توفي شمله صاحب خورستان واختلف اولادهُ على الملك فارسل الناصر في السنة المذكورة وقيل (سنة ٥٩١) عسكراً مع وزيرهِ مؤيد الدين محمد المعروف بالقصاب الى خوزستان وحارب اهلها وملك اولاً مدينة تستر ثم سائر الحصون واخذ بني شملة ملوكها فارسلهم الى بغداد وولى الخليفة الناصر طاش تكين مجير الدين امير الحاج ثم سار الوزير الى جهات الري وجاءهُ

فطلغ اينانج بن البهلوان مهزومًا امام خوارزم شاه الذي كان غلبهُ على همذان واستولى عليها فلما وصل الوزير الى همذان اجفل خوارزمشاه عنها الى الري وملك الوزير همذان وقام في اتباع خوارزم شاه وملك كل بلد مروا بها الى الري فاجفل خوارزم شاه الى دامغان وبسطان وجرجان ورجع الوزير الى الري فاقام بها ثم انتقض قطلغ وطمع في الملك وامتنع بالري فحاصره الوزير فخرج عنهُ الى مدينة آوه فمنعهم الوزير منها ورحل في اثرهم من الري الى همذان وهناك علم ان قطلغ قصد الكرج فسار اليهِ وقتلهُ ورجع الى همذان

ثم ارسل خوارزم شاه بالنكير على الوزير في اخذ البلاد ويطلب اعادتها فلم يجبهُ فسار خوارزم شاه وقد توفي الوزير خلال ذلك (سنة ٥٩٢) فقاتل العسكر وهزمهم وملك همذان وترك ولده باصبهان وكانوا يبغضون الخوارزمية فاستدعى صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية عساكر بغداد فجهز الناصر ثانية وارسل عليهم سيف الدين طغرل فسار ونزل ظاهر اصفهان فاجفل عنها الخوارزمية وملكها طغرل واقام فيها وكان من مماليك البهلوان فلما رجع علا الدين محمد خوارزم شاه تكش الى خراسان اجتمع البهلوانية وقدموا عليهم كركجه من اعيانهم وساروا الى اصفهان فوجدوا بها عسكر الناصر وقد فارقها الخوارزمية فملكوا اصفهان وبعث كركجه الى بغداد بالطاعة وان يكون لهُ الري وساوة وقم وقاشان ويكون للناصر اصبهان وهمذان وزنجان وقزوين فاجيب الى طلبهِ وقوي امر كركجه

وكانت قد استحكمت الوحشة بين الاخوين العزيز والافضل ابني صلاح الدين فسار العزيز في عسكر مصر وحصر اخاهُ الافضل بدمشق فاستنجد الافضل عمه العادل واخاهُ الظاهر وابن عمهِ الملك المنصور صاحب حماه فساروا الى دمشق واصلحوا بينهما وعاد العزيز الى مصر. ثم اقبل الافضل بدمشق على شرب الخمر واستماع الاغاني والاوتار وقيل كان ذلك براي عمه العادل الذي كان يقول فلا خير في اللذات من دونها سترُ وفوض الافضل امر المملكة الى وزيرهِ ضياء الدين بن الاثير الجزري يدبرها برايهِ الفاسد ثم تاب وازال المنكرات ثم ركب الملك العزيز الى دمشق قاصدًا اخاهُ الملك الافضل ونزل في ارض السواد فاضطربت عليهِ العسكر وفارقهُ بعض الامراء الاسدية فرجع العزيز الى مصر وكان الافضل قد استنجد عمه الملك العادل وحضر فتبعا بعساكرهما الملك العزيز وانضم اليهما الامراء الاسدية وساروا في اثر الملك العزيز حتى وصلوا الى بلبيس (بلوزيوم) وكان الملك العادل غير راغب كل ذلك فمنع الملك الافضل عن محاربة البلد وعن اتباع اخيهِ الى مصر وارسل سرًا الى الملك العزيز يستدعي القاضي الفاضل ليصلح بين الاخوين وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن خدمتهم لما راى من فساد احوالهم فسالهُ

الملك العزيز فذهب من القاهرة الى الملك العادل وكان الصلح بين الاخوين واقام العادل بمصر عند العزيز ابن اخيهِ ليقرر امور مملكتهِ ورجع الافضل الى دمشق

وكان ضمن هذه المدة السلطان شهاب الدين الغوري ومقدم عساكره ايبك في غزوات على الهند حتى ملك (سنة ٥٩٣) قلعةً تسمى بهنكر بالامام وسار الى قلعة كوكير وبينهما نحو خمسة ايام فصالحهُ اهلها على مال ثم سار الى بلاد الهند وغنم ورجع الى غزنه

وكان انتقال الملك الافضل من الحيوة الواسعة الرافهة الى الزهد والقناعة قد ابقى الامور كلها في يدي ابن الاثير الجزري فكثر شاكوهُ واضطربت اموره فاتفق الملك العادل والملك العزيز المذكوران على نزع دمشق من يد الافضل ويستلمها العادل وتكون الخطبة والسكة للعزيز في البلاد كلها وبارحا مصر على هذا الاتفاق فعلم الملك الافضل ذلك وارسل اليهما فلك الدين اخا الملك العادل لامهِ واجتمع الملك العادل بفلك الدين واكرمهُ واظهر الاجابة الى طلبهِ واستمر الملكان سائرين حتى نزلا على دمشق وقد حصنها الملك الافضل فكاتب بعض الامراء من داخل البلد الملك العادل يعرضون عليهِ تسليم البلد فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الاربعا ٢٦ رجب من (سنة ٥٩٢) ودخل الملك العادل من باب توما والملك العزيز من باب الفرج واجاب اخيرًا الملك الافضل الى تسليم القلعة وهرب وزيره ابن الاثير في صندوق خوفًا عليهِ من القتل واُعطي للملك الافضل صرخد فسار اليها باهلهِ واستوطنها

اما اخوهُ وعاضدهُ الملك الظافر خضر فاخذت منهُ بصرى ولحق باخيهِ الملك الظاهر فاقام عندهُ بحلب ودخل الملك العزيز الى دمشق رابع شعبان نهار الاربعاء . ثم سلم دمشق الى عمهِ الملك العادل حسب الاتفاق ورحل عنها تاسع شعبان وكانت مدة الافضل ثلاث سنين وعادت الخطبة والسكة للملك العزيز وكتب الملك الافضل من صرخد للخليفة الناصر كتابًا وفي اولهِ هذان البيتان

مولاي ان ابا بكر وصاحبهُ عثمان قد غصبا بالسيف حق علي

فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى من الاواخر ما لاقى من الاولِ

فاجابهُ الامام الناصر

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنًا بالصدق يخبران اصلك طاهر

غصبوا عليًا حقهُ اذ لم يكن بعد النبي لهُ بيثرب ناصر

فاصبر فان غدًا عليهِ حسابهم وابشر فناصرك الامام الناصر

وبعد ان تملك العادل دمشق عزل ابا الهيجاء السمين من اكابر امراء بني ايوب وكان في اقطاعه بيت المقدس واعمالهُ فصار الى بغداد فاكرمهُ الناصر وبعثهُ بالعساكر الى همذان (سنة

٥٩٢) فلقي بها ازبك بن البهلوان وامير علم وابنة سطلمش وقد كاتبوا الناصر بالطاعة فداخل امير علم وقبض على ازبك وابنة فانكر الناصر ذلك على ابي الهيجاء وامره باطلاقها وبعث اليهما بالخلع فلم يامنا وفارقا ابا الهيجاء فخشي ابو الهيجاء من الناصر ودخل اربل لانة كان من اكرادها ومات قبل وصوله (ابن خلدون)

واقام كركجه من البهلوانية المقدم ذكره ببلاد الجبل واصطنع رفيقة ايدغمش ووثق بهِ فاصطنع ايدغمش المماليك وانتقض اليهِ اخر المائة السادسة وحاربة وقتلة واستولى على البلاد ونصب ازبك بن البهلوان ملكًا وكفلة ثم توفي طاش تكين امير خوزستان (سنة ٦٠٢) وولى الناصر مكانة صهره سنجر وهو من مواليهِ وصار سنجر (سنة ٦٠٣) الى جبال تركسان بين فارس وعمان واصبهان وخوزستان وصاحبها ابو طاهر وكان للناصر مولى اسمهُ قشتمر من اكابر مواليهِ ساءهُ وزير الدولة ببعض الاحوال فلحق بابي طاهر المذكور فاكرمهُ وزوجهُ بابنتهِ ثم مات ابو طاهر فاطاع اهل تلك الولاية قشتمر وملك عليهم فارسل الناصر الى سنجر صاحب خورستان ان يعضده بالعساكر فسار اليهِ كما ذكر وبذل لهُ قشتمر الطاعة على البعد فلم يقبل منهُ فلقيهُ وقاتلهُ فانهزم سنجر وقوي قشتمر على امره وارسل الى ابن كلجا صاحب فارس وايدغمش صاحب الجبل واتفق معهما على الناصر واستمر حالهُ

هذا في المشرق اما في المغرب فان الفونس ملك الافرنج بطليطلة كتب (سنة ٥٩١) الى يعقوب بن يوسف عبد المومن كتابًا يقول فيهِ « انك امير المومنين ولا يخفى عليك ما هم عليهِ روساء الاندلس من التخاذل واهمال الرعية واشتغالهم بالراحة فانا اسومهم الخسف واخلي الديار واسبي الذراري وامثل بالكهول واقتل الشبان ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم وانت تعتقد ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والان نخفف عنكم فنحن نقاتل عددًا منكم بواحد منا ثم بلغني عنك انك اخذت بالاحتفال وتمطل نفسك عامًا بعد عام تقدم رجلاً وتوخر الاخرى ولا ادري أَلجبن ابطأ بك ام التكذيب بما انزل عليك وانا اقول لك ما فيهِ المصلحة ان تتوجه بجملة من عندك في الشواني والمراكب واجوز اليك بجملتي وابارزك في اعز الاماكن عندك فان كانت لك فغنيمة عظيمة وان كانت لي اليد العليا عليك استحقيت ملك الملتين والتقدم على القبيلتين » فلما قرا يعقوب كتابهُ جمع العساكر وعبر المجاز الى الاندلس واقتتلوا اقتتالاً عنيدًا فكانت الدائرة اولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا اقبح هزيمة ثم رجع الفونس الى بلاده وركب بغلاً وقسم انهُ لا يركب فرسًا حتى تنصرهُ ملوك فرنجه فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى ان ملكوا اكثر مدن الاندلس (ابو الفرج)

و(في سنة ٥٩٣) ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وتوفي

سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن ايوب صاحب اليمن وخلفهُ ولده الملك العزيز اسمعيل وكان ظالمًا يشتري مال التجار ويبيعهُ كيف اراد وجمع من الاموال ما لا يحصى وكان يسبك الذهب ويجعلهُ كالطاحون ويدخره

و(في سنة ٥٩٤) توفي عماد الدين زنكي اقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والبرقه وقام بعده ابنهُ قطب الدين محمد وملك نور الدين مدينة نصيبين

وفيها قصد خوارزم شاه بخارا وكان قد ملكها الخطا فنازلها وحصرها وامتنع اهلها وقاتلوه مع الخطا لما راوا من حسن سيرتهم معهم حتى انهم اخذوا كلبًا اعوَر والبسوه قبا وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه لانهُ كان اعور وطافوا بهِ على السور ثم القوه في منجنيق الى العسكر وقالوا هذا سلطانكم ولم يزل هذا دابهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد ايام يسيرة عنوة وعفا عن اهلهِ واحسن اليهم

وفيها حصر الملك العادل ابن ايوب قلعة ماردين وكانت لحسام الدين يوسف ارسلان وكان صبيًا فسلم بعض اهلها الربض مخامرة فنهب العسكر اهلها . ولما تسلم العادل الربض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقي عليها الى ان رحل عنها (سنة ٥٩٥)

وفيها وصل جمع عظيم من الفرنج الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت . وسار الملك العادل ونزل بتل العجول واتتهُ النجدة من مصر ووصل اليهِ سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس وسار الملك العادل الى يافا وهجمها بالسيف وملكها وقتل المقاتلة وكان هذا ثالث فتح لها . ونازلت الفرنج تبنين فسار اليهم الملك العزيز صاحب مصر بنفسهِ واجتمع بعمهِ الملك العادل على تبنين ورحل الفرنج الى صور وعاد العزيز الى مصر وترك العسكر لعمهِ العادل وامر الحرب والصلح ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين وعاد العادل الى دمشق

ثم صار العادل الى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذٍ يوسف ارسلان بن ايلغازي بن البي بن تمرتاش من ايلغازي بن ارتق وكان الامر لمملوكهِ البقش وهو صورة

وفيها توفي بدر الدين اقسنقر هزار ديناري الذي تملك خلاط (سنة ٥٨٩) واستولى بعده خشداشهُ قتلغ الارمني الاصل فاجتمع الناس بعد سبعة ايام وقتلوا الخشداشي المذكور واتفق كبراء الدولة واحضروا محمد بن بكتمر من اعتقالهِ بقلعة ارزاس واقاموه ملكًا ولقبوه بالملك المنصور وقام بتدبير امره شجاع الدين قتلغ الدوادار وكان قفجاقيًا وبقي محمد المذكور الى (سنة ٦٠٢) ثم قبض على قتلغ وقتلهُ فخرج عليهِ مملوك لشاهرمن يقال لهُ عز الدين بلبان واتفق مع العسكر وقبضوا على محمد بن بكتمر وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعة وقالوا وقع وبقي بلبان دون السنة وقتلهُ بعض اصحاب طغريل بن قلج ارسلان شاه صاحب ارزن وقصد طغريل المذكور ان يتسلم خلاط

فلم يجبهُ اهلها الى ذلك وعصوا عليهِ فعاد الى ارزن ثم وصل الملك الاوحد الايوبي واخذها (سنة ٦٠٤) وملكها نحو ثمان سنين

وتوفي (سنة ٥٩٥) الملك العزيز ابن ايوب صاحب مصر وكان عادلاً رافقًا بالرعية وكان الغالب على دولتهِ فخر الدين جهاركس فاقام في الملك ولده محمد ولقب بالملك المنصور واتفق الامراء مع القاضي الفاضل على احضار الملك الافضل من صرخد ليملكوهُ كاتابك الملك المنصور وكان عمر المنصور تسع سنين وشهورًا . وكان سفر الافضل متنكرًا خوفًا من عمهِ الملك العادل في تسعة عشر نفرًا ووصل الى القاهرة وخرج الملك المنصور للقائهِ وترجل لهُ الملك الافضل ودخل الى دار الوزارة وكانت مقر السلطنة . اما جهاركس فسار الى الشام وتبعهُ عدة وكاتبوا الملك العادل وهو يحاصر ماردين واشار الملك الظاهر صاحب حلب على اخيهِ الملك الافضل بقصد دمشق واخذها من العادل فبرز الملك الافضل من مصر وسار الى دمشق وبلغ العادل ذلك فترك حصار ماردين لولده الكامل وسار وسبق الافضل ودخل دمشق قبلهُ بيومين ونزل الملك الافضل على دمشق في ١٢ شعبان وزحف في الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكر الافضل المدينة حتى وصل الى باب البريد ولم يمدهم العسكر وتكاثر عليهم جند العادل واخرجوهم ثم تخاذل العسكر فتاخر الافضل الى ذيل عقبة الكسوة . ثم وصل الى الافضل اخوهُ الظاهر فعاد الى مضايقة دمشق ودام الحصار عليها وقلت الاقوات عند الملك العادل وكان قد عزم العادل على تسليم البلد لهما ثم وقع بين الاخوين اختلاف (سنة ٥٩٦) وافترقا وذلك انهُ كان للملك الظاهر مملوك يحبهُ اسمهُ ايبك ففقد ووجد عليهِ وجدًا عظيمًا — وتوهم انهُ دخل دمشق فارسل من تكشف خبره وبلغ ذلك الملك العادل فارسل من يخبره بان مملوكه كان قد افسده محمود بن الشكري وحملهُ الى اخيهِ الافضل فقبض الظاهر على ابن الشكري وظهر المملوك عنده فكان ذلك سبب الخلاف وظهر الفشل بين العسكر وتاخر الملكان (اللوطيان) عن دمشق واقاما ببرج الصفر الى اواخر صفر ثم سارا الى راس الماء ليقيما بهِ الى سلخ الشتا ثم سار كل منهما الى مكانهِ

ثم خرج الملك العادل من دمشق واتبع الملك الافضل الى مصر ولما وصل الافضل فرق عساكره للراحة وادركهُ عمهُ فخرج اليهِ بن بقي وتصافا بالسائح فانكسر الافضل الى القاهرة ونازل العادل القاهرة ثمانية ايام فاجاب الافضل الى تسليمها على ان يعوضهُ عنها ميافارقين وحاني وسميساط فاجيب اليهِ ولم تعطَ لهُ

ودخل العادل القاهرة واقام بها على انهُ اتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان . ثم ازالهُ واستقل ولما استوثق لهُ الملك ارسل اليهِ الملك المنصور صاحب حماة يعتذر اليهِ عما توقع من اخذه بعرين من ابن المقدم فعذره وامرهُ بردها عليهِ فاعتذر لهُ بقربها من حماة ونزل لهُ عن منبج وقلعة

نجم ورضي ابن المقدم بذلك وابن المقدم هذا هو عز الدين ابرهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم وكان له فامية وكفرطاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة

وكاتب الملك الظاهر صاحب حلب وصالح عمه العادل وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه وتعهد له بخمس مئة فارس من خيار عسكر حلب يخدمونه عند ما يخرج العادل الى البيكار وكان النيل تلك السنة اربع عشرة ذراعاً لا غير وهذا من النوادر في نقصه . وتوفي عبد الرحيم البيساني القاضي الافضل وعمره نحو سبعين سنة في ١٧ ربيع الاخر (سنة ٥٩٦)

وفيها في رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن ارسلان وولي ملك خوارزم ابنه قطب الدين ولقب علا الدين لقب ابيه . وهرب ابن اخيه هندوخان بن ملكشاه بن تكش الى غياث الدين ملك الغورية فاكرمه ووعده بالنصر

و(في سنة ٥٩٧) رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان مدينة ملطية وكانت لاخيه معز الدين قيصر شاه فصار اليه وحصرها اياماً وملكها وسار منها الى ازرن الروم وكانت لولد الملك محمد بن صليق وهم بيت قديم قد ملكوا ارزن الروم فلما قاربها ركن الدين خرج صاحبها اليه ثقة به ليقرر الصلح على قاعدة يوثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده واخذ البلد وهذا كان اخر اهل بيته

وفيها توفي عز الدين ابرهيم من بني المقدم وصارت البلاد بعده لاخيه شمس الدين عبد الملك واستقر بمنبج . ثم سار اليه الملك الظاهر صاحب حلب وملكها وحصر القلعة فنزل عبد الملك بالامان فاعتقله وملك القلعة وسار منها الى قلعة نجم وبها نائب ابن المقدم وحصرها وملكها وارسل الى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه ضد الملك العادل فاعتذر له بما في عنقه من اليمين للعادل فسار الى المعرة واقطع بلادها واخذ كفرطاب وكانت لابن المقدم ثم الى فامية وبها قراقوش نائب المقدم وارسل الملك الظاهر فاحضر ابن المقدم من حلب ومعه اصحابه وضربهم قدام قرواش ليسلم فامية فامتنع فامر الظاهر بان يضرب ابن المقدم ضرباً شديداً وهو يستغيث فامر قراقوش فضربت النقارات لكي لا يسمع اهل البلد صراخه ولم يسلم القلعة . فرحل عنها وسار الى حماة وبعد حصار طويل لم يقدر على اخذها وصالح الملك المنصور على مال بجملة المنصور اليه قيل ثلثون الف دينار صورية ثم رحل الظاهر الى دمشق وبها الملك المعظم بن العادل فنازلها هو واخوه الملك الافضل وانحاز اليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الامراء الصلاحية واستقرت القاعدة بين الافضل والظاهر على ان يستلم الافضل دمشق ثم يسيران الى مصر وياخذانها ويتسلمها الافضل ويسلم دمشق الى الظاهر وهكذا تكون الشام للظاهر ومصر

للافضل

وكان قد تاخر عنها من الامراء الصلاحية فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجه فارسل الافضل وسلم صرخد الى قراجة ونقل والدته واهلهُ الى حمص عند شيركوه ثم بلغ العادل حصار الاخوين دمشق فخرج بعساكر مصر الى نابلس ولم يجسر على قتالها ثم اختلف الاخوان وطمع الملك الظاهر واراد استلام دمشق حالاً وتفرقت كلمتها وعساكرها (سنة ٥٩٨)

وكانت هيئة الدولة الايوبية حينئذٍ الملك العادل بالديار المصرية وعنده ابنهُ الملك الكامل محمد وهو نائبهُ . والملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل بدمشق . وابرهيم بن العادل بالشرق . والملك الاوحد نجم الدين ايوب بن العادل بميا فارقين

وفيها توفي احمد الدين الكاتب محمد بن عبد الله بن حامد الاصفهاني كان فاضلاً في الفقه والاداب والخلاف والتاريخ وكتب لنور الدين وصلاح الدين وله من التصانيف البرق الشامي وفريدة القصر

وفيها ركب غياث الدين ملك الغور واستدعى اخاه شهاب الدين من غزنة وسارا الى خراسان في نجدة هندوخان المقدم ذكرهُ واستولى غياث الدين على ما كان لخوارزم شاه بخراسان وسلم مرو الى هندوخان بن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش ثم استولى على سرخس وطوس ونيسابور وتوجه الى بلادهِ وصار اخوهُ شهاب الدين الى الهند فغنم وفتح كهربالة وهي من اعظم البلاد ورجع وفيها توفي سقمان الارتقي صاحب آمد وحصن كيفا واستولى مملوكهُ اياس فلم ينتظم لهُ حال فاتوا باخيهِ محمود وكان اخوهُ يبغضهُ وقد ابعدهُ الى حصن منصور وملكوهُ بعدهُ

وفيها كان غلا شديد بمصر ونقص في النيل وحدث زلزلة بالجزيرة والشام والسواحل وهدمت مدنًا كثيرة و(في سنة ٥٩٨) اقطع العادل ميمون القصري قلعة اعزاز وخرب الملك الظاهر قلعة منبج واقطع منبج لعماد الدين بن المشطوب واستقر الصلح بين الملك العادل والظاهر ورجع العادل الى دمشق واستقر بها وانتظمت الممالك الشرقية والشامية والديار المصرية كلها في سلك ملكهِ وخطب لهُ وضربت السكة باسمهِ

وفيها استرجع خوارزم شاه محمد ما اخذ الغورية من خراسان وتوفي فلك الدين اخو الملك العادل لامهِ ولهُ تنسب المدرسة الفلكية بدمشق

وقد سبق تملك اسمعيل بن سيف الاسلام الايوبي اليمن بعد موت ابيهِ وكان فيهِ هوج وخبط فادعى انهُ اموي ولبس الخضرة وخطب بنفسهِ ولبس ثياب الخلافة وكان طول الكم نحو عشرين شبرًا وخرج من طاعتهِ جماعة من مماليك ابيهِ واتفق معهم جماعة من الاكراد وقتلوهُ واقاموا لهُ اخًا صغيرًا وسموهُ الناصر واقام باتابكيته مملوك والده سيف الدين سنقر ثم مات سنقر بعد اربع سنين

وتزوج بام الناصر امير من امراء الدولة يسمى غازي بن جبريل واقام باتابكية الناصر ثم سمهٔ وتملك مكانهُ ثم قتلهُ جماعة من العرب لانهُ قتل الناصر وخلت اليمن من سلطان فتغلبت ام الناصر على زبيد واحرزت عندها الاموال وكانت تنتظر احدًا من بني ايوب لتتزوج بهِ وتملكهُ البلاد وكان للمظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ولد اسمهُ سعد الدين شاهنشاه وكان لشاهنشاه ابن اسمهُ سليمان فقيرًا يحمل الركوة على كتفهِ ويرافق الفقراء. وكانت ام الناصر قد ارسلت بعض غلمانها الى مكة في موسم الحاج لياتيها باخبار مصر والشام فوجدوا سليمان المذكور فاحضروهُ من جملة الخبر ففرحت بهِ ام الناصر وخلعت عليهِ وملكتهُ اليمن فكان ظالمًا جوارًا وجفا زوجتهُ ام ناصر

وفيها سار الملك المنصور صاحب حماة الى بعرين وجاءهُ صاحب بعلبك وصاحب حمص بامر العادل وحاربوا الفرنج في حصن الاكراد وطرابلس وغيرها وانهزم الفرنج وفيها يمدح بهاء الدين اسعد بن يحيى السنجاري الملك المنصور بقصيدة منها

ما لذة العيش الا صوت معمعةٍ ينال فيها المنى بالبيض والاسلِ

يا ايها الملك المنصور نصح فتى لم يلوهِ عن وفاء كثرة العذلِ

اعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك وجد فالملك محتاج الى رجلِ

يا اوحد العصر ياخير الملوك ومن فات البرية من حاف ومنتعلِ

ثم خرجوا من حصن الاكراد والمرقب والاسبيتار وانضم اليهم جموع من السواحل واتقعوا معهُ ثانية ٢١ رمضان فانتصر الملك المنصور وتقهقر الفرنج

وفي هذه السنة انتزع الملك العادل من الملك الافضل راس العين وسروج وقلعة نجم ولم يترك في يدهِ غير سميساط فارسل الملك الافضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة فارسل معها القاضي زين الدين ابن الهندي يشفع بامرها عند الملك العادل فرجعت خائبة ورد شفاعة النساء يحسب عارًا عند العرب فلم يشكر الناس العادل لذلك كما انهم لم يشكروا صلاح الدين اخاهُ عندما رفض رجاء نساء بيت الاتابك ومن جملتهن بنت نور الدين محمود في ابقاء الموصل على عز الدين مسعود اما الملك الافضل فذهب واقام بسميساط وقطع خطبة عمهِ وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم

وفيها توفي غياث الدين ابو الفتح محمد بن سام بن الحسين الغوري صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها وكان اخوهُ شهاب الدين بطوس عازمًا على قصد خوارزم وخلف غياث الدين ابنًا اسمهُ محمود ولقب غياث الدين كابيهِ. وكان غياث الدين الاب مظفرًا منصورًا لم ينهزم لهُ راية قط وكان لهُ دهاء ومكر فاضلاً غزير الادب بليغًا حسن الخط وكان دينًا ينسخ المصاحف

ويوقفها على المدارس التي بناها

وفيها في المحرم سير الملك العادل عسكرًا مع ولدهِ الملك الاشرف موسى الى ماردين فحصرها وشحنوا على اعمالها واقام الاشرف ولم يحصل لهُ غرض فدخل الملك الظاهر صاحب حلب في الصلح بينهم وارسل الى عمهِ العادل فاجابهُ اليهِ على قاعدة ان يحمل لهُ صاحب ماردين مائة وخمسين الف دينار والدينار احد عشر قيراطًا ويضرب اسمهُ على السكة ويكون عسكره في خدمتهِ الى وقت طلبهِ

وفيها اخذ الكرج مدينة دوين من اذربيجان من يد ابن البهلوان وكان مغفلاً كثير الفساد وشرب الخمر ولم ينجع فيهِ توبيخ امرائهِ وكانت الهدنة بين الافرنج وبين الملك المنصور ونازل ابن لاوون ملك الارمن انطاكية فتحرك عليهِ الملك الظاهر صاحب حلب ووصل الى حارم فرحل ابن لاوون عنها

والان قد بلغنا الى اخر المائة السادسة من الهجرة وفيها اخذ الفرنج الصليبيون مدينة القسطنطينية عاصمة قياصرة الروم . وقد تركنا تفاصيل كل ذلك وظهور التتار واستيلائهم على البلاد وتولد الدولة العثمانية وبقية حروب الصليب وما اشبه ذلك من الامور المهمة الحادثة في النصف الاول من القرن السابع للجزء الثالث من هذا التاريخ ونكتفي بان نذكر خلاصة مستوفية لنهاية هذا الجزء نضمنها ملخص ما كان ويكون الى خراب بغداد وانقراض الدولة العباسية وامامتهم في مصر بعد ذلك في فصل اخير

* * *

فصل

في خلاصة تاريخية جغرافية لما تقدم من القرون والبلاد

نحن على راس المائة السادسة من الهجرة وقد طوينا منذ تركنا الراضي العباسي من الزمان مائتين وخمسًا وسبعين سنة ومن المكان نحو ثلث المعمورة

فاننا اجتزنا من الجهة الواحدة العربية الى الشام وفلسطين الى مصر ثم توغلنا في افريقية والمغرب الشرقي والاوسط والاقصى وسمعنا تلاطم امواج الاوقيانس الاتلانتكي وتيار بوغاز جبل طارق شمالاً وغربًا وتركنا على جنوبنا الصحراء الكبيرة وعلى شرقنا بلاد مصر والنوبة والبحر المتوسط خارطين نحو الفين وستمائة ميل طولاً بخمسمائة وخمسين ميلاً عرضًا وهي ما تعرفها التواريخ القديمة بارض البربر حيث وطئت اقدم اجدادنا الفينيقيين ٨٨٦ سنة قبل المسيح واختطوا مدينة قرطاجنة الشهيرة بنواحي تونس المزاحمة لرومة العظمى في القوة والغنى الى ان سقطت امام سطوة تلك الامبراطورية

وصارت احدى عمالاتها ثم تنازعتها ايدي الفاتحين من غوط ووندال وغيرهم قبلنا . واندفعنا من الجهة الاخرى الى النواحي الاسيوية فجبنا البلاد والمفاوز الشاسعة من ممالك فارس الى التتارية والهند وبلاد الروم اضعافاً من المسافات فاخترنا الان ان نذكر مواقع هذه الممالك ليرى ما وصلت اليه هذه الامة . ولنستهل ببلاد البربر

اولاً . قد اصطلح الجغرافيون الحاليون ان يذكروا هذه البلاد تحت اسم . برقة . وفزان . وطرابلس الغرب . وتونس . والجزائر . ومراكش . وفاس واعمالهنّ

اما برقة فهي بنطابولس القديمة اي ذات المدن الخمس الى جانب جبال جردية . ومنها مدينة ابن غازي . وواحة اوجلة . ودرتاد ميّ . ثم الى غربي برقة لجهة البحر بلاد طرابلس . والى جنوبي طرابلس فزان . والى غربيها تونس وبلاد الجريد وهي الناحية الجنوبية من بلاد المغرب لجهة الصحراء الكبيرة

ومن بلاد طرابلس مدينة لبيد ومسوراتا . وقاعدة فزان مدينة مرزوق واليها تاتي القوافل من ابن غازي وطرابلس وواحة غذامس والقاهرة والسودان . وفي واحة غذامس آثار عظيمة من عهد الرومانيين ونحو ثنتين وتسعين قرية

وبلاد تونس فهي ما يعرفها التاريخ القديم بافريقية . على غربيها بلاد الجزائر . ومن اقسامها بجاية والقيروان . ومن مدنها رقادة وصفاقس بمقابلة جزيرة مالطة — والجزائر المدعوة جزيرة مزغنان لها عدة انهر تخرج من جبال اطلس الخارطة هذه القارة الى قسمين . . شمالي الى جهة البحر المتوسط . . وجنوبي الى جهة الصحراء الكبيرة وتصب في البحر المذكور اعظمها نهر سلف . ومن مدنها (مستغانم) و (قسطنطيسه) و (تلمسان) . وقد اشتهرت رجال هذه البلاد بالجراءة والاقدام برّاً وبحرّاً ولها شاهد كاف من نفسها في افعال اميرها الحسيب السلطان عبد القادر الحسني بحروبه مع دولة فرنسا الفخيمة

اما مراكش فهي الى جنوبي الاقيانس الاتلانتيكي وبوغاز جبل طارق والبحر المتوسط . والى غربي تلمسان وشمالي الصحراء وشرقي الاوقيانوس المذكور . وهي عبارة عن ثلاث مئة الف ميل مربع وتقسم الى عمالات اربع عمالة فاس الى الشمال . وعمالة مراكش في الاواسط . وعمالة سوس الى الجنوب وعمالة صقلية الى الجنوب الشرقي . ومن شوامخ جبالها جبل درن ولا يزال عليه الثلج ويسكن في بعض نواحيه امم لا يحصيهم الا خالقهم . ويتصل بهذا الجبل شرقاً جبال سوس ونول على سمتها شرقاً بلاد درعة وبلاد سجلماسة

وهذا الجبل مطل على غالب البلاد وفي غربيه امم المصامدة وهنتانة ومشكورة ونحوهم وقبائل صنهاجة وبعض زناتة ويتصل به من هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل امم كتامة ومن

بعد ذلك امم اخرى من البربر. والى غربي هذا الجبل بلاد المغرب الاقصى وفي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش المذكورة و(اغمات) و(تادلا) وعلى الاوقيانس مدينة (سلا) وفي الجوف من بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازه وقصركتامة وعلى ساحل البحر المذكور اصيلا والعرائش

ومن جبالها ايضًا جبل (غمارة) و(مديونة) وجبل (يسر) وجبل (شريش) — ومن انهرها نهر (السوس) ونهر (ملوية) ونهر (سجلماسة) ونهر (الفلفل) المار بمكناسة وعليهِ

انظر الى مكناسة الزيتونِ بين الاباطح والجبال الجونِ

وكأن فلفل بينهنّ مهندٌ يهتز بين تعطفٍ وسكونِ

ومن فرضات مراكش (مغادور) (وطنجة) وسبتة ونحوها

فاذا عطفنا من هناك الى جهة الصحراء الكبيرة اتينا الى بقعة واسعة كثيرة الرمال على شمالها المغرب وعلى شرقها مصر والنوبة وعلى جنوبها السودان وسنيغامبيه

ومن اجناد هذه البلاد بلد (هنين) و(وهران) وبلد (اشير) وبلد (المسيلة) (والزاب) وقاعدة هذه (بسكرة) تحت جبل اوراس ثم ودّان وتبسة واويس وبلد بونة ثم سوسة ثم المهدية و(توزر) و(قفصة) ونفزاوة وجبل (سلات) و(سبيطلة) وجبل (دمر) و(نقرة) من قبائل هوارة المتصلة بجبل درن وفي مقابلة غذامس سويقة ابن مشكورة وعلى البحر في جنوبها مجالات العرب في ارض ودّان

وقفت بذي ودّان انشد ناقتي وما ان بها لي من قلوص ولا بكر

ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى الشرق ونحو ذلك من المدن والقرى المنبثة في اطرافها واوساطها

هذه كلها كانت ولم تزل سكنًا لامم وقبائل عديدة وليس بها حجر او نبات او حيوان الا وقدِ دفع ما عليهِ من الجزية للحروب الفتحية والاهلية

فلا النفس ملتها ولا العين تنتهي اليها سوى في الطرف عنها فترجع

رايتها فما ترتد عنها سآمة ترى بدلاً منها بهِ النفس تقنعُ

هذه هي التي فتح منها ابن ابي السرح سبيطلة وقتل ابن الزبير جرجير واستلم ابنته وخلص ابن ابي السرح المذكور من مخالبه في خلافة عثمان بن عفان ثم اخذ ابن خديج السكوني جلولاء. وتوغل فيها عقبة بن نافع وبني القيروان . وغزا ابو المهاجر دينار الى تلمسان في خلافة معاوية منها (لميس) و باغاية واذنة التي فتحها عقبة ووصل الى المغرب الاقصى فاطاعه يليان ملك غمارة وطنجة وهجم وليلى عند زرهون وبلاد المصامدة والسوس وقاتل مسوفة من اهل اللثام فيما وراء ذلك ووقف على الاوقيانوس واستعزبما فعل ثم قتل في رجوعهِ في عهد يزيد فيها انهزم زهير بن قيس

هزمة كسيلة ملك اروبة بيس من اطراف القيروان وقتله في عهد الوليد بن مروان . واليها كانت غزوة حسان الغساني ففتح قرطاجنة وهزم الروم والفرنجة في صفطورة وبنزرت حتى باجة وبونة وحارب الكاهنة ملكة جرارة بجبل اوراس فانهزم واخذ خالد بن يزيد القيسي اسيرًا . ورجع وقتئذٍ المسلمون الى برقة ولبثوا ينتظرون المدد الى (سنة ٧٤) ثم زحف غسان المذكور ودس الى خالد وعرف اخبار اعدائهِ وقاتل الملكة المذكورة وقتلها واخذ بلادها ودوخ في تلك النواحي ووضع الخراج علي البربر وعاد الى القيروان

هذه هي التي صار اليها موسى بن نصير في عهد الوليد بن عبد الملك فغزا ابنهُ عبد الله جزيرة ميورقة وابنهُ مروان غيراماكن وتوغل هو في داخلية البلاد وغنموا ما لا يحصى ثم غزا درعة وبعث بابنهِ الى السوس واخضع البربر لسلطانهِ واخذ عليهم الرهائن ومن هناك ارسل طارق بن زياد فحارب القوط وظفر بهم ثم لحق بهِ وفتحا الاندلس ونحوها وقفلا الى دمشق احدهما موسى ليموت ظلمًا والاخر ليكون رفيقًا هذه هي التي قُتل فيها يزيد بن مسلم ومهد ارجاءها بعدهُ بشر الكلبي وغزا صقلية في عهد يزيد بن عبد الملك وفيها بنى خليفتهُ عبيد الله بن الحجاب جامع تونس ودارها الصناعية لانشاء المراكب وبعث الى طنجة ولدهُ اسمعيل وعمر بن عبيد الله المرادي والى الاندلس عقبة القيسي وارسل حبيب بن عقبة غازيًا فبلغ السوس الاقصى وارض السودان واصاب كثيرًا من مغانم الذهب والفضة ثم اغزاهُ الى صقلية (سنة ٧٤٠—١٢٢) فنازل سرقوسه واستولى على بعض اماكن من الجزيرة وضرب عليهم الخراج ثم وقع الخلاف بين ميسرة المظفري وبين العامل المذكور عبيد الله بسبب ظلم محمد ولدهِ وجاهر المظفري بدعوة الصفرية من الخوارج وقتل محمدًا وتولي طنجة وبايعهُ البربر وخاطبوهُ باميرالمومنين وكان خالد الزناتي من حزبهِ وحصل قتال عظيم بين الاحزاب وانتقضت افريقية على ابن الحجاب فاستدعاهُ هشام وولى مكانهُ كلثوم بن عياض واستقر الخلاف بين اولئك الامراء والبربر الى ان قام الوليد بن يزيد على تخت الشام فارسل عبد الرحمن فاستقل بملك افريقية .

ثم ثارت الخوارج بكل جهة فزحف عليهم عبد الرحمن وولده الياس وظفروا بهم وغزا تلمسان وظفر وارسل جيشًا في البحر الى صقلية وسردنية واثخنوا في الافرنج وضربوا على بعضهم الخراج . ثم انقضت خلافة الامويين بالشام ودال الامر للسفاح من العباسيين ثم قتل عبد الرحمن وبقي اخوه الياس وولده حبيب في المنازعة على تلك الاطراف الى ان قتل الياس ودخل حبيب القيروان والتجأ عبد الوارث اخو عبد الرحمن الى قبائل وربجومة فاجاره عاصم بن جميل اميرهم وقاتلهم حبيب بن عبد الرحمن فهزموهُ وقوي امر ابن جميل ولحق حبيب بجبل اوراس فاجاره اهلهُ وقاتلوا

ابن جميل وقتلوه فقام عوضهُ ابن ابي الجعد وقتل حبيباً واستولت وربجومة على افريقية وساروا بالعسف والظلم وشبت الفتن بينهم ووفد على المنصور اناس من افريقية يشكون امرهم اليه ضد وربجومة فارسل واليًا على مصر محمد بن الاشعث الخزاعي وهذا ارسل الى افريقية ابن الاحوص فحاربهم وفتح طرابلس واستعمل عليها المخارق الطائي وضبط امور افريقية وولى على طبنه والزاب الاغلب بن سالم التميمي ثم قفل ابن الاشعث الى المشرق واستعمل المنصور الاغلب بن سالم المذكور فقدم على القيروان وسكن الناس هناك

ثم خرج عليه ابو قرة اليفرني وانجلى الامر بقتل الاغلب فارسل المنصور عمر بن حفص فضبطها ثلاث سنوات ثم هاجت البرابرة وكانت فتنة عظيمة فارسل المنصور يزيد بن ابي حاتم بن قبيصة في ستين الفًا واشتدت الفتن والقتال بين الاحزاب الى ان قام هرون الرشيد وقد قتل يزيد بن ابي حاتم فولي هرون اخاه روحًا وكانت الفتنة قد هجعت وذلت الخوارج · ثم مات نوح واستعمل ابنهُ الفضل مكانهُ واشتدت الفتنة في زمانهِ وقتل الفضل وارسل الرشيد هرثمة بن اعين فقرر امورها وبنى القصر الكبير بالمنستير واقام سور طرابلس وكان ابرهيم بن الاغلب عاملاً على الزاب وطبنه ثم استعفى هرثمة لما راى كثرة الثوار والخلاف فعفي ورجع الى العراق

هذه هي التي ارسل الرشيد اليها محمد الكعبي فوقع في عهده الخلاف ولكنهُ ظفر على الثوار والخوارج وثبتت اقدامهُ في الولاية على كره من الشعب · وكان ابن الاغلب ابرهيم محبوبًا فطلب الولاية من الرشيد على ان يترك المائة الف دينارا التي كانت تاخذها افريقية من مصر وتعهد للخليفة باربعين الف دينار غيرها فولاه الرشيد وصرف ابرهيم عنايتهُ الى تمهيد المغرب الاقصى. هنالك ظهرت وقتئذٍ دعوة الادارسة وابتدأت دولة الاغلبية في القيروان وبني ادريس في المغرب · ثم الدولة العبيدية من عبيد الله المهدي — ثم ابن كيراد الخارجي المعروف بصاحب الحمار · ودولة الكلبيين في صقلية والدولة الزيرية في تونس بعد انتقال العبيديين الى مصر ودول من المدرارية وزناته ومغراوة وصنهاجة ثم الملثمون والموحدون وغيرهم من بني يفرن وبني يعلي وبني خزر مثل امراء اغمات وبني سجاس وريغة والاغواط وبني وراء من مغراوة · وبني بريان اخونهم ووجديجن واوغمرت من قبائل زناته · وبني واركلا من بطونهم وبني دمر من بطون واركلا وبني برزال من بطون دمر وبني ومانو وبني يلومي كل ذلك من الطبقة الاولى ثم كان لبني زناته وبني منديل من مغراوة من الطبقه الثانية ولبني عبد الواد منهم وليغراسن بن ريان وللامير ابي زكريا وبني مرين والدعوة الحفصية ودولة ابي حمو وبني حماد ونحوهم ملكٌ وحروب منهم بالاستقلال ومنهم بالانحياز الى احدى الدول المذكورة والى دولة الامويين بالاندلس وكذلك العرب الهلاليون وبنو سليم وعرب الاثبج

ونحوهم والافرنج والاخبار في ذلك طويلة ومخضبة بالدماء

ثانيًا الاندلس التي فتحها موسى وطارق وصارت احدى الممالك العربية في عهد بني امية وقام فيها اولاً عشرون اميرًا من عمالهم بالتوالي الى ان نكبت الدولة المذكورة ونجا منهم عبد الرحمن الداخل واسس بها دولة عظيمة لبثت الى ما بعد المائة الرابعة من الهجرة

وقد شاعت تلك البلاد بالغنى والراحة والمجد والعلوم وبالحروب التي مزقت شمل تلك الامة ورقمت آثار الخراب بدم الاجيال على مسافات شاسعة منها

هناك قرطبة دار الولاية المروانية ذات الالف وستمائة جامع والثمانين الف حانوت وعدة من القصور الفاخرة ما بينها الزهراء والزاهرة والدمشق وقصر الرصافة وقصر قرطبة وقصر الاقواس ونحوها كثير وعلى نهرها الجميل القنطرة الفائقة الصنعة تزين ذاك الوادي الفسيح

باربع فاقت الامصار قرطبةٌ منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم اعظم شي وهو رابعها

هناك اشبيلية المدعوة حمص الاندلس وفيها قصر الشراحيب البهج الفاخر

وسلم علي قصر الشراحيب عن فتى له ابدًا شوق الى ذلك القصرِ

وبها كثيرٌ من الكور الجليلة والمدن الآهلة والحصون الشريفة . والنهر الذي يمر بها يصعد المدُّ فيهِ اثنين وسبعين ميلاً وفيهِ يقول ابن سفر

شق النسيم عليهِ جيب قميصهِ فانساب من شطيهِ يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزءًا فضم من الحياء ازاره

هناك غرناطة وهي دمشق تلك البلاد ومسرح الابصار ومطمح الانفس ذات المرج الفسيح ونهر شنبل العذب

غرناطة ما لها نظير مامصر ما الشام ما العراق

ما هي الا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق

ومن اعمالها قطرلوشة وبها معدن الفضة وباغة ووادي آش ويقال له وادي اشات

وادي الاشات يهيج وجدي كلما اذكرت ما افضت بهِ النعماء

لله ظلك والهجير مسلطٌ قد بردت لفحاتهُ الانداء

والشمس ترغب ان تفوز بلحظةٍ منهُ فتطرف طرفها الافياء

والنهر يبسم بالحباب كانهُ سلخٌ نضتهُ حيةٌ رقشاء

فلذاك تحذرهُ الغصون فميلها ابدًا على جنباتهِ ايماء

ومن الاندلس طليطلة الاوساط وهي في دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف وكانت تعرف بالثغر الادنى وسرقسطة بالثغر الاعلى وتدعى طليطلة مدينة الاملاك لانها كانت دار ملوك القوط وبها وجدت المائدة الزمردية التي قومت عند الوليد عبد الملك الاموي بمئة الف دينار وبها وجد طارق ذخائر عظيمة قيل منها مائة وسبعون تاجًا من الدر والياقوت والاحجار الكريمة وايوان ممتلئ من اواني الذهب والفضة ونحو ذلك . وبها بساتين محدقة وانهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان

زادت طليطلة على ما حدثوا بلد عليه نضارة ونعيم
الله زينهُ فوشح خصره نهر المجرة والغصون نجوم

وطليطلة مطلة على نهر باجة ذي القنطرة التي لا توصف على قوس واحد تكنفه فرجتان من كل جانب وطول القنطرة ثلاث مئة باع وعرضها ثمانون خربت ايام الامير محمد لما عصى عليهِ اهلها وعليهِ قول ابي قرناس

اضحت طليطلة معطلة من اهلها في قبضة الصقر
تركت بلا اهل تؤهلها مهجورة الاكناف كالقبر
ما كان يبقي الله قنطرة نصبت لحمل كتائب الكفر

هنالك كذلك المرية وهي على ساحل البحر من مشهورات مدنها وبها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران بناها عبد الرحمن الناصر وفيها معادن الحديد والرخام واشتهرت بانوال نسج الحرير وفاكهتها يقصر عنها الوصف وبها قصور الملوك القديمة الغريبة ولها وادٍ طولهُ اربعون ميلاً كلهُ بساتين بهجة وجنات نضرة وانهار مطردة وطيور مغردة

هناك ايضًا تدمير وتسمى مصر لكثرة شبهها بها لان لها نهرًا لهُ فيضان مخصوص ثم ينضب فتزرع كما تزرع ارض مصر وصارت القصبة بعد تدمير مرسية وتسمى البستان لكثرة جنائنها ولها نهر يصب في قلبها

ولكل من هذه الكور توابع واعمال فمن اعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة واليسانة والقصير وغيرها . ومن اعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة ونحوها . ومن اعمال جيان ابذة وبياسة وقسطلة وغيرها . ومن اعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة وغيرها . ومن اعمال المرية اندرش وغيرها . ومن اعمال مالقة بلش والحامة وغيرها . وبالحامة الماء الحار على ضفة الوادي

هناك مرسية وبلنسية ودانية والسهلة والثغر الاعلى وهي من القواعد بشرق الاندلس · ومن اعمال مرسية اوريولة والقنت ولورقة · ومن اعمال بلنسية شاطبة ويضرب بحسنها المثل ويعمل بها الورق الذى لا مثيل له وجزيرة شقر وغيرها · واما دانية فشهيرة ولها اعمال · واما السهلة فانها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ولذا اعتبرها بعضهم من كور الثغر الاعلى ولها مدن وحصون · ·

هناك سرقسطة من اعمال الثغر الاعلى وكورة لارده وقلعة رباح وكورة تطيلة ومدينتها طرسونة وكورة وشقة ومدينتها تمريط وكورة مدينة سالم وكورة قلعة ايوب ومدينتها بليانه وكورة برطانية وكورة باروشة

وفي غرب الاندلس اشبيلية وماردة واشبونة وشاب فمن اعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبلة ومن اعمال ماردة بطليوس ويابرة

بطليوس لا انساكِ ما اتصل البعد ... فلله غور من جنابك اونجد

ولله دوحات تحفك بينها ... تفجر واديها كما شقق البرد

ومن اعمال اشبونة شنترين · ومن اعمال شلب شنت رية

وهناك الجزائر البحرية مثل قادس من اعمال شبيلية وجزيرة شليطش وهي آهلة ولها مدينة وجزيرة قرطاجنة وفي البحر المتوسط الخارج من المحيط جزيرتا ميورقه ومنورقه وبينهما خمسون ميلاً والاولى مسافة يوم وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها قيل

بلد اعارتهُ الحمامة طوقها ... وكساهُ حلة ريشهِ الطاووسُ

فكأنما الانهار فيهِ مدامة ... وكأن ساحات الديار كووسُ

وقس على ذلك من البلاد والجزر التي يطول شرحها

هناك كما نقل ابن خلدون الحضرمي في تاريخهِ القطر الذي يسميه العجم الاندلوس وتسكنهُ امم افرنجة من المغرب اشدهم واكثرهم الجلالقة وكان الغوط قد تملكوهُ وغلبوا على اهلهِ لمئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومه ثم عقدوا معهم السلم على ان ينصرفْ الغوط الى الاندلس فصاروا اليها وملكوها حتى اخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية فحملوا من ورائهم بالمغرب من امم الفرنجة والغوط عليها فدانوا بها وكان ملوك الغوط ينزلون طليطلة وكانت دار ملكهم وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشبيلية وماردة واقاموا كذلك نحوًا من اربع مئة سنة الى الفتح الاسلامي وكان ملكهم لذلك العهد يسمى اذريق (رودوريكوس) وهو سمة لملوكهم كما ان جرجير (غريغوريوس) سمة لملوك صقلية انتهى ملخصًا

تلك هي البلاد التي اشتهرت بها الدولة المروانية والعامرية ثم كانت دول الطوائف والملثمين

والموحدين ونحوها من الفروع الكثيرة وعلت فيها القوة العربية الى اوج السعادة ثم انحطت الى حضيض الفناء. ومن هنا ومن افريقية امتدت تلك القوة الى جزائر صقلية واقريطش وسردينية وجنوة ومالطة و بلاد ايطاليا وحملت على الغزو مدة طويلة

• ثالثًا بلاد العرب من اسيا الكبرى وهي نحو الف واربع مئة ميل طولاً بنحو الف ميل عرضًا وقد كانت تحت ملوك حمير والمناذرة والنخميين وامتدت اليها يد العجم والحبش والروم في بعض اطرافها . فهذه كلها خضعت لسيف اتباع الرسول الهاشمي وقام فيها عمال ودول تحت اسماء مختلفة كالزبيرية والاموية والعباسية والزيدية والصليحية والنجاحية وبني ذريع وابن مهدي الخارجي والسليمانيين والهواشم وبني قتادة وبني ابي نمير وبني المهنا والرسي والقرامطة في يمنها وحجازها وتهامتها ونجدها ويمامتها وبحرينها. ومن هذه العربية خرج الآف من الفاتحين الى اقطار العالم ولقد اصاب حسان بن ثابت اذ قال فيهم

ان الذوائب من فهرٍ واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرتهُ تقوى الاله وبالامر الذي شرعوا
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم او حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثةٍ ان الخلائق فاعلم شرها البدعُ
لا يرفع الناس ما اوهت اكفهم عند الرقاع ولا يوهون ما رقعوا
ان كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لادنى سبقهم تبعُ
اعفةٌ ذكرت في الوحي عفتهم لا يطمعون ولا يزرى بهم طمعُ
يسمون للحرب تبدو وهي كالحةٌ اذ الزعانف من اظفارها خشعُ
لا يفرحون اذا نالوا عدوهمُ وان اصيبوا فلا خور ولا جزعُ
كانهم في الوغى والموت مكتنعُ اسود بيشة في ارساغها فدعُ
خذ منهم ما اتوا عفواً وان منعوا فلا يكن همك الامر الذي منعوا
فان في حربهم فاترك عداوتهم سمًّا يخاض عليهِ الصاب والسلعُ
اكرم بقوم رسول الله قائدهم اذا تفرقت الاهواء والشيعُ

رابعًا بلاد الشام او سورية وفلسطين وهي البلاد الكائنة بين جبل لبنان وجبال كورين (الطورس) ونهر الفرات والبحر المتوسط ولها تاريخ طويل واثر كبير لما حدث بها من الامور

الغربية وتولى عليها من الدول العديدة وقاستهُ واحتملتهُ من الحروب وقد كانت غنية جدًّا ذات مدن شهيرة آهلة كغزة ومرساها ميومة وعسقلان وتدعى عروس الشام والنابولس وهي اورشليم القديمة حيث هي بعلبك الان التي اشتهرت بهيكل الشمس وجريكس وهي اريحا المعروفة بجنائن البلسان وحبرون وهي الخليل ولدّ وقد شاعت بعظم مركزها ومتجرها الارجواني وطرطوس قرب رودس وصور وصيدا وانطاكية واللاذقية وطرابلس وعكا وقيسارية وحلب وسلوكية حيث هي قبسة الان وهرابلوس وهي منبغ حيث كانت اسطرتي الالهة بصورة امراة نصفها سمك وكان لها فيها هيكل عظيم وثلثمائة كاهن ثم دمشق وحماة وحمص وفامية حيث كان مودعًا كل جهاز ملوك سورية وخمسمائة فيل ثم يافا اقدم مدن العالم وفيلادلفيا حيث هي ربعة عمان الان وجبيل وبيروت ونحوها مئات من المدن الحسنة والقدس كرسي ملك اليهود وما اليها من الاعمال وهذه المدن كلها صارت ساحة لحروب اليهود والامم والرومان والفرس والروم والعرب والافرنج والتتار والاتراك ونحوها وكان يخرج من غزة وقيسارية وسور مدينة صور وبيروت والنابولس موسيقيون وعلماء ومغنيون ومن اللاذقية فرسان شهيرة وشاعت في بيروت تلك المدرسة العظمى التي شيدها يوستنيانس قيصر في الجيل الثالث للمسيح لعلم الفقه وقد هدمها العرب في الجيل السابع وكانت تاتي اليها التلامذة من كل قطر وبيروت كانت تدعى في عهد جوليوس قيصر المدينة السعيدة. وعلى مسافة يوم من الفرات في وسط القفار كانت تدمر (بالميرا) المبنية من سليمان الملك وتسلطت على كل سورية وبين النهرين وهابتها ملوك الفرس وعادت مقر العلوم والصنائع الى ان تملكها الرومان فخربت ومن سورية فينيقية وتطلق على السواحل البحرية كصور وصيدا وبيروت ونحوها ولهم ينسب اختراع الزجاج والارجوان والنقود والحروف الهجائية وهم اول من برعوا في فن الملاحة وساروا في البحار القاصية ودخلوا بحر الروم وفتحوا طرسوس ونحوها وجازوا البحر الاحمر وهو بحر الحجاز وجابوا في افريقية وبنوا قرطاجنة واجتازوا مضيق هرقل طالبين القزدير من معادن بريطون والكهرباء وعادوا من هناك الى بحر بروسيا وبنوا مدينة كلم بعد ان اقاموا صور جديدة في خليج العجم قيل ان منهم انت الاخبار الى الاولين بوجود قارة جديدة وجزائر عديدة في ما يلي الاوقيانس وهو ما جعلوهُ الان قسمًا خامسًا باسم هولانده الجديدة او محيطية وهنا يصرخ ملر المورخ متعجبًا بقولهِ «الان اعظم الامور اكتشفها اصغر الامم»

وكثيرًا ما اكتشفهُ هذا الشعب وقد فقد بفقدان تواريخهم قبل ولاخفائهم ذلك حتى لا ينتقل اليهِ اناس منهم لقلة عددهم. ولاشك ان كثيرًا ما يجب نسبتهُ الى خراب صور دار ولايتهم بامر الاسكندر فلم يبق لنا من تواريخهم الا بعض بواقٍ استخرجها سنكونياتن البيروتي ورحلة انون القرطاجني اقل

قدمًا من الاولى ومن هذا القوم جاء مبدأ الميثولوجيه

ولا تزال اثار هذه البلاد نائحات شاهدات على ما كانت

هواتف اما ما بكين فعهدهُ قديمٌ واما شجوهنّ فدائم

ولما كانت سورية الارض المتازة بقداستها اصبحت اكثرمما سواها محط رحال الحرب من رجال كل امة وداستها اقدام اهل الاطاع من كل جهات العالم ولذلك اخترنا ان نجعل لها فصلاً جغرافيًا مخصوصًا في الجزء الثالث عند ما ننهي الحروب الصليبية

خامسًا بلاد فارس الغربية المدعوة ايران وهي عبارة عن خمس مائة الف ميل مربع . على شمالها بعض ارمينية وكرجستان وبحر خزر وبعض بلاد التتر الى افغانستان وبلوخستان شرقًا . وعلى جنوبها بحر الهند وبحر فارس الى هذا الخليج والعراق العربي وكردستان وبعض الجزيرة غربًا . وتقسم الى ممالك وبلدان منها اذربيجان الى جهة ارمينية وكرجستان والجزيرة . ثم بلاد كيلان ويقال لها الجيل وجيلان وهي ما بين اذربيجان غربًا وبحر الخزر شرقًا . ثم بلاد مازندران الى شرقي كيلان ممتدة على جنوبي بحر الخزر . ثم بلاد الجبل وهو العراق العجمي الى جنوبي اذربيجان ومازندران . ثم بلاد خوزستان الى شرقي العراق العربي . ثم بلاد فارس من خليج فارس الى الشمال الشرقي . ثم بلاد كرمان ما بين فارس غربًا وبلوخستان وافغان شرقًا الى خليج فارس وبحر الهند . ثم بلاد خراسان الى شمال التترية وجنوب كرمان وشرقي افغان وغربي بلاد الجبل ومازندران

وهذه البلاد كانت قديمًا منها ما يخص مملكة بابل ومنها مملكة اشور ومنها مملكة مستقلة تدعى مملكة فارس . ثم صارت كلها مملكة واحدة تحت الملك كوروش الكلداني الى ان انتزعها الاسكندر من داريوس فعادت ملوك طوائف ثم تقوى بعض هذه الملوك وصارت دولة الدولة الفرثيه الى ان قامت الدولة الساسانية الكسروية الشهيرة من (سنة ٢٦٠) للمسيح الى ان افرغت الملك للعرب في اوائل القرن السابع

وهي بلاد جميلة ذات انهر عذبة مثل قزل اوزان وينتهي الى خزر ويصب بدجلة الاهواز . ونهاوند ويصب في الفرات وكلاهما يخرج من جبال العراق . ونهر طاب من غربي شيراز

ما طاب لي قط عيش الا على نهر طاب

ثم نهر قارون ويجري في خوزستان الى راس خليج فارس

ومن مدنها خوى

كعروس جليت في حبر صنع صنعاء وديباج خوي

ثم مراغة وحولها جنائن و بساتين ورساتيق كثيرة · ثم اردبيل في شرقي اذربيجان امامها جبل سيلان لا يفارقه الثلج · ثم ميانه او ميانج · ثم تبريز الى شمالي مراغة وكانت اعظم مدن بلاد العجم وكان لها من الجوامع مائتان وخمسون وعدد عظيم من المكاتب والمدارس واشتهرت بجملة علماء · ثم (قم) في مرج حسن ومنها كرمان شاه او قرميسين وهي جميلة المقام حسنة الهواء وتعد من اجل مدن العراق · ثم مدينة همذان في وسط بلاد الجبل ذات الانهار والبساتين · ثم نهاوند مدينة جبلية ذات بساتين وفواكه وقد اشتهرت بالوقعة التي كانت بين العرب والفرس في عهد عمر

ونحن جلبنا الخيل يوم نهاوند وقد احجمت عنها الخيول الصوارمُ

ثم تهران واصفهان وهي اليهودية · وجيّ وهي شهرستان · وقزوين · وشيراز قاعدة فارس · ويزد جنوبي خراسان · ومشهد الى شمال شرقي خراسان ثم نيسابور ونحوها

سادسًا بلاد فارس الشرقية وتقوم بين بلخ الى الشمال · والصين والهند الى الشرق · وبحر الهند جنوبًا · وكرمان وخراسان غربًا · وتقسم الى بلاد هراة الى الشمال الغربي · وسجستان الى الغرب · وافغانستان اوكابلستان في الوسط الى الشمال · وبلوخستان الى الجنوب · وهي عبارة عن اربعمائة الف ميل مربع فمملكة هراة تتصل بصحراء خوارزم ذات السلسلة الجبلية الجميلة المتصلة شرقًا بجبال كوهستان ولها نهر جميل ومن مدنها الشهيرة قديمًا شهرستان ومرو الشاهجان ومرو الروذ وبارغيس ومدينة هراة نفسها

اوراق كديتهِ في بيت كل فتى على اتفاق معان واختلاف روي

قد طبق الارض من سهل الى جبل كانهُ خط ذاك السائح الهروي

اما سجستان فعلى غربها مفاوز كرمان وعلى شمالها هراة وتشرق شمسها من افغانستان والى جنوبها بلوخستان وفي الجنوب الغربي منها كوهستان وهي مفازة واسعة بين بلوخستان وكرمان لاكوهستان السابق ذكرها — وسجستان كثيرة الرمال المنتقلة والى غربها بحيرة رزنج نحو مائة وخمسين ميلاً نطاقًا واليها تنتهي عدة انهر منها نهر الهند الافغاني ولا تصلح للشرب ولها آثار من الخراب وقاعدتها جلالاباد

ومملكة الافغان في جنوبها بلوخستان · وفي شرقها نهر الهند · ومن الغرب سجستان وهراة · وشمالها هراة وجبال هندكوش الكائنة بينها وبين بلخ بلاد التتار · مساحتها نحو مائة وخمسين الف ميل مربع وكانت تابعة مملكة ايران مع هراة وسجستان في عهد نادرشاه وهي كثيرة الجبال والاودية في جهاتها الشمالية غزيرة الاغلال والانهر وليست كذلك جهاتها الجنوبية ومن جبالها الشمالية تمتد سلسلة جبال هندكوش وهي الى حذاء كشمير ومن هناك تدعى جبال حملايا وهي واحدة بالصحيح ومن انهرها نهر الهند

والسند ويخرج من جبال غربي كابل ونهر غنداب ويخرج من نواحي قندهار ويصب الى الهند . ونهر خوشخور من الجبال المحادة الصين ويصب الى نهر الهند

وفي هذه البلاد قبائل مختلفة نحو اربعة ملايين ويتكلمون نحو عشر لغات من عربي وفارسي وهندي وتركي وافغاني ومنغولي واشهر مدنها كندهار وكابل وبشاور وغزنة تخت المملكة الغزنوية وجلالاباد

ومملكة بلوخستان بين نهر الهند الى الجنوب ونهر السند الى الشرق وافغانستان الى الشمال وكرمان ولارستان الى الغرب وهي ما كانت تسمى السند عند العرب وانما السند الان فالى ما يليها مشرقًا . وهي اقسام . منها كوهستان الى الشمال الغربي ومكران الى الجنوب وبينهما بلوخستان وخان كيلان اعظم امرائها واكثرها جبال جرداء ومفاوز ناشفة وعلى شمالها بلاد لص وهي ارقى حالاً منها وهي قليلة الانهر كثيرة الحرارة في وهادها عظيمة البرد في جبالها وخيلها قوية وسكانها قبائل منتقلة وهم اخلاط من فرس وهنود وتتار وافغانية واكراد

وفي جبال هندكوش الى حدود الصين بلاد تعرف ببلاد كافرستان وهي كثيرة الجبال والغياض والادغال والمراعي والكروم واهلها اصلهم من كندهار وعيشتهم متوحشة

ومعظم هذه البلاد كان في غاية الغنى والنظام وكلها داستها اقدام اتباع النبي العربي ورفعت على اثارها بنود الاسلام بخضاب الدم وعلمنا اسماءها من اخبار وقائعها

سابعًا . بلاد التتار وهي من سيبساريه في الشمال الى الصين شرقًا وبعض الجنوب . ومن افغانستان وهراة وايران في الجنوب الى بحر الخزر ونهر اورال غربًا وساحتها نحو ٥٧٥ الف ميل مربع . منها تركستان الجنوبية الى جنوبي نهر جيجون وتعرف عندنا بطغارستان وبذخشان وبعض خوارزم ثم تركستان الوسطى وهي ما كان شمالي النهر وفي وادي نهر سير وهي ما نعرفها ببلاد ما وراء النهر . ثم تركستان الشمالية واكثرها صحاري ومفاوز ما وراء نهر سير ونهر جيجون والى الجنوب الشرقي وبينها وبين ايران وافغان جبال هندكوش ويفصل بينها وبين الصين جبال البلور المتصلة بجبال الناعي وهي عالية لا تقطع الا من ثغرة بذخشان ومخرج نهر سير وفيها الجبل الاصفر والابيض والاسود وجبال سمرقند من جنوبي السغد . ومن انهرها نهر سير او سيحون ونهر جيجون ويخرجان من جبال البلور ويصبان في بحيرة اورال اما بذخشان فاسم المدينة والمملكة معًا عند مخرج نهر جيجون وهناك معادن الياقوت واللازورد والحديد والملح . والى شمالي خراسان بلاد خوارزم غربي ما وراء النهر وشرقي بحر خزر . ومدينة خيوا فهي على ترعة من جيجون ويقال لبحيرة اورال بحيرة خوارزم وما

نعرفهُ بالجرجانية هو منها وهما كركانج الصغري والكبرى ومنها زمخشر اما بلاد بلخ فهي الى شمالي جبال هندكوش والى شرقيها بذخشان وفي شماليها ما وراء النهر ولها شهرة تاريخية بحسنها ومن مدنها بلخ وبخارا وتقوم على احد انهر سغد سمرقند ومدينة سمرقند وكانت اعظم مدينة وهي الى شرق بخارا اما سغد سمرقند فهو من مفردات الدنيا ومنتزهاتها ونهره نهرقيّ وبلاد فرغانة فهي وادي نهر سيهر ومن مدنها خجنده وخواقند اما تركستان الشمالية فسكانها قبائل تائهة من تتر وتركمان ولهم علائق تجارية مع المسكوب كاستبدال مواشيهم باقمشة ونحوها

وكل هذه البلاد ما خلا الشمالي منها الى جهات سيباريه عرفت القرآن على سنان الرماح العربية وتقلبت عليها دول اسلامية كما علمت

ثامنًا · بلاد الهند بين جبال حملايا الفاصلة بينها وبين جبال تبت شمالاً · وبين خط مفروض في درجة ٩٢ طول شرقي من الجبال المذكورة الى نهر بوطره شرقًا · وبحر الهند الى جنوبها وبين هذا البحر ونهر الهند سند غربًا · وهي عبارة عن مليون ومائة الف ميل مربع وهي ذات جبال كثيرة منها جبال حملايا علو بعضها نحو ٢٩ الف قدم وتنظر من مسافة ٢٢٦ ميلاً قالوا وفيها من شجر السندجان والصنوبر ما ارتفاعهُ ١٢ الف قدم وتصلح للسكن الى علو (٩٥٠٠) قدم والثلج لا يفارقها ابدًا ذات معادن نحاس وذهب وحديد وآنك ومنغنيس وملح وجص وبورق وكبريت وشب وانتيمون ومنها جبال الغات بقرب سرات الى راس كمورين وارتفاعها من ٥ الى ٦ الاف قدم واحسنها جبال تلغيري اي الزرق من ستة الاف الى (٩٥٠٠) قدم جيدة الهواء قليلة الامراض

ومن انهرها نهر الهند ويسمى نهر السند · ونهر مهران · ونهر شونات وهو مجموع انهر خمسة ويمر بمدينة ألمتان · ونهر بياح · ونهر صتلج وكلها من جبال حمالاية · ونهر كنك ويخرج من تحت ثلوج حمالايا على ارتفاع نحو ١٣ الف قدم ويضاف اليهِ جملة انهر في مدة جريانهِ الى هردوار في مقاطعة دلهي فيكون قد سقط هنالك ١٢ الف قدم في مسافة مائتي ميل ويبقى بينهُ وبين البحر علو الف قدم ومسافة الف ميل ولذلك كان جريانهُ ح بطيئًا ويمر من هناك بجملة مدن شهيرة مثل قنوج واللاهباد وبنارس وبطنة وغيرها ويضاف اليهِ احد عشر نهرًا ثم على بعد مائتي وعشرين ميل من البحر ينشعب منهُ الهوجلي وهو الاصغر ويمر بكلكوته ويستمر الاصل جاريًا فيصب في خليج بنكالا الى شرقي مصب الهوجلي على بعد نحو ثمانين ميلاً وهو من الانهر المقدسة عند الهنود ثم نهر (برهم بوطره) من شمال جبال حمالايا في بلاد تبت فانهُ يجتمع مع الكنك قبل مصبهِ في البحر بنحو ثلاثين ميلاً وينضاف اليهِ نحو تسعين نهرًا ثم نهر جغرة ويصب ايضًا الى الكنك قبل وصولهِ الى بطنة ثم نهر جمنة ولهُ جداول

كثيرة ويصب في الكنك عند اللاهاباد وكلها من حمالايا ثم نهر صون من اواسط البلاد ويصب في كنك بقرب بطنه ثم نهر نربودة بقرب مخرج صون ويصب في خليج كمباي بقرب نهر صورات ثم نهر كودوري من جبال الغات الغربية ويصب في خليج بنكالا ثم نهر كريشنه من جبال الغات ويصب في الخليج ثم نهر بنار ونهر قلرون وغيرها كثير

والهند ذات حواصل مختلفة نحو اربع مئة وخمسين نوعًا من الشجر وثمان مئة من النبات والى الان يكتشفون فيها ما هو جديد في الاجام والرياض الفسيحة

ومن مدن الهند كشمير ولهاوور والمتان ودلهي وبنارس وكلكتا وجزيرة بنبا ونحوها لا محل لذكره

وهذه البلاد في بعض جهاتها عرفت قوة اتباع النبي العربي من عرب واتراك واشهر الفاتحين الاسلاميين السلطان محمود الغزنوي وشهاب الدين الغوري ونادر شاه ملك ايران وكان للاسلام فيها مملكة شهيرة تنازلت اخيرًا للانكليز

تاسعًا . ارض الروم وهي ما يعرف ببر الاناضول الان وقديمًا باسيا الصغرى القائمة ما بين بحر مرمرا والبحر الاسود في الشمال . وبحر مرمرا وبوغاز القسطنطينية وبحر الروم غربًا . ومن خليج اسكندرونة حتى جبل اللكام وجبل كورين وهو الطورس الى جهة الشمال الشرقي . ومن هنالك على هذه الجبال الى ثغرا نوشروان بقرب الفرات ثم الى جهة غربي الفرات ثم الى حدود ارمينية الغربي الى البحر الاسود وكانت تسمى المدن بقرب الحدود قديمًا ثغور الشام والجزيرة مثل ملطية والحدث ومرعش والهارونية وعين زربة وطرسوس

ومن مدن ارض الروم الباقية رسومها افسس واللاذقية وسرديس ومليطوس وغيرها كثيرٌ فمدينة ازمير الشهيرة الان مولد اوميروس الشاعر هي على خليج ازمير ولم يحفظها للان من خرابها مرارًا الا موقعها البحري ومنها الى الجنوب على بعد نحو ٣٥ ميلاً اثار مدينة افسس ومدينة مغنيسا على نهر مياندر وهي الان (قزل حصار) وبقرب مصب نهر ميندر كانت مدينة مليطس . والى الشرق من ازمير نحو خمسين ميلاً (سرت) وهي سرديس القديمة قصبة مملكة لوديه. والى شمال سرت (آق حصار) وهي ثياتيرا القديمة وعلى بعد نحو اربعين ميلاً الى شرق سرديس (قرية الله شهر) وهي فيلادلفيه . والى الجنوب منها مدينة اللاذقية وهي (اسكي حصار) في وادي نهر ميندر وبقربها اثار مدينة (دنزلو) وخربت بزلزلة وتدعى هذه البقعة البلاد المحترقة لما فيها من الاثار البركانية والى الشرق من اسكي حصار مدينة كولوسايس

والى شمال ازمير مدينة برغام على نهر كايكس وقد اشتهرت بمكتبها ومولد جالينوس ومدينة

برسه ومدينة نيقيه القديمة وهي ازنيك الان وبالقرب مدينة نيقومديه وهي الان ازمد والى الشمال الغربي منها مدينة خلكيدون ومدينة اسكودار تجاه القسطنطينية · ومن المدن الكائنة على البحر الاسود سمسون وطرابزون ·

ومن المدن التي على ريف بحر الروم او بالقرب منه في جنوبي البلاد ادنه على نهر سيحون وهي على اثني عشر ميلاً من المصيصة وثمانية عشر ميلاً من طرسوس وهي قصبة كيليكية · ومنها مدينة اداليه ومن مدن الداخلية كوتاهية واسكي شهر وشغوت وافيون قره حصار · ومدينة قونية فهي في وسط البلاد وعلى بعد خمسين ميلاً منها مدينة قرمان ثم مدينة انقره ومدينة اماسيه بجانب نهر ايريسا مولد استرابون المورخ ومدينة توقات ومن امهات مدنها سيواس جنوبي نقات عند قزل ارماق ومدينة قيسارية الى جنوبي غربي سيواس على نهر قره صو الذي يصب في الفرات بقرب ملطيه

ومدينة ملطية الشهيرة قديمًا فهي بقرب الفرات والى جنوبيها مدينة سميساط والى غربي هذه مرعش والى جنوب غربي مرعش زربة · وهذه كلها ثغور · ولاسيا الصغرى جزر كثيرة كجزيرة مرمرة وارتاكوي وتنيدس وميتلينو او (لسبوس) ومن مدنها كستر ومولیفو وكالوني ونساء هذه الجزيرة لهن التقدم على الرجال في كل شيء حتى في الميراث فالمراة رجل والرجل مراة في الامتيازات كلها ثم جزيرة شيو او جزيرة المصطكى ومدينتها ساقص ثم جزيرة صاموس مولد فيثاغورس وجزيرة نيكاريه وجزيرة سنانيك مولد ابقراط وجزيرة بطمس وجزيرة اقريطش (كريد) وجزيرة رودس وجزيرة قبرس وهذه الثالثة في الاتساع في جزائر البحر المتوسط وكان فيها قديمًا تسع ممالك واثنتا عشرة مدينة وثمان مئة وخمس ضياع ومن مدنها نيقوسيه ولارنيكه

وهذه كلها الا النذر منها شعرت بقوة الفتوحات الاسلامية وكابدت ما كابده غيرها من الحروب والخراب

عاشرًا · بلاد الارمن ما بين البحر الاسود وكرجستان شمالاً · وكرجستان وبلاد العجم شرقًا · وكردستان والجزيرة جنوبًا · واسيا الصغرى غربًا ومن جبالها ارارات حيث يقال استقرت سفينة نوح علوه نحو سبعة عشر الف قدم والاسطخري يجعل هذا الجبل المنشعب الى اثنين من اذربيجان وسماها الحارث والحويرث · ومن انهارها نهر الفرات واصله نهران نهر قره صو مخرجه قرب ارزروم والثاني مرادصو ويخرج بقرب ارارات ويلتقيان عند مدينة كيان فيجريان غربًا الى مدينة دوين ومنها الى ملطيه ويفصل بين الجزيرة واسيا الصغرى ثم نهر الرس ومخرجه شمالي ارزروم ومن بحيراتها بحيرة (وان) وبحيرة نزوك وبينها جبال عالية ومن مدنها ارزروم وتدعى قالي قلا · واخلاط القديمة وبايزيد

وموش في جنوبي قره صو ومدينة وان ونحوها

ثم بلاد كردستان وهي ما بين ارمينية شمالاً وسلسلة جبال شرقًا ونهر الزاب الاصغر جنوبًا ونهر دجلة غربًا ومن انهرها نهر خابور ونهر الزاب الاعلي والاسفل وكلها تصب في دجلة ومن مدنها مدينة بدليس الى غربي بحيرة وان ومدينة سعرت غربي بدليس ومدينة عمادية الى الشمال الشرقي من الموصل على ثلاث مراحل ومدينة جمار وتعرف بجولامرك

حادي عشر. بلاد الجزيرة وهي الارض الشمالية التي بين الفرات ودجلة اما الجنوبية فتعرف بالعراق العربي وهي ما بين ارمينية الى الشمال وكردستان الى الشرق والعراق العربي الى الجنوب واسيا الصغرى وسورية وبادية الشام الى الغرب . وتعرف قديمًا بما بين النهرين وديار بكر وربيعة وديار مصر اما الاول فلوجودها بين نهرين والثاني فلانهٔ قيل ان بعد سيل العرم اتت ربيعة وبكر ومضر وقطنوا هناك

وهي اكثرها سهل الا جبال سنجار التي طولها خمسون ميلاً وترتفع نحو الفي قدم فوق الغور ومن انهرها الفرات ودجلة والخابور وهو غير المذكور اولاً فانهُ يخرج بمكان يسمى راس عين او عين وردة وهو بوجب قول ابن حوقل مجموع نحو ثلاثماية عين تخرج هناك وراس عين اول مدن ديار ربيعة على بعد يومين من خراسان . والخابور هذا يصب في الفرات قرب قرقسيا وهو المذكور في رثاء بنت طريف الخارجي لاخيها ابن طريف

ايا شجر الخابور مالك مورقًا   كانك لم تجزع على ابن طريف

وهي بلاد ذات تربة جيدة في الغاية ومن مدنها سروج على مسافة يوم من البيرة . ومدينة الرها وهي اورفه واور الكلدانيين مسكن ابرهيم الخليل ثم مدينة حران وهي خراب الان وكان للصابئين فيها هيكل على اسم هرمس وبالقرب مدينة الرقة وتدعى البيضاء قاعدة مضر ومدينة ماردين وقرية ماري ايليا من حيث كما يقال صعد الى السماء ومدينة الرحبة والحديثة من ديار بكر ومدينة قرقسيا وهي مدينة هند بنت الريان التي قتلت جذيمة الابرش وتعد من ديار مضر . ومدينة دارا في لحف جبل ماردين ومدينة ديار بكر ومدينة نصيبين الى الجنوب الشرقي من دارا وقد اشتهرت بجنائن الورد الابيض وفوقها جبل الجودي وهو ما استوت عليهِ سفينة نوح على قولهم ومدينة الموصل وهي قاعدة ديار الجزيرة الى الجانب الغربي من دجلة موضع مدينة نينوى العظمى . وجزيرة ابن عمر فهي مدينة صغيرة غربي دجلة . وعانة هي بلدة صغيرة وسط الفرات غير بعيدة من موقع بابل وشهيرة بخمرها

ا من بابل ام من لواحظك السحر ومن عانة ام من مراشفك الخمر

ومدينة البوازيج وهي بين اربل وتكريت اخر مدن الجزيرة ما يلي العراق على ستة ايام من الموصل

ثاني عشر. العراق وهو مابين الجزيرة وكردستان شمالاً. وبلاد العجم شرقًا. وخليج العجم والبادية جنوبًا. والبادية غربًا. والفاصل بينهُ وبين فارس جبال خوزستان وهو المدعو قديمًا ارض الكلدانيين وما كان بين الفرات ودجلة هو مملكة بابل القديمة ومن الانهر والترع بين الفرات ودجلة التي كانت تسقي السهول والاباطح نهر عيسى ومخرجهُ من الفرات قرب الانبار ونهر صرصر جنوبي الاول ونهر مالكة وشط الحية وكلها واصلة بين النهرين واكثرها مردوم الان

ومن مدن العراق مدينة بغداد وتعرف بمدينة السلام من كون دجلة يدعى نهر السلام ولقبت بالزوراء وهي مدينة الخلافة العباسية الشهيرة وسياتي ذكر مناقبها عند ذكر خرابها وقولهُ

عيون المهى بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

فان الرصافة هي الجانب الشرقي من بغداد وقد صار كل شي خرابا الان ومن مدن العراق هيت فوق الانبار وهي فرضة فراتية ومنها الحلة غربي الفرات ايضًا ومنها القادسية وكذلك الحيرة وهي مدينة الملوك اللخميين من آل النعمان بن المنذر وبها تنصر المنذر بن امرء القيس وبنى بها الكنائس واقام قصر الزوراء واليهِ اشار النابغة

وتسقي اذا ما شئت غير مصرد بزوراء في اكنافها المسك كارع

والحيرة الان خراب ثم الكوفة ولقد اشتهرت وقعة القادسية في اول الاسلام بين العرب والفرس وكانت بين القادسية والكوفة. ووقعة ذو قار بين الكوفة وواسط وفيها يقول بكير الثعلبي

هم يوم ذي قار وقد حمس الوغى خلطوا لهامًا جحفلاً بلهام

ضربوا بني الاحرار يوم لقوهمُ بالمشرفي على صميم الهام

ومنها الانبار على شرقي الفرات بقرب نهر عيسى. وعكبرة بليدة على دجلة فوق بغداد وبقربها قطربل الشهيرة بالقصف واجتماع الخلفا وهناك ايضًا موضع يقال لهُ سرّمن راي فخفف الى سامرّى. والبردان قرية كانت على شرقي دجلة وقرية حصر بالقرب منها. ومن مدن العراق المدائن وهي على دجلة الى جنوبي بغداد على مرحلة منها وتدعى طيسيفون وهي عاصمة الاكاسرة وفيها الايوان الشهير لهم. ومدينة واسط فعلى مجرى دجلة القديم. وعند ملتقى الفرات ودجلة قلعة قرنة. ومنها مدينة البصرة وهي على غربي مجتمع النهرين على بعد سبعين ميلاً من مصبهِ في خليج العجم وقد اشتهرت مدرستا البصرة والكوفة

ثالث عشر . هذا واذا تجاوزت العريش من بلاد الشام وصلت الى بلاد مصر التي اشتهرت منذ القديم ولم تزل الى الان مع صغر مساحتها اثرًا حيًا في جبين الدهر لم تقدر على مضرتها النوائب ولا تمكنت منها الرزايا بما وهبتها العناية من المقام الحسن والتربة الجيدة وباركتها بنهرٍ ابدًا يجري لتخصيبها واحيائها وهي ما بين البحر المتوسط الى الشمال . وبين خط مفروض من خان يونس على البحر المتوسط الى السويس والبحر الاحمر شرقًا . وعلى جنوبها بلاد النوبة والى غربها الصحراء و بلاد برقة . وهي نحو ثمانين الف ميل مربع وخصب هذه البلاد كائن بالوادي المروى بماء النيل وما بقي فبرارٍ وصحارٍ قليلة النبات والاهالي

ولا يعرف الى الان مخرج هذا النهر وسيبقى كذلك الى ان يتغير هواء البلاد الحائلة بيننا وبين ينابيعهِ فيتمكن الانسان من المسير فيها براحة والمشهور ان ينابيعهُ متجهة الى جنوبي بلاد درفور ويصب اليهِ انهر وجداول في ممرهِ ببلاد الحبش وفي مسيره الى مصر يلتقي بصخور ومرتفعات فيحدث عنهُ شلالات تعرف بجنادل النيل الاول منها في دنكله من النوبة . والثاني وهو اعظمها عند نوبة مصر . والثالث عند دخولهِ اراضي مصر بقرب اسوان . ويجري من اسوان الى القاهرة بين جبلين شرقيهما يتصل بالبحر الاحمر وغربيهما ينتهي الى الصحراء الكبيرة فاذا انتهى الى المكان المسمى بطن البقرة انشعب الى اثنين احدهما يصب في البحر قرب رشيد والاخر يمتد الى دمياط وما بينهما يدعى بجيرة عندنا وذلتا عند اليونان ويبتدى فيضانهُ عند الانقلاب الصيفي وينتهي ذلك في الاعتدال الخريفي وياخذ بالنقص مع الانقلاب الشتوي

ومن مدن مصر الاسكندرية من اختطاط اسكندر الكبير ولها شهرة تاريخية في التجارة والعلوم وما فيها من الاثار القديمة يدل على علو مقامها . وخليج الاسكندرية الذي ياتي بماء النيل اليها كان قد حفر قديمًا ثم ردم الى ان اصلحهُ صاحب الذكر المحبوب محمد علي باشا وطولهُ ٤٨ ميلاً ويقال انهُ كان قديمًا من المنتزهات الجميلة محفوفًا بالحدائق والبساتين والنخل ونحوه ومنها مدينة رشيد على اربعين ميلاً من اسكندرية واربعة من البحر وهي ذات بساتين وبناء جيد . ومنها مدينة دمياط وهي على الشرقي من شطري النيل وبينها وبين البحر نحو عشرة اميال وبقربها بجيرة المنزلة فيها جزائر حسنة كثيرة السكان ومن مدن هذه البجيرة الفوة والمنصورة والصالحية وبلبيس والخانقاه والمحلة الكبرى وسمنود وطنطا ومنوف ومن قراها برنبال والرحمانية ودمنهور وطرابه ووردان وغيرها اما القاهرة فهي القاعدة بناها الملك المعز لدين الله ابن المنصور العلوي واحاطها صلاح الدين الايوبي بسور كما سبق وقد جددها واصلحها الى درجة عاصمة اوربية حضرة اسمعيل باشا خديوي مصر

الممالك سعيدًا . ثم الفيوم وهي بلدة ذات خصب . ثم الصعيد وهي مصر العليا ومن مدنه اسيوط وهي مجتمع قوافل النوبة والسودان . ثم مدينة اخميم وقرية المنشيه حيث ترسو المراكب الصاعدة او النازلة من الجنادل والى الشرق منها الجرجاء قاعدة الصعيد وبجانبها قرية دندره وفي هذه القرية وجدت صورة منطقة الابراج منقوشة على حجر فاخذها الفرنساويون الى باريز . ثم مدينة قنه ولها تجارة مع قصير في البحر الاحمر . ومنها كرنك واسنة واسوان وبقرب كرنك آثار مدينة ثيبة القديمة الشهيرة

ولهذه البلاد واحات اربع وهي اماكن خصبة في الصحراء الكبيرة منها على طريق القوافل ومنها موارد العرب المتبدية والقوافل المارة بين فزان وطرابلس ودرفور ومصر الواحدة على عرض بني سويف بمصر وبها مدينة سيوا والثانية وهي احقرها على خمسة مراحل منها شرقيًا . والثالثة وهي الكبرى على مرحلة من اسيوط وهذه هي عدة واحات متناسقة والى غربيها على مرحلة ونصف الواحة الرابعة ولها نحو ١٢ قرية ولا نفع من تلك البراري الموجودة ما بين حدود مصر وطرابلس الغرب فان نباتها قليل ولا سكان سوى الارانب والغزلان وفيها آثار تدل على انها كانت معمورة قديمًا

رابع عشر النوبة على جنوبي مصر وغرب البحر الاحمر وشمال الحبشة وشرق بلاد السودان ومساحتها نحو ماية وسبعين الف ميل مربع وهي اقسام اربعة شمالية وقاعدتها (در) ومتوسطة وقاعدتها دنكلة . وجنوبية وقاعدتها سنار . وشرقية وهي بلاد البجاة وقاعدتها سواكن . ومدنها در واسمبول وبها هيكل قديم جدًا ودنكلة الجديدة على الجانب الايسر من النيل . فدنكلة القديمة خراب . وسنار على البحر الازرق وسواكن على البحر الاحمر . وعلى جنوب النوبة ارض الحبشة الى غربي البحر الاحمر وخليج عدن . وشرقي بلاد الشلوك والارض التي منها جنوبًا مجهولة وتعرف ببلاد الغلاَّ وهي بلاد لها اسم تاريخي ولا حاجة لذكرها لانها لم تدخل في جغرافية هذا التاريخ

فهذه هي جملة البلدان التي في مدة ستمائة سنة من عهد النبي العربي الى راس المائة السادسة من الهجرة وطئتها اقدام اتباعه من عرب ثم اتراك وغيرهم ممن اختاروا لهم الاسلام دينًا وكانت الحروب في اكثرها متواصلة واريق فيها انهر من الدماء وخرب من المدن والقرى ما لا يحصى وليس مرة واحدة بل مرارًا لا سيما اراضي سورية ونحوها مما صارت ساحة للحروب الصليبية ومغايرات الدول التركية من الهند الى بغداد فان العرب بعد ان حاربوا وفتحوا هذه البلدان واقصوا عنها الروم والفرس والاتراك والغوط والفرنج وشعوب المغرب من زناتة وصنهاجة وورنجومة ومصامدة

ونحوها وتمكنت اقدامهم في هذه البلاد استمروا يشنون الغارات ويدعون الغزوات الصيفية وهي ما يدعونها الصوائف واحياناً زمان الشتا وهي الشواتي كل هذه المدة ثم اخذوا بالقتال فيما بينهم في ثلاث جهات العالم اعني افريقية واوربة واسيا. ففي افريقية دان الاهالي بدين الاسلام واخذوا الملك لانفسهم اما بالاستقلال واما بالتابعية لدول اسبانيا الاموية التي كانوا سبباً لخرابها او لدولة الفاطمية ونحوها وكان الملوك الاهليون كذلك دائماً في حرب فيما بينهم ·

وفي اوربا مثل ايطالية وصقلية وغيرها من الجزائر فانهم استمروا في حرب فيما بينهم وبين افرنجها حتى التزموا اخيراً الى تركها ورجوع احكام امرائها اليها وفتحوا مالطة (سنة ٢٥٠) من الهجرة ولكن لا يعلم متى اخلوها. وفتحوا صقلية في مدة المائة الثالثة واخر الثانية وتركوها في اخر الرابعة

اما في المشرق فقد تقدم ذكر نيقوفور دمستق الروم وحربة جزيرة اقريطش واخذها بالسيف فان هذا الامير بعد ان حاصر تلك الجزيرة سبعة اشهر وكان قد انزل عساكرهُ الى البر على جسور خشبية طافية على الماء بنوع حير به اعداءهُ ولم تمنعهُ مقاومة العرب العنيفة في الاسواق وفي البيوت استلمها قهراً وقتل من بقي من المسلمين الا من تنصر منهم · فعند وصول هذه الاخبار الى دار المملكة امتلأ الروم سروراً ولما توفي ملكهم رومانس الرابع الشاب من عبلة باسيليوس تزوجت امرأته طيوفانية نيقوفور وانيم على العساكر دمستقاً يوحنا زميقوس (شميشق) الذي قتل نيقوفور بعده وتزوج طيوفانية وهذان في مدة قيادتهما العساكر ثني عشرة سنة كانا دائماً منتصرين وكان تحت امرهما على ما نقل مورخو الاسلام مائتا الف منهم ثلثون الفاً بالدروع وكان امر الثغور وقتئذٍ لسيف الدولة بن حمدان ·

وفي حصار طرسوس وومبسوسطس (المصيصة) اظهر الروم اقداماً غريباً وبددوا وقتلوا واسروا نحو مائتي الف مسلم وسلمت طرسوس واخذت المصيصة عنوة (سنة ٩٦٥ — ٣٥٤) واحرق الروم اكثر طرسوس وجعلوا جوامعها اسطبلات لخيلهم مع انها هادنت وامر بنزع ابواب المدينتين ونقلها الى القسطنطينية ذكراً لذلك النصر واخذوا ايضاً بعض صلبان وحلي الكنائس وتقدموا من هنالك الى سورية ونزلا على انطاكية ورجع نيقوفور الى القسطنطينية بعد ان اوصى القواد بالصبر الى فصل الربيع قبل ضرب البلد

لكن بعض القواد تقدم في احدى الليالي المظلمة وصحبته نحو ثلاثمائة نفس الى الاسوار وتسلق هو ورجاله خفية وصعدوا بالسلالم وتملكوا قلعتين منها ثم تكاثر عليهم المسلمون فاستنجد بقومه فالتزمت عساكر الروم الى انجاده فصدموا المدينة وفتحوها عنوة وسفكوا بها دماء غزيرة ثم حضر

نحو مائة الف من سوريا وافريقية للافراج عنها فرأوا انها كانت قد اخذت فرجعوا . ثم قصد الروم حلب فخاف وهرب سيف الدولة بن حمدان ووجدوا في قصره خارج حلب ثلاثمائة بدرة من الدراهم ما عدا الذخائر واخذوا له الف واربعمائة بغل ومن السلاح ما لا يحصى وملك الروم الجواهر وحصروا المدينة وثلموا السور . وكان الروم قد عجزوا اولاً عن اخذ حلب وردوا الى قرب جبل جوشن . ثم حدث اختلاف بين عسكر المسلمين وبين الاهالي فانتهز الروم الفرصة وبغتوهم وفتكوا بهم وقتلوا كل بالغ اشده واسروا عشرة الاف شاب ولم يجدوا دواب كافية لنقل السلب وبعد عشرة ايام من نهب وسلب وسبي وارتكاب كبائر وقسوة تركوا البلد خراباً مخضباً بالدما وهكذا فتحوا نحو مائة مدينة اخرى من بلاد الشام ونحوها واحرقوا ثمانية عشر جامعاً من الكبار . وفتح يوحنا شميشق دمشق بالامان ولم يقدر على مقاومة الروم وقتئذٍ الا قلعة طرابلس وكانوا قد ركبوا على صيدا واخذوها وحاصروا طرابلس نحو اربعين يوماً فلم ينجحوا ثم قصدهم اتراك تنتكين فالتزموا الى رفعه

ثم تجاوز الشميشق الفرات وتملك سميساط واورفه ومارتينوبولس وآمد ونصيبين في حدود مملكة الروم بقرب دجلة وكان في نيته من تملك بغداد وخزائنها لولا ان دولة بني بويه كانت قد افقرتها واكلت خيراتها . ثم هرب الناس ووصلوا الى بغداد مستصرخين فثارت العامة وجرى في بغداد فتن كثيرة واستغاثوا الى بختيار فوعدهم الخروج الى الغزاة وارسل يطلب مالاً من المطيع ولم يكن له وقتئذٍ الا الخطبة فباع الخليفة قماشه فبلغ اربعين الف دينار فاداهُ الى بختيار (سنة ٩٧١ – ٣٦١) وكانوا قد تحضروا الى لقاء الروم وكان قد اتسع البيكار بعساكر الروم وشكوا من قلة الميرة فتركوا البلاد حتى ما بين النهرين وقفلوا غانمين ظافرين محملين بالاموال والسلب الذي لا يحصى وراح ثمن قماش الخليفة في هذه المعمعة سدى ولعبة حجى

وهذه الحرب وان لم تكن لاشت قوة المملكة الشرقية فانها اضعفتها جداً – وبعد رجوع الروم رجعت الامراء النازحون الى اماكنهم وصحبتهم الاهالي وطهروا المساجد ورفعوا منها الصور ونحوها وكان النساطرة واليعاقبة يفضلون ملك المسلمين على الروم وضعف الملكية وقتئذٍ فلم يكن لهم قدرة على المحاماة عن انفسهم وعن الملك فالتزموا بالخضوع ولم يسلم للروم مما تملكوهُ سوى انطاكية وقيليقية وجزيرة قبرس وكانت قوة العباسيين في انحطاط كلي وكان المطيع بالاسم امير المومنين فان كل شيء كان بيد بني بويه

هذا في المشرق اما في المغرب فقد تقدم تغلب الدولة المهدية على الاغلبية والادارسة في افريقية واستبدادهم بالولاية حتى انهم انسلخوا عن العرب انسلاخاً تاماً في الدنيا والدين فان المهدي كان

يذهب الى ان العالم موجود من الازل وانهُ قد نقلب الى صور مختلفة عديدة وانهُ لايوجد شي ثابت فيهِ والموجودات كلها تتغير ابدًا من حال الى حال ومن صورة الى صورة وان خير الحيوة ما صرفت بالتمتعات والنعيم فلا يقدر ان يوقف الانسان على رايهِ عن التلذذ والتمتع الا قوتهُ واستطاعتهُ. وهذا بعد ان لاشى الاغلبية اخذ فاس من الادارسة ولما راى ابنهُ المعز لدين الله عدم قدرتهِ على ضبط كل ولايات مملكتهِ رحل بعساكرهِ واموالهِ وخزائنهِ وعظام ابائهِ وتملك مصرًا (سنة ٩٧١ — ٣٦١) بدون مقاومة وكان معهُ الف وخمسمائة بعير حاملة اثقالهُ وبنى هناك القاهرة من المدن الكبرى. وكان انسانًا حليما محبوبًا من رعاياه وركب قواد عساكرهِ بامرهِ على الشام والقدس وجبل سينا وتملكوها وبقيت دولتهم المعروفة بالعلوية نحو مائتي سنة مالكة من القيروان الى سواحل الفرات وكان قبل ذلك قد استدعى يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي واستعملهُ على بلاد افريقية وهذا جعل عاصمتهُ تونس وتولى هو وذريتهُ مائة وسبع وسبعين سنة ومنهُ جاءت الدولة الزيرية او الزيروية. وجعل على بلاد صقليه علي بن الحسن الكلابي وعلى طرابلس الغرب عبدالله بن يخلف الكتامي واخذ معهُ محمد بن هاني الشاعر الاندلسي من الشعراء الاماجد وقد قتل غيلة عند وصولهم الى برقة ولا يعلم قاتلهُ وكان يغالي في مدح المعز نظير ما نراهُ في كل عصر وبين كل قوم من قولهِ في قصيدة

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار

وعرب المغرب كانوا من وقت الى اخر يتفقدون ايطاليا بغاراتهم فزحفوا في اوائل الجيل العاشر بعد ان قصدوا فراصينيت واخذوا ما وجدوهُ في بيامونت ونقدموا الى افريه واحرقوها وتجاوزوا جبال الالبه بطريق مار برنردوس وتملكوا مدينة سان موريزيوس وبعد ان نهبوها احرقوها وتركوها فاجتمع سكان لنكوريه وبرووتسا وبيامونت ولومباردبا جميعهم عليهم ونازلوهم قرب جبل ريكال المدعو الان موندوو وبعد قتال عنيد هزموهم ولاشوهم وقد تعجبوا غاية العجب عند ما علموا بعدهُ ان عدد عدوهم لم يكن اكثر من ثلاثمائة نفر وبقي العرب في فراصينيت خمس عشرة سنة بسبب الاختلاف الكائن وقتئذٍ بين الطليان

وجمع عرب صقليه قواتهم من كلابريه وفوليه وكريليان وساروا بحرًا وحلوا في شرشي ونهبوا تراشين واحرقوها ونقدموا نحو رومه ولكنهم لم يصلوا للعواصف ولنهوض يوحنا التاسع ضدهم مع كل انهما كهِ وقتئذٍ على ما قيل بثيودورة وهكذا انقرض اكثر اولئك الغزاة ولم يرجع منهم سالمًا الا قليل

اما الدولة الاموية في اسبانيا فكانت قد اخذت تنمو وتعتز من عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله من حين نهوضهِ على تخت الاندلس (سنة ٣٠١) الى اخر عمره (سنة ٣٥٠) فانهُ شيد اركان تلك الدولة وادى لهُ الطاعة جميع اعدائهِ وعاهدتهُ الملوك من جميع الاطراف وارسلت لهُ الهدايا

وزين كرسي ملكهِ قرطبة بقصر الزهراء ثم خلفهُ ولده الحكم الى (سنة ٣٦٦) وكانت دولتهُ ودولة الملك المنصور بعده في عهد المويد لدين الله الاموي من اعز الدول وامتدت سلطتها وسطوتها الى بر العداوة وذعنت لهم ملوك تلك الاطراف وكان الناصر اول من تلقب بامير المومنين وصار للمسلمين ثلاث خلافات عباسية وعلوية واموية في وقت واحد وكل منها كانت تجد استلاب املاك الثانية جائزًا بل واجبًا في بعض الظروف ودامت عظمة الدولة الاموية الى راس المائة الرابعة

ولما خلع المطيع (سنة ٣٦٣) اقيم موضعهُ ولده الطائع وهو الرابع والعشرون من العباسيين وهذا لف ببساط بامر البويهية وجره الديلم والترك الى خارج دار الخلافة حتى قصر بهاء الدولة بن بويه فكتب خط تنزلهُ عن الخلافة واخذت اموالهُ وسجن وبويع القادر بالله (سنة ٩٩١ — ٣٨١)

اما القادر فملك موقرًا واحبهُ الاتراك انفسهم وتوفي على فراشهِ تاركًا اسمًا صالحًا ثم قام القائم بامر الله وهذا لما راى ان سلاطين بني بويه كانوا يريدون خرابهُ ولا يقدرون على حمايتهِ استقدم طغريل بك السلجوقي رجلاً قويًا في الحروب فحضر طغريل وقهر بني بويه واخذ ما كانوا قد تملكوه من نحو مئة وعشرين سنة وبعد ان حكم القائم مدة طويلة توفي على فراشهِ موقرًا محبوبًا (سنة ١٠٧٤ — ٤٦٧)

وكان قد ظهر عبد الله بن ياسين الكزولي (سنة ٤٤٨) في المغرب واتخذ لنفسهِ مذهبًا وبشر بالاسلام على ما كان يرتاي في افريقية ونشر اتباعهُ اراء معلمهم بالسيف وظفروا تحت بنود قائدهم ابي بكر عمر اللمتوني بحكام فاس وسجلماسه وسلا وطنجه والجزيرة الخضراء. ثم توفي ابو بكر وتولى امرهم يوسف بن تاشفين وهو من بني عم ابي بكر واقاموا مدينة مرعش (سنة ١٠٧٠ — ٤٦٣) واستوطن بها يوسف المذكور ودعي امير المسلمين ودعيت دولتهم دولة المرابطين والملثمين لانهم كانوا يتلثمون على موجب عوائد العرب

ثم انقسم ملك اسيا الداخلة الى قسمين كبيرين ملك غزنة وخوارزم فجمع (سنة ٩٧٦—٣٦٦) نصر الدين محمود بن سبكتكين سلطان غزنة عسكرًا عديدًا وغزا بلاد الهند واخذ بست وقصدار وكانت قد اوشكت تسقط سطوة الدولة السامانية وقتئذٍ وقوة بني بويه. ثم تقوت السلاجقة واشتهرت افعال مقدامهم طغريل بك واخذ لنفسهِ رتبة امير الامراء التي كانت للبويهية قبلهُ واعزه القائم العباسي وتبادلا اختنًا وبنتًا زواجًا ثم خلف طغريل بك ابن اخيهِ الب ارسلان فاتح بلاد الروم في اسيا الصغرى وانشعبت السلطنة السلجوقية من ذلك اليوم الى اربع شعب دولة ايران والشام وكانتا في اعقاب الب ارسلان ودولة كرمان وكانت في اعقاب قاروت بن داود بن سلجوق اخي الب ارسلان والرابعة دولة روم وكانت في اعقاب قطلومش بن ارسلان بن سلجوق من بني اعمام الب ارسلان وفي ملك

شاه بن الب ارسلان نظرت تلك الدولة اعظم سلاطينها واستولى على اكثر ايران وخوارزم والشام وصارت دمشق الى اخيهِ تتش (سنة ١٠٧٨ — ٤٧١) وتنازلت الى بنيهِ بعدهُ حتى تغلب على الملك احد ماليكهِ اسمهُ طغتكين ثم الى مملوك مملوكه

وكان في تلك المدة حروب واختلاف وشقاق بين الاحزاب وظهرت اشياع كثيرة وقل الايمان وفسد الدم العربي وخمدت الحماسة الدينية ذكروا ان رجلاً مسلماً في السنة الرابعة والعشرين بعد الالف للمسيح(سنة ٤١٥ هجرية) جرد خنجراً كان معهُ وهو في مكة وضرب بهِ على مشهد الحجاج نفس الكعبة ثلاث مرات صارخاً حتام يكون هذا الحجر ومحمد وعلي موضوع عبادتنا فلننهِ هذه العبادة الوثنية الفظيعة ونهدم هذا البيت وندفن الاسلام في خرابهِ فلم يكمل كلامهُ هذا حتى هبرتهُ السيوف اربًا اربًا

وفي عهد تتش المذكور (سنة ١٠٩٥—٤٨٨) صارت ولاية القدس الى ارتق بن اكسك الذي في اعقابهِ كانت ولاية ماردين وما اليها مدة طويلة وامتدت الحروب والفتن بين عمال الاطراف في بعضهم وبينهم وبين الخلافة العباسية مثل بني حمدان في الموصل وحلب وابن شاهين في البطيحة والحنابلة في بغداد وابن واصل والمرداسية والمروانية وقابوس وبني اسد وبني عقيل والبساسيري وبني قريش بن عقيل وسليمان السلجوقي وغير ذلك من الارتباكات الدائمة في تلك الممالك المتمزقة باعصار الغيرة والحسد وحب العظمة ولا سيما بعد وفاة ملك شاه المقدم ذكره فقد اشتهرت حروب خلفائهِ مثل حروب برقياق ومحمود ومحمد وسنجر اولادهِ وتتش اخيهِ وغيرهم من بعدهم ودام ذلك الى انقراض دولتهم مدة نحو مائة وستين سنة وكان ذلك الخلاف بينهم سببًا لتمكين محمد بن انوشتكين التركي احد ماليكهم من قيام ملك تام في خوارزم واستقل بهِ (سنة ١٠٩٧—٤٩١) وكان محمد المذكور رجلاً خبيرًا حكيمًا داهية في السياسة محبًا للحق والسلام وكثير من مورخي الافرنج من يخلط هذه الدولة التي تعاظمت بعد ذلك واستولى رجالها على ملك السلجوقية في ايران وبين السلجوقية انفسهم حتى توهموها واحدة والحال هما دولتان مختلفتان والخوارزمية ان هي الا من ماليك السلاجقة

وعلى هذا النمط كان سلاطين غزنة يملكون قسمًا واسعًا من هندستان. وسلاطين خوارزم العجم حتى نهر جيحون. والسلجوقية ببغداد والشام ونحوها. والفاطمية القاهرة ومن حدود الفرات الى القيروان حتى خطب لهم ببغداد مرةً وكانت الزيروية في تونس والملثمون في مراكش والاموية في الاندلس وشيعة الدولة الكلابية في صقلية وسلاجقة روم في قونية واقصرا ونحوها ما عدا الدول الثواني والامراء المقطعين في ماردين وديار بكر والموصل والبطيحة وسنجار وحلب ونواحيها وكانوا يتطاردون ويتزاحمون ويتقاتلون على الدوام حتى كرهت الارض وجودها لاجلهم وشكت الاهالي من الظلم وضجت

النصارى حتى الفرنج من تعرض الظالمين لهم في اجراء مقتضيات دينهم في بيت المقدس وكثرت الاهانات والاضطهادات للاهلين وللزوار الغرباء وقامت رسل الانتقام تنادي بالجهاد في كل مكان مثل بطرس السائح وغيره فجمعت اوربا وركبت على المشرق بطريق القسطنطينية واسيا الصغرى في عهد الامبراطور الكسيوس وحاربوا فلسطين وظفروا بالسلاجقة والعساكر المصرية واستولوا على اورشليم وغيرها واسسوا لهم ملكًا هناك دام نحو تسعين سنة وجعلوا تلك الاطراف مركزًا لغزواتهم وقصدتهم متطوعون جدد من اوربا ودام ذلك مدة جيلين واكثر حتى بعد اخذ اورشليم منهم ومات في تلك الحروب مئات من الالوف كل ذلك والدولة العباسية مالكة بالاسم حتى على بغداد وكانوا يوقرونهم كاكبر الائمة ومعلمي الدين

اما حكم الاموية فاخذ يضعف من اول القرن الخامس لوقوع الشقاق فيهم واقتسام المملكة بين الاحزاب فتقوت عليهم جيرانهم اهل سبانيا واخذوا منهم عدة ولايات ومدن ثم دعوا اليهم يوسف بن تاشفين المقدم ذكره فذهب وحارب وانتصر على امراء النصارى (سنة ١٠٩٢–٤٨٥) ومنع تعديهم وجمع جميع ولايات العرب الى ملكه واسر المعتمد بن محمد حاكم اشبيلية واخذه الى المغرب وبقي هناك الى ان مات ومنه بدأت دولة المرابطين في الاندلس ولبثوا مدة طويلة اعداء النصارى الالداء وعادت هذه الاختلافات علة لخراب ملك العرب في كل جهة وبعد الملثمين جاء الموحدون اتباع عبد المومن وتغلبوا على الملثمين اما اسلام صقلية فانهزموا من سيوف العساكر النورمانية

وبعد القائم والمقتدي نهض المستظهر وامتازت خلافته الطويلة من (سنة ٤٨٧ الى ٥١٢) بحروب الصليب وانتشاء الدولة الخوارزمية والفتنة السلجوقية · ثم قام المسترشد الى (سنة ٥٢٩) وقتل في حربه مع السلطان مسعود السلجوقي · ثم نهض الراشد فاقام سنة وخلع وفي عهدها تقوت الدولة الاتابكية في الموصل

اما في خلافة المقتفي فكانت ركبة الافرنج الثانية وانقراض الدولة الغزنوية وتقوي الدولة الغورية عليها وظهرت دولة ثانية منشعبة عن الاتابكية في الموصل لنور الدين محمود بن عماد الدين ولي نعمة صلاح الدين الايوبي · والمقتفي اول من استبد بالعراق منفردًا عن كل سلطان وحكم على عسكره وضبط امور مملكته · اما المستنجد من (سنة ٥٥٥ الى ٥٦٦) فاماتوه اختناقًا في الحمام وفي عهده قتل شاور وزير الدولة الفاطمية واستوزر لها اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الايوبي

وفي خلافة المستضيء ثبتت قدم صلاح الدين في المملكة الفاطمية وعمل الفتوحات العظيمة في الشام ونحوها وقاتل الافرنج واخذ منهم حصونًا وانقرضت الدولة العلوية وتوفي نور الدين محمود

صاحب حلب الذي له مع الافرنج وقائع عظيمة وضعفت بذلك مملكتهم واسترد المسلمون القدس من الافرنج . اما الناصر فطالت خلافتهُ الى (سنة ٦٢٢) وكانت في عهده ركبة الافرنج الثالثة والرابعة والخامسة فاخذوا القسطنطينية من الروم وظهور التتار وتغلبهم على البلاد وانقراض الدولة الخوارزمية . وطال حكم الناصر وعمرهُ وجمع في زمانهِ الكتب واتقن مجازاة العلماء والعلم ثم كان الظاهر سنة واحدة وكان عادلاً محبوبًا وانفق في العمران مالاً كثيرًا واطمانت الرعية في عهده ثم كان ولده المستنصر الى (سنة ٦٤٠) وفاق على مناقب ابيهِ وشيد المدرسة المعروفة بالمستنصرية الفريدة واقام لها من الاوقاف وجعل لها من المعلمين والفقهاء والروابط ما يفتخر بهِ في هذه الازمنة ايضًا

وفي مدة كل هؤلاء الخلفاء كانت الدولة العباسية آخذة بالانحطاط وامراء الاطراف بالظلم وعدم الالتفات الى ان قضى الله بانقراضها في عهد المستعصم اخرهم

وكان المستعصم هذا ابن المستنصر ممقوتًا وهو السابع والثلثون من العباسيين ولم يتبع طريق ابيهِ وجده من قبلهِ فاخذت قوتهُ بالانحطاط شيئًا فشيئًا . وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة واهل السنة وبين الحنابلة وسائر اهل المذاهب وبين العيارين والدعار والمفسدين فلا تتجدد فتنة بين الملوك واهل الدول الا وكان بين هؤلاء فتن اعظم شرورًا وضاقت لذلك الاحوال على المستعصم فاسقط اهل الجند وفرض ارزاق الباقين على البياعات والاسواق وفي المعايش فاضطربت الناس وضاقت الاموال وعظم الهرج في دار الخلافة ووقع الصغن بين اهل الشيعة وكان مسكنهم بالكرخ في الجانب الغربي وكان الوزير ابن العلقمي منهم فسطوا باهل السنة فانفذ المعتصم ابنهُ ابا بكر وركن الدين الدوادار الاول وامر بنهب بيوت الكرخيين ولم يراع ذمة الوزير فاسفهُ ذلك وتربص بالدوله واسقط معظم الجند يموه بانهُ يدافع التتر بما يتوفر من ارزاقهم كل ذلك والعلوم نامية في مدينة السلام وكان في ذلك العصر نصر الدين الطوسي الفلكي الجغرافي الشهير فالف كتابًا في علم الهيئة من تحف الزمان وقدمهُ للوزير ابن الحاجب استاذ المستعصم وهذا عندما نظر جواهر كلماتهِ واطلع على كمال فن مولفهِ فكر في نفسهِ ان اشتهار ذلك الكتاب لا يوافق مصلحتهُ فامر برميهِ في دجلة وسخر بنصر الدين فذهب نصر الدين منفعلاً كثيرًا وعاد ينتظر فرصة للانتقام وداخل مويد الدين بن العلقمي المذكور وصاحبهُ واتفقا على ان يدعوا هولاكو سلطان التتر واعظم مملوك زمانهِ وكان التتر تحت رئاسة جنكيز خان قد فتحوا اكثر ممالك الاسلام وافنوا تلك الدول المتنازعة الملك من حدود الصين الى العراق الى الشام وبلاد الروم . وكان هولاكو المذكور يرتقب الفرصة لاخذ بغداد وضم كل شيء اليهِ وكان قد ركب على حصون الاسماعيلية وفتحها

ولاشى تلك القوة القديمة التي لعبت دورًا مخيفًا في تلك الازمنة ثم جاء هولاكو كتاب من ابن الصلاية صاحب اربل يقدم لهُ الطاعة وفيهِ وصية من ابن العلقمي يستحث هولاكو بقصد بغداد ويهون عليهِ امرها فاستدعى هولاكو حينئذٍ امراء التتار فاتاه باجو مقدم عساكر بلاد الروم وكانوا قد ملكوها—وركب على بغداد (سنة ١٢٥٧—٦٥٥) بعذر انهُ كان قد استمد النجدة من المستعصم على الاسماعيلية فلم يجبهُ ولما بلغ الخليفة ذلك اراد التجهيز وملاقاة خصمهِ فاقنعهُ ابن العلقمي وقال بعضهم زينت لهُ نذالتهُ ان لا يفعل ذلك معتقدًا بان النساء والاولاد فقط يكفون لاهلاك عساكر التتار اذا تجاسروا على الدخول الى بغداد برشقهم بالصخور من شبابيك البيوت ولما وصل هولاكو الى ظاهر بغداد خاف المستعصم وارسل فاتى بابن العلقمي واستشاره بالامر فقال ابن العلقمي لاوجه الا ارضاء هذا الملك الجبار ببذل الاموال والهدايا والتحف لهُ ولخواصهِ. وعندما اخذوا في تجهيز ما يسيرونهُ من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال قال الدوادار الصغير واصحابهُ ان الوزير انما يريد شان نفسهِ مع [illegible] استاروهم [illegible] وم تسليمها اليهم فلا نمكنهُ من ذلك فابطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة واقتصر على النذر فغضب هولاكو ولم يقبلها وارجع الرسل محملين من الشتائم وقال لا بد من مجيء المستعصر بنفسهِ او ارسالهِ الوزير او الدوادار او سليمان شاه فامر الخليفة بالمضي فلم يركنوا فسير غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين فلم يجديا عليهِ فجمع حينئذٍ المستنصر نحو الفًا وار[illegible]هم صحبة الدوادار ولقي بعض المغول اميرًا من امراء الخليفة يقال لهُ ايبك الحلبي فحملوهُ الى هولاكو وامنهُ ان تكلم بالصدق وسيرهُ امام العسكر ليهديهم. وكتب ايبك كتابًا الى بعض اصحابهِ يقول لهم ارحموا ا[illegible] حكم واطلبوا الامان اذ لا طاقة لكم بهذه الجيوش الكثيفة فاجابوهُ بكتاب يقولون فيهِ «من يكون هولاكو وما قدرتهُ ببيت عباس الذين ملكهم من الله ولا يفلح من يعاديهم ولو اراد هولاكو الصلح لما داس ارض الخليفة وافسد فيها والان ان كان يختار المصالحة فليعد الى همذان ونحن نتوسل بالدوادار ليخضع لامير المومنين متخشعًا في هذا الامر لعلهُ يعفو عنهُ» فعرض الجواب ايبك على هولاكو فضحك واستدل على غباوتهم. ثم بلغ الدوادار بان المغول توجهوا الى الانبار فسار اليهم ولقي عسكر نوين فانكشف التتار اولاً ثم تكاثروا فانهزم المسلمون واعترضتهم دون بغداد اوحال مياه من بثوق انفتشت من دجلة فتبعهم التتار وقتلوا منهم كثيرًا ونجا الدوادار بنفر قليل ودخل بغداد في انصاف محرم (سنة ٦٥٦) ثم قدمت عساكر اخرى للخليفة من الجنوب وتقدم هولاكو بعسكره من الشمال والقى الحصار على المدينة وبنوا في الجانب الشرقي سيبا اي سورًا عاليًا وهكذا في الجانب الغربي وحفروا خندقًا عظيمًا داخل السيبا ونصبوا المجنيقات من جميع الجوانب ورتبوا الطرادات وآلات النفط وكان

بدوء القتال ٢٢ محرم فلما راى الخليفة العجز في نفسهِ والخذلان في اصحابهِ ارسل صاحب ديوانهِ وابن درنوس الى هولاكو يطلبون الامان فاجاب هولاكو ولمَ لم ياتِ الوزير او الدوادار او سليمانُ شاه . فارسل المستعصم ابن العلقمي فاجاب هولاكو كان يجب ان تاتي لما طلبتك وانا في همذان اما الان فلا ارفع الحصار وقيل انهُ امنهُ على نفسهِ وارسلهُ الى المستعصم يقول لهُ انهُ ان سلم ابقاه في خلافتهِ كما فعل بملك بلاد الروم السلجوقي . فخرج المستعصم ومعهُ الفقهاء والاعيان فقبض عليهِ لوقتهِ وقتل جميع من كان معهُ ثم قتل المستعصم شدخًا بالعمد ووطئًا بالاقدام . اما حسب الرواية الاولى فانهُ رفض طلب المستعصم الامان مع ابن العلقمي مع كل ما حصل على عساكره من الجوع وقد اكتسحوا خيرات الفرات كلها ولم يبق عندهم لا قمح ولا شعير . ولو لم يكن قضى الله بانقراض العباسيين وقتئذٍ لكان قد رجع هولاكو مخذولاً من حيث اتى . فاطلع بعض الخائنين هولاكو على وجود مخازن ذخائر وافرة في اليعقوبية قرب بغداد فارسل هولاكو في الحال واتى بها فكفت عساكره شهرًا . واشتد القتال على بغداد وامر هولاكو بان يرقم على السهام بالعربية ان من ترك القتال من العلويين والامراء ونحوهم فلهُ الامان على نفسهِ وحرمهِ ومالهِ وكانوا يرشقون تلك السهام الى المدينة وبقي الامر كذلك الى ٢٦ محرم (سنة ٦٥٦) المقابل الى ١٢ شباط (سنة ١٢٥٨) ثم ملك المغول الاسوار وكان الابتداء من البرج العجمي وحافظ المغول على الشاطي ليل نهار لئلا ينحدر فيهِ احد . وكان الوزير العلقمي قد نهض باولاده واصحابهِ وذهب الى هولاكو فقبلهُ بكل اكرام واعطاه الامان لهُ ولاولاده وامر بحبس الباقين ثم امر هولاكو بالدوادار وسليمان شاه الى حضرتهِ تاركًا الخليفة بالخيار فذهب سليمان شاه والدوادار ومعهما جماعة من الاكابر . ثم عاد الدوادار بحجة ان يمنع المقاتلين الكامنين بالدروب والازقة لئلا يقتلوا احدًا من التتر فقتل في رجوعهِ وارسل اهل بغداد شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني لياخذا لهم الامان

ولما راى الخليفة حلول القدر وانهُ لابد من الذهاب استاذن هولاكو الحضور بين يديهِ فاذن لهُ رابع صفر فخرج ومعهُ اولادهُ واهلهُ لابسًا بردة النبي وحاملاً القضيب وامامهُ مئتا جارية حاملات طسوتًا من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة وفي عنق كل واحدة طوق من اللولوء العظيم الثمن خزائن كان قد جمعها سلفاوهُ في القرون الماضية وابقاها لهُ البرابرة فامر هولاكو بان ينزلوه بباب كلواد وبان تفرق تلك الجواهر في قواده وينزعوا عن المستعصم البردة والقضيب ويحرقوهما ويرموا رمادهما في دجلة ولما كان المساء امر باحضار الخليفة اليهِ وبان تفرد جميع النساء اللواتي يباشرهن هو وبنوه ففعل فكنَّ سبعمائة امراة فاخرجهن ومعهن ثلاثمائة خصي وقيل الف مملوك واخذ هولاكو بالتبصر تلك الليلة فيما يجب عملهُ مع المستعصم واخيرًا قضي ان يوضع في كيس ويجر في اسواق البلد

ثم يرمى في دجلة قال ابو الفرج صاحب تاريخ الدول « وبقي النهب يعمل سبعة ايام ثم رفعوا السيف وبطل الدبي وفي رابع عشر صفر رحل هولاكو من بغداد وفي اول مرحلة قتل الخليفة المستعصم وابنهُ الاوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتلوا ابنهُ الكبير ومعه جماعة في الخواص على باب كلواذ وفوض عمارة بغداد الى صاحب الايوان والوزير ابن درنوس وارسل بوقاتيمور الى الحلة ليمتحن اهلها هل هم على الطاعة فتوجه نحوها ورحل عنها الى واسط وقتل بها خلقًا كثيرًا مدة اسبوع ثم عاد الى هولاكو انتهى »

وعلى هذا النحو انقرضت الخلافة العباسية بعد خمسمائة وست وعشرين سنة اسلامية عبارة عن خمسماية وتسع سنين شمسية اي من (سنة ٧٤٩– ١٣٢ الى ١٢٥٨ –٦٥٦)

ثم قبض على اولاد المستعصم وكل من وجدوهُ من بني العباس واخذوا مكتوفين الى بعض الساحات فداستهم الخيل وبعد سبعة ايام النهب بدأ القتل والحريق مدة اربعين يومًا وقتل نحو مليون من الناس وقال ابن خلدون مليون وستمائة الف . وكل ذلك فيهِ مبالغات . واحرقوا المكاتب والمراصد واستولوا على قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغهُ الوصف والقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعًا في دجلة وكانت شيئًا لا يعبر عنهُ مقابلة في زعمهم بما فعلهُ المسلمون لاول الفتح في كتب الفرس وعلومهم

وقيل ان هولاكو امر قبل احراق المرصد الفلكي الذي اقامهُ المامون بان يبقوا كتبهُ والاتهُ وجعلها في مراغة في المرصد الذي اقامهُ هناك وكان فيهِ نصر الدين الطوسي المذكور حكيم عظيم الشان في جميع فنون الحكمة واجتمع اليهِ في الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين مثل محيي الدين المغربي وكان تحت حكمهِ جميع الاوقاف في جميع البلاد الخاضعة للمغول ولهُ تصانيف كثيرة منطقيات والهيات وطبيعيات واوقليدس ومجسطي وكتاب اخلاق فارسي في غاية ما يكون من الحسن جمع فيهِ جميع نصوص افلاطون وارسطو في الحكمة العملية وكان يقوي اراء المتقدمين ويحل شكوك المتاخرين والمواخذات التي تداوروها في مصنفاتهم

قالوا وكانت بغداد تشتمل على ثلاثين الفًا من القصور المختارة وثمانية جسور رخامية على دجلة واثني عشر الف طاحون على جانبيهِ وثمانئة واربعين مسجدًا وثلاثمائة جامع وثمانئة مدرسة واثني عشر الف مكتب وثمانية الاف حمام ونيف . وكان يمتاز بين كل ذلك قصر الخلافة المشتمل على ما لا يحصى من كل غريب وثمين لا سيما بقطعة من الحجر الاسود جيء بهِ من الكعبة بامر المُطيع (سنة ٩٥١–٣٤٣) وكانت في عتبة الباب الاعظم العليا وبقطعة بساط من مكة معلقة عليهِ . وكانت بغداد قد اضحت بما انها كرسي الخلافة مركز التجارة بين المغرب والمشرق فكان فيها اكثر من الف خان للقوافل والف واربعمائة سوق ونيف للاقمشة وكانت مجموعة بها خيرات اسيا وافريقية واوربا وكان مدار

ما بها من الامكنة خارجًا مسافة يومين ومدار سورها اربعة وعشرين ميلاً وعرضهُ كافيًا لركوب عشرة فوارس عليهِ جنبًا لجنب . وكان على مداره ثلاثمائة وعشرون حصنًا وكان لها عشرة ابواب كبار لكلّ باب قلعة واثنان وعشرون بابًا صغارًا دون قلاع . ولم يوجد مدينة كبغداد لا في العلوم ولا الصّنائع والتجارة ونحوها في مدة اجيالها الخمسة فلا الكوفة ولا المدينة ولا الشام قاعدة الخلافة الاموية ولا القاهرة تحت العلويين ولا سمرقند ولا دلهي ولا قرطبة ولا القسطنطينية مع عظم بنيانها كانت هكذا نامية وغنية وآهلة وذات تجارة عامة . وكل هذه الخيرات فنيت في ايام قليلة لارضاء رجل واحد متوحش نظير هولاكو وعلى قول بعض مورخي المسلمين انهُ سفك بها دم مليونين من العالم . ومن الخلفاء السبعة والخمسين الشرعيين اثنان واربعون ماتوا موتة ردية خمسة بالسم وسبعة اغتيالاً واثنا عشر قتلاً . وتوجه هولاكو بعد هذا الانتصار وترتيب التحاني والولاة ببغداد الى سواحل البحر المتوسط فارجف تلك القوات وبعد ان اخذ حلب ودمشق تقدم الى الارض المقدسة فلقيه الملك المظفر سيف الدين قطز سلطان ماليك مصر عند عين جليات وظفر بهِ . واخذ خليفتهُ الملك الظاهر ابو الفتح بيبرس سورية من التتر بالسيف وكان وهولاء السلاطين من ماليك الدولة الايوبية التي استقرت للملك العادل اخي صلاح الدين الايوبي ولذريتهِ من بعده نحو خمسين سنة وهم المعروفون بالماليك البحرية وكانوا قد استبدوا بالاحكام يولون ويخلعون من ارادوا واخيرًا اقاموا اربعة قضاة لكل من المذاهب الاسلامية قاضيًا باسم قاضي القضاة وفوضوا اليهِ امور الاحكام وانتخاب السلطان على موجب اختيارهم وحكم هولاء الماليك بمصر مائتين وخمسين سنة بكل جور وعسف

وكان في وقت اخذ هولاكو بغداد الملك المظفر المذكور . ثم بعد ذلك بخمس سنين في عهد الملك الظاهر بيبرس التجأ المستنصر ابو القاسم احمد بن الظاهر بالله من العباسيين لابسًا ثياب الحزن والذل فقبلهُ واكرمهُ كامير المومنين وعين لهُ راتبًا وبقي هو ومن تخلفهُ عائشين في خير الماليك البحرية والشركسية مدة نحو مائتين وتسع وثمانين سنة وعددهم ثمانية عشر واخرهم المتوكل على الله محمد الذي قبض عليهِ السلطان سليم العثماني واخذهُ معهُ ثم رجع وتوفي (سنة ١٦٢١ — ٩٤٥) بمصر وسياتي ذلك باكثر تفصيل في الجزء الثالث

هذا اخر ما اردنا ذكرهُ في هذا الجزء راجين ممن قرأ ذلك سبل ذيل المعذرة
على ما وقع فيهِ من السهو والخطا فانهُ وحدهُ البري من الغلط
والمسئول عفوًا وتوفيقًا

م

جدول خطا وملاحظات الجزء الثاني

اذا اشكل عليك لفظة او معنى فانظر الى هذا الجدول فان لم تتم الفائدة فلا ذنب علينا

وجه	سطر	خطا	صواب
١٨٢	٠٨	الاندلس	تونس والاندلس
١٨٣	٢٧	(٥١١-١١١٧)	٥٧٠-١١٧٤
١٨٤	٠٩	٣٥٠	٣٩٠
١٨٤	١٣	١٢٦٩	١٢٩٦
١٨٤	٢٤	ارضها	ارضهم
١٨٦	٠٩	المصادقة	المصامدة
١٨٩	٢١	بن	ابن
١٩٠	٢١	بن	ابن
٢٠١	٠٨	حرز	خزر
٢٠١	٣٠	اوربة	(اروبة)
٢٠٣	٢٣	الكائنة	فانها تقوم
٢١٤	١٠	ابوابو	ابو
٢١٦	٠٦	(٤٢٣)	(٣٢٣)
٢١٦	١٦	الثوري	(البوري)
٢٢٤	٠١	الاعياض	الاعياص
٢٢٤	١٥	مذهبه	مذاهبه
٢٢٥	٢١	يعلى	(ابن يعلى)
٢٢٧	٢٢	فارس	فاس
٢٢٩	١٢	عمر	(محمد بن عمر
٢٣٠	١٠	بني	بنو
٢٣١	٠٠	في دولة العبيديين العلوية	في دول المغرب من بعد العرب اجمالاً
٢٣١	٣٦	حدور	حدود
٢٣٢	٠٦	فانها	التي
٢٣٧	٠٥	بريدًا	براد به فرسخًا كبيرًا
٢٤١	٠٣	(دارية)	درعية
٢٤١	٠٥	دارية	درعية
٢٤٤	٠٣	الحسن	الحسين
٢٤٧	٢٢	هشام	هاشم
٢٤٧	٢٣	هشام	هاشم
٢٥٥	٠٥	في	من
٢٥٦	١٨	وقواميس	ونواميس
٢٥٦	٢٥	للاكراد	للاتراك
٢٥٩	٠٩	يزيد	مزيد
٢٥٩	٣٠	(٤٣١)	(٤١٥) انظر ٥٤٢
٢٦٢	٢٢	المعتصم	المستعصم
٢٦٧	٠٥	وسالوس	وسيواس
٢٦٧	٠٥	في ولاية الخ	دولة الديلم
٢٦٩	٠٥	في ولاية الخ	في الاسماعيلية الخ
٢٦٩	٠٨	سقاور	(سقاوه)
٢٦٩	١٥	انز	اتز
٢٦٩	١٨	محمد	محمود
٢٧٠	٠٩	الملون	الموت
٢٧٠	١٥	ابو الغازي	ايلغازي
٢٧٢	١٥	مصيات	مصياف
٢٨١	٢٧	مسنبدي	مستبد
٢٨٣	٠٤	بالاموال	وظفر بالاموال
٢٨٤	٠٦	عنده جبايات	منه جنايات
٢٨٥	٠٣	وكاتبة	وكاتبة

وجه	سطر	خطا	صواب
٣٨٩	١٩	نائبًا هو	نائبًا
٣٩٣	١٦	مات فخر	مات مؤيد
٣٩٦	١٩	عشر سبنهم	عشرينهم
٣٩٧	١٥	وبلادصاغون	وبلاصاغون
٤٠٣	١٦	وجهة	وجهه
٤٠٣	٤٣	الفلك	الفنك
٤٠٥	٣٢	وفخافة	وفخامة
٤٠٦	٢٢	ربيع	ربيع
٤١٢	٢٧	واستظر	واستظهر
٤١٤	٠٨	باخرجها	باخراجها
٤١٦	٢١	بن	ابن
٤١٩	٠٨	آلى	آل
٤٢٧	٠٦	نظرًا	منظرا
٤٢٧	٠٤	كل الاشي	كل شي الا
٤٢٩	١٠	تلف	تلتف
١٤٧	١٧	(٤٧٤)	(٤١٤)
٤٥٨	٣٥	خركاوانة	خركاواته
٤٦١	٠٧	(٤٣٣)	(٤٤٣)
٤٦١	٣٢	اثنتين	اثنتان
٤٦٣	١٣	وقور	وقرر
٤٦٤	٠٧	قرواش	قريش
٤٦٤	٠٨	قبل	وكانت لبدران قبل
٤٧٦	٠٣	سبق مثل ذلك في خبراي طاهر القرمطي واحد الخلفاء العباسيين ولعة واحد	
٤٧٦	٣٠	سبق مثلة عن السلطان محمود الغزنوي ولعلة نفس الشي	
٤٧٦	٢٧	عزيز	اطسز
٤٧٧	٠٥	اخيه	اخته
٤٧٧	١—١٤	يوجد بعض فروقات تاريخية	
		لا عبرة بها	
٣٩٤	١٣	سمات	بسمات
٣٩٥	٠٨	قد	زائدة
٣٩٩	٠٧	والاترك	والاتراك
٤٠٠	٣٦	المعتلي	المستعلي
٤٠٨	٠٧	شيئًا	شيءٌ
٤١١	١٥	لقتل كربوغا اقسنقر . صوابه وقتله اقسنقر . واقسنقر هذا ليس هو قسيم الدولة والد عماد الدين زنكي	
٤١٧	١٤	مقن	(معن)
٤١٨	٠٧	مودود	مودودًا
٤١٩	١٨	رمات	ومات
٤٢١	٣٢	ربيس	دبيس
٤٣٤	٠٣	رحلت	كتبت
٤٣٤	١٧	محمد	محمود
٤٣٥	٢٢	اخا	وعم
٤٣٦	٠٤	اخوه	وعمه
٤٤٣	٠١	بجال	بجال
٤٤٦	٢٢	ولكن ان	ولكن
٤٤٧	١١	بموجبه	فانه بموجبه
٤٤٨	١٣	قومة	قولة
٤٤٩	٠٧	انركيوس	انريكوس
٤٤٩	١٣	تلك	بتلك
٤٥٠	١٣	الذم	الدم
٤٥١	١١	اودسه	اديسة
٤٥٣	٢٤	بانه يقم	بانه لم يقم
٤٥٣	٢٧	الكره	الكرة
٤٥٩	٣٦	الاسفهسلاو	الاسفهسلار
٤٦٦	١٧	ابنه	اخيه

وجه	سطر	خطا	صواب
٤٧	٩	ابن عمه	ابن اخيه
٤٧	٢٣	محمود	محمد
٤٩	١٣	ليثبت	ليشبث
٤٩	٣	الدعى	الدخيل
٤٩	١٨	جمعتها	جمعتها
٥٠	١٥	السترية	استرية
٥١	٤	والبرقة	والرقة
٥١	٣١	فرواش	قراقوش
٥١٧	١٥	فات	فاق
٥١٩	٢٣	صقلية	طفيلة
٥٢٣	٢٠	الزيبرويه	الزبروية
٥٣٤	٣	طليطلة الاوساط	طليطلة بالاوساط
٥٣٦	٥	واللخميين	اللخميين
٥٣٧	٩	خمسة	خمس
٥٣٨	٧	(٣٥٠)	(٣٥٥)
٥٣٨	٢٣	ونزلا	ونزلوا
٥٤٣	١٦	(٥٨٧)	(٤٨٧)
٥٤٤	٢٥	مملوك	ملوك
٥٤٨	٩	قتلاً	قتلاً وقبض عليه
٥٤٨	١٣	وهولاء	هولاء
٥٤٨	١٥	باسم	واخر باسم

وقد اسقطنا اصلاح بعض هفوات خفيفة اعرابية وغيرها لعدم وجود الالتباس